٤٥ د.ق

سلسلة
إحياء التراث الإسلامي
(٢٣)
قدمنا العمل بدعم خيري

التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية

تأليف

العلامة عبد العزيز بن ناصر الرشيد ت ١٤٠٨هـ

وعليه تعليقات نفيسة لأصحاب الفضيلة

العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله ت ١٤٢١هـ

والعلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله

دار الإمام البخاري
الدوحة - قطر

التنبيهات السنية
على العقيدة الواسطية

تأليف

العلامة عبد العزيز بن ناصر الرشيد (ت ١٤٠٨هـ)

وعليه تعليقات نفيسة لأصحاب الفضيلة

العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله (ت ١٤٢٦هـ)

والعلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله

دار الإمام البخاري

الدوحة - قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

رقم الإيداع:

دار الإمام البخاري
الدوحة - قطر

الدوحة – قطر – طريق سلوى – بجوار إشارة الغانم الجديد
ص.ب ٢٩٩٩٩ – هاتف: ٠٠٩٧٤٤٤٦٨٤٨٤٨ – فاكس ٠٠٩٧٤٤٤٦٨٥٥٨٨
albukharibooks@gmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إن الحمدَ لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضللْ فلا هادي له، وأشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ – ٧١].

◇ **أما بعد:**

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخيرَ الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ مُحدَثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

◇ **وبعد:**

علم العقيدة الإسلامية: هو العلم الأساسي الذي يجدر العناية به تعليمًا وتعلمًا، وعملًا بموجبه؛ لتكون الأعمال صحيحة مقبولة عند الله تعالىٰ نافعةً للعامِلين، خصوصًا ونحن في زمن كثرت فيه التياراتُ المنحرفة؛ ومنها: تيار الإلحاد، والصوفية، وتيار القبورية الوثنية، وتيار البدع المخالفة للهدي النبوي، وكلها تيارات خطيرة ما لم يكن المسلم مسلحًا بسلاح العقيدة الصحيحة، المرتكزة علىٰ الكتاب والسُّنة وما عليه سلف الأمة، فإنه حَرِيٌّ أن تجرفه تلك التيارات المضلة.

وهذا مما يستدعي العناية التامة بتعليم العقيدة الصحيحة لأبناء المسلمين من مصادرها الأصلية.

وتتمثل أهمية دراسة العقيدة في:

* إخلاص النية والعبادة لله تعالىٰ وحده؛ لأنه الخالق لا شريك له، فوجب أن يكون القصد والعبادة له وحده.

* تحرير العقل والفكر من التخبط الفوضوي الناشئ عن خلو القلب من هذه العقيدة؛ لأن مَن خلا قلبُه منها إما فارغَ القلب من كل عقيدة، وعابدًا للمادة الحسية فقط، وإما متخبطًا في ضلالات العقائد والخرافات.

* الراحة النفسية والفكرية، فلا قلق في النفس ولا اضطراب في الفكر؛ لأن هذه العقيدة تصل المؤمن بخالقه، فيرضىٰ به ربًّا مدبرًا وحاكمًا مشرِّعًا؛ فيطمئن قلبه بقدره وقضائه، وينشرح صدره للإسلام، فلا يبغي عنه بديلًا.

* أنه بها تتوحد صفوف المسلمين والدعاة، وعليها تجتمع كلمتهم، وبدونها تتفكك؛ ذلك أنها عقيدة الكتاب والسنة، والجيلِ الأول من الصحابة، وكلُّ تجمُّع علىٰ غيرها مصيره الفشل والتفكك.

* أنها تجعل المسلم يعظِّم نصوص الكتاب والسنة الصحيحة، وتعصمه من ردِّ معانيها أو التلاعب في تفسيرها بما يوافق الهوىٰ.

* تربط المسلم بالصحابة ومن تبعهم، فتزيده عزة وإيمانًا وافتخارًا بهم، فهم سادة الأولياء وأئمة الأتقياء.

كما قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خيرَ قلوب العباد؛ فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد؛ فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون علىٰ دينه، فما رأىٰ المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيئ»(١).

وكما قال ابن عمر: «من كان مستنًّا فليستنَّ بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، اختارهم الله لصحبة نبيه ولإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم علىٰ أثرهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم؛

---

(١) أخرجه مسلم في المقدمة، وأحمد (٣٦٠٠) وصححه أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ، وحسن إسناده العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ؛ انظر: «السلسلة الضعيفة» (٢/ ١١٠).

فإنهم كانوا علىٰ الهُدىٰ المستقيم، واللهِ ربِّ الكعبة»(١).

* تميزها بالوضوح؛ حيث إنها تتخذ الكتابَ والسنة منطلقًا في التصور والفهم بعيدًا عن التأويل والتعطيل والتشبيه، وتنجي المتمسك بها من هلكة الخوض في ذات الله، ورد نصوص كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ومن ثم تكسب صاحبَها الرضا والاطمئنان لقدر الله، وتقدير عظمة الله، ولا تكلِّف العقل التفكيرَ فيما لا طاقة له به من الغيبيات(٢).

* أن العقيدة الإسلامية هي أعظم الواجبات وآكدها؛ لذا فهي أول ما يطالَب به الناس؛ فعن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إلهَ إلا اللهُ وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم علىٰ الله**»(٣).

* أن العقيدة الإسلامية هي العقيدة الوحيدة التي تحقق الأمن والاستقرار، والسعادة والسرور؛ كما قال تعالىٰ: ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١٢].

كما أن العقيدة الإسلامية وحدها هي التي تحقق العافية والرخاء، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦].

---

(١) «الحلية» لأبي نعيم (١/ ٣٠٥)، وثبت -أيضًا- عن ابن مسعود؛ انظر: «جامع الأحاديث» (٨٠).

(٢) انظر: «شرح العقيدة الواسطية» لخليل هراس؛ تحقيق علوي عبد القادر.

(٣) أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢).

* أن العقيدة الإسلامية هي السبب في حصول التمكين في الأرض، وقيام دولة الإسلام، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

* أن العقيدة الراسخة في القلب تنبعث عنها الأعمال الصالحة، ويحصل منها: امتثال الأوامر، وترك الزواجر، والتصديق بالأخبار، والعمل الصالح، والعلم النافع.

وبالنظر في سِيَر السلف الصالح نجد أن العقيدة لَمَّا تمكنت من قلوبهم هانت عليهم الدنيا، فأفنوا أعمارهم وأولادهم وأموالهم في سبيل إعلاء كلمة الله تعالىٰ، فصَدَّقوا وعد الله، وصبروا علىٰ الأذىٰ والسجون والقتل؛ فالواجب علينا أن نكون أمثالهم في التلقي والعمل والصبر علىٰ الأذىٰ.

◇ ◇ ◇

مقدمة عن «الواسطية»

لقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ البركة في كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، فاستفاد منها أمم لا يحصي عددَهم إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وكان من أنفع وأروع كتب شيخ الإسلام المختصرة في العقيدة الصحيحة هذا الجزء العظيم، الذي احتوىٰ مع صغر حجمه علىٰ أهم معتقد أهل السنة والجماعة، مدعمًا كل فصل منه بحشد من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، أو الآثار السلفية، فصار هذا الجزء الذي جمعه شيخ الإسلام من بعد العصر إلىٰ قبيل غروب الشمس مرجعًا مهمًّا نافعًا ينهل منه العلماءُ وطلبة العلم في كل قطر ومصر، وفي كل دهر وعصر.

◇ سبب تسمية هذه العقيدة بـ«الواسطية»:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كما في «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٦٤):

«**كان سبب كتابتها**: أنه قدم عليَّ من أرض «واسط» بعض قضاة نواحيها، شيخٌ يقال له: (رضي الدين الواسطي) من أصحاب الشافعي، قدم علينا حاجًّا، وكان من أهل الخير والدين، وشَكَا ما الناس فيه بتلك البلاد، وفي دولة التتر من غلبة الجهل، والظلم، ودروس الدين والعلم، وسألني أن أكتب له عقيدة تكون عمدة له ولأهل بيته، فاستعفيت من ذلك، وقلت: قد كتب الناس عقائد متعددة؛ فخذ بعض عقائد أئمة السنة.

فألح في السؤال وقال: ما أحب إلا عقيدة تكتبها أنت. فكتبت له هذه العقيدة، وأنا قاعد بعد العصر، وقد انتشرت بها نسخ كثيرة؛ في مصر والعراق، وغيرهما» اهـ.

◇ بماذا امتازت هذه العقيدة؟

امتازت هذه العقيدة بمميزات كثيرة، جعلتها في مقدمة المصنفات التي كتبت في باب الاعتقاد؛ أهمها: شمولها لأهم قضايا العقيدة في تسلسل جيد مع تحري ألفاظ الكتاب والسنة، وترك الالتفات إلىٰ ما أُحدث من ألفاظ في باب الاعتقاد، مع دعم هذا كله بالدلائل القرآنية والحديثية الكثيرة.

من هنا كان اهتمام أهل العلم والدارسين والباحثين بهذه العقيدة، فقاموا بشرحها والتعليق عليها؛ ما بين شرح كبير، ومتوسط، ومختصر.

◇ ثناء العلماء على «العقيدة الواسطية»(١):

أثنىٰ علىٰ «العقيدة الواسطية» طائفة من العلماء؛ منهم: الإمام الذهبي (ت٧٤٨)، وابن رجب (ت٧٩٥)، والشيخ محمد خليل هراس (ت١٣٩٥) -رحم الله الجميع-، حيث قال الشيخ هراس: «العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ من أجمع ما كُتب في عقيدة أهل السنة والجماعة مع اختصار في اللفظة ودقة في العبارة».

وقالت اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء في فتاويها (٢/ ١٦٥): «أما كتاب «العقيدة الواسطية» فهو كتاب جليل مشتمل علىٰ بيان عقيدة أهل السنة والجماعة بالأدلة من الكتاب والسنة، فنوصيك باعتقاد ما فيه والدعوة إلىٰ ذلك».

---

(١) انظر: «كتب أثنىٰ عليها العلماء» -المجموعة الأولىٰ: كتب العقيدة- (ص١٠٦-١٠٧).

كما أثنىٰ عليها سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله (ت١٤٢٠) في «مجموع فتاوىٰ ومقالات متنوعة» (٧/ ١٧٩).

وقال الشيخ محمد العثيمين رحمه الله (ت١٤٢١) في كتاب «العلم» (ص١٧١): «من أحسن ما يكون في العقيدة كتاب «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، فهو زُبدة مختصرة في عقيدة أهل السنة والجماعة، وهي تحتاج إلىٰ شرح، ويحتاج المبتدئ إلىٰ من يشرحها له».

◇ شروح «العقيدة الواسطية»[(١)]:

اعتنىٰ العلماء وطلاب العلم بـ«العقيدة الواسطية» شرحًا وتعليقًا وتحشية، مما يدل علىٰ أهميتها، ومن هذه الشروح:

١- «التعليقات السنية علىٰ العقيدة الواسطية» للشيخ: فيصل آل مبارك رحمه الله (ت١٣٧٦)، وهو أول تعليق علىٰ «الواسطية».

٢- «التنبيهات اللطيفة فيما احتوت عليه الواسطية من المباحث المنيفة» للعلامة الشيخ: عبد الرحمن السعدي رحمه الله (ت١٣٧٦)، ولسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله (ت١٤٢٠) تعليقات عليه.

٣- «تعليقات علىٰ الواسطية» للشيخ: محمد بن عبد العزيز بن مانع رحمه الله (ت١٣٨٥).

---

(١) انظر: «كتب أثنىٰ عليها العلماء» (ص١٠٧-١١٠).

٤- «الثمار الشهية في شرح الواسطية» للشيخ: محمد خليل هراس رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت١٣٩٥).

٥- «الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية» للشيخ: زيد بن عبد العزيز بن فياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت١٤٠٦)، وهو أول شرح يطبع لـ«العقيدة الواسطية».

٦- «الأجوبة المفيدة على أسئلة العقيدة» للشيخ: عبد الرحمن بن حمد الجطيلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت١٤٠٤).

٧- «التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية» للشيخ: عبد العزيز بن ناصر الرشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت١٤٠٨).

٨- «الأسئلة النجدية على العقيدة الواسطية» للشيخ: محمد بن علي الروق رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت١٤٢٠).

٩- «شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية» للشيخ: محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت١٤٢١).

١٠- «الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية» للشيخ: عبد العزيز المحمد السلمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ت١٤٢٢).

١١- وله أيضًا: «مختصر الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية»، اختصر فيه الكتاب السابق.

١٢- وله أيضًا: «الكواشف الجلية عن معاني الواسطية»، وهو شرح مطول.

١٣- «الأعلام المرفوعة والتحف المدفوعة» للشيخ: إبراهيم بن عبيد آل عبد المحسن.

١٤- «شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية» للشيخ: صالح بن فوزان الفوزان.

١٥- «التعليقات الزكية علىٰ العقيدة الواسطية» للشيخ: عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين.

١٦- «المنحة الإلهية في شرح العقيدة الواسطية» للشيخ: عبد الرحمن بن مصطفىٰ الغرابي.

١٧- «التعليقات المفيدة علىٰ العقيدة الواسطية» تعليق وتخريج: عبد الله بن عبد الرحمن الشريف.

١٨- «شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية» للشيخ: سعيد بن علي القحطاني.

١٩- «شرح العقيدة الواسطية من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية» جمعه ورتبه الشيخ: خالد بن عبد الله المصلح.

٢٠- «شرح العقيدة الواسطية» لأبي عبد الله خالد بن عبد الله الأنصاري.

٢١- «شرح العقيدة الواسطية» للشيخ: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.

◇ **وأخيرًا نبين للقارئ الكريم عملنا في الكتاب، ويتلخص في الآتي:**

أولًا: تم ضبط متن كتاب «العقيدة الواسطية»، وذلك لصحة القراءة، ووضعه في أول الكتاب ليسهل الرجوع إليه، وقمنا بذكر بعض فروق النسخ المخطوطة والمطبوعة، وراعينا عدم الإطالة في ذلك؛ لأن من أهم ما يجب علىٰ من يتصدىٰ لنشر الكتب أن يُعنىٰ بسلامة نص الكتاب وإخراجه في أقرب صورة لِمَا كان عليه الأصل المخطوط كما أراد مؤلفه.

ثانيًا: قمنا بتقسيم المتن إلىٰ فِقْرات، وراعينا عدم الإطالة في ذلك، ثم نفْصِل بين الشرح والمتن بكلمة «الشرح».

ثالثًا: اعتمدنا في إخراج هذا الكتاب علىٰ النسخة الوحيدة المتوفرة من الكتاب، وهي من إصدار دار الرشيد للنشر والتوزيع، وقد طبعت عدة مرات.

وعندما طالعنا تلك النسخة وجدنا أن بها أخطاء لا حصر لها، وأدركنا أن تلك الأخطاء تقف حجَر عثرة أمام الاستفادة من هذا الكتاب القيم الفريد في بابه، وأدركنا حجم المسئولية الملقاة علىٰ عاتقنا في تصويب تلك الأخطاء وإخراج هذا الكتاب علىٰ صورة تليق بقيمته ومكانته وتفرده في بابه.

رابعًا: وقد حرصنا علىٰ إضافة أكثر من مقدمة، كمدخل للقارئ للدخول إلىٰ علم العقيدة، ودرجنا المقدمات من أهمية العقيدة إلىٰ مقدمة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ التي تلخص العقيدة بأسلوب مختصر بديع، ثم إلىٰ المقدمات التي تختص بشروح «الواسطية»، ومنها مقدمة الشيخ صالح آل الشيخ -حفظه الله- التي تميزت

بالتأصيل، حيث أوضح الأسس التي بنىٰ عليها شيخ الإسلام ابن تيمية «العقيدة الواسطية»، وما هي الأشياء التي يتميز بها الأسلوب العلمي لشيخ الإسلام رحمه الله.

خامسًا: قمنا بإضافة التراجم اللازمة لشيخ الإسلام، وللشارح الشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد رحمه الله، ولأصحاب التعليقات: الشيخ ابن عثيمين رحمه الله، والشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله؛ ليتعرف القارئ علىٰ سيرتهم وجهودهم.

سادسًا: مراجعة الكتاب مراجعة لغوية دقيقة متأنية، مع وضع علامات الترقيم والضبط وغيره، وأثمرت هذه المراجعة علىٰ التالي:

* تصحيح عشرات الأخطاء الإملائية في الكتاب الأصل.

* تصحيح عشرات الأخطاء الطباعية في الكتاب الأصل.

* تصحيح بعض الأخطاء عن طريق مراجعة الأصول التي نقل منها المؤلف رحمه الله.

* إكمال الكثير من السقط الذي يخل بالمعنىٰ في الكتاب الأصل.

* تصحيح أخطاء في عزو استشهادات الكتاب إلىٰ علماء آخرين.

* تصويب كتابة كثير من الأحاديث والآيات القرآنية.

* ضبط المتن ومراجعته علىٰ نسخ محققة، ومحاولة التوفيق بين المتن المشروح ونسخ المتن الأصلية.

سابعًا: ضبط ما يحتاج ضبطه من الألفاظ؛ لرفع اللبس والإيهام، والتعليق أحيانًا علىٰ بعض معاني الكلمات الغريبة.

ثامنًا: قمنا بكتابة الآيات التي ورد ذكرها في الكتاب بالرسم العثماني، مع العزو إلىٰ اسم السورة ورقم الآية.

تاسعًا: قمنا بتخريج أحاديث الكتاب وبعض الآثار التي أوردها العلماء في شروحهم وإحالتها إلىٰ مواضعها من كتب السنة، ما استطعنا إلىٰ ذلك سبيلًا، فإذا كان الحديث في «الصحيحين» أو في أحدهما اكتفينا بالعزو إليهما، أو إلىٰ أحدهما؛ إذ إن الإشارة إليهما أو إلىٰ أحدهما كافية لإثبات الصحة عند جماهير أهل العلم، أما إذا كان الحديث خارج «الصحيحين» فعزوناه إلىٰ مصدره، ثم بيَّنَّا صحَّتَه أو ضعفه، وذلك بتذييله بحكم العلامة الألباني رحمةُ الله عليه، وعزوه إلىٰ مواضعه من كتب العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ، وذلك لمن أراد الوقوف عليه والاستئناس بحكم العلامة رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ الحديث.

عاشرًا: قمنا بإدراج تعليقات ثمينة من شرحي الشيخين الجليلين: ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، وصالح آل الشيخ حفظه الله، وراعينا إدراج التعليقات في أماكنها المناسبة لزيادة قوة الشرح وإثراء المادة العلمية للكتاب.

* وقد انتقينا هذين الشرحين لأسباب معينة: فالشيخ ابن عثيمين يتميز شرحه بالبساطة وسهولة العبارة والتركيز علىٰ الرد العصري علىٰ الشبهات المثارة للمسائل العقائدية. والشيخ صالح آل الشيخ جعل من شرحه موسوعة عقائدية قلَّمَا تجد هذا الشرح الذي يحوي كل تلك المباحث الأصولية في كتاب واحد.

وقد كان الشيخ صالح آل الشيخ موفَّقًا لأبعد حدٍّ في تأصيلاته تلك، لذلك حرصنا علىٰ أن نقتطف من أزهار هذين الشرحين ما استطعنا إليه سبيلًا، ولم يمنعنا

من الإطالة إلىٰ خشية تضخم الكتاب وتشتت القارئ.

الحادي عشر: قمنا بإدراج بعض التراجم للأعلام الضرورية الواردة في الكتاب.

الثاني عشر: قمنا بعزو النقولات الثمينة التي زيَّن الشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد ﷫ بها كتابَه البديع فجعله متميزًا ومتفردًا في بابه، ومعظم هذه النقولات من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه شمس الدين ابن القيم رحمهما الله تعالىٰ.

وبمراجعة تلك النقولات تم تصويب الكثير من الأخطاء المطبعية بمقارنة النقولات من أصولها مع ما تم نقله في الكتاب.

وتم -أيضًا- تصويبُ كثيرٍ من العزو غير الصواب وضبطه، حيث وجدنا كثيرًا ما يتم العزو داخل الكتاب إلىٰ عالِم معين وبالتتبع يتضح أن الكلام يُنسب لعالِم مختلف، وتم التنبيه علىٰ هذا في الحاشية.

الثالث عشر: تم عمل فهرس للكتاب بعناوين من عندنا تناسب فِقرات المتن، وذلك لتيسير الوصول إلىٰ موضوعات المتن، ومعرفة شرح كل فِقرة علىٰ حِدَا.

الرابع عشر: اجتهدنا في تنسيق الكتاب ليخرج الكتاب علىٰ أحسن صورة بإعادة تنظيم الفِقرات، وإبراز النقاط الهامة في بداية الفِقْرات مع إظهارها لسهولة الوصول للمعلومة.

هذا؛ وقد اجتهدنا في ذلك حسبَ الطاقة، والله تعالىٰ يغفر لنا زللنا وتقصيرنا، وكل ذلك عندنا، كما نسأله سبحانه أن يجعل عملنا هذا خالصًا لوجهه الكريم، وأن

ينفع به، ونسأله أن يعيننا على مواصلة طلب العلم، وخدمة أهله وطلابه حتى الممات، وأن يعيذنا من فتنة المحيا والممات، وأن يوفقنا لخدمة كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وإننا ندعو إخواننا من طلبة العلم، ومشايخنا العلماء الأفاضل بأن لا يترددوا في إبداء أي ملاحظة من شأنها إتقان العمل في هذا الكتاب وغيره؛ فإن في ذلك تحقيقًا للتعاون على البر والتقوى الذي أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢]، وفيه تحقيق التواصل العلمي الذي سار عليه أسلافنا رَحِمَهُمُ اللَّهُ في مختلف العصور، وقد تيسرت والحمد لله سبله، وتعدد قنواته، ومِن شكر الله على ذلك، والقيام بما ينبغي أن يكون بين العلماء وطلاب العلم من النصح والمشورة، وإبداء الرأي والملاحظة في المسائل العلمية، والحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

تراجم أصحاب الفضيلة العلماء

ترجمة المصنف شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١)

١- نسبه:

هو: شيخ الإسلام الإمام: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن محمد بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية، الحراني، ثم الدمشقي. كنيته: أبو العباس.

٢- مولده ونشأته:

ولد يوم الإثنين العاشر من ربيع الأول بـ«حران» سنة (٦٦١هـ)، ولما بلغ من العمر سبع سنين انتقل مع والده إلىٰ دمشق هربًا من وجه الغزاة التتار، وقد نشأ في بيت علم وفقه ودين، فأبوه وأجداده وإخوته وكثير من أعمامه كانوا من العلماء المشاهير، منهم: جده الأعلىٰ (الرابع) محمد بن الخضر، ومنهم: عبد الحليم بن محمد بن تيمية، وعبد الغني بن محمد بن تيمية، وجده الأدنىٰ عبد السلام بن عبد الله بن تيمية مجد الدين أبو البركات صاحب التصانيف التي منها: «المنتقىٰ من

(١) كتب هذه الترجمة الدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل في مقدمة تحقيقه لكتاب «اقتضاء الصراط المستقيم»، ط: دار العاصمة للنشر والتوزيع، الطبعة السادسة لسنة (١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م).

أحاديث الأحكام»، و«المحرر في الفقه»، و«المُسَوَّدة في الأصول» وغيرها، وكذلك أبوه عبد الحليم بن عبد السلام الحراني، وأخوه عبد الرحمن وغيرهم.

ففي هذه البيئة العلمية الصالحة كانت نشأت صاحب الترجمة، وقد بدأ بطلب العلم أولًا علىٰ أبيه وعلماء «دمشق»، فحفظ القرآن وهو صغير، ودرس الحديث والفقه والأصول والتفسير، وعُرف بالذكاء وقوة الحفظ والنجابة منذ صغره، ثم توسع في دراسة العلوم وتبحَّر فيها، واجتمعت فيه صفات المجتهد منذ شبابه، فلم يلبث أن صار إمامًا يعترف له الجهابذة بالعلم والفضل والإمامة، قبل بلوغ الثلاثين من عمره.

٣- إنتاجه العلمي:

وفي مجال التأليف والإنتاج العلمي، فقد ترك الشيخ للأمة تراثًا ضخمًا ثمينًا، لا يزال العلماء والباحثون ينهلون منه معينًا صافيًا، توفرت منه الآن المجلدات الكثيرة، من المؤلفات والرسائل والفتاوىٰ والمسائل وغيرها، هذا من المطبوع، وما بقي مجهولًا أو مكنوزًا في عالم المخطوطات كثير.

ولم يترك الشيخ مجالًا من مجالات العلم والمعرفة التي تنفع الأمة، وتخدم الإسلام إلا كتب فيه، وأسهم بجدارة وإتقان، وتلك خصلة قلما توجد إلا عند العباقرة النوادر في التاريخ.

فلقد شهد له أقرانه وأساتذته وتلاميذه وخصومه بسعة الاطلاع، وغزارة العلم، فإذا تكلم في علم من العلوم أو فن من الفنون ظن السامع أنه لا يُتقن غيرَه؛ وذلك

لإحكامه له وتبحره فيه، وإن المُطَّلع علىٰ مؤلفاته وإنتاجه، والعارف بما كان يعمله في حياته من الجهاد باليد واللسان، والذب عن الدين، والعبادة والذكر، ليعجب كل العجب من بركة وقته، وقوة تحمله وجلده، فسبحان من منحه تلك المواهب!

٤- جهاده ودفاعه عن الإسلام:

الكثير من الناس يجهل الجوانب العملية من حياة الشيخ، فإنهم عرفوه عالمًا ومؤلفًا ومفتيًا، من خلال مؤلفاته المنتشرة، مع أن له مواقف مشهودة في مجالات أخرىٰ عديدة أسهم فيها إسهامًا قويًّا في نُصرة الإسلام وعِزة المسلمين؛ فمن ذلك: جهاده بالسيف وتحريضه المسلمين علىٰ القتال بالقول والعمل، فقد كان يجول بسيفه في ساحات الوغىٰ مع أعظم الفرسان الشجعان، والذين شاهدوه في القتال أثناء فتح عكَّا عجبوا من شجاعته وفتكه بالعدو(١).

أما جهاده بالقلم واللسان؛ فإنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقف أمام أعداء الإسلام من أصحاب الملل والنِّحَل والفرق والمذاهب الباطلة والبدع كالطَّود الشامخ، بالمناظرات حينًا، وبالردود أحيانًا، حتىٰ فنَّد شبهاتهم، ورد الكثير من كيدهم بحمد الله، فقد تصدىٰ للفلاسفة، والباطنية، من صوفية، وإسماعيلية، ونُصَيرية، وسواهم، كما تصدىٰ للروافض والملاحدة، وفنَّد شبهات أهل البدع التي تقام حول المشاهد والقبور ونحوها، كما تصدىٰ للجهمية والمعتزلة، وناقش المتكلمين والأشاعرة.

والمطلع علىٰ هذا الجانب من حياة الشيخ يكاد يجزم بأنه لم يبق له من وقته

---

(١) انظر: «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية» للبزار (ص٦٧-٦٨) تحقيق: زهير الشاويش.

فضلة، فقد حورب، وطورد، وأوذي، وسُجن مرات في سبيل الله، وقد وافته منيته مسجونًا في سجن القلعة بـ«دمشق».

ولا تزال -بحمد الله- ردود الشيخ سلاحًا فعالًا ضد أعداء الحق والمبطلين؛ لأنها إنما تستند إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلم، وهدي السلف الصالح، مع قوة الاستنباط، وقوة الاستدلال والاحتجاج الشرعي والعقلي، وسعة العلم التي وهبها الله له.

وأكثر المذاهب الهدامة التي راجت اليوم بين المسلمين هي امتداد لتلك الفرق والمذاهب التي تصدىٰ لها الشيخ وأمثاله من سلفنا الصالح، لذلك ينبغي للدعاة المصلحين أن لا يُغفِلوا هذه الناحية، ليستفيدوا مما سبقهم به سلفنا الصالح.

ولست مبالغًا حينما أقول: إنه لا تزال كتب الشيخ وردوده هي أقوىٰ سلاح للتصدي لهذه الفرق الضالة والمذاهب الهدامة التي راجت وبدأت تخرج أعناقها اليوم من جديد، والتي هي امتداد للماضي، لكن منها تلك التي تزيَّت بأزياء العصر، وغيَّرت أسماءها فقط، مثل البعثية، والاشتراكية، والقومية، والقاديانية، والبهائية، وسواها من الفرق والمذاهب، ومنها ما بقي علىٰ شعاره القديم؛ كالشيعة، والرافضة، والنصيرية، والإسماعيلية، والخوارج، ونحو ذلك.

٥- خصاله:

بالإضافة إلىٰ ما اشتهر به هذا الإمام من العِلم والفقه في الدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد وهبه الله خصالًا حميدة، اشتهر بها وشهد له بها

الناس، فكان سخيًّا كريمًا، يؤثر المحتاجين علىٰ نفسه في الطعام واللباس وغيرهما، وكان كثير العبادة والذكر وقراءة القرآن، وكان ورعًا زاهدًا لا يكاد يملك شيئًا من متاع الدنيا سوىٰ الضروريات، وهذا مشهور عنه عند أهل زمانه حتىٰ بين عامة الناس، وكان متواضعًا في هيئته ولباسه ومعاملته مع الآخرين، فما كان يلبس الفاخر ولا الرديء من اللباس، ولا يتكلف لأحد يلقاه، واشتهر -أيضًا- بالمهابة والقوة في الحق، فكانت له هيبة عظيمة عند السلاطين والعلماء وعامة الناس، فكل من رآه أحبه وهابه واحترمه، إلا من سيطر عليهم الحسد من أصحاب الأهواء ونحوهم.

كما عُرف بالصبر وقوة الاحتمال في سبيل الله، وكان ذا فِراسة، وكان مستجاب الدعوة، وله كرامات مشهودة. رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

٦- عصره:

لقد عاش المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عصر كثرت فيه البدع والضلالات، وسادت كثير من المذاهب الباطلة، واستفحلت الشبهات، وانتشر الجهل والتعصب والتقليد الأعمىٰ، وغُزِيت بلاد المسلمين من قِبل التتار والصليبيين (الإفرنج).

ونجد صورة عصره جلية واضحة من خلال مؤلفاته التي بين أيدينا؛ لأنه اهتم بأجلِّ أمور المسلمين وأخطرها، وساهم في علاجها بقلمه ولسانه ويده، فالمتأمل في مؤلفات الشيخ يجد الصورة التالية لعصره:

- كثرة البدع والشركيات، خاصة حول القبور والمشاهد والمزارات المزعومة، والاعتقادات الباطلة في الأحياء والموتىٰ، وأنهم ينفعون ويضرون،

ويُدعون من دون الله.

- انتشار الفلسفات والإلحاد والجدل.

- هيمنة التصوف والطرق الصوفية الضالة علىٰ العامة من الناس، ومن ثم انتشار المذاهب والآراء الباطنية.

- توغُّل الروافض في أمور المسلمين، ونشرهم للبدع والشركيات، وتثبيطهم للناس عن الجهاد، ومساعدتهم للتتار أعداء المسلمين.

- وأخيرًا، نلاحظ تَقَوِّي أهل السنة والجماعة بالشيخ وحفزه لعزائمهم، مما كان له الأثر الحميد علىٰ المسلمين إلىٰ اليوم، في التصدي للبدع والمنكرات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصح لأئمة المسلمين وعامتهم.

وقد وقف الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في عصره إزاء هذه الانحرافات موقفًا مشهودًا، آمرًا وناهيًا، وناصحًا، ومبيِّنًا، حتىٰ أصلح الله علىٰ يديه الكثير من أوضاع المسلمين، ونصر به السنة وأهلها، والحمد لله.

٧- وفاته:

إن من علامات الخير للرجل الصالح، وقبوله لدىٰ المسلمين: إحساسهم بفقده حين يموت، لذلك كان السلف يعدون كثرة المصلين علىٰ جنازة الرجل من علامات الخير والقبول له، لذلك قال الإمام أحمد: «قولوا لأهل البدع: بيننا وبينكم يوم الجنائز»[(١)]؛ أي: أن أئمة السنة يفقدهم الناس إذا ماتوا ويكونون أكثر مشيعين يوم يموتون، ولقد شهد الواقع بذلك، فما سمع الناس بمثل جنازتي الإمامين:

---

(١) انظر: «مناقب الإمام أحمد» لابن الجوزي (٥٠٥)، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي.

أحمد بن حنبل، وأحمد بن تيمية، حين ماتا، من كثرة من شيعهما وخرج مع جنازة كل منهما، وصلىٰ عليهما، فالمسلمون هم شهداء الله في أرضه.

هذا وقد تُوفي الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وهو مسجون بسجن القلعة بـ«دمشق»، ليلة الإثنين ٢٠ من شهر ذي القعدة سنة (٧٢٨هـ)، فهبَّ كلُّ أهل «دمشق» ومن حولها للصلاة عليه، وتشييع جنازته، وقد أجمعت المصادر التي ذكرت وفاته أنه حضر جنازته جمهور كبير جدًّا يفوق الوصف.

رحمه الله وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء[١].

◈ ◈ ◈

---

(١) مصادر الترجمة:

١- «الأعلام» لخير الدين الزركلي (١/ ١٤٤).

٢- «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية» للحافظ عمر البزار، تحقيق زهير الشاويش.

٣- «البداية والنهاية» لابن كثير (١٤/ ١٣٥-١٣٩).

٤- «شذرات الذهب» لابن العماد (٦/ ٨٠-٨٦).

٥- «فوات الوفيات» لمحمد بن شاكر الكتبي (١/ ٧٤-٨٠).

٦- «الذيل علىٰ طبقات الحنابلة» لأبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد البغدادي (٣٨٧-٤٠٨).

٧- «مناقب الإمام أحمد بن حنبل» لابن الجوزي، تحقيق الدكتور: عبد الله بن عبد المحسن التركي.

ترجمة العلامة
عبد العزيز الناصر الرَّشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ

* هو أحد الذين حملوا مَشعل العلم والمعرفة، وخدموا الدولة في عدد من المناصب القضائية والعلمية، وشاركوا في التأليف.

* فضيلة الشيخ عبد العزيز بن ناصر بن عبد الله الرشيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ينتمي إلىٰ قبيلة آل محفوظ من العجمان، ومسقط رأسه بلدة «الرس» -إحدىٰ كُبريات بلاد «القصيم»- وكانت ولادته في سنة (١٣٣٣هـ).

* كان منذ ولادته وهو متَّجِه إلىٰ العلم والمعرفة، حيث درس القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة في الكتاتيب المتواجدة في بلدة «الرس»، حيث درس علىٰ عمه محمد الناصر الرشيد، ثم درس علىٰ فضيلة قاضي «الرس» عمه الشيخ محمد العبد العزيز الرشيد، ثم توجَّه عام (١٣٥٥هـ) إلىٰ الرياض للتروِّي من ينابيع العلم والمعرفة، حيث درس العلم علىٰ عدد من العلماء الأعلام، أشهرهم:

أ- الشيخ: محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، حيث درس عليه في الفقه والحديث والتفسير وأصولها.

ب- الشيخ: عبد اللطيف بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ، حيث درس عليه الفرائض.

جـ- الشيخ: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ قاضي الرياض.

حتىٰ شهد له مشايخه وأقرانه بالنبوغ والمعرفة.

* توجه إلىٰ مكة المكرمة في أواخر عام (١٣٥٨هـ) ضمن مجموعة من العلماء وطلبة العلم الذين كانوا يدرسون علىٰ الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، حيث تقلَّد أول عمل له، وهو الوعظ والإرشاد والتدريس في الحرم المكي الشريف، ثم أضيف إليه عمل هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر برئاسة العلامة الشيخ: محمد بن عبد العزيز بن مانع، وانتدب للتدريس في المعهد السعودي بمكة المكرمة.

* في عام (١٣٦١هـ) شكِّلت هيئة التميز للنظر في قضايا الشِّكايات برئاسة العلامة الشيخ: محمد بن عبد العزيز بن مانع، وصار عضوًا في هذه الهيئة مع مجموعة من علماء مكة المكرمة الأجلاء، وبإشراف رئيس القضاة آنذاك سماحة الشيخ: عبد الله بن حسن، وكان -أيضًا- يواصل طلب العلم علىٰ بعض علماء المسجد الحرام. ثم انتهت أعمال هذه الهيئة.

تولىٰ رحمه الله العديد من المناصب القضائية، وهي:

أ- قضاء «غامد وزهران» -والتي كان مركزها في ذلك العهد بلدة «الظفير»- حيث مارس عملها في ٢٤/ ٤/ ١٣٦٣هـ. وله من العمر ثلاثون عامًا.

ب- قضاء «تربه» -جنوب «الطائف»- وقد باشر العمل بها في ١٣/ ٧/ ١٣٦٤هـ. واستمر قاضيًا بها أربع سنوات.

جـ- «حوطة بني تميم» -جنوب «الرياض»- حيث باشر العمل بها في

١/٤/١٣٦٩هـ، واستمر بها قاضيًا إلىٰ أواخر عام (١٣٧٠هـ) وكان بالإضافة إلىٰ الأعمال القضائية يقوم بأعمال الحِسبة والإمامة والخطابة في المسجد الجامع الكبير في كل بلد تولىٰ القضاء به، بالإضافة إلىٰ أعمال التعليم والتدريس، حيث درس عليه كثيرٌ من طلبة العلم في المناطق التي تولىٰ القضاء بها.

* في بداية عام (١٣٧١هـ) أمر المغفور له الملكُ عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود بافتتاح المعهد العلمي في مدينة الرياض، وعهد بالإشراف عليه للشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وصار مديره الشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ، وانتدب للتدريس فيه نخبة من العلماء، من بينهم فضيلته، واستمر في التدريس فيه حتىٰ افتتحت كلية الشريعة في عام (١٣٧٣هـ) حيث تولىٰ التدريس فيها.

* وفي بداية عام (١٣٧٧هـ) اقتضت المصلحة العامة تشكيل دار الإفتاء في المملكة برئاسة سماحة الشيخ: محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وعُيِّن فضيلتُه عضوًا في دار الإفتاء، بالإضافة إلىٰ التدريس في كلية الشريعة بالرياض، واستمر في ذلك حتىٰ نهاية عام (١٣٧٩هـ).

* وفي بداية عام (١٣٨٠هـ) صدر أمر المغفور له الملك سُعود بافتتاح مدارس البنات، وعيِّن فضيلته رئيسًا عامًّا لها، واستمر في هذا المنصب حتىٰ ١/٥/١٣٨١هـ.

* عُيِّن رئيسًا لهيئة التمييز سنة (١٣٨١هـ)، ولما افتُتِح المعهد العالي للقضاء انتُدب للتدريس فيه مضافًا إلىٰ عمله في هيئة التمييز، وانتهىٰ عمله منه لما تخرَّج أولُ فوج من الكلية عام (١٣٨٦هـ)، كما أنه أصبح عضوًا في مجلس القضاء الأعلىٰ في

بداية تشكيله، واستمر في عمله بالهيئة والمجلس في عفة وأمانة، حتىٰ مرض رَحِمَهُ اللَّهُ، فطلب الإحالة علىٰ التقاعد، حيث وردت الموافقة السامية علىٰ طلبه، وذلك اعتبارًا من ١/ ١/ ١٤٠٥هـ.

* بالإضافة إلىٰ أعماله التعليمية والقضائية، اتَّجه إلىٰ التأليف، حيث ألَّف عددًا من الكتب الحديثة، أهمها:

١- «عُدَّة الباحث في أحكام التوارث»، حيث طلب منه طلابه في المعهد العلمي بالرياض إعداد مذكرة مختصرة في درس الفرائض، فأملىٰ عليه هذه المذكرة، ثم نقَّحها ونشرها في كتاب طبع ما يقارب العشر طبعات.

٢- «التنبيهات السنية في شرح العقيدة الواسطية» وهو كتاب ألَّفه لشرح «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، والتي كانت تدرَّس في المعهد العلمي بـ«الرياض». فقد طلب منه تلامذته إعداد شرح لهذا الكتاب، وقد طُبع ما يقارب العشر مرات.

٣- «إفادة السائل إلىٰ أهم الفتاوىٰ والمسائل»، حيث طلبت منه إذاعة القرآن الكريم من الرياض عددًا من المقالات التي أجاب بها علىٰ الكثير من الاستفسارات، ثم جُمعت هذه المقالات علىٰ شكل كتاب طُبع الجزء الأول منه مرتين، وبدأ يواصل نشر مقالاته بواسطة الإذاعة، مما استلزم أن يُعاد النظر فيه، ويُرتب علىٰ أبواب الفقه، ويُعاد طباعته من جديد. وهو في انتظار الطباعة.

٤- «القول الأسنىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ»، وهو في انتظار الطباعة.

٥- «تفسير آيات الأحكام»، وهو قيد التحقيق ثم الطباعة.

٦- ثم له العديد من الرسائل والبحوث والاهتمامات العلمية التي تنتظر دورها في التحقيق.

* ثم اشتد عليه المرض، حيث نُقل إلىٰ المستشفىٰ العسكري، وتوفي فيه في تمام الساعة الرابعة من يوم الإثنين ٤/ ٣/ ١٤٠٨هـ، وصُلي عليه ظهر يوم الثلاثاء في المسجد «الجامع الكبير»، وحضر جنازته سمو الأمير: سلمان بن عبد العزيز وعددٌ من أصحاب السمو الملكي الأمراء والعلماء، وصلىٰ عليه سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز صلاة الجنازة، ثم نُقل إلىٰ مقبرة العود، رحمه الله رحمة واسعة، وغفر له، وأسكنه فسيح جناته، وأنزله منازل الصديقين والشهداء، وجعل ما قدم من عمل، وألَّف من علم؛ في ميزان أعماله يوم القيامة.

إنه سميع مجيب،،،

◈ ◈ ◈

ترجمة العلامة
محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ(١)
(١٣٤٧-١٤٢١هـ)

نسبه ومولده:

هو: صاحب الفضيلة الشيخ العالِم المُحقِّق، الفقيه المفسِّر، الورع الزاهد، محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن آل عثيمين، من الوهبة من بني تميم.

ولد في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك عام (١٣٤٧هـ) في «عُنيزة» -إحدىٰ مدن «القصيم»- في المملكة العربية السعودية.

نشأته العلمية:

ألحقه والده -رحمه الله تعالىٰ- ليتعلم القرآن الكريم عند جده من جهة أمه المعلِّم عبد الرحمن بن سليمان الدامغ رَحِمَهُ اللَّهُ، ثم تعلم الكتابة، وشيئًا من الحساب، والنصوص الأدبية في مدرسة الأستاذ عبد العزيز بن صالح الدامغ -حفظه الله-،

(١) انظر مقدمة «أحكام من القرآن الكريم» لفضيلة الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ، ط: مدار الوطن للنشر، الطبعة الأولىٰ لسنة (١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م).

وذلك قبل أن يلتحق بمدرسة المعلِّم علي بن عبد الله الشحيتان رَحِمَهُ اللهُ، حيث حفظ القرآن الكريم عنده عن ظهر قلب، ولمَّا يتجاوز الحادية عشرة من عمره بعدُ.

وبتوجيه من والده رَحِمَهُ اللهُ أقبل علىٰ طلب العلم الشرعي، وكان فضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ يدرِّس العلوم الشرعية والعربية في الجامع الكبير بـ«عُنيزة»، وقد رتَّب من طلبته الكبار -ومنهم الشيخ محمد بن عبد العزيز المطوع رَحِمَهُ اللهُ- لتدريس المبتدئين من الطلبة، فانضم الشيخ إلىٰ حلقته حتىٰ أدرك من العلم في التوحيد، والفقه، والنحو ما أدرك.

ثم جلس في حلقة شيخه العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ، فدرس عليه في التفسير، والحديث، والسيرة النبوية، والتوحيد، والفقه، والأصول، والفرائض، والنحو، وحفظ مختصرات المتون في هذه العلوم.

ويُعدُّ فضيلة الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ هو شيخه الأول؛ إذ أخذ عنه العلم؛ معرفة وطريقة أكثر مما أخذ عن غيره، وتأثر بمنهجه وتأصيله، وطريقة تدريسه، واتباعه للدليل.

وعندما كان الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان رَحِمَهُ اللهُ قاضيًا في «عنيزة» قرأ عليه في علم الفرائض، كما قرأ علىٰ الشيخ عبد الرزاق عفيفي رَحِمَهُ اللهُ في النحو والبلاغة أثناء وجوده مدرسًا في تلك المدينة.

ولما فُتح المعهد العلمي في «الرياض» أشار عليه بعض إخوانه أن يلتحق به، فاستأذن شيخَه العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رَحِمَهُ اللهُ فأذن له، والتحق

بالمعهد عامي (١٣٧٢-١٣٧٣هـ).

ولقد انتفع -خلال السنتين اللتين انتظم فيهما في معهد «الرياض» العلمي- بالعلماء الذين كانوا يدرِّسون فيه حينذاك، ومنهم: العلامة المفسر الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ الفقيه عبد العزيز بن ناصر بن رشيد، والشيخ المحدِّث عبد الرزاق الأفريقي -رحمهم الله تعالىٰ.

وفي أثناء ذلك اتصل بسماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله، فقرأ عليه في المسجد من «صحيح البخاري» ومن رسائل شيخ الإسلام ابن تيمية، وانتفع به في علم الحديث والنظر في آراء فقهاء المذاهب والمقارنة بينها، ويعد سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله هو شيخه الثاني في التحصيل والتأثر به.

ثم عاد إلىٰ «عنيزة» عام (١٣٧٤هـ)، وصار يَدرُس علىٰ شيخه العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ويتابع دراسته انتسابًا في كلية الشريعة، التي أصبحت جزءًا من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، حتىٰ نال الشهادة العالية.

تدريسه:

توسم فيه شيخه النجابة وسرعة التحصيل العلمي فشجعه علىٰ التدريس وهو ما زال طالبًا في حلقته، فبدأ التدريس عام (١٣٧٠هـ) في الجامع الكبير بـ«عنيزة».

ولما تخرج من المعهد العلمي في «الرياض» عُين مدرسًا في المعهد العلمي بـ«عنيزة» عام (١٣٧٤هـ).

وفي سنة (١٣٧٦هـ) توفي شيخه العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي -

رحمه الله تعالىٰ- فتولىٰ بعده إمامة الجامع الكبير في «عنيزة»، وإمامة العيدين فيها، والتدريس في مكتبة «عنيزة» الوطنية التابعة للجامع؛ وهي التي أسسها شيخه رحمه الله عام (١٣٥٩هـ).

ولما كثر الطلبة، وصارت المكتبة لا تكفيهم؛ بدأ فضيلة الشيخ رحمه الله يدرِّس في المسجد الجامع نفسه، واجتمع إليه الطلاب وتوافدوا من المملكة وغيرها حتىٰ كانوا يبلغون المئات في بعض الدروس، وهؤلاء يدرسون دراسة تحصيل جاد، لا لمجرد الاستماع، وبقي علىٰ ذلك، إمامًا وخطيبًا ومدرسًا، حتىٰ وفاته رحمه الله تعالىٰ.

بقي الشيخ مدرسًا في المعهد العلمي من عام (١٣٧٤هـ) إلىٰ عام (١٣٩٨هـ)، عندما انتقل إلىٰ التدريس في كلية الشريعة وأصول الدين بـ«القصيم» التابعة لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وظل أستاذًا فيها حتىٰ وفاته رحمه الله تعالىٰ.

وكان يدرِّس في المسجد الحرام والمسجد النبوي في مواسم الحج، ورمضان، والإجازات الصيفية منذ عام (١٤٠٢هـ) حتىٰ وفاته رحمه الله تعالىٰ.

وللشيخ رحمه الله أسلوب تعليمي فريد في جودته ونجاحه، فهو يناقش طلابه ويتقبل أسئلتهم، ويلقي الدروس والمحاضرات بهمَّة عالية ونفس مطمئنة واثقة، مبتهجًا بنشره للعلم وتقريبه إلىٰ الناس.

آثاره العلمية:

ظهرت جهوده العظيمة -رحمه الله تعالىٰ- خلال أكثر من خمسين عامًا من العطاء والبذل في نشر العلم والتدريس والوعظ والإرشاد والتوجيه وإلقاء

المحاضرات والدعوة إلىٰ الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

ولقد اهتم بالتأليف وتحرير الفتاوىٰ والأجوبة التي تميزت بالتأصيل العلمي الرصين، وصدرت له العشرات من الكتب، والرسائل، والمحاضرات، والفتاوىٰ، والخطب، واللقاءات، والمقالات، وترك ثروة علمية كبيرة، كما صدر له آلاف الساعات الصوتية التي سجلت محاضراته وخطبه ولقاءاته وبرامجه الإذاعية ودروسه العلمية في تفسير القرآن الكريم، والشروحات المتميزة للحديث الشريف، والسيرة النبوية، والمتون، والمنظومات في العلوم الشرعية والنحوية.

وإنفاذًا للقواعد والضوابط والتوجيهات التي قررها فضيلته -رحمه الله تعالىٰ- لنشر مؤلفاته، ورسائله، ودروسه، ومحاضراته، وخطبه، وفتاويه، ولقاءاته، تقوم مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية -بعون الله وتوفيقه- بواجب وشرف المسئولية لإخراج كافة آثاره العلمية والعناية بها.

وبناء علىٰ توجيهاته -رحمه الله تعالىٰ- أُنشئ له موقع خاص علىٰ شبكة المعلومات الدولية؛ من أجل تعميم الفائدة المرجوة -بعون الله تعالىٰ- وتقديم جميع آثاره العلمية من المؤلفات والتسجيلات الصوتية.

أعماله وجهوده الأخرىٰ:

إلىٰ جانب تلك الجهود المثمرة في مجالات التدريس، والتأليف، والإمامة، والخطابة، والإفتاء، والدعوة إلىٰ الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ كان لفضيلة الشيخ أعمال كثيرة موفَّقة؛ منها ما يلي:

* عضوًا في هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية من عام (١٤٠٧هـ) إلىٰ وفاته.

* عضوًا في المجلس العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في العامين الدراسيين (١٣٩٨-١٤٠٠هـ).

* عضوًا في مجلس كلية الشريعة وأصول الدين بفرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في «القصيم» ورئيسًا لقسم العقيدة فيها.

* وفي آخر فترة تدريسه بالمعهد العلمي شارك في عضوية لجنة الخطط والمناهج للمعاهد العلمية، وألَّف عددًا من الكتب المقررة بها.

عضوًا في لجنة التوعية في موسم الحج من عام (١٣٩٢هـ) إلىٰ وفاته -رحمه الله تعالىٰ- حيث كان يلقي دروسًا ومحاضرات في «مكة» والمشاعر، ويُفتي في المسائل والأحكام الشرعية.

* ترأس جمعية تحفيظ القرآن الكريم الخيرية في «عنيزة» من تأسيسها عام (١٤٠٥هـ) إلىٰ وفاته.

* ألقىٰ محاضرات عديدة داخل المملكة العربية السعودية علىٰ فئات متنوعة من الناس، كما ألقىٰ محاضرات عبر الهاتف علىٰ تجمعات ومراكز إسلامية في جهات مختلفة من العالم.

* من علماء المملكة الكبار الذين يجيبون علىٰ أسئلة المستفسرين حول أحكام الدين وأصوله عقيدة وشريعة، وذلك عبر البرامج الإذاعية من المملكة العربية السعودية وأشهرها برنامج «نور علىٰ الدرب».

* نذر نفسه للإجابة على أسئلة السائلين مهاتفة ومكاتبة ومشافهة.

* رتب لقاءات علمية مجدولة، أسبوعية وشهرية وسنوية.

* شارك في العديد من المؤتمرات التي عُقدت في المملكة العربية السعودية.

* ولأنه يهتم بالسلوك التربوي والجانب الوعظي اعتنى بتوجيه الطلاب وإرشادهم إلى سلوك المنهج الجاد في طلب العلم وتحصيله، وعمل على استقطابهم والصبر على تعليمهم وتحمُّل أسئلتهم المتعددة، والاهتمام بأمورهم.

* وللشيخ رحمه الله أعمال عديدة في ميادين الخير وأبواب البر ومجالات الإحسان إلى الناس، والسعي في حوائجهم، وإسداء النصيحة لهم بصدق وإخلاص.

مكانته العلمية:

يعد فضيلة الشيخ -رحمه الله تعالى- من الراسخين في العلم الذين وهبهم الله -بمنِّه وكرمه- تأصيلًا ومَلَكَة عظيمة في معرفة الدليل واتباعه ودقة النظر واستنباط الأحكام والفوائد من الكتاب والسنة، وسبر أغوار اللغة العربية معاني وإعرابًا وبلاغة.

ولِما تحلى به من صفات العلماء الجليلة وأخلاقهم الحميدة والجمع بين العلم والعمل أحبه الناس محبة عظيمة، وقدَّره الجميع كل التقدير، ورزقه الله القبول لديهم واطمأنوا لاختياراته الفقهية، وأقبلوا على دروسه وفتاواه وآثاره العلمية، ينهلون من مَعين علمه ويستفيدون من نصحه ومواعظه.

وقد مُنح جائزة الملك فيصل رحمه الله العالمية لخدمة الإسلام عام (١٤١٤هـ)، وجاء في الحيثيات التي أبدتها لجنة الاختيار لمنحه الجائزة ما يلي:

أولًا: تحليه بأخلاق العلماء الفاضلة التي من أبرزها الورع، ورحابة الصدر،

وقول الحق، والعمل لمصلحة المسلمين، والنصح لخاصتهم وعامتهم.

ثانيًا: انتفاع الكثيرين بعلمه؛ تدريسًا وإفتاء وتأليفًا.

ثالثًا: إلقاؤه المحاضرات العامة النافعة في مختلف مناطق المملكة.

رابعًا: مشاركته المفيدة في مؤتمرات إسلامية كثيرة.

خامسًا: اتباعه أسلوبًا متميزًا في الدعوة إلىٰ الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتقديمه مثلًا حيًّا لمنهج السلف الصالح؛ فكرًا وسلوكًا.

عَقِبُه:

له خمسة من البنين، وثلاث من البنات، وبنوه هم: عبد الله، وعبد الرحمن، وإبراهيم، وعبد العزيز، وعبد الرحيم.

وفاته:

توفي رَحِمَهُ اللَّهُ في مدينة «جدة» قبيل مغرب يوم الأربعاء الخامس عشر من شهر شوال عام (١٤٢١هـ)، وصُلي عليه في المسجد الحرام بعد صلاة عصر يوم الخميس، ثم شيعته تلك الآلاف من المصلين والحشود العظيمة في مشاهد مؤثرة، ودُفن في «مكة المكرمة».

وبعد صلاة الجمعة من اليوم التالي صُلي عليه صلاة الغائب في جميع مدن المملكة العربية السعودية.

رحم الله شيخنا رحمةَ الأبرار، وأسكنه فسيح جناته، ومَنَّ عليه بمغفرته ورضوانه، وجزاه عما قدَّم للإسلام والمسلمين خيرًا.

ترجمة العلامة
صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله

◇ نسبه وولادته ونشأته وحياته العلمية:

هو: صالح بن عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب -رحمهم الله جميعًا-، والشيخ يرجع نسبه إلىٰ قبيلة «بني تميم» المشهورة.

نشأ الشيخ في دار علم وديانة -ولا نزكي علىٰ الله أحدًا.

ولد في مدينة «الرياض» سنة (١٣٧٨هـ)، وأكمل تعليمه الثانوي في «الرياض» ولحرصه -حفظه الله- علىٰ أن يكون تعليمه الجامعي شرعيًّا فقد التحق بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ممثلةً في كلية أصول الدين بقسم القرآن وعلومه، وبعد تخرجه منها عمل ضمن هيئة التدريس فيها، منذ ذلك الحين إلىٰ عام (١٤١٦هـ)، حيث عُين نائبًا لوزير الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد.

وفي عام (١٤٢٠هـ) صدر الأمر بتعيينه وزيرًا للشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، إلىٰ جانب إشرافه علىٰ المؤسسات الخيرية كمؤسسة الحرمين الخيرية، وهيئة الإغاثة الإسلامية العالمية، والندوة العالمية للشباب الإسلامي.

والشيخ -حفظه الله- منصرف إلىٰ طلب العلم وتحقيق المسائل علىٰ نحو ما

كان عليه علماء الدعوة السلفية وكبار العلماء منذ نعومة أظفاره، ودأب على نشر ذلك وتعليمه في دروسه ومحاضراته وتوجيهاته التي يلقيها في المساجد وفي غيرها.

والشيخ قارئ وباحث كبير في فتاوى جده سماحة الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم، حيث تفرَّغ لدراستها وفهم مقاصدها واصطلاحاتها الفقهية والعلمية ومقاصدها التي انفردت بها بحكم الزمان والمكان، وكان يستعين بعد الله بكبار العلماء في ذلك؛ كسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، وسماحة والده الشيخ عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم -حفظه الله-، وسماحة الشيخ عبد العزيز آل الشيخ مفتي عام المملكة -حفظه الله-، وفضيلة الشيخ عبد الله بن عقيل رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقًا -حفظه الله.

◇ **وتلقى العلم على عدد من العلماء، وهم:**

١- **سماحة الشيخ**: عبد العزيز بن باز.

٢- **والده سماحة الشيخ**: عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم.

٣- **فضيلة الشيخ**: عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل.

٤- **فضيلة الشيخ**: عبد الله بن غديان، عضو هيئة كبار العلماء.

٥- **فضيلة الشيخ**: عبد العزيز بن مرشد.

٦- **فضيلة الشيخ**: أحمد المرابط الشنقيطي -حفظه الله- نائب مفتي الديار الموريتانية، درس عليه في علوم اللغة.

٧- **الشيخ**: محمد بن سعد الدبل -حفظه الله-، درس عليه في النحو.

٨- وكان له جلسات ومباحثات علمية متكررة مع فضيلة الشيخ المحدِّث حماد الأنصاري.

وقد حرص -رعاه الله- علىٰ جمع الإجازات العلمية من شتىٰ أنحاء الأرض، حيث حصل علىٰ إجازات عدة من بعض علماء المملكة، ورحل إلىٰ: تونس، والمغرب، وباكستان، والهند، وغيرها في سبيل ذلك.

وله من المؤلفات والتحقيقات التي يحرص علىٰ اقتنائها طلبة العلم لما فيها من الشمولية والتدقيق العلمي ما يقارب سبعة عشر عملًا علميًّا.

وشارك في عدد من المؤتمرات في داخل المملكة، وفي أمريكا، وأوروبا، ومصر، وغيرها.

فنسأل الله أن يحفظ الشيخ ويسدد علىٰ درب الخير خطاه، آمين.

◇ ثناء أهل العلم عليه:

أثنىٰ عليه جملة من أهل العلم، منهم: فضيلة الشيخ العلامة زيد بن هادي بن محمد المدخلي، فضيلة الشيخ العلامة محمد بن هادي المدخلي، فضيلة الشيخ العلامة ناصر الدين الألباني، فضيلة الشيخ العلامة مقبل بن هادي الوادعي.

◇ مؤلفات الشيخ:

نذكر منها:

«هذه مفاهيمنا»، «المعيار لعلم الغزالي»، «التكميل لما فات تخريجه صاحب إرواء الغليل».

◈ **شروحاته:**

نذكر منها:

شرحه لـ: «كتاب الفرقان»، «العقيدة الواسطية»، «العقيدة الطحاوية»، «نظم الورقات»، «الأصول الثلاثة»، «الأربعين النووية»، «كتاب التوحيد»، «كتاب الطهارة من بلوغ المرام»، «كشف الشبهات»، «كتاب فضل الإسلام»، «مسائل الجاهلية»، «لمعة الاعتقاد»، «الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ»، وغيرها كثير.

◈ ◈ ◈

مقدمات أصحاب الفضيلة العلماء

مقدمة العلامة
عبد العزيز الناصر الرشيد رَحِمَهُ اللَّهُ

الحمد لله العلي الكبير، المتعالي عن التشبيه والنظير، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، أحمده سبحانه علىٰ فضله الغزير، واشكره وشاكرُه بالمزيد جدير، وأُصلِّي وأسلِّم علىٰ عبده ورسوله محمد البشير النذير، أعرَف الخلق بربه وأنصحهم لأمته وأقدرهم علىٰ الإيضاح والتفسير، وعلىٰ آله وأصحابه الذين اقتفوا آثاره واستضاءوا بأنواره وسلكوا السبيل المستنير، وعضُّوا علىٰ سُنَّته بالنواجذ وحكَّموها في القليل والكثير، وعلىٰ أتباعهم الذين ورثوا علمهم واقتفوا أثرهم بدون غلوٍّ ولا تقصير.

◇ **أما بعد:**

فقد طلب مني بعض أبنائنا طلبة المعهد العلمي التعليقَ علىٰ «العقيدة الواسطية» لشيخ الإسلام ابن تيمية، فاعتذرت بِقِصر الباع، وقلة الاطلاع، فلم يفد فيهم معذرة ولا إقناع.

فإسعافًا لطلبتهم، ونزولًا علىٰ رغبتهم، أقدمت علىٰ التعليق، ملتقطًا ما نقلته من كتب أهل الإتقان والتحقيق، وكان غالب استمدادي من كتب الشيخين: شيخ

الإسلام ابن تيمية، وابن قيم الجوزية رحمهما الله تعالىٰ، وسميت هذا التعليق «التنبيهات السنية علىٰ العقيدة الواسطية»، والله أسأل أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، موجبًا للفوز لديه في جنات النعيم.

المؤلف

مقدمة العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

والصلاة والسلام علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين..

◈ **أما بعد:**

فإن هذا الكتاب الذي يسمىٰ «العقيدة الواسطية» ألَّفه حَبر الأمة في زمانه: أبو العباس شيخ الإسلام، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحَرَّاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، المتوفىٰ سنة (٧٢٨هـ).

ولهذا الرجل من المقامات -التي يُشكر عليها والتي نرجو من الله له المثوبة عليها- في الدفاع عن الحق ومهاجمة أهل الباطل ما يعلمه كل من تتبع كتبه وسبَرها، والحقيقة أنه مِن نِعَم الله علىٰ هذه الأمة؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كف به أمورًا عظيمة خطيرة علىٰ العقيدة الإسلامية.

وهذا الكتاب كتاب مختصر، يسمىٰ «العقيدة الواسطية»، ألَّفه شيخ الإسلام؛ لأنه حضر إليه رجل من قضاة واسط، شكا إليه ما كان الناس يعانونه من المذاهب المنحرفة فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته، فكتب هذه العقيدة التي تُعدُّ زُبدةً لعقيدة أهل السنة والجماعة فيما يتعلق بالأمور التي خاض الناس فيها بالبدع، وكثر فيها

الكلام والقيلُ والقال.

وقبل أن نبدأ الكلام على هذه الرسالة العظيمة نحب أن نبين أن جميع رسالات الرسل، من أولهم نوح عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، إلى آخرهم محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كلها تدعو إلى التوحيد.

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وذلك أن الخلق خُلقوا لواحد وهو الله عَزَّوَجَلَّ، خُلقوا لعبادته؛ لتتعلق قلوبهم به تألُّهًا وتعظيمًا، وخوفًا ورجاءً وتوكلًا، ورغبة ورهبة؛ حتى ينسلخوا عن كل شيء من الدنيا لا يكون مُعينًا لهم على توحيد الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الأمور، لأنك أنت مخلوق، لابد أن تكون لخالقك، قلبًا وقالبًا في كل شيء.

ولهذا كانت دعوة الرسل -عليهم الصلاة والسلام- إلى هذا الأمر المهم العظيم، عبادة الله وحده لا شريك له.

ولم يكن الرسل الذين أرسلهم الله عَزَّوَجَلَّ إلى البشر يدعون إلى توحيد الربوبية كدعوتهم إلى توحيد الألوهية، ذلك أن منكري توحيد الربوبية قليلون جدًّا، وحتى الذين ينكرونه هم في قرارة نفوسهم لا يستطيعون أن ينكروه، اللهم إلا أن يكونوا قد سُلبوا العقول المُدرِكة أدنى إدراك، فإنهم قد ينكرون هذا من باب المكابرة.

◇ **وقد قسَّم العلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ التوحيدَ إلى ثلاثة أقسام:**

أحدها: توحيد الربوبية:

وهو: «إفراد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في أمور ثلاثة: في الخلق، والمُلك، والتدبير».

دليل ذلك: قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]. ووجه الدلالة من الآية: أنه قدَّم فيها الخبر الذي من حقه التأخير، والقاعدة البلاغية: أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، ثم تأمل افتتاح هذه الآية بـ(ألا) الدالة علىٰ التنبيه والتوكيد: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، لا لغيره، فالخلق هذا هو، والأمر هو التدبير.

أما المُلك، فدليله مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٢٧]، فإن هذا يدل علىٰ انفراده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالمُلك، ووجه الدلالة من هذه الآية -كما سبق- تقديم ما حقه التأخير.

إذًا؛ فالرب عَزَّوَجَلَّ منفرد بالخلق والمُلك والتدبير.

فإن قلت: كيف تجمع بين ما قرَّرت وبين إثبات الخلق لغير الله، مثل قوله تعالىٰ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ومثل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المصورين: «**يقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»[1]، ومثل قوله تعالىٰ في الحديث القدسي: «**ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي**»[2]، فكيف تجمع بين قولك: إن الله منفرد بالخلق، وبين هذه النصوص؟

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٠٥)، ومسلم (٢١٠٧)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٥٣)، ومسلم (٢١١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فالجواب أن يقال: إن الخلق هو الإيجاد، وهذا خاص بالله تعالىٰ، أما تحويل الشيء من صورة إلىٰ أخرىٰ، فإنه ليس بخلق حقيقة، وإن سمي خلقًا باعتبار التكوين، لكنه في الواقع ليس بخلق تامٍّ، فمثلًا: هذا النَّجَّار صنع من الخشب بابًا، فيقال: خلق بابًا، لكن مادة هذه الصناعة الذي خلقها هو الله عَزَّوَجَلَّ، لا يستطيع الناس كلهم مهما بلغوا في القدرة أن يخلقوا عود أراك أبدًا، ولا أن يخلقوا ذرة، ولا أن يخلقوا ذبابًا.

واستمع إلىٰ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾﴾ [الحج: ٧٣].

(الذين): اسم موصول يشمل كل ما يُدعىٰ من دون الله من شجر وحجر وبشر وملَك وغيره، كل الذين يدعون من دون الله ﴿لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ [الحج: ٧٣]، ولو انفرد كل واحد بذلك، لكان عجزه من باب أولىٰ، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ﴾ [الحج: ٧٣]، حتىٰ الذين يدعون من دون الله لو سلبهم الذباب شيئًا، ما استطاعوا أن يستنقذوه من هذا الذباب الضعيف، ولو وقع الذباب علىٰ أقوىٰ مِلِك في الأرض، ومص من طِيبه، لا يستطيع هذا الملِك أن يستخرج الطِّيب من هذا الذباب، وكذلك لو وقع علىٰ طعامه، فإذًا: اللهُ عَزَّوَجَلَّ هو الخالق وحده.

فإن قلت: كيف تجمع بين قولك: إن الله منفرد بالمُلك وبين إثبات الملك للمخلوقين، مثل قوله تعالىٰ: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور: ٦١]، ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ

﴿أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦]؟

فالجواب: أن الجمع بينهما من وجهين:

الأول: أن مُلك الإنسان للشيء ليس عامًّا شاملًا، لأنني أملك ما تحت يدي، ولا أملك ما تحت يدك، والمُلك ملك لله عَزَّوَجَلَّ، فمِن حيث الشمول: مُلكُ الله عَزَّوَجَلَّ أشمل وأوسع، وهو ملك تام.

الثاني: أن ملكي لهذا الشيء ليس ملكًا حقيقيًّا أتصرف فيه كما أشاء، وإنما أتصرف فيه كما أمر الشرع، وكما أذن المالك الحقيقي، وهو الله عَزَّوَجَلَّ، ولو بعت درهمًا بدرهمين، لم أملك ذلك، ولا يحل لي ذلك، فإذًا: مُلكي قاصر، وأيضًا لا أملك فيه شيئًا من الناحية القدرية؛ لأن التصرف لله، فلا أستطيع أن أقول لعبدي المريض: ابرأ؛ فيبرأ، ولا أستطيع أن أقول لعبدي الصحيح الشحيح: امرض؛ فيمرض، لكن التصرف الحقيقي لله عَزَّوَجَلَّ، فلو قال له: ابرأ، برأ، ولو قال: امرض، مرض.

فإذًا: لا أملك التصرف المطلق شرعًا وقدرًا، فملكي هنا قاصر من حيث التصرف، وقاصر من حيث الشمول والعموم، وبذلك يتبين لنا كيف كان انفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالمُلك.

وأما التدبير، فللإنسان تدبير، ولكن نقول: هذا التدبير قاصر، كالوجهين السابقين في المُلك، ليس كل شيء أملك تدبيره إلا علىٰ وَفق الشرع الذي أباح لي هذا التدبير.

وحينئذ يتبين أن قولنا: «إن الله عَزَّوَجَلَّ منفرد بالخلق والملك والتدبير»: كلية عامة مطلقة، لا يستثنىٰ منها شيء؛ لأن كل ما أوردناه لا يعارض ما ثبت لله عَزَّوَجَلَّ من ذلك.

القسم الثاني: توحيد الألوهية:

وهو إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بالعبادة، بألا تكون عبدًا لغير الله، لا تعبد ملَكًا ولا نبيًّا ولا وليًّا ولا شيخًا ولا أُمًّا ولا أبًا، لا تعبد إلا الله وحده، فتُفرد الله عَزَّوَجَلَّ وحده بالتألُّه والتعبُّد، ولهذا يسمىٰ: توحيد الألوهية، ويسمىٰ: توحيد العبادة، فباعتبار إضافته إلىٰ الله هو توحيد ألوهية، وباعتبار إضافته إلىٰ العابد هو توحيد عبادة.

والعبادة مبنية علىٰ أمرين عظيمين؛ هما: المحبة، والتعظيم، الناتجُ عنهما: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فبالمحبة تكون الرغبة، وبالتعظيم تكون الرهبة والخوف.

ولهذا كانت العبادة أوامر ونواهيَ: أوامر مبنية علىٰ الرغبة وطلب الوصول إلىٰ الآمر، ونواهي مبنية علىٰ التعظيم والرهبة من هذا العظيم.

فإذا أحببت الله عَزَّوَجَلَّ، رغبتَ فيما عنده، ورغبت في الوصول إليه، وطلبت الطريق الموصل إليه، وقمت بطاعته علىٰ الوجه الأكمل، وإذا عظَّمته خفت منه، كلما هممت بمعصية، استشعرت عظمة الخالق عَزَّوَجَلَّ، فنفرت، ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ﴾ [يوسف: ٢٤]، فهذه من نعمة الله عليك، إذا هممت بمعصية، وجدت الله أمامك، فهبت وخفت وتباعدت عن المعصية؛ لأنك تعبد الله رغبة ورهبة.

فما معنى العبادة؟

العبادة: تطلق علىٰ أمرين، علىٰ الفعل والمفعول.

تطلق علىٰ الفعل الذي هو التعبُّد، فيقال: عبَد الرجل ربَّه عبادة وتعبدًا، وإطلاقها علىٰ التعبد من باب إطلاق اسم المصدر، ونعرِّفها باعتبار إطلاقها علىٰ الفعل بأنها: «التذلل لله عَزَّوَجَلَّ حبًّا وتعظيمًا، بفعل أوامره واجتناب نواهيه». وكل من ذل لله عز بالله، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: ٨].

وتطلق علىٰ المفعول، أي: المتعبَّد به؛ وهي بهذا المعنىٰ تُعرَّف بما عرَّفها به شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة».

هذا الشيء الذي تعبَّدنا اللهُ به يجب توحيد الله به، لا يُصرف لغيره، كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والدعاء، والنذر، والخشية، والتوكل... إلىٰ غير ذلك من العبادات.

فإن قلت: ما الدليل علىٰ أن الله منفرد بالألوهية؟

فالجواب:

هناك أدلة كثيرة، منها: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وأيضًا قوله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، لو لم يكن من فضل العلم إلا هذه المنقبة؛ حيث إن الله ما أخبر أن أحدًا شهد بألوهيته إلا أولو العلم، نسأل الله أن يجعلنا منهم: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، بالعدل، ثم قرر هذه

الشهادة بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٨﴾ [آل عمران: ١٨]، فهذا دليل واضح على أنه لا إلهَ إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، أشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأنتم تشهدون أن لا إلهَ إلا اللهُ، هذه الشهادة الحق.

إذا قال قائل: كيف تُقرُّونها مع أن الله تعالىٰ يثبت ألوهية غيره، مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ﴾ [القصص: ٨٨]، ومثل قوله: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، ومثل قوله: ﴿فَمَآ أَغۡنَتۡ عَنۡهُمۡ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ [هود: ١٠١]، ومثل قول إبراهيم: ﴿أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ۝٨٦﴾ [الصافات: ٨٦]، إلىٰ غير ذلك من الآيات، كيف تجمع بين هذا وبين الشهادة بأن لا إلهَ إلا اللهُ؟

فالجواب: أن ألوهية ما سوىٰ الله ألوهية باطلة، مجرد تسمية، ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ [النجم: ٢٣]، فألوهيتها باطلة، وهي وإن عُبدت وتَألَّه إليها مَن ضلَّ، فإنها ليست أهلًا لأنْ تُعبد، فهي آلهة معبودة، لكنها آلهة باطلة، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ۝٣٠﴾ [لقمان: ٣٠].

وهذان النوعان من أنواع التوحيد لا يجحدهما ولا ينكرهما أحد من أهل القبلة المنتسبين إلىٰ الإسلام؛ لأن الله تعالىٰ موحَّد بالربوبية والألوهية، لكن حصل فيما بعد أن من الناس من ادعىٰ ألوهية أحد من البشر، كغلاة الرافضة مثلًا، الذين يقولون: إن عليًّا إله، كما صنع زعيمهم عبد الله بن سبأ؛ حيث جاء إلىٰ علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقال له: أنت الله حقًّا. لكن عبد الله بن سبأ أصله يهودي دخل في

دين الإسلام بدعوىٰ التشيع لآل البيت؛ ليفسد علىٰ أهل الإسلام دينهم، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقال: «إن هذا صنع كما صنع بولس حين دخل في دين النصارىٰ ليفسد دين النصارىٰ».

هذا الرجل (عبد الله بن سبأ) قال لعلي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أنت الله حقًّا. وعلي بن أبي طالب لا يرضىٰ أن أحدًا ينزله فوق منزلته هو؛ حتىٰ إنه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مِن إنصافه وعدله وعلمه وخبرته كان يقول علىٰ منبر الكوفة: «خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر»(١)، يعلن ذلك في الخطبة، وقد تواتر النقل عنه بذلك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، والذي يقول هكذا ويقر بالفضل لأهله من البشر، كيف يرضي أن يقول له قائل: إنك أنت الله؟! ولهذا عزَّرهم أبشع تعزير، أمر بالأخاديد فخُدَّت، ثم مُلئت حطبًا وأوقدت، ثم أتىٰ بهؤلاء فقذفهم في النار وأحرقهم بها؛ لأن فريتهم عظيمة -والعياذ بالله- وليست هينة.

ويقال: إن عبد الله بن سبأ هرب ولم يمسكوه؛ المهم أن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أحرق السبئية بالنار؛ لأنهم ادعوا فيه الألوهية.

فنقول: كل من كان من أهل القبلة لا ينكرون هذين النوعين من التوحيد؛ وهما: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وإن كان يوجد في بعض أهل البدع من يؤلِّه أحدًا من البشر.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧١)، عن محمد بن الحنفية قال: «قلت لأبي: أي الناس خير بعد رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؟ قال: أبو بكر، قال: قلت: ثم من؟ قال: ثم عمر...».

لكن الذي كثر فيه النزاع بين أهل القبلة هو:

القسم الثالث: وهو توحيد الأسماء والصفات:

هذا هو الذي كثر فيه الخوض، فانقسم الناس فيه إلىٰ ثلاثة أقسام، وهم: ممثِّل، ومعطِّل، ومعتدل، والمعطِّل: إما مكذِّب أو محرِّف.

وأول بدعة حدثت في هذه الأمة هي بدعة الخوارج؛ لأن زعيمهم خرج علىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو ذو الخويصرة من بني تميم، حين قسَم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذهبية جاءت فقسَمها بين الناس، فقال له هذا الرجل: يا محمد، اعدل(١)، فكان هذا أول خروج خُرِج به علىٰ الشريعة الإسلامية، ثم عظمت فتنتهم في أواخر خلافة عثمان، وفي الفتنة بين علي ومعاوية، فكفَّروا المسلمين واستحلوا دماءهم.

ثم حدثت بدعة القدرية مجوسي هذه الأمة الذين قالوا: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يُقدِّر أفعال العباد، وليست داخلةً تحت مشيئته، وليست مخلوقة له، بل كان زعماؤهم وغلاتهم يقولون: إنها غير معلومة لله، ولا مكتوبة في اللوح المحفوظ، وأن الله لا يعلم بما يصنع الناس، إلا إذا وقع ذلك، ويقولون: إن الأمر أُنُف، أي: مستأنَف، وهؤلاء أدركوا آخر عصر الصحابة، فقد أدركوا زمن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجماعة من الصحابة، لكنه في أواخر عصر الصحابة.

ثم حدثت بدعة الإرجاء، وأدركت زمنَ كثير من التابعين، والمرجئة هم الذين

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٠)، ومسلم (١٠٦٣)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يقولون: إنه لا تضر المعصية! أنت مؤمن؟ تقول: نعم، يقول لك: لا تضرك المعصية مع الإيمان، تزني وتسرق وتشرب الخمر، وتقتل ما دمت مؤمنًا، فأنت مؤمن كامل الإيمان وإن فعلتَ كل معصية!

لكن قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن كلام القدرية والمرجئة حين رده بقايا الصحابة كان في الطاعة والمعصية والمؤمن والفاسق، لم يتكلموا في ربهم وصفاته.

فجاء قوم من الأذكياء ممن يدَّعون أن العقل مقدَّم علىٰ الوحي، فقالوا قولًا بين القولين -قولِ المرجئة وقول الخوارج- قالوا: الذي يفعل الكبيرة ليس بمؤمن كما قاله المرجئة، وليس بكافر كما قاله الخوارج، بل هو في منزلة بين منزلتين، كرجل سافر من مدينة إلىٰ أخرىٰ فصار في أثناء الطريق، فلا هو في مدينته ولا في التي سافر إليها، بل في منزلة بين منزلتين، هذا في أحكام الدنيا، أما في الآخرة، فهو مخلَّد في النار، فهم يوافقون الخوارجَ في الآخرة، لكن في الدنيا يخالفونهم.

ظهرت هذه البدعة وانتشرت، ثم حدثت بدعة الظلمة والجهَمة، وهي بدعة جهم بن صفوان وأتباعه، ويسمون الجهمية، حدثت هذه البدعة، وهي لا تتعلق بمسألة الأسماء والأحكام، مؤمن أم كافر أم فاسق، ولا في منزلة بين منزلتين، بل تتعلق بذات الخالق، انظر كيف تدرَّجت البدع في صدر الإسلام، حتىٰ وصلوا إلىٰ الخالق جَلَّ وَعَلَا، وجعلوا الخالق بمنزلة المخلوق، يقولون كما شاؤوا، فيقولون: هذا ثابت لله، وهذا غير ثابت، هذا يقبل العقل أن يتصف الله به، وهذا لا يقبل العقل أن يتصف به، فحدثت بدعة الجهمية والمعتزلة، فانقسموا في أسماء الله وصفاته إلىٰ أقسام متعددة:

١- قسم قالوا: لا يجوز أبدًا أن نصف اللهَ لا بوجود ولا بعدم؛ لأنه إن وُصف بالوجود، أشبه الموجودات، وإن وُصف بالعدم، أشبه المعدومات، وعليه يجب نفي الوجود والعدم عنه، وما ذهبوا إليه، فهو تشبيه للخالق بالممتنعات والمستحيلات؛ لأن تقابل العدم والوجود تقابل نقيضين، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، وكل عقول بني آدم تنكر هذا الشيء ولا تقبله، فانظر كيف فروا من شيء فوقعوا في أشر منه!

٢- وقسم آخر قالوا: نصفه بالنفي ولا نصفه بالإثبات، يعني: أنهم يجوزون أن تُسلب عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الصفات لكن لا تُثبت، يعني: لا نقول: هو حي، وإنما نقول: ليس بميت! ولا نقول: عليم، بل نقول: ليس بجاهل... وهكذا. قالوا: لو أثبت له شيئًا شبهته بالموجودات؛ لأنه على زعمهم كل الأشياء الموجودة متشابهة، فأنت لا تثبت له شيئًا، وأما النفي، فهو عدم، مع أن الموجود في الكتاب والسنة في صفات الله من الإثبات أكثر من النفي بكثير.

قيل لهم: إن الله قال عن نفسه: سميع بصير.

قالوا: هذا من باب الإضافات، بمعنى: نُسِب إليه السمع؛ لا لأنه متصف به، ولكن لأن له مخلوقًا يسمع، فهو من باب الإضافات، فـ(سميع)، يعني: ليس له سمع، لكن له مسموع.

وجاءت طائفة ثانية، قالوا: هذه الأوصاف لمخلوقاته، وليست له، أما هو، فلا يثبت له صفة.

٣- وقسم قالوا: يثبت له الأسماء دون الصفات، وهؤلاء هم المعتزلة أثبتوا

أسماء الله، قالوا: إن الله سميع بصير قدير عليم حكيم... لكن قدير بلا قدرة، سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، عليم بلا علم، حكيم بلا حكمة.

٤- وقسم رابع قالوا: نثبت له الأسماء حقيقة، ونثبت له صفات معينة دل عليها العقل وننكر الباقي، نثبت له سبع صفات فقط والباقي ننكره تحريفًا لا تكذيبًا، لأنهم لو أنكروه تكذيبًا، كفروا، لكن ينكرونه تحريفًا وهو ما يدَّعون أنه «تأويل».

الصفات السبع هي مجموعة في قوله:

لـــه الحيـــاةُ والكـــلامُ والبصـــرْ سَـــمعٌ إرادةٌ وعِلـــمٌ واقتـــدرْ

فهذه الصفات نثبتها لأن العقل دل عليها، وبقية الصفات ما دل عليها العقل، فنثبت ما دل عليه العقل، وننكر ما لم يدل عليه العقل، وهؤلاء هم الأشاعرة، آمنوا بالبعض، وأنكروا البعض.

فهذه أقسام التعطيل في الأسماء والصفات، وكلها متفرعة من بدعة الجهم، **«ومن سن في الإسلام سنة سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلىٰ يوم القيامة»**(١).

فالحاصل: أنكم أيها الإخوة لو طالعتم في كتب القوم التي تعتني بجمع أقاويل الناس في هذا الأمر، لرأيتم العجب العجاب، الذي تقولون: كيف يتفوه عاقل -فضلًا عن مؤمن- بمثل هذا الكلام؟! ولكن مَن لم يجعل الله له نورًا، فما له من نور! الذي أعمىٰ الله بصيرتَه كالذي أعمىٰ الله بصره، فكما أن أعمىٰ البصر لو وقف أمام الشمس التي تكسر نور البصر لم يرها، فكذلك من أعمىٰ الله بصيرته لو وقف أمام أنوار الحق

(١) أخرجه مسلم (١٠١٧)، من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ما رآها، والعياذ بالله.

ولهذا ينبغي لنا دائمًا أن نسأل الله تعالىٰ الثباتَ علىٰ الأمر، وأن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا؛ لأن الأمر خطير، والشيطان يدخل علىٰ ابن آدم من كل صوب، ومن كل وجه، ويشككه في عقيدته، وفي دينه، وفي كتاب الله وسنة رسوله؛ فهذه في الحقيقة البدع التي انتشرت في الأمة الإسلامية.

ولكن -ولله الحمد- ما ابتدع أحد بدعة، إلا قيَّض الله له بمَنِّه وكرمه من يبين هذه البدعة ويدحضها بالحق، وهذا من تمام مدلول قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحِجر: ٩]، هذا من حفظ الله لهذا الذكر، وهذا -أيضًا- هو مقتضىٰ حكمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله تعالىٰ جعل محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم النبيين، والرسالة لابد أن تبقىٰ في الأرض، وإلا لكان للناس حجة علىٰ الله، وإذا كانت الرسالة لابد أن تبقىٰ في الأرض، لزم أن يقيِّض اللهُ عَزَّوَجَلَّ بمقتضىٰ حكمته عند كل بدعة من يُبيِّنها ويكشف عَورها، وهذا هو الحاصل.

ولهذا أقول لكم دائمًا: احرصوا علىٰ العلم؛ لأننا في هذا البلد في مستقبل إذا لم نتسلح بالعلم المبني علىٰ الكتاب والسنة، فيوشك أن يحل بنا ما حل في غيرنا من البلاد الإسلامية، وهذا البلد الآن هو الذي يركز عليه أعداء الإسلام ويسلطون عليه سهامهم، من أجل أن يضلوا أهلها، فلذلك تسلحوا بالعلم، حتىٰ تكونوا علىٰ بيِّنة من أمر دينكم، وحتىٰ تكونوا مجاهدين بألسنتكم وأقلامكم لأعداء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وكل هذه البدع انتشرت بعد الصحابة، فالصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لم يكونوا يبحثون في هذه الأمور، لأنهم يتلقون الكتاب والسنة علىٰ ظاهرهما وعلىٰ ما تقتضيه الفطرة،

والفطرة السليمة سليمة، لكن أتىٰ هؤلاء المبتدعون، فابتدعوا في دين الله تعالىٰ ما ابتدعوا، إما لقلة علمهم، أو لقصور فَهمهم، أو لسوء قصدهم، فأفسدوا الدنيا بهذه البدع التي ابتدعوها، ولكن كما قلنا: إن الله تعالىٰ بحكمته وحمده ومنته وفضله ما من بدعة خرجت إلا قيَّض الله لها من يدحضها ويبينها.

ومن جملة الذين بينوا البدع وقاموا قيامًا تامًّا بدحضها: شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وأسأل الله لي ولكم أن يجمعنا في جنات النعيم.

هذا الرجل الذي نفع الله بما آتاه من فضله ومَنَّ علىٰ الأمة بمثله أَلَّف هذه «العقيدة» كما قلت: إجابةً لطلب أحد قضاة واسط الذي شكا إليه ما كان الناس عليه من البدع، وطلب منه أن يؤلف هذه «العقيدة» فألَّفها.

◈ ◈ ◈

مقدمة العلامة
صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، وصفيه وخليله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلىٰ يوم الدين.

◇ **أما بعد:**

فأسأل الله عَزَّوَجَلَّ لي ولكم العلم النافع والعمل الصالح، وأن ينوِّر بصائرنا بالعلم والهدىٰ، وأن يقيم أعمالنا بدين الحق الذي أرسل به رسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فهذا شرح «العقيدة الواسطية» التي كتبها شيخ الإسلام والمسلمين، علم الدين وتقي الدين: أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ثم الدمشقي، الإمام المعروف المتوفىٰ سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، رحمه الله تعالىٰ وأجزل له المثوبة.

كتب هذه العقيدة إلىٰ أهل «واسط» يبين لهم فيها اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة، أهل السنة والجماعة من سلف هذه الأمة ومن تبعهم علىٰ هذا الاعتقاد

إلىٰ وقته رحمه الله تعالىٰ.

وهذه الرسالة علىٰ وجازتها واختصارها قد اعتنىٰ بها العلماء بعد شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأنها قد شملت من أصول عقائد أهل السنة والجماعة علىٰ الخلاصة الوافية، فقد ذكر فيها رَحِمَهُ ٱللَّهُ أصول الاعتقاد: ذكر فيها شرح أركان الإيمان الستة، وذكر فيها ما يجب لله تعالىٰ من صفات الكمال، وما يوصف الله عَزَّوَجَلَّ به، والأصل في ذلك مخالفة المبتدعين والضالين في باب الأسماء والصفات، وذكر ما يتصل بذلك من الإيمان بالأمور الغيبية، والإيمان بالكتب والرسل وبالقدر خيره وشرِّه.

وبيَّن فيها أن من أصول أهل السنة والجماعة الأحكام المتعلقة بالإمامة العظمىٰ، وكذلك ما يجب لولاة الأمر من حق السمع والطاعة، مخالفةً للخوارج وأشباههم ممن خالفوا أهل السنة والجماعة في ذلك.

وذكر اعتقاد السلف الصالح في صحابة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن ذلك من الواجبات الشرعية الاعتقادية؛ لأن فيه مخالفةً لأهل البدع من الروافض ومن شابههم، الذين لا يتولون جميعَ أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وذكر أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وذكر أصول الأخلاق عند أهل السنة والجماعة.

وبهذا الذي ذكره في هذه الرسالة العظيمة المختصرة يتبين أن اعتقاد أهل السنة والجماعة يشمل ثلاثة أصول:

الأول: العقيدة العامة في الله عَزَّوَجَلَّ، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر،

والقدر خيره وشره.

الثاني: مسائل الإمامة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والكلام في ما يتصل بذلك من الكلام في الصحابة رضوان الله عليهم.

الثالث: الكلام في أخلاق أهل السنة والجماعة.

وهذه هي الأمور الثلاثة التي فصَّل فيها شيخ الإسلام في هذه الرسالة العظيمة، وهذه الرسالة هي وجيزة الألفاظ لكنها هي مدرسةٌ للعلم بمنهج واعتقاد أهل السنة والجماعة.

وذلك الاعتقاد وتفصيله في كتب شيخ الإسلام -رحمه الله تعالىٰ- فكُتب شيخ الإسلام تُعَد شرحًا لهذه «العقيدة الواسطية»، فأحسن شرح لهذه العقيدة ما نثره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في كتبه وفصَّله وبيَّنه من أصول هذا الاعتقاد.

كذلك تلميذه العلامة ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- إذ لا أحسن في فَهم كلام شيخ الإسلام من شرحه هو نفسه في مصنفاته الأخرىٰ، وكذلك في فهم تلميذه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

هذه العقيدة المباركة لها شروح كثيرةٌ، ومن أعظمها نفعًا وأدقها لفظًا الشرح المسمىٰ بـ«التنبيهات السنية علىٰ العقيدة الواسطية» للشيخ العلامة عبد العزيز بن رشيد -رحمه الله تعالىٰ-، فإن هذا الشرح من أنفس شروح هذه العقيدة الواسطية، فقد بيَّن من مسائل هذه العقيدة ومن ألفاظها ما يكفي طالب العلم في هذا الباب -أعني باب الاعتقاد- لأنه ذكر فيها من العلم الواسع الغزير ما لو اكتفىٰ به طالب علم

في بيان عقيدة أهل السنة والجماعة لكفاه.

ولهذا أحض من أراد شرحًا علىٰ هذه العقيدة علىٰ هذا الكتاب، ألا وهو «التنبيهات السنية علىٰ العقيدة الواسطية» للشيخ ابن رشيد -رحمه الله تعالىٰ-.

من المقدمات المهمة قبل الشروع في شرحٍ لهذه العقيدة أن نبين أن هذه العقيدة المباركة -وكذلك سائر كتب شيخ الإسلام ابن تيمية- بيَّن فيها عقيدة السلف، وفصَّل فيها ما ذكره السلف في كتبهم من الاعتقاد، وكُتب شيخ الإسلام تتميز علىٰ كتب السلف، يعني: من كُتب أصحاب الإمام أحمد، ومن تبعهم ومن تلاهم زمنًا، تتميز هذه العقيدة وسائر كتب شيخ الإسلام ابن تيمية عن تلكم الكتب الكثيرة في الاعتقاد بمزايا، منها:

أولًا: أن شيخ الإسلام ﷀ قد فهم ما قاله الأئمة من قبل، فصاغه بصياغةٍ تجمع أقوالهم بأدلتها وببيان معانيها، فهو خير من فهم كلام الأئمة من قبل.

ثانيًا: أنه -رحمه الله تعالىٰ- قد بلغ في فهم نصوص الكتاب والسنة المبلغَ والدرجة التي شهد له بها أهلُ عصره ومن تلاهم، ومن المعلوم أن أدلة الاعتقاد هي نصوص الكتاب والسنة، ثم هو مع هذا اطلع علىٰ كلام الصحابة، وكلام التابعين، ومن تبعهم، في تفسير معاني نصوص الكتاب والسنة؛ ولهذا كلام شيخ الإسلام في بيان معاني الكتاب والسنة يعد أحسن كلامٍ للعلماء المتأخرين، يعني: بعد الأئمة المشهورين.

ثالثًا: أن شيخ الإسلام استحضر، حين كتابتها، أقوال أهل البدع والمخالفين وحججهم، وهو يذكر ما يذكر من الاحتجاجات مستحضرًا تلك الأقوال وتلك

الاعتراضات من أهل البدع، أو تلكم الأقوال المنحرفة من أهل البدع علىٰ اختلاف أنواعهم. ومعلومٌ أن حال الكاتب أو المؤلف الذي يؤلف وهو علىٰ هذه الدرجة العظيمة من الاستحضار، أنه يقول مُنْبِئًا عما يكون فصلًا في هذه المسائل.

رابعًا: أن شيخ الإسلام أوضح في هذه العقيدة كثيرًا من المجملات التي ربما كانت في كلام السلف، فقد تجد في كلام المتقدمين من أهل القرون المفضلة كلامًا في الاعتقاد، وربما أُجْمِلَ في مواضع وَفُصِّلَ في مواضع، وشيخ الإسلام يستحضر هذا وذاك ويذكر الكلام المجمل والمفصَّلَ كُلٌّ في مكانه، ويوضح ذلك بحيث إن من فهم كلام شيخ الإسلام وفهم كتبه رحمه الله ثم بعد فهمه لذلك وبراعته فيه رجع إلىٰ كتب السلف فإنه يفهمها فهمًا مصيبًا علىٰ ما ينبغي.

وأما من ترك التفقه في كتب شيخ الإسلام رحمه الله فربما زلَّ في فهمه لبعض كلام السلف وكلام الأئمة؛ لأن بعضهم ربما وقع في كلامه إجمال، أو وقع في كلامه رعاية لحال السائل، أو نحو ذلك من الأسباب التي لا يمكن المجيب معها أن يفصِّل التفصيل المطلوب.

لهذا نقول: إن العناية بهذه العقيدة مما حث عليه العلماء قديمًا وحديثًا، فلا غرو أن يُوصىٰ طلبة العلم بهذه العقيدة، وبفهم ألفاظها ومعاني الألفاظ، ومعاني ما فيها من الأدلة والاستدلال والحجج؛ لأن فيها خيرًا عظيمًا.

◇ ◇ ◇

متن

العقيدة الواسطية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا.

وأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا مَزِيدًا.

أَمَّا بَعْدُ؛ فَهَذَا اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَىٰ قِيَامِ السَّاعَةِ (أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ):

وَهُوَ: الإِيمَانُ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ.

بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾[الشورى: ١١].

فَلَا يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وآيَاتِهِ، وَلَا يُكَيِّفُونَ وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ.

لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: لَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَا كُفْءَ لَهُ، وَلَا نِدَّ لَهُ.

ولَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلًا، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ. ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مُصَدَّقُونَ(١)؛ بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ.

وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢]. فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ؛ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيمَا وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ.

فَلَا عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَت بِهِ الْمُرْسَلُونَ؛ فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ.

وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلَاصِ الَّتِي تَعْدِلُ

---

(١) في نسخة: «مصدوقون».

ثُلُثَ الْقُرْآنِ، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ؛ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥] [أَيْ: لَا يُكْرِثُهُ وَلَا يُثْقِلُهُ].

وَلِهَذَا كَانَ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ، لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّىٰ يُصْبِحَ(١).

وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ [الزُّخرُف: ٨٤](٢)، وَهُوَ ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التحريم: ٣]، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [الحديد: ٤]، ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا (٤/ ٤٨٧/ فتح)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) في نسخة: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ١٨].

تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١].

وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة:٢٥٣]، ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ [المائدة: ١]، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾ [الحُجرات: ٩]، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾﴾ [التوبة: ٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢]، ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾ [الصف: ٤]. ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي

يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤﴾ [البروج: ١٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ [الفاتحة: ١]، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٠٧﴾ [يونس: ١٠٧، الأحقاف: ٨]، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٦٤﴾ [يوسف: ٦٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩، التوبة: ١٠٠، المجادلة: ٢٢، البينة: ٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء: ٩٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [محمد: ٢٨]، ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزُّخرُف: ٥٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ [الفجر: ٢١، ٢٢]،

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧]، ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ١٣، ١٤]، ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة: ١]، ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟﴾ [آل عمران: ١٨١]، وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزُّخرف: ٨٠]، ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦]، ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ١٤]، ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٨ - ٢٢٠]، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد: ١٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا

مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل: ٥٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء: ١٤٩]، ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوٓا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: ٨]، وَقَوْلُهُ عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: ٨٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: ٧٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١]، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [التغابن: ١].

وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ١، ٢]، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ

إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل: ٧٤]، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤، يونس: ٣، الرعد: ٢، الفرقان: ٥٩، السجدة: ٤، الحديد: ٤] في ستة مواضع(١).

وَقَوْلُهُ: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]؛ ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

وَقَوْلُهُ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك: ١٦، ١٧]، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤].

---

(١) ورد في عدد من النسخ: «في سبعة مواضع»، ويعنون به أن الاستواء تكرر في سبعة مواضع من القرآن الكريم، لكن ورد في نسخ أخرى: «في ستة مواضع»، أي أن الآية: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تكررت في القرآن الكريم ست مرات.

وَقَوْلُهُ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]، ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦] وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: ٥٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الشعراء: ١٠]، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وَقَوْلُه: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص: ٦٢، ٧٤]. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص: ٦٥].

وَقَوْلُه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ

بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ [البقرة: ٧٥]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ [الفتح: ١٥]، ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الكهف: ٢٧]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [النمل: ٧٦]، وَقَوْلُه: ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢، الأنعام: ١٥٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠١ - ١٠٣].

وَقَوْلُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المطففين: ٢٣، ٣٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣٥].

وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللهِ تعالىٰ كَثِيرٌ، مَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَىٰ مِنْهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ.

ثُمَّ سُنَّةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ، وتُبَيِّنُهُ، وتَدُلُّ عَلَيْهِ، وتُعَبِّرُ عَنْهُ، وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ وَجَبَ الإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ.

مِثْلُ قَوْلِهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يَنزِلُ رَبُّنَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَىٰ ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ التَّائِبِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ»(٢). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «يَضْحَكُ اللهُ إِلَىٰ رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ؛ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»(٣). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ»(٤). حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَقَوْلُهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَىٰ فِيهَا وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٢١)، ومسلم (٧٥٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤)، وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٤) لم أجده بهذا اللفظ، ولكن بلفظ: «يضحك»، أو: «ضحك»؛ بدل: «عجب».

والحديث أخرجه ابن ماجه (١٨١)، وأحمد (٤/ ١١)، والطيالسي (١٠٩٢)، والآجري في «الشريعة» (ص٢٧٩)، واللالكائي «شرح أصول الاعتقاد» (٣/ ٤٢٦)؛ كلهم من طريق وكيع بن حُدُس -وقيل: عُدُس- عن عمه أبي رزين، وحسنه العلامة الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ في «الصحيحة» (٢٨١٠).

حَتَّىٰ يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ [وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيْهَا قَدَمَهُ(١)] فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ»(٢). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: «يَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا آدَمُ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِن ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَىٰ النَّارِ»(٣). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حَاجِبٌ وَلَا تَرْجُمَانٌ»(٤).

وَقَوْلُهُ فِي رُقْيَةِ الْمَرِيضِ: «رَبَّنَا اللهَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ؛ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَىٰ هَذَا الْوَجَعِ؛ فَيَبْرَأَ»(٥). حَدِيثٌ حَسَنٌ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

وَقَوْلُهُ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»(٦) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ.

---

(١) في بعض النسخ: «رِجْلَهُ».

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٨٤)، ومسلم (٣٨/ ٢٨٤٨)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢)، وغيرهما من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٣٩)، ومسلم (٦٧/ ١٠١٦)، وغيرهما من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه أبو داود (٣٨٩٢)، وأحمد (٦/ ٢١)، وغيرهما من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «المشكاة» (١٥٥٥).

(٦) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤)، وغيرهما من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذلك، وَاللهُ فَوْقَ عَرْشِهِ(١)، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ»(٢). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمَا.

وَقَوْلُهُ لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللهُ؟». قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «مَنْ أَنَا؟». قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ. قَالَ: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»(٣). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ الإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ»(٤). حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَقَوْلُهُ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ الصَّلاةِ؛ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، فَلا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلا عَنْ يَمِينِهِ؛ وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ»(٥). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَالأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ

---

(١) في نسخة: «والعرش فوق الماء والله فوق العرش» حديث حسن رواه أبو داود وغيره.

(٢) أخرجه -بمعناه- أبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، من حديث العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وضعفه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «ضعيف سنن أبي داود».

(٣) أخرجه مسلم (٥٣٧)، وأبو داود (٩٣٠)، وغيرهما من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٥٤١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٢٤)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٦٠): رواه الطبراني في «الأوسط» و«الكبير»، وقال: تفرد به عثمان بن كثير. قلت: ولم أر مَن ذكره بثقة ولا جرح. اهـ. وضعفه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «ضعيف الجامع» برقم (١٠٠٢).

(٥) أخرجه البخاري (٤١٣)، ومسلم (٥٥١)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ، مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ؛ اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ»(١). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَوْلُهُ لَمَّا رَفَعَ أَصْحَابُهُ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ: «أَيُّهَا النَّاسُ! ارْبَعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، إِنَّ الَّذي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»(٢). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وقَوْلُهُ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَىٰ صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا؛ فَافْعَلُوا»(٣). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

إِلَىٰ أَمْثَالِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رِسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن رَبِّهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ؛ فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ؛ كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ؛ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٩)، ومسلم (٢٧٠٤)، وغيرهما من حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣)، وغيرهما من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بَلْ هُمُ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الأُمَّةِ؛ كَمَا أَنَّ الأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الأُمَمِ:

فَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّةِ، وَأَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشَبِّهَةِ.

وَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ اللهِ بَيْنَ الْقَدَرِيَّةِ وَالْجَبْرِيَّةِ.

وَفِي بَابِ وَعِيدِ اللهِ بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَبين الْوَعِيدِيَّةِ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ [وَالخَوَارِجِ] وَغَيْرِهِمْ.

وَفِي بَابِ [أَسْمَاءِ] الإِيمَانِ والدِّينِ بَيْنَ الْحَرُورِيَّةِ وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ.

وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ الرَّوَافِضِ وَالْخَوَارِجِ.

وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ الإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَنْ رَسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ؛ مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فَوْقَ سَمَوَاتِهِ، عَلَىٰ عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا، يَعْلَمُ مَا هُمْ [عَلَيْهِ وَمَا هُمْ] عَامِلُونَ، كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ [الحديد: ٤]، وَلَيْسَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ، وَهُوَ خِلَافُ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ، وَخِلَافُ مَا فَطَرَ اللهُ عَلَيْهِ الخَلْقَ، بَلِ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ، ثُمَّ هُوَ مَوْضُوعٌ

فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ [وَغَيْرِ الْمُسَافِرِ] أَيْنَمَا كَانَ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ العَرْشِ، رَقِيبٌ عَلَىٰ خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ، مُطَّلِعٌ إِلَيْهِمْ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَٰلِكَ مِنْ مَعَانِي الرُّبُوبِيَّةِ.

وَكُلُّ هَٰذَا الْكَلامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ مِنْ أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَأَنَّهُ مَعَنَا: حَقٌّ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ، لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ؛ [مِثْلِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أَنَّ السَّمَاءَ تُظِلُّهُ أَوْ تُقِلُّهُ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَهُوَ الَّذِي يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَىٰ الأَرْضِ؛ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ](١).

وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَٰلِكَ الإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مِنْ خَلْقِهِ [مُجِيبٌ]؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦]، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»(٢).

وَمَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ لَا يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ.

---

(١) زيادة من نسخة.

(٢) سبق تخريجه.

وَمِنَ الإِيمَانِ به وَبكُتُبِهِ: الإِيمَانُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَىٰ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ كَلَامُ اللهِ حَقِيقَةً، لَا كَلَامُ غَيْرِهِ.

وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللهِ، أَوْ عِبَارَةٌ؛ بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللهِ تَعَالَىٰ حَقِيقَةً، فَإِنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَىٰ مَنْ [تَكَلَّمَ بِهِ](١) مُبْتَدِئًا، لَا إِلَىٰ مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا.

[وَهُوَ كَلَامُ اللهِ؛ حُرُوفُهُ، وَمَعَانِيهِ؛ لَيْسَ كَلَامُ اللهِ الْحُرُوفَ دُونَ الْمَعَانِي، وَلَا الْمَعَانِيَ دُونَ الْحُرُوفِ](٢).

وَقَد دَخَلَ -أَيْضًا- فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِكُتُبِهِ وَبِرُسُلِهِ: الإِيمَانُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ، وَكَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا يُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ(٣). يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ؛ كَمَا يَشَاءُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَمِنَ الإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الآخِرِ: الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ. فَأَمَّا الْفِتْنَةُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُمْتَحَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟

(١) في نسخة: «قاله».

(٢) زيادة من نسخة.

(٣) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣)، وغيرهما من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فـ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم: ٢٧] فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: اللهُ رَبِّي، وَالإِسْلَامُ دِينِي، وَمُحَمَّدٌ نَبِيِّي.

وَأَمَّا الْمُرْتَابُ؛ فَيَقُولُ: آهْ آهْ[1]؛ لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ، فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَّةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ إِلَّا الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ؛ لَصُعِقَ[2].

ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ [إِلَىٰ يَوْمِ][3] الْقِيَامَةِ الْكُبْرَىٰ، فَتُعَادُ الأَرْوَاحُ إِلَىٰ الأَجْسَادِ.

وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ. فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا[4]، وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، وَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ[5]. وَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ، فَيُوزَنُ فِيهَا أَعْمَالُ

---

(١) هكذا هنا، وفي «أبي داود» و«المسند»: «هاه هاه»، وعند البقية: «لا أدري».

(٢) يشير لما أخرجه البخاري (١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويشير -أيضًا- إلىٰ حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه أبو داود (٤٧٥٣)، واللفظ له، وأحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨)، وغيرهما، وقد صححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ وساقه سياقًا واحدًا، وضم إليه جميع الزوائد والفوائد التي وردت في طرقه الثابتة وذلك في كتابه النافع «أحكام الجنائز» (ص١٥٦-١٥٩).

(٣) في نسخة: «إلىٰ أن تقوم».

(٤) أخرجه البخاري (٦٥٢٤-٦٥٢٥)، ومسلم (٢٨٦٠)، وغيرهما من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) أخرجه مسلم (٢٨٦٤)، وغيره من حديث المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْعِبَادِ: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣].

وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ، وَهِيَ صَحَائِفُ الأَعْمَالِ، فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

وَيُحَاسِبُ اللهُ [الخَلْقَ](١)، وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ؛ كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَأَمَّا الْكُفَّارُ؛ فَلَا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُ لَا حَسَنَاتَ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ، وتُحْصَىٰ، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا وَيُجْزَوْنَ بِهَا.

وَفِي عَرْصَةِ الْقِيَامَةِ الْحَوْضُ الْمَوْرُودُ لِمُحَمَّدٍ ﷺ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَىٰ مِنَ الْعَسَلِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهْرٌ، وآنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً؛ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا(٢).

وَالصِّرَاطُ مَنْصُوبٌ عَلَىٰ مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالرِّيحِ، ومِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ، وَمِنْهُم مَن

---

(١) في نسخة: «الخلائق».

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢)، وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

يَمُرُّ كَرِكَابِ الإِبِلِ، ومِنْهُم مَن يَعْدُو عَدْوًا، وَمِنْهُم مَن يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُم مَن يَزْحَفُ زَحْفًا، وَمَنْهُم مَن يُخْطَفُ فيُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّ الْجِسْرَ عَلَيْهِ كَلَالِيبُ تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، فَمَنْ مَرَّ عَلَىٰ الصِّرَاطِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ. فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ؛ وَقَفُوا عَلَىٰ قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِم مِن بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا؛ أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ(١).

وَأَوَّلُ مَنْ يَسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢)، وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُهُ(٣).

وَلَهُ فِي الْقِيَامَةِ ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ:

أَمَّا الشَّفَاعَةُ الأُولَىٰ: فَيَشفَعُ لِأَهْلِ الْمَوْقِفِ حَتَّىٰ يُقْضَىٰ بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَرَاجَعَ الأَنْبِيَاءُ؛ آدَمُ، وَنُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَىٰ، وَعِيسىٰ ابْنُ مَرْيَمَ -عَلَيْهِمْ مِنَ اللهِ السَّلَامُ- عَنِ الشَّفَاعَةِ حَتَّىٰ تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ(٤).

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ: فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَن يَدْخُلُوا الْجَنَّة. وَهَاتَانَ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ.

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ: فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٣٣١/ ١٩٦-١٩٧)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٠/ ٨٥٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا، وَيَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَن يَخْرُجَ مِنْهَا.

وَيُخْرِجُ اللهُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا بِغَيْرِ شَفَاعَةٍ؛ بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ(١)، وَيَبْقَىٰ فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُنْشِئُ اللهُ لَهَا أَقْوَامًا فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ(٢).

وَأَصْنَافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِنَ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَتَفَاصِيلُ ذَٰلِكَ مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالآثَارَةِ مِنَ الْعِلْمِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ، وَفِي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي، فَمَنِ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ.

وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَىٰ دَرَجَتَيْنِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ:

فَالدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ عَلِمَ مَا الْخَلْقُ عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلًا وَأَبَدًا، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِمْ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالأَرْزَاقِ وَالآجَالِ، ثُمَّ كَتَبَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ.

فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ: الْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٣٨٤)، ومسلم (٣٨/ ٢٨٤٨)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فَمَا أَصَابَ الإِنْسَانَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، جَفَّتِ الأَقْلَامُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾ [الحج: ٧٠]، وَقَالَ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢﴾ [الحديد: ٢٢].

وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا: فَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا شَاءَ. وَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الْجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ؛ بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ(١).. وَنَحْوَ ذَلِكَ. فَهَذَا التَّقْدِيرُ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلَاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنْكِرُهُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ.

وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: فَهِيَ مَشِيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ: الإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلَا سُكُونٍ؛ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ إِلَّا مَا يُرِيدُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ، فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ إِلَّا اللهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ، لَا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ. وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَقَدْ أَمَرَ اللهُ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ. وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَىٰ عَنِ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٩٤)، ومسلم (٢٦٤٣)، وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَلَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، وَلَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهُ الْكُفْرَ، وَلَا يُحِبُّ الْفَسَادَ.

وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللهُ خَلَقَ أَفْعَالَهُمْ. وَالْعَبْدُ هُوَ: الْمُؤْمِنُ، وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ، وَالْمُصَلِّي، وَالصَّائِمُ. وَلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ، وَلَهُمْ إِرَادَةٌ، وَاللهُ خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ قُدْرَتَهُمْ وَإِرَادَتَهُمْ؛ كَمَا قَالَ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ الْقَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١): «مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ»(٢)، وَيَغْلُو فِيهَا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ، حَتَّىٰ يَسْلُبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَيُخْرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ حِكَمَهَا وَمَصَالِحَهَا.

---

(١) في جميع النسخ: «النبي» لكن استقر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ علىٰ كلمة «السلف»، فقد نسب شيخ الإسلام هذا القول إلىٰ السلف فقال في «الرد علىٰ المنطقيين» (٥٣٠): «ولهذا قال السلف: القدرية مجوس هذه الأمة»، وقال في «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٤٥٢): «وقد جاءت الآثار فيهم أنهم مجوس هذه الأمة كما روي ذلك عن ابن عمر وغيره من السلف، وقد رويت في ذلك أحاديث مرفوعة إلىٰ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها ما رواه أبو داود والترمذي، ولكن طائفة من أئمة الحديث طعنوا في صحة الأحاديث المرفوعة في ذلك وهذا مبسوط في موضعه. والمقصود هنا أن القدرية النافية يُشبهون المجوس في كونهم اثبتوا غير الله يُحدث أشياء من الشر بدون مشيئته وقدرته وخلقه».

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٩١)، والحاكم (١/ ١٥٩)، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وحسنه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (٤٤٤٢).

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: أَنَّ الدِّينَ وَالإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ. وَأَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ.

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ؛ كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ؛ بَلِ الأُخُوَّةُ الإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي آيَةِ الْقِصَاصِ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وَقَالَ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠].

وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ اسْمَ الإِيمَانِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ؛ كَمَا تَقُولُه الْمُعْتَزِلَةُ. بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَانِ؛ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَانِ الْمُطْلَقِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نَهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»(١). وَيَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ، أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٧٨)، ومسلم (٥٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فَلَا يُعْطَىٰ الِاسْمَ الْمُطْلَقَ، وَلَا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الِاسْمِ.

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: سَلَامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠]، وَطَاعَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ**»(١). وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالْإِجْمَاعُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ.

وَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ -وَهُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ- وَقَاتَلَ عَلَىٰ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِهِ وَقَاتَلَ. وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَىٰ الْأَنْصَارِ. وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ لِأَهْلِ بَدْرٍ -وَكَانُوا ثَلَاثَ مِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ-: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»(٢). وَبِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ؛ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٣)، بَلْ لَقَدْ رَضِيَ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ. وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ كَالْعَشَرَةِ، وَثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بنِ شَمَّاسٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١)، وغيرهما من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)، وغيرهما من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٩٦)، وغيره من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيْرِهِ؛ مِنْ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ. وَيُثَلِّثُونَ بِعُثْمَانَ، وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآثَارُ، وَكَمَا أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَىٰ تَقْدِيمِ عُثْمَانَ فِي الْبَيْعَةِ. مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدِ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ -بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَىٰ تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ- أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ فَقَدَّمَ قَوْمٌ عُثْمَانَ وَسَكَتُوا، أَوْ رَبَّعُوا بِعَلِيٍّ، وَقَدَّم قَوْمٌ عَلِيًّا، وَقَوْمٌ تَوَقَّفُوا. لَكِنِ اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَىٰ تَقْدِيمِ عُثْمَانَ، ثُمَّ عَلِيٍّ. وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ -مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ- لَيْسَتْ مِنَ الأُصُولِ الَّتِي يُضَلَّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّةِ. لَكِنِ الْمَسْأَلَةُ الَّتِي يُضَلَّلُ فِيهَا: مَسْأَلَةُ الْخِلَافَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ. وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلَافَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ؛ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ.

وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ، وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ: «أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي»[1]. وَقَالَ -أَيْضًا- لِلْعَبَّاسِ عَمِّهِ -وَقَدْ شَكَا إِلَيْهِ أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ يَجْفُو بَنِي هَاشِمٍ- فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحِبُّوكُمْ؛ للهِ وَلِقَرَابَتِي»[2]. وَقَالَ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨)، وغيره من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٥٨)، وأحمد (٤/ ١٦٥)، من حديث عبد المطلب بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «ضعيف سنن الترمذي».

بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَىٰ مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَىٰ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»(١).

وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُقِرُّونَ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الآخِرَةِ؛ خُصُوصًا خَدِيجَةَ أُمَّ أَكْثَرِ أَوْلَادِهِ، وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَىٰ أَمْرِهِ، وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ. وَالصِّدِّيقَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ، الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَىٰ النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَىٰ سَائِرِ الطَّعَامِ»(٢).

وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُمْ. وَطَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ. وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَ[عَامَّةُ] الصَّحِيحِ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ؛ إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ.

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ؛ بَلْ تَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ، وَلَهُمْ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ -إِنْ صَدَرَ-، حَتَّىٰ إِنَّهُ يُغْفَرُ لَهُمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يُغْفَرُ

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٦)، وغيره من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٧٦٩)، ومسلم (٢٤٣١)، وغيرهما من حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ لِأَنَّ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ. وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ[1]، وَأَنَّ الْمُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مِمَّنْ بَعْدَهُمْ[2].

ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ عَنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ؛ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ، أَوْ أَتَى بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ، أَو غُفِرَ لَهُ؛ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَوْ ابْتُلِيَ بِبَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ. فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ؛ فَكَيْفَ فِي الأُمُورِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ: إِنْ أَصَابُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَؤُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالْخَطَأُ مَغْفُورٌ.

ثُمَّ إِنَّ الْقَدْرَ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَلِيلٌ نَزْرٌ مَغْمُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ؛ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ، وَرَسُولِهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ. وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ [وَعَدْلٍ] وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ؛ لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ تَعَالَى.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١-٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣-٢٥٣٥)، من حديث أبي هريرة، وابن مسعود، وعمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

[وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ: التَّصْدِيقُ بِكَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ وَمَا يُجْرِي اللهُ عَلَىٰ أَيْدِيهِمْ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ، كَالْمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَغَيْرِهَا، وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ قُرُونِ الأُمَّةِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ].

ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حَيْثُ قَالَ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**»(١). وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيُؤْثِرُونَ كَلَامَ اللهِ عَلَىٰ غَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ، وَبِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الاِجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ.

وَالإِجْمَاعُ هُوَ الأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ. فَهُمْ يَزِنُونَ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وقال: «حسن صحيح»، وغيرهما من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «ظلال الجنة» برقم (٢٦-٣٤).

بِهَذِهِ الأُصُولِ الثَّلَاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ. وَالإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ: هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الِاخْتِلَافُ، وَانْتَشَرَتْ فِي الأُمَّةِ.

ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذِهِ الأُصُولِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَىٰ مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ، وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْجُمَعِ وَالأَعْيَادِ مَعَ الأُمَرَاءِ أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا، وَيُحَافِظُونَ عَلَىٰ الْجَمَاعَاتِ، وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ لِلأُمَّةِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ؛ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**»، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ(١)، وَقَوْلِهِ ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَىٰ مِنْهُ عُضْوٌ؛ تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّىٰ وَالسَّهَرِ**»(٢).

وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلَاءِ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ، وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ.

وَيَدْعُونَ إِلَىٰ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ، وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَىٰ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥)، وغيرهما من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦)، وغيرهما من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٢٨٤).

وَيَنْدُبُونَ إِلَىٰ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ.

وَيَأْمُرُونَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالإِحْسَانِ إِلَىٰ الْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالرِّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ. وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ، وَالْخُيَلاءِ، وَالْبَغْيِ، وَالاسْتِطَالَةِ عَلَىٰ الْخَلْقِ بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ.

وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الأَخْلَاقِ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ سَفْسَافِهَا.

وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا أو غَيْرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَطَرِيقَتُهُم هِيَ دِينُ الإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَىٰ ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّارِ؛ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ(١). وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «**هُمْ مَنْ كَانَ عَلَىٰ مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي**»(٢) - صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالإِسْلَامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ هُمُ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ، وَالصَّالِحُونَ، وَمِنْهُمْ أَعْلَامُ الْهُدَىٰ، وَمَصَابِيحُ الدُّجَىٰ، أُولُو الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ، وَفِيهِمُ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧)، والدارمي (٢/ ٢٤١)، وابن أبي عاصم (٦٥-٦٩)، وغيرهم من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الظلال» (٦٥-٦٩).

(٢) سبق تخريجه.

الأَبْدَالُ، [وَمِنْهُمْ أَئِمَّةُ الدِّينِ](١)، الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ، وَهُمُ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لا يَضُرُّهُم مَّنْ خَالَفَهُمْ، وَلا مَنْ خَذَلَهُمْ؛ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ»(٢).

فَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ، وَأَلَّا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَيَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ. وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَالحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ، وَصَلَّىٰ عَلَىٰ خَيْرِ خَلْقِهِ مُحَمَّدًا(٣)، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

◇ ◇ ◇

(١) في نسخة: «وفيهم الأئمة الذين».

(٢) سبق تخريجه.

(٣) كذا في الأصل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّـهِ وَكَـفَى بِاللهِ شَهِيدًا.

الشَّرْح

⊙ **قوله**: «**الحَمْدُ**»: الألف واللام للاستغراق، فجميع أنواع المحامد كلها لله - سبحانه- مِلكًا واستحقاقًا، وهو لغةً: الثناء بالصفات الجميلة، والأفعال الحسنة، وعُرفًا: فعلٌ يُنْبئ عن تعظيم المُنعِم بسبب كونه مُنعمًا.

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الحمد هو: ذكر صفات المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله، فإن تجرد عن ذلك فهو مدحٌ، فالفرق بينهما: أن الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخبارًا مجردًا من حبٍّ وإرادةٍ، أو مقرونًا بحُبِّه وإرادته، فإن كان الأول فهو مدح، وإن كان الثاني فهو الحمد»(١).

---

(١) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٢٤-٢٨): «فقوله هنا: «الحمد لله»، يعني: كل أنواع المحامد لله عَزَّوَجَلَّ، وإذا تقرر ذلك فإن موارد الحمد التي يُثنىٰ بها علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ عظيمة كثيرة جماعها في خمسةِ موارد:

الأول: أنه يحمد عَزَّوَجَلَّ علىٰ تفرده في الربوبية؛ إذ لا رب معه يملك هذا الملكوت ويُدبره ويُصرفه، فيُثنىٰ علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بتفرده بالربوبية، ويُثنىٰ عليه عَزَّوَجَلَّ بآثار تلك الربوبية في خلقه، =

=

وإذا تأمل المُثني علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بذلك وجد أنه أثنىٰ علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بكل آثار ربوبيته في خلقه التي منها: خلقهم، ورزقهم، وإحيائهم، وإماتتهم، وتدبيره الأمر، وما يحدث في ملكوت السماوات والأرض من أنواع ما يقدره الله عَزَّوَجَلَّ، فهو المحمود علىٰ كل حال.

وهذا الحمد قد استغرق الزمان كله، بل حمده عَزَّوَجَلَّ كائن قبل أن يكون مخلوق، فهو عَزَّوَجَلَّ المستحق للحمد قبل أن يوجد حامد؛ وذلك لعِظَمِ أوصافه عَزَّوَجَلَّ ومنها هذا المورد ألا وهو تفرده عَزَّوَجَلَّ في ربوبيته.

الثاني: أنه عَزَّوَجَلَّ محمودٌ علىٰ تفرده في ألوهيته، فهو عَزَّوَجَلَّ الإله الحق المبين، لا إله يُعبد بحق إلا هو سبحانه، فهو الإله الحق في السماء، وهو الإله الحق في الأرض، وكل إله عُبد في الأرض فإنما عُبد بغير الحق؛ عُبد بالبغي والظلم والعدوان، ومن يستحق العبادة الحق وحده دونما سواه هو الله عَزَّوَجَلَّ، فيُثنىٰ عليه عَزَّوَجَلَّ بهذا الأمر العظيم ألا وهو توحده عَزَّوَجَلَّ في إلهيته.

الثالث: أنه عَزَّوَجَلَّ يُحمد علىٰ ما له من الأسماء والصفات التي هي له عَزَّوَجَلَّ علىٰ وجه الكمال، فهو سبحانه له الأسماء الحسنىٰ والصفات العُلىٰ؛ له الأسماء التي لا يُماثله في معانيها ولا فيما اشتملت عليه من الصفات أحد، وله عَزَّوَجَلَّ من الصفات ما لا يُشاركه فيها علىٰ وجه التمام والكمال أحد، فهو عَزَّوَجَلَّ ذو الأسماء الحسنىٰ والصفات العُلا، قال تعالىٰ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم:٦٥]، وقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص:٤]، فليس له عَزَّوَجَلَّ سمي، وليس له مثل ولا مثيل في نعوت جلاله وكماله وجماله، فهو عَزَّوَجَلَّ يُحمد -يعني: يُثنىٰ عليه- بما له من الأسماء الحُسنىٰ والصفات العُلىٰ، وكذلك يُثنىٰ عليه بكل اسم علىٰ حدة، ويُثنىٰ عليه بكل صفةٍ له علىٰ حدة، وهذا مما تنقضي الأعمار فيه لو تأمله الحامدون.

الرابع: أنه عَزَّوَجَلَّ يُحمد علىٰ شرعه وأمره، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]، وقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف:١]، فهو سبحانه يُحمد علىٰ شرعه وعلىٰ أمره، يعني: يُحمد علىٰ دين الإسلام الذي جعله دينًا للناس، ويُحمد علىٰ هذه الشريعة؛ شريعة مُحمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيُثنىٰ عليه عَزَّوَجَلَّ بإنزاله الكتاب؛ كما أثنىٰ علىٰ نفسه بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾، ويُثنىٰ عليه عَزَّوَجَلَّ بما أمر به

=

=

في كتابه من الأوامر وبما نهىٰ عنه من النواهي؛ إذ أوامره عَزَّوَجَلَّ ونواهيه في كتابه وفي سُنَّة رسوله، أي: في شريعة الإسلام شريعة مُحمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فكل أمر يستحق به عَزَّوَجَلَّ أن يُحمد عليه. وهذا لا شك مما يفتح علىٰ قلوب أهل الإيمان أنواعًا من المعارف، وأنواعًا من محبة هذا الدين، ومحبة الشريعة، ومحبة الأحكام، فأهل العلم يحمدون الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ كل حكم تعلموه، وعلىٰ كل حكم علموه، وعلىٰ كل مسألة من مسائل العلم فهموها، فأهل العلم هم أحق الناس بحمد الله عَزَّوَجَلَّ، وهم أحق الناس بالثناء علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنهم يعلمون عن الله عَزَّوَجَلَّ ما لا يعلمه غيرهم من العوام أو من غير المتعلمين.

الخامس: أنه عَزَّوَجَلَّ محمودٌ علىٰ خلقه وقدره، وهو عَزَّوَجَلَّ له تصريف هذا المُلك، وله في كل شيءٍ قدر؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، وله سبحانه أوامر كونية في ملكوته منها: الإنعام علىٰ من شاء أن يُنعم عليهم، ومنها: المصائب علىٰ من شاء أن يبتليهم... وهكذا، فهو عَزَّوَجَلَّ محمودٌ علىٰ خلقه وقدره، وكل أنواع تقديره عَزَّوَجَلَّ يستحق أن يُثنىٰ عليه بها، وهذا النوع بعضه يستحضره الناس حينما يقولون الحمد لله -يعني: علىٰ ما أولاهم به من نعمة- فيحمدون الله عَزَّوَجَلَّ، يعني: يُثنون عليه بما أفاض عليهم من النعم، وهذا ولا شك نوعٌ من أهم موارد الحمد. أما أهل العلم المُتبصرون بما يستحقه عَزَّوَجَلَّ من الأسماء والصفات، وما له عَزَّوَجَلَّ من النعوت والكمالات، فإنهم يستحضرون من معاني الحمد أكثر من ذلك الذي يستحضره أكثر الخلق من أن الحمد لا يكون إلا علىٰ ما أُولُوا من النعمة؛ ولهذا النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يحمد الله عَزَّوَجَلَّ في السراء والضراء، ويحمده عَزَّوَجَلَّ إذا أتته نعمة، وإذا جاءه ما لا يسره حمد الله عَزَّوَجَلَّ، ويُثني علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ باستحقاقه للربوبية علىٰ خلقه، ويُثني علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ باستحقاقه للعبادة من خلقه وحده دونما سواه، ويُثني عليه عَزَّوَجَلَّ بأنواع من الثناء.

ومن المهمات أن يستحضر الحامد لله عَزَّوَجَلَّ هذه الموارد، وإن لم يُمكنه ذلك لضيق وعاء القلب عنده فإنه يستحضر شيئًا فشيئًا منها، حتىٰ يُعود قلبه علىٰ الثناء علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ في جميع أنواع الثناء عليه سبحانه الذي يستحقها» اهـ.

⊙ **قوله:** «اللهِ»: لفظ الجلالة علمٌ علىٰ ذاته -سبحانه- وهو أعرف المعارف علىٰ الإطلاق.

وقال بعض العلماء: إنه الاسم الأعظم، وذُكر في القرآن في (٢٣٦٠) ألفين وثلاث مئة وستين موضعًا، وهو يتناول معاني سائر الأسماء بطريق التضمن، وهو مشتقٌّ من (أله يأله) إذا عُبد، فهو إلهٌ بمعنىٰ مألوه، أي: معبود، فالإله هو: المألوه والذي تألهه القلوب، وكونه مستحقًّا للألوهية مستلزمًا لصفات الكمال، فلا يستحق أن يكون معبودًا محبوبًا لذاته إلا هو، وكل عملٍ لا يراد به وجهه فهو باطل، وعبادة غيره وحب غيره يوجب الفساد، كما قال تعالىٰ: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

⊙ **قوله:** «الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ»: أي: بعث رسوله، والرسول: إنسانٌ ذَكَرٌ أُوحي إليه بشرعٍ وأُمر بتبليغه، وأما النبي فهو مأخوذٌ من (النبأ) وهو الإخبار؛ لأنهم مخبرون عن الله، أو من النبوة وهي الرفعة؛ لارتفاع رُتَبِ الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وهو إنسانٌ أُوحي إليه بشرعٍ ولم يؤمر بتبليغه، فكل رسولٍ نبيٌّ ولا ينعكس، وعدد الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ مئة ألف وأربعة وعشرون ألفًا كما جاء في حديث أبي ذر[1]، وقيل: لا يُعرف عددهم، بدليل قوله سبحانه: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨] الآية، وأما عدد الرسل فهم ثلاث مئة وثلاثة عشر كما في الحديث المذكور.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٥)، والطبراني (٨/ ٢١٧)، وغيرهما من حديث أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وأولو العزم منهم خمسةٌ، كما ذكر ذلك البغوي عن ابن عباس وغيرهم، وهم: محمد، وإبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ، ونوح عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، ونظمهم بعضهم بقوله:

مُحمَّد إبراهيم موسىٰ كَليمُه   فعيسىٰ فنُوحٌ هم أُولو العَزْم فاعلم

وهم في الفضل علىٰ هذا الترتيب المذكور في البيت.

⊙ **قوله: «بِالهُدَىٰ»**: أي: العلم النافع، وقوله: **«ودين الحق»**: أي: العمل الصالح(١).

⊙ **قوله: «لِيُظْهِرَهُ»**: أي: يُعليه وينصره ظهورًا بالحُجَّة والبيان، والسيف والسِّنان، حتىٰ يظهر علىٰ مخالفيه، وقد وقع ذلك، فإن المسلمين جاهدوا في الله حق جهاده حتىٰ فتح الله عليهم، فاتَّسعت رقعة البلاد الإسلامية شرقًا وغربًا في مدةٍ يسيرةٍ مع قلة عددهم وعدَّتهم بالنسبة إلي جيوش سائر الأقاليم من الروم والفُرس والترك والبربر وغيرهم، فقهروا الجميع حتىٰ علت كلمة الله، وظهر دينه علىٰ سائر الأديان وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقل من ثلاثين عامًا.

⊙ **قوله: «عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ»**: أي: علىٰ سائر الأديان، كما ثبت في «الصحيح» من حديث ثوبان؛ أن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إنَّ اللهَ زَوىٰ لِيَ الأرضَ فَرأيتُ مَشارِقَها ومَغارِبَها، وإنَّ مُلْكَ أُمَّتي سَيبلُغُ ما زُوِيَ لي مِنها»**(٢)، وما في هذا الحديث أخبر به الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أول الأمر وأصحابُه في غاية القلة قبل فتح مكة،

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣)، (٤/ ١٧١، ٢٠٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٨٩)، وأبو داود (٤٢٥٢)، وغيرهما من حديث ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فكان كما أخبر، فإن مُلكهم انتشر في المشرق والمغرب ما بين أرض الهند أقصىٰ المشرق إلىٰ بحر طنجة في المغرب حيث لا عمارة وراءه، وذلك ما لم تملكه أمةٌ من الأمم، وفي حديث جابر: «إذَا هَلكَ كِسرَىٰ فلا كِسْرىٰ بَعدَه، وإذا هلَكَ قَيصَرُ فلا قَيصَرَ بَعده، والَّذي نَفسِي بِيَده، لتُنفقنَّ كُنوزهما في سَبيل الله»[1] أخرجاه في «الصحيحين».

⊙ **قوله: «وَكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا»**: أي: شاهدًا أنه رسوله وهو ناصره ومعليه، وكفىٰ بشهادته -سبحانه- إثباتًا لصدقه وكفىٰ بالله شهيدًا، أي: في علمه واطلاعه علىٰ أمر محمد كفاية في صدق هذا المخبر عنه؛ إذ لو كان مفتريًا لعاجَلَه بالعقوبة البليغة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤﴾ [الحاقة: ٤٤]. الآية.

ومن أسمائه -سبحانه- الشهيد، قال الله تعالىٰ: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣﴾ [فصلت: ٥٣] أي: أنه لا يغيب عنه شيء، ولا يعزب عنه، بل هو مطلعٌ علىٰ كل شيءٍ مشاهِدٌ له عليمٌ بتفاصيله، فشهد -سبحانه- لرسوله أن ما جاء به حقٌّ وصدق، فلا يليق به -سبحانه- أن يُقرَّ من يكذب عليه أعظم الكذب، ويخبر عنه بخلاف ما الأمر عليه، ثم ينصره ويؤيده ويعلي شأنه، ويجيب دعوته، ويظهر علىٰ دينه من الآيات والبراهين ما يعجز عن مثله قوىٰ البشر، وهو مع ذلك كاذبٌ عليه ومفترٍ، ومعلوم أن شهادته -سبحانه- علىٰ كل شيءٍ واطلاعه وقدرته وحكمته وعزته وكماله يأبىٰ ذلك أشد الإباء، ومن جوّز ذلك فهو من أبعد الناس عن معرفته سبحانه،

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٢٠)، ومسلم (٢٩١٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

انتهىٰ من كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ باختصار(١)(٢).

◈ ◈ ◈

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٤٣٣).

(٢) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٤١-٤٢):

«ولو قال قائل: ما مناسبة ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾، لقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؟

قيل: المناسبة ظاهرة؛ لأن هذا النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ جاء يدعو الناس ويقول: «**من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني دخل النار**» [أخرجه البخاري (٧٢٨٠)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ]. ويقول بلسان الحال: من أطاعني سالمته، ومن عصاني حاربته ويحارب الناس بهذا الدين، ويستبيح دماءهم وأموالهم ونساءهم وذريتهم، وهو في ذلك منصور مؤزَّر غالب غير مغلوب، فهذا التمكين له في الأرض؛ أي: تمكين الله لرسوله في الأرض: شهادة من الله عَزَّ وَجَلَّ فعلية بأنه صادق وأن دينه حق؛ لأن كل من افترىٰ علىٰ الله كذبًا فمآله الخذلان والزوال والعدم، وانظر إلىٰ الذين ادعوا النبوة ماذا كان مآلهم؟ أن نسوا وأُهلكوا، كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي... وغيرهما ممن ادَّعُوا النبوة، كلهم تلاشوا وبان بطلان قولهم وحرموا الصواب والسداد؛ لكن هذا النبي محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ العكس، دعوته إلىٰ الآن - والحمد لله- باقية، ونسأل الله أن يثبتنا وإياكم عليها، دعوته إلىٰ الآن باقية، وإلىٰ أن تقوم الساعة ثابتة راسخة، يستباح بدعوته إلىٰ اليوم دماء من ناوأها من الكفار وأموالهم، وتسبىٰ نساؤهم وذريتهم [لما أخرجه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢)، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، ولفظه: «**أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم علىٰ الله**»]، هذه الشهادة فعلية، ما أخذه الله ولا فضحه ولا كذبه، ولهذا جاءت بعد قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾» اهـ.

وأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ [وَعَلَى آلِهِ] تسليمًا مَزِيدًا.

الشَّرْح

⊙ **قوله: «أَشْهَدُ»**؛ أي: أقر وأعترف أن لا معبود بحق في الوجود إلا الله، وتأتي «شهد» بمعنىٰ: أخبر، كما في حديث ابن عباس: «شهد عندي رجال مرضيون وأرضاهم عندي عمرُ»(١)، أي: أخبرني. وتأتي بمعنىٰ حضر، كما في قوله سبحانه: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥] أي: حضر. وتأتي بمعنىٰ: اطلع، كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ۝٦﴾ [المجادلة: ٦] أي: مطلع. أفاده ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «بدائع الفوائد»(٢).

⊙ **قوله: «أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»**: «أنْ» مخفَّفة من الثقيلة.

⊙ **قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»**: أي: لا معبودَ بحق في الوجود إلا الله سبحانه، وهذا معنىٰ هذه الكلمة العظيمة التي تدل عليه الأدلة، خلافًا لمن زعم أن معناها: القدرة علىٰ الاختراع، كما يقوله الأشاعرة، فإن المشركين الذين بُعث إليهم الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرُّون بأن الله هو الخالق الرزاق، المحيي المميت، المدبر لجميع الأمر؛ ولم يُدخلهم ذلك في الإسلام، بل قاتلهم رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستحل دماءهم وأموالهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٦)، ومسلم (٨٢٦)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ٨).

ولما قال لهم رسول الله: «اعْبُدوا اللهَ واتْرُكُوا مَا كان يَعبُدُ آباؤكُم، وقُولوا: لَا إلهَ إلَّا اللهُ»، أنكروا ذلك ونفروا، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥][(١)]، فدل علىٰ أن معنىٰ هذه الكلمة هو إفراد الله بالعبادة، وترك عبادة ما سواه.

وهذه الكلمة هي أول واجبٍ وأعظم واجبٍ علىٰ الإطلاق، كما في «الصحيح» من حديث ابن عباس؛ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لمعاذ حين بعثه إلىٰ اليمن: «فلْيَكُن أوَّلَ مَا تَدعُوهم إليه: شَهادَة أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ»[(٢)]، وفي رواية: «إلىٰ أنْ يَعبُدوا اللهَ»[(٣)]، فدل علىٰ أن التوحيد هو أول واجبٍ علىٰ العباد، خلافًا لمن زعم أن أول واجبٍ معرفة الله بالنظر أو القصد إلىٰ النظر أو الشك كما هي أقوال لأهل الكلام المذموم، فإن معرفة الله فطرية فطر الله عليها عباده، قال تعالىٰ: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] أي: أفي وجوده شكٌّ؟! فإن الفِطَر شاهدةٌ بوجوده مجبولةٌ علىٰ الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ مَولُودٍ يُولَدُ علىٰ الفِطرَةِ؛ فأَبَواه يُهوِّدَانِه أو يُمَجِّسَانِه أو يُنَصِّرانِه»[(٤)].

ولهذه الكلمة أركان وشروط، إلىٰ غير ذلك من الأبحاث المتعلقة بهذه الكلمة العظيمة.

---

(١) يشير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ الحديث الذي أخرجه أحمد (١/ ٢٢٧)، وابن حبان (٦٦٨٦)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أصله في «الصحيحين».

(٢) أخرجه البخاري (١٤٢٥)، ومسلم (١٩) واللفظ له، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (١٣٨٩)، والبيهقي (٤/ ١٠١)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه البخاري (١٣١٩) واللفظ له، ومسلم (٢٦٥٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فأركان (لا إلهَ إلا اللهُ) اثنان: النفي، والإثبات، فـ«لا إله» نافيًا لجميع المعبودات، و«إلا الله» مثبتًا العبادة لله سبحانه.

وشروطهما سبعةٌ: العلم، واليقين، والإخلاص، والصدق، والمحبة، والانقياد، والقبول، ونظمها بعضهم بقوله:

علمٌ يقين وإخلاص وصدقُك مع ... محبة وانقياد والقبول لها

وزِيد ثامنها الكفران منك بما ... غير الإله من الأوثان قد أُلِهَا(١)

وتحقيقها: أن لا يعبد إلا الله، كما أن تحقيق شهادة أن محمدًا رسول الله: أن لا يُعبد اللهُ إلا بما شرع.

وحق هذه الكلمة: هو فعل الواجبات وترك المحرمات.

وأما فائدتها وثمرتها: فسعادة الدارين لمن قالها عارفًا بمعناها عاملًا بمقتضاها، وأما مجرد النطق بها فقط فإنه لا ينفع.

قال الشيخ ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-: «من اعتقد أنه بمجرد تلفظه بالشهادة يدخل الجنة ولا يدخل النار فهو ضالٌّ مخالفٌ للكتاب والسنة والإجماع»(٢).

وأما فضلها: فقد تكاثرت الأحاديث في فضل هذه الكلمة، منها: حديث عبادة بن الصامت المتفق عليه، أن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن شَهِد أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وحده لا شَريكَ له، وأن مُحمَّدًا عبدُه ورسُولُه، وأن عيسىٰ عبدُ الله ورَسولُه،**

(١) انظر: «تحفة الإخوان بأجوبة مهمة تتعلق بأركان الإسلام» للإمام ابن باز (ص٢٤).

(٢) انظر: «الفتاوىٰ الكبرىٰ لابن تيمية» (٢/ ٣٧٧).

وكلِمَتُه ألقاهَا إلىٰ مَريَمَ ورُوحٌ مِنه، وأنَّ الجنَّةَ حقٌّ، والنَّارَ حقٌّ؛ أدخَله اللهُ الجنَّةَ علىٰ ما كان مِن العَمَل»(١)، وفي حديث أبي سعيد الخدري، أن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «يا رَبِّ، عَلِّمني شيئًا أَذْكُرُك وأَدعوك به، قال: قُل يا مُوسىٰ: لا إلهَ إلا اللهُ»(٢) الحديث.

وفي هذا الحديث وغيره رَدٌّ علىٰ من زعم أن الذكر بالاسم المفرد «الله الله» أفضل من الذكر بالجملة المركَّبة، كقوله: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلهَ إلا اللهُ، والله أكبر، وهذا فاسدٌ؛ فإن الذكر بالاسم المفرد غير مشروعٍ أصلًا، ولا يفيد شيئًا، ولا هو كلامٌ ولا يدل علىٰ مدحٍ ولا تعظيمٍ، ولا يتعلق به إيمانٌ ولا ثوابٌ ولا يدخل الذاكر به عقد الإسلام جملةً، فلو قال الكافر: «الله الله» طول عمره لم يَصِر بذلك مسلمًا، فضلًا أن يكون من جملة الذكر أو يكون أفضل الأذكار، إلىٰ آخر ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «سَفَر الهجرتين»(٣).

وأما نواقض (لا إلهَ إلا اللهُ): فكثيرةٌ جدًّا، ذكرها العلماء في (باب حكم المرتد)، وأعظمها الشرك بالله.

وأما إعراب هذه الكلمة: فـ«لا» نافيةٌ للجنس تعمل عمل «إنَّ»، و«إله» اسمها مبنيٌّ معها علىٰ الفتح، وخبرها محذوفٌ والتقدير «حقٌّ»، و«إلا» أداة استثناءٍ ملغاةٌ، ولفظ الجلالة مرفوعٌ علىٰ البدلية.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٥٢)، ومسلم (٢٨)، وغيرهما من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن حبان (٦٢١٨)، والحاكم (١٩٣٦)، وأبو يعلىٰ (١٣٩٣)، وغيرهم من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٩٢٣).

(٣) انظر: «طريق الهجرتين» (٣٣٩).

وأما دلالتها علىٰ التوحيد: فإنها دلت علىٰ أنواع التوحيد الثلاثة، فدلت علىٰ إثبات العبادة لله ونفيها عمن سواه، كما دلت -أيضًا- علىٰ توحيد الربوبية، فإن العاجز لا يصلح إلهًا، ودلت علىٰ توحيد الأسماء والصفات، فإن مسلوب الأسماء والصفات ليس بشيء، بل هو عدمٌ محض، كما قال بعض العلماء: المُشبِّه يعبد صنمًا، والمعطل يعبد عدمًا، والموحد يعبد إلهَ الأرض والسماء(١).

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وشهادة أن لا إلهَ إلا اللهُ فيها الإلهيات، وهي الأصول الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأصول الثلاثة تدور عليها أديان الرسل وما أنزل إليهم، وهي الأصول الكبار التي دلت عليها وشهدت بها العقول والفطر»(٢)(٣).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٤٣٢).

(٢) انظر: «الكواشف الجلية عن معاني الواسطية» (٣/ ٤٢) و«القول السديد في الرد علىٰ من أنكر تقسيم التوحيد» (٢٩).

(٣) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٣٧-٣٩):

«المقصود: أن كلمة (لا إله) هذه فيها العبودية، وهذا هو المتقرر في العربية وفي القرآن؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل:٦٠]، يعني أمعبود مع الله؟ لأنهم إنما جعلوا معبودًا مع الله ولم يجعلوا ربًّا مع الله جَلَّجَلَالُهُ، ومن ذلك ما جاء في قراءة ابن عباس المشهورة في سورة الأعراف: «وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ» [الأعراف: ١٢٧]، يعني: وعبادتك.

فإذًا معنىٰ الآلهة والألوهة في كلام العرب: العبادة مع المحبة والتعظيم، وهذا ينبغ ويثبت أن قول الأشاعرة والماتريدية والمتكلمين في معنىٰ الإله قولٌ باطل، حيث إن تفاسير المتكلمين للإله علىٰ قولين:

=

⊙ **قوله:** «وَحْدَهُ»: فيه تأكيد للإثبات، وقوله: «لا شريك له»: تأكيد للنفي(١).

=

الأول: منهم من يقول: الإله هو القادر علىٰ الاختراع.

وهذا هو معنىٰ الرب، أما الإله فليس فيه معنىٰ الخلق، ولا القدرة علىٰ الخلق، ولا القدرة علىٰ الاختراع، وإنما فيه معنىٰ العبادة.

الثاني: وهو قول الأشاعرة والماتريدية ونحوهم -في كلامهم المعروف-: إن الإله هو المستغني عما سواه، المفتقر إليه ما عداه. كما قال السنوسي في «أم البراهين» المشهورة من عقائدهم، قال: «فمعنىٰ لا إله إلا الله: لا مستغنيًا عما سواه ولا مفتقرًا إليه كل ما عداه إلا الله»، ففسر الألوهية بالربوبية.

وهذا من مناهج المتكلمين ومن عقيدة أهل الكلام؛ إذ إنهم يفسرون الإله بالرب ويُفسرون الألوهية بالربوبية، وعلىٰ هذا عندهم من اتخذ مع الله عَزَّوَجَلَّ إلهًا آخر، يعبده، ويخافه، ويرجوه، ويدعوه، ويستغيث به، وينذر له، ويذبح له، فإنه لا يكفر بذلك عندهم؛ لأنه لم يخالف ما دلت عليه كلمة التوحيد إذا كان معتقدًا أن الله عَزَّوَجَلَّ هو المنفرد وحده بالقدرة علىٰ الاختراع، وبالاستغناء عما سواه، وبافتقار كل شيء إليه عَزَّوَجَلَّ» اهـ.

(١) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٤٣-٤٤):**

«وأنواع ادِّعاء الشريك كثيرة، ومجملها:

الأول: ادعاء الشريك له في ربوبيته، وأن ثَمَّ ظهير معه يُصَرِّفُ معه الأمر.

الثاني: ادعاء الشريك معه في استحقاق العبادة.

الثالث: ادعاء الشريك معه في أسمائه وصفاته علىٰ وجه الكمال.

الرابع: ادعاء الشريك معه في الأمر والنهي في التشريع.

الخامس: ادعاء الشريك معه في الحكمة التي قضاها في كونه؛ كما يقول الفلاسفة ونحوهم.

إذًا أنواع الاشتراك التي ادُّعِيَ أن ثَمَّ من يشارك الله عَزَّوَجَلَّ فيها كثيرة، وهذه الخمسة هي جِماعُها» اهـ.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: «تأكيدٌ بعد تأكيدٍ اهتمامًا بمقام التوحيد»(١).

⊙ **قوله:** «إقرارًا به»: أي: اعترافًا، وقوله: «وتوحيدًا»: مصدر «وحَّد يوحِّد توحيدًا»؛ أي: جعله واحدًا، أي: فرْدًا، فهو إفراد الله بالعبادة مع اعتقاد وَحدته ذاتًا وصفاتًا وأفعالًا، وسُمي دين الإسلام توحيدًا؛ لأن مبناه على أن الله واحدٌ في مُلكه وأفعاله، وواحدٌ في ذاته وصفاته لا نظير له، وواحدٌ في ألوهيته وعبادته لا ندَّ له، وإلى هذه الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد الأنبياء والمرسلين، وهذه الثلاثة متلازمة، كل نوع منها لا ينفك عن الآخر.

فتوحيد الربوبية: هو الإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبِّر لجميع الأمور، وهذا النوع من التوحيد أقرَّ به المشركون ولم يُدخلهم إقرارُهم به في الإسلام.

النوع الثاني: توحيد الألوهية: وهو إفراد الله بالعبادة، وهذا النوع هو الذي فيه الخصومة بين الأنبياء وأممهم.

النوع الثالث: توحيد الأسماء والصفات: وهو أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسولُه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل.

وإن شئت قلت: التوحيد ينقسم إلى قسمين، كما ذكره ابن القيم في «النونية»:

أحدهما: التوحيد الفعلي، وهو المسمى بتوحيد الألوهية، سمي فعليًّا؛ لأنه متضمنٌ لأفعال القلوب والجوارح، فأفعال القلوب: كالرجاء والخوف والمحبة،

---

(١) انظر: «فتح الباري» (١٣/ ٣٤٥).

والجوارح: كالصلاة والزكاة والحج ونحو ذلك، فهو إفراد الله بأفعال العبيد.

النوع الثاني: التوحيد القولي الاعتقادي؛ سمي بذلك لاشتماله على أقوال القلوب وهو اعترافها واعتقادها، وعلى أقوال اللسان، وهذا النوع هو المسمى: توحيد الأسماء والصفات وتوحيد الربوبية.

والتوحيد القولي ينقسم إلى قسمين:

* الأول: النفي. * والثاني: الإثبات.

فالنفي ينقسم إلى قسمين:

الأول: نفي النقائص والعيوب عن الله.

والثاني: نفي التشبيه والتعطيل عن أسمائه وصفاته.

والثاني: **الإثبات**: وهو إثبات صفات الكمال لله.

ثم السلب -أيضًا- ينقسم إلى قسمين:

* الأول: سلبٌ متصل. * والثاني: سلبٌ منفصل.

فالأول نفي ما يناقض ما وَصف به نفسه أو وصفه به رسوله من كل ما يضاد الصفات الكاملة من النقائص والعيوب؛ كالموت، والإعياء، والنوم، والنعاس، والجهل، والعجز، ونحو ذلك.

والثاني سلبٌ منفصل: وهو تنزيهه -سبحانه- عن أن يشاركه في خصائصه التي لا تكون لغيره، كالشريك والظهير والشفيع بغير إذنه، ونفي الزوجة والولد ونحو ذلك.

وأما ضد التوحيد: فتوحيد الربوبية ضده اعتقاد مدبر أو خالق مع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وضد توحيد الألوهية هو الإعراض عن عبادته، أو عبادةُ غيره معه، وضد توحيد الأسماء والصفات شيئان: التشبيه، والتعطيل.

⊙ **قوله: «مُحَمَّد»:** هذا أحد أسمائه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قيل: سُمِّي به؛ لكثرة خصاله الحميدة، وهو اسمه الذي في التوراة، وأما اسمه أحمد فهو الذي بشَّر به المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] الآية.

⊙ **قوله: «عَبْدُه»:** أضافه إليه إضافة تشريف وتعظيم، ووصفه بالعبودية في أشرف أحواله؛ في مقام الإرسال والإسراء والتحدي، ومعنىٰ العبد هنا: المملوك العابد، والعبودية الخاصة وصْفُه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وأعلىٰ مراتب العبد: العبودية الخاصة والرسالة، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكمل الخلق في هاتين الصفتين الشريفتين، وأما الربوبية والألوهية فهما حق لله لا يَشركه فيهما أحد، لا ملكٌ مقرب ولا نبيٌّ مرسل، فضلًا عن غيرهما.

وفي قوله: «عبده ورسوله»: إشارة للرد علىٰ أهل الإفراط والتفريط، أهل الإفراط الذين غلوا فيه ورفعوه عن منزلته وارتكبوا ما نهاهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الغلو.

وأهل التفريط الذين يشهدون أنه رسول الله حقًّا، وهم مع ذلك قد نبذوا ما جاء به وراء ظهورهم، واعتمدوا علىٰ الآراء المخالفة لما جاء به، فإن شهادة أن محمدًا رسول الله تقتضي الإيمان به وطاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر، فما أثبته وجب

إثباته وما نفاه وجب نفيه، فشهادة أن محمدًا رسول الله كما تقتضي الإيمان بجميع الرسل لِما بينهما من التلازم، وكذلك الكتب التي جاءت بها الرسل(١).

⊙ **قوله**: «وصلَّىٰ اللهُ علىٰ نبيِّنا»: صلاة الله علىٰ عبده هو ثناؤه في الملأ الأعلىٰ، كما ذكره البخاري في «صحيحه» عن أبي العالية، وقيل: الرحمة، والصواب الأول لوجوهٍ عديدة ذكرها ابن القيم في «بدائع الفوائد»(٢)، و«جِلاء الأفهام»(٣).

⊙ **قوله**: «وعَلىٰ آلِهِ»: أي: أتباعه علىٰ دينه، كما هو رواية عن أحمد، وعليه أكثر الأصحاب، وعلىٰ هذا فيشمل الصحابة وغيرهم من المؤمنين.

⊙ **قوله**: «وسَلَّم»: السلام بمعني: التحية أو السلامة من النقائص والرذائل،

---

(١) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٥٣-٥٥):

«أما في التعريف الاصطلاحي للنبي والرسول فهذا مما اختلف فيه أهل العلم كثيرًا، والمذاهب فيه متنوعة، منها:

المذهب الأول: قول من قال: إنه لا فرق بين الرسول والنبي، فكل نبي رسول وكل رسول نبي، قال به طائفة قليلة من أهل العلم من المتقدمين ومن المتأخرين، ومنهم من ينسب إلىٰ السنة.

والمذهب الثاني: أن النبي والرسول بينهما فرق، وهو أن النبي أدنىٰ مرتبة من الرسول، فكل رسولٍ نبيٌّ وليس كل نبيٍّ رسولًا، وهو قول جمهور أهل العلم وعامة أهل السنة.

والمذهب الثالث: أن النبي أرفع من الرسول، وأن الرسول دون النبي، وهو قول غُلاة الصوفية.

وأرجح الأقوال هو قول جمهور أهل العلم وعامة أهل السنة؛ ذلك لأدلة كثيرة استدلوا بها علىٰ هذا الأصل مبسوطة في مواضعها» اهـ.

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ٢٦).

(٣) انظر: «جلاء الأفهام» (١٥٨).

ومن أسمائه سبحانه: السلام؛ لسلامته من النقائص والعيوب، كما قال ابن القيم في «النونية»:

وهو السلام على الحقيقة سالم ... من كل تمثيل ومن نقصان

وجمع المصنف بين الصلاة والسلام امتثالًا لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦].

⊙ **قوله:** «مَزِيدًا»: أي: زائدًا، من الزيادة وهي النمو.

◇ ◇ ◇

[أَمَّا بَعْدُ: فَهَذَا] اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَـةِ الْمَنْصُـورَةِ إِلَى قِيَـامِ السَّـاعَةِ: [أَهْـلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ]: هُوَ الإِيمانُ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

الشَّرْح

⊙ **قوله: «أَمَّا بَعدُ: فَهَذا»**: هذه الكلمة يؤتىٰ بها للانتقال من أسلوبٍ إلىٰ أسلوبٍ آخر، ويندب الإتيان بها في الخطب والمكاتبات، كما كان ﷺ يأتي بها في خطبه ومكاتباته، رواه عبد القاهر الرهاوي في «الأربعين» له عن أربعين صحابيًّا[(١)].

⊙ **قوله: «اعتقادُ»**: الاعتقاد لغةً: الربط والجزم، اعتقدت كذا: عقدت عليه القلب والضمير. انتهىٰ «مصباح»[(٢)].

---

(١) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٤٨-٤٩):

«قوله: «أَمَّا بَعْدُ»:

(أما) هذه نائبة عن اسم شرط وفعله، التقدير: مهما يكن من شيء، قال ابن مالك:

أَمَّـا كَمَهْمـا يَـكُ مِـنْ شَـيءٍ وَفَـا ... لِتِلْـوِ تِلْوِهـا وجوبًـا أُلِفَـا

فقولهم: أما بعد: التقدير: مهما يكن من شيء بعد هذا، فهذا.

وعليه، فالفاء هنا رابطة للجواب، والجملة بعدها في محل جزم جواب الشرط، ويحتمل عندي أن تكون: «أما بعد، فهذا»؛ أي: أن «أما» حرف شرط وتفصيل أو حرف شرط فقط مجرد عن التفصيل، والتقدير: أما بعد ذكر هذا، فأنا أذكر كذا وكذا. ولا حاجة أن نقدر فعل شرط، ونقول: إن «أما» حرف ناب مناب الجملة» اهـ.

(٢) انظر: «المصباح المنير» (٢/ ٤٢١).

وعرَّفه بعضهم اصطلاحًا بقوله: هو حكم الذهن الجازم؛ فإن طابق فصحيح، وإلا ففاسد(١).

⊙ **قوله: «الفِرْقَة»:** أي: الطائفة والجماعة، وأما الفُرقة بالضم فمعناه: الافتراق.

⊙ **قوله: «النَّاجِيَة»:** أي: التي سلمت من الهلاك والشرور في الدنيا والآخرة، وحصلت على السعادة بسبب استقامتها على الحق وتمسكها بما كان عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«افْترقَتِ اليهودُ على إحدى -أو ثِنتَين- وسَبعين فِرقَة، وتَفرَّقت**

---

(١) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٧٤):

«وقد عُقِدَ لشيخ الإسلام مجلس محاكمة على هذه العقيدة لمَّا ألَّفها، وقيل له: إنك تقول في هذا الاعتقاد: (فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة)، فهل معنى ذلك أنك تقول: إن من لم يعتقد هذا الاعتقاد فليس بناجٍ من النار؟ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُجيبًا في المجلس الذي حُوكم فيه من قِبَلِ القضاة ومشايخ زمنه: لم أقل هذا ولم يقتضه كلامي، وإنما قلت: فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة، فمن اعتقد هذا الاعتقاد كان موعودًا بالنجاة، ومن لم يعتقد هذا الاعتقاد لم يكن موعودًا بالنجاة وكان متوعدًا بالعذاب، وقد ينجو بأسباب، منها: صدق المقام في الإسلام، وكثرة الحسنات الماحية في الجهاد في نصرة الإسلام، وذلك لمن عنده نوع مخالفة لهذا الاعتقاد.

كما هو عند طائفة من أهل العلم، فإنهم قد يكون عندهم -كما قال شيخ الإسلام- من الحسنات الماحية وصدق المقام في نصرة الإسلام ما يكفر الله عَزَّوَجَلَّ به عنهم المعصية والكبيرة التي عملوها، وهي سوء الاعتقاد الذي اعتقدوه، ولم يعتقدوا ما كان عليه أهل السنة والجماعة» اهـ.

النَّصارىٰ علىٰ إحْدىٰ -أو ثِنْتَين- وسَبعين فرقة، وتَفتَرِقُ أُمَّتي علىٰ ثلاثٍ وسَبعِين فِرقَة»(١)؛ رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه، وحديث ابن ماجه مختصر، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وعن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: ألا إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قام فينا فقال: «إنَّ مَن قَبلكم مِن أهل الكتاب افتَرقوا علىٰ اثْنَتين وسبعين ملَّة، وإن الأمةَ ستَفترقُ علىٰ ثلاثٍ وسَبعين؛ اثنتان وسَبعون في النَّار وواحدةٌ في الجنَّة وهي الجماعةُ»(٢)؛ رواه أبو داود، وفي رواية الترمذي: «كلُّهم في النار إلا واحدَة» قالوا: من هي يا رسول الله؟ فقال: «مَن كان علىٰ مِثْل ما أنا عليه اليومَ وأصحابي»(٣)، وقال: هذا حديث غريب مفسر لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقد أخطأ بعضهم في تعريف الفرقة الناجية أنها أهل الحديث والأشعرية(٤)

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١)، وابن حبان (٦٢٤٧)، والحاكم (١٠، ٤٤١)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «السلسلة الصحيحة» (٢٠٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧)، والدارمي (٢٥١٨)، وغيرهما من حديث معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (٢٦٤١).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٤٢) من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وضعفه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «المشكاة» (١٧١).

(٤) نسبة إلىٰ أبي الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم الأشعري، وتلمذ علىٰ أبي علي الجبائي زوج أمه، ومضىٰ علىٰ ذلك صدرًا من حياته، ثم ترك مذهبهم وتبرأ منه، وسلك طريقة ابن كلَّاب، وانتشر مذهبه ثم رجع عنه إلىٰ مذهب أهل الحديث، وانتسب إلىٰ =

والماتريدية[1]، فإن لفظ الحديث يردُّ ذلك، فإن قوله: «واحدة» ينافي التعدد، فتعين أن تكون الفرقة الناجية هم أهل الحديث فقط وهم أهل السنة والجماعة.

⊙ **قوله: «المَنْصُورَة»**: أي: التي أعانها -سبحانه- وأيَّدها وقوَّاها علىٰ من خالفها وعادها، وجعل العاقبة لها لتمسكها بما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، كما في «الصحيح» من حديث المغيرة عن النبي ﷺ قال: **«لا تَزال طائفةٌ من أمَّتي ظاهرين علىٰ الحقِّ حتىٰ يأتِيَهم أمرُ الله وهم ظاهرون»**[2]، وفي حديث جابر بن سمرة وجابر بن عبد الله؛ أن النبي ﷺ قال: **«لا تزالُ طائفةٌ من أمتي علىٰ الحقِّ ظاهرين لا يَضرُّهم مَن خالفَهم ولا مَن خَذَلَهم حتىٰ تقومَ الساعةُ»**[3]؛ رواه مسلم وغيره.

=

الإمام أحمد، وألف في مذهب أهل السنة «الإبانة» و«الموجز»، إلا أنه بقيت عليه بقايا من مذهب ابن كلاب، توفي ببغداد سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، قاله الذهبي، ويقال: بقي إلىٰ سنة ثلاثين وثلاثمائة، انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٨٥)، و«البداية والنهاية» (١١/ ١٨٧).

(١) هم أصحاب: محمد بن محمد بن محمود، أبي منصور الماتريدي، المتكلم، وماتريد قرية من قرىٰ سمرقند، له كتاب «التوحيد» وكتاب «المقالات» وكتاب «تأويلات القرآن»، توفي سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة بسمرقند، ومن المسائل التي اشتهر الماتريدية بالخلاف فيها: مسألة الاستثناء في الإيمان، والاستثناء في الكفر، ومسألة القرآن هل الله يتكلم بمشيئته وقدرته أم القرآن لازم لذاته؟ وغير ذلك من مسائل الصفات، انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٤٣١، ٤٣٤)، و«منهاج السنة» (٢/ ٣٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦٨٨١)، ومسلم (١٩٢١/ ١٧١)، وغيرهما من حديث المغيرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (١٩٢٢) من حديث جابر بن سمرة، و(١٩٢٣) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

قال البخاري وغيره: «هذه الطائفة هم أهل العلم»(١).

وقال أحمد: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم»(٢)، وكذا قال يزيد بن هارون، قال: «قال القاضي عياض: إنما أراد أحمد أهل السنة والجماعة ومن يعتقد مذهب أهل الحديث».

ففيه أعظم بشارة؛ أن الحق لا يزول بالكلية، وفيه معجزةٌ ظاهرةٌ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه لم يزل -ولله الحمد- هذا الوصف باقيًا ولا يزال، وهذه سنة الله في خلقه أنه ينصر عباده المؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس: ١٠٣]، وفي «صحيح البخاري» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**قال الله عَزَّ وَجَلَّ: من عادىٰ لي وليًّا فقد بارزني بالحرب**»(٣)؛ ولهذا أهلك الله قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ وأشباههم ممن كذب الرسل وأنجىٰ عباده المؤمنين.

وهكذا نصر الله نبيه محمدًا وأصحابه علىٰ من خالفه وناوأه وعاداه، فجعل كلمته العليا، ودينه الظاهر علىٰ سائر الأديان، وفتح الله عليه مكة واليمن، ودانت له جزيرة العرب بكمالها، وأقام الله أصحابه وخلفاءه من بعده فبلَّغوا عنه دين الله، ودعوا إلىٰ الله، وفتحوا البلاد والأقاليم حتىٰ انتشرت الدعوة المحمدية في مشارق الأرض ومغاربها، ثم لا يزال هذا الدين قائمًا منصورًا إلىٰ قيام الساعة، كما قال الله

---

(١) انظر: «فتح الباري» (١٣/ ١١٦).

(٢) انظر: «فتح الباري» (١/ ١٦٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦١٣٧)، وابن حبان (٣٤٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١] أي: يوم القيامة تكون النصرة أعظم وأجل.

وعن أبي عتبة الخولاني قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**لا يزالُ اللهُ يَغرس في هذا الدِّين غرسًا يَستعملهم في طاعَتِه**»(١)؛ رواه ابن ماجه.

نقل نعيم بن طريف رَحِمَهُ اللَّهُ **عن أحمد أنه قال:** «هم أصحاب الحديث»، وفي «السنن»: «**إنَّ اللهَ يَبعثُ لهذه الأُمَّة في رأسِ كلِّ مِئة سنة مَن يُجدِّدُ لها دينَها**»(٢)، وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لن تخلو الأرضُ من قائمٍ لله بحجته».

⊙ **قوله:** «**إلىٰ قِيامِ السَّاعَةِ**»: أي ساعة موتهم بمجيء الريح التي تقبض روح كل مؤمن، وهي الساعة في حق المؤمنين، وإلا فالساعة لا تقوم إلا علىٰ شرار الخلق كما في «صحيح مسلم»: «**لا تقومُ السَّاعةُ حتىٰ لا يُقالَ في الأرض: الله الله**»(٣). والمراد بالريح ما روىٰ الحاكم، أن عبد الله بن عمرو قال: «**لا تقومُ السَّاعة إلا علىٰ شِرار الخَلْق، هم شَرُّ أهل الجاهلية**»(٤)، وقال عقبة لعبد الله: أعلم ما تقول، وأما أنا فسمعت النبي يقول: «**لا تزالُ عِصابةٌ من أمتي يُقاتلون علىٰ أمرِ الله ظاهرين لا يَضرُّهم**

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٨)، وأحمد (٤/ ٢٠٠)، وابن حبان (٣٢٦) من حديث أبي عتبة الخولاني، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (٧٦٩٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٢٩١)، والحاكم (٨٥٩٢)، والطبراني في «الأوسط» (٦٥٢٧)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (١٨٧٤).

(٣) أخرجه مسلم (١٤٨/ ٢٣٤)، وأحمد (٣/ ١٠٧)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (١٩٢٤)، وابن حبان (٦٨٣٦)، وغيرهما من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

مَن خالَفَهم حتىٰ تأتِيَهم السَّاعةُ وهم علىٰ ذلك»(١)، قال عبد الله: ويبعث الله ريحًا ريحها ريحُ المسك ومسُّها مَسُّ الحرير فلا تترك أحدًا في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، ثم يبقىٰ شرار الناس فعليهم تقوم الساعة.

⊙ **قوله**: «أَهْلِ السُّنَّة»: أي المختصون والمتمسكون بها والمعتنون بدراستها وفهمها، المحكمون لها في القليل والكثير.

والسُّنَّة لغة: الطريقة، وشرعًا: هي أقوال النبي وأفعاله وتقريراته.

وسُموا أهل السنة لانتسابهم لسنته ﷺ دون المقالات كلها والمذاهب، وقد سئل بعضهم عن السنة فقال: «ما لا اسم له سوىٰ السنة»، يعني: أن أهل السنة ليس لهم اسم ينتسبون إليه سواها خلافًا لأهل البدع، فإنهم تارة ينتسبون إلىٰ المقالة؛ كالقدرية(٢) والمرجئة(٣)، وتارة إلىٰ القائل؛ كالجهمية(٤)

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٤/ ١٧٦)، والحاكم (٨٤٠٩)، وغيرهما من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) هم نفاة القدر القائلون بأن العبد يخلق فعل نفسه، وليس لله فيه إرادة ولا خلق ولا مشيئة، فأنكروا عموم المشيئة والخلق، ويطلق اسم القدرية علىٰ الغلاة في القدر، وهم الجبرية. انظر: «الفرق بين الفرق» (١١٢، ٢٤١)، و«مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٧-٥٨).

(٣) قيل: من الإرجاء، أي: التأخير؛ لأنهم أخروا العمل عن مسمىٰ الإيمان، وقيل: من الرجاء؛ لأنهم يقولون: لا يضر مع الإيمان معصية؛ كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

وهم فرق شتىٰ. انظر: «مقالات الإسلاميين» (١٣٢)، و«الفرق بين الفرق» (١٩٠)، و«الملل والنحل» (١/ ١٣٩).

(٤) هم أتباع الجهم بن صفوان، مولاهم السمرقندي، الضال المبتدع رأس الجهمية، هلك في زمان صغار التابعين، رأس في التعطيل، زعم أن القرآن مخلوق، وذهب إلىٰ أن العبد لا قدرة =

والنجارية(١)، وتارة إلىٰ الفعل؛ كالروافض(٢) والخوارج(٣)، وأهلُ السنة بريئون من هذه النسب كلها، وإنما نسبتهم إلىٰ الحديث والسنة.

⊙ **قوله: «والجَمَاعَة»: لغة:** الفِرقة من الناس، والمراد بهم هنا أصحاب النبي ﷺ ومن تبعهم بإحسان إلىٰ يوم القيامة، وقد تكاثرت الأدلة في الحث علىٰ

=

له أصلًا بل فعله كحركة المرتعش، فالعبد عندهم مجبورٌ علىٰ فعله، وأن الجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما حتىٰ لا يبقىٰ موجودٌ سوىٰ الله تعالىٰ، قتله سلم بن أحوز سنة ثمان وعشرين ومائة. انظر: «الملل والنحل» (١/ ٨٦)، و«ميزان الاعتدال» للذهبي (٢/ ١٥٩).

(١) أصحاب الحسين بن محمد النجار، أحد كبار المتكلمين، له مناظرة مع النظَّام أغضب النظام فيها فرَفَسَه، فيقال: مات منها بعد تعلل، وأكثر معتزلة الري وما حواليها علىٰ مذهبه وافقوا المعتزلة في مسائل الصفات، والقرآن، والرؤية، ووافقوا الصفاتية في خلق الأعمال، وهم فرق كثيرة منها البرغوثية والزعفرانية والمستدركة، انظر: «الملل والنحل» (١/ ٨٨-٨٩)، و«اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (٧٠)، و«سير أعلام النبلاء» (١٠/ ٥٥٤).

(٢) هي فرقة من فرق الشيعة الضالة، سموا «روافض» لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أو لأنهم رفضوا زيد بن علي بن الحسين حين منعهم من الطعن في أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهم مجمعون علىٰ أن النبي ﷺ نص علىٰ استخلاف علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باسمه وأظهر ذلك وأعلنه، وأن أكثر الصحابة ضلوا بتركهم الاقتداء به بعد وفاة النبي ﷺ، انظر: «الفرق بين الفرق» (١٥)، و«مقالات الإسلاميين» (١٦ وما بعدها).

(٣) هم الذين خرجوا علىٰ أمير المؤمنين: علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين جرىٰ أمر المحكمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وفيهم قال النبي ﷺ: **«يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»** [«البخاري» (٦١٠ ٢)، و«مسلم»(١٠٦٤)]، انظر: «الفرق بين الفرق»(٥٤)، و«الملل والنحل» (١/ ١١٤).

لزوم الجماعة، فروىٰ الترمذي عن ابن عباس مرفوعًا: «**إنَّ يَدَ الله علىٰ الجماعَةِ**»(١)، وعن أبي ذر مرفوعًا: «**عليكم بالجَماعة، إن اللهَ لم يَجمع أمتي إلا علىٰ هُدًىٰ**»(٢)؛ رواه أحمد، وعن أبي ذر مرفوعًا: «**مَن فارق الجماعةَ شِبرًا فقد خَلَع رِبْقَةَ الإسلامِ مِن عُنُقِهِ**»(٣)؛ رواه أحمد وأبو داود.

قال أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة في كتاب «الباعث علىٰ إنكار البدع والحوادث»: «حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة، فإن المراد بها لزوم الحق وإن كان المتمسك به قليلًا والمخالف له كثيرًا؛ لأن الحق هو الذي كانت عليه الجماعة الأولىٰ من عهد النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولا نظر إلىٰ كثرة أهل الباطل بعدهم»(٤).

وقال ميمون بن مِهران: «قال ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: الجماعة ما وافق الحق وإن كنت وحدك».

وقال نُعيم بن حماد: «إذا فسدت الجماعة فعليك بما كانت عليه الجماعة قبل

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٦)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وصححه الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ في «صحيح الجامع» (٨٠٦٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٤٥) من حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال العلامة الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ في «ضعيف الجامع» (١٣٦): موضوع.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٥٨)، وأحمد (٥/ ١٨٠)، وغيرهما من حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ في «صحيح الجامع» (٦٤١٠).

(٤) انظر: «الباعث علىٰ إنكار البدع والحوادث» (١/ ٢٢).

أن تفسد، وإن كنت وحدك فإنك أنت الجماعة حينئذٍ»[١]، ذكره البيهقي وغيره.

قال ابن القيم في كتابه «إعلام الموقعين»: «واعلم أن الإجماع والحجة والسواد الأعظم هو العالِم صاحب الحق وإن كان وحده، وإن خالفه أهل الأرض، وقد شذَّ الناس كلهم زمن الإمام أحمد بن حنبل إلا نفرًا يسيرًا فكانوا هم الجماعة، وكان الفقهاء والمفتون والخليفة وأتباعه هم الشاذين، وكان الإمام أحمد وحده هو الجماعة، ولما لم يتحمل هذا عقول الناس قالوا للخليفة: يا أمير المؤمنين، تكون أنت وقضاتك وولاتك والفقهاء والمفتون كلهم علىٰ الباطل، وأحمد وحده علىٰ الحق، فلم يتسع علمه لذلك، فأخذه بالسياط والعقوبة بعد الحبس الطويل، فلا إلهَ إلا اللهُ، ما أشبه الليلة بالبارحة! وهي السبيل المَهْيَع لأهل السنة والجماعة حتىٰ يلقوا ربهم، مضىٰ عليها سلفهم وينتظرها خلفهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣] ولا حول ولا قوة إلا بالله». انتهىٰ بتصرف[٢].

ذكر المصنف رحمه الله أن الاعتقاد النافع المنجي من الشرور الذي هو سبب العزة والنصر والتأييد والرفعة والشرف، هو الاعتقاد المأخوذ من الكتاب والسنة، وهو الذي عليه الصحابة وتابعوهم بإحسان، وأصله الذي يبنىٰ عليه هو هذه الأصول الستة المذكورة في حديث جبريل[٣] في هذه الرسالة من أولها إلىٰ آخرها تفصيل لهذه

(١) انظر: «فيض القدير» (٤/ ٩٩).

(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (٣/ ٣٠٨).

(٣) عند مسلم (٨/ ١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

الأصول الستة المذكورة في هذا الحديث وغيره من الآيات، قال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] الآية، وقال: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾ [البقرة: ١٧٧] الآية، وهذه الأصول الستة اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل، وأما أعداؤهم ومن سلك سبيلهم من الفلاسفة وأهل البدع فهم متفاوتون في جحدها وإنكارها[١].

---

(١) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٨٠-٨٤):

«وقد اختلف أهل العلم من المتقدمين في معنىٰ الجماعة وفي تفسير الجماعة علىٰ أقوال:

القول الأول: أن (الجماعة) هم السواد الأعظم، وهذا التفسير منقولٌ عن ابن مسعود الهذلي الصحابي المعروف، وأبي مسعود الأنصاري البدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ساق عنهما ذلك جمعٌ منهم: اللالكائي في كتابه: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة»، قال: «إن الجماعة هي السواد الأعظم».

وقد جاء في بعض الأحاديث -وفي إسنادها من لا يحتج به- أنه قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عليكم بالسواد الأعظم**» [أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٠) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحسنه العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الصحيحة»]، فأخذوا أن الجماعة هي السواد الأعظم، ويعنون بذلك السواد الأعظم في وقتهما، وذلك بأنه في آخر وقت ابن مسعود بدأ ظهور الذين ينقمون علىٰ عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من الخوارج ومن شابههم، وحثوا علىٰ لزوم السواد الأعظم، وهو سواد عامة صحابة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

القول الثاني: أن الجماعة هم جماعة أهل العلم والسنة والأثر والحديث، سواءٌ كانوا من أهل الحديث تعلمًا وتعليمًا، أو كانوا من أهل الفقه تعلمًا أو تعليمًا، أو أهل اللغة تعلمًا وتعليمًا، فالجماعة هم أهل العلم والفقه والحديث والأثر، وهذا القول هو مجموع أقوال عددٍ من =

=

الأئمة حيث قالوا: إن الجماعة وإن الفرقة الناجية هم أهل الحديث.

كما ذكر ذلك الإمام أحمد بقوله: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم»، وذكر ذلك -أيضًا- عبد الله بن المبارك، ويزيد بن هارون، وجماعة من أهل العلم. وقال آخرون: هم أهل العلم. كما ذكره البخاري.

خلاصة هذا القول: أن الجماعة هم أهل العلم، وأهل الحديث، وأهل الأثر، وساق تلك الأقوال الخطيب البغدادي في كتابه «شرف أصحاب الحديث» بأسانيدها إلىٰ من قالها.

وهذا الذي اشتهر عند العلماء -بل عُدَّ إجماعًا- أن المعنِيّ بالجماعة وبالفرقة الناجية هم أهل الحديث والأثر -عني: في زمن الإمام أحمد وما قاربه- لأنهم هم الذين نفوا عن دين الله تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وهم الذين نصروا السنة، ونصروا العقيدة الحقة وبينوها، وردوا علىٰ من خالفها، وأعلَنوا عليه النكير من كل جهة.

القول الثالث: أن الجماعة هم أصحاب رسول الله ﷺ، وهذا القول منسوبٌ إلىٰ الخليفة عمر بن عبد العزيز الأموي رضي الله عنه، وهذا القول دليله واضح، وهو أن النبي ﷺ قال في بعض ألفاظ حديث الافتراق: «**هي الجماعة**»، وقال في ألفاظٍ أُخَر: «**ما كان علىٰ مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»، ومعنىٰ ذلك أن الجماعة هي الصحابة.

القول الرابع -وهو قولٌ نذكره لكن لا دليل عليه-: أن الجماعة هي أمة الإسلام عامة. لكن هذا باطل؛ لأن هذا يناقض حديث الافتراق، فإن حديث الافتراق يبين أن أمة الإسلام -يعني: أمة الإجابة- تفترق إلىٰ ثلاث وسبعين فرقة، وتفسير الجماعة بأنها أمة الإسلام يناقض الحديث مناقضةً واضحة صريحة.

القول الأخير: أن الجماعة يراد بها عصبة المؤمنين الذين يجتمعون علىٰ الإمام الحق، فيدينون له بالسمع والطاعة، ويعقدون له البيعة الشرعية. واختار هذا القول ابن جرير الطبري -رحمه الله تعالىٰ- وجماعة كثيرون من أهل العلم، قالوا: لأنه بهذا يحصل الاجتماع والائتلاف إذا كان علىٰ إمامٍ حق.

إذا كان كذلك فهذه الأقوال -كما ترىٰ- متباينة، ولكن في تحديد من هم أهل السنة والجماعة

=

⊙ **قوله**: «الإِيمانُ بِاللهِ»: الإيمان معناه لغةً: التصديق، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: ١٧]، أي: مصدق، وكذلك إذا أقرن العمل فمعناه التصديق، قال الله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

أما الإيمان في الشرع: فهو قولٌ وعملٌ واعتقاد، وذكر بعضهم إجماع السلف علىٰ ذلك(١)، ومعنىٰ الإيمان بالله: إثبات وجوده سبحانه، وأنه متصفٌ بصفات

=

نحتاج إلىٰ أن نعلم هذه الأوصاف التي ذُكرت في هذه الأقوال، وتحقيق المقام أن الأقوال الثلاثة الأُوَل وهي: القول بأن الجماعة هم السواد الأعظم، أو أن الجماعة هم أهل الحديث والأثر، أو أن الجماعة هم صحابة رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، هذه الأقوال متقاربة، وهي من اختلاف التنوع، لأن الجماعة الذين هم السواد الأعظم -كما فسرها أبو مسعود البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- يَعنون بها صحابة رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وفسر أكثر أهل العلم الجماعة بأنهم أهل العلم والأثر والحديث؛ لأنهم تمسكوا بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد، والجماعة المراد بها أصحاب رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فتحصَّل إذًا أن هذه الأقوال الثلاثة ترجع إلىٰ معنىٰ واحد، وأن أهل السنة والجماعة هم الذين تابعوا صحابة رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتابعوا أهل العلم والحديث والأثر في أمورهم» اهـ.

(١) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٩٤-٩٥)**:

«فمعتقد أهل السنة والجماعة في الإيمان ما جمع خمسة أمور، هي:

الأول: قول القلب، وهو اعتقاد القلب، واعتقادات القلب هي أقواله؛ لأنه يحدِّث بها نفسه ويقولها في قلبه، فأقوال القلب هي الاعتقادات، وستأتي مُفصلة في هذا الكتاب إن شاء الله.

الثاني: قول اللسان بالشهادة لله بالتوحيد، فيقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثالث: عمل القلب، وأوله نيته وإخلاصه، وأنواع أعمال القلوب من التوكل والرجاء والرغبة

=

الجلال والعظمة والكمال، منزه من كل عيبٍ ونقص، وأنه مستحقٌّ للعبادة لا إله غيره ولا رب سواه(١).

⊙ **قوله:** «وَمَلائِكَتِهِ»: أي: التصديق بوجودهم وأنهم كما وصفهم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧] فيجب الإيمان بهم إجمالًا فيما لم نعلمه تفصيلًا، أما من عُلم عينُه

=

والرهبة والخوف والمحبة والإنابة والخشية، ونحو ذلك.

الرابع: عمل الجوارح والأركان بأنواع الأعمال مثل: الصلاة، والزكاة، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ونحو ذلك من الأعمال.

الخامس: أن الإيمان يزيد بطاعة الرحمن، وينقص بمعصية الرحمن وطاعة الشيطان.

فهذه خمسة أمور تميز بكل واحد منها أهل السنة والجماعة عمن خالفهم في هذا الأصل، فمن قال من السلف: «إن الإيمان قولٌ وعمل»، فهو يعني به هذه الأمور الخمسة» اهـ.

(١) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٥٥-٥٩):

«والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور:

١- الإيمان بوجوده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

٢- الإيمان بربوبيته؛ أي: الانفراد بالربوبية.

٣- الإيمان بانفراده بالألوهية.

٤- الإيمان بأسمائه وصفاته.

لا يمكن أن يتحقق الإيمان إلا بذلك.

فمن لم يؤمن بوجود الله؛ فليس بمؤمن، ومن آمن بوجود الله لا بانفراده بالربوبية، فليس بمؤمن، ومن آمن بالله وانفراده بالربوبية لا بالألوهية، فليس بمؤمن.

ومن آمن بالله وانفراده بالربوبية وبالألوهية لكن لم يؤمن بأسمائه وصفاته؛ فليس بمؤمن، وإن كان الأخير فيه من يسلب عنه الإيمان بالكلية، وفيه من يسلب عنه كمال الإيمان..» اهـ.

-كجبريل وميكائيل وإسرافيل ونحوهم- فيجب الإيمان بأعيانهم.

أما عددهم فلا يعلمه إلا الله، وقد دل الكتاب والسنة علىٰ أصناف الملائكة، وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، منهم موكَّلون بالسحاب والمطر، ومنهم موكلون بالأرحام، ومنهم موكلون بحفظ بني آدم، ومنهم موكلون بحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ومنهم الموكلون بالموت والسؤال في القبر، إلىٰ غير ذلك من أصناف الملائكة مما لا يعلمه إلا الله ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

ومما تقدم يُعلم بطلان قول من قال: إن الملائكة لا عقول لهم، فقد تقدم أن منهم السفراء بين الله ورسله، والموكلين بأصناف المخلوقات، إلىٰ غير ذلك مما تواترت به الأدلة من صفاتهم وما كلفهم الله به، وما جاءت به الأدلة من عبادتهم العظيمة وخوفهم من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فهل يصدق عاقلٌ أو من شم رائحةَ الإيمان بما زعمه هذا السفيه؟! لا شك أن هذا قولٌ باطلٌ مصادمٌ لأدلة الكتاب والسنة(١).

⊙ **قوله:** «وكُتُبِهِ»: أي: التصديق بأنها كلام الله، وأنها حق ونور وهدىٰ، فيجب

---

(١) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ١٠٣-١٠٤):

«ولفظ الملائكة جمع «مَلأك»، وأصل هذه الكلمة «مَلأك»، مقلوبة عن «مألك»، والمألك: مصدر -يعني بالاعتبار العام- أصلها من الألوكة، والألوكة: هي الرسالة، وفِعْلُها: أَلَكَ يَأْلُكُ أَلُوكَةً، يعني: أرسل برسالة خاصة وبمهمة خاصة.

فإذًا الكلمة راجعة إلىٰ معنىٰ الإرسال، «فالملائكة» من لفظها اللغوي معناه: المرسلون برسالة خاصة والقائمون بمهمة خاصة» اهـ.

الإيمان بما سمىٰ الله منها من التوراة والإنجيل والزبور، ونؤمن بأن لله سوىٰ ذلك كتبًا أنزلها علىٰ أنبيائه لا يعرف أسمائها وعددها إلا الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، قال تعالىٰ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] الآية، وغيرها من الآيات الدالة علىٰ أن الله تكلم بها حقًّا، وأنها أنزلت من عنده، وفي ذلك إثبات صفة الكلام والعلو، أما الإيمان بالقرآن فالإقرار به واتباع ما فيه، وذلك أمرٌ زائدٌ علىٰ الإيمان بغيره من الكتب.

⊙ **قوله:** «ورُسُلِهِ»: أي: التصديق بأنهم صادقون فيما أخبروا به، وأنهم بلغوا الرسالة وأدَّوا الأمانة، وأنهم بينوا ما لا يسع أحدًا ممن أرسلوا إليهم جهلُه ولا يحل خلافه، وأنه يجب احترامهم، وأن لا يفرق بينهم، فيجب الإيمان بمن سمىٰ الله في كتابه من رسله، وأن لله رسلًا غيرهم وأنبياء لا يعلم عددهم إلا الله، فعلينا الإيمان بهم جملةً؛ لأنه لم يأت نصٌّ صحيحٌ في عددهم، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَرُسُلًا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلًا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَ﴾ [النساء: ١٦٤] الآية، وقد سبق الكلام في هذا الموضوع.

فيجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، وتصديقهم بكل ما أخبروا به من الغيب، وطاعتهم في كل ما أمروا به ونهوا عنه، قال تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة: ١٣٦].

قال ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ-: «والإيمان بالرسل يلزم منه الإيمان بجميع ما أخبروا به من الملائكة والأنبياء والكتب والبعث والقدر وغير ذلك من صفات الله

وصفات اليوم الآخر، كالصراط والميزان، والجنة والنار ونحو ذلك»[١].

وأفضل الخلق على الإطلاق نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأفضل بعده أولو العزم من الرسل، ثم بقية الرسل، ثم الأنبياء، ولا يبلغ الولي مهما بلغ من الجد والاجتهاد في طاعة الله درجةَ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وقد شنَّع الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللهُ على من يزعم ذلك ورد عليه أسوأ رد، وقال: إن ذلك مخالف لدين الإسلام واليهود والنصارى[٢].

وأما الكلام على قوله: **«والبعث بعد الموت والإيمان بالقدر»** فسيأتي إن شاء الله.

◈ ◈ ◈

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٠٣).

(٢) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (١/ ٩٥).

وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلاَ تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلاَ تَمْثِيلٍ. بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

الشَّرْح

⊙ قوله: «وَمِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ»: فمن جحد صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فليس بمؤمنٍ، قال تعالىٰ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠] الآية، وكذلك من عطَّلها أو شبهها بصفات خلقه.

قال نعيم بن حماد: «من شبه الله بخلقه كفر، ومن نفي ما وصف به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيهٌ»(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في «النونية»:

مــن شـبه الله العظـيم بخلقـه ... فهـو النسـيب لمشـرك نصـراني

أو عطـل الـرحمن مـن أوصـافه ... فهـو الكفـور ولـيس ذا إيمـان

⊙ وفي قوله: «بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ»: إثبات أن صفاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إنما تتلقىٰ من السمع لا بآراء الخلق، فصفاته -سبحانه- مبنية علىٰ التوقيف، فلا يوصف إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ٢٦٣).

قال أحمد رحمه الله: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، لا يُتجاوز القرآن والحديث»(١).

قال ابن القيم رحمه الله في «البدائع»: «ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق عليه في باب الإخبار لا يجب أن يكون توقيفيًّا؛ كالشيء والموجود والقديم ونحو ذلك»(٢).

ذكر المصنف -رحمه الله تعالىٰ- هذا الأصل العظيم في باب الأسماء والصفات، فيناسب أن نضم إليه عدة أصولٍ مجموعةً من كتب المحققين لتكون المقدمة.

أولًا: إن أسماء الله وصفاته غير محصورةٍ بعددٍ معروف، وأما حديث: «**إِنَّ للهِ تَسعةً وتِسعين اسمًا مَن أحصَاهَا دَخَل الجنَّةَ**»(٣) فليس فيه حصرٌ لها، وإنما غاية ما فيه أن هذه الأسماء موصوفةٌ بأن من أحصاها دخل الجنة، كما تقول: عندي مئة عبد أعددتهم للجهاد في سبيل الله، فلا ينافي أن لديك عبيدًا غيرهم أعددتهم لغير ذلك.

ثانيًا: أن الصفات تنقسم إلىٰ قسمين:

القسم الأول: صفاتٌ ذاتية، وهي التي لا تنفك عنه بحال، كالغنىٰ والقدرة والعلو والرحمة ونحو ذلك من الصفات التي هي من لوازم ذاته.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ٢٦).

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٢).

(٣) أخرجه البخاري (٢٥٨٥)، ومسلم (٢٦٧٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

القسم الثاني: صفاتٌ فعلية، وهي كل صفةٍ تعلقت بمشيئته وإرادته، ويعبر عنها بالأفعال الاختيارية؛ كالاستواء والمجيء والنزول ونحو ذلك.

ثالثًا: أركان الإيمان بالأسماء والصفات، والإيمان بالصفة وما دلت عليه من المعنىٰ وبما تعلَّق بها من الآثار، فتؤمن بأنه عليمٌ وذو علمٍ عظيم، وأنه لا تخفىٰ عليه خافية.

رابعًا: ليس في أسماء الله وصفاته نفيٌ محض، بل كل نفيٍ وُجد في أسماء الله وصفاته فهو لإثبات كمال ضده؛ إذ النفي المحض عدمٌ، والعدم ليس بشيءٍ، فضلًا عن أن يُمدح به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩]، أي: لكمال عدله، ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: لكمال قوته واقتداره.

خامسًا: طريقة أهل السنة والجماعة، هو الإجمال في النفي والتفصيل في الإثبات، كما دل علىٰ ذلك الكتاب والسنة، قال تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ: ١١] فأجمل في النفي وفصَّل في الإثبات، وهذا عكس ما عليه أهل البدع من الجهمية والمعتزلة وأشباههم، فإنهم يجملون في الإثبات ويفصِّلون في النفي.

سادسًا: أسماء الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وصفاته هي بالنظر إلىٰ الذات من قبيل المترادف، وبالنظر إلىٰ الصفات من قبيل المتباين.

سابعًا: أسماء الله -سبحانه- وصفاته حقيقة، وليست من قبيل المجاز خلافًا للمبتدعة من الجهمية والمعتزلة وغيرهم، فعلىٰ كلام هؤلاء لا يكون -سبحانه- حيًّا

حقيقة ولا مريدًا حقيقة ولا قادرًا، تعالىٰ الله عن قولهم، وهذا لازم لكل من ادعىٰ المجاز في أسماء الرب وصفاته وأفعاله لزومًا لا محيد عنه، وكفىٰ أصحاب هذه المقالة كفرًا.

ثامنًا: أسماؤه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تنقسم إلىٰ قسمين: أعلامٌ وأوصاف، والوصفية فيها لا تنافي العلمية، بخلاف أوصاف العباد.

تاسعًا: للاسم من أسمائه ثلاث دلالات: دلالةٌ علىٰ الذات والاسم بالمطابقة، وعلىٰ أحدهما بالتضمن، وعلىٰ الصفة الأخرىٰ بالالتزام، مثاله: اسم (السميع) يدل علىٰ ذات الرب وسمعه بالمطابقة، وعلىٰ الذات وحدها والسمع وحده بالتضمن، ويدل علىٰ الحي وصفة الحياة بالالتزام، وكذلك سائر أسمائه وصفاته.

عاشرًا: إذا كانت الصفة منقسمة إلىٰ كمالٍ ونقصٍ لم تدخل بمطلقها في أسمائه -سبحانه- بل يُطلق عليه منها كمالها؛ كالمريد والصانع، فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه، فإن الصنع والإرادة تنقسم إلىٰ محمودٍ ومذموم.

الحادي عشر: لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيدًا أن يُشتقَّ له منه اسمٌ مطلق، وقد غلط من جعل من أسمائه الماكر والفاتن والمضل، تعالىٰ الله عن قولهم، ثم إنه علىٰ فهم هذا الغالط أن يجعل من أسمائه الجائي والغضبان ونحو ذلك من الأسماء التي أطلقت عليها أفعالها، وهذا لا يقوله مسلمٌ ولا عاقل، انتهىٰ من كلام ابن القيم ملخصًا[١].

---

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة» (٣٠٧).

الثاني عشر: الأسماء والصفات التي تستعمل في حق الخالق والمخلوق، كالعلم والقدرة ونحو ذلك هي حقيقةٌ في الخالق والمخلوق خلافًا للجهمية.

قال ابن القيم: وهذا قول عامة العقلاء، وهو الصواب(١).

الثالث عشر: أسماء الله وصفاته من قبيل المُحكَم وليست من المتشابه، فإن معناها واضحٌ معروفٌ في لغة العرب، وأما الكُنْه والكيفية فهو مما استأثر الله بعلمه.

الرابع عشر: لا يلزم من اتحاد الاسمين تماثل مسماهما، فإن الله سمىٰ نفسه بأسماءٍ تسمىٰ بها بعضُ خلقه، وكذلك وصف نفسه بصفاتٍ وصف بها بعض خلقه، فلا يلزم من ذلك التشبيه، فقد وصف نفسه بالسمع والبصر والعلم والقدرة، ووُصف بذلك بعض خلقه، فليس السميع كالسميع ولا البصير كالبصير، فصفات كل موصوف تناسب ذاته وتليق به ولا مناسبة بين الخالق والمخلوق.

الخامس عشر: ذكر الشيخ تقي الدين في كتابه «التدمرية» أصلين عظيمين نافعين من هذا الباب:

الأول: القول في الصفات كالقول في الذات، فكما أننا نثبت لله ذاتًا لا تشبه الذوات فيجب أن نثبت له صفاتٍ لا تشبه الصفات، فالصفات فرع الذات يُحذىٰ فيها حذوها.

الثاني: القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر إذ لا فرق، فمن أثبت بعض الصفات ونفىٰ البعض الآخر -كالأشاعرة- فقد تناقض؛ إذ الدليل الذي ثبتت به الصفات التي أقروا بها يوجد مثله أو أقوىٰ منه يثبت البعض الآخر، إلىٰ غير ذلك

---

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة» (٣٠٩).

من الأصول العظيمة التي ذكرها الشيخ تقي الدين وابن القيم وغيرهما من المحققين في كتبهم(١)، وقد أفردنا تلك الأصول في رسالةٍ مفردةٍ فارجع إليها(٢).

---

(١) انظر: «التدمرية» (٣١،٤٣)، وانظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٧، ٢٥).

(٢) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ١٣٧-١٤٢):**

«القاعدة الأخيرة التي نختم بها هي: أن ظاهر النصوص مراد، وأن الإيمان إنما يكون بظاهر النص؛ لأن الظاهر هو ما يتبادر إلىٰ الذهن من النص، وهذا هو الذي كلفنا الله عَزَّوَجَلَّ بالإيمان به؛ إذ لم نُكلَّف في الغيبيات بأن نؤمن بأشياء وراء الظاهر لأنها لا تُدرك، وهذه الغيبيات لابد من إدراكها.

فما هو ظاهر النصوص؟

الجواب: ظاهر النصوص هو إثبات المعنىٰ دون إثبات الكيفية؛ ولهذا وجب الإيمان به؛ لأن فيه إثباتًا للمعنىٰ دون إثبات الكيفية، والله عَزَّوَجَلَّ وصف نفسه بأنه استوىٰ علىٰ العرش، وهذا إثبات للمعنىٰ دون إثبات الكيفية، ووصف نفسه بأنه يغضب: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفتح:٦]، وهذا إثبات للمعنىٰ دون إثبات الكيفية، ووصف نفسه بأنه يرضىٰ، وهذا إثبات للمعنىٰ دون إثبات للكيفية

فظاهر النص هو المعنىٰ الذي دل عليه، أما كيفية الاتصاف فإن هذه لا يدل عليها ظاهر النصوص؛ ولهذا ضل من ضل حيث زعم وظن أن ظاهر النصوص فيه التشبيه أو التمثيل، ففهم من الغضب غضب المخلوق، يعني: كيفية غضب المخلوق، وفهم من الرضىٰ رضىٰ المخلوق، يعني: كيفية رِضىٰ المخلوق، فيفسرون الغضب -مثلًا- بأنه ثوران دم القلب، أو غليان دم القلب، وهذا أثر الغضب في المخلوق وليس هو معنىٰ الغضب، بل الغضب له معنىٰ كلي لا يتقيد بالمخلوق. وهذا الباب مهم جدًّا، فإن الإيمان بظاهر النص هو إيمان بالمعنىٰ الذي دل عليه هذا الظاهر، وهذا الظاهر أحيانًا يكون إفراديًّا نفهمه من كلمة واحدة، وأحيانًا =

=

يكون هذا الظاهر تركيبيًّا نفهمه من تركيب الكلام.

يعني أن الظاهر ينقسم إلىٰ قسمين: ظاهر إفرادي، وظاهر تركيبي.

الظاهر الإفرادي: هو الذي دل عليه أفراد الكلام، يعني: كلمة واحدة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح:٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى﴾ [طه:٨١]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة:٢٦] ونحو ذلك من الصفات.

وأما الظاهر التركيبي: فهو الذي يُفْهَم لا من جهة لفظه، ولكن من جهة الكلام كله، وهذا حجة أصل في اللغة، وهو مقرر عند أئمة أهل اللغة، وكذلك أئمة أهل السنة في كتب العقائد وغيرها، فيُفهم بسياق الكلام، وهذا هو الذي يُسمىٰ عند الأصوليين بالدلالة الحملية للكلام، هذا في غاية الأهمية للناظر في هذا الباب -باب الأسماء والصفات- لأن من ادعوا أن السلف أوَّلوا في باب الأسماء والصفات احتجوا ببعض كلامهم في هذا الأمر، وهم إنما أرادوا دلالة التركيب، ومعلوم أن الكلام إذا دل بتركيبه فإنه لا يكون نفيًا لما دلت عليه أفراده.

مثال ذلك: قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ [الفرقان:٤٥]، الظاهر الإفرادي للكلام في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أن الرؤية تكون لله، يعني: يرىٰ الرب عَزَّوَجَلَّ، لكن لما قال: ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ﴾ علمنا بدلالة التركيب -وهو ما يُفهم به مقصود المتكلم من كلامه- أنه أراد قدرة الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، كذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٢٦]، هل هذه من آيات الصفات التي فيها الإتيان؟ لا، ولِمَ لَمْ يحملها السلف علىٰ أنها من آيات صفة الإتيان؟ لأن المقصود بالإتيان -إذا أُثبتت الصفة- إتيان الذات وليس إتيان الصفات، وهنا قال: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ وهذا ليس دليلًا علىٰ صفة الإتيان؛ لأن التركيب تركيب الكلام يدل علىٰ أن المراد إثبات الصفة بقوله: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾، ومن المعلوم المتقرر أن الله عَزَّوَجَلَّ ليس كمثله شيء، فهو سبحانه لا يأتي بذاته للبنيان من قواعده فهو عَزَّوَجَلَّ أجل من ذلك، وهو سبحانه مستوٍ علىٰ عرشه، وإنما المقصود إتيان صفاته اللائقة في هذا الموضع، وهي قدرته، وبطشه، وقوته،

=

⊙ **قوله**: «مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ»: أي تغييرٍ لألفاظ الأسماء والصفات أو تغييرٍ لمعانيها، وقد ذم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن اليهود: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، أي: يغيرونه

=

وعقابه، ونكاله بالكافرين؛ لذلك قال: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾.

أيضًا من أمثلته: قوله عَزَّوَجَلَّ في سورة البقرة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥]، هنا فسر السلف الوجه بالقبلة؛ لأن الوجه من حيث اللفظ يُطلق علىٰ الجهة ويُطلق علىٰ الصفة، فيكون (وجه) بمعنىٰ وِجهة، ويكون وجه الله بمعنىٰ الصفة التي هي الوجه المعروفة، هنا ما حُمل المعنىٰ علىٰ الصفة مع أنها إضافة صفة إلىٰ مُتصف بها وهو (وجه الله)؛ وذلك لدلالة السياق ودلالة التركيب، وهذا ظاهر لأن سياق الآيات في القبلة: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ يعني القبلة؛ ولهذا خرجت هذه الآية عن أن تكون من آيات الصفات.

كذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢]، هذه هي الآية الوحيدة التي اختلف فيها السلف هل هي من آيات الصفات أم ليست من آيات الصفات؟ فبعضهم قال: هي من آيات الصفات، أو أن يكون المقصود التركيب فتكون من غير آيات الصفات وبعضهم فسرها بما يُخرجها عن كونها من آيات الصفات، لِمَ؟ الجواب: لتنازع هذا الموضع بين أن يُقصد الفرق فتكون من آيات الصفات، يعني: هل يُفهم الكلام بفهم كلمة (سَاق)، أو نفهمه مع سباقه ولحاقه؟ فالعرب تقول: كشفت الحرب عن ساقٍ. إذا كشفت عن هول وشدة، وهذا استعمال تركيبي تستعمله العرب للدلالة علىٰ الهول والشدة؛ فلهذا قال ابن عباس وغيره: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ يعني عن هول وشدة.

وآخرون كأبي سعيد وغيره قالوا: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ يعني: عن ساق الرحمن عَزَّوَجَلَّ؛ لما جاء في الحديث من الدلالة علىٰ ذلك» اهـ.

ويفسرونه بغير معناه.

فالتحريف لغةً: التغيير وإمالة الشيء عن وجهه، يقال: انحرف عن كذا، أي: مال وعدل.

واصطلاحًا: هو التغيير لألفاظ الأسماء والصفات أو معانيها، كقول الجهمية في قوله سبحانه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، أي: استولىٰ، وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، أي: أمره.

فالتحريف ينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: تحريف اللفظ؛ كقولهم في: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ۝١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤] بنصب لفظ الجلالة، وكقولهم في ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ [الأعراف: ٥٤]: استولىٰ، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، أي: أمره.

ويُروىٰ أن جهميًّا طلب من أبي عمرو بن العلاء -أحد القراء- يقرأ: (وَكَلَّمَ اللهَ مُوسَىٰ تكليمًا) بنصب لفظ الجلالة، فقال له: هبني فعلتُ ذلك، فما تصنع بقوله: ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؟ فبُهت الجهمي.

الثاني: التحريف المعنوي، كقولهم في قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ۝١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤] أي: جَرَحه بأضافير الحكمة تجريحًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والتحريف نوعان: تحريف اللفظ، وتحريف المعنىٰ، فتحريف اللفظ: العدول عن جهته إلىٰ غيرها؛ إما بزيادةٍ أو نقصان، وإما بتغيير حركة

إعرابية، فهذه أربعة أنواع(١)، وأما تحريف المعنىٰ: فهو العدول بالمعنىٰ عن وجهه وحقيقته، وإعطاء اللفظ معنىٰ لفظ آخر بقدرٍ ما مشترك بينهما.

⊙ **قوله**: «وَلَا تَعْطِيلٍ»: وهو لغة: الإخلاء، يقال: جِيدٌ عطل، أي: خال من الزينة، قال الشاعر:

وجِيدٌ كجِيدِ الريم ليس بفاحش ... إذا هي نصته ولا بمعطَّل

وأما معناه هنا: فهو جحد الصفات وإنكار قيامها بذاته -سبحانه- ونفي ما دلت عليه من صفات الكمال، وأول من قال بالتعطيل في الإسلام: الجعد بن درهم(٢)، فقتله خالد بن عبد الله القَسري بعد استشارة علماء زمانه.

قال ابن القيم رحمه الله في «النونية»:

ولأجل ذا ضحىٰ بجعد خالد الـ ... ـقسري يوم ذبائح القربان

شكر الضحية كل صاحب سنة ... لله درك من أخي قربان

وتلقىٰ عن الجعد مقالة التعطيل الجهم بن صفوان الترمذي فنشرها وناضل عنها؛ فلذا نُسب المذهب إليه، فيقال: جَهمية بفتح الجيم، والجهم قتله سَلم بن

---

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة» (٣٨٧).

(٢) هو مؤسس مذهب التعطيل وأول من قال: إن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسىٰ تكليمًا، كان مؤدبًا لمروان الحمار آخر خلفاء بني أمية، لذا يقال له: مروان الجعدي، قتله خالد القسري يوم الأضحىٰ سنة أربع وعشرين ومائة، وقال: أيها الناس، ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضحٍّ بالجعد بن درهم، ونزل فقتله، وكان من أبرز تلاميذه الجهم بن صفوان، وبه عرف مذهب التعطيل، انظر: «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٤٣٣)، و«البداية والنهاية» (٩/ ٣٥٠).

أحْوز أمير خراسان.

والتعطيل ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام - كما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الأول: تعطيل المصنوع من صانعه؛ كتعطيل الفلاسفة الذين زعموا قِدم هذه المخلوقات وأنها تتصرف بطبيعتها.

الثاني: تعطيل الصانع من كماله المقدس بتعطيل أسمائه وصفاته؛ كتعطيل الجهمية وأشباههم من المعتزلة وغيرهم.

الثالث: تعطيل حق معاملته بترك عبادته، أو عبادة غيره معه(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والتعطيل شرٌّ من الشرك، فإن المعطل جاحدٌ للذات أو كمالها، وهو جحدٌ لحقيقة الألوهية، فإن ذاتًا لا تسمع ولا تبصر ولا تغضب ولا ترضىٰ ولا تفعل شيئًا، وليست داخل العالم ولا خارجه، ولا متصلة بالعالم ولا منفصلة، ولا فوق ولا تحت، ولا يمين ولا شمال، هو والعدم سواء، والمشرك مقرٌّ بالله، لكن عبد معه غيره، فهو خيرٌ من المعطل للذات والصفات»(٢)(٣).

---

(١) انظر: «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» (١٣٠).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٣٧٨-٣٧٩).

(٣) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ١٥٨-١٦٠):**

«وهل إيمان المُعطل بالنص هو حقيقة أم دعوىٰ؟ الجواب: هو دعوىٰ، فالأشعري، والماتريدي، والمعتزلي، والإباضي، والرافضي، وأشباههم يقولون: نؤمن بالنصوص لكنهم يعطلون النصوص عن معانيها، ويجعلون هذه المعاني للنصوص في الصفات راجعة إلىٰ الأوصاف التي يثبتونها، فالجهمي يُرجع كل صفة إلىٰ صفة الوجود بجعل الأوصاف =

⊙ **قوله**: «وَلَا تَكْيِيفٍ»: وهو تعيين كُنْه الصفة، يقال: كيَّف الشيء؛ أي: جعل له كيفيةً معلومة.

وكيفية الشيء: صفته وحاله، فالتكييف: تعيين كنه الصفة وكيفيتها، وهذا مما استأثر الله به، فلا سبيل إلىٰ الوصول إليه؛ إذ الصفة تابعة للموصوف، فكما لا يَعلم كيف هو إلا هو، فكذلك صفاته، فالصفات يُحذىٰ فيها حذو الذات.

وقد سئل مالك -رحمه الله تعالىٰ- فقيل له: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] كيف استوىٰ؟ فقال: «الاستواء معلومٌ، والكيف مجهول، والإيمان به واجبٌ، والسؤال عنه بدعة»(١). وكذلك رُوي عن ربيعة نحوٌ من هذه الإجابة، وكذلك روي عن أم سلمة زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

=

والأسماء أثرًا لصفة الوجود، والمعتزلي يجعل الصفات والأسماء من آثار الصفات الثلاث التي يثبتها. والأشعري والكلابي يجعل كل صفة راجعة للصفات السبع التي يثبتها، والماتريدي يجعل الصفات والأسماء من آثار الصفات الثمان التي يُثبتها.

فمثلاً: صفة النزول لله عَزَّوَجَلَّ ينفيها أولئك:

فالأشعري يُفسرها فيقول: نؤمن بأنه ينزل لكن نزوله ليس نزولًا حقيقيًّا، إنما هو نزول الرحمة والإجابة؛ إجابة الله عَزَّوَجَلَّ للداعين في هذا الوقت المتأخر من الليل. فهم يجعلون الصفة راجعة إلىٰ الصفات التي يثبتونها، فالرحمة عندهم إرادة الإحسان، لِمَ؟ لأنهم يجعلون من الصفات السبع. صفة الإرادة، والغضب عندهم إرادة الانتقام، لِمَ؟ لأن الإرادة عندهم من الصفات السبع... وهكذا، فكل صفة يعطلونها عن معناها الذي دلت عليه اللغة، ويقولون: نؤمن بالنص لكن هذه الصفة معناها أحد الأوصاف السبعة التي أثبتناها» اهـ.

(١) انظر: «سير أعلام النبلاء» (٨/ ١٠٠).

فقوله: **الاستواء معلوم**، أي: في لغة العرب.

وقوله: **والكيف مجهول**، أي: كيفية استوائه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لا يعلم كنهها وكيفيتها إلا هو سبحانه.

وقوله: **الإيمان به واجب**؛ لتكاثر الأدلة من الكتاب والسنة في إثبات ذلك.

والسؤال عنه، أي: عن الكيفية بدعةٌ.

ففرّق مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ بين المعنىٰ المعلوم من هذه اللفظة وبين الكيف الذي لا يعقله البشر.

وإجابة مالك -رحمه الله تعالىٰ- وغيره جوابٌ كافٍ شافٍ في جميع مسائل الصفات، فإذا سُئل إنسان عن المجيء أو النزول أو السمع أو البصر أو غير ذلك، أجاب بجواب مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

فيقال مثلًا: المجيء معلوم، والكيف مجهول، وكذلك من سئل عن الغضب والرضا والضحك وغير ذلك، فمعانيها كلها مفهومة، وأما كيفيتها فغير معقولة؛ إذ تَعَقُّل الكيفية فرع العِلم بكيفية الذات وكنهها، فإذا كان ذلك غير معقول للبشر فكيف يعقل لهم كيفية الصفات؟![1].

---

(١) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٩٩):

«ولهذا -أيضًا- قال بعض العلماء جوابًا لطيفًا: إن معنىٰ قولنا: «بدون تكييف»: ليس معناه ألا نعتقد لها كيفية، بل نعتقد لها كيفية لكن المنفىٰ علمنا بالكيفية؛ لأن استواء الله علىٰ العرش لا شك أن له كيفية، لكن لا تُعلم، نزوله إلىٰ السماء الدنيا له كيفية، لكن لا تُعلم؛ لأنه ما من موجود إلا وله كيفية، لكنها قد تكون معلومة، وقد تكون مجهولة» اهـ.

⊙ **قوله**: «وَلَا تَمْثِيلٍ»: التمثيل هو التشبيه، يقال: مثَّل الشيء بالشيء: سوَّاه وشبَّهه وجعله مثله وعلىٰ مثاله، فالشبيه والمثيل والنظير ألفاظ متقاربة، فلا تُمثَّل صفاتُه بصفات خلقه، فإنه لا مثل له ولا شبه له ولا نظير، لا في ذاته وأسمائه، ولا في صفاته وأفعاله، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١].

والتشبيه ينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: تشبيه المخلوق بالخالق، كتشبيه اليهود العُزيرَ بالله، وتشبيه النصارىٰ عيسىٰ بالله، وتشبيه المشركين أصنامَهم بالله، وهذا النوع هو الذي أُرسلت الرسل وأنزلت الكتب في النهي عنه، وهو أعظم الذنوب علىٰ الإطلاق ومحبطٌ لجميع الأعمال.

الثاني: تشبيه الخالق بالمخلوق؛ كقول المُشبِّه: لله يدٌ كأيدينا، وسمع كأسماعنا، وهذا هو الذي صُنِّفت كتب التوحيد للرد علىٰ قائله، وكِلا النوعين كفرٌ، وكلُّ مشبهٍ معطلٌ وبالعكس، فإن المعطل لم يفهم من صفات الله إلا ما يليق بالمخلوق، فأراد بزعمه الفاسد تنزيهه عن ذلك فوقع في التعطيل، فشبه أولًا، وعطل ثانيًا، وشبَّهه ثالثًا بالمعدومات والناقصات، تعالىٰ الله عن قولهم.

وكذلك المشبِّه عطَّل الصفة التي تليق بالله ووصفه بصفات المخلوق، فعطل أولًا، وشبهه ثانيًا، فكل معطلٍ مشبهٌ وبالعكس(١).

---

(١) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» =

قال الشيخ تقي الدين في «الحموية»: «وكل واحدٍ من فريقي التعطيل والتمثيل فهو جامعٌ بين التعطيل والتمثيل، أما المعطلون فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ما هو اللائق بالمخلوق، ثم شرعوا في نفي تلك المفهومات فقد جمعوا بين التمثيل والتعطيل، مثلوا أولًا، وعطلوا آخرًا، وهذا تشبيهٌ وتمثيلٌ منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم، وتعطيلٌ لما يستحقه هو من الصفات اللائقة بالله سبحانه، ومذهب السلف بين التعطيل والتمثيل فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه كما لا يمثلون ذاته بذوات خلقه، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيعطلون أسماءه الحسنىٰ وصفاته ويحرفون الكلم عن مواضعه ويلحدون في أسماء الله وآياته»[1] انتهىٰ[2].

=

(١/ ١٦٤، ١٦٥):

«ولهذا يقول العلماء: «كل مُحرف أو مُعطل لنصوص الصفات فقد مثَّل وعطل»، فالممثل والمكيف خيرٌ من المعطل؛ لأنه إنما وقع في شرٍّ واحدٍ وبدعةٍ واحدةٍ، وهو التمثيل والتكييف، أما المعطل المُحرف النافي للصفات فقد مَثَّل باطنًا ثم عطل ظاهرًا، قام في قلبه التمثيل أن الله عَزَّوَجَلَّ في هذه الصفة مثل المخلوق، فيقول: كيف يد الله؟ بعد أن مثلها بالجارحة في المخلوق، وكيف يتكلم بحرف وصوت؟ بعد أن تخيل أن ذلك يلزم له لسانًا ولهاة كما في المخلوق... إلىٰ آخره، فاستحضر التمثيل أولًا، يعني: فهم من النص أنه يدل علىٰ التمثيل فمثل، ثم بعد ذلك نفىٰ هذا وعطل، نسأل الله عَزَّوَجَلَّ العافية» اهـ.

(١) انظر: «الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ» (٢٦٧).

(٢) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ١٠٣-١٠٥):

«وأما الأدلة العقلية علىٰ انتفاء التماثل بين الخالق والمخلوق: فمن وجوه:

=

=

أولًا: أن نقول: لا يمكن التماثل بين الخالق والمخلوق بأي حال من الأحوال، لو لم يكن بينهما من التباين إلا أصل الوجود؛ لكان كافيًا، وذلك أن وجود الخالق واجب، فهو أزلي أبدي، ووجود المخلوق ممكن مسبوق بعدم ويلحقه فناء، فما كانا كذلك لا يمكن أن يقال: إنهما متماثلان.

ثانيًا: أنا نجد التباين العظيم بين الخالق والمخلوق في صفاته وفي أفعاله؛ في صفاته يسمع عَزَّوَجَلَّ كل صوت مهما خفي ومهما بعد، لو كان في قعار البحار؛ لسمعه عَزَّوَجَلَّ.

وأنزل الله قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١]، تقول عائشة: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، إني لفي الحجرة، وإنه ليخفىٰ عليّ بعض حديثها»، والله تعالىٰ سمعها من علىٰ عرشه، وبينه وبينها ما لا يعلم مداه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يمكن أن يقول قائل: إن سمع الله مثل سمعنا.

ثالثًا: نقول: نحن نعلم أن الله تعالىٰ مباين للخلق بذاته: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ [الزمر: ٦٧]، ولا يمكن لأحد من الخلق أن يكون هكذا، فإذا كان مباينًا للخلق في ذاته؛ فالصفات تابعة للذات، فيكون -أيضًا- مباينًا للخلق في صفاته عَزَّوَجَلَّ، ولا يمكن التماثل بين الخالق والمخلوق.

رابعًا: نقول: إننا نشاهد في المخلوقات أشياء تتفق في الأسماء وتختلف في المسميات، يختلف الناس في صفاتهم: هذا قوي البصر وهذا ضعيفه، وهذا قوي السمع وهذا ضعيف، هذا قوي البدن وهذا ضعيف، وهذا ذكر وهذه أنثىٰ... وهكذا التباين في المخلوقات التي من جنس واحد، فما بالك بالمخلوقات المختلفة الأجناس؟! التباين بينها أظهر؛ ولهذا لا يمكن لأحد أن يقول: إن لي يدًا كيد الجمل، أو لي يدًا كيد الذرة، أو لي يدًا كيد الهر، فعندنا الآن إنسان وجمل وذرة وهر، كل واحد له يد مختلفة عن الثاني، مع أنها متفقة في الاسم فنقول: إذا جاز التفاوت بين المسميات في المخلوقات مع اتفاق الاسم، فجوازه بين الخالق والمخلوق من باب أولىٰ. بل نحن نقول: إن التفاوت بين الخالق والمخلوق ليس جائزًا فقط، بل هو واجب، فعندنا أربعة وجوه عقلية كلها تدل علىٰ أن الخالق لا يمكن أن يماثل

=

⊙ **قوله:** «بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]»: كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١] أي: أنه سبحانه لا مثل له في ذاته ولا في أسمائه وصفاته ولا في أفعاله، فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ردٌّ علىٰ المشبهة الممثلة، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ردٌّ علىٰ المعطلة النفاة.

والكاف في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أصح الأقوال أنها زائدة، وهذا معروف في لغة العرب؛ كقول الشاعر:

ليس كمثل الفتىٰ زهير ... خلق يوازيه في الفضائل

في هذه الآية المتقدمة فوائد:

الأول: إثبات السمع والبصر، والرد علىٰ من زعم أن السمع والبصر بمعنىٰ العلم، وفيها الرد علىٰ المعطلة الذين ينفون الصفات بالكلية؛ كالجهمية، والذين يثبتون الأسماء دون المعاني؛ كالمعتزلة الذين يقولون: سميعٌ بلا سمع، بصيرٌ بلا بصر، وتصوُّر هذا القول يكفي في ردِّه واستهجانه(١).

=

المخلوق بأي حال من الأحوال.

ربما نقول **أيضًا:** هناك دليل فطري؛ وذلك لأن الإنسان بفطرته بدون أن يُلقَّن يعرف الفرق بين الخالق والمخلوق ولولا هذه الفطرة؛ ما ذهب يدعو الخالق.

فتبين الآن أن التمثيل منتفٍ سمعًا وعقلًا وفطرة» اهـ.

(١) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ١٧١-١٧٣):**

=

وفيها الرد علىٰ الأشاعرة الذين يثبتون بعض الصفات ويؤولون البعض الآخر، وهم متناقضون أعظم تناقض، وفيها النفي المجمل والإثبات المفصَّل، وفيها الجمع بين النفي والإثبات، وفيها تقديم النفي علىٰ الإثبات؛ لأن الأول من باب التخلية، والثاني من باب التحلية.

=

«ما فائدة إثبات السمع والبصر هنا؟

قال العلماء: في هذا حكمة وفائدة عظيمة، وهي: أنه نفىٰ أولًا بقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ثم أثبت هذين الاسمين لله المتضمنين لصفتي السمع والبصر، وسبب ذلك أن صفة السمع والبصر، من الصفات التي تشترك فيها أكثر المخلوقات الحية ذات الروح، مهما صغر من فيه حياة من ذوي الأرواح أو عظم، فعنده سمع وبصر، تنظر إلىٰ النملة عندها سمع وبصر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل: ١٨]، فهي تسمع وتبصر طريقها، والبعوضة كذلك لها سمع وبصر، والدواب لها سمع وبصر، والإنسان له سمع وبصر، فصفتا السمع والبصر من أكثر الصفات اشتراكا بين المخلوقات الحية ذوات الأرواح، فإذا كان ثم توهم في المماثلة فليكن توهمًا للمماثلة في اتصاف هذه المخلوقات في صفة السمع والبصر، فهل بصرك أيها الإنسان وسمعك مثل سمع النملة وبصرها؟ لا شك أنَّ ثمَّ قدرًا مشتركًا في السمع بين البعوض والإنسان، وفي البصر بين البعوض والإنسان، لكن تختلف كيفيته، وتختلف حقيقته، ويختلف عظمه وتعلقه. كذلك السمع، فالإنسان يسمع من مسافة بعيدة والمخلوق الصغير مثل الذبابة أو البعوضة يسمع لكن لمسافة أقل، وهكذا.

فإذا كان كذلك دل علىٰ إثبات السمع والبصر في المخلوقات هو إثبات وجود لا إثبات مساواة، وهذا متصل بقوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فإذًا إثبات هاتين الصفتين لله -التي عظم اشتراك المخلوقات مع الله عَزَّوَجَلَّ في اسم الصفة وفي بعض معناها- ليس من جهة التمثيل في شيء، وفيه أعظم رد علىٰ الذين توهموا أن إثبات الصفات فيه تمثيل وفيه تجسيم» اهـ.

وفيها الجمع بين السمع والبصر، فكثيرًا ما يقرن بينهما لعموم متعلقهما، فسمعه سبحانه محيطٌ بجميع المسموعات، وبصره محيطٌ بجميع المبصرات، وسمعه سبحانه ينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: سمعٌ عامٌّ، وهو سمعه -سبحانه- لكل مسموع، كقوله سبحانه: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١].

الثاني: سمعٌ خاصٌّ، وهو سمع الإجابة والإثابة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾ [إبراهيم: ٣٩] الآية، ومنه قول العبد: «سمع الله لمن حمده» أي: استجاب سبحانه لمن حمده وأثنىٰ عليه.

وفيها إثبات الصفات لله علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته، وفيها أن صفاته ليس كصفات خلقه، والمخلوقُ وإن كان يوصف بأنه سميعٌ بصيرٌ فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره، فصفات الخالق كما يليق به، وصفات المخلوق كما يليق به؛ إذ لا مناسبة بين الخالق والمخلوق، فصفات كل موصوف تناسب ذاته وحقيقته، فلا يعلم كيف هو إلا هو(١).

---

(١) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٨٢- ٨٣):

«سؤال: هل كل ما هو كمال فينا يكون كمالًا في حق الله، وهل كل ما هو نقص فينا يكون نقصًا في حق الله؟

الجواب: لا؛ لأن المقياس في الكمال والنقص ليس باعتبار ما يضاف للإنسان؛ لظهور الفرق بين الخالق والمخلوق، لكن باعتبار الصفة من حيث هي صفة، فكل صفة كمال، فهي ثابته لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

فالأكل والشرب بالنسبة للخالق نقص؛ لأن سببهما الحاجة، والله تعالىٰ غني عما سواه، لكن =

قال بعض السلف[١]: إذا قال الجهمي: كيف استوىٰ؟ كيف ينزل إلىٰ السماء الدنيا؟ ونحو ذلك، فقل له: كيف هو بنفسه؟ فإذا قال: لا يعلم كيف هو إلا هو، وكنه الباري غير معلومٍ للبشر، فقل له: فالعلم بكيفية الصفة مستلزمٌ للعلم بكيفية الموصوف، فكيف يمكن أن يعلم كيفية صفة لموصوف لم تعلم كيفيته، وإنما تعلم الذات والصفات من حيث الجملة، فلا سبيل إلىٰ العلم بالكنه والكيفية، فإذا كان في المخلوقات ما لا يعلم كنهه فكيف بالباري سبحانه؟! فهذه الجنة، ورد عن ابن عباس: «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء»، وهذه الرُّوح نجزم بوجودها وأنها تعرج إلىٰ السماء وأنها تُسَل منه وقت النزع، وقد أمسكت النصوصُ عن بيان كيفيتها، فإذا كان ذلك في المخلوق فكيف بالخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟!

=

هما بالنسبة للمخلوق كمال، ولهذا؛ إذا كان الإنسان لا يأكل؛ فلابد أن يكون عليلًا بمرضٍ أو نحوه، هذا نقص.

والنَّوم بالنسبة للخالق نقص، وللمخلوق كمال، فظهر الفرق.

التكبر كمال للخالق ونقص للمخلوق؛ لأنه لا يتم الجلال والعظمة إلا بالتكبر حتىٰ تكون السيطرة كاملة، ولا أحد ينازعه... ولهذا توعد الله تعالىٰ من ينازعه الكبرياء والعظمة، قال: «من نازعني واحدًا منهما عذبته» [أخرجه مسلم (٢٦٢٠)، وأبو داود (٤٠٩٠)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ].

فالمهم أنه ليس كل كمال في المخلوق يكون كمالًا في الخالق، ولا كل نقص في المخلوق يكون نقصًا في الخالق، إذا كان الكمال أو النقص اعتباريًّا» اهـ.

(١) انظر: «أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات» لمرعي بن يوسف الكرمي (ص٢٠٧).

وفيها أعظم دلالة علىٰ كثرة صفات كماله ونعوت جلاله(١)، وإنها لكثرتها

---

(١) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ١٢٩-١٣١):

«أيضًا من التقسيمات: أن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته تنقسم من حيث معناها إلىٰ:

* منها ما هي أوصاف أو أسماء جلال.

* ومنها ما هي أوصاف أو أسماء جمال.

* ومنها ما هي أوصاف أو أسماء لمعاني الربوبية.

* ومنها أوصاف أو أسماء لمعاني الألوهية.

وهذه انقسامات للمعاني، فأسماء الله عَزَّوَجَلَّ منها أسماء جلال ومنها أسماء جمال، وضابط ذلك أن أسماء الجمال ما كان فيها فتح باب المحبة من العبد لربه عَزَّوَجَلَّ من جنس أسماء وصفات الرحمة؛ كصفة الرحمة والأسماء المأخوذة منها كالرحمن، والرحيم، ونحو ذلك، ومثل اسم الله عَزَّوَجَلَّ الجميل أو صفة الجمال لله، واسم الله عَزَّوَجَلَّ النور أو صفة النور لله عَزَّوَجَلَّ، والله عَزَّوَجَلَّ رَزَّاق فاسمه الرَّزَّاق وذو الرِّزْق، ونحو ذلك مما فيه إحسان بالعباد، فهذه يُقال لها: صفات جمال.

ولهذا شيخ الإسلام في ختمه للقرآن المشهور نسبتها إليه يقول في أولها: «صدق الله العظيم المتوحد في الجلال بكمال الجمال تعظيمًا وتكبيرًا، الذي نزل القرآن علىٰ عبده...» إلىٰ آخره.

هنا قال: «المتوحد في الجلال بكمال الجمال» ذلك أن أسماء الله عَزَّوَجَلَّ منها جلال ومنها كمال، أما أسماء وصفات الجلال فضابطها أنها الأسماء والصفات التي فيها معاني جبروت الله عَزَّوَجَلَّ وعزته وقهره، مثل اسم الله العزيز، والقهار، والجبار، والقوي، والمنتقم، ونحو ذلك من الأسماء والصفات، فمعاني العزة، والجبروت، والقهر، هذه كلها جلال؛ لأنها تورث الإجلال والتعظيم والخوف والهيبة لله عَزَّوَجَلَّ ومن الله عَزَّوَجَلَّ، وأسماء الله عَزَّوَجَلَّ أو صفاته من جهة الربوبية؛ كاسم الله عَزَّوَجَلَّ الرب، والمالك، والملك، والسيد -عند من أطلقه اسمًا لله عَزَّوَجَلَّ-، ومدبر الأمر الذي يجير ولا يُجار عليه، والرزاق، ونحو ذلك من الأسماء التي فيها =

وعظمتها لم يكن له فيها مثل.. وإلا فلو أُريدَ نفي الصفات لكان العدم المحض أولىٰ بهذا المدح، مع أن كل عاقلٍ يفهم من قول القائل: فلان لا مِثل له؛ أنه قد تميز عن الناس بأوصافٍ ونعوتٍ لا يشاركونه بها، وهذا واضح من معنىٰ الآية، أن معناها إثبات الصفات لا نفيها خلافًا لأهل البدع من الجهمية وغيرهم.

وفي الآية متمسك لمن فضَّل السمع علىٰ البصر.

◈ ◈ ◈

=

معاني الربوبية، قد تكون ببعض الاعتبارات أسماء جلال، وقد تكون أسماء جمال، وهذا باب واسع يُطلب من مظانه. كذلك من الأسماء ما فيها معاني الألوهية. مثل: الله، والمعبود، مع أن المعبود ما أطلق اسمًا، يعني: ما فيه معانٍ تدل علىٰ إفراد الله عَزَّوَجَلَّ بأفعال العبيد» اهـ.

فَلَا يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلَا يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَآيَاتِهِ، وَلَا يُكَيِّفُون، وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ؛ لأَنَّهُ -سبحانه- لَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَا كُفْءَ لَهُ، وَلَا نِدَّ لَهُ، ولَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ . فَإِنَّهُ -سُبْحَانَهُ- أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلًا، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ، ثُمَّ رُسُلُهُ صَادِقُونَ مُصَدَّقُونَ[1]، بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ.

الشَّرْح

⊙ **قوله: «فَلَا يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ»**: ووصفه به رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل يثبتون له الأسماء والصفات وينفون عنه مشابهة المخلوقات.

رضوا لربهم ما رضيه لنفسه ورضيه له رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه -سبحانه- أعلم بنفسه وبغيره، وكذلك رسله فإنهم أعلم بالله وأصدق وأنصح من جميع خلق الله، وأقدر على البيان والتبليغ، وقد بلَّغوا البلاغ المبين، وقد سار على منهاجهم أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتابعون لهم بإحسان، والخير في اتِّباعهم.

وخير الأمور السالفات على الهدى ... وشر الأمور المحدثات البدائع

وأما أهل البدع من الجهمية وغيرهم فنفوا أسماء الله وصفاته وعطلوها زعمًا منهم أن إثباتها يقتضي التشبيه أو التجسيم أو التحيز ونحو ذلك من أقوال أهل الضلال الذين نبذوا كتاب الله وسنة رسوله وراء ظهورهم، ورضوا بالتلمذة على اليهود والمجوس والصابئين وأضرابهم من ضُلَّال الأمم، فإن أصل مقالة التعطيل

---

(١) في نسخة: «مصدوقون».

مأخوذةٌ عن هؤلاء، كما ذكر ذلك الشيخ تقي الدين وابن القيم وغيرهما(١)، فإن الجهم بن صفوان تلقىٰ مقالة التعطيل عن الجعد بن درهم، والجعد أخذها عن أبان بن سمعان، وأبان أخذها عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم الذي سحر النبيَّ صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

كما أن الجهم قابل قومًا من السُّمَنية وسألوه عن الله فتحير ومكث أربعين يومًا لا يصلي، ويُروىٰ أنه دخل حران وقابل قومًا من الصابئة وباحثهم، فمقالةٌ هذه مصادرها لا شك أنها أخبث مقالة، وكفىٰ بقومٍ أعرضوا عن كتاب الله وسنة رسوله وتتلمذوا علىٰ هؤلاء الضُّلَّال كفرًا وضلالًا.

ومـــا عـــوض لنـــا منهـــاج جهـــم بمنهـــاج ابـــن آمنـــة الأمـــين

⊙ **قوله**: «وَلَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ»: أي: يغيرونه ويفسرونه بغير معناه، قال تعالىٰ: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: «أي يتأولونه علىٰ غير تأويله، ويفسرونه بغير مراد الله قصدًا منهم وافتراءً»(٢).

قال في «شرح الطحاوية»: «والتحريف علىٰ مراتب؛ منه ما يكون كفرًا، ومنه ما يكون فسقًا، وقد يكون معصيةً، وقد يكون خطأً»(٣). انتهىٰ(٤).

---

(١) انظر: «الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ» (٢٣٢).

(٢) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٢/ ٣٢٣).

(٣) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (١/ ١٤).

(٤) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» =

⊙ **قوله: «وَلَا يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وآيَاتِهِ»**: أي: يميلون ويعدلون عن الحق الثابت، فالإلحاد معناه لغةً: الميل والعدول عن الشيء، ومنه: اللحد في القبر؛ لانحرافه إلىٰ جهة القبلة عن سَمْت الحفر.

قال ابن القيم: «الإلحاد: هو العدول بأسماء الله وصفاته وآياته عن الحق الثابت»(١).

وقال في «النونية»:

أسماؤه أوصاف مدح كلها ... مشتقة قد حملت لمعاني
إياك والإلحاد فيها إنه ... كفر معاذ الله من كفران
وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالـ ... إشراك والتعطيل والنكران
فالملحدون إذًا ثلاث طوائف ... فعليهم غضب من الرحمن

=

(١/ ١٥٤، ١٥٥):

«وهل كل تحريف يُعد كُفرًا؟ الجواب: ليس كل تحريف يُعَد كفرًا، فإن أهل السنة لم يكفروا الذين فسروا استوىٰ باستولىٰ، فإن كان التحريف في جميع الصفات -كفعل الجهمية- فإنه يُعد كُفرًا، والجهمية عندهم كفار؛ لأنهم حرفوا ونفوا صفات الله عَزَّوَجَلَّ، وإن كان التحريف في بعض الصفات، وكانت الدلالة عليها ظاهرة ولا يحتملها وجه -يعني: ليس للتأويل فيها مدخل- هنا يُكفَّر به؛ كتكفير من نفىٰ رؤية الله عَزَّوَجَلَّ، وتكفير من جعل كلام الله عَزَّوَجَلَّ مخلوقًا، وأما غيره مما يكون لقائله عذر في تأويله فإنه لا يقال بكفره.

ولهذا أهل السنة والجماعة لم يكفروا الأشاعرة، والماتريدية، والكُلابية، والسالمية، والكرامية، وأشباه هؤلاء» اهـ.

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (١٦٩).

وقال أيضًا: «والإلحاد في أسماء الله وصفاته أنواع:

أحدها: أن يُسمىٰ الأصنام بها، كتسمية اللات من الإله، والعُزَّىٰ من العزيز، ونحوه.

الثاني: تسميته -سبحانه- بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارىٰ له أبًا، وتسمية الفلاسفة له موجِبًا، أو علة فاعلة.

الثالث: وصفه بما يتعالىٰ ويتقدس عنه من النقائص، كقول أخبث اليهود: إن الله فقير، وقولهم: يد الله مغلولة.

الرابع: تعطيل الأسماء الحسنىٰ عن معانيها وجحد حقائقها، كقول من يقول من الجهمية: إنها ألفاظٌ مجردةٌ لا تتضمن صفاتٍ ولا معانٍ، فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي، ويقولون: لا سمع له ولا بصر ولا حياة، ونحو ذلك.

الخامس: تشبيه صفاته بصفات خلقه، تعالىٰ الله عن قول الملحدين علوًّا كبيرًا، فجَمَعَهُم الإلحادُ وتفرَّقت بهم طُرقُه، وبرَّأ الله أتباع رسوله وورثته القائمين بسنته عن ذلك كله، فلم يصفوه إلا بما وصف به نفسه، ولم يجحدوا صفاته، ولم يشبهوها بصفات خلقه، ولم يعدلوا بها عما أُنزلت له لفظًا ولا معنىٰ، بل أثبتوا له الأسماء والصفات، ونفوا عنه مشابهة المخلوقات، فكان إثباتهم بريئًا من التشبيه، وتنزيههم خليًّا من التعطيل، لا كمن شبَّه حتىٰ كأنه يعبد صنمًا، أو عطَّل حتىٰ كأنه يعبد عدمًا»(١). انتهىٰ.

---

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (١٦٩، ١٧٠).

⊙ **قوله: «وَلَا يُكَيِّفُونَ»**: شيئًا من صفاته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فإنه الموصوف بصفات الكمال التي لا تبلغها عقول الخلائق، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ [طه: ١١٠]، فيجب الإيمان بصفات الله، واعتقاد أنها حقيقةٌ تليق بجلال الله وعظمته، أما كنهها وكيفيتها فهو مما استأثر الله بعلمه فلا سبيل إلىٰ معرفته، وقد تقدم الكلام علىٰ هذا الموضوع(١).

⊙ **قوله: «وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ»**: فمذهب أهل السنة: إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات؛ إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

⊙ **قوله: «لأَنَّهُ -سبحانه- لَا سَمِيَّ لَهُ...»**: أي: لا نظير له، كما قال سبحانه: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥] أي: مَن يساميه أو يماثله، ويروىٰ عن ابن عباس: «مثيلًا أو شبيهًا».

⊙ **قوله: «ولا كُفْءَ له...»**: أي: لا مثل له سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤].

⊙ **قوله: «وَلَا نِدَّ لَهُ»**: أي: لا شبه له ولا نظير، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢].

وفي **قوله: «وَلَا نِدَّ لَهُ...» إلخ**: رد علىٰ المعتزلة الذين يزعمون أن العبد يخلق فعلَ نفسه.

---

(١) عند شرح قوله: «ولا تكييف»، انظر: (ص١٥١).

⊙ **قوله:** «وَلَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ»: أي: لا يمثَّل بهم ولا يُشبَّه، والقياس في اللغة: التمثيل.

قال تعالىٰ: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] فلا يقاس سبحانه بخلقه في أفعاله ولا في صفاته، كما لا يقاس بهم في ذاته؛ خلافًا للمعتزلة ومن وافقهم من الشيعة، فإنهم قاسوه سبحانه بخلقه فشبهوه بهم، فوضعوا له شريعةً من قبل أنفسهم، فقالوا: يجب علىٰ الله كذا ويحرم عليه كذا بالقياس علىٰ المخلوق، فالمعتزلة ومن وافقهم مشبهةٌ في الأفعال، معطلةٌ في الصفات، جحدوا بعض ما وصف الله به نفسه من صفات الكمال وسموه توحيدًا، وشبهوه بخلقه فيما يحسن ويقبح من الأفعال وسموا ذلك عدلًا، فعدلُهم: إنكار قدرته -سبحانه- ومشيئته العامة الكاملة التي لا يخرج عنها شيء من الموجودات ذواتها وصفاتها وأفعالها، وتوحيدُهم: إلحادهم في أسماء الله الحسنىٰ وتحريف معانيها عما هي عليه، فكان توحيدهم في الحقيقة تعطيلًا وعدلهم شركًا. انتهىٰ، من كلام ابن القيم بتصرف(١).

⊙ **قوله:** «فَإِنَّهُ -سُبْحَانَهُ- أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ»: قال الله تعالىٰ: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥)﴾ [النور: ٣٥]، وقال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠)﴾ [طه: ١١٠] أي: لا يحيط الخلائق به سبحانه علمًا، فهو الموصوف بصفات الكمال التي لا تبلغها عقول الخلائق، كما في «الصحيح»: «**لا نُحصِي ثَناءً عليكَ أنتَ كما أثنيتَ علىٰ نفسِك**»(٢)، فما جاء في الكتاب والسنة من صفاته سبحانه وجب الإيمان به وتلقيه بالقبول

---

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ١٦٤-١٦٥).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٦)، وأبو داود (٨٧٩)، وغيرهما من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

والتسليم، وترك التعرض له بالرد والتشبيه والتمثيل، فهو الذي وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ؛ فعلينا أن نرضىٰ بما رضيه لنفسه فإنه أعلم بما يجوز ويمتنع ويليق بجلاله.

قال الإمام الشافعي -رحمه الله تعالىٰ-: «آمنت بالله وبما جاء عن الله علىٰ مراد الله، وآمنت برسول الله وبما جاء عن رسول الله علىٰ مراد رسول الله»(١).

وعلىٰ هذا درج السلف الصالح رضوان الله عليهم، وقد أُمرنا باقتفاء آثارهم والاهتداء بمنارهم، كما قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثةٍ بدعةٌ، وكل بدعةٍ ضلالةٌ»(٢).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتم»، وقال الشعبي: «عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوه لك بالقول».

⊙ **قوله: «وَأَصْدَقُ قِيلًا»**: قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]، وثبت في «الصحيح» من حديث جابر؛ أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته يوم الجمعة: «إن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهُدىٰ هُدىٰ محمد ﷺ»(٣) الحديث، فما أخبر به الله -سبحانه- فهو حقٌّ وصدقٌ، علينا أن

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٦/ ٣٥٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وأحمد (٤/ ١٢٦)، وغيرهم من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٨٦٧)، والنسائي (١٥٧٨)، وأحمد (٣/ ٣١٠)، واللفظ لهما، وغيرهم من =

نصدقه ولا نعارضه ولا نعرض عنه، فمن عارضه بعقله لم يصدق به، وكذلك من أقر بلفظه مع جحد معناه، أو حرَّفه إلىٰ معانٍ أُخر غير ما أريد به لم يكن مصدقًا.

⊙ **قوله:** «وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ»: قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧] لفظه لفظ استفهام، ومعناه: لا أحد أحسن حديثًا منه سبحانه، فألفاظه أفصح الألفاظ وأبينها وأعظمها مطابقة لمعانيها المرادة منها، ومعانيه أشرف المعاني، فلا تجد كلامًا أحسن تفسيرًا ولا أتمَّ بيانًا من كلامه سبحانه؛ ولهذا سماه الله بيانًا وأخبر أنه يسَّره للذِّكر، يسَّر ألفاظه للحفظ، ويسَّر معانيه للفهم، فمحالٌ أن يترك باب الإيمان بالله وأسمائه وصفاته ملتبسًا، وهو أشرف العلوم علىٰ الإطلاق، بل قد بينه الله ورسوله بيانًا شافيًا قاطعًا للعذر، لا لبس فيه ولا إشكال، فآيات الصفات واضحة المعنىٰ وضوحًا تامًّا، بحيث يشترك في فهم معانيها العام والخاص، أي: فهم أصل المعنىٰ لا فهم الكنه والكيفية، كما أنها مفيدة للعلم اليقيني الكامل.

⊙ **قوله:** «ثُمَّ رُسُلُه صَادِقُونَ»: أي: فيما جاءوا به عن الله، والصدق هو مطابقة الخبر للواقع، فرسله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ صادقون في جميع ما أتوا به؛ إذ هو الحق الصدق المطابق للواقع، فلا يصح لإنسانٍ قولٌ ولا عملٌ إلا باعتقاد صدقهم وأمانتهم، وأنهم بلغوا البلاغ المبين بأبلغ عبارة وأوضح أسلوب، ليس في كلامهم لغزٌ ولا أَحَاجِي، وليس له باطن يخالف ظاهره، وأن لديهم من القدرة علىٰ التعبير وكمال العلم وتمام الشفقة والنصح ما ليس عند غيرهم، فيجب أن يكون بيانهم للحق أكمل من بيان كل أحد، فمن

=

حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

المحال أن يتركوا باب الإيمان بالله وأسمائه وصفاته ملتبسًا وهو أشرف العلوم على الإطلاق وأجلها وأوجبها، قد بينوه غاية البيان، ولم يبق فيه شكٌّ ولا إشكال.

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللَّهُ: ومعلومٌ أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بلغ الرسالة كما أُمِر ولم يكتم منها شيئًا، فإن كتمان ما أنزله الله عليه يناقض موجب الرسالة، كما أن الكذب يناقض موجب الرسالة، قال: ومن المعلوم في دين المسلمين أنه معصومٌ من الكتمان لشيء من الرسالة، كما أنه معصومٌ من الكذب فيها، والأمة(١) تشهد له بأنه بلغ الرسالة كما أمر الله وبين ما أنزل إليه من ربه(٢)، وقد وجب على كل مسلم تصديقه في كل ما أخبر به.

⊙ **قوله: «مُصَدِّقُون»**: أي: فيما يأتيهم من الوحي الكريم، قال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦]، فيجب الإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين، وأن لا يفرَّق بين أحدٍ منهم، وتصديقهم فيما أخبروا به، واتباعهم في كل ما جاءوا به فهو حقٌّ وصدقٌ.

وقد اتفق العلماء على كفر من كذب نبيًّا معلومَ النبوة، وكذا من سبَّه أو انتقصه ويجب قتله؛ لأن الإيمان واجب بجميع المرسلين واتباعهم واتباع ما أنزل إليهم،

---

(١) في الأصل: «الآية»، والصواب ما أثبتناه من المصدر المذكور.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٥٥).

وقد ختمهم الله بمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنزل عليه الكتاب والحكمة، وجعل دعوته عامة لجميع الثقلين، باقيةً إلىٰ يوم القيامة، وانقطعت به حجة العباد علىٰ الله سبحانه، وقد بين الله به كل شيءٍ وأكمل له ولأمته الدين خبرًا وأمرًا، وأقسم بنفسه أنهم لا يؤمنون حتىٰ يُحَكِّموه فيما شجر بينهم، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] الآية، وفي حديث أنس أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يُؤمِنُ أحدُكم حتىٰ يكونَ هواه تبعًا لِمَا جِئتُ به**»(١).

وأعظم ما جاء به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو وإخوانه من الرسل هو الدعوة إلىٰ توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له ومعرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله، وأنه لا شبيه له ولا نظير، فهذا هو مِفتاح دعوتهم وزُبدة رسالتهم من أولهم إلىٰ آخرهم، فدينهم واحدٌ وإنما اختلفت الشرائع، كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نَحن مَعاشِرَ الأنبياءِ أَولادُ عَلَّات دِينُنا واحِدٌ**»(٢) الحديث.

⊙ **قوله**: «**بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لا يَعْلَمُونَ**»: أي: بخلاف الذين يقولون علىٰ الله في شرعه ودينه أو في أسمائه وصفاته وأفعاله ما لا يعلمون، بل بمجرد عقولهم الفاسدة وتخيلاتهم الكاسدة التي ما أنزل الله بها من سلطان، قال تعالىٰ: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣] وقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]، فالقول علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

---

(١) أخرجه النسوي في «الأربعين» (٩)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤/ ٣٦٨) من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وضعفه الألباني في «المشكاة» (١٦٧).

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٥٨)، ومسلم (٢٣٦٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بلا علم من أعظم المنكرات؛ ولهذا جعله في أعظم مراتب التحريم، فإنه بدأ بأسهلها وختم بأشدها وأعظمها تحريمًا وهو القول علىٰ الله بلا علم، وتواتر عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن كذَبَ عليَّ مُتعمِّدًا فلْيَتَبوَّأْ مَقعَدَه مِن النَّار»(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فالقول علىٰ الله بغير علم من كبائر الذنوب، سواء كان في أسماء الله وصفاته وأفعاله، أو في أحكامه، وتقديم الخيال المسمىٰ بالعقل والسياسة الظالمة والعوائد الباطلة والآراء الفاسدة والأذواق والكشوفات الشيطانية علىٰ ما جاء به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. انتهىٰ بتصرف(٢).

◈ ◈ ◈

---

(١) أخرجه البخاري (١١٠)، ومسلم (٣)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (٤/ ٣٠٥).

وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ [الصافات: ١٨٠- ١٨٢]. فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ؛ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ.

الشرح

⊙ **قوله**: «وَلِهَذَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾»:

ذكر المصنف -رحمه الله تعالىٰ- هذه الآية الكريمة دليلًا علىٰ ما تقدم من إثبات صدق الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وصحة ما جاءوا به، وأنه الحق الذي يجب اعتقاده، وأن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة، ووصفوا الله بما يليق به من صفات الكمال ونزَّهوه عن صفات النقص والعيب، وأن من قال بخلاف ما جاءوا به فهو كاذبٌ علىٰ الله قائلٌ عليه بدون علم.

⊙ **قوله**: «﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾»: أي: تنزيهًا لله عن كل نقصٍ وعيب.

قال ابن القيم: «التسبيح: تنزيه الله عن كل سوء، وأصل اللفظة من المباعدة؛ من قولهم: سبحْتُ في الأرض؛ إذا تباعَدْت فيها، وتأتىٰ سبحان للتعجب»(١). انتهىٰ.

⊙ **قوله**: «﴿رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾»: أي: القوة والغلبة، وأضافها إليه لاختصاصها به، والعزة يراد بها عزة القوة، وعزة الامتناع، وعزة الغلبة والقهر، فله -سبحانه- العزة

(١) انظر: «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (١٧٩).

التامة بالاعتبارات الثلاث، يقال من الأول: عَز يَعَزُّ -بفتح العين- في المستقبل، وفي الثاني بكسر العيَن، وفي الثالث بضمِّها، من النقائص والعيوب.

⊙ **قوله:** «﴿عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠﴾»: أي تنزه سبحانه وتقدس عما يصفه به المخالفون للرسل من النقائص والعيوب.

⊙ **قوله:** «﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٨١﴾»: أي: سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة لسلامة ما قالوه في ربهم وصحته وأحقيَّته.

⊙ **قوله:** «﴿وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾»: وقوله: ﴿رَبِّ﴾: هو الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، ولا يطلق إلا علىٰ الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ إلا إذا أضيف فيطلق علىٰ غيره؛ كرب الدار ورب الدابة ونحو ذلك، ولفظة «رَبٌّ» و«إله» فيهما دلالة الاقتران والانفراد، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإذا ذُكرا معًا فُسِّر الرب بما تقدم، وفُسِّر الإله بأنه المعبود المطاع.

⊙ **قوله:** «﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾»: العَالَم كل ما سوىٰ الله، سمي بذلك لأنه علامة علىٰ وجود خالقه وموجده ووحدانيته وأنه المستحق للعبادة، كما قيل:

فـوا عجبًـا كيـف يعصـىٰ الإلـه ... أم كيـف يجحـده الجاحـدُ

وفي كـل شـيء لـه آيـة ... تـدل علـىٰ أنـه واحـدُ

ويروىٰ أن أعرابيًّا سئل عن الله، فقال: يا سبحان الله! إن البعرة لتدل علىٰ البعير، وإن الأثر ليدل علىٰ المسير، فسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فِجاج، وبحرٌ

ذات أمواج، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟![(١)].

ففي هذه الآية نزَّه نفسه -سبحانه- عما لا يليق بجلاله، ثم سلم على المرسلين، وهذا يقتضي سلامتهم من كل ما يقوله المكذبون لهم، وإذا سلموا من ذلك لزم سلامة كل ما جاءوا به من الكذب والفساد، وأعظم ما جاءوا به هو التوحيد ومعرفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ووصْفه بما يليق بجلاله مما وصف به نفسه على ألسنتهم، وإذا سلِم ذلك من الكذب والمحال فهو الحق المحض وما خالفه فهو الباطل والكذب والمحال.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة، ويستلزم إثبات الكمال، كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة، ويستلزم التنزيه عن النقص، قرن بينهما في هذا الموضع وفي مواضع كثيرة من القرآن؛ ولهذا قال: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠﴾ [الصافات: ١٨٠]»[(٢)] انتهى.

وفي هذه الآية إثبات أنواع التوحيد الثلاثة، فإن الحمد يتضمن إثبات أنواع التوحيد الثلاثة، فإن الحمد مدحُ المحمود بصفات كماله ونعوت جلاله، مع محبته والرضا عنه والخضوع له، ومن المعلوم أن فاقد صفات الكمال لا يكون إلهًا ولا مدبرًا، بل هو مذمومٌ معيبٌ ليس له الحمد، وإنما الحمد لمن له صفات الكمال

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ١٠٦).

(٢) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ٤١).

ونعوت الجلال التي لأجلها استحق الحمد، واشتملت هذه الآية علىٰ وصفه - سبحانه- بالعزة المتضمنة للقوة والقدرة وعدم النظير، والحمد المتضمن لصفات الكمال والتنزيه عن أضدادها، وعلىٰ إثبات صفة الكلام وعلىٰ الرد علىٰ جميع المخالفين، وإثبات أن ما جاء به المرسلون هو الحق الذي يتعين اعتقاده لسلامة ما قالوه في ربهم من النقص والعيب. انتهىٰ من كلام ابن القيم ملخصًا(١).

⊙ **قوله:** «فَسَبَّحَ نَفْسَهُ»: أي: نزَّهها عما يصفه به العباد إلا ما وصفه به المرسلون وأتباعهم، فإن هذه الكلمة؛ أي: (سبحان ربك)، تنزيه للرب وتعظيمه وإجلاله عما لا يليق به من النقائص والعيوب(٢). فالرسل - عليهم الصلاة والسلام - وأتباعهم

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٤٩).

(٢) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ١٩٤):

«وتسبيح الله (سبحان الله) معناه: تنزيه الله عن كل نقص وعيب وسوء، وموارده في الكتاب والسنة خمسة:

الأول: تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن الشريك في الربوبية؛ كما ادعاه الملحدون.

الثاني: تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن الشريك في الألوهية؛ كما ادعاه المشركون.

الثالث: تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ في أسمائه وصفاته أن تسلب معانيها اللائقة بها، وتنزيه الله عَزَّوَجَلَّ في أسمائه وصفاته عن مماثلة المخلوقين لها.

الرابع: تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ في أمره الكوني وقدره الكوني عن أن يكون بلا حكمة أو أن يكون عبثًا؛ كما ادعاه من قال: خلقنا الله عبثًا. ومن نفوا الحكمة في الخلق والإيجاد وتقدير الأشياء.

الخامس: تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ في شرعه وأمره الديني عن النقص وعن منافاة الحكمة، فالله عَزَّوَجَلَّ يُنزه نفسه بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾ [الصافات:١٨٠] يعني: تنزيهًا لله من كل سوء ادعاه =

وصَفُوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بصفات الكمال، ونزَّهوه عما لا يليق به من الشبيه والمثال، وأما أعداء الرسل فوصفوه بضد ذلك من النقائص والعيوب، وألحدوا في أسماء الله وصفاته وآياته، وحرفوا الكلام عن مواضعه، فالحق هو ما كان عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وما جاء به علمًا وعملًا واعتقادًا في باب صفات الرب وأسمائه، وتوحيده، وأمره ونهيه، ووعده ووعيده، وكل ذلك مسلَّم إلىٰ رسول الله دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم، فكل ما خالف ما عليه الرسول وأصحابه فهو باطلٌ مردودٌ علىٰ صاحبه كائنًا من كان.

⊙ **قوله**: «لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ»: أي: أن ما قالوه في ربهم سالم من النقص والعيب، فإنهم أعلم الخلق بالحق، وأنصح الخلق وأفصحهم وأقدرهم علىٰ البيان والتبليغ، فما بينوه من أسماء الله وصفاته وغير ذلك هو الغاية في الكمال، وهو الحق الذي يجب اعتقاده واتباعه، ولا تحل مخالفته.

قال في «القاموس»: «السلامة: البراءة من العيوب» اهـ. والعيب والنقصان مترادفان.

◈ ◈ ◈

=

المخالفون للرسل، وهم ادعوا الشركة له في الربوبية، فيُنزه الله عَزَّوَجَلَّ عن الشريك في الربوبية.

وإذا قلت في الركوع: سبحان ربي العظيم، معناه: تنزيهًا لله ربي العظيم عن كل سوء ونقص في هذه الموارد الخمسة التي في الكتاب والسنة: في الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، وفي الأمر الكوني والقدر، وفي الشرع» اهـ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بَيْنَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ، فَلَا عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّة وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَت بِهِ الْمُرْسَلُونَ؛ فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ: صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ.

• الشَّرح •

⊙ **قوله:** «جَمَعَ»: الجمع في اللغة: الضم، والاجتماع: الانضمام، والتفريق ضده.

⊙ **قوله:** «وَصَفَ»: الوصف لغة: نعته بما فيه، وصف الشيء: نعته بما فيه وحَلَّاه، والصفة: النعت، والصفة ما يقوم بالموصوف كالعِلم والجمال، وأسماؤه -سبحانه- تنقسم إلىٰ قسمين: أعلامٌ، وأوصافٌ، والوصفية فيها لا تنافي العلمية بخلاف أوصاف العباد، وصفاته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ دالةٌ علىٰ معانٍ قائمة بذاته فيجب الإيمان بها والتصديق، وإثباتها لله حقيقة علىٰ ما يليق بجلال الله وعظمته، وهي بالنظر إلىٰ الذات من قبيل المترادف، وبالنظر إلىٰ الصفات من قبيل المتباين، وهي تنقسم -كما مضىٰ- إلىٰ قسمين: صفات ذات، وصفات فعل.

⊙ **قوله:** «بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ»:

فالنفي: كقوله: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورىٰ: ١١]، وقوله: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ٤﴾ [الإخلاص: ٤]، وقوله: ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥].

والإثبات: كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورىٰ: ١١]، وقوله: ﴿وَهُوَ

ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ [الأنعام: ١٨]، وقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ [الإخلاص:١، ٢].

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله: ومعاني التنزيه ترجع إلىٰ هذين الأصلين؛ إثبات الكمال ونفيٰ الشبيه والمثال، وقد دل عليهما سورة الإخلاص، فاسمه الصمد: يجمع معاني صفات الكمال، والأحد: يتضمن أنه لا مثل له ولا نظير. من «المنهاج» بتصرف(١).

والنفي ليس مقصودًا لذاته، وإنما هو مقصودٌ لغيره؛ إذ النفي المحض ليس بمدحٍ ولا ثناء، بل هو عدمٌ محض ولا مدحَ في ذلك.

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله في كتابه «التدمرية»: «وينبغي أن يُعلم أن النفي ليس فيه كمال ولا مدح إلا إذا تضمن إثباتًا، وكل ما نفىٰ الله عن نفسه من النقائص ومشاركة أحدٍ له في خصائصه فإنها تدل علىٰ إثبات ضدها من أنواع الكمالات»(٢). انتهىٰ.

وطريقة أهل السنة والجماعة في النفي: الإجمال، وفي الإثبات: التفصيل، كما جاء في الكتاب والسنة، فأثبتوا له -سبحانه- الأسماء والصفات، ونفوا عنه مماثلة المخلوقات، ومَن خالفهم من المعطلة والمتفلسفة وغيرهم عكسوا القضية، فجاءوا بنفيٍ

---

(١) انظر: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (٢/ ٥٢٩)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ٩٨).

(٢) انظر: «التدمرية: تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع» (٥٧).

مفصل وإثباتٍ مجمل، فيقولون: ليس كذا، ليس كذا. ذكر معناه في «التدمرية» وغيرها.

⊙ **قوله: «فَلَا عُدُولَ»**: أي: فلا ميل ولا انحراف لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون، بل هم مقتفون آثارهم، مستضيئون بأنوارهم، مؤمنون بجميعهم، مصدقون لهم في كل ما أخبروا به من الغيب؛ إذ هو الحق والصدق الذي يجب اعتقاده واتباعه، ولا تجوز مخالفته، وأعظم ما جاء به المرسلون هو الدعوة إلىٰ توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، ومعرفته بأسمائه وصفاته وأفعاله، وأنه لا شبيه له، ولا نظير، فهذا دينهم من أولهم إلىٰ آخرهم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]؛ أي: إن الدين الذي جاء به محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو دين الأنبياء من أولهم إلىٰ آخرهم، ليس لله دين سواه، فالإسلام دين أهل السموات ودين أهل التوحيد من الأرض، لا يقبل الله من أحد دينًا سواه.

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فأهل السنة والجماعة المتبعون لمحمد وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وغيرهم من رسل الله يثبتون ما أثبتوه من تكليم الله ومحبته ورحمته وسائر ما له من الأسماء والصفات، وينزهونه عن مشابهة الأجساد التي لا حياة فيها، وأما أهل البدع من الجهمية ونحوها فإنهم سلكوا سبيل أعداء الرسل -إبراهيم وموسىٰ ومحمد-، الذين أنكروا أن الله كلم موسىٰ تكليمًا، واتخذ إبراهيم خليلًا، وقد كلم الله محمدًا واتخذه خليلًا ورفعه فوق ذلك درجات، وتابَعوا فرعون الذي قال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧] وتابعوا المشركين الذين ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] الآية.

واتبعوا الذين ألحدوا في أسماء الله، فهم يجحدون حقيقة الرحمن، أو أنه يرحم، أو يكلم، وزعموا أن من أثبت له هذه الصفات فقد شبهه بالأجسام الميتة وأن هذا تشبيه لله بخلقه، تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا(١).

⊙ **قوله**: «**فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ**»: أي: أن ما جاء به المرسلون هو الصراط المستقيم الموصل إلىٰ السعادة الأبدية، وهو الذي لا طريق إلىٰ الله ولا جنته سواه، والصراط في اللغة: الطريق الواضح، قال الشاعر:

أميـــر المـــؤمنين علـــىٰ صـــراط ... إذا أعـــوجَّ المـــوارد مســـــتقيم

والمستقيم: الذي لا اعوجاج فيه ولا انحراف، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وعن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: خط رسول الله خطًّا بيده، ثم قال: «**هَذا سبيلُ اللهِ مُستقِيمًا**» ثم خطَّ خطوطًا عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثم قال: «**وهذه السُّبُلُ لَيس مِن سَبيلٍ إلا وعليه شيطانٌ يَدعو إليه**» ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] الآية(٢)، رواه الإمام أحمد، والنسائي، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، والمراد بالصراط: قيل: الإسلام، وقيل: القرآن، وقيل: طريق السنة والجماعة.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: «ولا ريب أن ما كان عليه رسول الله

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ٢٠٩، ٢١٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٦٥)، والحاكم (٢٩٣٨)، والنسائي في «الكبرىٰ» (٦/ ٣٤٣) من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وحسنه الألباني في «المشكاة» (١٦٦).

وأصحابه علمًا وعملًا وهو معرفة الحق وتقديمه وإيثاره علىٰ غيره هو الصراط المستقيم، وكل هذه الأقوال المتقدمة دالة عليه جامعة له»(١). انتهىٰ.

والصراط المذكور في الكتاب والسنة ينقسم إلىٰ قسمين: معنوي، وحسي.

فالمعنوي: هو ما تقدمت الإشارة إليه.

والحسي: هو الجسر الذي ينصب علىٰ متن جهنم يوم القيامة يمر الناس عليه علىٰ قدر أعمالهم، فبحسب استقامة الإنسان علىٰ الصراط المعنوي الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار تكون استقامته علىٰ ذلك الصراط الحسي حذو القذة بالقذة ﴿جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾﴾ [النبأ: ٢٦]، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: ٤٦].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: أفرد الصراط؛ لأن الحق واحدٌ، وهو صراط الله المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواه، وهو عبادة الله بما شرع علىٰ لسان رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة متشعبة؛ ولهذا يجمعها؛ كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] الآية، ولا يناقض هذا قوله سبحانه: ﴿ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ ﴾ [المائدة: ١٦]، فإن تلك هي طرق مرضاته التي يجمعها سبيله الواحد(٢).

⊙ قوله: «صِرَاطُ»: بدل من الصراط الأول، أي: طريق المنعم عليهم، قال

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٨١).

(٢) انظر: «اجتماع الجيوش الإسلامية» (٢/ ٦٦).

تعالىٰ في سورة الفاتحة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] وهؤلاء هم المذكورون في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء: ٦٩]، والنِّعمة: بكسر النون: الإحسان، وبالضم: المسرة، وبالفتح: المُتعة من العيش اللين.

⊙ **قوله:** «**أَنْعَمَ الله عَلَيْهِمْ**»: أي: أنعم عليهم الإنعام المطلق التام، وهي النعمة المتصلة بسعادة الأبد، وهي نعمة الإسلام والسنة، وهي التي أمرنا الله أن نسأله أن يهدينا صراط أهلها ومن خصَّهم بها وجعلهم أهل الرفيق الأعلىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [النساء: ٦٩] الآية، فهؤلاء الأصناف الأربعة هم أهل هذه النعمة المطلقة، وأصحابها هم المعنيون بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فأضاف إليهم الدين؛ إذ هم المختصون بهذا الدين القيم دون سائر الأمم، وأما مطلق النعمة فعلىٰ المؤمن والكافر، فكل الخلق في نعمته، فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان، ومطلق النعمة يكون للمؤمن والكافر. انتهىٰ، ذكره ابن القيم(١).

وفي قوله: «**صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ**»: تنبيه علىٰ الرفيق في هذا الطريق، وأنهم هم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؛ ليزول عن سالك هذا الطريق وحشة التفرد عن أهل زمانه وبني جنسه إذا استشعر أن رفيقه في هذا الصراط هم الأنبياء والشهداء والصالحون.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٦).

قال بعض السلف: لا تستوحش من الحق لقلة السالكين، ولا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢٠﴾ [سبأ: ٢٠]، وقال: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ۝١٠٣﴾ [يوسف: ١٠٣].

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه في مسائل «التوحيد»: «وفيه عمق علم السلف، وهو عدم الاغترار بالكثرة وعدم الزهد في القلة»(١). انتهىٰ.

والصراط تارة يضاف إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ إذ هو الذي شرعه ونصبه كقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وتارة يضاف إلىٰ العباد لكونهم أهل سلوكه. أفاده ابن القيم(٢).

وفي قوله: «صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ»: إشارةٌ إلىٰ أنهم إنما استحقوا هذا الإنعام المطلق بسبب سلوكهم هذا الصراط، وفيه إشارةٌ إلىٰ وجوب توحيد هذا الصراط بالسلوك، وأن لا صراط موصل للسعادة سوىٰ هذا الصراط.

قال ابن القيم في «الكافية الشافية»:

فلواحد كن واحدًا في واحد أعني سبيل الحق والإيمان

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- في كتابه «مدارج السالكين»: «والهدىٰ التام يتضمن: توحيد المطلوب، وتوحيد الطلب، وتوحيد الطريق الموصلة، والانقطاع

---

(١) انظر: «فتح الله الحميد المجيد في شرح كتاب التوحيد» (١٥١).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٤).

وتخلف الوصول يقع من الشركة في هذه الأمور أو في بعضها، فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد والإخلاص، والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة، والشركة في الطريق تنافي اتباع الأمر، فالأول يوقع في الشرك والرياء، والثاني يوقع في المعصية والبطالة، والثالث يوقع في اتباع البدعة ومفارقة السنة، فتأمل، فتوحيد المطلوب يعصم من الشرك والرياء، وتوحيد الطلب يعصم من المعصية، وتوحيد الطريق يعصم من البدعة، والشيطان إنما ينصب فخَّه بهذه الطرق الثلاثة»(١).

⊙ **قوله**: «مِنَ النَّبِيِّينَ»: الذين اختصهم من خلقه وشرفهم برسالته ونبوته، وقد تقدم الكلام على الأنبياء.

⊙ **قوله**: «وَالصِّدِّيقِينَ»: الذين صدقوا أقوالهم بأفعالهم، فالصِّدِّيق: المُبالِغ في الصدق، كما في الحديث: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيَصدُق ويَتحرَّىٰ الصِّدقَ حتىٰ يُكتَبَ عند الله صِدِّيقًا**»(٢)، أو المبالغ في التصديق، كما سمي أبو بكر: الصديق.

قال ابن القيم: «الصدِّيق أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق، فأعلىٰ مراتب الصدق: الصديقية، وهي كمال الانقياد للرسول ﷺ مع كمال الإخلاص للمُرسِل»(٣).

⊙ **قوله**: «وَالشُّهَدَاءِ»: والشهيد هو المقتول في سبيل الله، قيل: سمي بذلك لأن

---

(١) لم أقف عليه في الموضع المذكور؛ لكنه موجود بنصه في التبيان، انظر: «التبيان في أقسام القرآن» (٧٠).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٠٧)، وأبو داود (٤٩٨٩)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٢٥٨).

الله وملائكته شهدوا له بالجنة، أو لأن ملائكة الرحمة تشهده، أي: تحضره.

قال العلماء: والشهيد ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

الأول: شهيدٌ في الدنيا والآخرة، وهو المقتول في سبيل الله في حرب الكفار.

الثاني: شهيدٌ في الآخرة دون أحكام الدنيا، وهو الغريق، والحريق، والمطعون، والمبطون، ومن قُتل دون ماله أو دون نفسه أو دون حُرمته.

الثالث: شهيدٌ في الدنيا دون الآخرة، وهو مَن غلَّ من الغنيمة، أو قُتل مدبرًا.

⊙ **قوله**: «وَالصَّالِحِينَ»: الصالح: هو القائم بحدود الله وحقوق عباده.

قال الشيخ تقي الدين في كتاب «الإيمان»: «ولفظ الصالح والشهيد يُذكر مفردًا فيتناول النبيين والصديقين والشهداء، ويذكر مع غيره فيُفسَّر بحسبه»(١). اهـ.

وقدَّم النبيين علىٰ الصديقين لشرفهم، ولكون الصديق تابعًا للنبي، فاستحق اسم الصديق بكمال تصديقه للنبي، فهو تابعٌ محض، وقدم الصديقين علىٰ الشهداء لفضل الصديقين عليهم، وقدم الشهداء علىٰ الصالحين لفضلهم عليهم. انتهىٰ من «البدائع» بتصرف(٢).

قال الشيخ تقي الدين -رحمه الله تعالىٰ-: «وأفضل الخلق النبيون، ثم الصديقون، ثم الشهداء، ثم الصالحون، وأفضل كل صنف أتقاهم»(٣). انتهىٰ.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٥٧).

(٢) انظر: «البدائع» (١/ ٧٠).

(٣) انظر: «مختصر الفتاوىٰ المصرية لابن تيمية» (٥٦٦).

وَقَدْ دَخَلَ فِي هٰذِهِ الْجُمْلَةِ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي «سُورَةِ الإِخْلَاصِ» الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، حَيثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١-٤]

وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ؛ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ۝٢٥٥﴾ [البقرة: ٢٥٥]. [أي: لَا يُكرِثُهُ ولا يُثقِلُه].

وَلِهَذَا كَانَ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ فِي لَيْلَةٍ، لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ(١).

الشَّرْح

⊙ **قوله: «وَقَدْ دَخَلَ فِي هِذِهِ الْجُمْلَةِ»**: أي المتقدمة من قوله: «وَقَدْ جَمَعَ فِيمَا وَصَفَ وسَمَّىٰ بِهِ نَفْسَهُ».

⊙ **قوله: «فِي سُورَةِ الإِخْلَاصِ»**: أي: سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]، فإنها اشتملت علىٰ النفي والإثبات؛ إثبات صفات الكمال ونفي التشبيه والمثال، ومعاني التنزيه ترجع إلىٰ هذين الأصلين، وهذا عكس ما عليه أهل البدع من الجهمية والمعتزلة وغيرهم، فإنهم ينفون صفات الكمال، ويثبتون

(١) أخرجه البخاري معلقًا (٤/ ٤٨٧/ فتح)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ما لا يوجد إلا في الخيال.

⊙ **قوله: «الْجُمْلَةِ»: وهي لغةً:** جماعة الشيء، وما تركَّب من مسندٍ ومسندٍ إليه، جَمْعه: جُمل.

⊙ **قوله: «سُورَةِ»:** السورة القطعة من القرآن معلومة الأول والآخر.

⊙ **قوله: «الإِخْلَاصِ»؛** أي: سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾؛ سميت بسورة الإخلاص؛ لأنها أخلصت في صفة الله، ولأنها تخلِّص قارئها من الشرك العلمي الاعتقادي.

⊙ **قوله: «تَعْدِلُ»:** عَدْل الشيء بالفتح: ما سواه من غير جنسه، وبالكسر: ما سواه من جنسه.

⊙ **قوله: «ثُلُثَ الْقُرْآنِ»؛** وذلك لأن معاني القرآن ثلاثة أنواع: توحيدٌ، وقصصٌ، وأحكامٌ، وهذه السورة صفة الرحمن فيها التوحيد وحده، وفي «صحيح البخاري» عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رجلًا سمع رجلًا يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذكر له ذلك، وكأن الرجل يَتقالُّها، فقال النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والَّذي نفسِي بِيَده، إنَّها لتَعدِلُ ثُلُثَ القُرآنِ**»[(١)] الحديث. والأحاديث بكونها تعدل ثلث القرآن تكاد تبلغ مَبلغَ التواتر. انتهىٰ من كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٢٦) من حديث أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «زاد المعاد في هدي خير العباد» (١/ ٣٠٦).

قال القَسْطَلَّاني: «وذلك لأن القرآن علىٰ ثلاثة أنحاء: قصص، وأحكام، وصفات الله، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ متضمنة للتوحيد والصفات فهي ثلثه، قال: وفيه دليل علىٰ شرف علم التوحيد، وكيف لا، والعلم يَشرُف بشرف المعلوم، ومعلومُ هذا العلم هو الله وصفاته وما يجوز عليه وما لا يجوز، فما ظنك بشرف منزلته وجلالة محله؟!»[١] انتهىٰ.

وفي هذا الحديث دليل علىٰ تفاضل القرآن، وكذلك تفاضل آيات الصفات، وأن علم التوحيد أفضل العلوم؛ إذ شرف العلم بشرف موضوعه[٢].

---

(١) انظر: «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري» (١٠/ ٣٥٩).

(٢) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٢١٥-٢١٨):

«وتبيين بعد ذلك أن الكلام له نسبتان:

الأولىٰ: من جهة المتكلِّم به؛ فإن الكلام يتفاضل عند الناس في عرفهم من هاتين النسبتين، أما من جهة أن المتكلم أفضل من المتكلم الثاني، فكلام الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس ككلام أبي بكر، بل كلامه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل من كلام أبي بكر، وذلك بالنظر إلىٰ اعتبار أن المتكلم هو النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثانية: من جهة المتكلَّم فيه، فيتفاضل الكلام باعتبار المتكلَّم فيه، فمثلًا: تتكلم أنت في العلم، وتتكلم تارة أخرىٰ في غير العلم، كلامك في العلم أفضل من كلامك في غيره؛ وذلك لأن المتكلَّم فيه أفضل، فيكون التفضيل هنا من جهة موضوع الكلام، وموضوع الكلام يجمع شيئين: المعاني، والألفاظ.

فإذًا في كلام الله عَزَّوَجَلَّ «سورة الإخلاص» تفضل علىٰ غيرها، كذلك الفاتحة تفضل علىٰ غيرها، وآية الكرسي أعظم من غيرها، وذلك من جهة الاعتبار الثاني، أما من جهة الاعتبار =

وسبب نزول هذه السورة هو ما رواه أحمد عن أُبي بن كعب: «أن المشركين قالوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: انسب لنا ربك، فأنزل الله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾»[1]، وأخرجه الترمذي والطبري.

فالمشركون سألوا رسول الله عن حقيقة ربِّه مِن أي شيء؟ فدلهم علىٰ نفسه

=

الأول، فالمتكلِّم بالجميع هو الله عَزَّوَجَلَّ، فهذه الجهة لا تفضيل فيها؛ لأن الجميع كلام الله عَزَّوَجَلَّ؛ لكن من جهة المتكلَّم فيه؛ فإن «سورة الفاتحة» -مثلًا- فيها أصول ما في القرآن من العلوم والهداية، و«آية الكرسي» فيها صفة الله عَزَّوَجَلَّ، فهي أعظم آية في القرآن؛ لما فيها من الإخبار عن الله عَزَّوَجَلَّ في وحدانيته وفي ألوهيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته ونعوت جلاله وعظمته وجبروته، ونحو ذلك، و«سورة الإخلاص» من جهة ما فيها من المعنىٰ، هي أفضل من سورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد:١]؛ كما ذكر ذلك شيخ الإسلام وغيره؛ لأنها متعلقة بأسماء الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته ونعته، وتلك خبر عن بعض المتوعَّدين من خلقه، ولا شك أن الكلام عن صفة الله أفضل من الكلام عن خلق الله.

فإذًا جهة التفضيل موجودة، والقرآن بعضه أفضل من بعض، ومن أنكر ذلك فإنه مناقض لكلام السلف، وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة:١٠٦]، وفي قراءة أخرىٰ: (ما ننسخ من آية أو نَنْسَأْهَا)، وقوله تعالىٰ: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ الخبر هنا مطلق، فيحتمل أن تكون الخيرية في الحكم، أو تكون الخيرية في الفضل؛ ولهذا قال بعدها: ﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ وذلك للاعتبار الثاني.

وعلىٰ هذا تكون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن بهذا المعنىٰ المتركب من شيئين: وهو أنها أفضل من غيرها باعتبار ما فيها من صفة الله، وأيضًا هي أفضل من غيرها باعتبار ما يترتب من الثواب لقارئها، هذا ما قرره أئمة أهل السنة والجماعة في ذلك» اهـ.

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٦٤)، وأحمد (٥/ ٤٥٢)، وغيرهما من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢٦٨٠).

بصفاته، فلم يجعل لهم سبيلًا إلىٰ معرفة الذات والكُنه، فحقيقة الذات والكُنه غير معلومة للبشر، فقال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾؛ أي: منفردٌ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله لا شريك له ولا مثيل ولا نظير، و﴿أَحَدٌ ١﴾ بمعنىٰ: واحد، ولا يطلق هذا اللفظ في الإثبات إلا عليه سبحانه؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأحكامه، وفي هذا دليلٌ علىٰ أن القرآن كلام الله؛ إذ لو كان كلام النبي أو غيره لم يقل: ﴿قُلۡ﴾، ففيه الرد علىٰ المعتزلة القائلين أن القرآن كلام محمدٍ أو جبريل.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: فدل علىٰ أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مبلِّغٌ عن الله، فكان مقتضىٰ البلاغ التام أن يقول: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ ففيه الرد علىٰ الجهمية والمعتزلة وإخوانهم ممن يقول: هو كلامه ابتداه من قِبل نفسه، ففي هذا أبلغ ردٍّ لهذا القول، وأنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بلغ ما أُمر بتبليغه علىٰ وجهه ولفظه، فقيل له: ﴿قُلۡ﴾ فقال: ﴿قُلۡ﴾؛ لأنه مبلغٌ محض، فما علىٰ الرسول إلا البلاغ المبين، وفيه دليلٌ علىٰ الجهر بالعقيدة والتصريح بها.

⊙ **قوله**: «ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ»: قال أبو وائل: الصمد: السيد الذي انتهىٰ سؤدده، والعرب تسمي أشرافها الصمد؛ لكثرة الأوصاف المحمودة للمسمىٰ به، قال الشاعر:

ألا بَكَّـرَ النَّـاعِي بِخَيْـرَيْ بنـي أَسَـدْ … بعَمْرِو بنِ مسعود وبالسَّيِّد الصَّمَدْ[1]

فإن الصمدَ مَن تصمد إليه القلوب بالرغبة والرهبة، وذلك لكثرة خصال الخير فيه. انتهىٰ.

---

(١) انظر: «جمهرة اللغة» (٢/ ٤٧٢)، و«تهذيب الألفاظ» (٢٧٠، ٥٦٣).

وقال عكرمة عن ابن عباس: معنىٰ الصمد: هو الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ومسائلهم.

وقال الربيع بن أنس: هو الذي لم يلد، ولم يولد، كأنه ما بعده تفسيرًا له، وهو تفسيرٌ جيد، وقد تقدم الحديث من رواية ابن جرير عن أُبي بن كعب في ذلك، وهو صريح في ذلك. انتهىٰ من ابن كثير(١).

قال الشيخ تقي الدين -رحمه الله تعالىٰ-: ومن قال: إن الصمد هو الذي لا جوف له، فقوله لا يناقض هذا التفسير، فإن اللفظة من الاجتماع، فهو الذي اجتمعت فيه صفات الكمال ولا جوف له، فإنما لم يكن أحدٌ كفوًا له لمَّا كان صمدًا كاملًا في صمدانيته، فلو لم يكن له صفاتُ كمال ونعوتُ جلال، ولم يكن له علمٌ ولا قدرةٌ، ولا سمعٌ ولا بصرٌ، ولا يقوم به فعلٌ ولا يفعل شيئًا البته، ولا له حياةٌ ولا كلامٌ ولا وجهٌ، ولا يدٌ، ولا فوق عرشه، ولا يرضىٰ، ولا يغضب، ولا يُرىٰ، ولا يمكن أن يُرىٰ ولا يشار إليه، لكان العدمُ المحض كفوًا له، فإن هذه الصفة منطبقة علىٰ المعدوم، فلو كان ما يقوله المعطلون هو الحق لم يكن صمدًا وكان العدم كفوًا له، فاسمه الأحد دل علىٰ نفي المشاركة والمماثلة، واسمه الصمد دل علىٰ أنه مستحقٌّ لصفات الكمال، فصفات التنزيه ترجع إلىٰ هذين المعنيين: نفي النقائص عنه، وذلك من لوازم إثبات صفات الكمال، فمن ثبت له الكمال التام انتفىٰ النقصان عنه المضاد له، والكمال من مدلول اسمه الصمد.

---

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم لابن كثير» (٨/ ٥٢٨).

والثاني: أنه ليس كمثله شيء في صفات الكمال الثابتة له، وهذا من مدلول اسمه الأحد، فهذان الاسمان العظيمان يتضمنان تنزيهه عن كل نقصٍ وعيبٍ، وتنزيهه في صفات الكمال أن يكون له مماثل في شيءٍ منها، فالسورة تضمنت كل ما يجب نفيه عن الله وما يجب إثباته لله من وجهين؛ من جهة اسمه الصمد، ومن جهة أن كل ما نفي عنه من الأصول والفروع والنظير، استلزم ثبوت صفات الكمال، فإن ما يمدح به من النفي فلابد أن يتضمن ثبوتًا، وإلا فالنفي المحض عدمٌ محض، والعدم المحض ليس بشيءٍ فضلًا عن أن يكون صفة كمال. انتهىٰ من كلام الشيخ تقي الدين ابن تيمية بتصرف(١).

⊙ **قوله:** «﴿لَمْ يَلِدْ﴾»: فيه الرد علىٰ اليهود والنصارىٰ والمشركين، فإن اليهود قالوا: عُزَيْرٌ ابن الله، وقالت النصارىٰ: المسيح ابن الله، ومشركو العرب زعموا أن الملائكة بنات الله، تعالىٰ الله عن قولهم.

⊙ **قوله:** «﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾»: الكفو: المثل والشبيه.

فهذه السورة تضمنت توحيد الاعتقاد والمعرفة وما يجب إثباته للرب من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجهٍ من الوجوه، والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال الذي لا يلحقه فيها نقصٌ بوجهٍ من الوجوه، ونفي الولد والوالد الذي هو من لزوم صمديته وغناه وأحديته، ونفي الكفء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل.

فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمالٍ، ونفي كل نقصٍ عنه، ونفي إثبات مثل

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٧/ ١٠٩).

له أو شبيه له في كماله ونفي مطلق الشريك عنه، فهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يباين به صاحبه جميع فرق الضلال والشرك؛ ولهذا كانت تعدل ثلث القرآن، فأخلصت سورة الإخلاص الخبر عنه وعن أسمائه وصفاته فعدلت ثلث القرآن، وخلَّصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمي. اهـ، من كلام ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ- ملخصًا(١).

وفي هذه السورة الجمع بين النفي والإثبات، وفيها الإجمال في النفي، والتفصيل في الإثبات، وهذه طريقة أهل السنة والجماعة خلافًا لأهل الكلام المذموم، وتضمنت هذه السورة أنواع التوحيد الثلاثة(٢).

⊙ **قوله: «فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ»**: وهي آية الكرسي، وذلك لما اشتملت عليه من العلوم والمعارف، كما في «الصحيح» أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأبي بن كعب: **«يَا أبا المُنذِر، أتدري أيَّ آيةٍ في كتاب اللهِ أَعظَم؟»** فقال: الله ورسوله أعلم،

---

(١) انظر: «زاد المعاد في هدي خير العباد» (١/ ٣٠٦).

(٢) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ١٥٧-١٥٨):

«فهذه السورة تعدل ثلث القرآن في الجزاء لا في الإجزاء، وذلك كما ثبت عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن: «من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير، عشر مرات فكأنما أعتق أربعة أنفس من بني إسماعيل» [أخرجه البخاري (٦٤٠٤)، ومسلم (٢٦٩٣)، وغيرهما من حديث أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]، فهل يجزئ ذلك عن إعتاق أربع رقاب ممن وجب عليه ذلك وقال هذا الذكر عشر مرات؟ فنقول: لا يجزئ. أما في الجزاء، فتعدل هذا، كما قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فلا يلزم من المعادلة في الجزاء المعادلة في الإجزاء. ولهذا، لو قرأ سورة «الإخلاص» في الصلاة ثلاث مرات، لم تجزئه عن قراءة «الفاتحة»» اهـ.

فرددها مرارًا، ثم قال أُبيٌّ: هي آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فقال: «ليَهْنَكَ العِلمُ يا أبا المُنذر»(١).

⊙ **قوله:** «آيةٍ»: هي لغة: العلامة، واصطلاحًا: طائفةٌ من كلمات القرآن متميزةٌ بفصلٍ، سميت هذه الآية آية الكرسي؛ لذكر الكرسي فيها، وفيه دليلٌ علىٰ فضل هذه الآية وأنها أعظم آيةٍ في كتاب الله، وفيه دليلٌ كما تقدم علىٰ فضل علم التوحيد، وأن القرآن يتفاضل، بل آيات الصفات تتفاضل.

⊙ **قوله:** «﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾»؛ أي: لا معبود بحقٍّ إلا هو، **قوله:** ﴿ٱلۡحَيُّ﴾؛ أي: الدائم الباقي الذي لا سبيل للفناء عليه، **قوله:** ﴿ٱلۡقَيُّومُ﴾؛ أي: القائم بنفسه المقيم لما سواه، فهذان الاسمان عليهما مدار الأسماء الحسنىٰ وإليهما ترجع معانيها جميعًا، فإن الحياة مستلزمة لصفات الكمال، والقيوم متضمن لكمال غناه وكمال قدرته، فإن القائم بنفسه لا يحتاج إلىٰ من يقيمه بوجهٍ من الوجوه، وهذا من كمال غناه بنفسه عما سواه وهو المقيم لغيره، فلا قيام لغيره إلا بإقامته، وهذا من كمال قدرته وعزته. انتهىٰ من كلام ابن القيم بتصرف(٢).

⊙ **قوله:** «﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞ﴾»: السِّنة: النُّعاس، وهو النوم الخفيف، والنوم ثقلٌ في الرأس، والسِّنة في العين، والنوم في القلب، وهو تأكيدٌ للقيوم، أي: إنه -سبحانه- لا يعتريه نقصٌ ولا غفلةٌ ولا ذهولٌ، ولا يغيب عنه شيءٌ ولا تخفىٰ عليه

---

(١) أخرجه مسلم (٨١٠)، وأحمد (٥/ ١٤١)، وغيرهما من حديث أبي بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ١٨٤).

خافيةٌ، كما في «الصحيح» من حديث أبي موسىٰ قال: قام فينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأربع كلمات، فقال: «إنَّ اللهَ لا يَنامُ ولا ينبغي له أنْ ينامَ، يَخفِضُ القِسطَ ويَرفَعُه، يُرفع إليه عملُ اللَّيل قبل عملِ النَّهار، وعملُ النَّهار قبل اللَّيل، حِجابُه النَّار -أو النُّور- لو كَشَفَه لأحْرقَتْ سُبُحاتُ وجْهِه ما انتهىٰ إليه بصَرُه مِن خلقه، له ما في السَّموات وما في الأرض ملكًا وخلقًا وعبيدًا»(١).

⊙ **قوله:** «﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾»؛ أي: ليس لأحدٍ أن يشفع عنده لعظمته وكبريائه إلا بإذنه؛ أي: بأمره.

⊙ **قوله:** «﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾»؛ أي: لا يحيط الخلق بشيءٍ من علمه إلا بما شاء أن يعلمهم إياه ويطلعهم عليه، كما قال سبحانه عن الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢].

⊙ **قوله:** «﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾»: أي: ملأ وأحاط، والكرسي مخلوقٌ عظيمٌ، وهو موضع القدمين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما يُروىٰ عن ابن عباس وغيره(٢)، وقد قيل: إنه العرش، والصحيح أنه غيره، كما روىٰ ابن أبي شيبة، والحاكم وقال: «إنه علىٰ شرط الشيخين»، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] أنه قال: «الكرسيُّ موضع القدمين، والعرشُ لا يَقدر قدره إلا الله»، وقد روي مرفوعًا، والصواب: أنه موقوفٌ علىٰ ابن عباس.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) مختصرًا، وأحمد (٤/ ٤٠٥)، وغيرهما من حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «الأسماء والصفات للبيهقي» (٢/ ١٤٨).

وذكر ابن جرير عن أبي ذر: سمعتُ رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «ما الكرسِيُّ في العَرش إلا كَحلَقةٍ مِن حديدٍ أُلقيتْ بين ظَهري فلاةٍ من الأرض»(١)، وأما ما زعمه بعضهم أن معنىٰ ﴿كُرْسِيُّهُ﴾: علمه، ونسبه إلىٰ ابن عباس فليس بصحيح، بل هو من كلام أهل البدع المذموم، وإنما هو كما قال غير واحد من السلف: الكرسي بين العرش كالمرقاة إليه.

⊙ **قوله:** «﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾»: أي: لا يُكرِثه(٢) ولا يثقله ولا يعجزه حفظهما، أي: حفظ السموات والأرض وما بينهما، بل عليه سهلٌ يسيرٌ، وهذا النفي في قوله: ﴿وَلَا يَئُودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ لثبوت كمال ضده، وكذلك كل نفي يأتي في صفات الله، وقد تقدمت الإشارة إلىٰ ذلك.

⊙ **قوله:** «﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾»: (أل) في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ للشمول والاستغراق، فله -سبحانه- العلو الكامل من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات، كما تواترت بذلك الأدلة، وطابق علىٰ ذلك دليل العقل، فدليل العلو عقلي ونقلي، وهو من الصفات الذاتية كصفة الفوقية، فوصفه -سبحانه- بالعلو يجمع معاني العلو جميعًا: علو القهر، أي أنه -سبحانه- علا كل شيء، بمعنىٰ: أنه قاهر له قادرٌ عليه متصرفٌ فيه، كما قال سبحانه: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا

---

(١) أخرجه ابن حبان(٣٦١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٦٦) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٩).

(٢) كَرَثَه الأَمْرُ يَكْرِثُه ويَكْرُثُه كَرْثًا وأَكْرَثَه: ساءه واشتدَّ عليه وبَلَغَ منه المَشَقَّةَ. «لسان العرب» (٢/ ١٨٠).

﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] وعلو القدر، أي: أنه عالٍ عن كل عيبٍ ونقص، فهو عالٍ عن ذلك منزهٌ عنه، كما قال سبحانه: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] الآية، وفي دعاء الاستفتاح: «وتعالىٰ جَدُّك»(١).

وعلو الذات، أي: أنه -سبحانه- عالٍ علىٰ الجميع فوق عرشه، فتبين أن أنواع العلو ثلاثة، وأن اسمه العلي يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال والتنزيه له -سبحانه- عما ينافيها من صفات النقص، انتهىٰ، من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية(٢).

⊙ **قوله:** «﴿الْعَظِيمِ﴾»: أي: الذي لا أعظم منه ولا أجلَّ، لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته وأفعاله، فهذه الآية اشتملت علىٰ فوائد عظيمة.

الأولىٰ: إثبات ألوهيته سبحانه وانفراده بذلك، وبطلان ألوهية كل من سواه.

الثانية: إثبات صفة الحياة له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، الحياة التامة الدائمة التي لا يلحقها فناء ولا اضمحلال، فهي صفةٌ ذاتية تواطأ علىٰ إثباتها النقل والعقل.

الثالثة: إثبات صفة القيوم، أي: قيامه بنفسه وقيامه بتدبير أمور خلقه، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وهذان الاسمان - أعني: الحي القيوم- ذُكِرَا معًا في ثلاثة مواضع في القرآن، وهما من أعظم أسماء الله وصفاته، وورد أنهما الاسم الأعظم، فإنهما متضمنان لصفات الكمال أعظم تضمن،

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٧٥)، والنسائي (٨٩٩)، وأحمد (٣/ ٥٠)، وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٩٩٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ١٢٤).

فالصفات الذاتية كلها ترجع إلىٰ اسم الحي، والصفات الفعلية ترجع إلىٰ اسم القيوم، ويدل القيوم علىٰ معنىٰ الأزلية والأبدية وعلىٰ قيامه بذاته وعلىٰ قيام كل شيءٍ به، وعلىٰ أنه موجودٌ بنفسه، وهذا معنىٰ كونه واجب الوجود.

الرابعة: تنزيهه -سبحانه- عن صفات النقص: كالسِّنة والنوم والعجز والفقر ونحو ذلك وهو تأكيدٌ للقيوم؛ لأن من جاز عليه السِّنة والنوم استحال أن يكون قيُّومًا.

الخامسة: سعة ملكه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، له ما في السموات والأرض ملكًا وعبيدًا تحت قهره وسلطانه.

السادسة: فيه دليل علىٰ عظمته وسلطانه، وأن أحدًا لا يشفع عنده إلا بعد إذنه سبحانه ورضاه عن المشفوع له.

السابعة: فيه إثبات الشفاعة بقيودها، وهو إذن الله للشافع أن يشفع ورضاه عن المشفوع له.

الثامنة: فيه الرد علىٰ المشركين الذين يزعمون أن أصنامهم تشفع لهم، فظهر أن الشفاعة تنقسم إلىٰ قسمين: شفاعة منفية، وشفاعة مثبَتَة.

التاسعة: فيه إثبات صفة الكلام لله سبحانه وأنه يتكلم متىٰ شاء، إذا شاء، وأنه يتكلم -سبحانه- بحرف وصوت يليقان بجلاله وعظمته، وأن كلامه -سبحانه- يُسمَع؛ لقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥].

العاشر: فيها إثبات صفة العلم لله سبحانه وإحاطته بكل معلوم، وأنه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

الحادي عشر: فيه ذكر إحاطة علمه -سبحانه- بالماضي والمستقبل إشارة إلىٰ أنه لا ينسىٰ ولا يغفل، ولا يَحدث له علمٌ ولا يتجدد.

الثاني عشر: فيه الرد علىٰ القدرية والرافضة ونحوهم الذين يزعمون أن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها، والرد علىٰ من زعم أن الله لا يعلم إلا الكليات، تعالىٰ الله عن قولهم.

الثالث عشر: فيها اختصاصه بالتعليم، وأن الخلق لا يعلمون إلا ما علمهم، كما قالت الملائكة: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢].

الرابع عشر: فيه إثبات عظمته -سبحانه- بعظمة مخلوقاته، فإذا كان عظمة كرسيه هذه العظمة التي جاءت بها الأدلة، فمن باب أولىٰ أن يكون الخالق أعظم وأجل.

الخامس عشر: فيها إثبات الكرسي وعظمته وأنه مخلوق لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والرد علىٰ من زعم أن كرسيه علمه.

السادس عشر: فيه إثبات صفة المشيئة لله سبحانه.

السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر: فيه إثبات عظمته واقتداره، وفيه إثبات السموات وتعددها، وإثبات علوه -سبحانه- علىٰ خلقه، وإثبات عظمته -سبحانه- ذاتًا وصفاتًا وأفعالًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قرن بين هذين الاسمين الدالَّين علىٰ علوه وعظمته -سبحانه- في آخر آية الكرسي، وفي سورة الشورىٰ، وفي سورة الرعد، وسورة سبأ.

ففي آية الكرسي ذكر الحياة التي هي أصل جميع الصفات، وذكر معها قيوميته المقتضية لدوامه وبقائه وانتفاء الآفات جميعها عنه من السِّنة والنوم والعجز وغيرها، ثم ذكر كمال ملكه، ثم عقبه بذكر وحدانيته في ملكه، وأنه لا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه، ثم ذكر سعة علمه وإحاطته، ثم عقبه بأنه لا سبيل للخلق إلىٰ علم شيءٍ من الأشياء إلا بعد مشيئته لهم أن يعلموه، ثم ذكر سعة كرسيه منبِّهًا علىٰ سعته سبحانه وعظمته وعلوه، وذلك توطئة بين يدي علوه وعظمته، ثم أخبر عن كمال اقتداره وحفظه للعالم العلوي والسفلي من غير اكتراثٍ ولا مشقةٍ ولا تعب، ثم ختم الآية بهذين الاسمين الجليلين الدالين علىٰ علو ذاته وعظمته». انتهىٰ من «الصواعق»(١).

⊙ **قوله: «ولهذا كانَ مَن قرأَ هذه الآيةَ في ليلةٍ لم يَزَلْ عليه من اللهِ حافظٌ ولا يقربُهُ شيطانٌ»:**

هذا الحديث في «صحيح البخاري»، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: وكلني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت: لأرفعنك إلىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: دعني فإني محتاجٌ وعليَّ عيال، لا أعود؛ فرحمتُه وخليتُ سبيله، فأصبحتُ، فقال لي رسول الله: «**يا أبا هريرةَ، ما فَعل أسيرُك البارحةَ؟**» قلتُ: يا رسول الله، شكا حاجةً وعيالًا فرحمته وخليت سبيله، قال: «**أما إنه قد كذَبَك وسيعود**»، فعرفت أنه سيعود لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنه سيعود**»، فرصدتُه فجاء يحثو من الطعام فأخذتُه فقلتُ: لأرفعنك إلىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: دعني فإني محتاجٌ وعليَّ عيالٌ، لا أعود، فرحمته

---

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٢١٥).

وخليت سبيله، فأصبحت فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، «ما فعل أسيرك البارحة؟» فقلت: يا رسول الله، شكا عيالًا وحاجة فرحمته فخليت سبيله، قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود».

فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنك إلىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهذه آخر ثلاث مرات تزعم فيها أنك لا تعود ثم تعود، فقال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: وما هي؟ فقال: إذا أويتَ إلىٰ فراشك فاقرأ آية الكرسي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] حتىٰ تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظٌ ولا يقربك شيطان حتىٰ تصبح، وكانوا أحرص شيءٍ علىٰ الخير، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أما أنه قد صدَقَك وهو كَذوبٌ، تَعلمُ مَن تُخاطبُ مُنذ ثلاثِ ليالٍ؟» قلت: لا، قال: «ذاك الشَّيطانُ». كذا رواه البخاري معلقًا بصيغة الجزم، وقد رواه النسائي في «اليوم والليلة» عن إبراهيم بن يعقوب عن عثمان بن الهيثم... فذكره، وقد روي عن أبي هريرة بسياق آخر قريب من هذا.

⊙ **قوله: «لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ»**؛ أي: يحفظه من الشياطين وغيرهم، وفي رواية: «إذا قُلتَهن لم يَقربكَ ذَكرٌ ولا أُنثىٰ من الإنسِ ولا مِن الجنِّ»، وفي حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَن قرأها -يعني آيةَ الكرسي- حين يأخذ مَضجعَه آمَنه الله علىٰ داره ودار جارِه وأهل دويرات حوله». رواه البيهقي في «شعب الإيمان».

⊙ **قوله: «شَيْطَانٌ»**: الشيطان يطلق علىٰ كل متمردٍ عاتٍ من الجن والإنس، مِن (شَطَن) إذا بَعُد؛ لبعده عن رحمة الله، أو من (شاط يشيط) إذا هلك واحترق.

في هذا الحديث فضل آية الكرسي وعِظم منفعتها وتأثيرها العظيم في التحرز من الشيطان، وذلك لما اشتملت عليه من العلوم والمعارف؛ ولذلك إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها، مثل من يدخل النار بحال شيطاني، أو يحضر المكاء والتصدية وتنزل عليه الشياطين، وتتكلم علىٰ لسانه كلامًا لا يعلم، وربما لا يفقه، وربما كاشف بعض الحاضرين بما في قلبه، إلىٰ غير ذلك من الأحوال الشيطانية، فأهل الأحوال الشيطانية تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذكر عندهم ما يطردها مثل آية الكرسي، أشار إلىٰ ذلك الشيخ تقي الدين في كتابه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»[١].

◈ ◈ ◈

(١) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (١٦٩).

وَقَوْلُهُ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [الحديد: ٣]، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [الأنعام: ١٨](١). ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢]. ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١]. وَقَوْلُهُ: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

الشَّرح

⊙ **قوله:** «﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾»؛ أي الذي ليس قبله شيء، كما فسره بذلك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**اللَّهمَّ أنت الأوَّلُ فليس قبلك شَيء، وأنت الآخرُ فليس بعدك شيء، وأنت الظاهرُ فليس فوقك شيء، وأنت الباطِنُ فليس دونك شيء**»(٢) رواه مسلم، فهو -سبحانه- أول ليس له بداية، وأما القديم فقد ذكره بعض المتكلمين في أسماء الله، والصواب أنه ليس من أسمائه سبحانه بذلك؛ ولأن القِدم ينقسم إلىٰ قسمين:

قِدم حقيقي، وقِدم نسبي، فالقِدم الحقيقي: هو الذي لم يسبقه عدم، والنسبي: هو قِدم بعض المخلوقات علىٰ بعض، كما قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ

---

(١) في نسخة: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [التحريم: ٢].

(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ [يس: ٣٩]، وقد تقدم الأصل الذي ذكره ابن القيم[1]: أن الصفة إذا كانت منقسمة إلىٰ كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه الحسنىٰ، وذكر أن باب الإخبار عنه -سبحانه- أوسع من باب الأسماء والصفات، وذكر أنه يخبر عنه -سبحانه- بالقديم ولا يسمىٰ به، وقال في «النونية»:

وهو القديم فلم يزل بصفاته ... سبحانه متفردًا بل دائم الإحسان

⊙ **قوله:** «﴿وَٱلْآخِرُ﴾»؛ أي: الذي ليس بعده شيء.

⊙ **قوله:** «﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾»؛ أي: العالي المرتفع الذي ليس فوقه شيء، ولا ريب أنه ظاهرٌ بذاته فوق كل شيء، فالظهور هنا هو العلو، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧]، ولا يصح أن يحمل الظهور علىٰ الغلبة؛ لأنه قابله بقوله: «وأنت الباطن».

⊙ **قوله:** «﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾»؛ أي: الذي ليس دونه شيءٌ، كما فسره الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بَطَن سبحانه بعلمه فلا يحجبه شيء.

قال ابن القيم: فهذه الأسماء الأربعة متقابلة؛ اسمان لأزليته وأبديته سبحانه، واسمان لعلوه وقربه، فأوليته سبحانه سابقةٌ علىٰ أولية كل ما سواه، وآخريته سبحانه ثابتةٌ بعد آخرية كل ما سواه، فأوليته سبْقُه لكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء، وظاهريته: فوقيته وعلوه علىٰ كل شيء، ومعنىٰ الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه، وبطونه -سبحانه- إحاطته بكل شيء بحيث يكون

---

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ١٦١).

أقرب إليه من نفسه، وهذا قرب الإحاطة العامة.

وأما القرب المذكور في الكتاب والسنة فقرب خاص من عابديه وسائليه، وهو ثمرة التعبد باسمه الباطن، ذكر البيهقي عن مقاتل، قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]: هو الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، والظاهر فوق كل شيء، والباطن أقرب من كل شيء، وإنما القرب بعلمه وقدرته وهو فوق عرشه وهو بكل شيء عليم[١]. اهـ.

⊙ **قوله:** «﴿عَلِيمٌ ۝٣﴾»: جاء علىٰ بناء (فعيل) للمبالغة في وصفه بكمال العلم والإحاطة بكل شيء علمًا، فهو من الصفات الذاتية، فهذه الآية أفادت أوَّلِيَّته -سبحانه- وسَبْقَه لكل مخلوق، وأنه لا شيء قبله، كما أفادت دوامَه وبقاءه وآخريَّته، وأنه لا شيء بعده، وأفادت علوه وارتفاعه وفوقيته سبحانه، وأفادت قربه ودنوَّه وإحاطته وسعة علمه، وأنه لا يخفىٰ عليه شيء، وفيه الرد علىٰ المعتزلة والرافضة الذين يزعمون أن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها، والرد علىٰ من يزعم أنه يعلم الكليات دون الجزئيات.

⊙ **قوله:** «﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾»: الآية، أي: فوِّض أمورك إليه، فمن توكل عليه كفاه وشفاه ويسَّر له كل شديد، وقرَّب له كل بعيد، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

والتوكل لغةً: التفويض، يقال: وكَّلتُ أمري إلىٰ فلان، أي: فوَّضته.

---

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٤٣٧).

وحقيقته شرعًا: هو صدق اعتماد القلب علىٰ الله في جلب ما ينفع ودفع ما يضر، ومن أسمائه -سبحانه- الوكيل، ومعناه: الكافي لعبده والقائم بأموره ومصالحه، وأما حكم التوكل، فهو فرضٌ؛ لهذه الآية ولغيرها من الأدلة، وهو لا ينافي الأخذ بالأسباب بل يجامعه، كما في حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لو أنكم تَوَكَّلْتُم علىٰ الله حقَّ تَوَكُّلِه لرزَقَكم كما يَرزقُ الطَّيرَ، تَغدو خِماصًا وتَروح بِطانًا**»(١)؛ رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

وخرَّج الترمذي من حديث أنس قال: قال رجل: يا رسول الله، أَعقِلُها وأتوكل، أو أُطلقها وأتوكل؟ فقال: «**اعْقِلْها وتوكَّل**»(٢)، وذكر عن يحيىٰ القطان أنه قال: هو عندي حديث منكر، ففيه إشارة إلىٰ أن التوكل لا ينافي الإتيان بالأسباب، بل يكون جمعهما أفضل، كما روي أن عمر لقي أناسًا من أهل اليمن فقال: من أنتم؟ فقالوا: نحن المتوكلون، قال: بل أنتم المتأكِّلون، إنما المتوكل الذي يُلقِي حَبَّه في الأرض ويتوكل علىٰ الله. ذكره ابن رجب.

قال ابن القيم في «المدارج»: «أجمع القوم علىٰ أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب، فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالةٌ، وتوكلٌ فاسد، وقال

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وأحمد (١/ ٣٠)، والطيالسي (٥١)، وغيرهم من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣١٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥١٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٩٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «تخريج أحاديث مشكلة الفقر» (٢٢).

سهل بن عبد الله: من طعن في الحركة فقد طعن في السُّنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان، فالتوكل حال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والكسبُ سنته، فمن عمل على حاله، فلا يتركن سنته»(١).

والتوكل ينقسم إلى قسمين:

الأول: توكل على الله، فهو من أشرف أعمال القلوب وأجلها.

والثاني: التوكل على غيره سبحانه، وينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: التوكل على غير الله في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله؛ كالتوكل على الأموات والطواغيت في رزقٍ أو نصرٍ أو نفعٍ أو ضُرٍّ ونحو ذلك؛ فهذا شركٌ أكبر.

الثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة؛ كمن توكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله عليه من رزقٍ أو دفع أذى ونحو ذلك، فهذا النوع شرك أصغر.

الثالث: توكيل الإنسان غيرَه في فعل ما يقدر عليه نيابةً عنه، فهذه الوَكالة الجائزة، لكن ليس له أن يعتمد عليه، بل يتوكل على الله في تيسير أمره، وذلك من جملة الأسباب الجائزة.

فهذه الآية أفادت الحثَّ على التوكل على الله وتعليق الأمل به -سبحانه- دون غيره، كما أفادت وجوب التوكل على الله؛ إذ مطلق الأمر يقتضي الوجوب، وأفادت إثبات صفة الحياة الكاملة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١١٧).

⊙ **قوله:** ﴿ٱلۡحَكِيمُ ۝٢﴾؛ أي: الحاكم بين خلقه بأمره الديني الشرعي وأمره الكوني القدري الذي له الحكم في الدنيا والآخرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورىٰ: ١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، فهو -سبحانه- الحكم والحاكم بين خلقه في الدنيا والآخرة، يحكم سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في الدنيا بوحيه الذي أنزله علىٰ الأنبياء والرسل، ويحكم يوم القيامة إذا نزل لفصل القضاء بين العباد، والحكيم: المحكِم المتقِن للأشياء، الذي يضع الأشياء مواضعَها، والذي له الحكمة التامة في خلقه وأمره، فعليه يكون للحكيم معنيان:

الأول: بمعنىٰ المُحْكِم المُتقِن للأشياء، والإحكام يكون في شرعه وأمره، وفي خلقه وقدره، وكلٌّ منهما مُحكَم من وجهين:

الأول: وجوده علىٰ صورته المعينة.

الثاني: في غايته المحمودة التي يترتب عليها.

وأما حكمه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ **فينقسم إلى قسمين:**

الأول: حكم كوني قدري، **كقوله:** ﴿فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِي﴾ [يوسف: ٨٠].

الثاني: حكم ديني شرعي، **كقوله:** ﴿أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [المائدة: ١] إلىٰ **قوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾ [المائدة: ١].

والحكمة: وضع الأشياء مواضعَها.

قال ابن القيم في «المدارج»: «الحكمة حكمتان: علمية، وعملية، فالعلمية: الاطلاع علىٰ بواطن الأشياء ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقًا وأمرًا، قدرًا وشرعًا، والعملية: وضع الشيء في موضعه»(١). انتهىٰ.

وحكمته -سبحانه- صفةٌ قائمة به كسائر صفاته من سمعه وبصره وعلمه وقدرته ونحو ذلك، وهي تنقسم إلىٰ قسمين:

إحداهما: حكمة في خلقه، وهي نوعان:

الأول: إحكام هذا الخلق وإيجاده في غاية الإحكام والإتقان.

والثاني: صدوره لأجل غاية محمودة مطلوبة له سبحانه التي أمر لأجلها وخلق لأجلها.

الثانية: الحكمة في شرعه، وتنقسم -أيضًا- إلىٰ قسمين:

الأول: كونها في غاية الإحسان والإتقان.

والثاني: كونها صدرت لغايةٍ محمودة وحكمةٍ عظيمة يستحق عليها الحمد.

قال في «المنهاج»: «أجمع المسلمون علىٰ وصفه -سبحانه- بالحكمة وتنازعوا في تفسير ذلك، فقال الجمهور من أهل السنة وغيرهم: هو حكيمٌ في خلقه وأمره، والحكمة تتضمن ما في خلقه وأمره من العواقب المحمودة والغايات المحبوبة، والجمهور يقولون: لام التعليل داخلة في أفعال الله وأحكامه»(٢). انتهىٰ.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٤٤٨).

(٢) انظر: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (١/ ١٤١).

فاسمه الحكيم فيه إثبات الحكمة، والحكمة تتضمن كمال علمه وخبرته، وأنه أمرَ ونهىٰ وخلقَ وقدَّر لِما له في ذلك من الحكم والغايات الحميدة التي يستحق عليها كمال الحمد، والإحكام الذي في مخلوقاته دليل علىٰ علمه، وإنما يدل إذا كان الفاعل حكيمًا يفعل الحكمة. انتهىٰ من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية(١).

والحُكم معناه لغةً: المنع، وشرعًا: هو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين اقتضاءً أو تخييرًا، وينقسم الحكم بالنسبة إلىٰ الرضا به وعدمه إلىٰ أقسام: قسمٌ يجب الرضا به والانقياد والاستسلام له، **وهو الحكم الديني الشرعي**، قال تعالىٰ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء: ٦٥] الآية.

وأما الحكم الكوني القدري فمنه ما يستحب الرضا به؛ كالرضا بالفقر والعاهة والأمراض ونحو ذلك، ومنه ما يحرم الرضا به؛ كالرضا بالكفر والمعصية ونحو ذلك.

وأما اسمه -سبحانه- الخبير، فمعناه: الذي انتهىٰ علمه إلىٰ الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها كما أحاط بظواهرها. انتهىٰ من «الصواعق»(٢).

يقال: خبَرت الأمر أخبُره: إذا عرفته علىٰ حقيقته.

⊙ **قوله**: «﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ ﴾»؛ أي: يدخل، قال: ولج يلج، أي: دخل يدخل، أي: يعلم ما يدخل فيها، أي: في الأرض من القطر والبذور والكنوز والموتىٰ وغير ذلك.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ٢٩٨)، و«مدارج السالكين» (٣/ ٤٢٧).

(٢) انظر: «الصواعق المرسلة في الرد علىٰ الجهمية والمعطلة» (٢/ ٤٩٢).

⊙ **قوله:** «﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾»؛ أي: من الأرض من النبات والمعادن.

⊙ **قوله:** «﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾»: من المطر والملائكة.

⊙ **قوله:** «﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾»؛ أي: يصعد في السماء(١).

---

(١) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين** رحمه الله **في «شرح العقيدة الواسطية»** (١/ ١٩٢، ١٩٣):

«وهنا قال: ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾، فعدى الفعل بـ«في» وفي سورة «المعارج» قال: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، فعداه بـ«إلى»، وهذا هو الأصل، فما وجه كونه عدى بـ«في» في قوله: ﴿يَعْرُجُ فِيهَا﴾؟

فالجواب: اختلف نحاة البصرة والكوفة في مثل هذا، فقال نحاة البصرة: إن الفعل يضمَّن معنًى يتلائم مع الحرف، وقال نحاة الكوفة: بل الحرف يُضمَّن معنًى يتلائم مع الفعل.

فعلى الرأي الأول: يكون قوله: ﴿يَعْرُجُ فِيهَا﴾: مضمنًا معنى «يدخل»، فيصير المعنى: وما يعرج فيدخل فيها، وعليه يكون في الآية دلالة على أمرين: على عروج ودخول.

أما على الرأي الثاني، فنقول: «في» بمعنى «إلى» ويكون هذا من باب التناوب بين الحروف.

لكن على هذا القول لا تجد أن في الآية معنًى جديدًا، وليس فيها إلا اختلاف لفظ «إلى» إلى لفظ «في»، ولهذا كان القول الأول أصح، وهو أن نضمن الفعل معنًى يتناسب مع الحرف.

ولهذا نظير في اللغة العربية، قال الله تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾ [الإنسان: ٦]، والعين يُشرَب منها والذي يُشرَب به الإناء، فعلى رأي أهل الكوفة نقول: ﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ الباء بمعنى «من»؛ أي: منها، وعلى رأي أهل البصرة يُضمَّن الفعل ﴿يَشْرَبُ﴾ معنًى يتلائم مع حرف الباء والذي يتلائم معها يُروى، ومعلوم أنه لا ريَّ إلا بعد شرب، فيكون هذا الفعل ضمن معنى غايته، وهو الريُّ.

وكذلك نقول في ﴿جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾: لا دخول في السماء إلا بعد العروج إليها، فيكون الفعل ضمن معنى الغاية» اهـ.

⊙ **قوله:** «﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾»: سيأتي الكلام على المعية.

⊙ **قوله:** «﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾»؛ أي: خزائنه أو الطرق الموصلة إلى علمه.

⊙ **قوله:** «﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾»: قال المُناوي رحمه الله: «فمن ادعى علم شيء منها كفر»، ومفاتح الغيب هي الخمسة المذكورة في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، كما رواه البخاري في «صحيحه».

⊙ **قوله:** «﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ﴾»؛ أي: القِفار؛ من النبات والدوابِّ وغير ذلك.

⊙ **قوله:** «﴿وَٱلْبَحْرِ﴾»؛ أي: يعلم ما فيه من الحيوانات والجواهر ونحو ذلك.

⊙ **قوله:** «﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ﴾»؛ أي: من أشجار البر والبحر وغير ذلك.

⊙ **قوله:** «﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾»: سبحانه.

⊙ **قوله:** «﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾»: من حبوب الثمار والزروع وغير ذلك.

⊙ **قوله:** «﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾»: هذا عموم بعد خصوص.

⊙ **قوله:** «﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾»: أي: مكتوب في اللوح المحفوظ؛ لأن الله كتب علم ما يكون وما قد كان قبل أن يخلق السموات والأرض، فجميع الأشياء صغيرها وكبيرها مثبتةٌ في اللوح المحفوظ على ما هي عليه، فتقع جميع الحوادث

طبق ما جرىٰ به القلم، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر، فإنها أربع مراتب:

- علمه -سبحانه- الشامل لجميع الأشياء.

- وكتابه المحيط بجميع الموجودات.

- ومشيئته العامة الشاملة لكل شيء.

- وخلقُه لجميع المخلوقات.

وسيأتي الكلام علىٰ هذا -إن شاء الله- في الكلام علىٰ القدر.

ففي هذه الآية إثبات صفة العلم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما يليق بجلاله وعظمته، وهي من الصفات الذاتية، وفيها الرد علىٰ المعتزلة حيث قالوا: إنه عالمٌ بلا علم، وفيها إثبات إحاطة علمه بكل شيءٍ، فلا يخفىٰ عليه خافيةٌ، وأنه يعلم الكليات والجزئيات، ويعلم كل شيء، ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ [الأنفال: ٢٣]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وفي هذه الآية الرد علىٰ من زعم أن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعلم الغيبَ، فهي صريحةٌ في أن هذه الأسماء الخمسة لا يعلمها إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما تقدم الحديث الذي في «الصحيحين» أنه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«مَفاتيحُ الغَيب خَمسٌ لا يعلمهنَّ إلا اللهُ...: لا يَعلمُ ما في الأرحام إلا اللهُ»**(١) الحديث.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا مطمع لأحد في علم شيءٍ من هذه الأمور الخمسة». اهـ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٢٠)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

والمراد بالغيب المشار إليه هو: الغيب المطلق، وهو ما لا يعلمه إلا الله، لا الغيب المقيد، وهو ما علِمَه بعض المخلوقات دون بعضٍ، فهو غيبٌ بالنسبة لمن لم يعلمه دون من علمه، فيكون غيبًا عمن غاب عنه من المخلوقين لا عمن شهده، فتلخص أن الغيب ينقسم إلىٰ قسمين: مطلق، ومقيد.

⊙ **قوله:** «﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ﴾»: ﴿وَمَا﴾ مصدرية، أي: أنه -سبحانه- يعلم في أي يوم تحمل وفي أي يوم تضع، وهل هو ذكر أو أنثي، ففي هذه الآية إثبات صفة العلم كما تقدم، وقد تواطأت الأدلة علىٰ إثبات هذه الصفة عقلًا ونقلًا، وفيها سعة علمه سبحانه، وأنه منفرد بعلم ما في الأرحام وعلم مدة إقامته فيه، وهذا أحد أنواع الغيب الذي لا يعلمها إلا الله.

⊙ **قوله:** «﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾»: هذه الآية فيها إثبات صفة القدرة لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ كما يليق بجلاله، فجميع الأشياء منقادةٌ لقدرته تابعةٌ لمشيئته سبحانه، و﴿قَدِيرٞ﴾ فعيل، بمعنىٰ: فاعل، بمعنىٰ: القادر، وهي من الصفات الذاتية، كما ذكره في «الفتح»: «قال ابن بطال: «القدرة من صفات الذات، والقوة والقدرة بمعنىٰ واحد»[1]. انتهىٰ.

وأما المقتدر فمعناه: التام القدرة الذي لا يمتنع عليه شيءٌ.

قال أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القَدَرُ قُدرة الله»[2]، واستحسن ابن عقيل هذا من

---

(١) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (١٣/ ٣٧٦).

(٢) انظر: «السنة للخلال» (٣/ ٥٤٤).

أحمد، والمعنىٰ: أنه لا يمنع من قدرة الله شيءٌ، ونُفاة القدر قد جحدوا كمال قدرة الله سبحانه.

وقد قال بعض السلف: «ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن جحدوه كفروا».

وقد استدل العلماء علىٰ إثبات القدر بشمول القدرة والعلم، فقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك: ١] عامٌّ يتناول كل شيءٍ، فيدخل فيه أفعال العباد من الطاعات والمعاصي، فإنها داخلةٌ تحت قدرة الله ومشيئته، وكما أنه المريد لها القادر عليها فهم الفاعلون لها الواقعة بقدرتهم ومشيئتهم، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩].

والقدرية تنكر دخول أفعال خلقه تحت قدرته ومشيئته وخلقه، فهم في الحقيقة منكرون لكمال عزته وملكه، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «الكافية الشافية»:

وهو القدير لكل شيء فهو مقـ ... ـدور له طوعًا بلا عصيان
وعموم قدرته تدل بأنه ... هو خالق الأفعال للحيوان
هي خلقه حقًّا وأفعال لهم ... حقًّا ولا يتناقض الأمران
فحقيقة القدر الذي حار الورىٰ ... في شأنه هو قدرة الرحمن
واستحسن ابن عقيل ذا من أحمد ... لما حكاه عن الرضا الرباني
قال الإمام شفىٰ القلوب بلفظة ... ذات اختصار وهي ذات معان

فهو -سبحانه- خالق كل شيءٍ وربه ومليكه لا خالق غيره ولا رب سواه، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فكل ما في الوجود من حركةٍ أو سكونٍ فبقضائه

وقدره ومشيئته وخلقه، وهو -سبحانه- أمر بطاعته وطاعة رسوله، ونهىٰ عن معصيته ومعصية رسوله، ولا يتناقض الأمران خلافًا لأهل البدع.

⊙ **قوله**: «قَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾»: فلا يخرج حادثٌ من الأعيان والأفعال عن قدرته وخلقه كما لا يخرج عن علمه ومشيئته.

تنبيه: يجيء في كلام بعض الناس: «وهو علىٰ ما يشاء قدير» وليس ذلك بصواب، بل الصواب ما جاء في الكتاب والسنة: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك: ١]؛ لعموم قدرته ومشيئته، خلافًا لأهل البدع من المعتزلة وغيرهم(١).

---

(١) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين** رحمه الله في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٢٠١، ٢٠٢):

«تنبيه: ذكر في «تفسير الجلالين» -عفا الله عنا وعنه- في آخر سورة «المائدة» ما نصه «وخَصَّ العقلُ ذاتَه، فليس عليها بقادر»!

ونحن نناقش هذا الكلام من وجهين:

الوجه الأول: أنه لا حكم للعقل فيما يتعلق بذات الله وصفاته، بل لا حكم له في جميع الأمور الغيبية، ووظيفة العقل فيها التسليم التام، وأن نعلم أن ما ذكره الله من هذه الأمور ليس محالًا، ولهذا يقال: إن النصوص لا تأتي بمحال، وإنما تأتي بمحار؛ أي: بما يحير العقول؛ لأنها تسمع ما لا تدركه ولا تتصوره.

والوجه الثاني: قوله: «فليس عليها بقادر»: هذا خطأ عظيم، كيف لا يقدر علىٰ نفسه وهو قادر علىٰ غيره، فكلامه هذا يستلزم أنه لا يقدر أن يستوي ولا أن يتكلم ولا أن ينزل إلىٰ السماء الدنيا ولا يفعل شيئًا أبدًا، وهذا خطير جدًّا!!

لكن لو قال قائل: لعله يريد: «خص العقل ذاته، فليس عليها بقادر»؛ يعني: لا يقدر علىٰ أن يلحق نفسه نقصًا قلنا: إن هذا لم يدخل في العموم حتىٰ يحتاج إلىٰ إخراج وتخصيص؛ لأن القدرة إنما تتعلق بالأشياء الممكنة؛ لأن غير الممكن ليس بشيء، لا في الخارج ولا في الذهن؛ =

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨]. وَقَوْلُهُ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٥٨﴾ [النساء: ٥٨]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ۝٢٥٣﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وَقَوْلُهُ: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۝١﴾ [المائدة: ١]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

الشَّرح

⊙ **قوله:** «﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾» فَعَّال من أبنية المبالغة، ومعناه: الذي أعطى الخلائق أرزاقَها وساقها إليهم، والرَّزْق بالفتح: العطاء، وبالكسر لغةً: الحظ والنصيب، وشرعًا: هو ما ينفع من حلالٍ أو حرام.

وينقسم الرزق إلى قسمين:

الأول: الرزق المطلق: وهو المستمر نفعُه في الدنيا والآخرة، وهو رزق القلوب

=

فالقدرة لا تتعلق بالمستحيل، بخلاف العلم.

فينبغي للإنسان أن يتأدب فيما يتعلق بجانب الربوبية؛ لأن المقام مقام عظيم، والواجب على المرء نحوه أن يستسلم ويسلم» اهـ.

العِلمَ والإيمان، والرزق الحلال.

الثاني: مطلق الرزق: وهو الرزق العام لسائر الخليقة برها وفاجرها وبهائمها وغيرها، وهو سوق القوت لكل مخلوقٍ، وهذا يكون من الحلال والحرام، والله رازقه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]. الآية.

⊙ **قوله:** «﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾»؛ أي: صاحب القوة التامة الذي لا يعتريه ضعفٌ وهو بمعنىٰ العزيز، انتهىٰ.

والقوة من صفات الذات، وهو بمعنىٰ القدرة، لم يزل -سبحانه- ذا قوة وقدرة، والمعنىٰ في وصفه بالقوة: أنه القادر البليغ الاقتدار علىٰ كل شيء. انتهىٰ من «الفتح»(١).

⊙ **قوله:** «﴿ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾»؛ أي: الذي له كمال القوة، قال البيهقي: القوي التام القدرة، لا ينسب إليه عجز في حال من الأحوال. انتهىٰ.

فهذه الآية فيها إثبات صفة الرزق، وهي من الصفات الفعلية، وفيها إثبات صفة القوة، وهي من الصفات الذاتية.

⊙ **قوله:** «﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾»: هذه الآية قد تقدم الكلام عليها(٢).

---

(١) انظر: «فتح الباري» (١٣/ ٣٦٠).

(٢) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٢٠٨، ٢٠٩):

«واعلم أن النحاة خاضوا خوضًا كثيرًا في قوله: ﴿كَمِثْلِهِۦ﴾؛ حيث قالوا: الكاف داخلة علىٰ =

⊙ **قوله:** «﴿نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾»: «نِعِم» من ألفاظ المدح و«ما» قيل: نكرة موصوفة، كأنه قيل: نِعم شيئًا يعظكم به، أو موصولة، أي: نعم الشيء الذي يعظكم به.

⊙ **قوله:** «﴿يَعِظُكُم﴾»؛ أي: يأمركم به من أداء الأمانات والحكم بين الناس بالعدل.

=

«المثل»، وظاهره أن لله مثلًا ليس له مثل؛ لأنه لم يقل: ليس كهو، بل قال: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ﴾، فهذا ظاهر الآية من حيث اللفظ لا من حيث المعنىٰ؛ لأننا لو قلنا: هذا ظاهرها من حيث المعنىٰ، لكان ظاهر القرآن كفرًا، وهذا مستحيل، ولهذا اختلفت عبارات النحويين في تخريج هذه الآية علىٰ أقوال:

القول الأول: الكاف زائدة، وأن تقدير الكلام: ليس مثله شيء، وهذا القول مريح، وزيادة الحروف في النفي كثيرة، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ﴾ [فاطر: ١١]، فيقولون: إن زيادة الحروف في اللغة العربية للتوكيد أمر مطرد.

والقول الثاني: قالوا العكس، قالوا: إن الزائد «مثل»، ويكون التقدير: ليس كهو شيء، لكن هذا ضعيف، يضعفه أن الزيادة في الأسماء في اللغة العربية قليلة جدًّا أو نادرة، بخلاف الحروف، فإذا كنا لابد أن نقول بالزيادة، فليكن الزائد الحرف، وهي الكاف.

والقول الثالث: أن «مثل» بمعنىٰ: صفة، والمعنىٰ: «ليس كصفته شيء»، وقالوا: إن المِثْل والمَثَل والشِّبه والشَّبه في اللغة العربية بمعنىٰ: واحد، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [محمد: ١٥]؛ أي: صفة الجنة، وهذا ليس ببعيد من الصواب.

القول الرابع: أنه ليس في الآية زيادة، لكن إذا قلت: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾، لزم من ذلك نفي المثل، وإذا كان ليس للمثل مثل، صار الموجود واحدًا، وعلىٰ هذا، فلا حاجة إلىٰ أن نقدر شيئًا. قالوا: وهذا قد وجد في اللغة العربية، مثل قوله: ليس كمثل الفتىٰ زهير.

والحقيقة أن هذه البحوث لو لم تعرض لكم؛ لكان معنىٰ الآية واضحًا، ومعناها أن الله ليس له مثيل، لكن هذا وجد في الكتب، والراجح أن نقول: إن الكاف زائدة، لكن المعنىٰ الأخير لمن تمكن من تصوره أجود» اهـ.

⊙ **قوله:** «﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾»؛ أي: أنه سبحانه سميعٌ لما تقولون، وبصيرٌ بما تفعلون، فهذه الآية، وما قبلها من الآيات تدل علىٰ إثبات السمع والبصر لله حقيقة كما يليق بجلال الله وعظمته، وفيه دليلٌ علىٰ أن صفة السمع غير صفة البصر؛ إذ العطف يقتضي المغايرة، فالصفات بالنظر إلىٰ الذات مترادفةٌ؛ لأنها كلها صفةٌ لذاتٍ واحدة، وبالنظر إلىٰ الصفات متباينة؛ لأن كل صفةٍ غير الصفة الأخرىٰ، فالسمع غير البصر وكذلك العلم؛ وهلم جرًّا.

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أنه سمع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ هذه الآية ويضع إبهامه علىٰ أذنه، والتي تليها علىٰ عينيه، ويقول: هكذا سمعتُ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرؤها ويضع إصبعيه»(١)، رواه أبو داود، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم في «مستدركه».

وعمَلُ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا دليلٌ علىٰ إثبات هاتين الصفتين، وأنهما غير صفة العلم، وإلا لأشار إلىٰ صدره، ووضعه إبهاميه تحقيقًا لصفة السمع والبصر، وأنهما حقيقةٌ لا مجاز، خلافًا لأهل البدع.

⊙ **قوله:** «﴿وَلَوْلَآ﴾»؛ أي: وهلَّا.

⊙ **قوله:** «﴿إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾»؛ أي: هلَّا قلتَ حين دخلت بستانك.

⊙ **قوله:** «﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾»: «ما» موصولة، أي: الأمر ما شاء الله إقرارًا

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٨)، وابن حبان (٢٦٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «قصة المسيح» (ص٦٤).

بمشيئته، أي: أنه إن شاء أبقاها، وإن شاء أفناها، واعترافًا بالعجز، وأن القدرة لله سبحانه.

قال بعض السلف: من أعجبه شيءٌ فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وفي هذه الآية وصفه سبحانه بالقوة وإثبات المشيئة له الشاملة العامة، فما وقع من شيءٍ فقد شاءه وأراده، لا رادَّ لأمره ولا معقب لحكمه.

⊙ **قوله**: «﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾»: أي: لو شاء سبحانه عدم اقتتالهم لم يقتتلوا؛ إذ لا يجري في ملكه إلا ما شاء سبحانه، فهذه الآية فيها إثبات المشيئة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن ما شاءه لابد من وقوعه، فكل ما وجد فهو بمشيئته سبحانه، لا راد لأمره ولا معقِّبَ لحكمه، وهذا يبطل قول المعتزلة؛ لأنه أخبر أنه لو شاء أن لا يقتتلوا لم يقتتلوا، وهم يقولون: شاء أن لا يقتتلوا فاقتتلوا، والأدلة علىٰ بطلان قول المعتزلة كثيرةٌ جدًّا، ومن أضل سبيلًا وأكفر ممن يزعم أن الله شاء الإيمان من الكافر، والكافر شاء الكفر، فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله -تعالىٰ الله عن قولهم-.

وفيها إثبات الفعل حقيقةً لله كما يليق بجلاله، وأن القدرة عليه صفة كمال وأنه -سبحانه- لم يزل فعَّالًا لما يريد، ولم يزل ولا يزال موصوفًا بصفات الكمال، والفعل من لوازم الحياة، والرب لم يزل حيًّا فلم يزل فعالًا، وأفعاله سبحانه كصفاته قائمة به، ولولا ذلك لم يكن فعالًا ولا موصوفًا بصفات الكمال، فأفعاله سبحانه نوعان: لازمة، ومتعدية، كما دلت علىٰ ذلك النصوص التي لا تحصىٰ، وهي أفعالٌ حقيقية وليس مجازًا، وليست كأفعال خلقه، فصفاته تليق به سبحانه. انتهىٰ من كلام

شيخ الإسلام باختصار(١).

قال ابن القيم رحمه الله: قوله: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ١٠٧﴾ [هود: ١٠٧] دليل على أمور:

أحدها: أنه سبحانه يفعل بإرادته ومشيئته.

الثاني: أنه لم يزل كذلك؛ لأنه ساق ذلك في مَعرِض المدح والثناء على نفسه، وأن ذلك من كماله، فلا يجوز في وقت من الأوقات أن يكون عادمًا لهذا الكمال، وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثًا بعد أن لم يكن.

الثالث: أنه إذا أراد شيئًا فعَله، فإن «ما» موصولة عامة، أي: يفعل كل ما يريد أن يفعله، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله، وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فلها شأنٌ آخر، فإن هنا إرادتين: إرادة أن يفعل العبد، وإرادة أن يجعله الرب فاعلًا، وليستا متلازمتين وإن لزم من الثانية الأولى من غير عكس.

الرابع: أن إرادته وفعله متلازمتان، فما أراد أن يفعله فعله، وما فعله فقد أراده، بخلاف المخلوق، فما ثَمَّ فعَّال لما يريد إلا الله.

الخامس: إثبات إراداتٍ متعددةٍ بحسب الأفعال، وأن كل فعل له إرادةٌ تخصه، هذا هو المعقول في الفِطر.

السادس: أن كل ما صلح أن تتعلق به إرادته جاز فعله(٢).

---

(١) انظر: «الفتوى الحموية الكبرى» (٢٦٦).

(٢) انظر: «التبيان في أقسام القرآن» (٩٦، ٩٧).

⊙ **قوله:** «﴿وَأُحِلَّتْ﴾»؛ أي: أبيحت.

⊙ **قوله:** «﴿بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾»؛ أي: الإبل والبقر والغنم، سميت بهيمةً لأنها لا تتكلم، وأما النَّعَم فهي الإبل خاصة.

⊙ **قوله:** «﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾»؛ أي: إلا ما يتلىٰ عليكم تحريمه في قوله سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣] الآية.

⊙ **قوله:** «﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾»: ﴿غَيْرَ﴾ نصب علىٰ الحال، ومعنىٰ الآية: أحلت لكم بهيمة الأنعام كلها إلا ما كان منها وحشيًّا، فإنه صَيْد لا يحل لكم في حال الإحرام.

⊙ **قوله:** «﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ①﴾»؛ أي: يحكم ما يريد من التحليل والتحريم لا اعتراض عليه، فهو الحكم -سبحانه- الحكيم لا حاكم غيره، فكل حُكم سوىٰ حكمه فهو باطلٌ ومردود، وكل حاكم بغير حكمه وحكم رسوله فهو طاغوتٌ كافرٌ بالله، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]، وهذا عامٌّ شاملٌ، فما من قضية إلا ولله فيها حكم: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ولا شك أن من أعرض عن كتاب الله وسنة رسوله واعتاض عنها بالقوانين الوضعية أنه كافرٌ بالله.

وكذلك من زعم أنه يسعه الخروج عن شريعة محمدٍ ﷺ كما وسع الخَضِرَ الخروجُ عن شريعة موسىٰ، أو زعم أن هَدي غير محمدٍ أفضل من هديه ﷺ أو أحسن، أو زعم أنه لا يسع الناس في مثل هذه العصور إلا الخروج عن

الشريعة، وأنها كانت كافيةً في الزمان الأول فقط، وأما في هذه الأزمنة فالشريعة لا تساير الزمن، ولابد من تنظيم قوانين بما يناسب الزمن، لا شك إنْ اعتقد هذا الاعتقاد أنه قد استهان بكتاب الله وسنة رسوله، وتَنَقَّصهُما، فلا شك في كفره وخروجه عن الدين.

وكذلك من زعم أنه محتاجٌ للشريعة في علم الظاهر دون علم الباطن، أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة، أو أن الإنسان حرٌّ في التدين في أي دين شاء من يهودية أو نصرانية أو غير ذلك، أو أن هذه الشرائع غير منسوخةٍ بدين محمدٍ، أو استهان بدين الإسلام، أو تنقصه أو هزل به أو بشيءٍ من شرائعه، أو بمن جاء به، وكذلك ألحق بعضُ العلماء الاستهانةَ بحَمَلَتِه لأجل حَمْله، فهذه الأمور كلها كفر، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦] الآية.

⊙ **قوله**: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ﴾»: فيها إثبات صفة الحكم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وقد تقدم أن حكمه ينقسم إلىٰ قسمين: كوني، كما في قوله: ﴿أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى﴾ [يوسف: ٨٠]، وشرعي، كما في هذه الآية.

⊙ **قوله**: «﴿مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾»: فيه إثبات الإرادة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما يليق بجلاله، وأنه لم يزل مريدًا بإرادات متعاقبة، فنوع الإرادة قديم، وأما إرادة الشيء المعين إنما يريده في وقته، فالإرادة من صفات الفاعل، وهي تنقسم إلىٰ قسمين:

إرادة كونية قدرية، وهذه مرادفة للمشيئة، وما أراده سبحانه كونًا وقدرًا فلابد من وقوعه، فهذه الإرادة هي المتعلقة بالخلق، وهو أنه يريد سبحانه أن يفعل هو.

الثاني: إرادة شرعية دينية، وهذه الإرادة المتعلقة بالأمر، وهي أن يريد من عبده أن يفعل، وهذه مرادفةٌ للمحبة والرضا، فتجمع الإرادتان في حق المُخلص المطيع، وتنفرد الإرادة الكونية في حق العاصي، ومن لم يفرق بين النوعين فقد ضل كالجهمية والقدرية، فالإرادة الكونية كقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، والدينية كقوله: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦] الآية، فالمحبة والرضا أخص من الإرادة، خلافًا للمعتزلة وأكثر الأشاعرة القائلين: إن المحبة والرضا والإرادة سواء.

فأهل السنة يقولون: إن الله لا يحب الكفر والفسوق ولا يرضاه وإن كان قد أراده كونًا وقدرًا، كما دخلت سائر المخلوقات لِما في ذلك من الحكمة، وهو وإن كان شرًّا بالنسبة إلىٰ الفاعل فليس كل ما كان شرًّا بالنسبة إلىٰ شخص يكون عديم الحكمة، بل لله في بعض المخلوقات حِكَم قد يعلمها بعض الناس وقد لا يعلمها. انتهىٰ من كلام الشيخ تقي الدين ابن تيمية، بتصرف(١).

⊙ **قوله**: «﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ﴾»؛ أي: من شاء سبحانه أن يدله ويرشده ويوفقه ويجعل قلبه قابلًا للخير هداه سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ ووفقه، فهداية القلوب إليه سبحانه يهدي من يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله، فلا تطلب الهداية إلا منه سبحانه، فهو الهادي، كما قال سبحانه: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ [الأعراف: ١٧٨]. وفي الحديث: «**كلُّكم ضالٌّ إلا مَن هَديتُه**،

---

(١) انظر: «دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية» (٢/ ١١١).

فاستهدوني أهدكم»[١].

وليست هذه الآية معارضةً لحديث عِياض بن حِمار، عن النبي ﷺ: «يقول الله: خلقتُ عبادي حنفاءَ -وفي رواية: مُسلمين- فاجتالَتْهم الشَّياطينُ»[٢]، فإن الله خلق بني آدم وفطرهم على قبول الإسلام والميل إليه دون غيره، والتهيؤ لذلك والاستعداد له بالقوة، لكن لابد للعبد من تعليم الإسلام بالفعل، فإنه كان قبل التعليم جاهلًا لا يعرف شيئًا، كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ [النحل: ٧٨] الآية، فإن هداه الله سبَّبَ له من يعلمه الإسلامَ، فصار مهديًّا بالفعل بعد أن كان مهديًّا بالقوة، وإن خذله قيَّض له ما يغير له فطرته، كما قال ﷺ: «كلُّ مولودٍ يولدُ على الفِطرة، فأبواه يهوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمجِّسانِه»[٣] الحديث.

⊙ **قوله**: «﴿يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾»؛ أي: يوسع قلبه للإيمان بأن يقذف في قلبه نورًا فينفسح له ويقبله.

⊙ **قوله**: «﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا﴾»؛ أي: ومن شاء سبحانه أن يضله عن الهدى يجعل صدره ضيقًا، أي: عن قبول الإيمان، وحرجًا، أي: شديد الضيق فلا يبقى فيه منفذٌ للخير، ومكانٌ حَرِج، أي: ضيقٌ كثير الشجر لا تصل إليه الراعية، والحرَج -أيضًا- الإثم.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والترمذي (٢٤٩٥)، وغيرهما من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥)، وأحمد (٤/ ١٦٢)، وغيرهما من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (١٣١٩)، ومسلم (٢٦٥٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

⊙ **قوله:** «﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾»؛ أي: إذا كلِّف الإيمان كأنما يصَّعد في السماء لشدته عليه.

⊙ **قوله:** «﴿كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٢٥﴾»: يقول الله سبحانه: كما يجعل صدر من أراد إضلاله ضيقًا كذلك يسلط عليه الشيطان وعلىٰ أمثاله ممن أبىٰ الإيمان بالله ورسوله، فيغويه ويصده عن سبيل الله، قال ابن عباس: الرجس: الشيطان، وقال مجاهد: الرجس كل ما لا خير فيه، وقيل: العذاب.

ففي هذه الآية: أن الهداية والإضلال بيد الله، وفيها: أن العبد مفتقرٌ إلىٰ ربه في كل شيء، وأن العباد لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا، وأن من تفرد بخلق العبد ورزقه هو المستحق أن يفرد بالألوهية والعبادة والسؤال، وأنه ليس عند أحد من هداية القلوب وتفريج الكروب شيءٌ من ذلك لا الأنبياء ولا الملائكة ولا غيرهم، ففيه الرد علىٰ من زعم ذلك للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فضلًا عن غيره. اهـ.

وفي هذه الآية كغيرها دليلٌ علىٰ إثبات العلة والحكمة في أفعال الله؛ إذ لا يعقل مريد إلا إذا كان المريد قد فعل لحكمة يقصدها بالفعل، وإثبات الحكمة في أفعاله -سبحانه- هو قول السلف وجمهور المسلمين وجمهور العقلاء، وقالت طائفة -كجهم وأتباعه-: إنه لم يخلق شيئًا لشيء، ووافقه أبو الحسن الأشعري ومن اتبعه، وهم يثبتون أنه مريدٌ وينكرون أن له حكمة يريدها، وهذا تناقض. انتهىٰ من كلام الشيخ تقي الدين ابن تيمية بتصرف(١).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ١٣٠).

وفي هذه الآية كسوابقها إثباتُ الإرادة لله كما يليق بجلاله.

وعُلم مما تقدم أن الإرادة تنقسم إلىٰ قسمين، وأن المشيئة لا تنقسم، وأنها مرادفةٌ للإرادة الكونية.

كما عُلم أن المحبة والرضا أخص من مطلق الإرادة، وأن الأدلة دلت علىٰ الفرق بين المشيئة والمحبة والرضا، وأن من جمع بينهما فقد ضل ضلالًا مبينًا، وصادم أدلة الكتاب والسنة، وجمع بين ما فرَّق الله.

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله: فالإرادة الكونية: هي المشيئة لما خلقه، وجميع المخلوقات داخلة في مشيئته وإرادته الكونية، والإرادة الدينية الشرعية: هي المتضمنة للمحبة والرضا المتناولة لجميع ما أمر به وجعله شرعًا ودينًا، وهذه مختصة بالإيمان والعمل الصالح(١).

قال: ومنشأ ضلال من ضل هو من التسوية بين المشيئة والإرادة والمحبة والرضا، فسوَّىٰ بينهما الجبرية والقدرية، فقالت الجبرية: الكون كله بقضائه وقدره، فيكون محبوبًا مرضيًّا، وقالت القدرية النفاة: ليست المعاصي محبوبةً له ولا مرضية، فليست مقدَّرةً ولا مَقضيَّة، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه.

وقد دل علىٰ الفرق بين المشيئة والمحبة الكتابُ والسنة والفطرة الصحيحة: أما نصوص المشيئة والإرادة فكقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٩٩]، أما نصوص المحبة

---

(١) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (١٤٤).

والرضا فكقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [البقرة: ٢٠٥]، وقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] الآية. انتهىٰ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «المدارج»: «ومراده سبحانه نوعان: مراد يحبه ويرضاه ويمدح فاعلَه ويواليه، فموافقته في هذا المراد هي عين محبته، وإرادة خلافه رعونةٌ ومعارضةٌ واعتراض، ومراد يبغضه ويكرهه ويمقت فاعله، فموافقته في هذا المراد عين مشاقته ومعاداته، فهذا الموضع موضع فُرقان، فالموافقة كل الموافقة في معارضة هذا المراد واعتراضه بالدفع والرد»(١). انتهىٰ.

وفي الآية إثبات الهداية لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنه الهادي لا سواه، ومن أسمائه سبحانه الهادي، وهو الذي بصَّر عباده وعرَّفهم طريق معرفته، وهدىٰ كل مخلوقٍ إلىٰ ما لابد له منه.

وتنقسم الهداية إلىٰ قسمين:

الأول: هدايةٌ خاصة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا هادي غيره ولا تطلب إلا منه، وهي هداية التوفيق والقبول والإلهام، وهي المستلزمة للاهتداء، وهي المذكورة في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

الثاني: الهداية العامة، وهي هداية الدلالة والإرشاد والبيان، وهي المذكورة في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو المُبيِّن عن الله والدال علىٰ دينه وشرعه، وكذلك الأنبياء وأتباعهم، وهذه الهداية لا

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٤٥).

تستلزم الاهتداء؛ ولهذا ينتفي معها الهدى، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، أي: بيَّنا لثمود وأرشدناهم فلم يهتدوا.

فالهداية المنفية عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيره هي هداية التوفيق والقبول، وأما المثبتة له كغيره من الأنبياء والمرسلين وأتباعهم فهي: هداية الدلالة والإرشاد.

وفي الآية المتقدمة إثبات الصفات الفعلية، وإنها تنقسم إلىٰ قسمين: مُتعدية، ولازمة. فالمتعدية: ما تعدَّىٰ إلىٰ مفعول؛ مثل: خلق ورزق وهدىٰ وأضل، واللازمة كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ [الفجر: ٢٢] إلىٰ غير ذلك مما لا يحصىٰ من النوعين، ذكر ذلك الشيخ تقي الدين وابن القيم رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ(١).

ذكر المصنف -رحمه الله تعالىٰ- الآيات في إثبات المشيئة والإرادة، ثم ذكر الآيات في إثبات المحبة والرضا، إشارة إلىٰ الرد علىٰ من زعم التسوية بين ما ذكر، وأن المحبة والرضا والمشيئة متلازمان، ولا شك في بطلان هذا القول وفساده، فالأدلة الكثيرة دلت علىٰ الفرق بين محبته ورضاه وإرادته.

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «المنهاج»: «فأهل السنة والجماعة يقولون: إن الله يحب ويرضىٰ، كما دل علىٰ ذلك الكتاب والسنة، ويقولون: إن المحبة والرضا أخص من الإرادة، فيقولون: إن الله لا يحب الكفر والفسوق والعصيان ولا يرضاه، وإن كان داخلًا في مراده، كما دخلت سائر المخلوقات لِما في ذلك من الحكمة»(٢). انتهىٰ.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ٣٧٢).

(٢) انظر: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (١/ ١٤٦).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥]. ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ٩﴾ [الحجرات: ٩]. ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٧﴾ [التوبة: ٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]. وقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ٤﴾ [الصف: ٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ١٤﴾ [البروج: ١٤].

الشرح

⊙ **قوله:** «﴿وَأَحْسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾»: لمَّا حث علىٰ الصدقة والإنفاق في وجوه الخير أمر بالإحسان، وهو أعلىٰ مقامات الطاعة، وهو الإتيان بالعمل علىٰ أحسن أحواله وأكملها، وهذا أمرٌ عامٌّ بالإحسان في معاملة الله وفي معاملة خلقه؛ إذ حَذْفُ المعمول يُؤْذِن بالعموم.

عن شدَّاد بن أوس، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إنَّ اللهَ كتب الإحسانَ علىٰ كل شيء، فإذا قتلتم فأحْسِنوا القِتلَة، وإذا ذَبحتُم فأحْسِنوا الذِّبحَة، ولْيُحِدَّ أحدُكم شَفرَتَه، ولْيُرِحْ ذَبيحَتَه»**(١) رواه مسلم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥)، وأبو داود (٢٨١٥)، وغيرهما من حديث شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهذا الحديث كالآية فيهما دليلٌ علىٰ وجوب الإحسان في كل شيء من الأعمال؛ لكن إحسان كل شيءٍ بحسبه، وفي هذه الآية وأمثالها دليلٌ علىٰ أن الله موصوفٌ بالمحبة، وأنه يحب حقيقةً، ومحبته سبحانه كما يليق بجلاله، وفيها دليلٌ علىٰ أنه يحب مقتضىٰ أسمائه وصفاته وما يوافقها، فهو محسنٌ يحب المحسنين، ومؤمنٌ يحب المؤمنين، وفي هذه الآية وأمثالها دليلٌ علىٰ أن محبته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تتفاضل، فيحب بعض المؤمنين أكثر من بعض، وفيها إشارةٌ إلىٰ أن الجزاء من جنس العمل، وأن الإحسان أعظم سببٍ لمحبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للعبد، وفيها أدلةٌ واضحةٌ علىٰ إثبات فعل العبد وكسبه، وأنه يثاب علىٰ حسنه ويعاقب علىٰ سيئه، فتضمنت هذه الآية الرد علىٰ القدرية والجبرية، وفيها إثبات العلة والحكمة(١).

---

(١) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٣٣٦-٣٣٩):

«وهنا بحث يرد كثيرًا وهو: أن الله عَزَّوَجَلَّ له صفات وله أسماء، ويحب من العبد أن يكون فيه ما يناسبه من تلك الصفات.

مثلًا: في الحديث الذي رواه مسلم وغيره قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ من كان في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ من كِبْرٍ**»، قال رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً! قال: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ الناس**» [أخرجه مسلم (١٤٧/ ٩١) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]، والله عَزَّوَجَلَّ مقسط ويحب المقسطين، وهو عَزَّوَجَلَّ محسن ويحب المحسنين.

هذه المسألة وهي امتثال العبد لصفات الله عَزَّوَجَلَّ وتأثره بذلك وإتيانه بها، الناس فيها ما بين جافٍ وغالٍ، وأما أهل السنة فإنهم أثبتوا ذلك علىٰ ما جاء في النصوص.

بيان ذلك: أن غلاة الصوفية والفلاسفة يقولون: إن الفلسفة هي التخلق بصفات الله علىٰ قدر =

=

الطاقة، هكذا يجعلون الفلسفة التي هي أعلىٰ الحكمة، عند الصوفية أن تتمثل صفات الله عَزَّوَجَلَّ وسواء في ذلك الصفات التي هي راجعة إلىٰ الجمال، أو الصفات التي هي راجعة إلىٰ الجلال، أو الصفات الراجعة إلىٰ الربوبية، أو الصفات الراجعة إلىٰ الألوهية. لذلك دخلوا في مسائل في الفناء إلىٰ آخره ليس هذا محل بيانها.

أهل السنة في هذا قالوا: هذه المسألة ينظر إليها بمعرفة العبد لنفسه، وبعلم العبد بربه عَزَّوَجَلَّ؛ فإن العبد إذا علم حق الله عَزَّوَجَلَّ، وعلم ما يستحقه عَزَّوَجَلَّ من الصفات التي لا يشاركه فيها أحد، وعلم الصفات التي أحب من عباده أن يتمثلوها في أنفسهم؛ صار عنده الفرق.

وتارة يكون الفرق بالنظر إلىٰ الدليل، وتارة يكون الفرق بالنظر إلىٰ علم العبد بصفات الله عَزَّوَجَلَّ.

فمثلًا: ما ورد من الصفات نثبته، نقول: الله عَزَّوَجَلَّ «محسن» وقد أثبت شيخ الإسلام وابن القيم رحمهما الله تعالىٰ في أسماء الله عَزَّوَجَلَّ «المحسن» وقالا: الله عَزَّوَجَلَّ هو المحسن ويحب المحسن من عباده.

فنثبت هذا ونقول: يتمثل العبد بهذه الصفة ويتأثر بها، ويفعل ما يستطيع من ذلك.

كذلك الرحمة، الله عَزَّوَجَلَّ «رحيم» فيتمثل العبد بهذه الصفة ويتأثر بها ويفعل ما يستطيع من ذلك، قال: «**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**» [أخرجه أبو داود (٤٩٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُاللَّهُ في «صحيح سنن أبي داود»].

كذلك «الجمال»: «**إن الله جميل يحب الجمال**» [أخرجه مسلم (١٤٧/ ٩١) من حديث ابن مسعود رَضِوَاللَّهُعَنْهُ]، فإذا كان الجمال بما يوافق الشرع؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يحبه من العبد.

قالوا: مدار ذلك إذًا علىٰ ما جاء في النصوص، فإذا كان في النص ما يدل علىٰ امتثال العبد لصفات الله، -بفعله ما يستطيع من ذلك بما يناسب عبوديته- فإنه يفعل ذلك؛ لدلالة النصوص علىٰ ذلك.

وهذه خلاصة الكلام في هذا البحث الواسع» اهـ.

⊙ **قوله**: «﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾»: أي: اعدلوا في معاملاتكم وأحكامكم مع القريب والبعيد، يقال: أقسط بمعنىٰ: عدل، وقَسَط بمعنىٰ: جارَ، قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾ [الجن: ١٥]، ومن أسمائه سبحانه: المُقسط؛ أي: العادل، ففي هذه الآية الحث علىٰ العدل وفضله، وأنه سببٌ لمحبة الله، وأن العدل في الرعية من أفضل القُرَب، سواء كانت رعيةً عامةً كالحاكم، أو خاصةً كعدل آحاد الناس في بيته وولده، كما في الحديث: «**كلُّكم راعٍ ومَسئولٌ عَن رَعِيَّتِه**»(١).

وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ المُقسِطين علىٰ منابرَ مِن نورٍ عن يمين الرَّحمن وكلتا يديه يمينٌ، الذين يَعدِلون في حُكمِهم وأهليهم وما ولوا**»(٢)، وفي الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ أحبَّ العباد إلىٰ الله يوم القيامة وأدناهم إليه مجلسًا إمامٌ عادِل**»(٣)(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٨٥٣)، ومسلم (١٨٢٩)، وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٧)، والنسائي (٥٣٧٩)، وغيرهما من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الترمذي (١٣٢٩)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٣٠٥)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١١٥٦).

(٤) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٢٢٩، ٢٣٠)**:

«وهنا يجب أن ننبه علىٰ أن من الناس من يستعمل بدل العدل: المساواة! وهذا خطأ، لا يقال: مساواة؛ لأن المساواة قد تقتضي التسوية بين شيئين الحكمة تقتضي التفريق بينهما.

ومن أجل هذه الدعوة الجائرة إلىٰ التسوية صاروا يقولون: أي فرق بين الذكر والأنثىٰ؟! سوُّوا بين =

⊙ **قوله:** «﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾ [التوبة: ٧]»:

⊙ **قوله:** «﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾»: «ما» شرطية، أي: ما استقام لكم المشركون على العهد ولم ينقضوه فاستقيموا لهم على الوفاء به.

=

الذكور والإناث! حتى إن الشيوعية قالت: أي فرق بين الحاكم والمحكوم، لا يمكن أن يكون لأحد سلطة على أحد، حتى بين الوالد والولد، ليس للوالد سلطة على الولد... وهلم جرًّا.

لكن إذا قلنا بالعدل، وهو إعطاء كل أحد ما يستحقه، زال هذا المحذور، وصارت العبارة سليمة.

ولهذا؛ لم يأت في القرآن أبدًا: أن الله يأمر بالتسوية! لكن جاء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠]، ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

وأخطأ على الإسلام من قال: إن دين الإسلام دين المساواة! بل دين الإسلام دين العدل، وهو الجمع بين المتساويين، والتفريق بين المفترقين، إلا أن يريد بالمساواة: العدل، فيكون أصاب في المعنى وأخطأ في اللفظ.

ولهذا كان أكثر ما جاء في القرآن نفي المساواة: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ [الرعد: ١٦]، ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟﴾ [الحديد: ١٠]، ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٥].

ولم يأت حرف واحد في القرآن يأمر بالمساواة أبدًا، إنما يأمر بالعدل.

وكلمة «العدل» -أيضًا- تجدونها مقبولة لدى النفوس.

وأحببت أن أُنبه على هذا؛ لئلا نكون في كلامنا إمَّعة؛ لأن بعض الناس يأخذ الكلام على عواهنه، فلا يفكر في مدلوله وفي من وضعه وفي مغزاه عند من وضعه» اهـ.

⊙ **قوله**: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾»؛ أي: المتقين للذنوب والمعاصي، والتقوىٰ: هي التحرز بطاعة الله عن معصيته، فهي كلمةٌ جامعةٌ لفعل المأمورات وترك المنهيات.

قال طَلْق بن حَبيب: «التقوىٰ: أن تعبد الله علىٰ نورٍ من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله علىٰ نورٍ من الله تخاف عقاب الله».

في هذه الآية الحث علىٰ الوفاء بالعهد وتحريم الغدر، وفيها فضل التقوىٰ والحث عليها، وفيها إثبات محبة الله.

⊙ **قوله**: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾»: أي: من الذنوب والمعاصي، والتواب: هو الذي كلما أذنب تاب، يقال: تاب يتوب؛ أي: رجع، وتوابٌ كثير التوبة، والتواب من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أي: كثير التوبة علىٰ عباده، وتاب علىٰ العبد ألهمه التوبة وقَبِل توبته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والعبد توابٌ والله تواب، فتوبة العبد رجوعه إلىٰ سيده بعد إباق، وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق، وقبول واعتداد»[(١)]. اهـ.

فالتوبة لغةً: الرجوع، يقال: تاب وآب وأناب وثاب، كلها بمعنىٰ: رجع.

وشرعًا: الرجوع عن الذنب، وهي واجبةٌ من جميع الذنوب علىٰ الفور، قال الله تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١] والآيات والأحاديث في الأمر بالتوبة والحث عليها كثيرةٌ جدًّا، وتصح التوبة من بعض الذنوب

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٢٠).

دون بعض، وللتوبة ثلاثة شروط:

الأول: الندم علىٰ ما فات.

والثاني: العزم علىٰ أن لا يعود.

والثالث: الإقلاع عن الذنب، فإن كانت التوبة من حقوق الآدميين اشتُرِط:

شرطٌ رابع: وهو الخروج عن تلك المظلمة واستحلاله إن كانت غِيبة.

وللتوبة -أيضًا- شرطٌ خامس: وهو أن يتوب قبل الغرغرة، كما في الحديث الصحيح: «**إنَّ اللهَ يَقبَلُ تَوبةَ العبدِ ما لم يُغَرْغِرْ**»[1]، وأما في حالة الغرغرة وهي حالة النزع فلا تُقبل توبته.

وأما التوبة النصوح: فهي الخاصة التي لا يختص بها ذنب دون ذنب، وقيل: إن التوبة النصوح هي أن يترك الذنب ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلىٰ الضَّرع.

⊙ **قوله**: «﴿وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾»: أي: عن الذنوب والمعاصي، وعن الأحداث والنجاسات.

فالطهارة لغةً: النزاهة والنظافة عن الأقذار حسيةً كانت أو معنوية، فالحسية: كالطهارة عن الأحداث والنجاسات، والمعنوية: كالطهارة عن الذنوب والمعاصي، والآية شاملةٌ عامةٌ حاثَّةٌ علىٰ الطهارتين، وفي حديث أبي مالك الأشعري الذي رواه

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٣٢)، وابن حبان (٦٢٨)، وأبو يعلىٰ (٥٧١٧)، وغيرهم من حديث ابن عمر رَضِوَاللَّهُعَنْهُمَا، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٩٠٣).

مسلم: «الطَّهُور شَطرُ الإيمانِ»(١) الحديث، وتقديم التوابين علىٰ المتطهرين من باب تقديم السبب علىٰ المسبب؛ لأن التوبة سبب الطهارة. أفاده ابن القيم في «بدائع الفوائد»(٢).

ففي هذه الآيات المتقدمة إثبات محبته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما يليق بجلاله وعظمته، خلافًا للمبتدعة من جهمية ومعتزلة الذين أنكروا محبته سبحانه، وهم في الحقيقة منكرون للإلهية، فإن الإله هو المألوه تألهه القلوب محبة وإجلالًا وخوفًا وتعظيمًا.

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية: في هذه الآيات إثبات محبة الله، وهي علىٰ حقيقتها عند سلف الأمة ومشائخها، وأول من أنكر حقيقتها شيخ الجهمية الجعد بن درهم، فهو أول من ابتدع هذا في الإسلام في أوائل المئة الثانية، فضحىٰ به خالد بن عبد الله القَسْري(٣) أمير العراق والمشرق بواسط؛ خطب الناس يوم الأضحىٰ فقال: «يا أيها الناس، ضحُّوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مُضحٍّ بالجعد بن درهم؛ فإنه زعم أنه لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولا كلم موسىٰ تكليمًا»، ثم نزل وذبحه، وكان ذلك بفتوىٰ أهل زمانه من علماء التابعين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣)، وأحمد (٥/ ٣٤٢)، وغيرهما من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ٦٢).

(٣) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد البجلي القسري، أمير مكة للوليد وسليمان وأمير العراقيين لهشام بن عبد الملك، قال الذهبي عنه: «كان جوادًا ممدحًا معظمًا عالي الرتبة من نبلاء الرجال، لكن فيه نصب معروف» توفي سنة ست وعشرين ومائة وله ستون عامًا. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٥/ ٤٢٦)، و«البداية والنهاية» (٩/ ٣٥٠).

وأخذ هذا المذهب عن الجعد بن درهم: الجهم بن صفوان[١] فأظهره وناظر عليه، وإليه أضيف قول الجهمية، فقتله سَلَم بن أَحْوز أمير خراسان بها[٢]، ثم انتقل ذلك إلىٰ المعتزلة[٣] أتباع عمرو بن عُبيد[٤]، وظهر قولهم في أثناء خلافة المأمون،

---

(١) مولاهم السمرقندي، الضال المبتدع رأس الجهمية، هلك في زمان صغار التابعين، رأس في التعطيل، زعم أن القرآن مخلوق، وذهب إلىٰ أن العبد لا قدرة له أصلًا بل فعله كحركة المرتعش، فالعبد عندهم مجبورٌ علىٰ فعله، وأن الجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما حتىٰ لا يبقىٰ موجود سوىٰ الله تعالىٰ، قتله سلم بن أحوز سنة ثمان وعشرين ومائة. انظر: «الملل والنحل» (١/ ٨٦)، و«ميزان الاعتدال» للذهبي (٢/ ١٥٩).

(٢) انظر: «الأنساب» (٢/ ١٣٣)، و«البداية والنهاية» (١٠/ ٢٧).

(٣) هي إحدىٰ الفرق الضالة المخالفة لأهل السنة والجماعة، ورأس هذه الفرقة واصل بن عطاء الغزال، كان تلميذًا في مجلس الحسن البصري، فأظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين، وأن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، وانضم إليه عمرو بن عبيد، واعتزلا مجلس الحسن، فسموا بالمعتزلة لذلك، ويلقبون بالقدرية لإسنادهم أفعال العباد إلىٰ قدرتهم وإنكارهم القدر فيها، وقد افترقت المعتزلة إلىٰ فرق شتىٰ يجمعهم القول بنفي الصفات، والقول بخلق القرآن، وأن العبد يخلق فعل نفسه، ولهم أصول خمسة جعلوها بمنزلة أركان الإيمان عند أهل السنة، وهي: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وإنما أرادوا بهذه المسميات معاني باطلة. انظر: «الملل والنحل» (١/ ٣٠-٣٢)، و«الفرق بين الفرق» (١٨، ٩٢، ٩٣)، و«سير أعلام النبلاء» (٥/ ٤٦٤).

(٤) هو عمرو بن عبيد بن باب أبو عثمان، سكن البصرة وجالس الحسن البصري وحفظ عنه واشتهر بصحبته، ثم أزاله واصل بن عطاء عن مذهب أهل السنة، فقال بالقدر ودعا إليه، واعتزل أصحاب الحسن، توفي سنة اثنتين أو ثلاث أو أربع وأربعين ومائة. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» (٧/ ٢٧٣)، و«تاريخ بغداد» (١٢/ ١٦٦)، و«شذرات الذهب» (١/ ٢١٠).

حتىٰ امتحن أئمة الإسلام ودعَوْهم إلىٰ الموافقة علىٰ ذلك، وأصل ذلك مأخوذ عن المشركين والصابئة، وهم ينكرون أن يكون إبراهيم خليلًا؛ لأن الخُلَّة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب، كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سمي الخليل خليلا

ولكن محبته وخلته كما يليق به كسائر صفاته[1]. اهـ.

والذي يوصف به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من أنواع المحبة: الإرادة، والود، والمحبة، والخلة، كما ورد النص. من «شرح الطحاوية»[2].

⊙ **قوله** سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]. قال الحسن: «ادعىٰ قوم أنهم يحبون الله، فأنزل الله هذه الآية محنةً لهم»، فهذه الآية فيها دليلٌ علىٰ أن من ادعىٰ ولاية الله ومحبته وهو لم يتبع ما جاء به رسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فليس من أولياء الله، بل من أولياء الشيطان، وفيها أن علامة ودليل محبة الله هو اتباع رسوله، وأن من اتبع الرسول حصلت له محبة الله، قال بعض السلف: «ليس الشأن أن تُحِبَّ إنما الشأن أن تُحَب».

وفيها إثبات المحبة من الجانبين، فمحبة الله لأنبيائه ورسله وعباده الصالحين صفةٌ زائدةٌ علىٰ رحمته وإحسانه وإعطائه، فإن ذلك أثر المحبة وموجبها فإن الله لما أحبهم كان نصيبهم من رحمته وإحسانه أتم نصيب، هذا قول أهل السنة والجماعة.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٦٦-٦٧).

(٢) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (١٢٤).

أما الجهمية والمعتزلة فعكس هؤلاء، فإنه عندهم لا يُحِب ولا يُحَب، ولم يمكنهم تكذيب النصوص المتكاثرة في إثبات المحبة من الجانبين، فأوَّلوا نصوص محبة العباد له علىٰ محبة طاعته وعبادته، وأوَّلوا نصوص محبته لهم بإحسانه إليهم وإعطائهم الثواب، ونحو ذلك من التأويلات الفاسدة لأدلة الكتاب والسنة الكثيرة في إثبات المحبة من الجانبين.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وجميع طرق الأدلة عقلًا ونقلًا وفطرةً وقياسًا وذوقًا واعتبارًا ووجدانًا تدل علىٰ إثبات محبة العبد لربه والرب لعبده، وقد ذكرنا لذلك قريبًا من مئة دليلٍ في كتابنا الكبير في المحبة[1]»[2] اهـ.

⊙ **قوله: «﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾»: أي: يرجع، والرد لغة: الرجوع.**

وشرعًا: هو الذي يكفر بعد إسلامه نطقًا أو اعتقادًا أو شكًّا أو فعلًا.

⊙ **قوله: «﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾»**: أي: من تولىٰ عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خيرٌ منه وأقوم سبيلًا، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾ [محمد: ٣٨] الآية، والقوم: الجماعة من الناس.

⊙ **قوله: «﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾»؛ أي**: أهل رقَّة وتواضع للمؤمنين، قال عطاء: «للمؤمنين كالولد لوالده، والعبد لسيده، وعلىٰ الكافرين كالأسد علىٰ فريسته».

---

(١) يعني كتابه: «روضة المحبين ونزهة المشتاقين».

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٢٠).

⊙ **قوله:** «﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾»؛ أي: أهل غلظة وشدة على الكافرين، وهذه من صفات المؤمنين، كما قال سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وفي صفة رسول الله: أنه الضحوك القتَّال، فهو ضحوك لأوليائه قتَّال لأعدائه.

⊙ **قوله:** «﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾»؛ أي: بأموالهم وأنفسهم وألسنتهم، وذلك تحقيق دعوى المحبة، والجهاد لغةً: بذل الطاقة والوُسع، وشرعًا: قتال الكفار، وقد تكاثرت الأدلة على فضل الجهاد والحث عليه.

⊙ **قوله:** «﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾»؛ أي: لا تأخذهم في الله لومة لائم، وهذا علامة صحة المحبة، أي: لا يردهم عن ما هم فيه من طاعة الله ورسوله رادٌّ، ولا يصدهم عنها صادٌّ، ولا يخافون في ذلك لومة لائمٍ، ولا عذلَ عاذلٍ، كما روى الإمام أحمد من حديث أبي ذر قال: «أمرني خليلي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسبع: أمرني بحب المساكين والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن لا أسأل أحدًا شيئًا، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مُرًّا، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن من كنز تحت العرش».

⊙ **قوله:** «﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾»؛ أي: من اتصف بهذه الصفات فإنما هو فضل الله عليه وتوفيقه له.

⊙ **قوله:** «﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾»؛ أي: واسع الفضل عليمٌ بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه، أفادت هذه الآية إثبات المحبة حقيقةً من الجانبين خلافًا للمبتدعة

من الجهمية والمعتزلة ومن سلك سبيلهم، وأفادت هذه الآية التحذير عن معصية الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ، وأن الكافر والعاصي لم يضر إلا نفسه، وأفادت عظيم قدرته سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ في أن من تولىٰ عن دينه وأعرض عنه فإنه يستبدل به غيره، وأفادت أن هذه الأربع من صفات المؤمنين، وهي: الحب في الله، والبغض في الله، والجهاد في سبيل الله، والقيام بأمره علىٰ الكبير والصغير والقريب والبعيد، وأفادت -أيضًا- إثبات فعل العبد حقيقةً، كما أفادت أن الأعمال الصالحة سببٌ للسعادة، كما قال تعالىٰ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: ١٧]، وأن ذلك من فضله سبحانه وتوفيقه كما في «الصحيح»: «لَيس أحدٌ منكم يدخل الجنةَ بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلَّا أن يَتَغَمَّدَنِي اللهُ برَحمَتِه»(١)، وفيها -أيضًا-: وجوب إفراده سبحانه بالمحبة، فإن محبته سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ هي أصل دين الإسلام، فبكمالها يكمل دين العبد، وبنقصها ينقص.

قال ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ-: «وقد عُلم أن العبادة إنما تنبني علىٰ ثلاثة أصول: الخوف، والرجاء، والمحبة، وكل منها فرضٌ لازم، والجمع بين الثلاثة حتمٌ واجب؛ ولهذا كان السلف يذمون من تعبَّد بواحدٍ منها دون الآخر»(٢). انتهىٰ.

⊙ **قوله:** «﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ٤﴾ [الصف: ٤]»؛ أي: يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم في إعلاء كلمة الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٨)، ومسلم (٢٨١٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)» (٢/ ٣١٩).

⊙ **قوله: «﴿صَفًّا﴾»؛ أي**: يَصفُّون أنفسهم عند القتال صفًّا ولا يزولون عن أماكنهم كأنهم بنيانٌ مرصوص قد رُصَّ بعضُه ببعض، أي: أُلزق بعضه ببعض وأحكم، فليس فيه فرجةٌ ولا خللٌ، روىٰ الإمام أحمد من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ثلاثةٌ يَضحك اللهُ إليهم: الرَّجلُ يقوم مِن الليل، والقومُ إذا صَفُّوا للصَّلاة، والقَوم إذا صَفُّوا للقِتال**»[(١)]، رواه ابن ماجه.

أفادت هذه الآية فضل الجهاد في سبيل الله والحث عليه، وأفادت الندب إلىٰ الصفوف في القتال، وأفادت إثبات المحبة لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وهو قول جميع السلف، وأنكرت الجهمية حقيقة المحبة من الجانبين؛ زعمًا منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة، وهذا القول باطلٌ ترده أدلة الكتاب والسنة المتكاثرة.

⊙ **قوله: «﴿ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾»: من أبنية المبالغة، أي**: كثير المغفرة، وأصل الغَفْر: السَّتْر، ومنه المِغفَر، فهو سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يغفر لمن تاب إليه، أي: يستر ذنوبه ويتجاوز عن خطاياه.

قال ابن رجب -رحمه الله تعالىٰ-: «المغفرة: محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره[(٢)]، ومنه المِغفر لما يقي الرأس من الأذىٰ، لا كما ظنه بعضهم الستر، فالعمامة

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٨٠)، وابن أبي شيبة (١٩٣١٧) من حديث أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ولم أقف عليه عند ابن ماجه والله أعلم، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٦١١).

(٢) انظر: «جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم» (٢/ ٤٠٧).

لا تسمىٰ مِغفرًا مع سترها، فلابد في لفظ المِغفر من الوقاية»[١]. انتهىٰ.

والغفور أبلغ من الغافر؛ لأن فعول موضوعٌ للمبالغة، والغفار، أي: الستار لذنوب عباده، أبلغ من الغفور؛ لأنه للتكثير من غير حصر، وقد جاء في التنزيل: (الغفور، والغفار، والغافر).

⊙ **قوله:** «﴿ٱلْوَدُودُ ١٤﴾»: **من الود:** وهو خالص الحب وألطفه وأرقه، والودود من صفات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، أصله من المودة، أي: المتودد إلىٰ عباده بنعمه، الذي يود من تاب إليه وأقبل عليه، وهو -أيضًا- الودود، أي: المحبوب، قال البخاري في «صحيحه»: «الودود الحبيب».

والتحقيق: أن اللفظ يدل علىٰ الأمرين: علىٰ كونه وادًّا لأوليائه ومودودًا[٢] لهم. انتهىٰ من كلام ابن القيم باختصار[٣].

◇ ◇ ◇

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣١٥).

(٢) في نسخة مكتبة الرشيد (ص٧٧): «مردودا»، وهو تصحيف.

(٣) انظر: «التبيان في أقسام القرآن» (٩٣).

قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ [النمل: ٣٠]. ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]. ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٧]. ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف: ٦٤].

وقَولُهُ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]. وقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]. وَقَولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [محمد: ٢٨]. وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]. وَقَوْلُهُ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: ٣].

الشرح

⊙ **قوله:** «﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾»: الباء في (بسم الله) للاستعانة، وهي متعلقة بمحذوف، والتقدير: أبتدئ أو أؤلف على حسب ما يضمره المتكلم، والاسم مشتقٌّ من السُّمُوِّ، وهو العلو، أو من السِّمة، وهي العلامة.

ولفظ **الجلالة** مشتقٌّ من (أَلِه)، ومعنىٰ كونه مشتق: أنه دالٌّ علىٰ صفة هي الألوهية، كسائر أسمائه الحسنىٰ، كالعليم والسميع والبصير ونحو ذلك، وهو جامعٌ لمعاني الأسماء الحسنىٰ والصفات العليا وراجعةٌ إليه.

⊙ **قوله:** «﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾»: هما صفتان لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مشتقان من الرحمة، وهما من أبنية المبالغة: والرحمن أبلغ من الرحيم؛ لأن زيادة البناء تدل علىٰ زيادة المعنىٰ، والرحمن خاصٌّ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يسمىٰ به غيره ولا يوصف، بخلاف الرحيم فيوصف به غيره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فيقال: رجلٌ رحيم، والرحمة صفة من صفات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ اللائقة بجلاله وعظمته؛ فيجب أن يوصف بها كما وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بخلاف ما عليه أهل البدع الذين نفوا هذه الصفة وأولوها؛ كمن يؤولها بالإنعام، أو بإرادة الإنعام... إلىٰ غير ذلك من التأويلات الفاسدة.

فالرحمة ثابتةٌ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كغيرها من الصفات، سواءٌ كانت ذاتيةً كالعلم والحياة، أو فعليةً كالرحمة التي رحم بها عباده، فكلها صفاتٌ قائمةٌ به -سبحانه- ليست قائمةً بغيره، فيوصف بها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حقيقةً كما يليق بجلاله.

وقد اجتمع في ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وكذلك قد اجتمع فيها أنواع الخفض الثلاثة فـ﴿بِسۡمِ﴾ مخفوض بالحرف، ولفظ الجلالة مخفوض بالإضافة، و﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ مخفوضان بالتبعية.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتضمنت ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ إثبات النبوات من جهاتٍ عديدة:

الأول: من اسم (الله) وهو المألوه المعبود، ولا سبيل إلىٰ معرفة عبوديته إلا من طريق رسله.

الثاني: من اسمه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾، فإن رحمته تمنع إهمال عباده وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية السعادة، فمن أعطىٰ هذا الاسم حقه عرف أنه متضمنٌ لإرسال الرسل وإنزال الكتب أعظمَ من تضمنه عِلم إنزال الغيث وإنبات الكلأ وإخراج الحب، فاقتضاء الرحمة لما يحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها ما يحصل به حياة الأبدان والأشباح». انتهىٰ. «مدارج»(١).

وقال في «البدائع»: «﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾: دالٌّ علىٰ الصفة القائمة به سبحانه، و﴿ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾ دالٌّ علىٰ تعلقها بالمرحوم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ۝٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ولم يجئ قط: رحمان بهم، فكان الأول للوصف والثاني للفعل، فالأول دال علىٰ أن الرحمة وصفه، والثاني دال علىٰ أنه يرحم خلقه برحمته»(٢). انتهىٰ.

⊙ **قوله:** «﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾»: أي: وسِعَت رحمتك وعلمك كل شيء، فما من مسلمٍ، ولا كافرٍ إلا وهو متقلبٌ في نعمته، فهذه الآية فيها دليلٌ علىٰ إثبات رحمته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، ودليلٌ علىٰ سعتها وشمولها، روىٰ الإمام أحمد عن أبي عثمان، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ لله مئةَ رَحمة، فمِنها رحمةٌ يَتراحم بها الخَلقُ، وبها تَعطِفُ الوُحوشُ علىٰ أولادها، وأخَّر تَسعةً وتِسعين إلىٰ يوم القيامة**»(٣). انفرد بإخراجه مسلم.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٢).

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ٢٤).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٥٣)، وأحمد (٥/ ٤٣٩)، واللفظ له، وغيرهما من حديث سلمان =

⊙ **قوله:** ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]: أي: أن رحمته سبحانه عمَّت وشملت كل شيء، قال الحسن وقتادة: «وسعت رحمته سبحانه في الدنيا البر والفاجر، وهي يوم القيامة للمتقين خاصة»، فهذه الآية فيها إثبات الرحمة وشمولها، ودلت هذه الآية وما قبلها علىٰ أن الرحمة تنقسم إلىٰ قسمين:

الأول: رحمةٌ عامة، وهي الرحمة المشتركة بين المسلم والكافر، فما يصل إليه من رزقٍ وصحةٍ ونحو ذلك فكله من رحمة الله، كما في هذه الآية.

الثاني: رحمةٌ خاصةٌ بالمؤمنين، كما في الآية التي قبلها: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

قوله سبحانه: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]: أي: أوجبها علىٰ نفسه الكريمة تفضلًا منه وإحسانًا، كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الله لمَّا خلَق الخَلق كتب كتابًا عنده فوق العرش: إنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي**»(١)، الحديث، فالكتاب المذكور في الآية هو الإيجاب علىٰ نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وكذلك ما ورد في الحديث: «**وحقُّ العِباد علىٰ اللهِ**»(٢) تفضلًا منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإحسانًا، وإلا فليس للعباد حقٌّ واجبٌ كحق المخلوق علىٰ المخلوق كما تزعمه المعتزلة، فإن المعتزلة تزعم أنه واجبٌ عليه

=

الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفي الباب عند الشيخين من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه البخاري (٧١١٤)، ومسلم (٢٧٥١/ ١٤)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٠١)، ومسلم (٣٠)، وغيرهما من حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

بالقياس علىٰ المخلوق، والأدلة ترد قولهم عليهم وتبطل قولهم، وتدل علىٰ ما عليه أهل السنة والجماعة، وهو أن العبد لا يستوجب علىٰ الله بسعيه نجاةً ولا فلاحًا، ولا يدخل أحد الجنة بعمله، ويقولون: إن الله سبحانه هو الذي كتب علىٰ نفسه الرحمة وأوجب الحق، لم يوجبه عليه مخلوقٌ، خلافًا للمعتزلة، قال بعضهم:

ما للعباد حق عليه واجب ... كلا ولا سعي لديه ضائعُ
إن عُذِّبوا فبعدله أو نُعِّموا ... فبفضله وهو الكريم الواسعُ

قال الشيخ تقي الدين -رحمه الله تعالىٰ-: «كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعامٍ وفضلٍ، وليس هو استحقاق مقابلةٍ كما يستحق المخلوق علىٰ المخلوق»(١). انتهىٰ.

وهذا كما في حديث: **«لو عذَّب اللهُ أهلَ سَمواته وأهلَ أرضِه لعَذَّبَهُم وهو غيرُ ظَالِم لهم، ولو رَحِمَهم لكانت رَحمَتُه خيرًا لهم»**(٢)، والحديث المتقدم: **«ليس أحدٌ منكم يدخل الجنَّةَ»**(٣) الحديث، وهذا الحديث لا ينافي قوله: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السجدة: ١٧]، فإن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفىٰ باء المقابلة والمُعادلة، والقرآن أثبت باء التسبب، فالمَنْفِي استحقاقها بمجرد الأعمال وكون الأعمال ثمنًا وعِوضًا

---

(١) انظر: «جامع المسائل لابن تيمية»، و«تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله علىٰ العبيد» (٤٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وأحمد (٥/ ١٨٢)، وابن ماجه (٧٧)، وغيرهم من حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٩٨)، ومسلم (٢٨١٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لها كما تزعمه المعتزلة، والمُثبَت كونها سببًا لدخول الجنة بتوفيقه وهداه.

⊙ **قوله:** «﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨﴾»، **وقوله:** «﴿فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٦٤﴾»؛ أي: أن حِفْظَه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ خير من حفظكم، فمن توكل عليه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ وفوَّض أموره إليه كفاه ووقاه وحفظه وحماه، فلا سبيل لأحدٍ عليه، ولا قدرة لأحدٍ أن يصل إليه بما يؤذيه.

ومن أسمائه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ الحفيظ، وهو نوعان:

أحدهما: حفظه علىٰ عباده جميع ما عملوا من خير وشر وطاعة ومعصية.

والثاني: أنه الحافظ لعباده من جميع ما يكرهون، وهذا نوعان: أحدهما: عامٌّ، والثاني: خاص.

فالأول: حفظه لجميع المخلوقات بتيسير ما يُقِيتُها ونحو ذلك.

الثاني: حفظ خاصٌّ، وهو حفظه لأوليائه -سوىٰ ما تقدم- عما يزلزل إيمانهم ويضعف يقينهم، وحفظهم عما يضرهم في دينهم ودنياهم. انتهىٰ من كلام ابن رجب(١).

أفادت هذه الآية كغيرها إثبات صفة الرحمة، وأنها أكمل رحمةٍ، وأنها حقيقةٌ لا مجاز، وهذا عكس ما عليه الجهمية وأضرابهم الذين نفوا رحمته سبحانه وزعموا أنها مجازٌ، وأن رحمة المخلوق حقيقةٌ، ولا شك أن هذا من أعظم الإلحاد في أسماء الله

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم» عند شرح الحديث التاسع عشر.

وصفاته، فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أثبت لنفسه هذه الصفات ووصف نفسه بها كما وصف بعض خلقه بهذه الصفات، ولكن ليست رحمته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كرحمة المخلوق، ولا سمعه ولا بصره، فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ ليس كمثله شيءٌ، فاتفاق الاسمين لا يقضي باتحاد المسمىٰ، فإنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وصف نفسه بهذه الصفات ووصف به بعض خلقه، فأثبت سبحانه الاسم ونفىٰ المماثلة فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ: ١١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وفي هذا أظهر دليلٍ علىٰ أن أسماء الرب مشتقة من أوصاف ومعانٍ قامت به، وأن كل اسم يناسب ما ذكر معه واقترن به من فعله وأمره»(١). انتهىٰ.

فهذه الآيات أفادت صفة الرحمة، وأنها حقيقةٌ لا مجاز، كما أفادت أن الرحمة المضافة إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تنقسم إلىٰ قسمين:

قسمٌ يضاف إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من إضافة الصفة إلىٰ الموصوف، كما قال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وكما في الحديث: «بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ»(٢).

والثاني: يضاف إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من باب إضافة المخلوق إلىٰ خالقه، وهي

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٦٠).

(٢) أخرجه الحاكم (٢٠٠٠)، والبيهقي في «الشعب» (٧٦٠)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢٧).

الرحمة المخلوقة، كما في الحديث «إنَّ الله خلقَ مئةَ رَحمة»(١)، والحديث الآخر أنه قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للجنة: «أنتِ رَحمَتي أَرحَمُ بِكِ مَن أشاء»(٢).

⊙ **قوله:** «﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾»: لما ذكر أعمالهم الصالحة أنه أثابهم عليها رضاه الذي هو أعظم وأجلُّ من كل نعيم، قال تعالىٰ: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

أفادت هذه الآية إثبات صفة الرضا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما يليق بجلاله، ولا يقال: الرضا إرادة الإحسان، والغضب: إرادة الانتقام كما تزعمه المبتدعة، فإن هذا نفيٌ للصفة وصرفٌ للقرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجِب، وهذا لا يجوز.

وفي هذه الآية دليلٌ علىٰ إثبات أفعال الله الاختيارية، وأدلة ذلك من الكتاب والسنة لا تحصر، وفيها دليلٌ علىٰ إثبات فعل العبد وأن له فعلًا اختياريًّا.

وفيها دليلٌ علىٰ أن الجزاء من جنس العمل، وفيها فضل الرضا عن الله، والرضا لغة: ضد السخط والكراهة، وقال بعضهم: هو سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

قال في «فتح المجيد»: «هو أن يُسلِّمَ العبد أمره إلىٰ الله ويحسن الظن به ويرضىٰ عنه في ثوابه»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٢٧٥٢/ ١٨)، واللفظ له، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٦٩)، ومسلم (٢٨٤٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: «فتح المجيد» (٣٦٧).

قال ابن القيم رحمه الله: «الرضا ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: الرضا بالله، والرضا عن الله، والرضا بقضاء الله، فالرضا بالله فرضٌ، والرضا عنه وإن كان من أجلِّ الأمور وأشرفها فلم يطالب به العموم؛ لعجزهم عنه ومشقته عليهم، وأوجبه بعضُهم، وأما الرضا بكل مقضيٍّ فلا يجب، بل المقضي ينقسم إلىٰ ما يجب الرضا به، وهو المقضي الديني، قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] الآية، ومقضي كوني قدري، فإن كان فقرًا أو مرضًا ونحو ذلك استحب الرضا به ولم يجب، وأوجبه بعضهم، فإن كان كفرًا أو معصيةً حَرُم الرضا به؛ لأن الرضا به مخالَفةٌ لربِّه، فإنه سبحانه لا يرضىٰ بذلك ولا يُحبُّه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧] الآية، وأما القضاء الذي هو صفة الله وفعله فالرضا به واجبٌ». انتهىٰ بتصرف(١).

وقال الشيخ تقي الدين ابن تيمية في «تائيته»:

فنرضىٰ من الوجه الذي هو فعله ... ونسخط من وجه اكتساب بحيلتي

وقال السفاريني في «الدرة المضيئة»:

وليس واجبًا علىٰ العبد الرضا ... بكل مقضي ولكنْ بالقضا

⊙ **قوله**: «﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾»: احترز بذلك عن قتل الكافر ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾: العمد لغةً: القصد، وشرعًا: أن يقصدَ مَن يعلَمُه آدميًّا معصومًا فيقتله بما يغلب علىٰ الظن موته به، واحترز بقوله: ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾ عن قتل الخطأ.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٨٤).

⊙ **وقوله: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ﴾**، أي: عقابه، **قوله: ﴿جَهَنَّمُ﴾** عَلَمٌ علىٰ طبقةٍ من طبقات النار.

⊙ **قوله:** «﴿خَٰلِدًا فِيهَا﴾»؛ أي: مقيمًا، والخلود: هو المكث الطويل، **قوله:** ﴿وَلَعَنَهُۥ﴾ أي: طرده عن رحمته، فاللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

⊙ **قوله:** «﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ٩٣﴾»؛ أي: هيَّأ له ذلك لعِظَم ذنبه.

في هذه الآية الوعيد الشديد لمن تعاطىٰ هذا الذنب العظيم، ويُروىٰ عن ابن عباس أنه قال: «قاتِل المؤمن متعمدًا لا تُقبل له توبة»، ويقول: «هذه الآية من آخر ما نزل ولم ينسخها شيء»(١)، وممن ذهب إلىٰ **قوله**: زيد بن ثابت، وأبو هريرة، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وعبيد بن عمير، والحسن، وقتادة، والضحاك، نقله ابن أبي حاتم.

والذي عليه الجمهور سلفًا وخلفًا: أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله، فإن تاب وأناب وعمل صالحًا بدَّل الله سيئاته حسنات، وعوض المقتول عن ظلامته، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] الآية، وهذا عامٌّ في جميع الذنوب، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النساء: ٤٨] الآية، وهذه الآية عامة في جميع الذنوب عدا الشرك بالله، إلىٰ غير ذلك من الأدلة.

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٩/ ٦٣).

وما يروىٰ عن ابن عباس وغيره فهو مبالغةٌ وتشديدٌ في الزجر عن القتل.

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: «والتحقيق في المسألة: أن القتل تتعلق به ثلاثة حقوق: حق الله، وحق المقتول، وحق الولي، فإذا سلَّم القاتل نفسه طوعًا واختيارًا ندمًا علىٰ ما فعله، وخوفًا من الله، وتوبة نصوحًا سقط حق الله بالتوبة، وحق الأولياء بالاستيفاء أو الصلح أو العفو، وبقي حق المقتول يعوضه الله عنه يوم القيامة عن عبده التائب المحسن ويصلح بينه وبينه، فلا يضيع حق هذا ولا يبطل حق هذا»(١). انتهىٰ.

وبتقدير دخول القاتل النار فليس بمخلَّد فيها أبدًا، بل الخلود هو المكث الطويل، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **أنه «يَخرُج من النار مَن كان في قلبه مثقالُ ذَرَّة إيمان»**(٢).

فدخول النار علىٰ قسمين: دخول مطلق، ومطلق دخول.

فالأول: هو دخول المشركين والكفرة، فهؤلاء يدخلونها ولا يخرجون منها أبدًا.

والثاني: وهو دخول الموحدين الذين عليهم ذنوب ومعاصي، فهؤلاء يعذَّبُون فيها بقدر سيئاتهم ثم يخرجون منها إن لم يحصل سببٌ للخروج منها قبل ذلك من

---

(١) انظر: «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء» (١٤٧).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢)، ومسلم (١٨٤)، والترمذي (٢٥٩٨)، واللفظ له، وغيرهم من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

شفاعة أو غيرها من الأسباب.

فالناس ينقسمون بحسب ما تقدم إلىٰ ثلاثة أقسام:

الأول: المشركون والكفار، كُفرًا يخرج عن الملة الإسلامية، فهؤلاء يدخلون النار ويخلدون فيها دائمًا ولا يخرجون منها أبدًا.

النوع الثاني: من مات علىٰ التوحيد وليس عليه ذنوب؛ فهذا يدخل الجنة من أول وهلة.

الثالث: من مات موحدًا وعليه ذنوب ومعاصٍ، فهذا تحت مشيئة الله؛ إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة من أول وهلة، وإن شاء عذَّبه بقدر ذنوبه ثم أدخله الجنة، هذا ما عليه أهل السنة والجماعة، وهو الذي تواترت به الأدلة من الكتاب والسنة، عكس ما عليه المرجئة والخوارج والمعتزلة.

قال السفاريني في «الدرة المضيئة»:

ومن يمت ولم يتب من الخطا　　فأمره مُفوَّضٌ لِذي العطا
فإن يشأ يعفو وإن شاء انتقم　　وإن يشأ أعطىٰ وأجزل النعم

وفي هذه الآية دليلٌ علىٰ إثبات الغضب، وأنه سبحانه يغضب ويرضىٰ كما يليق بجلالته وعظمته[1].

---

(١) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٢٦٣-٢٦٦):

«ولكن يُشكل علىٰ منهج أهل السنة ذكر الخلود في النار، حيث رُتِّب علىٰ القتل، والقتل ليس بكفر، ولا خلود في النار عند أهل السنة إلا بالكفر.

=

وأجيب عن ذلك بعدة أوجه:

الوجه الأول: أن هذه في الكافر إذا قتل المؤمن.

لكن هذا القول ليس بشيء؛ لأن الكافر جزاؤه جهنم خالدًا فيها وإن لم يقتل المؤمن: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾﴾ [الأحزاب: ٦٤، ٦٥].

الوجه الثاني: أن هذا فيمن استحل القتل؛ لأن الذي يستحل قتل المؤمن كافر.

وعجب الإمام أحمد من هذا الجواب، قال: كيف هذا؟! إذا استحل قتله؛ فهو كافر وإن لم يقتله، وهو مخلد في النار وإن لم يقتله.

ولا يستقيم هذا الجواب أيضًا.

الوجه الثالث: أن هذه الجملة على تقدير شرط؛ أي: فجزاؤه جهنم خالدًا فيها إن جازاه.

وفي هذا نظر، فأي فائدة في قوله: ﴿فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ﴾، ما دام المعنى: إن جازاه؟! فنحن الآن نسأل: إذا جازاه، فهل هذا جزاؤه؟ فإذا قيل: نعم، فمعناه أنه صار خالدًا في النار، فتعود المشكلة مرة أخرى، ولا نتخلص.

فهذه ثلاثة أجوبة لا تسلم من الاعتراض.

الوجه الرابع: أن هذا سبب، ولكن إذا وجد مانع، لم ينفذ السبب، كما نقول: القرابة سبب للإرث؛ فإذا كان القريب رقيقًا؛ لم يرث؛ لوجود المانع وهو الرق.

ولكن يرد علينا الإشكال من وجه آخر، وهو: ما الفائدة من هذا الوعيد؟

فنقول: الفائدة أن الإنسان الذي يقتل مؤمنًا متعمدًا قد فعل السبب الذي يخلد به في النار، وحينئذٍ يكون وجود المانع محتملًا، قد يوجد، وقد لا يوجد، فهو على خطر جدًّا؛ ولهذا قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لن يزال المؤمن في فُسحَةٍ مِن دينه ما لم يُصِبْ دمًا حرامًا»** [أخرجه البخاري (٦٨٦٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا]. فإذا أصاب دمًا حرامًا -والعياذ بالله- فإنه قد يضيق بدينه حتى يخرج منه.

وعلى هذا؛ فيكون الوعيد هنا باعتبار المآل؛ لأنه يخشى أن يكون هذا القتل سببًا لكفره، وحينئذٍ يموت على الكفر، فيخلد.

⊙ قوله: «﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ﴾»: أي: ذلك الضرب والقبض لأرواحهم بهذه الشدة بسبب اتباعهم ما يسخط الله من الكفر وعداوة الرسول وبسبب كراهتهم رضوانه، أي: ما يرضيه من الإيمان والعمل الصالح.

=

فيكون في هذه الآية على هذا التقدير ذكر سبب السبب، فالقتل عمدًا سبب لأن يموت الإنسان على الكفر، والكفر سبب للتخليد في النار.

وأظن هذا إذا تأمله الإنسان؛ يجد أنه ليس فيه إشكال.

الوجه الخامس: أن المراد بالخلود المكث الطويل، وليس المراد به المكث الدائم؛ لأن اللغة العربية يطلق فيها الخلود على المكث الطويل، كما يقال: فلان خالد في الحبس، والحبس ليس بدائم. ويقولون: فلان خالد خلود الجبال، ومعلوم أن الجبال ينسفها ربي نسفًا فيذرها قاعًا صفصفًا.

وهذا -أيضًا- جواب سهل لا يحتاج إلى تعب، فنقول: إن الله عَزَّوَجَلَّ لم يذكر التأبيد، لم يقل: خالدًا فيها أبدًا، بل قال: ﴿خَٰلِدٗا فِيهَا﴾، والمعنى: أنه ماكث مكثًا طويلًا.

الوجه السادس: أن يقال: إن هذا من باب الوعيد، والوعيد يجوز إخلافه؛ لأنه انتقال من العدل إلى الكرم، والانتقال من العدل إلى الكرم كرم وثناء، وأنشدوا عليه قول الشاعر:

وإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ ... لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُ مَوْعِدِي

أوعدته بالعقوبة، ووعدته بالثواب، لمخلف إيعادي ومنجز موعدي.

وأنت إذا قلت لابنك: والله، إن ذهبت إلى السوق، لأضربنك بهذا العصا. ثم ذهب إلى السوق، فلما رجع، ضربته بيدك، فهذا العقاب أهون على ابنك، فإذا توعد الله عَزَّوَجَلَّ القاتل بهذا الوعيد، ثم عفا عنه؛ فهذا كرم.

ولكن هذا في الحقيقة فيه شيء من النظر؛ لأننا نقول: إنْ نفذ الوعيد، فالإشكال باقٍ، وإن لم ينفذ، فلا فائدة منه.

هذه ستة أوجه في الجواب عن الآية، وأقربها الخامس، ثم الرابع» اهـ.

فهذه الآية أفادت إثبات صفة السخط والرضا، وأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يسخط ويرضىٰ حقيقةً كما يليق بجلاله وعظمته، فيجب إثبات ذلك علىٰ الوجه اللائق بجلاله وعظمته، هذا قول أهل السنة والجماعة، وكل ما ورد في الكتاب والسنة يجب إثباته علىٰ الوجه اللائق بجلاله وعظمته، والباب كله واحد.

وفي هذه الآية إثبات العلل والأسباب، وأن الأعمال الصالحة سببٌ للسعادة، والأعمال السيئة سببٌ للشقاوة، وفيها الرد علىٰ من زعم أنه لا ارتباط بين العمل والجزاء. انتهىٰ.

وفيها -أيضًا- ذم من أحب ما كرهه الله أو كره ما أحبه، فالواجب علىٰ كل مؤمنٍ أن يحب ما أحبه الله محبةً توجب الإتيان بما وجب عليه منه، فإن زادت المحبة حتىٰ أتىٰ بما ندب إليه منه كان ذلك فضل، وأن يكره ما كرهه الله كراهةً توجب له الكف عما حرَّم الله عليه منه، فإن زادت الكراهة حتىٰ أوجبت الكف عما كرهه تنزيهًا كان ذلك فضلًا، وقد ثبت في «الصحيحين» عنه صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: **«لا يؤمنُ أحدُكم حتىٰ أكونَ أحبَّ إليه من نفسه وولَدِه ووالِده والناسِ أجمعين»**(١).

فلا يكون العبد مؤمنًا حتىٰ يقدم محبة الرسول علىٰ محبة جميع الخلق، ومحبة الرسول تابعةٌ لمحبة مرسله، والمحبة الصحيحة تقتضي المتابعة والموافقة في حب المحبوبات وبغض المكروهات، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ

---

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤] الآية، انتهىٰ من كلام ابن رجب(١).

⊙ **قوله:** «﴿ءَاسَفُونَا﴾»؛ أي: أغضبونا، وأسِف لها معنيان: تأتي بمعنىٰ غضب كهذه الآية، وتأتي بمعنىٰ حزن، كقوله سبحانه عن يعقوب أنه قال: ﴿يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] الآية.

⊙ **قوله:** «﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾»؛ أي: عاقبهم -سبحانه- بالغرق وغيره من العقوبات، والانتقامُ: هو أن يبلغ في العقوبة حدها، ومن أسمائه سبحانه المنتقم، كما جاء في حديث أبي هريرة الذي رواه الترمذي في «جامعه» في عدد الأسماء الحسنىٰ، ومعناه: المبالغ في العقوبة لمن يشاء.

وقال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المنتقم ليس من أسماء الله الحسنىٰ الثابتة عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما جاء في القرآن مقيدًا كقوله سبحانه: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [السجدة: ٢٢]، **وقوله:** ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران: ٤]، والحديث الذي في عدد الأسماء الحسنىٰ يذكر فيها (المنتقم) ليس هو عند أهل المعرفة بالحديث من كلام النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل هذا ذكره الوليد بن مسلم عن بعض شيوخه؛ ولهذا لم يورده أحد من أهل الكتب المشهورة إلا الترمذي»(٢). انتهىٰ.

---

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم» (٢/ ٣٩٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٩٦).

⊙ **قوله:** «﴿كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾»؛ أي: أبغض خروجهم معكم إلىٰ الغزو.

⊙ **قوله:** «﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾»؛ أي: كسلهم، والتثبيط: رد الإنسان عن الشيء الذي يفعله، أي: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كسلهم عن الخروج للغزو قضاءً وقدرًا وإن كان قد أمرهم بالغزو وأقدرهم عليه، ولكن ما أراد إعانتهم بل خذلهم وثَبَّطَهم لحكمة يعلمها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

⊙ **قوله:** «﴿كَبُرَ﴾»؛ أي: عَظُمَ.

⊙ **قوله:** «﴿مَقْتًا﴾»: منصوبٌ علىٰ التمييز، والمقت أشدُّ البُغض.

وفي الآية الحث علىٰ الوفاء بالعهد، والنهي الأكيد عن الخُلف في الوعد وغيره، وبها استدل بعض العلماء علىٰ أنه يجب الوفاء بالوعد مطلقًا، سواء ترتب عليه عزمٌ للموعود أم لا، واحتجوا بما ثبت في «الصحيحين» أن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**آيةُ المُنافق ثلاثٌ: إذا حدَّث كَذَب، وإذا وَعَدَ أَخلَفَ، وإذا أؤتُمِن خان**»(١).

وفيها دليلٌ علىٰ إثبات صفة البغض لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما يليق بجلاله وعظمته، وفيه دليلٌ علىٰ أن بغضه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يتفاوت، فبعضه أشد من بعض كما في الحديث: «**إنَّ ربِّي قد غَضِب اليومَ غضبًا لم يَغضَبْ قَبْله مِثلَه ولن يَغضَبَ بَعده مِثلَه**»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣)، ومسلم (٥٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٣٥)، ومسلم (١٩٤)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفيه دليلٌ علىٰ أن الشخص قد يكون عدوًا لله ثم يصير وليًّا، ويكون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يبغضه ثم يحبه، وهذا مذهب الفقهاء والعامة، وهو قول المعتزلة والكرامية والحنفية قاطبة، والمالكية والشافعية والحنابلة، وعلىٰ هذا يدل القرآن، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وقوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] وغيرها من الآيات والأحاديث. انتهىٰ ملخصًا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ-(١).

فهذه الآيات المتقدمة دليلٌ علىٰ صفة الغضب والرضا، والولاية والحب، والبغض والسخط والكراهة ونحو ذلك، وهذا مذهب السلف الصالح وسائر الأئمة يثبتون جميع ما في الكتاب والسنة علىٰ المعنىٰ اللائق به، كما يقولون ذلك في السمع والبصر والعلم والكلام وسائر الصفات، وقد تقدم ذلك(٢).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ٥٨٢).

(٢) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٣٧٥-٣٨١):

«إذا تبين ذلك فإن أهل السنة والجماعة يعتقدون أن ما وصف الله عَزَّوَجَلَّ به نفسه، يجب إثباته لله عَزَّوَجَلَّ سواء أكان ذلك من الصفات الذاتية أم من الصفات الفعلية، وكذلك إذا كان من الصفات اللازمة أم من الصفات الاختيارية.

وقول الجهمية والمعتزلة في تفسير تلك الصفات بأنها مخلوقات منفصلة هو قولٌ باطل؛ لأن في هذا نفيًا للصفة، والله عَزَّوَجَلَّ أثبت لنفسه تلك الصفات. ثم إن في سبب نفيهم لتلك الصفات أن الجهمية الذين أصلوا أصول البدع في نفي الصفات وتأويلها وجحدها وتحريفها أصلوا أصلًا ألا وهو: أن الله عَزَّوَجَلَّ ليس متصفًا إلا بصفة واحدة ألا وهي صفة الوجود. هذا قول الجهمية، والصفات =

الأخرىٰ يقولون: هذه إذا أثبتت لزم منها حلول الأعراض فيمن اتصف بها.

وإذا قيل بجواز حلول الأعراض فيمن اتصف بها لزم منه أن يكون من حلَّت به جسمًا. وهذا قولٌ باطل. فقدموا لهذا بمقدمة باطلة نتج عنها نتائج باطلة، ثم أولوا النصوص.

وهذا أصل عند الجهمية، وهو الذي به انحرف المعتزلة، وانحرف الكلابية، وانحرف الأشعرية والماتريدية، وكل فرق الضلال في باب الصفات.

ما هذا الأصل؟ هو ما يسميه أهل العلم بـ«حلول الأعراض»، ولا بأس أن نعرِّجَ عليه بقليل من الإيضاح؛ لأن بفهمه يُفْهم لماذا نفىٰ الجهمية الصفات؟ ولماذا نفىٰ المعتزلة الصفات، ولماذا نفىٰ الكلابية والأشعرية والماتريدية الصفات لماذا نفوها؟

الجواب: نفوها لهذا الأصل ألا وهو القول بأن إثبات وجود الله عَزَّوَجَلَّ لا يكون إلا عن طريق دليل حدوث الأعراض.

فإن جهم بن صفوان قد تحير في ربه لما قال له طائفة من السُّمنية من أهل الهند من التناسخية الذين لا يقولون بإله ولا برب خالق ولا بمعبود لهم- قالوا له: أثبت لنا أن هذه الأشياء مخلوقة وأن لها خالقًا، فتفكَّر مدة من الزمن، ولأن أولئك لا يقرون بالقرآن اضطر إلىٰ أن يحتج عليهم بالدليل العقلي.

ما هذا الدليل العقلي الذي قال به جهم؟ قال: لدينا أعراض لا يمكن أن تقوم بنفسها؛ يعني: لا يمكن أن نراها ليس لها هيئة، ما هذه الأعراض؟ قال: مثل اللون، والحرارة، والبرودة، والحركة، هذه أشياء لا تُرىٰ، فالحركة من حيث هي حركة لا تُرىٰ، والمشي من حيث هو لا يُرىٰ، وكذلك ارتفاع الشيء؛ يعني: علوه وهبوطه لا يرىٰ، فليس ثم شيء اسمه علو يُرىٰ مجسَّمًا، ولا شيء اسمه مشي يُرىٰ وحده، مثل ما يُرىٰ البناء، ويُرىٰ الجبل.

هذه المعاني سماها أعراضًا، وقال -وهو يُخاطب أولئك السمنية الضالين-: هذه المعاني لا يمكن أن تقوم بنفسها. قالوا: صحيح. قال لهم: إذًا إذا حلت بشيء فهذا الشيء إذًا احتاج لغيره، فليس ثَم جسم إلا وفيه أعراض فلا يقوم الجسم إلا بالأعراض، فليس ثم جسم بلا حرارة ولا برودة، فقال: حلول الأعراض في هذا الجسم معناه أن الجسم محتاج إليها، وما دام

أن الجسم محتاج فهو ليس مستقلًّا بإيجاد نفسه؛ لأن المحتاج إلىٰ غيره في بعض وجوده فبالأولىٰ يكون محتاجًا إلىٰ غيره في أصل الوجود؛ يعني: لو كانت الأجسام أوجدت نفسها لكان يمكن أن يستغني عن هذه الأعراض.

فإثبات هذه الأجسام وأنها لا يمكن أن توجد بنفسها كان عن طريق إثبات حلول الأعراض فيها، والأعراض لا يمكن أن تقوم بنفسها، فكذلك الأجسام لا يمكن أن تقوم بنفسها، إذًا فالجسم محتاج إلىٰ غيره في وجوده.

قالوا: فلابد من موجد له. قالوا: هذا صحيح. فأثبت لهم أن الأشياء لابد لها من موجد، ثم قال لهم: هذا الموجد هو الله تعالىٰ، هو الرب عَزَّوَجَلَّ، هو الخالق الذي أوجد هذه الأشياء من العدم، فسلموا له بوجود الله عَزَّوَجَلَّ، ثم قالوا له: صف لنا هذا الرب؟ فلما أراد الوصف نظر في الأوصاف التي في القرآن، فكلما أراد أن يصف بوصف وجد أن إثبات هذا الوصف ينقض الدليل الذي أقامه ولم يجد غيره علىٰ وجود الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإذا أثبت أن الله عَزَّوَجَلَّ متصف بالصفات الذاتية، مثل: اليدين والوجه، وغير ذلك من الصفات التي يقولون: إنها لا تقوم بنفسها، وأن من حلت به فهو جسم مثل الأجسام، محتاج إلىٰ غيره. وكذلك الصفات مثل الغضب والرضا والعلو، ونحو ذلك من الصفات من باب أولىٰ.

هذا الأصل الذي قعَّده جهم -عامله الله بما يستحق- أضل الأمة؛ لأن كل من أتىٰ بعده من المبتدعة قال: لا يوجد دليل علىٰ إثبات وجود الله لمن لا يؤمن بكتاب ولا بسنة ولا رسالة إلا هذا الدليل وهو دليل حلول الأعراض في الأجسام. وإذا كان كذلك، فكل ما ينقض هذا الدليل فلا بد من نفيه أو تأويله. فكان جهم هو أول من أصَّل هذا وقال: ليس لله صفة إلا صفة واحدة هي الوجود المطلق، ما دام أنه خالق فلابد أن يكون موجودًا.

وهذه الصفات التي في الكتاب والسنة ماذا يقول فيها؟ قال: هذه كلها مخلوقات منفصلة. فالسميع يعني المسموعات، والبصير يعني المبصرات، وهكذا في كل الصفات سواء الذاتية أو الفعلية أو الاختيارية أولها بمخلوقات منفصلة.

ثم أتت المعتزلة بعده وقالوا: هناك صفات عقلية؛ يعني: الدليل الذي أقامه جهم صحيح.

وقولُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٠]. ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢١، ٢٢]. ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥].

=

وقالوا: هو دليل عقلي، والعقل الصحيح لا يطعن في العقل الصحيح أو العقل الصريح لا يطعن في العقل الصريح.

ماذا تريدون أيها المعتزلة؟ قالوا: نريد أن نقول: إنه ثَم صفات عقلية دل العقل علىٰ أن الخالق لابد أن يكون متصفًا بها؛ فأثبتوا ثلاث صفات دل عليها العقل.

ثم أتىٰ الكلابية أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب، وكان لهم ميل إلىٰ أهل الحديث، لكنهم وجدوا أن أهل الحديث لم يقيموا دليلًا عقليًّا علىٰ وجود الله، وكذلك السلف لم يقيموا دليلًا عقليًّا كما يزعمون، فأخذوا بطريقة خلطوا فيها بين طريقة الجهمية وطريقة أهل الحديث؛ فأثبتوا مع التأويل سبع صفات عقلية، مثلما قال المعتزلة: العقل الصريح لا يناقض العقل الصريح وقالوا: هي ليست ثلاث صفات بل هي سبع.

وتبعهم علىٰ ذلك الأشعرية، والماتريدية وزادوا صفة ثامنة هي صفة «التكوين»، وقالوا: هي ثمان صفات، وليست سبعًا وكلها صفات عقلية.

المقصود من هذا: أن تفهم حينما يقول أحد من أئمة السلف عن بعض من يؤول الصفات: إن فلانًا جهمي -ولو كان أشعريًّا- فإن بعض الناس يستعظم هذا ويقول: لماذا يقولون عن فلان الذي أوَّل صفة: إنه جهمي؟

الجواب عن ذلك: أنه ما أوَّل الصفات إلا وقد رضي أصل الجهمية الذي من أجله أوَّل، فهو تبعهم في تأصيل ما يُثْبَت أو ما يُنْفَىٰ من صفات الله عَزَّوَجَلَّ، من حيث التأصيل.

نعم. قد يكون خالفهم في البعض، لكن من حيث التأصيل رضي بتلك الطريقة» اهـ.

وَقَوْلُهُ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧]. ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]. وَقَوْلُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤﴾ [القمر: ١٣، ١٤]. ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ۝٣٩﴾ [طه: ٣٩].

الشَّرح

⊙ **قوله:** «﴿هَلْ﴾»: حرف استفهام.

⊙ **قوله:** «﴿يَنظُرُونَ﴾»: أي: ينتظر الكفار، يقال: نظرته وانتظر به، معنى واحد، إلا إذا عُدِّي بـ«إلى» أو ذكر الوجه، فمعناه النظر، أو عدي بـ«في» معناه التفكر والاعتبار.

⊙ **قوله:** «﴿إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾»: أي: لفصل القضاء بينهم يوم القيامة، فيجزي كل عامل بعمله إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

⊙ **قوله:** «﴿فِى ظُلَلٍ﴾»: جمع ظُلَّة، والظلة: ما أظلك وسترك.

⊙ **قوله:** «﴿مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾»: أي: السحاب الأبيض الرقيق، سمي غمامًا؛ لأنه يغم، أي: يستر.

⊙ **قوله:** «﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾»: أي: والملائكة يجيئون في ظلل من الغمام، ففيه إثبات مجيء الملائكة يوم القيامة؛ لأنهم يحيطون بالإنس والجن، ثم ينزل الله -سبحانه- لفصل القضاء بينهم.

⊙ **قوله:** «﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾»: أي: تم أمر هلاكهم.

⊙ **قوله:** «﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ۝٢١٠﴾»: أي: تصير أمور العباد إلىٰ الله في الآخرة.

قال محمد بن جرير: حيث ذكر إتيان الملائكة فهو محتملٌ لإتيانهم لقبض الأرواح، ويحتمل أن يكون نزولهم لعذاب الكفار وإهلاكهم، وإما إتيان الرب فهو يوم القيامة لفصل الخطاب(١).

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: «نزوله سبحانه إلىٰ الأرض يوم القيامة تواترت به الأحاديث والآثار، ودل عليه القرآن صريحًا كما في هذه الآيات»(٢). انتهىٰ(٣).

---

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة» (ص٤٤٧).

(٢) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٤٦٦).

(٣) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٢٧٥):**

«﴿يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ﴾: و﴿فِي﴾ هنا بمعنىٰ «مع»، فهي للمصاحبة، وليس للظرفية قطعًا؛ لأنها لو كانت للظرفية، لكانت الظلل محيطة بالله، ومعلوم أن الله تعالىٰ واسع عليم، ولا يحيط به شيء من مخلوقاته.

فـ﴿فِي ظُلَلٖ﴾؛ أي: مع الظلل، فإن الله عند نزوله عَزَّوَجَلَّ للفصل بين عباده ﴿تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ
=

⊙ **قوله:** «﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾»؛ أي: لقبض أرواحهم.

⊙ **قوله:** «﴿أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ﴾»: أي: يوم القيامة لفصل القضاء بين العباد.

⊙ **قوله:** «﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾»: وهو طلوع الشمس من مغربها، وطلوعها من مغربها هو أحد أشراط الساعة الكبار، وإذا طلعت من مغربها أُغلق باب التوبة، وإذا رآها الناس طلعت من مغربها آمنوا أجمعون، ولكن لا يُقبل لأحدهم توبةٌ ما لم يكن آمن من قبل، ذلك كما في «الصحيحين» وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تقومُ الساعةُ حتىٰ تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبها، فإذا طَلَعَتْ ورَآها الناسُ آمنوا أَجمَعون، فذاك حين لا يَنفع نفسًا إيمانُها لم تكن آمَنَت مِن قَبلُ**»(١).

⊙ **قوله:** «﴿كَلَّآ﴾»: هي حرف ردعٍ وزجر.

⊙ **قوله:** «﴿دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾»: أي: زلزلت حتىٰ ينهدم كل بناء عليها وينعدم.

⊙ **قوله:** «﴿دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾»: أي: دكًّا بعد دك، أي: كرر الدك عليها حتىٰ عادت هباءً منبثًّا.

⊙ **قوله:** «﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾»: أي: لفصل القضاء بين عباده.

⊙ **قوله:** «﴿وَٱلْمَلَكُ﴾»: أي: جنس الملائكة.

=

﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾: غمام أبيض، ظلل عظيمة؛ لمجيء الله عَزَّوَجَلَّ» اهـ.

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥٩)، ومسلم (١٥٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

⊙ **قوله:** «﴿صَفًّا صَفًّا ٢٢﴾»: أي: يصفون صفًّا بعد صف قد أحدقوا بالجن والإنس، كما روي أن الملائكة كلهم يكونون صفوفًا حول الأرض.

⊙ **قوله:** «﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ ﴾»: المراد باليوم: يوم القيامة، وتشقق السماء، أي: انفطارها.

⊙ **قوله:** «﴿بِٱلْغَمَٰمِ﴾»: أي: يخرج منها الغمام وهو السحاب الأبيض، وحينئذٍ تنزل الملائكة إلىٰ الأرض فيحيطون بالخلائق في مقام المحشر، ثم يجيء الرب لفصل القضاء بين عباده، فهذه الآيات أفادت إثبات المجيء والنزول والإتيان لله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ كما يليق بجلاله وعظمته، وهذه من صفاته -سبحانه- الفعلية فيجب إثبات جميع الصفات الواردة في الكتاب والسنة كما أثبتها الله -سبحانه- لنفسه وأثبتها رسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير تحريفٍ ولا تعطيل، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيل.

ودلت هذه الآيات -أيضًا- علىٰ نزوله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وإتيانه ومجيئه ونحو ذلك من أفعاله أنه حقيقةً كما يليق بجلاله وعظمته؛ إذ الأصل الحقيقة، ولا صارف عن ذلك خلافًا لأهل البدع، ودلت علىٰ أنه نزولٌ وإتيانٌ ومجيءٌ بذاته سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ كما يليق بجلاله وعظمته، خلافًا لأهل البدع الذين ينفون ذلك ويؤولون مجيئه بمجيء أمره، ونزوله بنزول رحمته أو بعض ملائكته ونحو ذلك، ويقولون: هذا مجاز حذفٍ، والتقدير في: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، أي: أمره، وينزل ربنا، أي: أمره أو بعض ملائكته أو رحمته ونحو ذلك من التأويلات الفاسدة، ولا شك في بطلان هذه التأويلات ومصادمتها أدلة الكتاب والسنة

الصريحة وما عليه أهل السنة والجماعة.

قال ابن القيم - رحمه الله تعالىٰ - في «الصواعق المرسلة»: ومما ادعوا فيه المجاز قوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، قالوا: هذا مجاز الحذف، تقديره: وجاء أمر ربك، وهذا باطلٌ من وجوه:

أحدها: أنه إضمار ما لا يدل عليه اللفظ بمطابقة ولا تضمن ولا لزوم، وادعاء حذفٍ بلا دليلٍ يَرْجِعُ لِوُثُوقِهِ(١) من الخطاب(٢)، وساق وجوهًا عديدة في إبطال دعواهم المجاز، وساق الأدلة الكثيرة الصريحة الدالة علىٰ أنه مجيء حقيقةً بذاته سبحانه. اهـ.

والإتيان والمجيء المضاف إليه سبحانه نوعان: مطلقٌ، ومقيد، فإذا كان مجيء رحمته أو عذابه ونحو ذلك قيِّد بذلك، كما في الحديث: «حتَّىٰ جاء الله بالرَّحمَة والخَير»(٣)، وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢].

النوع الثاني: الإتيان والمجيء المطلق، فهذا لا يكون إلا مَجيئَه سبحانه، كقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]. انتهىٰ من «الصواعق» ملخصًا(٤).

---

(١) جاءت «برفع الوثوق» بالأصل، والصواب ما أثبتناه من المصدر المذكور.

(٢) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٣٥٧).

(٣) لم أقف عليه.

(٤) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٤٤٨).

وأفادت هذه الآيات إثبات أفعاله -سبحانه- الاختيارية، فالإتيان، والنزول، والمجيء، والاستواء، والارتفاع، والصعود؛ كلها أنواع أفعاله، وهو فعالٌ لما يريد، وأفعاله كصفاته قائمةٌ به سبحانه، ولولا ذلك لم يكن فعَّالًا ولا موصوفًا بصفات كماله.

وأفعاله سبحانه نوعان: لازمةٌ، ومتعدية، كما دلت النصوص -التي هي أكثر من أن تحصر- علىٰ إثبات النوعين، وأنها حقيقةٌ ليست بمجاز، وليست كأفعال المخلوق، فصفاته سبحانه تليق به، أما المبتدعة فإنهم نفوا أفعاله فزعموا أنها مجاز، فوقعوا في محذورين: محذور التشبيه، ومحذور التعطيل. انتهىٰ من كلام شيخ الإسلام(١).

وفي هذه الآيات دليلٌ علىٰ إثبات علو الله علىٰ خلقه؛ لأنه لا يمكن أن تأتي إلا من جهة العلو، وذكره ابن القيم أحدَ الطرق في إثبات العلو.

⊙ **قوله**: «﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾»: أي: كل من علىٰ الأرض يعدم ويموت ويبقىٰ وجهه سبحانه، قال الشعبي رحمه الله: «إذا قرأت قوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمن: ٢٦] فلا تسكت حتىٰ تقرأ قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧]»، وهذا من فقههم في القرآن وكمال علمهم؛ إذ المقصود الإخبار بفناء من عليها مع بقاء وجهه، فإن الآية سيقت لبيان

---

(١) لم أقف عليه بنصه من كلام ابن تيمية رحمه الله، لكنه موجود من كلام ابن القيم، انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٤٤٩).

تَمَدُّحِه سبحانه بالبقاء وحده، ومجرد فناء الخليقة ليس فيه مدحٌ، إنما المدح في بقائه سبحانه بعد فناء خلقه، فهي نظير قوله سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. انتهىٰ من كلام ابن القيم(١).

⊙ **قوله**: «﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾»: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾: فيه إثبات صفة الوجه لله، وهو من الصفات الذاتية؛ كالسمع والبصر واليدين وغير ذلك من الصفات، فعلىٰ العباد الإيمانُ بها والتسليم، واعتقاد أنها حقيقةٌ تليق بجلال الله وعظمته، وعلىٰ هذا مضىٰ الصحابة والتابعون والأئمة.

⊙ **قوله**: «﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾»: أي: ذو العظمة والكبرياء.

⊙ **قوله**: «﴿وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾»: أي: المُكْرِم لأنبيائه وعباده الصالحين، وقيل: ذو الجلال أي: هو المستحق لأنْ يُجلَّ ولأن يُكرَم، والإجلال يتضمن التعظيم، والإكرام يتضمن الحمد والمحبة، وقد قال بعض السلف: «لا يهدين أحدكم لله ما يستحي أحدكم أن يهديه لكريمه، فإن الله أكرم الكرماء»، أي: هو أحق من كل شيء بالإكرام؛ إذ كان أكرم من كل شيء، وقال أيضًا: وإذا كان مستحقًّا للإجلال والإكرام لزم أن يكون متصفًا في نفسه بما يوجب ذلك، كما إذا قال: الإله هو المستحق لأن يُؤلَه -أي: يُعبَد- كان هو في نفسه مستحقًّا لما يوجب ذلك، والإجلال من جنس التعظيم، والإكرام من جنس الحب والحمد، وهذا كقوله: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ [التغابن: ١]، فله الإجلال وله الإكرام

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٣٤٣).

والحمد. انتهىٰ من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية(١).

⊙ **قوله**: «﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾»: أي: أن جميع أهل الأرض وأهل السماء سيموتون ويذهبون إلا من شاء الله، ولا يبقىٰ إلا وجهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والمستثنىٰ من الهلاك والفناء ثمانية، نظمها السيوطي بقوله:

ثمانية حكم البقاء يعمها ... من الخلق والباقون في حيز العدم

هي العرش والكرسي نارٌ وجنةٌ ... وعَجْبٌ وأرواحٌ كذا اللوح والقلم

وأما قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦﴾ [الرحمن: ٢٦] فإن المراد: كل شيءٍ كتب عليه الفناء والهلاك هالكٌ، والجنة والنار خلقتا للبقاء، وكذا العرش فإنه سقف الجنة، والكرسي، إلىٰ آخرها، فإن عموم ﴿كُلُّ﴾ في كل مقام بحسبه، ويعرف ذلك بالقرائن؛ كقوله: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٥] و﴿مَسَاكِنُهُمْ﴾ شيء لم تدخل في عموم كل شيءٍ؛ لأن المراد: تدمر كل شيءٍ يقبل التدمير بالريح عادةً، وكقوله عن بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، فالمراد: من كل شيء يحتاج إليه الملوك، وهذا القيد يفهم من قرائن الكلام؛ إذ المراد أنها مَلكةٌ تامَّةُ المُلك.

ففي هذه **الآيات** كغيرها من أدلة الكتاب والسنة: إثبات صفة الوجه لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما يليق بجلاله وعظمته، وإثبات أنه وجهٌ حقيقةً لا يشبه وجوه خلقه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] وهذا هو الذي عليه أهل السنة والجماعة

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ٣٢٠).

خلافًا للمبتدعة من الجهمية وأشباههم ممن نفىٰ الوجه وعطله وزعم أنه مجاز عن الذات أو الثواب أو الجهة أو غير ذلك، وهذه تأويلاتٌ باطلةٌ من وجوهٍ عديدة، منها: أنه فرّق بين الذات والوجه، وعَطْفُ أحدهما علىٰ الآخر يقتضي المغايرة، كما في حديث: «**إذا دخل أحدُكم المسجدَ قال: أعوذ بالله العظيمِ وبوَجْهِه الكريم**»(١).

ومنها: أنه أضاف الوجه إلىٰ الذات وأضاف النعت إلىٰ الوجه، ولو كان ذِكر الوجه صلة ولم يكن صفة للذات لقال: (ذِي)، فلما قال: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ﴾ [الرحمن: ٢٧] تبين أنه نعت للوجه، وأن الوجه صفةٌ للذات كما ذكر معنىٰ ذلك البيهقي والخطابي(٢)، وروىٰ مسلم في «صحيحه» حديث: «**إن اللهَ لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، حِجابُه النُّور لو كشَفه لأحرقتْ سُبُحات وَجهِه ما انتهىٰ إليه بصرُه من خلقه**»(٣).

ومنها: أن الوجه حيث ورد فإنما ورد مضافًا إلىٰ الذات في جميع موارده.

والمضاف إلىٰ الرب نوعان:

أعيانٌ قائمةٌ بنفسها: كـ(بيت الله، وناقة الله، وروح الله، وعبد الله)، فهذه إضافة تشريفٍ وتخصيصٍ، وهي إضافة مملوكٍ إلىٰ مالكه.

الثاني: صفاتٌ لا تقوم بنفسها؛ كـ(عِلم الله، وحياته، وقدرته، وسمعه، وبصره،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٦)، من حديث ابن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وصححه الألباني في «المشكاة» (٧٤٩).

(٢) انظر: «الأسماء والصفات» للبيهقي (٢/ ٨١ وما بعدها).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٩)، وأحمد (٤/ ٤٠٥)، وغيرهما من حديث أبي موسىٰ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ونوره)، فهذه إضافتها إليه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إضافة صفةٍ إلىٰ موصوف بها.

إذا عُرف ذلك؛ فإضافة السمع والبصر والوجه ونحو ذلك إضافة صفةٍ إلىٰ موصوف، لا إضافة مخلوقٍ إلىٰ خالقه، وفي «سنن أبي داود» عنه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه كان إذا دخل المسجد قال: «**أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وبسلطانه القديم من الشيطان الرجيم**»(١)، فتأمل كيف قرن بين الاستعاذة بالذات وبين الاستعاذة بوجهه الكريم، وهذا صريحٌ في إبطال قول من قال: إنه الذات نفسها، وقول من قال: إنه مخلوق؛ إذ الاستعاذة لا تجوز بمخلوقٍ، إلىٰ غير ذلك من الوجوه التي ذكرها ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ بـ«الصواعق»(٢) في إثبات الوجه صفةً لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأنه وجهٌ حقيقيٌّ يليق بجلاله وعظمته، وإبطال قول من زعم غير ذلك.

⊙ **قوله**: «﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾»: أي: يقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مخاطبًا لإبليس لما امتنع من السجود لآدم: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، أي: أنه سبحانه باشر خلقه بيده، كما في الحديث: «**لم يَخلُق اللهُ بيده إلا ثلاثًا: خلَق آدمَ بيده**»(٣) الحديث، ففيه إثبات اليدين لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وأنهما يدان حقيقةً لائقتان بجلاله وعظمته، وفيها: الرد علىٰ من زعم غير ذلك ممن صادم أدلة الكتاب والسنة واتبع هواه وعطَّل هذه الصفة، وزعم أن المراد باليد: القدرة أو النعمة

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٦)، من حديث ابن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وصححه الألباني في «المشكاة» (٧٤٩).

(٢) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٤١٢،٤١٣).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٣٩٥٧) موقوفًا علىٰ حكيم بن جابر.

كما تقوله الجهمية والمعتزلة وأشباههم، وهذا التأويل الذي زعموه تأويلٌ فاسدٌ مصادمٌ لأدلة الكتاب والسنة المتكاثرة الصريحة في إثبات اليدين صفة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلو كان المراد باليد: القدرة لوجب أن يكون له سبحانه قدرتان، وقد أجمع المسلمون علىٰ أنه لا يجوز أن يكون له قدرتان، وكذلك لا يجوز أن يقال: خلق آدم بنعمتين؛ لأن نعم الله علىٰ آدم وغيره لا تحصىٰ.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: «ورد لفظ (اليد) في الكتاب والسنة وكلام الصحابة والتابعين في أكثر من مئة موضع ورودًا متنوعًا متصرفًا فيه مقرونًا بما يدل علىٰ أنها يدٌ حقيقةً من الإمساك، والطي، والقبض، والبسط، والنضح باليد، والخلق باليدين، والمباشرة بهما، وكتب التوراة بيده، وغرس جنة عدن بيده.

⊙ **قوله**: «﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾»:

فقطع بالضرورة أن المراد يد الذات لا يد القدرة والنعمة، فإن السياق والتركيب لا يحتمله ألبتة»(١). انتهىٰ.

وقد ردَّ **ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ المبتدعة الذين عطلوا صفة اليد وزعموا أن المراد باليد: القدرة أو النعمة أو غير ذلك من التأويلات الفاسدة، من وجوهٍ عديدةٍ أنهاها إلىٰ عشرين وجهًا، وساق الأدلة الكثيرة الصريحة في إثبات اليد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حقيقةً كما يليق بجلاله وعظمته.

---

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٤٠٥).

⊙ **قوله:** «﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾»: قال ابن عباس: «المراد بُخْله». فالغلُّ كناية عن البخل.

⊙ **قوله:** «﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾»: أي: أُمسكت عن الخير.

⊙ **وقوله:** ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، أي: بالفضل والعطاء، فهذه الآية كسابقتها، فيها إثبات صفة اليدين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما يليق بجلاله وعظمته، فعلينا أن نثبت له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذلك كما أثبته لنفسه وكما أثبته له رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، وفي حديث عبد الله بن عمرو: «**أن اللهَ لم يُباشِر بيده أو لم يَخلق بيده، إلا ثلاثًا: خَلق آدمَ بيده، وغرَس جنَّةَ عَدن بيده، وكتب التوراةَ بيده**»(١).

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: «هل يصح في عقلٍ أو نقلٍ أو فطرةٍ أن يقال: لم يخلق بقدرته إلا ثلاثًا، أو لم يخلق بنعمته إلا ثلاثًا؟! وأيضًا، فلو كان المراد به هاهنا القدرة لبطل تخصيص آدم، فإنه وجميع المخلوقات حتىٰ إبليس مخلوقٌ بقدرته، فأي مَزِيَّة لآدم علىٰ إبليس في قوله: ﴿أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]»(٢). اهـ.

وقال البيهقي في كتاب «الأسماء والصفات»: باب: «ما جاء في إثبات اليدين صفتين لا من حيث الجارحة»؛ فذكر الآيات، ثم قال: «قال بعض أهل النظر: قد تكون اليد بمعنىٰ: القوة، كقوله: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧]، أي: ذو

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٣٩٥٧) موقوفًا علىٰ حكيم بن جابر.

(٢) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٣٩٣).

القوة، وبمعنى الملك والقدرة والنعمة وتكون صلة، أي: زائدة»، ثم أبطل البيهقي ذلك كله وأثبت أن اليدين صفتان تعلقتا بخلق آدم تشريفًا له دون إبليس تَعلُّق القدر بالمقدور، لا من طريق المباشرة، ولا من حيث المماسة، وليس لذلك التخصيص وجه غير ما بينه بقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥][(١)] اهـ.

⊙ **قوله:** «﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾»: الصبر لغةً: الحبس والمنع، وهو حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، وحبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب، وذكره ابن القيم -رحمه الله تعالى-، أفادت الآية وجوب الصبر، قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: «هو واجب بالإجماع»[(٢)]. انتهى.

وينقسم الصبر إلى ثلاثة أقسام:

صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

زاد الشيخ تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وصبر على الأهواء المضلة، والنوعان الأولان أفضل من الأخير، وهو الصبر على أقدار الله المؤلمة، صرح بذلك السلف، منهم: سعيد بن جبير، وميمون بن مهران، وغيرهما، والنوع الأول أفضل من النوع الثاني.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأفضل أنواع الصبر: الصيام؛ فإنه يجمع أنواع الصبر الثلاثة»[(٣)].

---

(١) انظر: «الأسماء والصفات» (١٧).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ١٣٠).

(٣) انظر: «جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم» (٢/ ٢٦).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب «المدارج»: «وتمام الصبر أن يكون كما قال الله: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢] الآيةَ، وأقواه أن يكون بالله معتمدًا عليه لا علىٰ نفسه ولا علىٰ غيره من الخلق». انتهىٰ.

وقد تكاثرت الأدلة علىٰ الحث علىٰ الصبر والترغيب فيه والثناء علىٰ أهله.

قال الإمام أحمد: «ذكر الله الصبر في تسعين موضعًا من كتابه»، وفي الآية إثبات صفة الحكم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وقد تقدمت الإشارة إلىٰ تقسيمه إلىٰ قسمين: حكم شرعيٍّ ديني، وحُكْم قدريٍّ كوني، فالشرعي متعلق بأمره، والكوني متعلق بخلقه، وهو سبحانه له الخلق والأمر، وحكمه الديني الطلبي نوعان بحسب المطلوب، فإن المطلوب إن كان محبوبًا له فالمطلوب فعله إما وجوبًا وإما استحبابًا، وإن كان مبغوضًا له فالمطلوب تركه إما تحريمًا وإما كراهة، وذلك -أيضًا- موقوفٌ علىٰ الصبر، فهذا حكمه الديني الشرعي، وأما حكمه الكوني وهو ما يقتضيه وما يقدره علىٰ العبد من المصائب التي لا صنع له فيها، ففرضه الصبر عليها، وفي وجوب الرضا بها قولان للعلماء، أصحهما: أنه مستحبٌّ، فرجع الدين كله إلىٰ هذه القواعد الثلاث: فعل المأمور، وترك المحظور، والصبر علىٰ المقدور. انتهىٰ من كلام ابن القيم(١).

⊙ **قوله**: «﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾»: أي: بمرأىٰ منا وتحت حفظنا وكلاءتنا، ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

---

(١) انظر: «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (٢٨).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا يتضمن الحراسة والكلاءة والحفظ للصابر لحكمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ»(١).

وفيها: معية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للصابر لحكمه سبحانه وحفظه، وفيها: إثبات فعل العبد حقيقةً. وأدلة ذلك أكثر من أن تحصر.

⊙ **قوله**: «﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾»؛ أي: نوح عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

⊙ **قوله**: «﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾»: أي: علىٰ سفينة ذات ألواح، المراد: خشب السفينة العريض.

⊙ **قوله**: «﴿وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾»: أي: المسامير التي تشد بها الألواح، يقال: دسرت السفينة إذا شددتها بالمسامير.

⊙ **قوله**: «﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾»: أي: بأمرنا بمرأىٰ منا تحت حفظنا وكلاءتنا؛ والنون للتعظيم.

⊙ **قوله**: «﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾»: أي: جزاءً لهم علىٰ كفرهم، وانتصارًا لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ عليهم.

⊙ **قوله**: «﴿وَأَلْقَيْتُ﴾»؛ أي: وصنعت ﴿عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾، أي: أن الله أحبه وحبَّبه إلىٰ خلقه.

⊙ **قوله**: «﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾»: أي: بمرأىٰ ومنظر مني، والمعنىٰ: أن الله أحب موسىٰ وحبَّبه إلىٰ خلقه وربَّاه بمرأىٰ منه سبحانه.

---

(١) انظر: «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (١١٣).

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: «والفرق بين قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ٣٩﴾ [طه: ٣٩]، وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]: أن الآية الأولىٰ وردت في إظهار أمرٍ كان خفيًّا وإبداء ما كان مكتومًا، فإن الأطفال -إذ ذاك- كانوا يتغذون ويُصنعون سرًّا، فلما أراد أن يُصنع موسىٰ ويُغذي ويُربي علىٰ حال أمن وظهور دخلت «علىٰ» في اللفظ تنبيهًا علىٰ المعنىٰ، لأنها تعطي الاستعلاء، والاستعلاء ظهورٌ وإبداء، فكأنه يقول: وتصنع علىٰ أمنٍ لا تحت خوف، وذكر العين لتضمنها معنىٰ الرعاية والكلاءة، وأما قوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾: فإنه يريد برعايةٍ منا وحفظٍ، ولا يريد إبداء شيءٍ ولا إظهاره بعد كتمٍ، فلم يحتج في الكلام إلىٰ معنىٰ (علىٰ) بخلاف ما تقدم»[1]. اهـ.

وفي هذه الآية الكريمة: إثبات محبة الله -سبحانه- لعبده موسىٰ، وتحبيبه لخلقه، وفيها: عناية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بعبده موسىٰ وتربيته علىٰ مرأىٰ منه، وهذه عنايةٌ خاصةٌ ومعيةٌ لعبده موسىٰ تقتضي حفظه وكلاءته وعنايته، وفي هذه الآيات: إثبات صفة العينين لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما يليق بجلاله وعظمته، فيجب علىٰ المؤمن أن يثبت لخالقه وبارئه ما أثبته لنفسه من العينين والسمع والبصر وغيرها، وغير المؤمن من ينفي عن الله ما أثبته في محكم تنزيله، وكذلك أثبته له رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

◇ ◇ ◇

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ [آل عمران: ١٨١]. ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠]، ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦]. وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ١٤]. ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩]، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

• الشَّرح •

⊙ **قوله**: «﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا ...﴾»: أي: تراجعك أيها النبي في شأن زوجها، وهي «خَولة بنت ثعلبة»، وزوجها «أوس بن الصامت»، وذلك حين ظاهر منها زوجها وقال لها: أنت عليَّ كظهر أمي، فأتت النبيَّ ﷺ فقال: «قَدْ حَرُمْتِ عَلَيْهِ» فقالت: إن لي صبيةً صغارًا؛ إن ضممتُهم إليَّ جاعوا، وإن ضممتُهم إليه ضاعوا، فقال: «قَدْ حَرُمْتِ عَلَيْهِ» فقالت: أشكو إلىٰ الله فاقتي وجَهدي، وكلما قال: «حَرُمْتِ عَلَيْهِ»؛ جعلت تهتف وتشكو(١).

⊙ **قوله**: «﴿وَتَشْتَكِيٓ﴾»: أي: تُظهر ما بها من المكروه.

⊙ **قوله**: «﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾»: أي: مراجعتكما الكلامَ، مِن: حار؛ إذا رجع.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٠٦٣)، والحاكم (٣٧٩١)، وأبو يعلىٰ (٤٧٨٠)، وغيرهم من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٦٧٨).

⊙ **قوله**: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝١﴾»: أي: أحاط سمعه بجميع المسموعات، وبصرُه بجميع المبصرات، فلا يخفىٰ عليه خافيةٌ، وكثيرًا ما يقرن -سبحانه- بين هذين الاسمين: «السميع» و«البصير»، فكل من السمع والبصر محيطٌ بجميع متعلقاته الظاهرة والباطنة، فالسميع: هو الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات، والبصير: هو الذي أحاط بصره بجميع المبصرات.

وفي هذه الآية الكريمة إثبات السمع لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه سميعٌ ويسمع، أحاط سمعه بجميع المسموعات، وكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات يسمعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ سواء السر والعلانية، قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادِلة تشتكي إلىٰ رسول الله وأنا في جانب الحجرة يخفىٰ عليَّ بعضُ كلامها، فأنزل الله قولَه: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١] الآية»(١).

وقال ابن القيم في «النونية»:

وهو السميع يرىٰ ويسمع كلَّ ما ... في الكَون من سرٍّ ومن إعلان
ولكل صوت منه سمعٌ حاضر ... فالسِّرُّ والإعلانُ مستويان
والسمع منه واسع الأصوات لا ... يخفىٰ عليه بُعيدها والداني

قال البيهقي في كتاب «الأسماء والصفات»: السميع الذي له سمع يدرك به المسموعات، والبصير من له بصر يدرك به المرئيات، ولكل منها في حق الباري صفةٌ

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا، كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝١٣٤﴾ [النساء: ١٣٤]، والنسائي (٣٤٦٠)، وغيرهما من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

قائمةٌ بذاته، وقد أفادت الأحاديث الردَّ على من زعم أنه سميعٌ بصيرٌ بمعنىٰ عليم، كما أخرج أبو داود بسندٍ قوي على شرط مسلم من حديث أبي هريرة قال: رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ إلىٰ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [النساء: ٥٨] ويضع إصبعيه، قال أبو يونس: وضع أبو هريرة إبهامَه علىٰ أذنه والتي تليها علىٰ عينه(١).

قال البيهقي: وأراد بهذه الإشارة تحقيقَ إثبات السمع والبصر لله ببيان محلها من الإنسان، يريد أن له سمعًا وبصرًا، لا أن المراد به العلم، فإنه لو كان المراد به العلم لأشار إلىٰ القلب؛ لأنه محل العلم، ولم يرد الجارحة؛ فإن الله منزهٌ عن مشابهة المخلوقين(٢).

ثم ذكر لحديث أبي هريرة شاهدًا من حديث عقبة بن عامر: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول على المنبر: «رَبُّنَا سَمِيعٌ بَصِيرٌ» وأشار إلىٰ عينيه(٣)، وسنده حسن.

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ»(٤). انتهىٰ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٨)، وابن حبان (٢٦٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «قصة المسيح» (ص٦٤).

(٢) انظر: «الأسماء والصفات» (١/ ٤٦٣).

(٣) أخرجه الطبراني (١٧/ ٢٨٢) من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٦٤)، وأحمد (٢/ ٢٨٤)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولا شك أن مَن سمِع وأبصر أدخَلُ في صفة الكمال ممن انفرد بأحدهما دون الآخر، فصح أن كونه سميعًا بصيرًا يفيد قدرًا زائدًا علىٰ كونه عليمًا، وكونه سميعًا بصيرًا يتضمن أنه يسمع بسمعٍ ويبصر ببصرٍ، كما تضمن كونه عليمًا يعلمُ أنه يعلم بعلمٍ، ولا فرق بين كونه سميعًا بصيرًا وبين كونه ذا سمع وبصر، وقالوا: هذا قول أهل السنة قاطبةً، ذكره في «فتح الباري»(١).

وفي هذه الآية وغيرها دليلٌ علىٰ ثبوت الأفعال الاختيارية لله وقيامها به، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝٢٩﴾ [الرحمن: ٢٩]، وقوله: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ١٠٥] الآية.

وفي هذه الآية الشكوىٰ إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأن الشكوىٰ إليه سبحانه لا تنافي الصبر كهذه الآية، وكشكاية يعقوب إلىٰ الله، وأما الشكوىٰ إلىٰ مخلوق فإنها تنافي الصبر، والشكوىٰ نوعان: شكوىٰ بلسان المقال، وشكوىٰ بلسان الحال، وفِعلها أعظم، وأما إخبار المخلوق بالحال فإن كان للاستعانة بإرشاده أو معاونته لم يقدح ذلك في الصبر؛ كإخبار الطبيب للمريض، وقد كان النبي إذا دخل علىٰ مريض يسأله عن حاله ويقول: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟»(٢). انتهىٰ من كلام ابن القيم بتصرف(٣).

---

(١) انظر: «فتح الباري» (١٣/ ٣٧٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٩٨٣)، وابن ماجه (٤٢٦١)، وعبد بن حميد (١٣٧٠)، وغيرهم من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «المشكاة» (١٦١٢).

(٣) انظر: «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (٢٧١).

⊙ **قوله:** «﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾ الآية»:

سبب نزول هذه الآية: أن اليهود حين سمعوا قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١١]، قالوا: إن إله محمد يستقرض منا، فنحن إذًا أغنياء وهو فقير.

⊙ **قوله:** «﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾»: أي: سنأمر الحفظة بكتابة ما قالوا في الصحائف.

أفادت هذه الآية كغيرها من الآيات والأحاديث إثبات صفة السمع لله كما يليق بجلاله، وفي قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٨١] تحذيرٌ وتخويفٌ، فإنه ليس المراد به مجرد الإخبار بالسمع، لكن المراد مع ذلك الإخبار بما يترتب علىٰ ذلك من المجازاة بالعدل، وأفادت إثبات وجود الحفظة وأنهم يكتبون ما يقال، وسيأتي الكلام علىٰ الحفظة(١).

⊙ **قوله:** «﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ...﴾»:

السِّر: هو حديث الإنسان بينه وبين نفسه أو غيره في خفية(٢).

والنجوىٰ: هو ما يتحدث به الإنسان مع رفيقه ويخفيه عن غيره(٣).

⊙ **قوله:** «﴿بَلَىٰ﴾»: أي: نسمع سرَّهم ونجواهم، فهو -سبحانه- السميع الذي

---

(١) انظر: (ص٣٤٦).

(٢) انظر: «الفروق اللغوية» لأبي هلال العسكري (ص٥٣٣).

(٣) انظر: «الصحاح» للجوهري (٦/ ٢٥٠١- ٢٥٠٣).

أحاط سمعه بجميع المسموعات.

⊙ **قوله:** «﴿وَرُسُلُنَا﴾»: أي: الملائكة الحفظة للأعمال ﴿لَدَيْهِمْ﴾ أي: عندهم.

⊙ **قوله:** «﴿يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾»: أي: يكتبون ما يقولون وما يفعلون.

فهذه الآية فيها تحذيرٌ وتخويفٌ، فإن طريقة القرآن بذكر العلم والقدرة تهديدًا وتخويفًا لترتُّب الجزاء عليها كهذه الآية، وقوله: ﴿اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ١٠٥] الآية، وليس المراد مجرد الإخبار بالقدرة والعلم، لكن الإخبار مع ذلك بما يترتب عليهما مع الجزاء بالعدل. انتهىٰ من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية(١).

وفي هذه الآية دليلٌ علىٰ إثبات صفة السمع وإحاطته إحاطةً تامة بكل مسموع، وفيها دليلٌ علىٰ وجود الملائكة الحفظة، وأنهم يكتبون كل ما قال العبد أو فعل أو نوىٰ أو همَّ به؛ لأن النية فعل القلب، فدخلت في عموم قوله: ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٢]، ويشهد لذلك قوله ﷺ: «**إذا همَّ عبدي بسَيِّئة فلا تكتبوها عليه فإن عَمِلها فاكتبوها عليه، وإذا همَّ عبدي بحسَنة فلم يعملها فاكتبوها له حَسَنةً وإن عملها فاكتبوها له عشرًا**»(٢).

ويجب الإيمان بالحفظة، والأدلة علىٰ إثبات وجودهم من الكتاب والسنة كثيرة، قال تعالىٰ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ

---

(١) لم أقف عليه من كلام ابن تيمية رحمه الله؛ لكنه موجود بنصه من كلام ابن القيم، انظر: «التبيان في أقسام القرآن» (٤٠).

(٢) أخرجه مسلم (١٢٨)، والترمذي (٣٠٧٣)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢].

قال علماؤنا -منهم ابن حَمدان[(١)]- في «نهاية المبتدئين»: الرقيب والعتيد ملكان موكلان بالعبد، يجب أن نؤمن بهما ونصدق بأنهما يكتبان أفعاله، واستدل بالآيتين المذكورتين، قال: ولا يفارقان العبد بحال، وقيل: بل عند الخلاء، وقال

(١) ترجم له الزركلي في «أعلامه» (١/ ١١٩) فقال: «ابن حَمْدَان (٦٠٣ - ٦٩٥هـ = ١٢٠٦ - ١٢٩٥ م) أحمد بن حمدان بن شبيب بن حمدان النميري الحرَّاني، أبو عبد الله: فقيه حنبلي أديب. ولد ونشأ بحران، ورحل إلىٰ حلب ودمشق، وولي نيابة القضاء في القاهرة، فسكنها وأسنَّ وكف بصره وتوفي بها. من كتبه (الرعاية الكبرىٰ - خ) منه نسخة كتبت سنة ٧٠٦ هـ في شستربتي (٣٥٤١)، و(الرعاية الصغرىٰ) كلاهما في الفقه، و(صفة المفتي والمستفتي - ط)، و(مقدمة في أصول الدين)، و(جامع الفنون وسلوة المحزون - خ) أدب» اهـ.
والمقدمة المذكورة هي «نهاية المبتدئين في أصول الدين علىٰ مذهب الإمام أحمد بن حنبل»، وقد طبعت «النهاية» في مكتبة الرشد - الرياض (١٤٢٥هـ) الطبعة الأولىٰ بتحقيق الشيخ ناصر بن سعود بن عبد الله السلامة في ٨٤ صفحة، وقال في تقديمه (ص٥): «هذه العقيدة في مجملها عقيدة سلفية إلا في بعض المواضع، فقد خالف فيها عقيدة السلف، وقد بينت في حاشية الكتاب ما خالف فيه عقيدة السلف مع بيان الصحيح عند السلف بإيجاز...» اهـ.
وقد اعتمد في تحقيقه للكتاب علىٰ نسخة فريدة في جامعة برنستون أمريكا مجموع (٨٤٦٦) تبدأ من ورقة ١٢٨ إلىٰ ١٤٨، عدد أسطر كل ورقة ٢٥ سطرًا، وقد ألحقت صورًا مرفقة لغلاف المطبوع وأوراقًا من المخطوط للفائدة، والله الموفق.
انظر عن (أحمد بن حمدان) في: «تاريخ حوادث الزمان» (١/ ٣٢٣، ٣٢٤ رقم ١٨٤)، و«المستدرك من كتاب العبر» (١/ ٥٥٢)، و«الذيل علىٰ طبقات الحنابلة» (٤/ ٢٦٦)، و«مختصر الذيل» (٨٧)، و«المنهج الأحمد» (٤٠٥)، و«عيون التواريخ» (٢٣/ ٢١٩)، و«الوافي بالوفيات» (٦/ ٣٦٠ رقم ٢٨٦٣).

الحسن: إن الملائكة يجتنبون الإنسان علىٰ حالين: عند غائطه وعند جماعه. ومفارقتهما للمكلَّف حينئذٍ لا يمنع من كتابتهما ما يصدر منه في تلك الحال؛ كالاعتقاد القلبي يجعل الله لهما أمارة علىٰ ذلك.

⊙ **قوله:** «﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: ٤٦]»: **أي:** يقول سبحانه لكليمه موسىٰ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ وأخيه هارون: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾، أي: بحفظي ونصري وكلاءتي وتأييدي.

⊙ **قوله:** «﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾»: أي أسمع كلامكما وكلامه، وأرىٰ مكانكما ومكانه، ولا يخفىٰ عليَّ شيءٌ من أمركم، فأنا معكما بحفظي ونصري، وهذه المعية الخاصة التي تقتضي الحفظ والنصر والتأييد والإعانة؛ **كقوله:** ﴿كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء: ٦٢]، وقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: **«ما ظَنُّك باثنين الله ثالِثُهما؟! لا تَحزَنْ إنَّ اللهَ معنا»**(١).

والمعية تنقسم إلىٰ قسمين: معية خاصة، ومعية عامة.

فالعامة: هي معية العلم والإحاطة؛ كقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ [الحديد: ٤].

والثانية: وهي المعية الخاصة، وهي معية القرب، كما تقدم؛ **كقوله:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل: ١٢٨].

والفرق بينهما: أنها إذا جاءت المعية في سياق المحاسبة والمجازاة والتخويف

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٣)، ومسلم (٢٣٨١)، وغيرهما من حديث أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

فهي عامةٌ، وإذا أتت في سياق مدحٍ أو ثناءٍ فهي معيةٌ خاصة، وكلا المعيتين منه - سبحانه- مصاحبة للعبد، لكن هذه مصاحبة اطلاعٍ وإحاطة، وهذه مصاحبة موالاةٍ ونصرٍ وحفظٍ، فـ«مع» في لغة العرب للصحبة اللائقة لا تُشعر بامتزاج ولا اختلاط ولا مجاورة ولا مجانبة؛ كقوله سبحانه: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩] وتقول: زوجتي معي.

وهذه المعية لا تنافي علو الله علىٰ عرشه، فإن قربه ومعيته ليست كقرب الأجسام بعضها من بعض، ليس كمثله شيء؛ كما قال مالك: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول».

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا شأن ما وصف الله به نفسه، فلو قال في قوله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦] كيف يسمع وكيف يرىٰ؟ لقلنا: السمع والرؤية معلومٌ، والكيف مجهولٌ، ولو قال: كيف يتكلم؟ لقلنا: الكلام معلومٌ، والكيف مجهولٌ»(١).

⊙ **قوله**: «﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾»: أي: ما علم هذا الناهي عن الهدىٰ أن الله يراه ويسمع كلامه وسيجازيه علىٰ فعله أتم الجزاء، وهذا وعيد.

⊙ **قوله**: «﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ﴾»؛ أي: يبصرك وينظر إليك لا تخفىٰ عليه خافية، فتوكل عليه فإنه سيحفظك وينصرك ويُعِزُّك، وتضمن ذلك الوعد بالإثابة علىٰ ذلك أتم الثواب.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٣/ ٣١٠).

⊙ **وقوله:** «﴿حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾»: أي: يراك حين تقوم للصلاة وغيرها، ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء: ٢١٩]، أي: يرىٰ تقلبك في الساجدين من قيامٍ وقعودٍ وركوعٍ وسجودٍ، ففيه فضيلة صلاة الجماعة، استُفيد من هذه الآيات إثبات صفة السمع والبصر، وإثبات علمه المحيط، واستُفيد منه -كما تقدم- الإشارة إلىٰ فضيلة السمع علىٰ البصر لتقديمه عليه.

⊙ **قوله:** «﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟﴾»؛ أي: قل يا محمد لهؤلاء المنافقين: اعملوا ما شئتم واستمروا علىٰ باطلكم ولا تحسبوا أن ذلك سيخفىٰ عليه، وهذا وعيدٌ شديدٌ لمن خالف أوامره.

⊙ **قوله:** «﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾»: الآية، أي: سيظهر أعمالكم للناس في الدنيا، وهذا وعيدٌ للمخالف أوامره بأن أعمالهم ستعرض عليه وعلىٰ الرسول وعلىٰ المؤمنين، وهذا كائنٌ لا محالة يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحاقة: ١٨]، وقال: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق: ٩]، وقد يُظهر الله ذلك للناس في الدنيا، كما روىٰ الإمام أحمد عن أبي سعيد مرفوعًا: «**لو أنَّ أحدَكم يعملُ في صَخرة ليس لها بابٌ ولا مَنفذ لأخرج اللهُ عمَله للناس كائنًا ما كان**»(١)، وقد ورد أن أعمال الأحياء تعرض علىٰ الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ.

ففي هذه الآية إثبات الكلام، وفيها دليلٌ علىٰ ثبوت الأفعال الاختيارية للرب

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٨)، وابن حبان (٥٦٧٨)، والحاكم (٧٨٧٧)، وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٧٩٩).

وقيامها به، وأدلة ذلك كثيرة تزيد علىٰ الألف، كما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالىٰ.

وقال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية في كتاب «الرد علىٰ المنطقيين»(١): قوله: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: لنرىٰ أو لنَمِيز، وهكذا قال عامة المفسرين: إلَّا لنَرىٰ ونَميز.

وكذا قال جماعة من أهل العلم، قالوا: لنعلمه موجودًا واقعًا بعد أن كان قد علم أنه سيكون، ولفظ بعضهم قال: العلم علىٰ منزلتين: علم بالشيء قبل وجوده، وعلم به بعد وجوده، والحكم للعلم به بعد وجوده؛ لأنه يوجب الثواب والعقاب.

قال: فمعنىٰ قوله: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾، أي: لنعلم العلم الذي يستحق به العامل الثواب والعقاب، ولا ريب أنه كان عالمًا سبحانه بأنه سيكون؛ لكن لم يكن المعلوم قد وُجد، والقرآن قد أخبر أنه سبحانه يعلم ما سيكون في غير موضع، وأخبر بما أخبر به من ذلك قبل أن يكون، وقد أخبر بعلمه المتقدم علىٰ وجوده، ثم لما خلقه علمه كائنًا مع علمه الذي تقدم أن سيكون، فهذا هو الكمال، وقد ذكر الله علمه بما سيكون بعد أن يكون في بضع عشرة آية من القرآن؛ كقوله سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ﴾ [البقرة: ١٤٣] مع إخباره في مواضع كثيرة من أنه يعلم ما سيكون قبل أن يكون.

وفي هذه الآيات دليلٌ واضحٌ علىٰ أن الله موصوفٌ بصفات الكمال من العلم

---

(١) انظر: «الرد علىٰ المنطقيين» (٤٦٦).

والقدرة، والإرادة والحياة والكلام، والسمع والبصر، والوجه واليدين، والغضب والرضا، والفرح والضحك، والرحمة والحكمة، وبالأفعال؛ كالمجيء، والإتيان، والنزول إلىٰ سماء الدنيا ونحو ذلك، والعلم بمجيء ذلك عن الرسول ﷺ ضروريٌّ، وإخباره به ضروريٌّ فوق العلم بوجوب الصلاة والزكاة وتحريم الفواحش، وفرض علىٰ الأمة تصديقه فرضًا لا يتم أصل الإيمان إلا به، خلافًا للجهمية والمعتزلة وأشباههم.

وفي هذه الآيات -أيضًا- إشارة إلىٰ أنه ينبغي للعبد أن يعبد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ علىٰ استحضار قربه واطلاعه، وأنه بين يديه، وذلك يوجب للعبد الخشية والخوف والهيبة والتعظيم، ويوجب النصح في العبادة، وهذا هو مقام الإحسان كما في حديث عمر: «**الإحسانُ أن تَعبُدَ اللهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١)، وقد دل القرآن علىٰ هذا المعنىٰ في مواضع كثيرةٍ، وكذلك وردت أحاديث صحيحه بالندب إلىٰ استحضار هذا القرب في حال العبادات؛ كقوله ﷺ: «**إذا قام أحدُكم يصلي فإنه يناجي ربَّه**»(٢). انتهىٰ من كلام ابن رجب بتصرف(٣).

◈ ◈ ◈

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٧)، ومسلم (٥٥١)، وغيرهما من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: «جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم» (١/ ١٣٠).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد: ١٣]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل: ٥٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]، وقَوْلُهُ: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء: ١٤٩]، ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وَقَوْلُهُ عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: ٨٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمن: ٧٨].

الشرح

⊙ **قوله:** «﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾»: أي: شديدٌ مُماحَلَتُهُ في عقوبة من طغىٰ عليه وعتىٰ وتمادىٰ في كفره، وعن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ أي: شديد الأخذ، ورُوي: شديد القوة.

قال النَّسفي في «تفسيره»: «والمعنىٰ: أنه شديد المكر والكيد لأعدائه، يأتيهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون»(١). انتهىٰ.

⊙ **قوله:** «﴿وَمَكَرُوا﴾»؛ أي: كفار بني إسرائيل حين أرادوا قتل عيسىٰ وصلبه، والمكر: فعل شيء يراد به ضده.

---

(١) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ١٤٧).

⊙ **قوله:** «﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾»: أي: جازاهم علىٰ مكرهم بأن رفع عيسىٰ إلىٰ السماء، وألقىٰ شبهه علىٰ من أراد اغتياله حتىٰ قُتل، كما روي ذلك.

⊙ **قوله:** «﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾»: أي: أقوىٰ المجازين وأقدرهم علىٰ العقاب من حيث لا يشعر المعاقب. انتهىٰ. «نسفي»(١).

⊙ **قوله:** «﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا﴾»؛ أي: دبروا أمرهم علىٰ قتل صالحٍ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأهله علىٰ وجه الخفية حتىٰ من قومهم؛ خوفًا من أوليائه.

⊙ **قوله:** «﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾»: أي: بنصر نبينا صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وإهلاك قومه المكذبين، وقال تعالىٰ: **﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾** [الأعراف: ٩٩].

هذه الآيات فيها التحذير من الأمن من مكر الله، قال الحسن -رحمه الله تعالىٰ-: «من وسَّع اللهُ عليه فلا يرىٰ أنه يمكر به فلا رَأْيَ له»، وفي الحديث: «**إذا رأيتَ اللهَ يُعطي العبدَ علىٰ مَعاصِيه ما يحبُّ فاعلم أنما هو استدراج**»(٢)؛ رواه أحمد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وهذا هو تفسير المكر في قول بعض السلف: يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه، ويُملي لهم، ثم يأخذهم أخذَ عزيزٍ مقتدر، وهذا معنىٰ المكر والخديعة ونحو ذلك، ذكره ابن جرير بمعناه. انتهىٰ من «فتح المجيد»(٣).

---

(١) انظر: «تفسير النسفي» (١/ ٢٥٨).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥)، والطبراني في «الأوسط» (٩٢٧٢)، وغيرهما من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦١).

(٣) انظر: «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» (٣٥٩).

⊙ **قوله:** «﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥﴾»: أي: أن كفار قريش يكيدون كيدًا، وكيدهم هو ما دبروه في شأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الإضرار به وإبطال أمره.

⊙ **قوله:** «﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾»: أي: أجازيهم على كيدهم، والكيد استدراجهم كما في الآية: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢﴾ [الأعراف: ١٨٢].

قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده، وكيده سبحانه: استدراجهم من حيث لا يعلمون والإملاء لهم حتى يأخذهم على غِرَّة، فإذا فعل ذلك أعداء الله بأوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسنًا لا قُبحَ فيه، فيعطيهم ويعافيهم ويستدرجهم من حيث لا يعلمون. انتهى بتصرف(١).

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: المكر ينقسم إلى قسمين: محمود، ومذموم. فإن حقيقته إظهار أمرٍ وإخفاء خلافه ليتوصل إلى مراده، فمن المحمود مكره سبحانه بأهل المكر مقابلةً لهم بفعلهم وجزاءً لهم من جنس عملهم، قال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠]، وكذلك الكيد ينقسم إلى نوعين، قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝٤٥﴾ [القلم: ٤٥]، **وقوله:** ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦]، وكذلك الخداع ينقسم إلى محمودٍ ومذموم، فإن كان بحقٍّ فهو محمود، وإن كان بباطل فهو مذموم(٢). انتهى.

---

(١) انظر: «التبيان في أقسام القرآن» (١٠٧).

(٢) انظر: «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٣٨٨).

وهذه التفاسير المتقدمة للمكر والكيد والخداع ونحو ذلك ليست من باب التأويل الذي ينكره أهل السنة والجماعة، بل من باب التفسير، فإن جميع الصحابة والتابعين يصفون الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بأنه شديد القوة، وكذلك شديد المكر، وشديد الأخذ، كما وصف الله -سبحانه- نفسه بذلك في غير آية من كتابه؛ كقوله: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾ [الرعد: ٦]، فيمرُّون هذه الآيات على ظواهرها ويعرفون معناها؛ ولكن لا يكيِّفونها ولا يشبهونها بصفات المخلوقين، وهذا مجمعٌ عليه بين أهل السنة. انتهىٰ ملخصًا من رد الشيخ عبد الله بن محمد علىٰ الزيدية.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الصواعق»: والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لم يصف نفسه بالكيد والمكر والخداع والاستهزاء مطلقًا، ولا ذلك داخلٌ في أسمائه الحسنىٰ(١).

فإن هذه الأفعال ليست ممدوحةً؛ بل تُمدح في موضعٍ وتُذم في موضعٍ، فلا يجوز إطلاق أفعالها علىٰ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مطلقًا، فلا يقال: إن الله يمكر ويخادع ويستهزئ، فكذلك بطريق الأولىٰ أن لا يُشتق له منها أسماءٌ يسمىٰ بها، بل إذا كان لم يأت في أسمائه الحسنىٰ المريد ولا المتكلم ولا الفاعل ولا الصانع؛ لأن مسمياتها تنقسم إلىٰ ممدوحٍ ومذموم، فكيف يكون منها الماكر والمخادع والمستهزئ؟! وهذا لا يقوله مسلم ولا عاقل، والمقصود: أن الله لم يصف نفسه بالمكر والكيد والخداع إلا علىٰ وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق، وقد عُلم أن المجازاة حسنة من

---

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٣٠٦).

المخلوق، فكيف من الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟!

⊙ **قوله:** «﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا﴾»؛ أي: تُظهروه.

⊙ **قوله:** «﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾»: أي: فتعملوا سرًّا، وهذا عامٌّ شاملٌ لكل خبَرٍ قولي أو فعليٍّ ظاهر أو باطن.

⊙ **قوله:** «﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾»: أي: تتجاوزوا عمن أساء إليكم في أنفسكم أو أموالكم أو غير ذلك، فالعفو هو التجاوز عن الذنب والصفح عنه، فعفا تأتي في اللغة لمعانٍ:

الأول: عفا عن الذنب، أي: صفح عنه، وعفا: أسقط حقه، كما قال تعالىٰ: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، أي: يسقطوا حقوقهم، وعفا القوم، أي: كثروا، ومنه ﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ [الأعراف: ٩٥] أي: كثروا، وعفا المنزل، أي: انطمس، ومنه قول حسان:

عفــت ذات الأصــابع فــالجواء إلــىٰ عــذراءَ منزلهــا خــلاءُ

أي: وزال أهلها وانطمست.

⊙ **قوله:** «﴿عَفُوًّا﴾»: معناه: ذو العفو، وهو ترك المؤاخذة علىٰ ارتكاب الذنب، وهو أبلغ من المغفرة، فإنها مشتقة من الغفر وهو الستر، والعفو: إزالة الأثر، ومنه عفت الديار.

قال ابن القيم في «النونية»:

وهــو العفــو فعفــوه وســع الــورىٰ لــولاه غــار الأرض بالســكان

⊙ **قوله:** «﴿قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾»: أي: قادرًا علىٰ كل شيء.

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: فمن جعل شيئًا من الأعمال خارجًا عن قدرته ومشيئته فقد ألحد في أسمائه وآياته بخلاف ما عليه القدرية(١). انتهىٰ.

⊙ **قوله**: «﴿وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْ...﴾»: العفو: الستر والتجاوز، والصفح: الإعراض، مشتق من صفحة العنق، وهو أن يعرض عن عقاب المذنب وعتابه وكأنه ولَّاه صفحة عنقه، وهو أبلغ من العفو؛ لأن الصفح لا لوم فيه ولا تثريب.

هذه الآية نزلت في شأن أبي بكر الصديق حين حلف أن لا ينفق علىٰ مِسطحٍ ابن خالته؛ لخوضه في أمر عائشة، وكان مسكينًا بدريًّا مهاجرًا، فلما تلاها النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ أبي بكر قال: «بلىٰ أحب أن يغفر الله لي»، وردَّ علىٰ مسطح نفقتَه(٢).

⊙ **قوله**: «﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾»: غفور، أي: كثير المغفرة، وقد تقدم الكلام علىٰ ذلك. في هذه الآيات وَصْفُه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بالعفو والغفور، وفيها: الحث علىٰ الصفح والعفو ومكارم الأخلاق ومعالي الأمور، وفيها: أن ما ذكر سببٌ للمغفرة.

وفيها دليلٌ علىٰ أن الجزاء من جنس العمل، والأدلة علىٰ ذلك في الكتاب والسنة كثيرة، وفيها: حلم الله -سبحانه- وكرمه ولطفه بعباده مع ظلمهم لأنفسهم، وفيها: إثبات فعل العبد وأنه فاعلٌ حقيقة، والرد علىٰ المُجبِرة الذين يزعمون أن العبد

---

(١) انظر: «مجموعة الرسائل والمسائل» (٥/ ٣٠).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ١٢٧).

لا فعل له وإنما يُنسب إليه الفعل علىٰ جهة المجاز، ولو كان الأمر كما يزعمون لم يؤمر بما ذكر ولم ينسب إليه الفعل ولم يعاقب علىٰ سوء، وقولهم باطلٌ ترده أدلة الكتاب والسنة، بل الفطرة والعقل، وطرده يختل به النظام ولا يمكن أن تعيش عليه أمةٌ أبدًا.

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: ثم ختم الآية بصفتين من صفاته سبحانه مناسبتين لما تضمنته، فقال: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢]، ففيه إشارةٌ إلىٰ أن كل اسم يناسب ما ذكر معه واقترن به من فعله وأمره سبحانه، وفيها: أن أسماء الرب مشتقةٌ من أوصاف ومعانٍ قامت به سبحانه، فهي أسماءٌ وهي أوصافٌ وبذلك كانت حسنىٰ؛ إذ لو كانت ألفاظًا لا معاني لها لم تكن حسنىٰ، ولا كانت دالة علىٰ المدح ولا الكمال، ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام أسماء الرحمة والإحسان، فيقال: اللهم إني ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت المنتقم؛ ونحو ذلك، ونفي معاني أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من أعظم الإلحاد فيها(١). انتهىٰ(٢).

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٥٢)، و« التفسير القيم لابن القيم» (٣٢).

(٢) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٤٧٠، ٤٧١):**

«فإن الله عَزَّوَجَلَّ من أسمائه العفو، ومن أسمائه الغافر والغفار والغفور، ومن أسمائه عَزَّوَجَلَّ التواب. وهذه تختلف، ليس معناها واحدًا، بخلاف من قال: إن معنىٰ العفو والمغفرة واحد. هذا ليس بصحيح بل الجهة تختلف والمعنىٰ فيه نوع اختلاف مع أن بينهما اشتراكًا.

فالعفو: هو عدم المؤاخذة بالجريرة، فقد يسيء وسيئته توجب العقوبة، فإذا لم يؤاخذ صارت عدم مؤاخذته بذلك عفوًا، وأما المغفرة فهي ستر الذنوب، أو ستر أثر الذنوب. وهذا جهة =

⊙ **قوله**: «﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ﴾»: يعني: الغلبة والقدرة، فمن يُرِد العزةَ فليطلبها بطاعة الله وطاعة رسوله، فالعزة والعلو إنما هما لأهل الإيمان، **قال تعالىٰ**: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩]، فللعبد من العلو بحسب ما معه من الإيمان، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فله من العزة بحسب ما معه من الإيمان وحقائقه، فإذا فاته حظه من العلو والعزة ففي مقابلة ما فاته من حقائق الإيمان علمًا وعملًا، ظاهرًا وباطنًا.

فالمؤمن عزيزٌ عالٍ مؤيدٌ منصورٌ مكفيٌّ مدفوعٌ عنه بالذات أين كان، ولو اجتمع عليه مَن بأقطارها إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته، فمن نقص إيمانه نقص نصيبه من النصر والتأييد بحسب ما نقص من إيمانه، انتهىٰ من كلام شيخ الإسلام بتصرف(١).

وفي هذه الآية إثبات العزة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الكاملة من جميع الوجوه، قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ [إبراهيم: ٤](٢)والعزة في الأصل: القوة

=

أخرىٰ غير تلك؛ لأن تلك فيها المعاقبة أو ترك المعاقبة علىٰ الفعل، وهذه فيها الستر دون تَعَرُّضٍ للعقوبة. والتواب: هو «الذي يقبل التوبة عن عباده» ومعنىٰ ذلك أنه يمحو الذنب ولا يؤاخذ بالسيئات إذا تاب العبد وأتىٰ بالأسباب التي تمحو عنه السيئات. فهذه ثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنىٰ لكل اسم دلالته غير ما يدل عليه الاسم الآخر» اهـ.

(١) لم أقف عليه من كلام شيخ الإسلام؛ لكنه موجود بنصه من كلام ابن القيم، انظر: «إغاثة اللهفان» (٢/ ٩٢٧).

(٢) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٤٧٦):

«هذا قول أهل السنة جميعًا، يثبتون هذه الصفات التي يتصف الله عَزَّوَجَلَّ بها. والعزة صفة

=

والغلبة والشدة، تقول: عزَّ يَعِز -بكسر العين- إذ صار عزيزًا، وعَز يَعَز -بالفتح- إذا اشتد وقوي، ومنه أرض عزاز، أي: صلبة، وعز يعُز -بالضم- إذا غلب وقهر، فلاسمه العزيز سبحانه ثلاثة معانٍ:

الأول: بمعنىٰ الممتنع الجَناب عن أن يصل إليه ضررٌ أو يلحقه نقصٌ أو عيب، كقوله: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝٢٠﴾ [إبراهيم: ٢٠].

الثاني: بمعنىٰ القوة، كقولهم: «مَن عَزَّ بَزَّ»(١).

الثالث: بمعنىٰ غلبة الغير وقهره، ومنه: ﴿وَعَزَّنِي فِي ٱلْخِطَابِ ۝٢٣﴾ [ص: ٢٣]، أي: غلبني.

وكل هذه المعاني ثابتةٌ له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بمقتضىٰ اسمه «العزيز»، كما قال:

=

ذاتية لم يزل الله عَزَّوَجَلَّ عزيزًا، وهو عَزَّوَجَلَّ علىٰ ما كان عليه من العزة، وهي وصف ذاتي له عَزَّوَجَلَّ لا ينفك عنه، وأما العفو والمغفرة فهي صفات فعلية اختيارية إن شاء عفا وإن شاء لم يعفُ، وإن شاء غفر وإن شاء لم يغفر، فهي من الصفات الاختيارية المتعلقة بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ وقدرته.

أما المبتدعة فإنهم علىٰ طريقتهم في ذلك، فأهل الاعتزال يفسرون العفو والمغفرة وغير ذلك من صفات الفعل بأثرها، وأما الأشاعرة والماتريدية ونحوهم فإنهم يؤولونها، فيجعلون المغفرة إرادة كذا، ويجعلون العفو إرادة كذا، فيرجعون هذه الصفات إلىٰ الصفات السبع التي ثبتت عندهم بالعقل، وهذا علىٰ نظائره مما سبق أن مر معنا مرارًا، والذي فيه بيان طريقة المعتزلة والأشاعرة والماتريدية في نفي الصفات أو تأويلها» اهـ.

(١) مَنْ عَزَّ بَزَّ: هُوَ مَثَلٌ وَمَعْنَاهُ، كَمَا فِي «الْقَامُوسِ»: «مَنْ غَلَبَ سَلَبَ».

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية: ٣٧] فـ(أل) تفيد الاستغراق والشمول لجميع معاني العز.

قال ابن القيم في «النونية»:

وهو العزيز فلن يرام جنابُه ... أنىٰ يرام جناب ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم ... يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه ... فالعز حينئذٍ ثلاثُ معان
وهي التي كملت له سبحانه ... من كل وجه عادم النقصان

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه «المدراج»: فاسمه «العزيز» يتضمن كمال قدرته وقوته وقهره، وهذه العزة مستلزمةٌ للوحدانية؛ إذ الشركة تنقص كمال العزة[1]. انتهىٰ.

⊙ **قوله**: «﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾»: فيه دليلٌ علىٰ الحلف بعزة الله سبحانه، وكذا غيرها من صفاته، وفيه دليلٌ علىٰ أن صفات الله غير مخلوقة؛ إذ الحلف بالمخلوق شرك، وفيه إثبات العزة لله -سبحانه- ردًّا علىٰ من قال: عزيزٌ بلا عزة، كما قالوا: إنه عليمٌ بلا علم.

والعزة المضافة إليه -سبحانه- تنقسم إلىٰ قسمين:

قسمٌ يضاف إليه -سبحانه- من باب إضافة المخلوق إلىٰ خالقه، وهي العزة المخلوقة التي يعز بها أنبياءه وعباده الصالحين.

والثاني: يضاف إليه من باب إضافة الصفة إلىٰ الموصوف، كما في هذه الآية،

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٢٤٢).

وكما في الحديث: «أعوذُ بعِزَّة الله وقُدرَته مِن شَرِّ ما أجد وأحاذر»(١)(٢).

⊙ **قوله:** «﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨﴾»: أي: تعاظم، وهو فعلٌ ماضٍ لا يتصرف، وهو خاصٌّ بالله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ. والبركة لغةً: النماء والزيادة، والتبريك: الدعاء بذلك، قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: البركة نوعان:

أحدهما: بركةٌ هي فعله، والفعل منها بارك، والمفعول منها مبارك، وهو ما جعل فيها ذلك فكان مباركًا بجعله سبحانه.

والثاني: بركةٌ تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك؛ ولهذا لا يقال لغيره ذلك ولا يصلح إلا له سبحانه، فهو المبارِك ورسولُه مبارَك، كما قال المسيح: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، وأما صفته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ «تبارك» فمختصةٌ به سبحانه كما أطلقها علىٰ نفسه. انتهىٰ ملخصًا من «البدائع»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٠٢)، وابن حبان (٢٩٦٤)، وغيرهما من حديث عثمان بن أبي العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

(٢) قال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوىٰ» (٢٧/ ١٣٣): «وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ: أَسْأَلُك أَوْ أُقْسِمُ عَلَيْك بِحَقِّ مَلَائِكَتِك أَوْ بِحَقِّ أَنْبِيَائِك أَوْ بِنَبِيِّك فُلَانٍ أَوْ بِرَسُولِك فُلَانٍ أَوْ بِالْبَيْتِ الْحَرَامِ أَوْ بِزَمْزَمَ وَالْمَقَامِ أَوْ بِالطُّورِ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. فَهَذَا النَّوْعُ مِن الدُّعَاءِ لَمْ يُنْقَلْ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ وَلَا أَصْحَابِهِ وَلَا التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ، بَلْ قَدْ نَصَّ غَيْرُ وَاحِدٍ مِن الْعُلَمَاءِ -كَأَبِي حَنِيفَةَ وَأَصْحَابِهِ؛ كَأَبِي يُوسُفَ وَغَيْرِهِ مِن الْعُلَمَاءِ- عَلَىٰ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ مِثْلُ هَذَا الدُّعَاءِ، فَإِنَّهُ أَقْسَمَ عَلَىٰ اللهِ بِمَخْلُوقٍ، وَلَا يَصِحُّ الْقَسَمُ بِغَيْرِ اللهِ، وَإِنْ سَأَلَهُ بِهِ عَلَىٰ أَنَّهُ سَبَبٌ وَوَسِيلَةٌ إِلَىٰ قَضَاءِ حَاجَتِهِ» اهـ.

(٣) انظر: «بدائع الفوائد» (٢/ ١٨٥).

وَقَوْلُهُ: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]. ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١]، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [التغابن: ١]. وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ١، ٢]، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢]. ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل: ٧٤]. ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

الشرح

⊙ **قوله: «﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾»:** أي: أفرده بالعبادة ولا تعبد معه غيره، وهذا أمرٌ بإفراده سبحانه بالعبادة، ويتضمن النهي عن عبادة ما سواه، وعبادته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هي أعظم واجب، والإشراك به هو أعظم محرَّمٍ على الإطلاق، والعبادة لغةً: الذل، يقال: طريق مُعبَّد؛ إذا كان مُذلَّلًا قد وطئته الأقدام، كما قال الشاعر:

تُبـــاري عِتاقًـــا ناجيـــاتٍ وأَتْبعـــتْ وَظيفًـــا وظيفًـــا فـــوق مَـــوْرٍ مُعبَّـــدِ(١)

والعبادة شرعًا: ما أمر به شرعًا من غير اطرادٍ عُرفي ولا اقتضاءٍ عقلي، وعرفها الشيخ تقي الدين ابن تيمية -رحمه الله تعالىٰ- بقوله: العبادة: اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة؛ كالصلاة والصوم والحج ونحو ذلك(٢).

وفيها دليلٌ علىٰ أن العبادة تجب علىٰ كل مكلف، وأنه مهما بلغ فلن يصل إلىٰ حدٍّ تَسقط عنه التكاليف الشرعية، ومن زعم ذلك فهو كافرٌ بالله العظيم، فإن قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾ [مريم: ٦٥] خطاب لنبيه، وأمته تبع له، فإذا كان هذا حقه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فغيره من باب أولىٰ وأحرىٰ، وللعبادة شروطٌ لا تصح إلا بها:

الأول: الإخلاص، وهو أن يكون العمل لله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

الثاني: المتابعة، وهو أن يكون العمل علىٰ سنة رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، كما قال تعالىٰ: ﴿بَلَىٰ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ [البقرة: ١١٢]، فقوله: ﴿مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ﴾ إشارة إلىٰ الإخلاص، وقوله: ﴿وَهُوَ مُحۡسِنٞ﴾ إشارة إلىٰ المتابعة.

وقال الفضيل بن عياض في قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [هود: ٧] قال: أخلصه وأصوبه، قيل: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم

---

(١) البيت لطرفة بن العبد من معلَّقته، انظر: «شرح المعلقات السبع» للزَّوْزَني (ص٩٤).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ١٤٩).

يقبل، حتىٰ يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون علىٰ سنة رسول الله صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

وللعبادة ثلاثة أركان؛ وهي: المحبة، والخوف، والرجاء.

⊙ **قوله:** «﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾»: أي: وهل تعلم له مساميًا ومشابهًا ومماثلًا من المخلوقين؟! وهذا استفهامٌ بمعنىٰ النفي المعلوم بالعقل، أي: لا تعلم له مشابهًا؛ لأنه الرب وغيره المربوب، الغني من جميع الوجوه، وغيره الفقير، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقصٌ من جميع الوجوه، فهذا برهانٌ قاطعٌ علىٰ أنه هو المستحق للعبادة وأن عبادة غيره باطلة، وفي الآية دليلٌ علىٰ أنه لا مثل له ولا شبيه ولا نظير لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أسمائه ولا في أفعاله.

وهذا النفي متضمنٌ لإثبات جميع صفات الكمال علىٰ وجه الإجمال، وهذا هو المعقول في فطر الناس، فإذا قالوا: فلان لا مثل له ولا شبه له، فإنهم يريدون أنه تفرد في الصفات والأفعال والمجد فلا يلحقه في غيره، وفي الآية دليلٌ علىٰ إثبات الصفات لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كما يليق بجلال الله وعظمته، وفيه دليلٌ علىٰ كثرة الصفات وعظمتها، فلو كان المراد به نفي صفاته لكان ذلك وصفًا بغاية الذم، فإن النفي المحض عدم، والعدم لا يمدح به أحد، وإنما يكون النفي كمالًا إذا تضمن الإثبات؛ كقوله تعالىٰ: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: لكمال حياته وقيوميته.

وفيه دليلٌ علىٰ نفي المِثلية، فاتفاق اسم الخالق واسم المخلوق لا يقضي بتماثلهما، فصفات الخالق تناسبه وتليق بذاته، وصفات المخلوق تناسبه.

⊙ **قوله:** «﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿٤﴾ ﴾»: قد تقدم الكلام علىٰ ذلك[1].

⊙ **قوله:** «﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾»؛ أي: أمثالًا ونظراء تعبدونهم كعبادته وتساوونهم به في المحبة والتعظيم، فلا ندَّ له في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله ولا في عبادته، والند في اللغة: المِثل والنظير والشبيه، يقال: فلانٌ ندُّ فلان، أي: شبيهه ونظيره، كما قال حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أتهجوه ولست له بِنِدٍّ فشَرُّكما لخيركما الفداء

واتخاذ الند ينقسم إلىٰ قسمين: قسم من الشرك الأكبر؛ كاتخاذ ندٍّ يدعوه أو يرجوه، أو يخافه، أو يذبح له، أو ينذر له، ونحو ذلك، كما في «الصحيحين» عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: **«أنْ تَجعَلَ له ندًّا وهو خَلَقَكَ»**[2] الحديث.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الكافية الشافية»:

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أيـ ـيًا كَانَ مِنْ حَجَرٍ وَمِنْ إِنْسَانِ
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ويحبه كمحبة الرحمن

القسم الثاني: ما هو من نوع الشرك الأصغر؛ كقول الرجل: ما شاء الله وشئت،

---

(١) انظر: (ص١٩٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٠٧)، ومسلم (٨٦)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولولا الله وأنت لم يكن كذا، والحلف بغير الله، ونحو ذلك كما في حديث ابن عباس: أن رجلًا قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما شاء الله وشئت، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَجَعَلْتَنِي لله ندًّا؟! قل: ما شاء اللهُ وحده»[1] أخرجه النسائي وابن ماجه.

⊙ **قوله**: «﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾»: أي: أنه ربكم وخالقكم وخالق كل شيء، فهو المستحق للعبادة، فكيف تجعلون له أندادًا وقد علمتم أنه لا ند له يشاركه في فعله؟!

ففي هذه الآية الرد على جميع فرق الضلال، ففيه الرد على المشبهة الذين يشبهون الله بخلقه، والذين يشبهون خلقه به كعبدة الأوثان، وفيها الرد على القدرية الذين يزعمون: أن العبد يخلق فعل نفسه استقلالًا بدون مشيئة الله، فيكون شريكًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ونِدًّا، وفيها الرد على المعطلة[2] الذين نفوا صفات الله فرارًا من

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤)، والطبراني (١٢/ ٢٤٤)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٧٨٣)، وغيرهم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٩).

(٢) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية»** (١/ ٤٨٧-٤٨٨): «وكذلك المعطلة. ولفظ (المعطلة) اسم يشمل كل من عطل صفة أو صفات، قلَّت أو كثرت، فالجهمية معطلة، والمعتزلة معطلة، والماتريدية معطلة، والكلابية معطلة، والأشاعرة معطلة، وأهل الكلام معطلة، فإذا قيل: المعطلة، فيعنى بها هؤلاء جميعًا، وإذا قيل: المشبهة، فيعنى بها من مثَّل الله عَزَّوَجَلَّ ببعض خلقه، فيستعمل لفظ (المعطلة) إذا أريد جهة تعطيل الله عَزَّوَجَلَّ عن صفاته.

والأشاعرة درجات؛ فمنهم معتزلة الأشاعرة الذين يثبتون وينفون كما ينفي المعتزلة، ومعلوم أن أقرب تلك الفرق إلى السنة هم الأشاعرة، مع ما عندهم، لكنهم يخالفون أهل السنة
=

التشبيه؛ فشبهوه بالمعدومات والناقصات، وفيها دليلٌ علىٰ أن معرفة الله والإقرار به فطريٌّ ضروريٌّ فطر الله عليه العباد، كما في الحديث: «ما مِن مولودٍ إلا ويُولد علىٰ الفِطرة، فأبواه يُهَوِّدانه أو يُنصِّرانه أو يُمَجِّسانه»(١).

وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته حتىٰ يحتاج إلىٰ نظر تحصل به المعرفة، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [إبراهيم: ١٠]، أي: أيشك في الله حتىٰ يطلب إقامة الدليل علىٰ وجوده، وأي دليلٍ أصح وأظهر من هذا المدلول؟!

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سمعت شيخ الإسلام يقول: كيف يطلب الدليل علىٰ من هو دليلٌ علىٰ كل شيء؟! وكان كثيرًا يتمثل بهذا البيت:

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلىٰ دليل(٢)

وقد تكلم الشيخ ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ قول من قال: إن أول واجبٍ هو النظر أو

= والجماعة في الصفات والإيمان والقدر، وفي بعض مسائل الإمامة، وعندهم في هذه الأمور من مخالفة السنة، والبدع ما يوجب خروجهم عن مسمىٰ أهل السنة والجماعة، فهم من جملة الفرق الضالة التي قال فيها النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «افترقت اليهود علىٰ إحدىٰ وسبعين فرقة فواحدة في الجنة وسبعون في النار، وافترقت النصارىٰ علىٰ ثنتين وسبعين فرقة فإحدىٰ وسبعون في النار وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده لتفترقن أمتي علىٰ ثلاث وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة وثنتان وسبعون في النار»، قيل: يا رسول الله من هم؟ قال: «الجماعة»..» اهـ.

(١) أخرجه البخاري (١٢٩٣)، ومسلم (٢٦٥٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٨٣).

القصد إلىٰ النظر أو الشك، وبيَّن أنها كلها غلطٌ مخالفٌ للكتاب والسنة وإجماع السلف والأئمة، وباطلةٌ بالعقل أيضًا، وقرَّر هو وغيره أن أول واجب علىٰ العبد هو التوحيد، كما في حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين بعثه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ اليمن وقال: «**فلْيَكُن أوَّل ما تدعُوهم إليه: شَهادة أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ**»[١]، وفي رواية: «**إلىٰ أن يُوحِّدوا الله**»[٢]، وكذلك جميع الرسل أول ما يفتتحون دعوتهم بالدعوة إلىٰ التوحيد.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: أول من أنكر معرفة الله الفطرية هم أهل الكلام الذين اتفق السلف علىٰ ذمِّه من الجهمية والقدرية، وهم عند سلف الأمة من أجهل الطوائف وأضلهم[٣]. انتهىٰ.

وفيها الرد علىٰ من زعم: أن القرآن مخلوقٌ بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، ويزعم أن «جعل» بمعنىٰ: «خلق»، فردَّ أحمد عليهم بقوله سبحانه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، فليست جعل بمعنىٰ خلق هنا.

وفيها أنه سبحانه يحتج علىٰ المشركين بإقرارهم بتوحيد الربوبية علىٰ إثبات توحيد الألوهية. وفيها الاستدلال بهذه المخلوقات علىٰ وجوده سبحانه، فهي دليلٌ وآيةٌ علىٰ توحيد الله سبحانه، وإثبات أسمائه وصفاته وكماله وصدق رسله عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٢٥)، ومسلم (١٩) واللفظ له، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٦٩٣٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ٣٤٠).

ويروىٰ أنه سئل بعض الأعراب: ما الدليل علىٰ وجود الرب؟ فقال للسائل: يا سبحان الله! إن البعر ليدل علىٰ البعير، وإن أثر الأقدام ليدل علىٰ المسير، فسماءٌ ذات أبراج، وأرضٌ ذات فجاج، وبحارٌ ذات أمواج؛ ألا يدل ذلك علىٰ وجود اللطيف الخبير؟!(١).

⊙ **قوله:** «﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ...﴾»: **أي**: نظراءً وأمثالًا يساويهم بالله بالعبادة والمحبة والتعظيم، وهؤلاء لا يساوونهم بالله في الرزق والتدبير، وإنما يسوُّونهم بالله في المحبة، فيعبدونهم ليقربوهم إلىٰ الله زلفىٰ، فأخبر سبحانه أن من أحب مِن دون الله شيئًا كما يحب الله فهو ممن اتخذ من دون الله أندادًا، ففيها دليلٌ علىٰ أنه سبحانه لا ندَّ له، وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أندادًا له تسمية مجردة ولفظًا فارغًا من المعنىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ﴾ [الأنعام: ١٠٠] الآية.

والمذكور في الآية هو المحبة الشركية المستلزمة للخوف والتعظيم والإجلال والإيثار علىٰ مراد النفس، فمحبة الله سبحانه هي أصل دين الإسلام وبكمالها يكمل، فهي أعظم الفروض، فصرفها لغير الله شركٌ أكبر، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٧].

قال ابن القيم رحمه الله: فتوحيد المحبوب أن لا يتعدد محبوبه، أي: مع الله

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١/ ١٠٦).

بعبادته له، وتوحيد الحب أن لا يبقىٰ في القلب بقية حب حتىٰ يبذلها له[١].

⊙ وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] أي: من أصحاب الأنداد لأندادهم، فمحبة المؤمنين لربهم لا تساويها محبة، والمعنىٰ: والذين آمنوا أشد حبًّا لله من محبة أهل الأنداد لله؛ لأن محبة المؤمنين لله خالصة، ومحبة المشركين لله مشتركةٌ قد أخذت أندادهم قسطًا من محبتهم، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة.

ففي هذه الآيات أن من أشرك مع الله غيره في المحبة فقد جعله شريكًا لله واتخذ ندًّا لله، وأن ذلك هو الشرك الأكبر، فالمحبة تنقسم إلىٰ أقسامٍ كما ذكره ابن القيم رحمه الله وغيره[٢].

الأول: محبة الله سبحانه، ولا تكفي وحدها بالنجاة من النار والفوز بالجنة، فإن المشركين يحبون الله سبحانه.

الثاني: محبة ما يحبه الله، وهذه المحبة هي التي تُدخل في الإسلام، وتُخرج من الكفر، وأحب الناس إلىٰ الله أقومهم بهذه المحبة.

الثالث: المحبة في الله ولله، وهي فرضٌ؛ كمحبة أولياء الله، وبغض أعداء الله، وهي من مكملات محبة الله ومن لوازمها، فالمحبة التامة مستلزمةٌ لموافقة المحبوب في محبوبه ومكروهه، وولايته وعداوته، ومن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة، فلابد أن يبغض أعداء الله ويحب أولياءه.

---

(١) انظر: «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» (١٩٩).

(٢) انظر: «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٤/ ٢٤٩).

الرابع: المحبة مع الله، المحبة الشركية، وهي المستلزمة للخوف والتعظيم والإجلال، فهذه لا تصلح إلا لله سبحانه، ومتىٰ أحب العبد بها غير الله فقد أشرك الشرك الأكبر.

الخامس: المحبة الطبيعية، وهي ميل الإنسان إلىٰ ما يلائم طبعه، كمحبة المال والولد ونحو ذلك، فهذه المحبة لا تُذَمُّ إلا إن أشغلت وألهت عن طاعة الله، كما قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: ٩].

⊙ **قوله**: «﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ﴾»: «**ال**» للاستغراق والشمول، أي: الحمد كله لله، فهو المستحق للحمد لما اتصف به من صفات الكمال، والحمد: هو الثناء عليه -سبحانه- بما هو أهله، والثناء: هو ذكر الصفات الجميلة مرة بعد أخرىٰ، وأما النثاء بتقديم النون، فيكون في الخير والشر(١).

وأما المجد فهو ذكر صفات الجلال والعظمة، وأما الشكر فهو فعل ينبئ عن تعظيم المنعِم بسبب كونه منعمًا، وشرعًا: هو صرف العبد جميع ما أنعم الله لما خُلق لأجله.

والفرق بين الحمد والشكر: أن الشكر يكون باللسان والجنان والأركان، أما

---

(١) **الفرق بين الثناء والنثاء علىٰ ما قال بعضهم**: أن الثناء -بتقديم الثاء- يكون في الخير والشر، والنثاء -بتقديم النون- لا يكون إلا في الشر، والصحيح أن الثناء -وهو الأول- لا يكون إلا في الخير وربما استعمل في الشر، والنثاء -وهو الثاني- يكون في الخير والشر، انظر: «مجلة المقتبس» (عدد ٦٤/ ص٣).

الحمد فلا يكون إلا باللسان والجنان، وأيضًا، فإن الشكر لا يكون إلا في مقابلة نعمة، وأما الحمد فهو يكون في مقابلة نعمة وفي غير مقابلة نعمة.

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية: والحمد نوعان: حمدٌ علىٰ إحسانه إلىٰ عباده، وهو من الشكر، وحمدٌ لِما يستحقه من نعوت كماله، وإنما يستحق ذلك من هو متصف بصفات الكمال وهي أمور وجودية، فإن الأمور العدمية لا حمد فيها ولا خير ولا كمال، ومعلومٌ أن كل ما يحمد، فإنما يحمد علىٰ ما له من صفات الكمال، فكل ما يحمد به الخلق فهو من الخالق، فثبت أنه المستحق للمحامد كلها، وهو أحق بالحمد من كل محمود، وبالكمال من كل كامل(١). اهـ.

⊙ **قوله**: «﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾»: هذا ردٌّ علىٰ اليهود والنصارىٰ والمشركين، فإن النصارىٰ يقولون: المسيح ابن الله، واليهودَ يقولون: العُزير ابن الله، والمشركين يقولون: الملائكة بنات الله.

⊙ **قوله**: «﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾»: هذا ردٌّ علىٰ المجوس والمشركين والقدرية.

⊙ **قوله**: «﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾»؛ أي: ليس بذليلٍ فيحتاج إلىٰ أن يكون له وليٌّ أو وزيرٌ أو مشيرٌ؛ لأنه سبحانه عزيزٌ لا يفتقر إلىٰ وليٍّ يحميه ويمنعه من الذل، فنفىٰ الولاية علىٰ هذا المعنىٰ، لأنه غنيٌّ عنها، ولم ينف الولاية علىٰ وجه المحبة والكرامة لمن شاء من عباده، فلم ينف الولي نفيًا عامًّا مطلقًا، بل نفىٰ أن يكون له وليٌّ

---

(١) انظر: «الرسالة الأكملية في ما يجب لله من صفات الكمال» (٢٠).

من الذل، وأثبت في موضع آخر أن يكون له أولياء بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس: ٦٢]، فهذه موالاة رحمة وإحسان، والموالاة المنفية موالاة حاجةٍ وذلٍّ، كما أشار إلى هذا المعنى ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ(١).

⊙ وقوله: «﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾»؛ أي: عظِّمه عما يقوله الظالمون المخالفون للرسل.

ففي هذه الآية أمر نبيه بحمده؛ لأنه المستحق أن يُحمد لِما اتصف به من صفات الكمال، وفيها تنزيه سبحانه عن الولد، وذلك لكمال صمديته سبحانه وغناه وتَعَبُّد كل شيء له، فاتخاذ الولد ينافي ذلك، كما قال سبحانه: ﴿ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨] الآية.

وفيها: تنزيه سبحانه أن يكون له شريكٌ في المُلك المتضمن تفرده بالربوبية والألوهية وتوحُّدَه بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره، وهذه الآية آيةٌ عظيمة، وتسمى آية العز.

قال ابن كثير: قال قتادة: ذُكر لنا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعلِّم أهله هذه الآية؛ الصغير والكبير.

قلت: وقد جاء في حديثٍ أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمى هذه الآيةَ آيةَ العز، وفي بعض الآثار: أنها ما قُرِئت في بيت في ليلة فيصيبه سرق أو آفة. انتهى، من كلام ابن كثير(٢).

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ١٦٣).

(٢) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٥/ ١٢٠).

⊙ **قوله:** «﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾»؛ أي: ينزهه عما لا يليق بجلاله وعظمته، فالتسبيح يقتضي التنزيه لله -سبحانه- من كل سوءٍ وعيبٍ، وإثبات صفات الكمال لله سبحانه.

وهذا التسبيح قيل: بلسان الحال، وقيل: بلسان المقال؛ وهو الصحيح، والله -سبحانه- قادرٌ على خلق الإدراك في الجمادات وإنطاقها، كما قال سبحانه عن الجلود: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١]، والأصل في الكلام الحقيقة، وقد سمع النبي ﷺ تسبيح الحصى، وورد أن النبي ﷺ قال: «إنِّي لأعرفُ حَجرًا بمكَّةَ كان يُسلِّم عليَّ»(١)، وكما في الحديث أن النبي ﷺ لما خطب على المنبر حنَّ الجذع الذي كان يخطب عليه سابقًا، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] الآية.

⊙ **قوله:** «﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾»؛ أي: جميع ما في السموات والأرض يسبح لله وحده وينزهه عما لا يليق بجلاله وعظمته وقدَّم السموات على الأرض لأنها مقدمةٌ بالرتبة والفضل والشرف، أفاده ابن القيم في «البدائع»(٢).

⊙ **قوله:** «﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾»؛ أي: هو المالك وحده لجميع المخلوقات النافذ فيها أمره، يتصرف فيها كيف يشاء، لا معقب لحكمه ولا راد لأمره.

⊙ **قوله:** «﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾»: ففي هذه الآية دليلٌ على وجود التسبيح من جميع المخلوقات، وأنه تسبيحٌ حقيقي، وأنه سبحانه قادر

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٧)، وأحمد (٥/ ٨٩)، وغيرهما من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع الفوائد» (١/ ٦٣).

علىٰ خلق الإدراك للجمادات وقادر علىٰ إنطاقها، وفيها إثبات جميع صفات الكمال لله سبحانه، ونفي كل نقصٍ وعيب، لأن التسبيح يقتضي ذلك(١).

⊙ **قوله**: «﴿تَبَٰرَكَ﴾»: من البركة، وهو لغةً: النماء والزيادة، وتبارك فعلٌ مختصٌّ بالله لم يُنطق له بمضارع.

---

(١) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٤٩١، ٤٩٢):

«وتسبيح الله (سبحان الله) معناه: تنزيه الله عن كل نقص وعيب وسوء، وموارده في الكتاب والسنة خمسة:

الأول: تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن الشريك في الربوبية، كما ادعاه الملحدون.

الثاني: تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ عن الشريك في الألوهية، كما ادعاه المشركون.

الثالث: تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ في أسمائه وصفاته أن تسلب معانيها اللائقة بها، وتنزيه الله عَزَّوَجَلَّ في أسمائه وصفاته عن مماثلة المخلوقين لها.

الرابع: تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ في أمره الكوني وقدره الكوني عن أن يكون بلا حكمة أو أن يكون عبثًا، كما ادعاه من قال: خلقنا الله عبثًا. ومن نفوا الحكمة في الخلق والإيجاد وتقدير الأشياء.

الخامس: تنزيه الله عَزَّوَجَلَّ في شرعه وأمره الديني عن النقص وعن منافاة الحكمة، فالله عَزَّوَجَلَّ ينزه نفسه بقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ﴾ [الصافات:١٨٠]؛ يعني: تنزيهًا لله من كل سوء ادعاه المخالفون للرسل، وهم ادعوا الشركة له في الربوبية، فينزه الله عَزَّوَجَلَّ عن الشريك في الربوبية.

هذه خمسة أشياء يقابلها إثبات جميع كمالات الربوبية لله عَزَّوَجَلَّ، وإثبات جميع كمالات الألوهية لله عَزَّوَجَلَّ، يعني: القضاء والتقدير، وإثبات جميع كمالات الأسماء والصفات لله عَزَّوَجَلَّ، وإثبات جميع كمال القضاء والقدر لله عَزَّوَجَلَّ، وإثبات جميع كمالات الحكم والأمر لله عَزَّوَجَلَّ. هذا معنىٰ الحمد» اهـ.

⊙ **قوله**: «﴿ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾»؛ أي: القرآن، سمي بذلك لأنه يفرِّق بين الحق والباطل، ومنه الفاروق، وفيه دليلٌ علىٰ أن القرآن منزلٌ من عند الله، وفيه دليلٌ علىٰ علوه سبحانه علىٰ خلقه؛ لأن الإنزال والتنزيل لا يكون إلا من أعلىٰ إلىٰ أسفل، وأفادت هذه الآية فضل هذا الكتاب علىٰ الكتب الأخرىٰ.

⊙ **قوله**: «﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾»؛ أي: علىٰ عبده ورسوله محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا صفة مدحٍ وثناء؛ لأنه أضافه إلىٰ عبوديته ووصفه بها في أشرف مقاماته مقام الإرسال، كقوله سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ومقام الإسراء، كقوله سبحانه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، ومقام التحدي كقوله سبحانه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] الآية، وهذه الإضافة إضافة تشريف وتعظيم.

وتقدم أن المضاف إليه سبحانه ينقسم إلىٰ قسمين: إضافة أعيان، وإضافة معان، فإضافة المعاني إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من باب إضافة الصفة إلىٰ الموصوف، كإضافة السمع والبصر والعلم والقدرة ونحو ذلك إليه سبحانه من كل شيءٍ لا يقوم بنفسه. الثاني: إضافة الأعيان إليه سبحانه، فإضافتها إليه سبحانه من باب إضافة المخلوق إلىٰ خالقه، كبيت الله وناقة الله، والحجر يمين الله، وعبد الله ورسول الله ونحو ذلك. وفي هذه الآية فضل نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيث أضافه إليه ووصفه بالعبودية التي هي من أشرف مقامات العبد.

⊙ **قوله**: «﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ①﴾»؛ أي: منذرًا، والإنذار: هو الإعلام بأسباب المخافة، فكل إنذارٍ إعلامٌ ولا ينعكس.

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والإنذار المذكور في الآية إنذار عام، فإن الإنذار ينقسم إلىٰ قسمين: إنذارٌ عامٌّ، وإنذارٌ خاص. والخاص كقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾ [النازعات: ٤٥]، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١] الآية.

فهذا الإنذار الخاص هو التام النافع الذي ينتفع به المنذر، والإنذار: هو الإعلام بالخوف، فعلم المخوف فآمن وأطاع(١). انتهىٰ.

ونذارته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تنقسم إلىٰ قسمين: عامةٌ وخاصة، فالعامة كما في هذه الآية، والخاصة كقوله سبحانه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤] الآية.

⊙ **قوله:** «﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾»: اللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾؛ ليكون لام العلة، ودخول لام التعليل في شرعه أكثر من أن يعد، ففيه دليلٌ علىٰ تعليل أفعال الله وأنه لا يفعل شيئًا إلا لعلة وحكمة.

قال الشيخ تقي الدين: هذا قول السلف وجمهور المسلمين وجمهور العقلاء، وقالت طائفة -كجهمٍ وأتباعه-: إنه لم يخلق شيئًا لشيء، ووافقه أبو الحسن الأشعري ومن اتبعه من الفقهاء أتباع الأئمة(٢). انتهىٰ.

⊙ **قوله:** «﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾»: المراد بالعالمين هنا: الجن والإنس، ففيه دليلٌ

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ١٥٧).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ١٣٠).

علىٰ عموم رسالته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعثته إلىٰ الجن والإنس، وفيه دليلٌ علىٰ أن الجن مكلفون، ويتضمن الدلالة علىٰ أنهم يثابون علىٰ الحسنات ويجازون علىٰ السيئات، وفيه دليلٌ علىٰ أن من بلغه القرآن، فقد قامت عليه الحجة لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] الآية، ففيه الرد علىٰ من زعم: أن كلام الله ورسوله لا يفيد اليقين، فلو كان الأمر كما زعم هؤلاء المبتدعة لم تقم بالقرآن حجة علىٰ المكلفين، وأفادت هذه الآية الحكمة في إرسال الرسل وإنزال الكتب.

⊙ **قوله:** «﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾»؛ أي: له التصرف فيهما والجميع خلقه وعبيده.

⊙ **قوله:** «﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾»؛ أي: لكمال غناه وقيامه بنفسه وحاجة كل شيء إليه وافتقاره وقيام كل شيء به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

⊙ **قوله:** «﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾»؛ أي: أوجد وأنشأ وأبدع، وتأتي (خلق) بمعنىٰ: قدَّر، وتأتي بمعنىٰ: كذب، كما قال سبحانه: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، وقال الشاعر:

لي حيلة فيمن ينمْ ... مُ وليس في الكذَّاب حيله
مَن كان يخلق ما يقُو ... لُ فحيلتي فيه قليله[1]

⊙ **وقوله:** «﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾»؛ أي: خلق كل شيءٍ مخلوق، فيدخل في ذلك أفعال العبد، فهي خلق لله وفعل للعبد، ولا يدخل في ذلك أسماء الله وصفاته؛ لأن

(١) البيتان لبشار بن برد في «ديوانه».

الأسماء والصفات تابعةٌ للذات يحتذىٰ فيها حذوها. وعموم ﴿كُلَّ﴾ في كل مقامٍ بحسبه؛ كقوله سبحانه: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥]، أي: كل شيء أُمرت بتدميره، وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]، أي: من كل شيءٍ يصلح للملوك، فلا يدخل في ذلك القرآن؛ لأن القرآن كلامه، وهو صفةٌ من صفاته، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بصفاته غير مخلوق، كما في «الصحيح» من حديث خولة: «مَن نزَل منزلًا وقال: أعوذُ بكلماتِ اللهِ التَّامَّات مِن شَرِّ ما خَلَق؛ لم يَضُرَّه شيءٌ حتىٰ يَرحَلَ مِن مَنزِلِه ذلك»(١)، فاستعاذ بكلمات الله، والاستعاذة بالمخلوق شرك، فدل علىٰ أن كلامه سبحانه غير مخلوق، كما استدل بذلك أحمد وغيره.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «المدارج»: استدل الجهمية علىٰ خلق القرآن بهذه الآية فأجابهم السلف بأن القرآن كلامه سبحانه، وكلامه من صفاته وصفاته داخلة في مسمىٰ اسمه؛ كعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره ووجهه، فليس لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أسماءٌ لذات لا نعت لها ولا صفة ولا فعل ولا وجه ولا يدين، فإن ذلك إلهٌ معدومٌ مفروضٌ في الأذهان لا وجود له في الأعيان؛ كإله الجهمية الذي فرضوه لا داخل العالم ولا خارجه، ولا متصل فيه ولا منفصل عنه، ولا محايد ولا مباين، أما إله العالمين الحق هو الذي دعت إليه الرسل وعرفوه بأسمائه وصفاته وأفعاله فوق سمواته بائنٌ من خلقه، موصوفٌ بالكمال، منزهٌ عن كل عيب، فتجريد الذات عن الصفات والصفات عن الذات فرضٌ وخيالٌ ذهنيٌّ لا حقيقة له(٢). انتهىٰ.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٨)، والترمذي (٣٤٣٧)، وغيرهما من حديث خولة بنت حكيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٣٣٧).

⊙ **قوله:** «﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ٢﴾»؛ أي: قدَّر رزقه وأجله وحياته وموته وما يصلح له، ففيه دليلٌ علىٰ الإيمان بالقدر، ودليلٌ علىٰ ما سبق من علم الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ بالأشياء وكتابتها، كما ثبت في «صحيح مسلم» عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**قدَّر اللهُ مَقاديرَ الخلائقِ قبل أن يَخلُقَ السَّموات والأرضَ بخَمسين ألْف سَنة، وكان عَرشُه علىٰ الماء**»[1]، وفي البخاري عن عمران بن حُصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: «**كان اللهُ ولم يَكن شَيءٌ قَبله، وكان عرشُه علىٰ الماء، وكتَب في الذِّكر كلَّ شيء، وخلق السمواتِ والأرضَ**»[2]، وفي رواية: «**ثم خلَق السَّمواتِ والأرضَ**»[3]، وأحاديث تقديره وكتابته سبحانه لِما يريد أن يخلقه كثيرة جدًّا.

أفادت هذه الآية -عدا ما تقدم- عمومَ ربوبيته سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ وملكه، وأنه الإله الحق، وبطلان عبادة ما سواه.

وأفادت الحث علىٰ التوكل؛ لأن من وقر في قلبه أن المُلك لله، وأنه المتصرف النافع الضار لم يُبالِ بأحدٍ من الخلق، وأفادت كما ذكره بعضهم: أن العباد لا يملكون الأعيان ملكًا مطلَقا، وإنما يملكون التصرف فيها علىٰ مقتضىٰ الشرع، وأفادت تحريم الإفتاء بغير علم؛ لأن ربوبيته وملكه يمنع من الحكم والإفتاء بغير إذنه وبغير حكمه، وأفادت تعدد السموات، وأنها أشرف من الأرض؛ لأنه قَدَّمها، وقد تقدم كلام ابن

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣)، وأحمد (٢/ ١٦٩)، وغيرهما من حديث ابن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠١٩)، وغيره من حديث عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٨٢)، وغيره من حديث عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الموضوع(١).

وفيها تنزيه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن مشابهة المخلوقين في قوله: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الفرقان: ٢]، فإن الولد عادة يكون من جنس الوالد، وفيها الرد علىٰ اليهود القائلين: العُزير ابن الله، والنصارىٰ القائلين: المسيح ابن الله، والمشركين القائلين: الملائكة بنات الله، وفيها الرد علىٰ المشركين في إشراكهم معه غيرَه، والرد علىٰ المجوس القائلين بأن النور خَلَق الخير، والظلام خلق الشر، والرد علىٰ الدهرية القائلين: ما هي إلا حياتنا الدنيا، وفيها الرد علىٰ القدرية القائلين بأن العباد يخلقون أفعالهم، وتضمن إثبات صفة العلم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن الخالق لابد أن يعلم مخلوقه، إذ الخلق فرع العلم، فلا يمكن الخلق إلا بعد العلم، قال تعالىٰ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

ففيها الرد علىٰ غلاة القدرية الذين نفوا علمه سبحانه، فكفرهم السلف قاطبةً بذلك، وفيها الرد علىٰ من زعم: أن العرش غير مخلوق، وفيها الرد علىٰ المجبرة القائلين: إن العبد لا فعل له، وأن فعله كهَفِيف الأشجار أو كحركة المرتعش، وهذا باطلٌ ترده أدلة الكتاب والسنة بل العقل والفطرة، فإن أفعال العباد داخلةٌ في عموم (كل) المضافة إلىٰ (شيء)، فهي مخلوقة، والمخلوق بائنٌ ومنفصلٌ عن الخالق، فليس هو فعله، فإذًا لابد له من فاعلٍ يقوم به وهم العباد، وكل أحد يفرِّق بين الحركة الاختيارية والاضطرارية.

---

(١) أفاده ابن القيم في «البدائع»، وتقدم هذا الكلام في (ص٣١٩).

وقد قال العلماء: إن من صار كالآلة لا ضمان عليه؛ لأنه غير مكلَّف، فيلزم علىٰ قول هؤلاء المجبرة أن الناس غير مكلفين، وهذا مما يرده أدلة العقل والنقل والفطرة، والأدلة علىٰ إثبات فعل العبد وأن له فعلًا حقيقةً ينسب إليه علىٰ جهة الحقيقة لا علىٰ جهة المجاز أكثرُ من أن تحصر، وفيها انتظام هذا الكون واتساقه علىٰ أكمل نظام وأتمه، مما يدل دلالةً واضحةً علىٰ أن له خالقًا ومدبرًا وهو الله سبحانه.

⊙ **قوله:** «﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾»؛ أي: لأنه منزهٌ عن المِثل والشبيه والنظير، والولد يشبه والده، فلم يتخذ ولدًا لكمال صمديته وغناه وملكه، وتعبُّد كل شيء له، فاتخاذ الولد ينافي ذلك، كما قال سبحانه: ﴿قَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨]، ففيه الرد علىٰ من زعم: أن له ولدًا؛ كاليهود والنصارىٰ والمشركين وغيرهم، والرد علىٰ المشبهة الممثلة.

⊙ **قوله:** «﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾»؛ أي: ليس معه سبحانه شريكٌ في الألوهية؛ لتفرده سبحانه بالألوهية والربوبية، وتوحده بصفات الكمال التي لا يوصف بها غيره سبحانه فيكون شريكًا له، وكذا كل سلبٍ وُجِد فهو لتضمنه إثبات كمال ضده، وإلا فالسلب المحض ليس بمدحٍ ولا ثناء. انتهىٰ من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية(١).

⊙ **قوله:** «﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ﴾»؛ أي: لو كان معه إلهٌ لذهب كل إلهٍ بما خلق، أي: انفرد به ومنع غيره من الاستيلاء عليه، فلو قُدِّر ذلك لما كان ينتظم

---

(١) ذكر معناه شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٣٥).

الوجود، والمشاهَد أن الوجود منتظم متّسِق، ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك: ٣].

⊙ **قوله:** «﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾»؛ أي: لو كان معهٌ إله لعلا بعضهم علىٰ بعض مغالبةً كفعل ملوك الدنيا، فكل واحد منهم يطلب قهر الآخر، والمتكلمون ذكروا هذا المعنىٰ وعبَّروا بدليل التمانع.

⊙ **قوله:** «﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾»؛ أي: تنزيهًا لله سبحانه، والتسبيح: التنزيه عن كل نقصٍ وعيب.

⊙ **قوله:** «﴿عَمَّا يَصِفُونَ ۝٩١﴾»؛ أي: تنزيهًا لله سبحانه عما يصفه به المخالفون للرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ.

وقال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: تأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البيِّن، فإن الإله الحق لابد أن يكون خالقًا فاعلًا يوصل إلىٰ عابديه النفع ويدفع عنهم الضر، فلو كان معه إلهٌ آخر لكان له خلْقٌ وفِعل، وحينئذٍ فلا يرضىٰ شركةَ الإله الآخر معه، بل إن قدر علىٰ قهره والتفرد بالألوهية دونه فعل. وإن لم يقدر علىٰ ذلك انفرد بخلقه وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بممالكهم، إذا لم يقدر المنفرد علىٰ قهر الآخر والعلو عليه، فلابد من أحد أمور ثلاثة:

إما أن يذهب كل إلهٍ بخلقه وسلطانه.

وإما أن يعلو بعضهم علىٰ بعض.

وإما أن يكونوا كلهم تحت قهر إله واحد يتصرف بهم ولا يتصرفون فيه، فيكون

وحده هو الإله الحق وهم العبيد المربوبون المقهورون.

وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض، وجريانه علىٰ نظام مُحكم لا يختلف ولا يفسد من أدل دليل علىٰ أن مدبره واحد لا إله غيره، كما دل دليل التمانع علىٰ أن خالقه واحدٌ لا رب غيره، فذلك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في الغاية والألوهية، فكما يستحيل أن يكون للكون رَبَّان خالقان متكافئان، كذلك يستحيل أن يكون له إلهان معبودان[(١)]. اهـ.

⊙ **قوله:** «﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾»؛ أي: يعلم ما غاب عن العباد وما شاهدوه.

والغيب ينقسم إلىٰ قسمين: غَيب مطلق، وغيب مقيد.

فالمطلق: لا يعلمه إلا الله، وهو ما غاب عن جميع المخلوقين، الذي قال فيه: ﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾﴾ [الجن: ٢٦].

والغيب المقيد: ما علمه بعضُ المخلوقات من الجن والإنس، فهو غيبٌ عمن غاب عنه وليس هو غيبًا عمن شهده، والناس قد يغيب عن هذا ما يشهده هذا فيكون غيبًا مقيدًا، أي: غيبًا عمن غاب عنه من المخلوقين لا عمن شهده، وليس هو غيبًا مطلقًا عن المخلوقين قاطبة. انتهىٰ من كلام شيخ الإسلام بتصرف[(٢)].

⊙ **قوله:** «﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾»: **قوله:** ﴿فَتَعَٰلَى﴾ [الأعراف: ١٩٠]،

---

(١) انظر: «الصواعق المرسلة في الرد علىٰ الجهمية والمعطلة» (٢/ ٤٦٣، ٤٦٤).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ١١٠).

أي: علا وتنزه وتقدس عما لا يليق بجلاله، فله سبحانه العلو الكامل المطلق من جميع الوجوه:

علو القهر، أي: أنه علا على كل شيء، بمعنى: أنه قاهرٌ له، قادرٌ عليه متصرفٌ فيه، كما قال تعالى: ﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، انتهى.

وله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علو القدر، فتعالى سبحانه وتنزه عن المثيل والنظير وتنزه عن النقائص والعيوب، كما قال: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]، وفي دعاء الاستفتاح: «**وتَعالىٰ جَدُّكَ**»(١).

وله سبحانه علو الذات، أي: أنه عالٍ على الجميع فوق عرشه، وإثبات علوه سبحانه على ما سواه وقدرته عليه وقهره يقتضي ربوبيته له وخلقه له، وذلك يستلزم ثبوت الكمال، وعلوًّا عن الأمثال يقتضي أنه لا مثل له في صفات الكمال.

فاسمه: «العلي الأعلى» يتضمن اتصافه بجميع صفات الكمال وتنزيهه عما ينافيها من صفات النقص وعن أن يكون له مثل، وأنه لا إله إلا هو ولا رب سواه. انتهى ملخصًا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢).

⊙ **قوله:** «﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾»: يعني الأشباه، فتشبهونه بخلقه وتجعلون

---

(١) أخرجه أبو داود (٧٧٥)، والنسائي (٨٩٩)، وأحمد (٣/ ٥٠)، وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٩٩٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٦/ ١٢٤).

له شريكًا، فإنه سبحانه لا مثل له ولا ند له لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته ولا في أفعاله، وضَربُ المَثَل: هو تشبيه حالٍ بحال، فلا يمثل سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ بخلقه ولا يشبه بهم سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، فإنه سبحانه لا مثل له.

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية في أثناء كلام له: والله سبحانه لا تُضرب له الأمثال التي فيها مماثلة لخلقه، فإن الله لا مثل له، بل له المثل الأعلىٰ، فلا يجوز أن يُشرك هو والمخلوق في قياس تمثيلٍ ولا قياس شمولٍ تستوي أفراده، بل يستعمل في حقه المثل الأعلىٰ، وهو أن كل ما اتصف به المخلوق من كمالٍ فالخالق أولىٰ به، وكل ما ينزه عنه المخلوق من نقصٍ فالخالق أولىٰ بالتنزيه، قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وهذا يبين أن العالِم أكمل ممن لا يعلم، وحينئذٍ فالمتصف به أولىٰ، ولله المثل الأعلىٰ.

وقال تعالىٰ: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ۝٤٢﴾ [مريم: ٤٢] فدل علىٰ أن السميع البصير الغني أكمل، وأن المعبود يجب أن يكون كذلك، فمن جعل الواجب الوجود لا يقبل الاتصاف بصفات الكمال المذكورة فقد جعله من جنس الأصنام الجامدة التي عابها الله وعاب عابديها، والله سبحانه لم يذكر هذه النصوص لمجرد تقرير صفات الكمال، بل ذكرها لبيان أنه المستحق للعبادة دون من سواه، فأفاد الأصلين اللذين بهما يتم التوحيد، وهو إثبات صفات الكمال؛ ردًّا علىٰ أهل التعطيل، وبيان أنه المستحق للعبادة لا إله إلا هو؛ ردًّا علىٰ المشركين(١). انتهىٰ.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٣٠).

⊙ **قوله:** «﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾»؛ أي: يعلم أنه لا مثل له، ولا ند، وأنه الإله الحق، لا إله غيره، وأنتم بجهلكم تشركون به غيره من الأوثان والأنداد وتشبهونها به.

⊙ **قوله:** «﴿قُلۡ﴾»؛ أي: قل يا محمد، ففيه دليلٌ علىٰ أن القرآن كلام الله ليس كلام محمدٍ ولا غيره، وإنما محمدٌ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مبلغٌ لكلام الله.

⊙ **قوله:** ﴿إِنَّمَا﴾»: أداة حصر تُثبت المذكور وتنفي ما سواه.

⊙ **قوله:** «﴿حَرَّمَ﴾»؛ أي: جعله حرامًا ومنع منه، والحرام شرعًا: هو ما أُثيب تاركه وعوقب فاعله، وبمعناه المحظور، والممنوع، والتحريمُ ينقسم إلىٰ قسمين: شرعيٌّ كما في هذه الآية، وكونيٌّ قدريٌّ كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٩٥﴾ [الأنبياء: ٩٥].

⊙ **قوله:** «﴿رَبِّيَ﴾»: الرب هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور، وإذا أُفرد أو عرِّف لم يُطلق إلا علىٰ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ، أما إذا أضيف فيطلق علىٰ غيره، كما يقال: رب الدار، ورب الدابة، ونحو ذلك.

⊙ **قوله:** «﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾»: هي جمع فاحشة، وهو ما استُعظم من الذنوب والمعاصي؛ كالزنا واللواط وقتل النفس ونحو ذلك، سماه الله فاحشة لتناهي قبحه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه «المدارج»: فيه دليلٌ علىٰ أن الأفعال التي توصف بأنها حسنةٌ وقبيحة، كما أنها نافعةٌ وضارة، ولكن لا يترتب عليها ثوابٌ ولا عقابٌ إلا بالأمر والنهي، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: ١٥]،

وقال: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ۝١٣١﴾ [الأنعام: ٣١] وعلىٰ أحد القولين: هو أن المعنىٰ لم يهلكهم بظلمٍ قبل إرسال الرسل، فتكون الآية دالةً علىٰ الأصلين: أن أفعالهم وشركهم قبيحٌ قبل البعثة، وأنه لا يعاقبهم إلا بعد الإرسال(١).

⊙ **قوله:** «﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾»؛ أي: ما أعلن منها وما أسر.

⊙ **قوله:** «﴿وَٱلْإِثْمَ﴾»؛ أي: الذنب، تعميمٌ بعد تخصيص، وقيل: المراد بالإثم: الخمر، كما قال الشاعر:

شربت الإثم حتىٰ ضل عقلي ... كذاك الإثم تذهب بالعقول(٢)

⊙ **قوله:** «﴿وَٱلْبَغْىَ﴾»: هو التعدي علىٰ الناس.

قال ابن القيم في «المدارج»: وأما الإثم والعدوان فهما قرينان، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢] فكل منهما إذا انفرد تضمن الآخر، فكل إثمٍ عدوانٌ، إذ فعل ما نهىٰ الله عنه وترك ما أمر الله به فهو عدوان علىٰ أمره ونهيه، وكل عدوان إثم فإنه يأثم به صاحبه؛ ولكن عند اقترانهما فهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما، فالإثم: ما كان محرم الجنس؛ كالكذب والزنا وشرب الخمر، والعدوان: ما كان محرم القَدْر والزيادة، فالعدوان تعدي ما أبيح منه إلىٰ القدر المحرم؛ كالاعتداء في أخذ الحق ممن هو عليه، إما أن يتعدىٰ علىٰ ماله أو بدنه أو

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٢٤٨).

(٢) ورد في «التذكرة الحمدونية» (٨/ ٣٨٣)، و«لسان العرب» (١٢/ ٦)، و«نهاية الأرب» (٤/ ٨٧)، و«الصحاح» (٥/ ١٨٥٨) بدون عزو، ولم أقف علىٰ قائله.

عِرضه، وهذا نوعان: عدوانٌ في حق الله، وعدوانٌ في حق العبد.

فالعدوان في حق الله كما إذا تعدىٰ ما أبيح له من الوطء الحلال في الأزواج والمملوكات إلىٰ ما حرم عليه من سواهما، والإثم والعدوان هما الإثم والبغي المذكوران في سورة الأعراف، مع أن الغالب استعماله في حقوق العباد والاستطالة عليهم، وعلىٰ هذا فإذا اقترن بالعدوان كان البغي ظلمهم بمحرَّمِ الجنس؛ كالسرقة والكذب والبهت، والعدوان تعدي الحق في استيفائه إلىٰ أكبر منه، فيكون البغي والعدوان في حقهم كالإثم والعدوان في حدود الله. انتهىٰ بتصرف(١).

⊙ **قوله**: «﴿وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ﴾»؛ أي: تصرفوا شيئًا من حق الله سبحانه إلىٰ غيره من الأوثان والأنداد، والشرك بالله هو أعظم الذنوب علىٰ الإطلاق وأجهل الجهل وأظلم الظلم، كما في «الصحيح» أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ألا أُخبِرُكُم بأكبَرِ الكبَائرِ؟**» قلنا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «**الإشراكُ، وعقوقُ الوالِدَين**»، وكان متكئًا فجلس وقال: «**ألا وقَولُ الزُّور، ألا وشهادةُ الزُّور**» فما زال يكررها حتىٰ قلنا: ليته سكت(٢).

وفي «الصحيح» من حديث عبد الله بن مسعود أنه قال للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أي الذنب عند الله أعظم؟ فقال: «**أنْ تَجعلَ لله ندًّا وهو خلقك**» قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تُزانِي بحَلِيلَةِ جَارِك**»(٣).

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٥١١)، ومسلم (٨٩)، وغيرهما من حديث أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٨٣)، وغيره من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والشرك ينقسم إلىٰ قسمين: أكبر وأصغر، فحد الشرك الأكبر هو تسوية غير الله بالله فيما هو خاصٌّ بالله.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: هو التشبه بالله أو تشبيه غيره به، والتعريفان متقاربان، وأما الشرك الأصغر فحده ما ورد في النصوص تسميته شركًا ولم يصل إلىٰ حد الشرك الأكبر.

وينقسم الشرك الأكبر إلىٰ قسمين: شركٌ يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته، وقسمٌ يتعلق بمعاملته.

فالنوع الأول ينقسم إلىٰ قسمين: شرك تعطيل، وشرك تمثيل.

فشرك التعطيل ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: تعطيل المخلوق من خالقه، وتعطيل الصانع من كماله المقدَّس بتعطيل أسمائه وصفاته، وتعطيل حق معاملته، وقد تقدمت الإشارة إلىٰ ذلك(١).

القسم الثاني: شرك التمثيل، وينقسم إلىٰ قسمين:

تشبيه المخلوق بالخالق، كشرك النصارىٰ وعبدة الأوثان، شبهوا أوثانهم بالله وعبدوها معه.

القسم الثاني: تشبيه الخالق بالمخلوق، كأن تقول: يد الله كأيدينا، وعين الله كأعيننا ونحو ذلك، وقد تقدمت الإشارة إلىٰ ذلك.

النوع الثاني: شركٌ يتعلق بمعاملته سبحانه، وهذا ينقسم إلىٰ أقسام:

---

(١) انظر: «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» (١٢٩).

الأول: شرك الدعوة؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

الثاني: شرك المحبة؛ كقوله سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] الآية.

الثالث: شرك الطاعة؛ كقوله سبحانه: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١] الآية.

الرابع: شرك الإرادة والقصد؛ كقوله سبحانه: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [هود: ١٥، ١٦].

ويفترق الشرك الأكبر عن الشرك الأصغر في أمور:

منها: أن الشرك الأكبر لا يُغفر لصاحبه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨]. أما الشرك الأصغر فهو تحت مشيئة الله سبحانه.

ومنها: أن الشرك الأكبر مُحبِطٌ لجميع الأعمال؛ لقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥] الآية. وأما الشرك الأصغر فلا يُحبِط إلا العمل الذي قارنه.

ومنها: أن الشرك الأكبر مخرِجٌ من الملة الإسلامية، والأصغر لا يخرج من الملة الإسلامية.

ومنها: أن المشرك شركًا أكبر خالدٌ مخلدٌ في النار، أما المشرك شركًا أصغر فهو كغيره من الذنوب.

⊙ **قوله:** «﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾»؛ أي: برهانًا وحُجَّة، بل أنزل البرهان والحجة في تحريمه، وأنه أعظم الذنوب على الإطلاق، والسلطان والبرهان والحجة والدليل ألفاظٌ مترادفة، وسلطانٌ يأتي بمعنى الحُجَّة كما في هذه الآية، ويأتي بمعنى المُلك؛ كقوله: ﴿هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ۝٢٩﴾ [الحاقة: ٢٩]، ويأتي بمعنى التسلط؛ كقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [النحل: ٩٩] الآية.

⊙ **قوله:** «﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝١٦٩﴾»؛ أي: وأن تقولوا على الله من الافتراء والكذب ما لا علم لكم به، فختم هذه المحرمات بالقول على الله بلا علم؛ لأنه أصلها وأعظمها، وأصل كل بدعة وحدَثٍ في الدين، ففيه تحريم القول على الله بلا علم، في أسمائه وصفاته وأفعاله، وشرعه وقدره، ووصفه بضد ما وصف به نفسه. اهـ.

وفي هذه الآية رتَّب المحرمات أربع مراتب، وبدأ بأسهلها وهي الفواحش، ثم ثنَّىٰ بما هو أشد تحريمًا وهو الإثم والظلم، ثم ثلَّث بما هو أعظم تحريمًا منهما وهو الشرك بالله، ثم ربَّع بما هو أعظم تحريمًا من ذلك كله وهو القول على الله بلا علم، في أسمائه وصفاته وأفعاله، وفي دينه وشرعه. انتهىٰ من كلام ابن القيم رحمه الله[1][2].

---

(١) انظر: «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (١/ ٣١).

(٢) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٣٧٢، ٣٧٣):

«وقد قال أهل العلم: إن هذه المحرمات الخمسة مما أجمعت الشرائع على تحريمها.

ويدخل في القول على الله بغير علم تحريفُ نصوص الكتاب والسنة في الصفات وغيرها؛ فإن =

وَقَوْلُهُ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] وَقَالَ فِي سُورَةِ الفُرْقَانِ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الفرقان: ٥٩] فِي سِتَّةِ مَوَاضِعَ: فِي سُورَةِ الأَعْرَافِ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وَقَالَ فِي سُورَةِ يُونُسَ عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يونس: ٣]، وَقَالَ فِي سُورَةِ الرَّعْدِ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الرعد: ٢]، وَقَالَ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، وَقَالَ فِي سُورَةِ (الم السَّجْدَةِ): ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [السجدة: ٤]، وَقَالَ فِي سُورَةِ الْحَدِيدِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [الحديد: ٤].

وَقَوْلُهُ: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]. وَقَوْلُهُ: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ [النساء: ١٥٨]. ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. وَقَوْلُهُ عَنْ فِرْعَوْنَ: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ۝٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]،

=

الإنسان إذا حَرَّف نصوص الصفات، مثل أن يقول: المراد باليدين النعمة، فقد قال على الله ما لا يعلم من وجهين:

الوجه الأول: أنه نفي الظاهر بلا علم.

والثاني: أثبت لله خلافه بغير دليل.

فهو يقول: لم يرد الله كذا، وأراد كذا، فنقول: هات الدليل على أنه لم يرد كذا، وعلى أنه أراد كذا! فإن لم تأت بالدليل؛ فإنك قد قلت على الله ما لا تعلم» اهـ.

وَقَوْلُهُ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

الشرح

⊙ **قوله:** «﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾، فِي سَبْعَةِ مَوَاضِعَ»: أي أنه نصٌّ في معناه لا يحتمل التأويل، وصريحٌ في أنه بذاته استوىٰ استواءً يليق بجلاله وعظمته(١).

---

(١) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/٥٠٧-٥٠٩):

«ومعلوم أن اللسان العربي من حيث المعاني: فيه المعاني الكلية، وفيه المعاني الإضافية. فالمعاني الكلية لا توجد إلا في الأذهان؛ يعنيٰ: أن نتصور معنىٰ عامًّا للاستواء من غير إضافته لأحد. هذا بحث لُغوي بحت؛ لكنه في الواقع غير موجود، فكيف إذًا تفسر الألفاظ اللغوية؟

الجواب: الألفاظ اللغوية تفهمها العرب وتفسرها بالمعنىٰ العام الكلي الذي يكون في الذهن، وإذا صار مضافًا في الخارج إلىٰ الأشخاص؛ فإن الإضافة تكون فيه بحسب ما يليق بالمضاف إليه.

فمثلًا: الاستواء في اللغة معلوم المعنىٰ غير مجهول، ومعنىٰ الاستواء: العلو والارتفاع، فتقول مثلًا: «استويت علىٰ الراحلة» إذا علوت عليها، فالاستواء هو العلو والارتفاع، لكن هذا العلو والارتفاع مضاف إلىٰ أي شيء علو وارتفاع المخلوق، وعلو وارتفاع رجل، علو وارتفاع صاعد لجبل؟ هل هو علو وارتفاع الخالق؟ هو أي علو وارتفاع؟!

فإذًا تفسير الاستواء بالمعنىٰ العام في اللغة هو الذي ينفي التشبيه والتمثيل؛ لأنه يقع التمثيل إذا سوِّي في الخارج بين من أضيف له الاستواء.

فقيل في الرجل: استوىٰ، والله عَزَّوَجَلَّ علىٰ العرش استوىٰ، وقيل: الملك استوىٰ علىٰ عرشه، والله عَزَّوَجَلَّ استوىٰ علىٰ عرشه. فالاستواء من حيث كونه معنىٰ كليًّا في الذهن معناه واحد؛ لكن إذا أضيف خصص بالإضافة فيختلف المعنىٰ؛ فالمعنىٰ يختلف، ويكون بحسب من خصص به.

=

⊙ **قوله:** «﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾»: أي هو المعبود وحده لا شريك له، وعبادة غيره باطلة.

=

وهذه قاعدة مهمة: «أن المعاني الكلية تختلف معانيها بالإضافة والتخصيص» إلىٰ من فعل الفعل أو من اتصف بالوصف.

فعندنا -مثلًا- صفة المحبة: الله عَزَّوَجَلَّ له محبة، والمخلوق -أيضًا- له محبة، فمن فسر المحبة لغويًّا بما يجعل في الذهن أن المراد بها محبة المخلوق، فإنه هنا يغلط؛ لأن الواجب في تفسير الألفاظ اللغوية أن تفسر بالمعاني الكلية التي لا توجد في الخارج؛ لكي تشمل جميع الأصناف، فتشمل محبة المخلوق، محبة الإنسان الطبيعية ومحبة الرجل للمرأة، والمرأة للرجل، ومحبة الحيوانات، ومحبة الأم لولدها والولد لأمه، ومحبة الملائكة، وتشمل محبة الله عَزَّوَجَلَّ.

هذا المعنىٰ الكلي هو الذي يشمل الجميع، وإنما يختلف في الخارج باختلاف الإضافة والتخصيص.

ولهذا في الاستواء أثبت الله عَزَّوَجَلَّ أن بعض خلقه له الاستواء، فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون:٢٨]؛ يعني: إذا علوتم وارتفعتم علىٰ الفلك: ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المؤمنون:٢٨]. وقال: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص:١٤]؛ يعني: موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، والله عَزَّوَجَلَّ -أيضًا- استوىٰ علىٰ العرش وقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥].

فالاستواء من حيث المعنىٰ الكلي هو «العلو والارتفاع». فإذا خصصته وأضفته إلىٰ المخلوق كان ارتفاع المخلوق وعلوه بما يناسب ذاته؛ وإذا أضفته إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ صار ارتفاع وعلو الله عَزَّوَجَلَّ بما يناسب ذاته العلية، ولهذا من القواعد المقررة عند أهل السنة في هذا: أن الفرق بين الصفة والصفة كما بين الذات والذات، فالفرق بين صفة المخلوق وصفة الله -إذا اشتركا في أصلها- كالفرق بين الذات والذات» اهـ.

⊙ **قوله:** «﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾»: خلق، أي: أنشأ وأوجد، والخلق: هو اختراع الشيء على غير مثالٍ سبق، ففيه إضافة الفعل والخلق إليه سبحانه على جهة الحقيقة؛ لأنها الأصل. وقد رد ابن القيم رحمه الله على من زعم أن خلقه وفعله مجازٌ من وجوه عديدة.

⊙ **قوله:** «﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾»: أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، وفيه اجتمع الخلق كلهم، وهذه الأيام كأيامنا، هذا هو المتبادر إلى الأذهان، وهو ظاهر الأدلة.

⊙ **قوله:** «﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾»، أي: استوى استواءً يليق بجلاله وعظمته، لا نكيفه ولا نُمثِّله ولا يَعلم كيف هو إلا هو، كما قال مالك: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجبٌ، والسؤال عنه بدعة».

فقول مالك: «الاستواء معلوم»، أي: في لغة العرب، وقوله: «والكيف مجهول»، أي: كيفية استوائه لا يعلمها إلا هو، «والإيمان به»، أي: بالاستواء «واجبٌ» لتكاثر الأدلة في إثباته، «والسؤال عنه»، أي: عن الكيفية «بدعةٌ» إذ لا يَعلم كيفية استوائه إلا هو، فإن الكلام في الصفات فرعٌ عن الكلام في الذات، فكما نعلم أن لله ذاتًا لا تُشبه الذوات، فكذلك يجب أن نثبت له صفاتٍ لا تشبه الصفات، فإثباتنا للصفات إثبات وجودٍ لا إثبات تكييفٍ وتمثيل، إذ العلم بالصفة فرعٌ عن العلم بالموصوف، ولا يَعلم كيف هو إلا هو، وكذلك يقال في بقية الصفات؛ كصفة المجيء والنزول والإتيان والوجه واليد ونحو ذلك، فهذا الجواب الوارد عن مالك رحمه الله كافٍ شافٍ في سائر الصفات.

قال الذهبي: فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلىٰ تفسير، ونفوا عنه الكيفية![١].

أما معنىٰ الاستواء في اللغة؛ فلها أربعة معان: تأتي بمعنىٰ علا، وبمعنىٰ ارتفع، وبمعنىٰ صَعِد، واستقرَّ، كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه المسمىٰ بـ«النونية»:

ولهم عبارات عليها أربع ... قد فُسِّرت للفارس الطَّعانِ
وهي استقر وقد علا وكذلك ارْ ... تَفَع الذي ما فيه من نُكران
وكذاك قد صَعِد الذي هو رابعٌ ... وأبو عُبيدةَ صاحبُ الشَّيبانِي
يختار هذا القول في تفسيره ... أدرىٰ من الجهمي بالقرآن
والأشعري يقول تفسير استوىٰ ... بحقيقة استولىٰ علىٰ الأكوان

فهذه الأربعة التي ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ هي التي تدور عليها تفاسير السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ، قال البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيحه»: قال مجاهد: استوىٰ: علا علىٰ العرش، وقال إسحاق بن راهويه: سمعت غير واحد من المفسرين يقولون: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، أي: ارتفع، وقال محمد بن جرير في قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾، أي: علا وارتفع، وشواهده في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم معروفة.

وأما تفسير: ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ باستولىٰ أو مَلَك أو قهر؛ فهو تفسيرٌ باطلٌ مردودٌ من وجوهٍ عديدة:

منها: أن هذا التفسير لم يفسره به أحدٌ من السلف لا من الصحابة ولا من

---

(١) انظر: «العرش للذهبي» (٢/ ٢٣٤).

التابعين، بل أول من عُرف عنه هذا التفسير بعض الجهمية والمعتزلة.

ثانيًا: أن الاستواء في لغة العرب الذين نزل القرآن بلغتهم نوعان: مطلقٌ ومقيد، فالمطلق ما لم يقيد بحرفٍ؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤] وهذه معناها: تَمَّ وكَمُل، وأما المقيد فثلاثة أنواع:

أحدها: مقيدٌ بـ(إلىٰ)؛ كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت: ١١] وهذا بمعنىٰ العلو والارتفاع بإجماع السلف.

الثاني: مقيد بـ(علىٰ)؛ كقوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٣]، وقوله: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤] وهذا -أيضًا- معناه العلو والارتفاع والاعتدال بإجماع أهل اللغة.

الثالث: المقرون بواو المعية؛ كقولهم: استوىٰ الماءُ والخشبةَ، وهذا بمعنىٰ ساواها.

فهذه معاني الاستواء المعقولة في كلامهم، ليس فيها معنىٰ استولىٰ البتة، ولا نقله أحد من أئمة اللغة، وإنما قاله متأخرو النحاة ممن سلك طريق الجهمية والمعتزلة مستدلين ببيتٍ للأخطل النصراني، وهو قوله:

قد استوىٰ بشرٌ علىٰ العراق ... من غير سيفٍ أو دمٍ مهراق

وهذا البيت ليس من شعر العرب، وأهل اللغة لما سمعوه أنكروه غاية الإنكار ولم يجعلوه من لغة العرب.

ثالثًا: أن معنىٰ هذه الكلمة مشهور، كما قال مالك وربيعة وغيرهم.

رابعًا: أنه لو لم يكن معنىٰ الاستواء في الآية معلومًا لم يَحتَجْ أن يقول:

«والكيف مجهول»؛ لأن نفي العلم بالكيف لا ينفي إلا ما قد علم أصله.

خامسًا: أن الاستواء خاصٌّ بالعرش، وأما الاستيلاء فهو عامٌّ علىٰ سائر المخلوقات، فلو كان معنىٰ الاستواء: الاستيلاء؛ لجاز أن يقول: استوىٰ علىٰ الماء والهواء والأرض.

سادسًا: أنه أخبر بخلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوىٰ علىٰ العرش، وأخبر أن عرشه علىٰ الماء قبل خلقهما، والاستواء متأخرٌ عن خلقهن، والله مستولٍ علىٰ العرش قبل خلق السموات وبعده، فعلم أن الاستواء علىٰ العرش الخاص به غير الاستيلاء العام عليه وعلىٰ غيره.

سابعًا: أنه لم يثبت في اللغة أن معنىٰ ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ استولىٰ؛ إذ الذين قالوا ذلك عمدتهم البيت المذكور، ولم يثبت نقلٌ صحيحٌ أنه عربي، وغير واحد من أئمة اللغة أنكروه وقالوا: بيتٌ مصنوعٌ لا يُعرف في اللغة، فكيف تعارَض أدلة الكتاب والسنة ببيت شعر نصراني(١) ومع ذلك لم يثبت؟!

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله في «لاميته» المشهورة:

قبحًا لمن نبذ الكتاب وراءه ... وإذا استدل يقول قال الأخطل

وقال ابن القيم رحمه الله في كتابه «النونية»:

ودليلهم في ذاك بيت قاله ... فيما يقال الأخطل النصراني

---

(١) يقصد الأخطل، والأخطل: هو غياث بن غوث بن الصلت بن طارق بن عمرو بن سيحان بن قدوكس الأخطل، الشاعر النصراني، وكان عبد الملك بن مروان يجزل له العطاء ويفضله في الشعر علىٰ غيره، انظر: «طبقات فحول الشعراء» (٢/ ٢٩٨)، و«سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٨٩).

إلىٰ غير ذلك من الوجوه التي ذكرها أهل العلم في رد وإبطال هذا التفسير، وقد أنهاها ابن القيم رحمه الله إلىٰ اثنين وأربعين وجهًا(١).

⊙ **قوله:** «﴿ٱلۡعَرۡشِ﴾»: وهو لغة: عبارةٌ عن السرير الذي للمَلك، كما قال تعالىٰ عن بلقيس: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ٢٣﴾ [النمل: ٢٣]، فالعرش سريرٌ ذو قوائم تحمله الملائكة، وهو كالقُبَّة علىٰ العالَم، وهو سقف المخلوقات.

قال البيهقي رحمه الله: اتفقت أقاويل أهل التفسير علىٰ أن العرش هو السرير، وأنه جسمٌ خلقه الله وأمر ملائكته بحمله وتعبَّدهم بتعظيمه والطواف به، كما خلق بيتًا في الأرض وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله(٢).

وقد اختلف العلماء في السابق بالخلق: هل هو العرش أو القلم؟ ونظم ذلك ابن القيم في «النونية» بقوله:

وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فِي الْقَلَمِ الَّذِي ... كُتِبَ الْقَضَاءُ بِهِ مِنَ الدَّيَّانِ
هَلْ كَانَ قَبْلَ الْعَرْشِ أَوْ هُوَ بَعْدَهُ ... قَوْلَانِ عِنْدَ أَبِي الْعُلَا الْهَمَذَانِي
وَالْحَقُّ أَنَّ الْعَرْشَ قَبْلُ لِأَنَّهُ ... قَبْلَ الْكِتَابَةِ كَانَ ذَا أَرْكَانِ
وَكِتَابَةُ الْقَلَمِ الشَّرِيفِ تَعَقَّبَتْ ... إِيجَادَهُ مِنْ غَيْرِ فَصْلِ زَمَانِ

⊙ **قوله:** «﴿يُغۡشِي﴾»؛ أي: يُغطِّي ﴿ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤] فيذهب ظلام هذا بضياء هذا وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلبًا حثيثًا، أي: سريعًا لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب جاء هذا وعكسه.

---

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٣٧١).

(٢) انظر: «الأسماء والصفات» (٤٩٧).

⊙ **قوله:** «﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾»؛ أي: الجميع تحت قهره وتصريفه ومشيئته.

⊙ **قوله:** «﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾»؛ أي: هو خالق كل شيء، وهذا عامٌّ فيشمل أفعال العباد، وله الأمر، أي: الملك والتصرف، فلا راد لأمره ولا معقب لحكمه، والأمر ينقسم إلىٰ قسمين: أمرٌ شرعيٌّ ديني؛ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وأمرٌ كونيٌّ قدريٌّ؛ كقوله: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] الآية.

تضمنت هذه الآية إثبات أنواع التوحيد الثلاثة، وأفادت الرد علىٰ الفلاسفة القائلين بِقِدم هذه المخلوقات، وأفادت عموم خلقه لهذه المخلوقات فيشمل ذواتها وصفاتها، وأفادت الاستدلال بهذه المخلوقات علىٰ وجود الخالق، وأفادت إثبات أسمائه وصفاته وأنه المستحق للعبادة، وأفادت إثبات صفة الخلق، وأفادت إثبات الأفعال الاختيارية اللازمة والمتعدية، وأفادت إثبات خلق السموات ووجودها، وأفادت تعددها، وأفادت فضل السماء علىٰ الأرض، وأفادت أن خلق هذه المخلوقات في ستة أيام أوَّلها يوم الأحد، وأفادت إثبات الاستواء علىٰ العرش استواءً يليق بجلاله، وتضمنت إثبات العلو لله، وأفادت أن الاستواء صفة فعل، وأفادت أن الاستواء خاصٌّ بالعرش، وأفادت أن العرش مخلوق.

وقد ثبت أن العرش مخلوقٌ عظيمٌ ذو قوائمَ وله حملةٌ، خلافًا للمبتدعة الذين ينفون وجود العرش ويقولون: عرشه مُلكه، فعلىٰ قول هؤلاء المبتدعة يكون قوله تعالىٰ: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: ١٧] معناه: ويحمل مُلْكَ

ربك، وهذا قولٌ باطلٌ مردود.

وأفادت أن الاستواء علىٰ العرش بعد خلق السموات والأرض؛ لأنه عقَّبه بـ«ثم»، وأفادت الرد علىٰ الجهمية وأضرابهم الذين يقولون: إن معنىٰ استوىٰ استولىٰ؛ لأنه تحريفٌ وزيادةٌ في كتاب الله وحملٌ له علىٰ غير ما يحتمل، فتوارد الأدلة علىٰ هذا المعنىٰ نصٌّ فيه، فلا يجوز تأويله.

قال ابن القيم:

نـــون اليهـــود ولام جهمـــي همـــا ... في وحـــي رب العـــرش زائـــدتان

قال الذهبي: وأول وقت سُمعت مقالة من أنكر أن الله فوق عرشه هو من الجعد بن درهم، وكذلك أنكر جميع الصفات، وقتله خالد بن عبد الله القسري، وقصته مشهورة، فأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية فأظهرها واحتج لها بالشبهات، وكان ذلك في آخر عصر التابعين، فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر؛ مثل الأوزاعي وأبي حنيفة ومالك والليث بن سعد والثوري وحماد بن زيد وحماد بن سلمة وابن المبارك، ومن بعدهم من أئمة الهدىٰ[(١)].

وأفادت الاستدلال بهذه المخلوقات علىٰ وجود خالقها ومدبرها، وأنها آيةٌ واضحةٌ ودلالةٌ صريحةٌ علىٰ وجوده سبحانه، وأنه المدبر والمسخر لهذه المخلوقات، وهي مستلزمةٌ للعلم بصفات كماله، وتضمن ذلك أنه المعبود الحق وأن عبادة غيره باطلة، إذ ما سواه عاجز، والعاجز لا يصلح للألهية، وأفادت التفريق

(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» (٦٤٥).

بين الخلق والأمر، وفيه الرد علىٰ الجهمية والمعتزلة القائلين بأن كلام الله مخلوقٌ، وأن خلقه وأمره واحد.

ويروىٰ عن سفيان الثوري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: فرَّق الله بين الخلق والأمر، فمن جمع بينهما فهو كافر. انتهىٰ(١).

وفيها الرد علىٰ من زعم من الفلاسفة أن العرش هو الخالق الصانع، وفيها الرد علىٰ من زعم أن العرش لم يزل مع الله وهو مذهبٌ باطل. انتهىٰ من «فتح الباري»(٢).

⊙ **قوله: «﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾»**؛ أي: رفع السموات بغير عمدٍ، بل بإذنه وتسخيره رفعها عن الأرض بُعدًا لا يُنال ولا يدرك مداها، كما في حديث: **«إن بُعد ما بين السماء والأرضِ خَمس مئة عام، وكذلك بُعد ما بين السَّموات»**(٣)، وجاء عن بعض السلف: أن ما بين العرش إلىٰ الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، وبُعد ما بين قطريه خمسين ألف سنة، وهو من ياقوتةٍ حمراء.

⊙ **قوله: «﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾»؛ أي:** بغير عَمَد.

⊙ **قوله: «﴿تَرَوْنَهَا﴾** [الرعد: ٢]»: تأكيدٌ للنفي، أي: هي مرفوعةٌ بغير عمدٍ كما ترونها.

---

(١) يروىٰ عن سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ، انظر: «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٢٢١).

(٢) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (١٣/ ٤٠٥).

(٣) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ٢٩١) (٨٥٢)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٢٤٢)، وابن بطة في «الإبانة الكبرىٰ» (٧/ ١٧١) (١٢٨) وغيرهم، من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ موقوفًا.

قال ابن كثير: وهذا هو الأكمل في القدرة[١].

⊙ **قوله**: «في سورة طه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ إلخ الآيات»:

فهذه الآيات فيها دلالةٌ واضحةٌ علىٰ إثبات الاستواء علىٰ العرش، وأنه استواءٌ حقيقةٌ يليق بجلاله وعظمته، وفيها الرد علىٰ من زعم أن ذلك مجازٌ عن القهر أو الاستيلاء، وفيها دليلٌ علىٰ إثبات العرش وأنه مخلوقٌ، والرد علىٰ من زعم أن معنىٰ العرش المُلك، وفيها دليلٌ علىٰ أن الاستواء صفة فعل، وفي هذه الآيات دليلٌ علىٰ علوه سبحانه علىٰ خلقه، فأدلة الاستواء كلها أدلةٌ علىٰ إثبات العلو، **وينقسم العلو إلىٰ ثلاثة أقسام**:

الأول: علو القهر.

الثاني: علو القَدْر.

الثالث: علو الذات، خلافًا للمبتدعة الذين ينكرون علو الذات.

وأدلة العلو عقلية، فقد تواطأت أدلة السمع والعقل علىٰ إثباته، وكذلك قد فطِر الخلق علىٰ إثباته، أما الاستواء فدليله سمعيٌّ فقط، وهو -أيضًا- صفة فعل. اهـ.

وفي الآيات دليلٌ صحيحٌ علىٰ أن الله سبحانه ليس هو عينَ هذه المخلوقات ولا صفةً ولا جزءًا منها، فإن الخالق غير المخلوق، وليس بداخلٍ فيها محصور، بل هي صريحةٌ في أنه مباينٌ لها، وليس حالًّا فيها ولا محل لها سبحانه. انتهىٰ من كلام ابن

---

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٣٦٨).

القيم رحمه الله تعالىٰ(١)(٢).

⊙ **قوله:** «﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾»؛ أي: قابضك من الأرض ورافعك إليَّ من غير موت، من قولهم: توفيت الشيء واستوفيته؛ إذا قبضته وأخذته تامًّا، انتهىٰ. «الخازن»(٣).

والتوفي: الاستيفاء، وهو يصلح لتوفي النوم ولتوفي الموت الذي هو فِراق الروح البدن، ولم يذكر القبض الذي هو قبض الروح والبدن جميعًا، والصواب الذي عليه المحققون: أن عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لم يمت بحيث فارقت روحه بدنه، بل هو حي مع كونه تُوفي. انتهىٰ من «اختيارات الشيخ تقي الدين ابن تيمية»(٤).

---

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» (٤٧٧، ٤٧٨).

(٢) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٥١٢):**

«وصفة الاستواء من الصفات التي وقع فيها الاشتباه، معناها هو العلو والارتفاع علىٰ العرش، والله عَزَّوَجَلَّ له العلو المطلق الذي هو صفة ذاتية، لكن الاستواء علىٰ العرش هو علو خاص وارتفاع خاص؛ لأن العلو صفة ذاتية لله عَزَّوَجَلَّ لا تنفك عن الله عَزَّوَجَلَّ. الله عَزَّوَجَلَّ لم يكن مستويًا علىٰ العرش، ثم استوىٰ عليه، وأكثر الأدلة التي فيها الاستواء ذكر فيها «ثُمَّ»، ومن المعلوم أن «ثُمَّ» هذه للتراخي، تفيد أنه لم يكن كذلك ثم كان كذلك؛ لهذا فإن صفة الاستواء علىٰ العرش معناها أن الله عَزَّوَجَلَّ قد علا وارتفع علىٰ عرشه علوًّا وارتفاعًا خاصًّا، وإلا فإن صفة العلو له عَزَّوَجَلَّ علىٰ وجه الإطلاق» اهـ.

(٣) انظر: «لباب التأويل في معاني التنزيل» (١/ ٢٥١).

(٤) انظر: «الفتاوىٰ الكبرىٰ لابن تيمية» (٥/ ٣٦٤).

⊙ **قوله**: «﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾»؛ أي رفعه الله سبحانه إلىٰ السماء وهو حيٌّ، كما قال: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]، والضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ عائد إلىٰ عيسىٰ، وذلك حين ينزل إلىٰ الأرض قبل يوم القيامة، ونزول عيسىٰ ثابتٌ، وهو أحد أشراط الساعة الكبار(١).

---

(١) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٦٦-٦٨)**:

«**فإن قلت**: عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ينزل في آخر الزمان [أخرجه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ] وهو رسول، فما الجواب؟

نقول: هو لا ينزل بشريعة جديدة، وإنما يحكم بشريعة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذا قال قائل: من المتفق عليه أن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر، وعيسىٰ يحكم بشريعة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيكون من أتباعه، فكيف يصح قولنا: إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر؟

فالجواب: أحد ثلاثة وجوه:

أولها: أن عيسىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ رسول مستقلٌّ من أولي العزم ولا يخطر بالبال المقارنة بينه وبين الواحد من هذه الأمة، فكيف بالمفاضلة؟! وعلىٰ هذا يسقط هذا الإيراد من أصله؛ لأنه من التنطع، وقد «**هلك المتنطعون**»، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [أخرجه مسلم (٢٦٧٠)، وأبو داود (٤٦٠٨)، وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ].

الثاني: أن نقول: هو خير الأمة إلا عيسىٰ.

الثالث: أن نقول: إن عيسىٰ ليس من الأمة، ولا يصح أن نقول: إنه من أمته، وهو سابق عليه، لكنه من أتباعه إذا نزل؛ لأن شريعة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باقية إلىٰ يوم القيامة.

فإن قال قائل: كيف يكون تابعًا، وهو يقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ولا يقبل إلا الإسلام مع أن الإسلام يُقِرُّ أهلَ الكتاب بالجزية؟!

قلنا: إخبار النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك إقرار له، فتكون من شرعه ويكون نسخًا لما سبق من =

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والَّذي نَفسي بيده، ليُوشِكنَّ أن يَنزلَ فيكم ابنُ مَريمَ حَكمًا عدلًا مُقسطًا فيَكسِر الصَّليب، ويَقتل الخنزيرَ، ويضع الجزيةَ، ويفيضُ المالُ حتىٰ لا يَقبلَه أحدٌ»(١). وفي رواية: «حتىٰ تكونَ السَّجدةُ الواحدةُ خَيرًا من الدنيا وما فيها»، ثم يقول: «اقرءوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾»(٢).

وفي هذه الآية إثبات الكلام لله سبحانه، والرد علىٰ من زعم أن كلامه سبحانه معناه المعنىٰ النفسي، وفيها دليلٌ أن الله رفع عيسىٰ إلىٰ السماء وقبضه إليه، وفيه دليلٌ علىٰ علوه سبحانه علىٰ خلقه، إذ الرفع لا يكون إلا من أسفل إلىٰ أعلىٰ.

⊙ **قوله:** «﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾»: في هذه الآية -كالآية السابقة- دليلٌ علىٰ أن الله رفع عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ إلىٰ السماء وقبضه إليه، وفيها دليلٌ علىٰ علوه سبحانه علىٰ خلقه، وفي هذه الآية والتي قبلها الرد علىٰ اليهود الذين تنقصوه وجعلوه ابن زنىٰ، والرد علىٰ النصارىٰ الذين غلوا فيه ورفعوه عن مقام النبوة إلىٰ مقام الربوبية، تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

⊙ **قوله:** «﴿إِلَيْهِ﴾»؛ أي إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ﴿يَصَّعَّدُ﴾ [الأنعام: ١٢٥]: أي: يرتفع، والصعود: الارتفاع، وأما أَصعد يُصعد -بالضم- فمعناه: أَبعد في الهروب،

=

حكم الإسلام الأول» اهـ.

(١) أخرجه البخاري (٢١٠٩)، ومسلم (١٥٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٦٤)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومنه: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

⊙ **قوله:** «﴿ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾»: يعني الذكر والتلاوة والدعاء، قاله غير واحد من السلف. انتهىٰ من ابن كثير[1].

⊙ **قوله:** «﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾»: قال مجاهد: العمل الصالح يرفع الكلم الطيب. وقيل: الرفع من صفة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، أي: العمل الصالح يرفعه الله، قال سفيان بن عيينة: العمل الصالح: هو الخالص، يعني: أن الإخلاص يسبب قبول العمل، كما قال سبحانه: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ١١٠] الآية.

وقال ابن القيم: العمل الصالح: هو الخالي من الرياء، المقيَّد بالسُّنَّة[2].

في هذه الآية -أيضًا- دليلٌ علىٰ علو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لأن الصعود والرفع لا يكون إلا من أسفل إلىٰ أعلىٰ.

⊙ **قوله:** «﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾»: هو مَلك القبط في الديار المصرية، وفرعون لقبٌ لكل مَن ملَك مصر.

⊙ **قوله:** «﴿يَٰهَٰمَٰنُ﴾»؛ أي قال فرعون لوزيره هامان: ﴿ٱبْنِ لِي صَرْحًا﴾ [غافر: ٣٦] أي قصرًا عاليًا مُنيفًا.

⊙ **قوله:** «﴿لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾﴾»: أسباب: مفرده سبب، والسبب يأتي بمعنىٰ الحَبْل؛ كقوله: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ١٥]، والطريق، ومنه قوله:

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٦/ ٤٧٥).

(٢) انظر: «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي» (١٣٢).

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الكهف: ٨٥]، والباب؛ كقوله: ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [غافر: ٣٧].

⊙ **قوله:** «﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾»؛ أي طرقها وأبوابها وما يؤدي إليها، وكل ما أدىٰ إلىٰ شيءٍ فهو سبب إليه؛ كالرِّشا ونحوه.

⊙ **قوله:** «﴿فَأَطَّلِعَ﴾»: بالنصب علىٰ جواب الشرط؛ أي: أصعد، والاطلاع هو الصعود.

⊙ **قوله:** «﴿إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾»؛ أي: في دعواه أن له إلهًا غيري وأنه أرسله، ففي هذه الآية دليلٌ علىٰ أن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يقول: ربُّه في السماء، وفرعون يظنه كاذبًا. فمن نفىٰ العلو من الجهمية فهو فرعوني، ومن أثبته فهو موسوي محمدي، ففيها دليلٌ علىٰ إثبات علو الله سبحانه علىٰ خلقه، وأن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أخبر أن ربه في السماء.

وعلو الله سبحانه علىٰ خلقه مما تواطأ علىٰ إثباته العقل والنقل، وفطر الله عليه الخلق، وأدلة إثبات العلو كثيرةٌ جدًّا تزيد علىٰ ألف دليلٍ، قيل لعبد الله بن المبارك: كيف نعرف ربَّنا؟ فقال: بأنه فوق السماء السابعة علىٰ العرش بائنٌ من خلقه. وقال الأوزاعي: كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالىٰ بائنٌ من خلقه، ونؤمن بما وردت به السُّنَّة.

وقال أبو عُمَر الطلمنكي في كتاب «الأصول»: أجمع المسلمون من أهل السنة علىٰ أن الله استوىٰ علىٰ عرشه علىٰ الحقيقة لا علىٰ المجاز، ثم ساق بسنده عن مالك قال: الله في السماء وعلمه في كل مكان، ثم قال في هذا الكتاب: أجمع المسلمون من

أهل السنة أن معنىٰ قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤] ونحو ذلك من القرآن أن ذلك علمه، وأن الله فوق السموات بذاته مستوٍ علىٰ عرشه كيف شاء، هذا لفظه في كتابه، وهذا كثير في كلام الصحابة والتابعين، والأئمة أثبتوا ما أثبته الله في كتابه علىٰ لسان رسوله علىٰ الحقيقة فيما يليق بجلاله وعظمته، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين ولم يمثلوا أو يعطلوا(١).

⊙ **قوله:** «﴿ءَأَمِنتُم﴾»: من الأمن وهو ضد الخوف.

⊙ **قوله:** «﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾»؛ أي: أأمنتم عقابَ مَن في السماء -وهو الله- إن عصيتموه، وهذا عند أهل السنة علىٰ أحد وجهين:

الأول: أن تكون ﴿فِي﴾ بمعنىٰ علىٰ.

الثاني: أن يراد بالسماء العلو، لا يختلفون في ذلك، ولا يجوز الحمل علىٰ غيره.

⊙ **قوله:** «﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ﴾»؛ أي كما خسف بقارون.

⊙ **قوله:** «﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾»؛ أي تضطرب وتتحرك.

⊙ **قوله:** «﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾»؛ أي: ريح شديدة سميت بذلك؛ لأنها ترمي الحصباء(٢).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ١٨٩).

(٢) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٣٩٧، ٣٩٨):

«لكن هاهنا إشكال: وهو أن ﴿فِي﴾ للظرفية، فإذا كان الله في السماء، و﴿فِي﴾ للظرفية؛ فإن =

⊙ **قوله:** «﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾»: أي إذا رأيتم ذلك علمتم كيف إنذاري حين لا ينفعكم العلم. في هذه الآية إشارةٌ إلىٰ التحذير من الأمن من مكر الله، وفي هذه الآية دلالةٌ واضحةٌ علىٰ علو الله سبحانه علىٰ خلقه، وقد تواترت في ذلك الأدلة واتفقت علىٰ إثبات العلو جميع الرسل، وذكر ابن القيم أن أدلة العلو تزيد علىٰ ألف دليل(١).

=

الظرف محيط بالمظروف! أرأيت لو قلت: الماء في الكأس، فالكأس محيط بالماء وأوسع من الماء! فإذا كان الله يقول: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾، فهذا ظاهره أن السماء محيطة بالله، وهذا الظاهر باطل، وإذا كان الظاهر باطلًا؛ فإننا نعلم علم اليقين أنه غير مراد لله؛ لأنه لا يمكن أن يكون ظاهر الكتاب والسنة باطلًا.

فما الجواب علىٰ هذا الإشكال؟

قال العلماء: الجواب أن نسلك أحد طريقين:

١- فإما أن نجعل السماء بمعنىٰ: العلو، والسماء بمعنىٰ: العلو وارد في اللغة، بل في القرآن، قال تعالىٰ: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، والمراد بالسماء العلو؛ لأن الماء ينزل من السحاب لا من السماء التي هي السقف المحفوظ، والسحاب في العلو بين السماء والأرض، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فيكون معنىٰ ﴿مَّن فِي السَّمَاءِ﴾؛ أي: مَن في العلو.

ولا يوجد إشكال بعد هذا، فهو في العلو، ليس يحاذيه شيء، ولا يكون فوقه شيء.

٢- أو نجعل «في» بمعنىٰ «علىٰ»، ونجعل السماء هي السقف المحفوظ المرفوع؛ يعني: الأجرام السماوية، وتأتي «في» بمعنىٰ «علىٰ» في اللغة العربية، بل في القرآن الكريم، قال فرعون لقومه السحرة الذين آمنوا: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: علىٰ جذوع النخل.

فيكون معنىٰ ﴿مَّن فِي السَّمَاءِ﴾؛ أي: مَن علىٰ السماء. ولا إشكال بعد هذا» اهـ.

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٤٨).

وينقسم العلو إلا ثلاثة أقسام، كما تقدمت الإشارة إلىٰ ذلك: علو القدر، علو القهر، علو الذات، فله العلو الكامل من جميع الوجوه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «النونية»:

إن العلــو لــه بمطلقــه علــىٰ التْــ تَعْمِــيم والإطــلاق بالبرهــان
ولــه العلــوُّ مــن الوجــوه جميعِهــا ذاتًــا وقهــرًا مــعْ علــوِّ الشــان
وعلــوه فــوق الخليقــة كلهــا فُطــرت عليــه الخلــقُ والــثقلان
كــلٌّ إذا مــا نابــه أمــرٌ يُــرىٰ مُتوجِّهًــا بضــرورة الإنســان
نحــو العلــوِّ فلــيس يطلــبُ خَلفَــه وأمامَــه أو جانــبَ الإنســانِ

وكذلك الفوقية؛ فإنها ثابتةٌ لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] وهي من صفات الذات. وفوق وعلا بمعنىٰ واحد، وفوقيته سبحانه ثابتةٌ كعلوه، تواطأت علىٰ إثباتها أدلة العقل والنقل والفِطَر التي لم تتغير، وأقسام الفوقية ثلاثة:

فوقية القدر، فوقية القهر، فوقية الذات، خلافًا للجهمية والمعتزلة الذين ينكرون فوقية الذات، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «النونية»:

والفــوق وصــف ثابــت بالــذات مــن كــل الوجــوه لفــاطر الأكــوان
لكــن نفــاة الفــوق مــا وَفَّــوْا بــه جحــدوا كمــال الفــوق للــرحمن
بــل فسَّــروه بــأن قــدر الله أَعْــ ــلَىٰ لا بفــوق الــذات للــديان
قــالوا وهــذا مثــل قــول النــاس في ذَهَــبٍ يــرىٰ مــن خــالص العقيــان
هــو فــوق جــنس الفِضَّــة البيضــاء لا بالــذات بــل في مقتضــىٰ الأثمــان
والفــوق أنــواع ثــلاث كلهــا لله ثابتــة بــلا نكــران

هـذا الـذي قـالوا وفـوق القهـر والـ ـــفوقية العليـا علـى الأكـوان

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومما ادعى المعطلة مجازه: الفوقية، وقد ورد به القرآن مطلقًا بدون حرف، ومقترن بحرف.

فالأول: كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨] في موضعين.

والثاني: كقوله سبحانه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وفي حديث الأوعال: «والعرش فوق ذلك، والله فوق العرش لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالكم»(١).

وحقيقة الفوقية: علو ذات الشيء على غيره، فادعى الجهمي أنه مجازٌ في فوقية الرتبة والقهر، كما يقال: الذهب فوق الفضة، وهذا وإن كان ثابتًا للرَّبِّ لكن إنكار حقيقة فوقيته سبحانه وحملها على المجاز باطلٌ من وجوه عديدة:

أحدها: أن الأصل الحقيقة، والمجاز خلاف الأصل.

الثاني: أن الظاهر خلاف ذلك.

الثالث: أن الفطر والعقول والشرائع وجميع كتب الله المنزلة على خلاف ذلك، وساق وجوهًا عديدة في إبطال ما ذكروه والرد عليهم في«الصواعق»(٢).

---

(١) حديث الأوعال أخرجه أبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجه (١٩٣) وغيرهم، من حديث العباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وضعفه الألباني، انظر: «ضعيف أبي داود» (١٠١٤/ ٤٧٢٣)، واللفظ المذكور هو بمعنى ما روي في حديث الأوعال، وأما بهذا اللفظ فقد رواه ابن خزيمة في «صحيحه» (١٠٥) من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، موقوفًا، وفيه: «الماء» بدل: «ذلك»، وصححه الذهبي في «العلو» (ص٦٤)، والألباني في «مختصر العلو» (ص١٠٣) رقم (٤٨).

(٢) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» (٤٣١).

وَقَوْلُهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤]، ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧]، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠].

﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]. ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦]، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩]. وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤].

الشرح

⊙ **قوله:** «﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ...﴾»: فيه إثبات الأفعال الاختيارية للرب سبحانه، وهي تنقسم إلىٰ قسمين: لازمة؛ كالاستواء والمجيء والنزول، ومتعدية؛ كالخلق والرزق والإحياء والإماتة ونحو ذلك، فهو سبحانه موصوفٌ بالنوعين، وقد جمعهما في هذه الآية.

وفيها بيان أن الخلق غير المخلوق، لأن نفس خلقه السموات والأرض غير السموات والأرض، وفيها دليلٌ علىٰ مباينة الرب سبحانه لخلقه، فإنه لم يخلقهم في ذاته، بل خلقهم خارجًا عن ذاته، ثم بان عنهم باستوائه علىٰ عرشه، وهو يعلم ما هم عليه فيراهم وينفذه بصره فيهم، ويحيط بهم علمًا وقدرةً وإرادةً وسمعًا وبصرًا، وهذا

معنىٰ كونه معهم أينما كانوا.

⊙ **قوله:** «﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾»؛ أي: معكم بعلمه، وقد حكىٰ غير واحدٍ الإجماع علىٰ أن المراد بهذه: معية العلم، ولا شك في إرادة ذلك، فعلمه بهم وبصره نافذ فيهم، فهو سبحانه مطلعٌ علىٰ خلقه لا يغيب عنه من أمورهم شيء، فإن «مع» في لغة العرب لا تقتضي أن يكون أحد الشيئين مختلطًا بالآخر، كقوله سبحانه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩]، وجاءت المعية في القرآن عامةٌ وخاصة، فالعامة كما في هذه الآية، فافتتح الكلام بالعلم وختمه بالعلم، فدل علىٰ أنه معهم بالعلم؛ ولهذا قال ابن عباس والضحاك وسفيان وأحمد والثوري: وهو معهم بعلمه.

أما المعية الخاصة: فكقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨] فهو مع المتقين دون الظالمين، فلو كان معنىٰ المعية أنه في كل مكان بذاته لتناقض الخبر الخاص والعام، بل المعنىٰ أنه مع هؤلاء بنصره وحفظه وتأييده دون أولئك.

وقد أخبر في هذه الآية وغيرها أنه سبحانه مع خلقه مع كونه مستويًا علىٰ عرشه، وقرن بين الأمرين، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤] الآية، فأخبر أنه استوىٰ علىٰ عرشه وأنه مع خلقه يبصر أعمالهم من فوق عرشه، كما في حديث الأوعال، فعُلُوُّه سبحانه لا يناقض معيَّتَه، ومَعِيَّتُه لا تُبطل علوَّه، فكلاهما حق.

فهذه الآية فيها إثبات صفة الخلق كما تقدم، وفيها الرد علىٰ من زعم قِدم هذه المخلوقات وأنها لم تزل ولا تزال، وفيها إثبات الأفعال الاختيارية، وفيها أن هذه

المخلوقات خُلقت في ستة أيام، وفيها إثبات الاستواء، وفيها إثبات العرش، وفيها دليلٌ علىٰ أن الاستواء صفة فعل، وفيها دليلٌ علىٰ إثبات صفة العلم ودليلٌ علىٰ شمول العلم لكل شيء من الكليات والجزئيات، وفيها إثبات معيته سبحانه لخلقه، وأنها لا تناقض علوَّه واستواءه علىٰ العرش، بل كلاهما حق.

وفيها إشارة إلىٰ الندب إلىٰ استحضار قربه واطلاعه، كما في الحديث: «**الإحسانُ أنْ تَعبُدَ اللهَ كأنك تراه، فإنْ لم تكنْ تَراه فإنَّه يَراكَ**»(١).

⊙ **قوله**: «﴿مَا يَكُونُ﴾»؛ أي: يوجد، فـ«كان» تامة.

⊙ **قوله**: «﴿مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾»: النجوىٰ: إسرارُ ثلاثة، فالنجوىٰ: الإسرار.

⊙ **قوله**: «﴿رَابِعُهُمْ﴾»: لما كان سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ليس من جنس خلقه جعل نفسه رابع الثلاثة، وسادس الخمسة؛ إذ هو غيرهم بالحقيقة، والعرب تقول: رابع أربعة وخامس خمسة؛ لِما يكون فيه المضاف إليه من جنس المضاف، فإذا كان المضاف إليه من غير جنسه قالوا: رابع ثلاثة، وسادس خمسة ونحو ذلك. أفاده ابن القيم في «الصواعق»(٢).

⊙ **قوله**: ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾»؛ **أي**: مطلعٌ عليهم يسمع كلامهم ويعلم سرهم ونجواهم، ورسله مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علمه وسمعه، وكما قال سبحانه:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٤٨٠).

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولهذا حكىٰ غير واحدٍ الإجماع علىٰ أن المراد بهذه الآية معية علمه سبحانه، ولا شك في إرادة ذلك، ولكن سمعه -أيضًا- مع علمه بهم وبصره نافذٌ فيهم، فهو سبحانه مطلعٌ علىٰ خلقه لا يغيب عنه من أمرهم شيء(١).

⊙ قوله: «﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم﴾»؛ أي: يخبرهم يوم القيامة بجميع أعمالهم، قال تعالىٰ: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

⊙ قوله: «﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾»: قال الإمام أحمد: «افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم»، وقال أبو عمر بن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أجمع العلماء من الصحابة والتابعين الذين حُمل عنهم التأويل -أي تفسيرُ القرآن- قالوا في تأويل قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] الآية: هو علىٰ عرشه وعلمُه بكل مكان، وما خالفهم في ذلك من يُحتجُّ بقوله(٢).

⊙ قوله: «﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾»:

كان هذا القول عام الهجرة لمَّا همَّ المشركون بقتل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو حبْسِه أو نَفْيه، فخرج منهم هاربًا، صَحِبه صَدِيقُه وصاحِبه أبو بكر، فلجأ إلىٰ غار ثورٍ ثلاثة أيام ليرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ثم يسيرون نحو المدينة، فخاف أبو بكر علىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فجعل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُسكِّنه ويُثبِّته ويقول: «ما

---

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٨/ ٤٢).

(٢) انظر: «التمهيد» (٧/ ١٣٨، ١٣٩).

ظَنُّكَ باثنين اللهُ ثالِثُهُما؟!».

كما روى الإمام أحمد في «مسنده» عن أنس، أن أبا بكر حدَّثه قال: قلت للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثهما؟!**»[١]؛ أخرجاه في «الصحيحين»، ولذلك قال العلماء: من أنكر صحبة أبي بكر فهو كافرٌ؛ لإنكاره كلامَ الله، وليس ذلك لغير أبي بكر[٢].

⊙ **قوله**: «﴿لَا تَحْزَنْ﴾»: الحزن هو ضد السرور.

⊙ **وقوله**: «﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾»؛ أي بنصره وحفظه وكلاءته، ومن كان الله معه فلا خوف عليه[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٨٦)، ومسلم (٢٣٨١)، وأحمد (١/ ٤)، وغيرهم من حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «فتح البيان في مقاصد القرآن» لمحمد صديق خان (٥/ ٣٠٥).

(٣) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٤١٣-٤١٤)**:

«وأما قول من قال: فجاءت العنكبوت فنسجت على باب الغار، والحمامة وقعت على باب الغار، فلما جاء المشركون، وإذا على الغار حمامة وعش عنكبوت فقالوا: ليس فيه أحد!! فانصرفوا [أخرجه الطبراني (٢٠/ ٤٤٣/ ١٠٨٢)، قال العلامة الألباني في «السلسلة الضعيفة»، برقم (١١٢٨): «منكر»].

فهذا باطل!! الحماية الإلهية، والآية البالغة أن يكون الغار مفتوحًا صافيًا؛ ليس فيه مانع حسي، ومع ذلك لا يرون من فيه، هذه هي الآية!!

أما أن تأتي حمامة وعنكبوت تعشش؛ فهذا بعيد، وخلاف قوله: «لو نظر أحدهم إلى =

⊙ **قوله:** «﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾»: قد تقدم الكلام علىٰ هذه الآية الكريمة، فارجع إليه.

⊙ **وقوله:** «﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾»: أي: معهم بنصره وحفظه وتأييده، وهذه معيةٌ خاصة، وأما المعية العامة فبالسمع والبصر والعلم كما تقدم في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ [الحديد: ٤] فهي مقتضيةٌ لتخويف العباد منه.

⊙ **قوله:** «﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾»: في هذه الآية الأمر بالصبر وهو دليلٌ علىٰ وجوبه، وهو شاملٌ لأنواع الصبر الثلاثة، فإنَّ حَذْفَ المعمول يؤذن بالعموم.

⊙ **وقوله:** «﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾»؛ أي: بحفظه ونصره وتأييده، وهذه معية خاصة.

⊙ **قوله:** «﴿فِئَةٍ﴾»: أي جماعة، وهي جمعٌ لا واحدَ له من لفظه.

⊙ **قوله:** «﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾»: أي بقضائه وإرادته ومشيئته.

أفادت هذه الآية كالآية السابقة: الحثَّ علىٰ الصبر، وأنه أعظم سببٍ في تحصيل المقصود، وفيه -أيضًا- المعية الخاصة للصابرين وأن الله ضمن لهم النصر،

=

قدمه، لأبصرنا».

المهم أن بعض المؤرخين -عفا الله عنهم- يأتون بأشياء غريبة شاذة منكرة لا يقبلها العقل ولا يصح بها النقل» اهـ.

وفي حديث ابن عباس، أن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «واعلَمْ أنَّ النَّصرَ مع الصبر»(١)، وفيها أن النصر من عند الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، لا عن كثرة عدد ولا عدة، وإنما تلك أسباب، وقد أمر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بتعاطيها واتخاذها كما قال سبحانه: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

أفادت هذه الآيات المتقدمة إثبات المعية، فالآيتان الأوليان فيهما إثبات المعية العامة، والخمس الآيات الأخيرة فيها إثبات المعية الخاصة، ومعيته سبحانه لا تنافي علوه علىٰ خلقه واستوائه علىٰ عرشه بل تجامعه، فإن قربه سبحانه ومعيته ليست كقرب المخلوق ومعيته ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ: ١١].

⊙ **قوله:** «﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾»: أي: هو إلهُ ومعبودُ أهلِ السموات والأرض، كما تقول: فلان أمير في خُراسان وفي العراق، فلا يدل علىٰ أنه فيهما جميعًا، وكذلك قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣] فسَّره أئمة العلم -كالإمام أحمد وغيره- أنه المعبود في السموات والأرض، فهذه الآيات لا تخالف الآيات التي فيها إثبات علوه سبحانه واستوائه علىٰ عرشه، بل تجامعها، فإن قربه ومعيته كما يليق بجلاله وعظمته، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ: ١١].

◈ ◈ ◈

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧)، والطبراني (١١/ ١٢٣)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٨٢).

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الشعراء: ١٠]، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص: ٦٢]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص: ٦٥].

الشرح

⊙ **قوله:** «﴿وَمَنْ أَصْدَقُ﴾»: لفظه استفهام، ومعناه: لا أحد أصدقُ من الله في حديثه وخبره ووعده ووعيده، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في خطبته: «**إن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**»(١).

⊙ **قوله:** «﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾»: أي لا أحد أصدق من الله قولًا ولا خبرًا.

⊙ **قوله:** «﴿ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾»: أضافه إلى أمه؛ لأنه لا أبَ له، فهو من أمٍّ بلا أب، ففي

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٧)، والنسائي (١٥٧٨)، وأحمد (٣/ ٣١٠)، اللفظ لهما، وغيرهم من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذه الآيات إثبات القول لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنه يقول متىٰ شاء إذا شاء، وأن الكلام والقول المضاف إليه سبحانه قديم النوع حادث الآحاد، وفيه دليلٌ علىٰ أنه سبحانه يتكلم بحرفٍ وصوتٍ كما يليق بجلاله سبحانه، وفيه الرد علىٰ من زعم أن كلام الله هو المعنىٰ النفسي، إذ المعنىٰ المجرد لا يُسمع.

⊙ **قوله:** «﴿صِدْقًا﴾»: أي صدقًا في الإخبار وعدلًا في الطَّلَب، فكل ما أخبر به سبحانه فهو حقٌّ لا مِريةَ فيه ولا شك، فكل ما أمر به فهو العدل الذي لا عدل سواه، وكل ما نهىٰ عنه فباطل؛ لأنه لا ينهىٰ إلا عن مفسدة، والمراد بالكلمة: أمره ونهيه، ووعده ووعيده.

وكلمات الله نوعان: كونيةٌ، ودينية.

فكلمات الله الكونية: هي التي استعاذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها في قوله: **«أعوذُ بكلمات الله التَّامات التي لا يُجاوِزُهنَّ برٌّ ولا فاجِر»**[1]، وكقوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

النوع الثاني: **الكلمات الدينية**: وهي القرآن وشرع الله الذي بعث به رسوله، وهي أمره ونهيه. انتهىٰ من كلام الشيخ تقي الدين ابن تيمية[2].

⊙ **قوله:** «﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾»: أي ليس أحدٌ يعقب حكمه سبحانه لا في

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٩)، والطبراني (٤/ ١١٤)، وغيرهما من حديث خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ظلال الجنة» (٣٧٢)، وقد صح الحديث من غير هذا الوجه.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ٣٢٢).

الدنيا ولا في الآخرة.

⊙ **قوله:** «﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾»: الذي أحاط سمعه بسائر الأصوات، وأحاط علمه بالظواهر والخفيات(١).

⊙ **قوله:** «﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾»: خصص الله نبيه موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بهذه الصفة تشريفًا له؛ ولذا يقال لموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: الكَليم، وهذا دليلٌ علىٰ أن التكليم الذي حصل لموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أخص من مطلق الوحي، ثم أكده بالمصدر الحقيقي رفعًا لما توهمه المعطلة من أنه إلهامٌ أو إشارةٌ أو تعريفٌ للمعنىٰ النفسي بشيء غير التكليم فأكده بالمصدر المفيد لتحقيق النسبة ورفع توهم المجاز.

قال الفراء: إن الكلام إذا أكِّد بالمصدر ارتفع المجاز وثبتت الحقيقة(٢)، ويروىٰ أن رجلًا قال لأبي عمرو بن العلاء: أريد أن تقرأ: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤]، بنصب لفظ الجلالة، فقال له: هب أني قرأت ذلك، فما تقول في قوله: ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؟ فبُهت المعتزلي.

---

(١) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٤٢٠):
«تمت كلمات الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ هذين الوصفين: الصدق والعدل، والذي يوصف بالصدق الخبر، والذي يوصف بالعدل الحكم؛ ولهذا قال المفسرون: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الأحكام.
فكلمات الله عَزَّوَجَلَّ في الأخبار صدق لا يعتريها الكذب بوجه من الوجوه، وفي الأحكام عدل لا جور فيها بوجه من الوجوه.
هنا وصفت الكلمات بالصدق والعدل، إذًا فهي أقوال؛ لأن القول هو الذي يقال فيه: كاذب أو صادق» اهـ.

(٢) انظر: «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (٣/ ٢٣٥).

⊙ **قوله**: «﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾»: أي: كلَّمه اللهُ، كموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومحمد، وكذلك آدم كما ورد به الحديث المروي في «صحيح ابن حبان» عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(١).

⊙ **قوله**: «﴿لِمِيقَٰتِنَا﴾»: أي: للوقت الذي ضربنا أن نكلِّمه فيه.

⊙ **قوله**: «﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾»: كلَّمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكلامٍ حقيقيٍّ يليق بجلاله وعظمته، وكلَّمه بلا واسطة.

فهذه الآيات أفادت إثبات صفة الكلام لله، وأنه تكلم ويتكلم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والأدلة الدالة علىٰ أنه يتكلم أكثر من أن تحصر، وفيها الرد علىٰ من زعم أن كلامه سبحانه معنىٰ واحد قائم بالنفس لا يُتصور أن يُسمَع، وفيها دليلٌ علىٰ أن كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حقيقة لا مجاز؛ لأنه أكده بالمصدر، فقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤]، أكده بالمصدر لنفي المجاز؛ لأن العرب لا تؤكد بالمصدر إلا إذا أرادت الحقيقة، وفيها دليلٌ علىٰ أن الله لم يزل متكلمًا إذا شاء ومتىٰ

---

(١) يعني ما رواه ابن حبان (١٤/ ٦٩) (٦١٩٠) عن أَبِي أُمَامَةَ، أَنَّ رَجُلًا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَبِيٌّ كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: «نَعَمْ، مُكَلَّمٌ»، قَالَ: فَكَمْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ؟ قَالَ: «عَشَرَةُ قُرُونٍ»، هكذا رواه ابن حبان بدون التصريح بذكر أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ورواه الطبري في «تاريخ الأمم والملوك» (١/ ١٥٠) عن أبي أمامة، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله، أنبيًا كان آدم؟ قال: «نَعَمْ، كَانَ نَبِيًّا، كَلَّمَهُ اللهُ قُبُلًا»، وكذا رواه عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أحمد (٥/ ١٧٨) (٢١٥٨٦)، والنسائي (٨/ ٢٧٥) (٥٥٠٧)، والحاكم (٢/ ٣١٠) (٣١١٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٤٥٧) (٢٣٩٠)، وغيرهم، والحديث صححه الألباني، انظر: «الصحيحة» (٢٦٦٨).

شاء وكيف شاء.

وفيها دليلٌ علىٰ أن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعيَّن قديمًا، فكلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قديم النوع حادث الآحاد، وتقدمت الإشارة إلىٰ أن كلامه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نوعان: كوني قدري به توجد الأشياء، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]. الثاني: كلامٌ ديني شرعي، ومنه كتُبه المنزلة علىٰ رسله، فهو الذي تكلم بها حقًّا وليست مخلوقة، بل هي من جملة صفاته، وصفاته سبحانه غير مخلوقة كما تقدم في حديث خولة، وبه استدل الإمام أحمد وغيره علىٰ أن كلام الله غير مخلوق؛ لأنه أمر بالاستعاذة بكلمات الله؛ والاستعاذة بالمخلوق شركٌ، فدل علىٰ أن كلام الله غير مخلوق. وتكليمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لعباده نوعان:

الأول: بلا واسطة، كما كلَّم موسىٰ بنَ عِمران، وكما كلَّم الأبوين، وكذا نادىٰ نبيَّنا ليلة الإسراء.

الثاني: تكليمه سبحانه لعباده بواسطة؛ إما بالوحي الخاص للأنبياء، وإما بإرساله إليهم رسولًا يكلمهم من أمره بما شاء.

وفي الآيات المتقدمة -أيضًا- دليلٌ علىٰ أن الكلام المضاف إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من صفاته الذاتية من حيث تعلقها بذاته واتصافه بها، ومن صفاته الفعلية حيث كانت متعلقة بقدرته ومشيئته.

⊙ **قوله:** «﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ...﴾»: أي: نادينا موسىٰ وكلمناه بقول: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]، **وقوله:** ﴿ٱلطُّورِ﴾ [القصص: ٤٦]: هو

اسم جبلٍ بين مصر ومَدين، وقوله: ﴿ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]: أي: الذي يلي يمين موسىٰ حين أقبل من مدين، قوله: ﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: ٥٢]: أي: مناجيًا.

⊙ **قوله:** «﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الشعراء: ١٠]، وقوله: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]»: أي: نادىٰ آدم وحواء.

⊙ **قوله:** «﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص: ٦٥]»:

قال بعض السلف: ما مِن فِعلة وإن صغُرت إلا ويُنشر لها ديوانان: لِمَ؟ وكيف؟ أي: لِمَ فعلت؟ وكيف فعلتَ؟ **فالأول** سؤال عن الإخلاص، **والثاني** سؤال عن المتابعة. فإن الله لا يقبل عملًا إلا بهما، فطريق التخلص من السؤال الأول بتجريد الإخلاص، وطريق التخلص من السؤال الثاني بتحقيق المتابعة. انتهىٰ من «الإغاثة»(١).

وقال بعض السلف: كلمتان يُسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ فيُسأل عن المعبود وعن العبادة.

أفادت هذه الآيات إثبات صفة الكلام لله، وأنه نادىٰ وناجىٰ، وقد جاء النداء في تسع آيات من القرآن، وكذلك النجاء جاء في عدة آيات، والنداء هو الصوت الرفيع وضده النجاء، ففيها إثبات أن الله يتكلم بحرفٍ وصوتٍ يليق بجلاله؛ إذ لا يعقل النداء والنجاء إلا ما كان حرفًا وصوتًا، وقد استفاضت الآثار عن النبي ﷺ والصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة السنة بذلك.

---

(١) انظر: «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» (١/ ٨).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «النونية»:

وَاللهُ قَـــدْ نَـــادَىٰ الْكَلِـــيمَ وَقَبْلَـــهُ ... سَـــمِعَ النِّـــدَا فِـــي الْـــجَنَّةِ الأَبَـــوَانِ

وَأَتَـــىٰ النِّـــدَا فِـــي تِسْـــعِ آيَـــاتٍ لَـــهُ ... وَصْـــفًا فَرَاجِعْهَـــا مِـــنَ الْقُـــرْآنِ

وَكَـــذَا يُكَلِّـــمُ جِبْرَئِيـــلَ بِـــأَمْرِهِ ... حَتَّـــىٰ يُنَفِّـــذَهُ بِكُـــلِّ مَكَـــانِ

وَاذْكُـــرْ حَـــدِيثًا فِـــي صَحِيحِ مُحَمَّـــدٍ ... ذَاكَ الْبُخَـــارِيِّ الْعَظِـــيمِ الشَّـــانِ

فِيـــهِ نِـــدَاءُ اللهِ يَـــوْمَ مَعَادِنَـــا ... بِالصَّـــوْتِ يَبْلُـــغُ قَاصِـــيًا وَالـــدَّانِي

هَـــبْ أَنَّ هَـــذَا اللَّفْـــظَ لَـــيْسَ بِثَابِـــتٍ ... بَـــلْ ذِكْـــرُهُ مَـــعَ حَذْفِـــهِ سِـــيَّانِ

وَرَوَاهُ عِنْـــدَكُمُ الْبُخَـــارِيُّ الْمُجَسْـــ ... ـــسِمُ بَـــلْ رَوَاهُ مُجَسِّـــمٌ فَوْقَـــانِ

أَيَصِـــحُّ فِـــي عَقْـــلٍ وَفِـــي نَقْـــلٍ نِـــدَا ... ءٌ لَـــيْسَ مَسْـــمُوعًا لَنَـــا بِـــأَذَانِ

أَمْ أَجْمَـــعَ الْعُلَمَـــاءُ وَالْعُقَـــلَاءُ مِـــنْ ... أَهْـــلِ اللِّسَـــانِ وَأَهْـــلِ كُـــلِّ لِسَـــانِ

أَنَّ النِّـــدَا الصَّـــوْتُ الرَّفِيـــعُ وَضِـــدُّهُ ... فَهُـــوَ النَّجَـــاءُ كِلَاهُمَـــا صَـــوْتَانِ(١)

وفي هذه الآيات -أيضًا- الرد علىٰ من زعم أن كلام الله هو المعنىٰ النفسي، إذ المعنىٰ المجرد لا يُسمع.

وقد رد الشيخ تقي الدين علىٰ من زعم ذلك من تسعين وجهًا.

قال ابن القيم في «النونية»:

تســـعون وجهًـــا بينـــت بطلانـــه ... أعنـــي كـــلام الـــنفس ذي الـــبطلان

قال بعض العلماء: من زعم أن كلام الله هو المعنىٰ النفسي فقد زعم أن الله لم

---

(١) سقطت الأبيات من ٣- ٧ من النسخة المطبوعة، وقد استكملناها من «النونية».

يرسل رسولًا ولم يُنزل كتابًا، وقال: من زعم أن كلام الله هو المعنىٰ النفسي فقد زعم أن الله أخرس.

وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح البخاري»: ومن نفىٰ الصوت فقد زعم أن الله لم يُسمِع أحدًا من ملائكته ولا رسله كلامًا، بل ألهمهم إياه إلهامًا(١).

وفيها الرد علىٰ من زعم أن كلام الله هو معنىً قائمٌ بذاته لا يتجزأ ولا يتبعَّض، فإن الأمر لو كان كما زعموا لكان موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سمع جميع كلام الله، وفيها الرد علىٰ من زعم أن كلام الله مخلوق، فإن صفات الله داخلةٌ في مسمىٰ اسمه، فليس الله اسمًا لذات لا سمع لها ولا بصر ولا حياة ولا كلام لها، فكلامه وعلمه وحياته وقدرته داخلةٌ في مسمىٰ اسمه، فهو سبحانه بصفاته الخالق وما سواه المخلوق.

وفي إثبات الكلام إثبات الرسالة، فإذا انتفت صفة الكلام انتفت صفة الرسالة؛ إذ حقيقة الرسالة تبليغ كلام المرسِل، ومن هاهنا قال السلف: من أنكر كون الله متكلمًا فقد أنكر رسالة الرسل كلهم، والرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يخلق بقوله وبكلامه كما قال: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، فإذا انتفت حقيقة الكلام عنه فقد انتفىٰ الخلق.

◈ ◈ ◈

(١) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (١٣/ ٤٥٨).

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [الفتح: ١٥]، ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف: ٢٧]، ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢]، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠١-١٠٣].

• الشرح •

⊙ **قوله:** «﴿وَإِنْ أَحَدٌ﴾»: مرفوعٌ بفعل يفسره: استجارك، وقوله: ﴿فَأَجِرْهُ﴾ [التوبة: ٦]، أي: أمِّنه، وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]: أي: حتىٰ يسمع القرآن مبلغًا إليه من قارئه، كما قال أبو بكر الصديق حين قرأ علىٰ قريش: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾﴾ [الروم: ١، ٢]: فقالوا: هذا كلامك أو كلام صاحبك، فقال: «ليس بكلامي

ولا بكلام صاحبي، ولكنه كلام الله»(١)، وفي «سنن أبي داود» أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَعرِض نفسَه علىٰ الناس بالموسم فيقول: «**أَلَا رَجُل يَحملني إلىٰ قومِه لأُبلِّغ كلَامَ ربِّي، فإن قريشًا مَنعوني أن أُبَلِّغَ كلامَ ربِّي**»(٢)؛ فبين أن ما يبلغه ويتلوه هو كلام الله لا كلامه.

وفي الآية دليلٌ علىٰ أنه إذا استأمن مشركٌ ليسمع القرآن وجب تأمينه؛ ليعلم دين الله وتنتشر الدعوة، ومنها أن رسول الله كان يعطي الأمان لمن جاءه مسترشدًا أو في رسالة كما جاء في الحديبية جماعة من قريش، وكذلك من قدم من دار الحرب إلىٰ دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو طلب صلحٍ أو مهادنة أو حمل جزية، أو طلب من الإمام أو نائبه أعطي أمانًا ما دام مترددًا في دار الإسلام حتىٰ يرجع إلىٰ مأمنه ووطنه.

وفيها دليلٌ علىٰ إثبات صفة الكلام لله وأنه يتكلم، وأن القرآن كلامه، وفيها دليلٌ علىٰ أن الكلام إنما يُنسب إلىٰ من قاله ابتداءً لا إلىٰ من قاله مُبلِّغًا مؤدِّيًا، فإن القارئ يبلِّغ كلام الله، وكلامه سبحانه صفة من صفاته غير مخلوق، وأما صوت القارئ وكذا المِدادُ والورَق فهي مخلوقةٌ؛ لهذه الآية، ولحديث: «**زَيِّنوا القرآنَ بأصواتكم**»(٣)، فبين أن الأصوات التي يُقرأ بها القرآن أصواتنا، والقرآن كلام الله،

---

(١) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٥٨٥) (٥١٠)، وانظر: «فتح الباري» لابن حجر (١٣/ ٤٥٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، والطبراني في «الأوسط» (٦٨٤٧)، وغيره من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٤٧).

(٣) أخرجه أبو داود (١٤٦٨)، والنسائي (١٠١٥)، وابن ماجه (١٣٤٢)، وغيرهم من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٧١).

فالقرآن كلام الباري والصوت صوت القارئ.

وفي هذه الآية دليلٌ علىٰ أن القرآن الذي هو سورٌ وآيات وحروف وكلمات هو عَين كلامه سبحانه حقًّا، لا تأليف ملَك ولا بشر، وأن حروفه ومعانيه عين كلامه سبحانه الذي تكلم به سبحانه حقًّا، وبلغه جبريلُ إلىٰ محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبلغه محمدٌ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فللرسولين منه مجرد التبليغ والأداء لا الوضع والإنشاء، فإضافته إلىٰ الرسول بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠﴾ [الحاقة: ٤٠] إضافة تبليغٍ وأداءٍ لا إضافة وضعٍ وإنشاء، لا كما يقوله أهل الزيغ والافتراء.

وفيه الرد علىٰ من زعم أن هذا الموجود بين أيدينا هو عبارةٌ عن كلام الله أو حكاية له، فإنه سبحانه أخبر أن الذي يُسمع كلام الله، وعندهم أن الذي يُسمع ليس كلام الله علىٰ الحقيقة، وإنما هو مخلوق حُكي به كلام الله علىٰ أحد قولهم، وعبارة عُبِّر بها عن كلام الله علىٰ القول الآخر، وهي مخلوقة علىٰ القولين، فالمقروء المكتوب والمسموع والمحفوظ ليس كلامَ الله، وإنما هو عبارة عبِّر بها عنه كما يعبَّر عن الذي لا يَنطق ولا يتكلم من أخرس أو عاجز، تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

وفيه دليلٌ علىٰ أن القرآن كلام الله، وأنه يُسمع، وأنه غير مخلوق، وفيها الرد علىٰ من زعم أنه مخلوق أو أنه كلام بشر أو ملَك أو غير ذلك، وفيها أن من زعم أنه كلام غير الله فقد كفر، أو زعم أنه مخلوق.

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولم يقل أحد من السلف: إنه مخلوقٌ أو إنه قديم، بل الآثار متواترة عن السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنهم يقولون: القرآن كلام الله، وأول من عُرف عنه أنه قال: مخلوق؛ الجعد بن درهم وصاحبه الجهم بن

صفوان، وأول من عُرف عنه أنه قال: هو قديم؛ عبد الله بن سعيد بن كُلّاب، أما السلف فلم يقل أحدٌ منهم بواحد من القولين، ولم يقل أحد من السلف: إن القرآن عبارةٌ عن كلام الله ولا حكايةٌ له، ولا قال منهم أحدٌ: إن لفظي بالقرآن قديمٌ أو مخلوق، بل كانوا يقولون بما دل عليه الكتاب والسنة من أن هذا القرآن كلام الله، والناس يقرءونه بأصواتهم ويكتبونه بمدادهم، وما بين اللوحين كلام الله، وكلام الله غير مخلوق، والمداد الذي يُكتب به القرآن مخلوق، والصوت الذي يقرأ به هو صوت العبد، والعبد وصوته وحركاته وسائر صفاته مخلوقة، فالقرآن الذي يقرؤه المسلمون كلام الباري والصوت صوت القارئ(١). انتهىٰ.

قال البخاري رحمه الله في كتاب «خلق أفعال العباد» بعد ذكر هذه الآية والآية التي بعدها، أي قوله سبحانه: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] وقوله: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ [الطور: ١ - ٣] قال: ذكر الله أن القرآن يُحفظ ويُسْطر، والقرآن المُوعىٰ في القلوب المسطور في المصاحف المتلو بالألسنة كلام الله ليس بمخلوق، وأما المِداد والورق والجلد فإنه مخلوق. انتهىٰ من «فتح الباري»(٢)(٣).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٢/ ٣٠١).

(٢) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (١٣/ ٥٢٢).

(٣) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٤٢٤، ٤٢٥):**

«وهذه المسألة وقع فيها النزاع الكثير بين المعتزلة وأهل السنة، وحصل بها شر كثير علىٰ أهل السنة، وممن أوذي في الله في ذلك الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إمام أهل السنة، الذي قال فيه =

⊙ **قوله**: «﴿فَرِيقٌ﴾»: أي: طائفة، ﴿مِّنْهُمْ﴾: أي: أحبارهم، ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾؛ أي التوراة.

⊙ **قوله**: «﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾»: أي: يغيرونه ويتأولونه على غير تأويله ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ﴾ أي: فهموه، ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾ أي: أنهم مفترون، وإذا كان هذا حال علمائهم فكيف بجهالهم؟!

=

بعض العلماء: «إن الله عَزَّوَجَلَّ حفظ الإسلام -أو قال: نصره- بأبي بكر يوم الردة، وبالإمام أحمد يوم المحنة».

والمحنة: هو أن المأمون -عفا الله عنا وعنه- أجبر الناس على أن يقولوا بخلق القرآن، حتى إنه صار يمتحن العلماء ويقتلهم إذا لم يجيبوا، وأكثر العلماء رأوا أنهم في فسحة من الأمر، وصاروا يتأولون:

إما بأن الحال حال إكراه، والمكره إذا قال الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان؛ فإنه معفو عنه.

وإما بتنزيل اللفظ على غير ظاهره؛ يتأولون، فيقولون مثلًا: القرآن والتوراة والإنجيل والزبور، هذه مخلوقة، وهو يتأول أصابعه.

أما الإمام أحمد ومحمد بن نوح رَحِمَهُمَاٱللَّهُ فأبيا ذلك، وقالا: القرآن كلام الله منزل غير مخلوق.

ورأيا أن الإكراه في هذا المقام لا يُسوِّغ لهما أن يقولا خلاف الحق؛ لأن المقام مقام جهاد، والإكراه يقتضي العفو إذا كانت المسألة شخصية؛ بمعنى: أن تكون على الشخص نفسه، أما إذا كانت المسألة لحفظ شريعة الله عَزَّوَجَلَّ؛ فالواجب أن يتبرع الإنسان برقبته؛ لحفظ شريعة الله.

لو قال الإمام أحمد في ذلك الوقت: إن القرآن مخلوق، ولو بتأويل أو لدفع الإكراه؛ لقال الناس كلهم: القرآن مخلوق! وحينئذٍ يتغير المجتمع الإسلامي من أجل دفع الإكراه، لكنه صمم، فصارت العاقبة له، ولله الحمد» اهـ.

في هذه الآية التأييس من إيمان اليهود الذين شاهد آباؤهم ما شاهدوا، ثم قست قلوبهم ولم ينفعهم ما شاهدوه، وفيها ذمٌّ للمحرِّفين للكلم عن مواضعه، وأن التحريف من صفات اليهود، وأفادت هذه الآية كغيرها إثبات صفة الكلام لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والرد علىٰ من زعم أن الله لا يتكلم أو أن كلامه مخلوق.

وفيها دليلٌ علىٰ أن الكلام إنما ينسب إلىٰ من قاله مُبتدِئًا لا إلىٰ من قاله مبلِّغًا مؤديًا، فإن قوله: ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾: أي: من قارئه ومبلِّغه.

⊙ **قوله:** «﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ...﴾»: أي مواعيده بغنائم خيبر أهل الحديبية خاصةً لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب والمتخلفين، فلا يقع غير ذلك شرعًا ولا قدرًا، ولهذا قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥] وهو الوعد الذي وعد به أهل الحديبية. اختاره ابن جرير.

⊙ **قوله:** «﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾»: أي: في خيبر، وهذا خبر بمعنىٰ النهي.

⊙ **قوله:** «﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾»: أي: من قبل عودنا، من قبل انصرافنا من مكة إلىٰ المدينة أن غنيمة خيبر لمن شهد الحديبية خاصة دون غيرهم.

أفادت هذه الآية كغيرها: إثبات صفة الكلام، وإثباتَ القول لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه قال ويقول متىٰ شاء إذا شاء.

⊙ **قوله:** «﴿وَٱتْلُ﴾»: أي: اتبع، والتلاوة هي الاتباع، يقال: اتْلُ أثرَ فلان، وتلوت أثره وقفوته وقصصته بمعنىٰ تبعت خلفه، ويسمىٰ تالي الكلام تاليًا؛ لأنه يُتبع بعضَ الحروف بعضًا، لا يُخرجها جملةً واحدة، وحقيقة التلاوة في هذا الموضع

وغيره هي التلاوة المطلقة التامة، وهي تلاوة اللفظ والمعنىٰ. انتهىٰ ملخصًا من كلام ابن القيم(١).

⊙ **قوله:** «﴿مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾»: الوحي: لغة: الإعلام في خفاء، وفي الاصطلاح: إعلام الله أنبياءه بالشيء؛ إما بكتاب، أو رسالة ملَكٍ، أو مَنامٍ، أو إلهام.

⊙ **قوله:** «﴿مِن كِتَابِ رَبِّكَ﴾»: أي القرآن بدليل قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] -إلىٰ قوله-: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠] الآية، والمسموع واحد، والكتاب في الأصل جنس ثم غلب علىٰ القرآن من بين الكتب. انتهىٰ، «الكوكب المنير» ملخصًا(٢).

⊙ **قوله:** «﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾»: أي: لا تغيُّر ولا تبدُّل، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، في هذه الآية كغيرها دليلٌ علىٰ أن الكتاب هو القرآن، خلافًا للكُلَّابيَّة، فإن الله سبحانه سمىٰ نفس مجموع اللفظ والمعنىٰ قرآنًا وكتابًا وكلامًا، كما تقدم في قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الأحقاف: ٢٩] الآية، فبين أن الذي سمعوه هو القرآن وهو الكتاب، وقال

---

(١) انظر: «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ٤٢).

(٢) انظر: «شرح الكوكب المنير» (٢/ ٧) لتقي الدين الفتوحي الحنبلي (ت:٩٧٢هـ)، وهو اختصار لكتاب «تحرير المنقول وتهذيب علم الأصول» للمرداوي الحنبلي (ت:٨٨٥هـ)، اقتصر فيه الفتوحي علىٰ قول الأكثر عند الحنابلة، دون غيره من الأقوال، وربما يذكر قولًا آخر في المسألة، لفائدة تزيد علىٰ معرفة الخلاف، وربما يترك الترجيح، ويطلق القولين أو الأقوال، إذا لم يطلع علىٰ مصرِّح بتصحيح أحد القولين أو الأقوال.

تعالىٰ: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ [الحجر: ١].

وفي الآية المتقدمة دليلٌ علىٰ أن القرآن مُنزَّلٌ من عند الله، وأنه كلامه، وفيها الحث علىٰ تلاوته، وأنه سبحانه ضمن حفظه من التغيير والتبديل.

⊙ **قوله:** «﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾»: مصدر قرأ؛ أي: جمع؛ لجمعه السور؛ أو ما في الكتب السابقة.

⊙ **قوله:** «﴿يَقُصُّ﴾»: أي يُبيِّن ﴿عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ وهم حملة التوراة ﴿أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝٧٦﴾ [النمل: ٧٦]، وذلك كاختلافهم في أمر عيسىٰ وتباينهم فيه، فجاء القرآن بالقول العدل الحق: أنه عبدٌ من عباد الله ونبيٌّ من أنبيائه.

وفي الآية دليلٌ علىٰ عظمة هذا الكتاب وهيمنته علىٰ الكتب السابقة، وتوضيحه لما وقع فيها من اشتباه، وإضافة القصص والتوضيح إليه وتضمن وجوب الرجوع إليه واتباعه.

⊙ **قوله:** ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ ﴾»: أي: القرآن ﴿مُبَارَكٌ﴾ أي: كثير المنافع والخير.

⊙ **قوله:** «﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا﴾»: أي متذللًا، ﴿مُّتَصَدِّعًا﴾: أي: متشققًا، فإذا كان القرآن لو أُنزل علىٰ جبل لخشع وتصدَّع من خوف الله فكيف يليق بكم أيها الناس أن لا تلين قلوبكم وتخشع من خوف الله وقد فهمتم عن الله أمره ونهيه وتدبرتم كتابه؟!

وفي الآية دليلٌ علىٰ عظمة القرآن، وأنه لو أنزل علىٰ جبل لخشع وتصدع من خشية الله، وفيها دليلٌ علىٰ أنه سبحانه خلق في الجمادات إدراكًا بحيث تخشع

وتسبِّح، وهذا حقيقةٌ كما دلت علىٰ ذلك الأدلة، ولا يعلم كيفية ذلك إلا هو سبحانه، وفيها حثٌّ علىٰ الخوف من الله والخشوع عند سماع كلامه، وأنه ينبغي أن يقرأ بتدبرٍ وخشوعٍ وإقبال قلبٍ، وأنه ينبغي الرقة عند سماع كلام الله والبكاء وتلاوته بحزن.

⊙ **قوله:** «﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾»: أي نسخناها وأنزلنا غيرها لمصلحة العباد.

⊙ **قوله:** «﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾»: أي هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلم بما هو أصلح لخلقه فيما يغيِّر وينسخ من أحكامه، وفي الآية دليلٌ علىٰ وقوع النسخ في القرآن وأنه لحكمةٍ ومصلحةٍ يعلمها سبحانه، فهو أعلم بمصلحة عباده، وفيها دليلٌ علىٰ إحاطة علمه سبحانه بكل معلوم.

⊙ **قوله:** «﴿قَالُوٓاْ﴾»: أي الكفار ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾ أي: كذاب ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾، أي: لا يعلمون الحكمة في ذلك.

⊙ **قوله:** «﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ﴾»: أي: القرآن، والتنزيل والإنزال هو مجيء الشيء من أعلىٰ إلىٰ أسفل؛ ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾: أي: جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فجبريل سمعه من الله، والنبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمعه من جبريل، وهو الذي نزل بالقرآن علىٰ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما نص علىٰ ذلك أحمد وغيره من الأئمة، وجبريل هو الرُّوح الأمين المذكور في قوله سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ١٩٤] الآية.

ولم يقل أحدٌ من السلف: إن النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمعه من الله، وإنما قال ذلك بعض المتأخرين، والآية ترد عليه.

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح البخاري»: والمنقول عن السلف اتفاقهم أن القرآن كلام الله غير مخلوق، تلقاه جبريل عن الله، وبلغه جبريل إلىٰ محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبلغه محمد إلىٰ أمته(١). انتهىٰ.

ففي هذه الآيات دليلٌ علىٰ أن القرآن منزلٌ من عند الله، وأنه كلامه بدأ منه وظهر لا من غيره، وأنه الذي تكلم به لا غيره، وأما إضافته إلىٰ الرسول في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾ [الحاقة: ٤٠] فإضافة تبليغٍ لا إضافة إنشاء، والرسالة: تبليغ كلام المرسل، ولو لم يكن للرسل كلامًا يبلغه الرسول لم يكن رسولًا، ولهذا قال غير واحد من السلف: من أنكر أن يكون الله متكلمًا فقد أنكر رسالة رسله، فإن حقيقة رسالتهم تبليغ كلام المرسِل.

وفيها دليلٌ علىٰ علو الله علىٰ خلقه.

والتنزيل والإنزال المذكور في القرآن ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

الأول: إنزالٌ مطلق؛ **كقوله:** ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: ٢٥].

الثاني: إنزالٌ من السماء؛ **كقوله:** ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨﴾ [الفرقان: ٤٨].

الثالث: إنزالٌ منه سبحانه؛ **كقوله:** ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢].

فأخبر أن القرآن منزلٌ منه، والمطر منزلٌ من السماء، والحديد منزلٌ نزولًا

---

(١) انظر: «فتح الباري» (١٣/ ٤٦٣).

مطلقًا، ففرق سبحانه بين النزول منه والنزول من السماء، وحكم المجرور بـ«مِن» في هذا الباب حُكم المضاف، والمضاف ينقسم إلىٰ قسمين: إضافة أعيان، وإضافة معانٍ، فإضافة الأعيان إليه سبحانه من باب إضافة المخلوق إلىٰ خالقه، كبيت الله وناقة الله ونحو ذلك، أما إضافة المعاني إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهي من باب إضافة الصفة إلىٰ الموصوف، كسمع الله وبصره وعلمه وقدرته، فهذا يمتنع أن يكون المضاف مخلوقًا، بل هو صفة قائمة به، وهكذا حكم المجرور بـ«من»، فإضافة القرآن إليه سبحانه من باب إضافة الصفة إلىٰ الموصوف، لا من باب إضافة المخلوق إلىٰ خالقه، خلافًا للمبتدعة من المعتزلة والجهمية وأشباههم.

وفي هذه الآية الرد علىٰ من زعم أن القرآن مخلوقٌ أو أنه كلام بشر وغيره، فمن زعم ذلك فهو كافرٌ بالله العظيم، كما روي ذلك عن السلف، وفيها دليلٌ علىٰ أن جبريل نزل به من عند الله، فإنه ﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢] وهو -أيضًا- الروح الأمين، وفي قوله: ﴿ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣] دليلٌ علىٰ أنه مؤتمن علىٰ ما أرسل به، فلا يزيد عليه ولا ينقص.

وفيها دليلٌ علىٰ أن الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمعه من جبريل وهو الذي نزل به عليه من عند الله، وجبريل سمعه من الله، والصحابة سمعوه من النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيها الرد علىٰ من قال: إن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمع القرآن من الله، وفيها الدلالة علىٰ بطلان قول من قال: إنه مخلوق خلقه الله في جسم من الأجسام المخلوقة، كما هو قول الجهمية القائلين بخلق القرآن، وفيها الدلالة علىٰ بطلان قول من قال: إنه فاض علىٰ النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من العقل الفعَّال أو غيره، كما يقوله طوائف من

الفلاسفة والصابئة، وهذا القول أشد كفرًا من الذي قبله.

وفيها **الدليل** علىٰ بطلان قول من يقول: إن القرآن العربي ليس منزلًا من الله بل مخلوق؛ إما في جبريل أو محمدٍ أو جرمٍ آخر كالهواء، كما يقول ذلك الكُلابية والأشعرية القائلين بأن القرآن العربي ليس هو كلام الله، وإنما كلامه المعنىٰ القائم بذاته، والقرآن العربي خُلق ليدل علىٰ ذلك المعنىٰ، وهذا يوافق قول المعتزلة ونحوهم في إثبات خلق القرآن، وفيها أن السفير بين الله ورسوله محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفيها **الرد** علىٰ من زعم أن كلام الله هو المعنىٰ النفسي، فإن جبريل سمعه من الله، والمعنىٰ المجرد لا يُسمع، وفيها دليلٌ أن القرآن نزل باللغة العربية وتكلم الله سبحانه بالقرآن بها، وفيها الرد علىٰ من زعم أنه يجوز ترجمة القرآن باللغات الأعجمية؛ لأن القرآن معجز بلفظه ومعناه.

⊙ **قوله:** «﴿بِٱلْحَقِّ﴾»: أي: بالصدق والعدل ﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [النحل: ١٠٢]: أي: يزيدهم يقينًا وإيمانًا.

⊙ **قوله:** «﴿وَهُدًى﴾»: أي: بيانٌ ونورٌ وبصيرة، ويطلق الهدىٰ ويراد به ما يقرُّ في القلب من الإيمان، وهذا لا يقدر علىٰ خلقه في قلوب العباد إلا الله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] الآية، ويطلق ويراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والإرشاد إليه، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورىٰ: ٥٢]. انتهىٰ من ابن كثير(١).

---

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٧٤).

وخُصِّصت الهداية بالمسلمين لاختصاصهم بالنفع بالقرآن؛ لأنه هو بنفسه هُدًىٰ، ولكن لا يناله إلا الأبرار، كما قال تعالىٰ: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢].

⊙ **قوله:** «﴿وَبُشْرَىٰ﴾»: البشرىٰ والبِشارة: هو أول خبر سار، والبشرىٰ يراد بها أمران: أحدهما: بشارة المخبر. والثاني: سرور المخبر، قال تعالىٰ: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤] فُسِّرت البشرىٰ بهذا. قيل: وسميت بشرىٰ؛ لأنها تؤثر في بشرة الوجه، ولذلك كانت نوعين: بشرىٰ سارة تؤثر فيه نضارةً وبهجة، وبشرىٰ مُحزنة تؤثر فيه سوءًا وعبوسًا، ولكن إذا أطلقت كانت للسرور، وإذا قيدت كانت بحسب ما قيدت به، أما البَشارة بالفتح فهي نضارة الوجه وحُسنه، وأما البُشارة بالضم فهو ما يعطاه المبشَّر.

⊙ **وقوله:** ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾ [النحل: ١٠٣]: أي كفار مكة. ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] والبشَر: الإنسان ذكرًا كان أو أنثىٰ، وهو في الأصل جمع بَشَرة وهو ظاهر الجلد، سموه بشرًا لظهور أبشارهم خلافًا لغيرهم من الحيوان، أي: أن الذي يُعلِّم النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ آدمي، وذلك أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يجلس إلىٰ رجل أعجمي في مكة، وكان ذلك الرجل يقرأ في الكتب السابقة، فقالت قريش: إن هذا الرجل كان يعلم محمدًا، فأكذبهم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ بقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾ [النحل: ١٠٣].

⊙ **قوله:** «﴿لِّسَانُ﴾»: أي: لغة ﴿ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾: أي: يميلون ويشيرون إليه أنه يُعلم محمدًا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أعجمي، أي: لا يتكلم بالعربية، والعجمي المنسوب إلىٰ العجَم وإن كان فصيحًا.

⊙ **قوله**: «﴿لِسَانٌ﴾»: أي: لغة، كما في هذه الآية، وفي قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٤]، ويطلق اللسان ويراد به الذِّكْر الحسَن، كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٨٤]، ويطلق ويراد به الجارحة، كما قال سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ [القيامة: ١٦] الآية.

⊙ **قوله**: «﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾»: أي: وهذا القرآن لسان عربي مبين، أي: بيِّن واضح، فكيف يكون الذي يقوله أعجمي؟!

◈ ◈ ◈

وَقَوْلُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المطففين: ٢٣]، ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣٥].

وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللهِ تعالى كَثِيرٌ، وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ.

الشَّرْح

⊙ **قوله:** ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾: أي: وجوه المؤمنين. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة. ﴿نَّاضِرَةٌ﴾: بالضاد من النضارة، وهي البهاء والحُسن، ومنه نضرة النعيم، وروىٰ ابن مردويه بسنده إلىٰ ابن عمرو قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ قال: «مِن الحُسْنِ والبَهَاءِ، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٣] قال: في وَجْهِ اللهِ»(١).

⊙ **قوله:** «﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾»: مِن النظر بالعين، فيرونه سبحانه في عرصة القيامة، ويراه المؤمنون في الجنة، ولا يجوز حمل النظر هنا بمعنىٰ الانتظار إلىٰ ثواب الله، فإنه معدًّىٰ بـ(إلىٰ) ولا يعدىٰ بـ(إلىٰ) إلا إذا كان بمعنىٰ النظر بالعين، وأيضًا: فالانتظار لا يليق في دار القرار، فهذه الآية صريحة في أن الله يُرىٰ عيانًا بالأبصار يوم القيامة، وفيها الرد علىٰ من زعم أن معنىٰ ﴿نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ أي: منتظرة ثوابَ ربها؛ لأن الأصل عدم التقدير، ولأن النظر المعدىٰ بـ(إلىٰ) لا يكون إلا بمعنىٰ النظر، لا سيما وقد ذكر الوجه الذي هو محل

---

(١) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٨/ ٣٥٠).

النظر، وقد تواترت الأدلة في إثبات النظر إلىٰ وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «النونية»:

ويرونه سبحانه من فوقهم ... نظرَ العيان كما يُرىٰ القمران
هذا تواتر عن رسول الله لم ... ينكره إلا فاسدُ الإيمان

وقال ابن حجر:

مما تواتر حديث مَن كذبْ ... ومن بنىٰ لله بيتًا واحتسبْ
ورؤية، شفاعة والحوضُ ... ومسح خُفَّين وهذي بعضُ

وفي هذه الآية دليلٌ علىٰ أن هذه الرؤية خاصة بالمؤمنين، وفيها دليلٌ علىٰ أن الرؤية تحصل للمؤمنين يوم القيامة دون الدنيا، ولم يثبت أن أحدًا رآه سبحانه في الدنيا، قال الله في حق موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]، أي: في الدنيا، وفي «صحيح مسلم» أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إنَّكم لن تَروا ربَّكم حتىٰ تموتوا»(١). واختُلف: هل حصلت الرؤيةُ لنبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فالأكثرون علىٰ أنه لم يره سبحانه، وحكاه عثمان بن سعيد الدارمي بإجماع الصحابة(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: والناس في إثبات الرؤية وعدمها طرفان ووسط: فقسم غلوا في إثباتها حتىٰ أثبتوها في الدنيا والآخرة، وهم الصوفية وأضرابهم، وقسم نفوها

---

(١) أخرجه مسلم (٧٣٥٦)، ولفظه: «تَعَلَّمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرَىٰ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ عَزَّوَجَلَّ حَتَّىٰ يَمُوتَ» عن بعض أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(٢) انظر: «نقض الدارمي علىٰ المريسي» (ص٢٨٧).

في الدنيا والآخرة، وهم الجهمية والمعتزلة، والوسط هم أهل السنة والجماعة الذين أثبتوها في الآخرة فقط حسبما تواترت به الأدلة. انتهى(١).

⊙ **قوله:** «﴿عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٢٣﴾»: الأرائك جمع أريكة، وهي: السُّرُر تحت الحجال.

⊙ **قوله:** «﴿يَنظُرُونَ ٢٣﴾»: أي ينظرون إلىٰ وجه الله، وهذا مقابل لما وصف به أولئك الفجار في قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين: ١٥] فذكر عن هؤلاء أنهم يباحون النظر إلىٰ الله وهم علىٰ سُرُرهم وفُرُشهم، وعن أولئك الفجار أنهم يُحجبون عن رؤيته، وقد استدل العلماء بهذه الآية -أي قوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾- علىٰ إثبات رؤية الله، قالوا: لأنه لما حجب أعداءه عن رؤيته دل علىٰ أن أولياءه يرونه.

⊙ **قوله:** «﴿أَحۡسَنُواْ﴾» أي: في أعمالهم، وقد تقدم الكلام علىٰ هذا الإحسان.

⊙ **قوله:** «﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾»: أي: الجنة، ﴿وَزِيَادَةٞ﴾ وهي النظر إلىٰ وجه الله كما فسَّرها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والصحابةُ، ولما عطف الزيادة علىٰ ﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ دل علىٰ أنها جزاءٌ آخر وراء الجنة وقدرٌ زائد عليها، وثبت في «صحيح مسلم» عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تفسير الزيادة بالنظر إلىٰ وجه الله الكريم(٢).

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا مناسب لجعله جزاء لأهل الإحسان؛ لأن الإحسان

---

(١) لم أقف علىٰ هذا النص فيما بين يدي من كتب ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢)، وغيرهما من حديث صهيب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

هو أن يعبد المؤمن ربه علىٰ وجه الحضور والمراقبة كأنه يراه بقلبه وينظر إليه في حال عبادته، فكان جزاء ذلك النظر إلىٰ وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عيانًا في الآخرة، وعكس هذا ما أخبر به عن جزاء الكفار أنهم عن ربهم محجوبون، وذلك جزاء لحالهم في الدنيا، وهو تراكم الران علىٰ قلوبهم حتىٰ حجبت عن معرفته في الدنيا، فكان جزاؤهم علىٰ ذلك أن حجبوا عن رؤيته في الآخرة[١]. انتهىٰ.

⊙ **قوله**: «﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾»: أي: في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر علىٰ قلب بشر، كما في حديث أبي هريرة عن النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر**» ثم قرأ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧]»[٢] رواه البخاري.

⊙ **قوله**: «﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾»: وهو النظر إلىٰ وجه الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ كما قال ذلك علي بن أبي طالب وأنس وغيرهما، أفادت الآيات إثبات الرؤية وأنها خاصة بيوم القيامة، وأن رؤية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من أجلِّ نعيم الجنة وأعظمه. اهـ.

⊙ **قوله**: «وَهَذَا الْبَابُ»: **أي**: باب معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله وما يستحقه سبحانه من إفراده بالعبادة وترك عبادة ما سواه.

⊙ **قوله**: «فِي كِتَابِ اللهِ كَثِيرٌ»: **فقد أفصح القرآن** عنه كل الإفصاح، وأغلب

---

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم» (١/ ١٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (٢٨٢٤)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِحَالِلَّهُعَنْهُ.

سور القرآن متضمنةٌ لذلك، بل كل سورة من القرآن، فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته، وهو التوحيد العلمي الخبري، وإما دعوة إلىٰ عبادته وحده لا شريك له وخلع ما يعبد من دونه، وهو التوحيد الطلبي، وإما أمر ونهي وإلزام بطاعته، فذلك من حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرامه لأهل توحيده وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في العقبىٰ من العذاب، فهو جزاء من خرج من توحيده،

والقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي الشرك وأهله وجزائهم، فلا تجد كتابًا قد تضمن من البراهين والأدلة علىٰ هذه المطالب العالية كما تضمنه القرآن بأسلوبٍ واضحٍ جلي.

فألفاظ القرآن أفصح الألفاظ وأبينها، وأعظمها مطابقةً لمعانيها المرادة منها، فلا تجد كلامًا أحسن تفسيرًا ولا أتم بيانًا من كلامه سبحانه، ولهذا سماه بيانًا، خلافًا لمن زعم أن كلام الله ورسوله لا يفيد العلم بشيء من أصول الدين، ولا يجوز أن تستفاد معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله منه، وعبر عن ذلك بقوله: الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين.

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية ﵀: وزعم قومٌ من غالية أهل البدع أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن أو الحديث علىٰ المسائل القطعية بناءً علىٰ أن الدلالة اللفظية لا تفيد اليقين، كما زعموا، وزعم كثير من أهل البدع أنه لا يستدل بالأحاديث المتلقاة بالقبول علىٰ مسائل الصفات والقدر ونحوهما مما يُطلب فيه القطع واليقين (١). اهـ.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ٣٣٧).

⊙ **قوله**: «وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ»: أي تفكَّر فيه، والفكر: هو إعمال النظر في الشيء، وقد جاء في الكتاب والسنة الحث على التدبر والتفكير، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، إلى غير ذلك من الآيات الحاثَّة على التدبر وتفهُّم معاني القرآن، وفيها الرد على من زعم أنه لا وصول إلى ذلك، وأن باب الفهم عن الله وعن رسوله قد أُغلق وباب الاجتهاد قد سُدَّ، وهذا قولٌ باطلٌ ترده أدلة الكتاب والسنة.

⊙ **قوله**: «طَالِبًا لِلْهُدَىٰ»: أي: الرشاد، «تَبَيَّنَ لَهُ»، أي: اتضح «طَرِيقُ»، أي: سبيل.

⊙ **قوله**: «الْحَقِّ»: وهو ضد الباطل.

◇ ◇ ◇

[فَصْلٌ: ثُمَّ فِي سُنَّةِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ][(١)].

فالسنةُ تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ، وتُبَيِّنُهُ، وتَدُلُّ عَلَيْهِ، وتُعَبِّرُ عَنْهُ، وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ مِنَ الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ وَجَبَ الإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ.

الشَّرْح

⊙ **قوله: «فَصْلٌ»**: «الفصل» لغةً: الحاجز بين الشيئين، واصطلاحًا: هو اسمٌ لجملةٍ من العلم تحته فروعٌ ومسائل غالبًا.

لما ذكر المؤلف أدلة الكتاب أتبعها بأدلة السُّنَّة؛ جريًا علىٰ عادة السلف الصالح رَحِمَهُمُ اللَّهُ وأتباعِهم، فإنهم كانوا يذكرون الآيات في الباب ثم يتبعونها بالأحاديث الموافِقة لها، كما فعل البخاري ومن قبله ومن بعده من المصنفين في السُّنَّة؛ يحتجون علىٰ أحاديث النزول والرؤية والتكلم والوجه واليدين والإتيان ونحو ذلك بما في القرآن، ويثبتون بذلك اتفاق دلالة القرآن والسنة عليها، وأنهما من مشكاةٍ واحدةٍ، ولا ينكر ذلك من له أدنىٰ معرفةٍ وإيمان.

فإن السنة كالكتاب في إفادة العلم واليقين وفي وجوب القبول واعتقاد ما تضمنته، خلافًا لما عليه أهل البدع الذين قالوا: لا يحتج بكلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ شيءٍ من الصفات، وقالوا في تلك الأدلة: إنها ظواهرُ لفظيةٌ لا تفيد اليقين، وزعموا أن الذي يفيد اليقين هو نحاتة أفكارهم وسفالة أذهانهم، وهذا

---

(١) ما بين المعكوفتين زيادة من نسخة المؤلف.

إبطالٌ لدين الإسلام رأسًا.

⊙ **قوله:** «سُنَّةِ رَسُولِ الله»: **السنة لغة:** الطريقة، وعُرفًا: هي أقوال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأفعاله وتقريراته.

وتطلق السنة تارةً علىٰ ما يقابل القرآن، كما هنا، وكما في حديث: «**يَؤُمُّ القومَ أقرؤهم لكِتاب الله، فإن كانوا في القِراءة سواء فأَعلَمُهم بالسُّنَّةِ**»(١)، وتطلق تارةً علىٰ ما يقابل الفرضَ وغيره من الأحكام الخمسة، وربما لا يراد بها إلا ما يقابل الفروض؛ كفروض الوضوء وسننه، وتطلق تارةً علىٰ ما يقابل البدعة، فيقال: أهل السنة، والبدعة.

⊙ **قوله:** «فالسُّنَّةُ تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ»: أي: تبينه وتوضحه، والتفسير في الأصل هو الكشف والإيضاح، وفي الاصطلاح: توضيح معنىٰ الآية وشأنها والسبب الذي أُنزلت فيه بلفظٍ يدل عليه دلالةً ظاهرة. انتهىٰ من «التعريفات»(٢).

فتفسير اللفظ: تبيين معناه وتوضيحه، ويكون بذكر لفظٍ أوضح من المفَسَّر، ويكون -أيضًا- بذكر ضد الشيء كما قيل:

والضد يظهر حسنه الضد ... وبضدها تتبين الأشياء

فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن لأصحابه القرآن، لفظَه ومعناه، فبلغهم معانيه كما بلغهم ألفاظه، ولا يحصل البيان والبلاغ المقصود إلا بذلك، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

---

(١) أخرجه مسلم (٦٧٣)، وأبو داود (٥٨٢)، وغيرهما من حديث أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: كتاب «التعريفات» للجرجاني (١/ ٦٣).

﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

وأيضًا؛ فإن الله أنزل على نبيه الحكمة كما أنزل القرآن، والحكمة هي: السُّنَّة، كما قاله غير واحدٍ من السلف، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا وإنِّي أُوتيتُ الكِتابَ ومِثلَه معه»(١)، رواه أصحاب السنن من حديث المقدام بن معدي كرب، وقال سبحانه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤]، وإنما يحسن الاستدلال على معاني القرآن بما رواه الثقات عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم يتبع بما قاله الصحابة والتابعون وأئمة الهدى.

ولا شك أن تفسير القرآن بهذه الطريقة خيرٌ مما هو مأخوذٌ عن أئمة الضلال وشيوخ التجهم والاعتزال الذين أحدثوا في الإسلام بدعًا وضلالات، وفرقوا دينهم وكانوا شيعًا، ونبذوا كتاب الله وسنة رسوله وراء ظهورهم.

⊙ **قوله: «وتُبيِّنُهُ»**: أي: توضحه وتكشف معناه، والبيان اصطلاحًا: قيل: هو إخراج المعنى من حيِّز الإشكال إلى حيِّز التجلي والوضوح.

فالسُّنَّة -كما أشار إليها المؤلف- تبين مُجمل الكتاب؛ كما في الصلاة والصوم والحج والبيع، وغالب الأحكام التي جاء تفصيلها في السُّنة، والبيان يحصل بالقول وبالفعل وبالإقرار على الفعل.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وبيان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أقسام: بيانه لألفاظ الوحي

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٤)، والترمذي (٢٦٦٤)، وأحمد (٤/ ١٣٠)، وغيرهم من حديث المقدام بن معديكرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٤٣).

ومعانيه بقوله أو فعله أو إقراره بيان للقرآن، وبيان ابتدائي يبتدئ الناس أو يسألونه، وبيانه بالقول والفعل لمجملات القرآن[١]. انتهىٰ.

⊙ **قوله**: «وَتَدُلُّ عَلَيْهِ»: من الدِّلالة بكسر الدال وفتحها، وهو ما يقتضيه اللفظ عند إطلاقه، واسم الفاعل (دال) و(دليل) وهو المبين والكاشف، ودلالة اللفظ الوضعية تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: دلالة مطابقة، ودلالة تضمُّن، ودلالة التزام.

فدلالة المطابقة: هي دلالة اللفظ علىٰ تمام المعنىٰ الذي وُضع له، كدلالة الرجل علىٰ الإنسان الذَّكر، ودلالة المرأة علىٰ الإنسان الأنثىٰ، وسميت مطابقة لتطابق الفهم والوضع فيها.

ودلالة التضمن: هي دلالة اللفظ علىٰ جزء مسماه، كدلالة لفظ الأربعة علىٰ الواحد ربعها، وسميت تضمنًا؛ لأن بعض المعنىٰ مفهوم من ضمن كله ضرورةً.

ودلالة الالتزام: هي دلالة اللفظ علىٰ خارج مِن مسماه، ولازم المعنىٰ كلزوم الزوجية للفظ أربعة.

⊙ **قوله**: «وَتُعَبِّرُ عَنْهُ»: أي: تبيِّن وتُعرِب، ويقال: هو عبارة عن كذا؛ أي: بمعناه ومساوٍ له في الدلالة، فظهر مما تقدم أن السنة تفسر القرآن، وتبين مجملَه، وتقيد مطلقه، إلىٰ غير ذلك.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: السنة مع القرآن علىٰ ثلاثة أوجه:

---

(١) انظر: «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (٢/ ٢٢٥).

أحدها: أن تكون موافقة له من كل وجه، فيكون توارد الكتاب والسنة علىٰ الحكم من باب توارد الأدلة وتضافرها.

الثاني: أن تكون بيانًا لما أريد بالقرآن وتفسيرًا له.

الثالث: أن تكون موجِبةً لحكمٍ سكت القرآنُ عن إيجابه، أو تحريم ما سكت القرآن عن تحريمه، ولا تخرج عن هذه الأقسام(١)(٢).

---

(١) انظر: «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (٢/ ٢٢٠).

(٢) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٩-١٣):

«والسنة مع القرآن لها أربع مراتب:

المرتبة الأولىٰ: أن تكون مُقَرِّرَة لما جاء في القرآن، فهي تأكيد له وتثبيت لما جاء فيه، فيكون موضوع الحديث قد جاء في الآية، والآية تُغني عن الحديث، لكن يكون مجيء الحديث لتثبيت ذلك والتذكير به وإقراره بلفظه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

المرتبة الثانية: أن تكون السنة مبينة للقرآن شارحة له؛ كأن يكون في القرآن ما ليس بواضح فتأتي السنة فتبينه، يدخل في ذلك: «التفسير»؛ كما فسر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله تعالىٰ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] بأن الزيادة هي: النظر إلىٰ وجه الله الكريم، وكما فسر القوة في قوله: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠] بأنها الرمي، أو تكون الآية فيها إجمال وتحتاج إلىٰ بيان.

والإجمال: ما لم يُعرف له معنىً معينًا، فهو يحتمل كذا ويحتمل كذا، أو أن تكون الصفات والأحوال غير معروفة فتأتي السنة لبيانها، فقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالصلاة فأتت السنة ببيان أوقاتها وعدد ركعاتها، وأتىٰ القرآن بإيجاب الزكاة فأتت السنة بالبيان، هذا يُسمىٰ تبيينًا للمُجمل، وهو كثير. كذلك تأتي السنة في هذا المرتبة «بتقييد المطلق»، وذلك كقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَـٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٣٨﴾ [المائدة:٣٨]، فإنه =

هنا لم يحد اليد في قوله: ﴿فَاقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨] فأتت السنة بتقييد هذا المُطلق وبينت أن المراد باليد الكف إلىٰ الكوع. وتأتي السنة لتوضيح معنًىٰ عام، أو توضيح عموم، أو تخصيص عام، مثل قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]، هذا عموم لأن ﴿بِظُلْمٍ﴾ نكرة في سياق النفي فتعم، والنبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيّن أن العموم هنا غير مُراد، وأن المُراد الخصوص وليس العموم، فيكون هذا من العام المراد به الخصوص؛ لأنه لما نزلت هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]، شق ذلك علىٰ أصحاب رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس هو كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه:** ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]» [أخرجه البخاري (٣٢)، ومسلم (١٩٧/ ١٢٤) من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ]... إلىٰ آخر أنواع هذا القسم.

المرتبة الثالثة: أن تكون السنة مُنشئة لحكمٍ جديد لم يأت في القرآن البتة، مثل: حكم النَّمْص، وحكم التَّفْليج للحُسن، ونحو ذلك -علىٰ قول أن حكم النمص والتفليج ما جاء في القرآن وأنه لا يدخل في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١١٩]- أو مثل الأحكام المستقلة التي جاءت في بيان آداب الأكل والشرب، وآداب السفر، ونحو ذلك، هذه أحكام كثيرة يكون في السنة منها ما ليس في القرآن أصلًا. وهذا القسم يُنازَع فيه لكن هو موجود، فتكون السنة مُنْشِئة لأحكام لم تأتِ في القرآن؛ وذلك لأن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْزِل عليه الوحي بالسنة كما يَنْزِل عليه بالقرآن؛ فهما من مشكاةٍ واحدة.

المرتبة الرابعة: أن تكون السنة ناسخة لحكم في القرآن؛ كما نَسَخ قولُ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا وصية لوارث**» آيةَ البقرة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة:٢٤٠]. إذًا هذه أقسام أربعة للسنة، وكلام شيخ الإسلام هنا علىٰ وجه العموم. فقوله: «تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ، وتُبَيِّنُهُ، وتَدُلُّ عَلَيْهِ، وتُعَبِّرُ عَنْهُ...»:

«تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ» يعني: تفسر الوارد في القرآن، مثل الزيادة فسرتها السنة بأنها النظر إلىٰ وجه الله الكريم.

=

⊙ **قوله:** «وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ مِنَ الأَحَادِيثِ» جمع حديثٍ، وهو **لغة:** ضد القديم، **واصطلاحًا:** ما أضيف إلىٰ النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قولًا أو فعلًا أو تقريرًا.

⊙ **قوله:** «الصِّحَاحِ»: من الصحة، هو **لغة:** ضد السقم، **واصطلاحًا:** هو ما نقله العدل الضابط عن مثله من غير شذوذ ولا علة، فهو ما جمع خمسة شروط: عدالة الرواة، وضبطهم، واتصال السند، وألا يكون فيه شذوذ، وألا يكون فيه علة، وهذه الشروط شروط **الصحيح لذاته**، أما **الصحيح لغيره**: فهو ما اختل فيه شرطٌ من هذه الشروط ولكن انجبر بمجيئه من طرقٍ أخرىٰ. وحكم الصحيح: القبول.

⊙ **قوله:** «تَلَقَّاهَا»: أي: قبلها وأخذها، يقال: تلقىٰ القول وتلقنه وتلقفه.

⊙ **قوله:** «أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ»: أي: أهل العلم بالحديث، وهم علماء الحديث العالمون بأحوال نبيهم، الضابطون لأقواله وأفعاله، والمعتنون بها، ولا عبرة بمن عداهم من المتكلمين وغيرهم، فإن الاعتبار في كل علمٍ بأهل العلم به دون غيرهم.

فهذه الأخبار تفيد العلم عند من له عنايةٌ بمعرفة ما جاء به الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ومعرفة أحوال دعوته علىٰ التفصيل، فإن أهل الحديث لهم فقهٌ خاصٌّ في الحديث مختصون بمعرفته كما يختص البصير في معرفة النقود، جيدها ورديئها، خالصها ومشوبها.

=

«وتُبيِّنُه» يعني: إذا كان ثم مُجمل فإن السنة تبين هذا المجمل.

«وتَدُلُّ عَلَيْهِ» يعني: بما وافقت فيه السنة القرآن، «وتُعبِّرُ عَنْهُ».

وهذه هي السنة: «تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ، وتُبَيِّنُهُ، وتَدُلُّ عَلَيْهِ، وتُعَبِّرُ عَنْهُ»، والكلمات متقاربة» اهـ.

وقد امتُحن غير واحدٍ من هؤلاء العلماء في زمن أبي زُرعة وأبي حاتم فوجد الأمر علىٰ ذلك، فقال السائل: أشهد أن هذا العلم إلهام، قال الأعمش: كان إبراهيم النخعي صيرفيًّا في الحديث، كنت أسمع من الرجال فأعرض عليه ما سمعته.

وقال الأوزاعي: كنا نسمع الحديث فنعرضه علىٰ أصحابنا كما نعرض الدرهم الزائف علىٰ الصيارفه، فما عرفوا أخذنا وما أنكروا تركنا، وقد روي مثل هذا عن أحمد بن حنبل وغيره(١).

⊙ **قوله:** «الْمَعْرِفَةِ»: المعرفة في اللغة: بمعنىٰ العلم، قال في شرح «مختصر التحرير»: يطلق العلم ويراد به معنىٰ المعرفة ويراد بها العلم.

وذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فروقًا بين العلم والمعرفة؛ لفظية ومعنوية:

فاللفظية: أنَّ فعل المعرفة يقع علىٰ مفعول واحد، تقول: عرفت الدار، وفعل العلم يقتضي مفعولين، كقوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠] الآية، وإن وقع علىٰ مفعول كان بمعنىٰ المعرفة؛ كقوله: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وأما الفروق المعنوية فذكر عدة فروق؛ منها: أن المعرفة تتعلق بذات الشيء، والعلم يتعلق بأحواله، فتقول: عرفت أباك وعلمته صالحًا، وساق عدة فروق في «المدارج»(٢).

---

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم» (٣/ ٤٣٣)، وأخرجه أبو زُرعة الدمشقي في «تاريخه» (١/ ٢٦٥).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٣١٤).

⊙ **قوله: «بِالْقَبُولِ؛ وَجَبَ الإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ»**: أي: كما يجب الإيمان بالقرآن، فإن الله أنزل علىٰ رسوله وحيين، فأوجب علىٰ عباده الإيمان بهما والعمل بما فيهما، وهما الكتاب والسنة، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، والحكمة: هي السنة باتفاق السلف، وما أخبر به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الله فهو في وجوب تصديقه والإيمان به كما أخبر به الرب علىٰ لسان رسوله، وهذا أصلٌ متفقٌ عليه بين علماء الإسلام لا يُنكره إلا من ليس منهم.

وفي «السنن» من حديث المقدام بن معدي كرب، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ألا وإنِّي أوتيتُ الكتابَ ومِثلَه معه**»(١)، فهذه الأخبار التي زعم هؤلاء أنه لا يُستفاد منها علم، نزل بها جبريل من عند الله كما نزل بالقرآن، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤]. انتهىٰ من «الصواعق» باختصار(٢).

والمقبول في هذا الباب من أنواع السُّنة أربعة أنواع، كما أشار إلىٰ ذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصواعق»:

الأول: ما تواتر لفظًا ومعنًىٰ.

الثاني: ما تواتر معنًىٰ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٤)، والترمذي (٢٦٦٤)، وأحمد (٤/ ١٣٠)، وغيرهم من حديث المقدام بن معديكرب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٤٣).

(٢) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٥٣٦).

الثالث: أخبارٌ مستفيضةٌ متلقاةٌ بالقبول.

الرابع: أخبارُ آحادٍ ثبتت بنقل العدل الضابط عن مثله.

فهذه الأنواع هي المقبولة في باب العِلميات، فإن هذا الباب لا يُبنىٰ إلا علىٰ ما ثبت بطريقٍ لا كلامَ فيه، فهذه الأنواع الأربعة مفيدةٌ للعلم واليقين، موجبةٌ للعلم والعمل جميعًا(١).

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: الذي عليه الأصوليون من أصحاب أبي حنيفة والشافعي وأحمد: أن خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول تصديقًا له وعملًا به يوجب العلم إلا فرقةٌ قليلة اتبعوا طائفة من أهل الكلام أنكروا ذلك(٢).

وقال في «الكوكب المنير»: ويعمل بآحاد الأحاديث في أصول الديانات، وحكىٰ ذلك ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ إجماعًا، قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: لا تتعدىٰ القرآن والحديث، وقال العلامة ابن قاضي الجبل: مذهب الحنابلة أن أخبار الآحاد المتلقاة بالقبول تصلح لإثبات أصول الديانات، وذكره أبو يعلىٰ والشيخ تقي الدين في عقيدته(٣).

والأدلة علىٰ قبول خبر الآحاد كثيرة جدًّا.

وقد ذكر ابن القيم هذا القول في كتابه «الصواعق» وأفاض في ذكر الأدلة علىٰ ذلك، وكذلك ذكره في «النونية»، وقال ابن القاضي: لا خلاف بين أهل الفقه في قبول

---

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٥٤٨).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٣/ ٣٥١).

(٣) انظر: «الكوكب المنير» (٢/ ٣٥٢).

خبر الآحاد(١). انتهى(٢).

---

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة» (٢/ ٤٨١ - ٤٨٢).ولذلك أدلة كثيرة ذكرها أبو محمد علي بن حزم في مباحث السنة من كتاب «الإحكام في أصول الأحكام» (٢/ ٧٨ - ٨٨)، والشافعي في الجزء الثالث من «الرسالة» فصل في «الحجة في تثبيت خبر الواحد» (١/ ٤٠١) وما بعدها.

(٢) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٢٢-٢٣):**

«المقصود: أن قول شيخ الإسلام رحمه الله: «وَمَا وَصَفَ بِهِ رَبَّهُ عَزَّوَجَلَّ مِنَ الأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ وَجَبَ الإِيمَانُ بِهَا» يعني: وجب الاعتقاد بما دلت عليه من الصفات؛ لأن كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واجبٌ الإيمان به من جهة الأخبار، فنصدق بكل ما جاء به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذه هي طريقة أهل السنة والجماعة، وأما غيرهم فقد اختلفوا في ذلك علىٰ أقوال:

القول الأول: ذهب أهل الاعتزال والتجهم إلىٰ أن العقائد لا يؤخذ فيها إلا بالقرآن أو بالمتواتر اللفظي، وأما غير ذلك فإنه لا يجوز أخذ العقائد منه، وهذا مذهب المعتزلة والجهمية والفلاسفة وطوائف.

القول الثاني: قول الكلابية والأشاعرة والماتريدية ومن نحا نحوهم، قالوا: نُثبت أحاديث الآحاد، ولكن إذا كانت أحاديث الآحاد توهم تشبيهًا فإنّا نفوضها أو نؤولها علىٰ قاعدتهم المعروفة:

وكـــل نـــصٍّ أوهـــم التشـــبيهَا أوِّلـــه أو فـــوض ورم تنزيهَـــا

«كل نص» يعني: من الكتاب أو السنة آحاد أو غير آحاد، «أوِّله» يعني: اصرفه عن معناه الظاهر إلىٰ معنىٰ آخر بقرينة عدم جواز التشبيه، وهي قرينة عقلية، «أو فوِّض» اثبت لفظًا مُجردًا عن المعنىٰ، «وَرُمْ تنزيهًا» يعني: اقصد تنزيهًا لله عَزَّوَجَلَّ.

وهذا الذي قالوه فيه سلب لأحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الدلالة في هذا الباب العظيم، =

مِثْلُ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ»(٢). الْحَدِيثَ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ؛ كِلاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»(٣). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلِهِ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ»(٤). حَدِيثٌ حَسَنٌ.

=

وباب الصفات بابٌ عظيمٌ جدًّا، بل هو باب المعرفة والعلم بالله عَزَّوَجَلَّ، فإذا كان لا يُقبل فيه كلام النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمن يُقبل في هذا الباب؟» اهـ.

(١) أخرجه البخاري (٦٣٢١)، ومسلم (٧٥٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤)، وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) لم أجده بهذا اللفظ، ولكن بلفظ: «يضحك»، أو: «ضحك»؛ بدل: «عَجِبَ».

والحديث أخرجه ابن ماجه (١٨١)، وأحمد، (٤/ ١١)، والطيالسي (١٠٩٢)، والآجري في «الشريعة» (ص ٢٧٩)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (٣/ ٤٢٦)؛ كلهم من طريق وكيع بن حُدُس -وقيل: عُدُس- عن عمه أبي رزين، وحسنه العلامة الألباني في «الصحيحة»، برقم (٢٨١٠).

الشَّرح

⊙ **قوله**: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَىٰ سَمَاءِ الدُّنْيَا»(١) الحديث، هذا الحديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة.

هذا مما تواترت فيه الأدلة عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فرواه نحوٌ من ثمانية وعشرين نفسًا من الصحابة عن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فينزل سبحانه نزولًا يليق بجلاله وعظمته لا نُعطِّلُه ولا نشبهه بنزول خلقه ليس كمثله شيء، فيجب الإيمان بذلك إيمانًا خاليًا من التعطيل والتمثيل.

⊙ **قوله**: «فَأَسْتَجِيبَ لَهُ»: بالنصب علىٰ جواب الاستفهام، وقيل: بالرفع علىٰ الاستئناف، وكذا ما بعده.

أفاد هذا الحديث فوائد:

الأولىٰ: فيه إثبات نزول الرب إلىٰ سماء الدنيا كلَّ ليلة كما يليق بجلاله وعظمته، فنثبت النزول لله حقيقة، وأما كُنه نزوله وكيفيته فلا يعلمها إلا هو سبحانه، كما قال مالك: «الاستواء معلوم والكيف مجهول»، وكذلك يقال في النزول والإتيان والمجيء وغير ذلك من صفاته الفعلية والذاتية(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٩٤)، ومسلم (٧٥٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ١٧-١٨)**:

«وأورد المتأخرون الذين عرفوا أن الأرض كروية، وأن الشمس تدور علىٰ الأرض إشكالًا، قالوا: كيف ينزل في ثلث الليل؟! وثلث الليل إذا انتقل عن المملكة العربية السعودية، ذهب إلىٰ أوروبا وما قاربها؟! أفيكون نازلًا دائمًا؟!

=

ثانيًا: فيه إثبات العلو لله سبحانه، فإن النزول والتنزيل والإنزال: مجيء الشيء والإتيان به من عُلوٍ إلىٰ أسفل، هذا هو المفهوم من لغة العرب، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ [الفرقان: ٤٨].

ثالثًا: فيه الرد علىٰ الجهمية والمعتزلة المنكرين لنزوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ زعمًا منهم أن هذا من مجاز الحذف، والتقدير: ينزل أمره أو رحمته.

وهذا باطلٌ من وجوهٍ عديدة:

الأول: أن الأصل عدم الحذف.

الثاني: أنه قال: «مَن يَدعوني فأَستَجِيبَ له؟» فهل أمره أو رحمته تقول: من يدعوني؟! هذا مما لا يُعقل أن يكون القائل له غير الله، فلم يكن إلا نزوله سبحانه بذاته، هذا هو صريح الأدلة والمعقول.

الثالث: أنه حدد لنزوله ثلث الليل الآخر، ولو كان أمره أو رحمته لم يحدد ذلك بثلث الليل، فإن أمره ورحمته ينزلان كل وقت.

=

فنقول: آمِن أولًا بأن الله ينزل في هذا الوقت المعين، وإذا آمنت؛ فليس عليك شيء وراء ذلك، لا تقل: كيف؟! وكيف؟! بل قل: إذا كان ثلث الليل في السعودية، فالله نازل، وإذا كان في أمريكا ثلث الليل يكون نزول الله أيضًا، وإذا طلع الفجر، انتهىٰ وقت النزول في كل مكان بحسبه.

إذًا موقفنا أن نقول: إنا نؤمن بما وصل إلينا عن طريق محمد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ بأن الله ينزل إلىٰ السماء الدنيا حين يبقىٰ الثلث الآخر من الليل، ويقول: «مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟»..» اهـ.

الرابع: فيه إثبات أفعال الله الاختيارية.

الخامس: فيه إثبات القول لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

السادس: فيه إثبات أن كلامه سبحانه بحرفٍ وصوت؛ إذ لا يُعقل النداء إلا ما كان حرفًا وصوتًا.

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن البدع التي أنكرها أحمد في القرآن: قول من قال: إن الله تكلم بغير صوت، وأنكر هذا القول وبدَّع قائله، وقد قيل: إن الحارث المحاسبي إنما هجره أحمد لأجل ذلك[1]. انتهىٰ.

السابع: فيه إثبات أن صفة الكلام صفةٌ فعليةٌ كما أنها من الصفات الذاتية أيضًا.

الثامن: فيه الرد علىٰ الجهمية وأضرابهم القائلين بأنه سبحانه في كل مكانٍ بذاته، فلو كان في كل مكانٍ لم يقل: ينزل ربنا.

التاسع: أن صفة النزول من الصفات الفعلية، ودليله النقل كما تقدم.

العاشر: فيه الرد علىٰ من زعم أن الذي ينزل ملكٌ من الملائكة، فإن الملك لا يقول: من يسألني فأعطيه، فإن هؤلاء الجهمية المعطلة الذين ينفون نزوله سبحانه وينفون كلامه يقولون زعمًا منهم: إن هذا مجاز، والتقدير في قوله: «فَيَقُولُ»: أي فيأمر مَلَكًا يقول ذلك عنه، كما يقال: نادىٰ السلطان، أي أنه أمر مناديًا، ويقولون فيما ثبت أنه قال ويقول وتكلم ويكلم مما لا حصر له: كل هذا مجاز.

---

(١) ذكره ابن رجب في كتابه المفقود «مناقب الإمام أحمد» انظر: «التحبير شرح التحرير» (٣/ ١٣١٤).

وقولهم باطلٌ من وجوهٍ:

منها: أن المنادىٰ عنه غيره، كمنادي السلطان يقول: أمر السلطان بكذا، لا يقول: إني آمركم بكذا وأنهاكم عن كذا، والله سبحانه يقول في تكليمه موسىٰ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ [طه: ١٤] والحديث فيقول: «**مَن يَدعوني فأستجيبَ له**»[١]، وإذا كان القائل ملَكًا قال كما في «الصحيحين»: «**إذا أحبَّ اللهُ عبدًا نادىٰ في السَّماء: يا جبريلُ، إني أحبُّ فلانًا فأحِبَّه، فيُحبُّه جبريلُ ويُنادىٰ في السَّماء: إن الله يحبُّ فلانًا فأحِبُّوه، فيُحبُّه أهلُ السماء ويُوضَع له القبولُ في الأرض**»[٢]. فقال في ندائه عن الله: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، وفي نداء الرب يقول: من يدعوني فأستجيب له.

فإن قيل: فقد روي أنه يأمر مناديًا فينادي، قيل: هذا ليس في «الصحيح»، فإن صح أمكن الجمع بين الخبرين بأن ينادي هو ويأمر مناديًا ينادي، أما أن يعارَض بهذا النقل الصحيح المستفيض الذي اتفق أهل العلم علىٰ صحته وتلقيه بالقبول مع أنه صريحٌ بأن الله هو الذي يقول: «**مَن يَدعوني فأستجيبَ له**» فلا يجوز. انتهىٰ من كلام شيخ الإسلام تقي الدين بتصرف[٣].

الحادي عشر: فيه دليلٌ علىٰ امتداد هذا الوقت أي وقت النزول الإلهي- إلىٰ إضاءة الفجر.

الثاني عشر: فيه الحث علىٰ الدعاء والاستغفار في جميع الوقت المذكور.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٩٤)، ومسلم (٧٥٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٠٣٧)، ومسلم (٢٦٣٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٢/ ٣١١).

الثالث عشر: فيه دليلٌ علىٰ فضل الدعاء.

الرابع عشر: فيه دليلٌ علىٰ نفع الدعاء والرد علىٰ جهلة المتصوفة القائلين بأن الدعاء لا ينفع، وهو قولٌ مردودٌ بأدلة الكتاب والسنة مع أدلة العقل، فإن المشركين كانوا يعرفون نفع الدعاء، قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥] الآية. فضلًا عن غيرهم.

الخامس عشر: فيه أن الدعاء من أفضل الطاعات، فلا يجوز صرفه لغير الله، ومن دعا غير الله فهو مشركٌ كافر.

السادس عشر: **الدعاء لغة**: السؤال والطلب سواء كان بلسان الحال أو بلسان المقال، فالدعاء ينقسم إلىٰ قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة. فالأول: هو سائر الطاعات من تسبيحٍ وتكبيرٍ وتهليلٍ وغير ذلك؛ لأن عامل ذلك هو سائلٌ في المعنىٰ، **والثاني**: هو دعاء المسألة، وهو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفعٍ أو دفع ضر.

السابع عشر: أن الدعاء والاستغفار وغيرهما من أنواع العبادات يختلف فضلها بحسب الزمان والمكان.

الثامن عشر: أن ثلث الليل الآخر مَظِنَّة الإجابة، وأن آخر الليل أفضل للدعاء وللاستغفار، ويشهد له قوله تعالىٰ: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ١٧]، وقال: ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الذاريات: ١٧]، وفيه أن الدعاء في ذلك الوقت مجاب، وتخلُّف الإجابة عن بعض الداعين قد يكون بسبب إخلالٍ ببعض شروط الدعاء.

التاسع عشر: فيه تفضيل صلاة الوتر آخر الليل؛ لكن ذلك في حق من طمع أن يقوم آخر الليل، وفيه تفضيل صلاة آخر الليل.

العشرون: فيه تلطفه سبحانه بعباده ورحمته بهم، وكونه سبحانه يأمرهم بدعائه واستغفاره(١).

---

(١) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٣١-٣٢):

«أهل السنة اختلفوا في النزول: هل يُقال: ينزل الله عَزَّوَجَلَّ بذاته أم لا يُقال؟ أم يُطلق اللفظ؟ علىٰ ثلاثة أقوال:

القول الأول: منهم من قال: ينزل ربنا بذاته، وهذا قول طائفة من أهل الحديث والسنة؛ وقالوا ذلك حتىٰ لا يتوهم متوهم أنه نزول أمره -كما يؤوله المؤولة- أو نزول رحمته.

القول الثاني: منهم من قال: لا نقول: ينزل ربنا بذاته ونُمنع من هذا القول، فعندهم قول القائل: ينزل ربنا بذاته أو إثبات النزول لله إلىٰ سماء الدنيا بذاته أن هذا باطل ومردود.

القول الثالث -وهو الصواب-: أن لا يُطلق هذا ولا هذا، لا يُنفىٰ ولا يُثْبَتْ؛ لأن قاعدتهم في السنة أنه لا يُتجاوز القرآن والحديث، فالحديث أثبت النزول ولم يقل فيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ينزل بذاته، فنثبته كما أثبته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقوله: «ينزل ربنا» فيه إثبات صفة النزول لله عَزَّوَجَلَّ، ولا نقول: لا يجوز أن نقول بذاته، لا نثبت ولا ننفي.

وإذا قال قائل: هل تقولون النزول بذات الله عَزَّوَجَلَّ؟

نقول: نعم النزول بذات الله، لكن هذا عند المناظرة، عند الحِجاج بنفي التأويل، وهذه طريقة يسلكها الدارمي في رده علىٰ المريسي وغيره، فأثبتوا ألفاظًا عند المناظرة والرد لا تُثْبت علىٰ وجه الاستقلال. وهذه قاعدة مهمة فيما يُثْبَت عند الردود لأجل نفي التأويل والمعاني الباطلة وما لا يثبت من ذلك

هنا في قوله «يَنْزِلُ رَبُّنَا» ثَمَّ بحث معروف، وهو ما أثاره بعضهم من أنه: هل نزوله يخلو =

⊙ **قوله**: «**الْحَدِيثَ**»: أي: اقرأ الحديثَ؛ علىٰ النصب، والمصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر الشاهد من هذا الحديث، ففيه إشارةٌ إلىٰ أنه لا يَرىٰ بأسًا باختصار الحديث، وقد صرح علماء الفقه بجوازه بشروطٍ ذكرها علماء الفن في كتبهم.

⊙ **قوله**: «**مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ**»: أي: رواه البخاري ومسلم، وهذا من حديث أبي هريرة وأنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وفي رواية لمسلم: «**لَلَّهُ أَشدُّ فَرحًا بتوبَةِ عَبدِه حين يَتوبُ إليه مِن أحدكم كان علىٰ راحلَتِه بأرضٍ فلاةٍ فانْفلتَت منه وعليها طعامُه وشَرابُه فأَيِسَ منها، فأتىٰ شَجرةً فاضْطجعَ في ظِلِّها، قد أَيِسَ مِن راحلته، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمةً عنده، فأخذ بخِطامِها ثم قال مِن شدَّة الفَرَح: اللهم أنت عبدي وأنا ربُّك، أخطأ من شدة الفَرَح**»(١). انتهىٰ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **الفرح**: لذةٌ تقع في القلب بإدارك المحبوب ونيل المشتهىٰ، فيتولد من إدراكه حالةٌ تسمىٰ الفرح والسرور، قال: والفرح صفة كمال؛ ولهذا يوصف سبحانه بأعلىٰ أنواعه وأكملها، كفرحه سبحانه بتوبة عبده، إلىٰ أن قال:

=

العرش منه أم لا؟

قال بعض أهل الحديث والسنة: يخلو منه العرش، وأداه إلىٰ هذا القول وألجأه إليه أن النزول في فهمه لا يكون حقيقةً حتىٰ يلتزم بهذا.

وهذا الذي التزمه باطل، بل الصواب الذي عليه المحققون وعامة أهل السنة وأهل الحديث وأئمة سلفنا الصالح -رضوان الله عليهم- أن الله عَزَّوَجَلَّ مستوٍ علىٰ عرشه، وينزل كما يليق بجلاله وعظمته، فينزل مع استوائه علىٰ عرشه، ويدنو من خلقه عشية عرفة مع استوائه علىٰ عرشه، ويأتي لفصل القضاء يوم القيامة مع استوائه علىٰ عرشه عَزَّوَجَلَّ» اهـ.

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٥)، وأحمد (٢/ ٥٢٤)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

والفرح بالشيء فوق الرضا به، فإن الرضا طمأنينةٌ وسكونٌ وانشراح، والفرح لذةٌ وبهجةٌ وسرور، فكل فَرِحٍ راضٍ وليس كل راضٍ فرحًا، انتهىٰ. «مدارج»(١)(٢).

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ١٤٨).

(٢) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٤٦-٤٨):**

«إذًا، فتفسير الفرح بالرضىٰ: مردود من أوجه:

الأول: أن هذا لغةً باطل.

الثاني: أن اللغة ليس فيها ترادف، وكل لفظ في اللغة يختلف في معناه عن المعنىٰ الآخر، والنصوص جاء فيها استعمال لفظ الفرح، وجاء فيها استعمال لفظ الرضىٰ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩] وقال: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح:١٨]، وأما لفظ الفرح فجاء في السنة في قوله: «**لله أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ**...» إلىٰ آخره، فاستعمال لفظ الفرح غير استعمال لفظ الرضىٰ، فدل علىٰ أن لهذا معنىٰ ولذاك معنىٰ.

الثالث: نقول: إنكم جعلتم الفرح بمعنىٰ الرضىٰ، والرضىٰ رجع عندكم إلىٰ معنىٰ الإرادة، فما السبب في ذلك؟ الجواب: السبب أنكم قلتم: إن إثبات الفرح فيه التشبيه والتمثيل والتجسيم؛ لأن الفرح شيء من التغير، وهذا يتنزه عنه الله عَزَّوَجَلَّ.

نقول: يلزمكم فيما أثبتم من جنس ما نفيتم؛ لأنكم تثبتون الإرادة، والإرادة تكون للمخلوق، وتثبتون الوجود، والوجود يكون للمخلوق، وتثبتون الكلام، والكلام يكون للمخلوق... إلىٰ آخره، وهذه الأشياء إذا كانت ثبتت للمخلوق فإنه يلزمكم -علىٰ قولكم- في إثباتها لله عَزَّوَجَلَّ التجسيم؛ لأنها ما قامت فيما رأيتم إلا بالأجسام، فالمريد هو الإنسان وهو جسم، والمتكلم هو الإنسان كذلك، فيلزمكم فيما أثبتم من جنس ما نفيتم، وإلا حصل التناقض، والتناقض مُبطل للحجة.

=

⊙ **قوله:** «بِرَاحِلَتِهِ »: الراحلة من الإبل ما كان صالحًا لأن يرحل.

⊙ **قوله:** «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا»: اللام لام الابتداء، والفرح تقدم كلام ابن القيم فيه.

في هذا الحديث فوائد:

منها: إثبات الفرح لله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ كما يليق بجلاله وعظمته، وهذه الفرحة منه فرحة إحسانٍ، وبرٍّ ولطفٍ، لا فرحة محتاج إلىٰ توبة عبده منتفعًا بها، فإنه سبحانه لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية.

=

وهذا واضح جلي؛ لهذا يلزم كل من نفىٰ صفة من الصفات -سواء كانت من الصفات الذاتية أو الفعلية اللازمة أو المتعدية- يلزمه أن ما نفىٰ هو مثل ما أثبت، فما الفرق بينهما، ومن أين أخذت أن الله عَزَّوَجَلَّ يريد الإحسان؟ فالصفة عندك الإرادة، لكن يريد الإحسان أخذتها من الدليل العقلي الذي التزمته أنت، فإذًا تثبت هنا كما أثبت هنا، وهذا واضح.

فينبغي لطالب العلم أن يتفهم هذه الحجة في مناقشة المؤولين؛ لأن من أعظم ما يُرد به عليهم ادعاء التناقض، فيُقال لهم: أنتم تُثبتون صفة وتنفون صفة، فما الفرق بين ما أثبتم وما نفيتم؟ ولا يقيمون الفرق، فما من أحد أثبت وجود الله عَزَّوَجَلَّ إلا وقال: إن لذلك الموجود صفة، حتىٰ جهم الذي نفىٰ جميع الصفات سُئل عن صفته، فقال: هو موجودٌ مُطلق. فأثبت صفة الوجود ونفىٰ البقية؛ لأجل أنها صفات للمحدثات، فيقال له -أيضًا-: الوجود صفة للمحدثات، والموجود محتاج إلىٰ مُوجِد -علىٰ رأيك- وإذا كان كذلك فقد حصل الاشتراك في صفة الوجود بين الإنسان وبين الله عَزَّوَجَلَّ؛ فلماذا لم تنفها لقصد التجسيم والتمثيل؟

كذلك المعتزلة انتبهوا لهذه الحُجة فنفوا الصفات كلها وأثبتوا ثلاثًا، «والأشاعرة» نفوا الصفات كلها وأثبتوا سبعًا، لأجل هذه الحجة لأنهم رأوا أنه يلزمهم الإثبات فأثبتوا، أما أهل السنة فلم يُفرقوا بين شيء من كلام الله عَزَّوَجَلَّ، وأثبتوا الجميع كما جاء في الكتاب والسنة» اهـ.

ثانيًا: أن فرحه سبحانه يتفاضل.

ثالثًا: فيه فضل التوبة إلىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

رابعًا: أنه سبحانه يقبل توبة عبده ويفرح بها إذا وقعت علىٰ الوجه المعتبر شرعًا.

خامسًا: فيه دليلٌ علىٰ أن الإنسان إذا جرىٰ علىٰ لسانه كلمة كفر من شدة دهش ونحو ذلك أو حكىٰ كفرًا أنه لا يكفر بذلك ولا يؤاخذ به.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وفي الحديث من قواعد العلم: أن اللفظ الذي يجرىٰ علىٰ لسان العبد خطأ من فرحٍ شديد أو غيظٍ شديد ونحوه لا يؤاخذ به، ولهذا لم يكن كافرًا بقوله: «أنت عبدي وأنا ربك»[(١)].

وقوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَضْحَكُ الله إِلَىٰ رَجُلَيْنِ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ؛ كِلاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ**»[(٢)] متفق عليه.

أي: من حديث أبي هريرة، وتمامه: «يُقاتل هذا في سبيل اللهِ فيُقتل، ثم يتوبُ الله علىٰ القاتل فيُستَشْهَد»[(٣)]. انتهىٰ. وروىٰ هذا الحديث أحمد ومالك والنسائي وابن ماجه وابن حبان، ورواه البيهقي في «الأسماء والصفات».

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٢٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٧١)، ومسلم (١٨٩٠)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه النسائي (٣١٦٦)، وأحمد (٢/ ٤٦٤)، وابن ماجه (١٩١)، ومالك في «الموطأ» (٩٨٣)، وابن حبان (٢١٥)، وغيرهم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

في هذا الحديث فوائد:

أولًا: إثبات الضحك لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما يليق بجلاله وعظمته.

ثانيًا: فيه فضل الجهاد في سبيل الله وعظم أجر المجاهد، وقد تكاثرت الأدلة في الحث علىٰ الجهاد في سبيل الله.

ثالثًا: فيه فضل القتل في سبيل الله، وأن المقتول في سبيل الله يدخل الجنة.

قال ابن عبد البر: يستفاد من الحديث أن كل من قُتل في سبيل الله يدخل الجنة.

رابعًا: فيه أن القتل في سبيل الله يكفِّر الذنوب.

خامسًا: فيه أن التوبة تأتىٰ علىٰ سائر الذنوب حتىٰ ذنب القتل.

قوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَجِبَ رَبُّنَا» إلخ: هذا الحديث رواه أحمد وابنه عبد الله في حديثٍ طويل، ولفظه: «**ضحك ربنا من قنوط عباده وقرب غِيَرِهِ**»(١) إلخ.

⊙ **قوله:** «عَجِبَ»: العجب لغة: استحسان الشيء، ويكون لاستقباح الشيء.

⊙ **قوله:** «مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ»: القنوط هو شدة اليأس.

⊙ **قوله:** «وَقُرْبِ غِيَرِهِ»: أي: تغييره الحال من حال شدة إلىٰ حال رخاء.

⊙ **قوله:** «أَزِلِينَ»: الأزْل بالسكون: الشدة والضيق، والأزِل علىٰ وزن (كتِف): هو الذي أصابه الأزل واشتد به الحال حتىٰ كاد يقنط، وهذا الحديث

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨١)، وأحمد (٤/ ١١)، وغيرهما من حديث أبي رزين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٣٥٨٥).

كقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ [الشورى: ٢٨]، والمعنى: أنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يعجب من قنوط عباده عند احتباس القطر عنهم وقنوطهم ويأسهم من الرحمة وقد اقترب وقت فرَجه ورحمته لعباده بإنزال الغيث عليهم وتغييره لحالهم وهم لا يشعرون، فعند تناهي الكرب يكون الفرَج، كما قيل: «اشتدي أزمة تنفرجي»، وكما في الحديث: «**وإنَّ الفرَجَ مع الكَرْب، وإن مع العُسْر يُسْرًا**»(١).

ففي هذا الحديث كغيره من الأحاديث المتكاثرة جدًّا: إثبات الضحك والعجَب لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حقيقةً كما يليق بجلاله وعظمته، والأحاديث في إثبات الضحك لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ متواترة(٢).

وفيه الرد على المعطلة من الجهمية والمعتزلة وغيرهم الذين ينفون الضحك والعجب ويؤولون ذلك بتأويلات فاسدة، وفيه إثبات النظر لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، وكل هذه من الصفات الفعلية، فنثبتها لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حسب ما جاءت بذلك الأدلة

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٧)، والحاكم (٦٣٠٤)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٣٨٢).

(٢) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٥٧):

«وأهل السنة يُثبتون العَجَب لله عَزَّوَجَلَّ على وجه الكمال، ويكون عجبه لأجل حال المتعجَّب منه، وليس مؤولًا بأن عجب الله عَزَّوَجَلَّ هو حال المتعجَّب منه، وفرق بين أن يكون هو العجب من أجل الحال، أو أن يكون عجبه عَزَّوَجَلَّ هو الحال نفسه، أو يؤول بما سبق من تأويلات المبتدعة» اهـ.

المتكاثرة، وليس في إثبات هذه الصفات محذورٌ البتة، فإنه ضحكٌ ليس كمثله شيء، وعجبٌ ليس كمثله شيء، وحكمه حكم رضاه ومحبته وإرادته وسمعه وبصره وسائر صفاته، فالباب واحدٌ لا تمثيل ولا تعطيل، فالقول في الصفات كالقول في الذات، فكما أننا نعتقد أن لله ذاتًا لا تشبه الذوات، فالصفات يُحذىٰ فيها حذو الذات، والصفات حكمها واحدٌ وبابها واحد، فإذا أثبتنا بعضًا ونفينا البعض الآخر تناقضنا؛ لأن الأدلة التي أثبتت تلك الصفة هي التي ثبت بها النوع الآخر من الصفات، فإثبات بعض ونفي بعض تناقض(١).

---

(١) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٣٨-٤٠):

«وصفات الله عَزَّوَجَلَّ سبق أن بيَّنا أنها تنقسم إلىٰ:

* صفات ذاتية.

* صفات فعلية.

والصفات الذاتية تُفسر بأحد تفسيرين:

بعض أهل العلم فسَّر الصفة الذاتية بأنها الصفة التي لم تنفك عن الموصوف أزلًا ولن تنفك عنه أبدًا.

وبعضهم قال: الصفة الذاتية هي التي لا يزال الله عَزَّوَجَلَّ مُتصفًا بها لا تنفك عنه، بدون ذكر الأزل والأبد.

وبين هذين فرق؛ لأن بعض الأفعال التي فعلها الله عَزَّوَجَلَّ واتصف بها، لم يتصف بها في الأزل، وإنما اتصف الله عَزَّوَجَلَّ بها لما شاء أن يتصف بها، وذلك مثل الاستواء علىٰ العرش؛ فإن الاستواء علىٰ العرش صفة فعل من جهة أن الله عَزَّوَجَلَّ لم يكن مستويًا علىٰ العرش ثم استوىٰ عليه، وهي صفة لازمة، وعلىٰ حد التعريف الثاني للصفة الذاتية فإنها تدخل في الصفة الذاتية؛ =

=

لأن الله عَزَّوَجَلَّ استوىٰ علىٰ العرش ولا يزال مستويًا عليه، وأما التعريف الأول فلا تدخُل فيه صفة الاستواء؛ لأن صفة الاستواء لم تكن ملازمة لله عَزَّوَجَلَّ أزلًا، وإنما هو عَزَّوَجَلَّ لم يكن مُتصفًا بها ثم اتصف بها بمشيئته وقدرته عَزَّوَجَلَّ.

فإذًا قد تكون الصفة فعلية من جهة وذاتية من جهة أخرىٰ، ونقصد بالفعلية أنها التي تكون قائمة بمشيئة الله عَزَّوَجَلَّ وبقدرته.

وأهل السنة لم يُفرقوا في النصوص بين هذه الأنواع، وإنما أجروا الجميع مجرًىٰ واحدًا، فما ثبت في السنة عندهم مثل ما ثبت في القرآن؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي أخبر بذلك، وما يخبر به عن ربه عَزَّوَجَلَّ صادق فيه مصدوق يجب تصديقه فيه؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صادق فيما يبلغ عن الله، وذكر الصفات من أعظم مهمات الرسل؛ لأن بها يُحصل العلم بالله عَزَّوَجَلَّ.

لهذا نقول: إن طريقة أهل السنة في السُّنن وفيما جاء في القرآن من ذكر الصفات أن الجميع عندهم بابٌ واحد، وسواء ثبت ذلك في السنة في «الصحيحين» أو في غيرهما ما دام الحديث صحيحًا، كذلك إذا ثبت في قراءة مشهورة أو في قراءة أُخرىٰ ما دامت متواترة؛ فإنهم يُثبتون الصفة بذلك.

شيخ الإسلام -رحمه الله تعالىٰ- ذكر في هذا الموضع صفات فعلية، ومنها: صفة «الفرح»، وصفة «الضحك»، وصفة «العَجَب»، وهذه الصفات فعلية لازمة، يعني: أنها غير متعدية؛ لأن ضحك الله عَزَّوَجَلَّ صفة لازمة لم يفعلها بغيره، كذلك فرح الله عَزَّوَجَلَّ لازم لم يفعله بغيره، كذلك عجب الرب عَزَّوَجَلَّ لازم لم يفعله بغيره.

والمؤوِّلَة يقولون: فعل بغيره هذه الأشياء، أي: أضحك غيره، وعجَّب غيره، وأفرَح غيره... إلىٰ آخره. فيجعلونها ليست من الصفات وإنما هي من الأفعال المنفصلة، مثل: الخلق وغيره، فجعلوها مخلوقة، أو أن المراد بها التأويل؛ كما سيأتي تفصيله.

المقصود من ذلك: أن هذه الأفعال هي من أشد ما يُنكره المبتدعة من أهل التجهم والاعتزال والأشعرية والماتريدية، وصفة الفرح، وصفة الضحك، وصفة العَجَب هذه ليس فيها غرابة، بل هي من جنس صفة اليد، والعلو، والعينين، والأصابع لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الباب باب واحد،

=

⊙ **قوله:** «حَدِيثٌ حَسَنٌ»: الحسن اصطلاحًا: هو ما عُرف مخرجه واشتهرت رجاله، وشروطه شروط الصحيح، إلا أن الضبط يكون أقل وأخف من الصحيح، وهذا هو **الحسن لذاته**، وأما **الحسن لغيره**: فهو ما اختلت فيه شروط الصحيح؛ لكن انجبر بمجيئه من طرقٍ أخرىٰ، والحسن يشارك الصحيح في الاحتجاج به.

◈ ◈ ◈

=

ومن دخل في التشبيه تعاظم أن تكون هذه الصفات لله عَزَّوَجَلَّ، وأما من أيقن بأن المقصود بالإثبات هنا إثبات معنىٰ لا إثبات كيفية؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ:١١] فإن هذا الباب يكون عليه يسيرًا بفضل الله عَزَّوَجَلَّ ونعمته» اهـ.

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا وتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؟ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا رِجْلَهُ -وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيْهَا قَدَمَهُ- فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: «يَقُولُ اللهُ: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، فَيُنَادِي بِصَوتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِن ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ»(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حَاجِبٌ وَلَا تُرْجُمَانٌ»(٣).

الشَّرح

⊙ **قوله: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ» إلخ**: هذا الحديث رواه البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك، وتمامه: «**وتَقول: قَطْ قَطْ، وعِزَّتك وكَرَمك، ولا يزالُ في الجنة فضلٌ حتىٰ يُنشئَ لها خلقًا آخَرَ فيُسكِنهم اللهُ في فُضُول الجنة**»(٤).

⊙ **قوله: «جَهَنَّمُ»**: هو عَلَمٌ علىٰ طبقة من طبقات النار أعاذنا الله منها، قال يونسُ(٥) وأكثر النحويين: هي عجمية لا تنصرف للعُجمة والتعريف، قيل: سميت

(١) أخرجه البخاري (٧٣٨٤)، ومسلم (٣٨/ ٢٨٤٨)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢)، وغيرهما من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٣٩)، ومسلم (٦٧/ ١٠١٦)، وغيرهما من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٥٤٦٧)، ومسلم (٢٨٤٨)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٥) يونس بن حبيب، أبو عبد الرحمن الضبي، النحوي، إمام نحاة البصرة في عصره، أديب، عالم بالشعر، عارف بطبقات شعراء العرب، توفي سنة (١٨٢هـ). انظر ترجمته في: =

بذلك لبُعد قعرها.

⊙ **قوله**: «يُلْقَىٰ فِيهَا»: أي يُطرح، وهي تقول: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ [ق: ٣٠]، أي: هل من زيادة، تطلب الزيادة لسعتها وبُعد قعرها.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأخطأ من قال: إن ذلك للنفي، أي: ليس من مزيد، فإن الحديث الصحيح يرد هذا التأويل(١). انتهىٰ.

⊙ **قوله**: «فَيَنْزَوِي»: أي: ينضم بعضها إلىٰ بعض، قال في «المصباح»: زويته؛ أي: جمعته.

⊙ **قوله**: «فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ»: هو اسم فعل بمعنىٰ: حسبي، أي: يكفي.

هذا الحديث فيه دليلٌ علىٰ إثبات النار، وأنها مخلوقة، وفيه إثبات كلام النار، وأنها تتكلم، وهل هذا الكلام بلسان المقال أم بلسان الحال؟ فيه قولان؛ أصحهما الأول؛ للحديث، ولأن الأصل الحقيقة، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يخلق فيها إدراكًا، والله علىٰ كل شيءٍ قدير، وفيه دلالةٌ علىٰ عظم سعة النار وعمق قعرها بحيث تسع كل عاصٍ لله من حين خلق الله الخلق وتطلب الزيادة.

ولما كان من مقتضىٰ رحمته أن لا يعذب أحدًا بغير جُرم، وكانت النار في غاية السعة حقق وعدَه فيضع عليها قدمه فيتلاقىٰ طرفاها ولا يبقىٰ فيها فضلٌ عن أهلها، وأما

=

«وفيات الأعيان» (٧/ ٢٤٤)، و«تاريخ الإسلام» (٤/ ١٠١٤).

(١) انظر: «الفوائد» (١٢).

الجنة فيبقىٰ فيها فضلٌ عن أهلها فينشئ الله لها خلقًا آخرين كما ثبت ذلك في الحديث.

وفي الحديث دليلٌ علىٰ إثبات القَدَم والرِّجْل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما يليق بجلاله وعظمته.

قال محيي السنة(١): القدم والرجل في الحديث من صفات الله المنزهة عن التكييف، فالإيمان بها فرضٌ والامتناع عن الخوض بها واجب، فالمهتدي من سلك طريق التسليم، والخائض فيها زائغ، والمنكِر معطل، والمكيِّف مشبِّه، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير(٢). انتهىٰ.

وفي الحديث الرد علىٰ المعطلة الذين نفوا صفة القَدَم لله وأوَّلوا ذلك بنوع من الخلق، وأوَّلوا قوله في الرواية الثانية التي فيها إثبات الرِّجل لله، وقالوا: هذا كما يقال: رِجلٌ من جراد(٣)، وما زعموه من هذه التأويلات الفاسدة مردودةٌ من وجوه:

أولًا: أن الأصل الحقيقة.

---

(١) هو الشيخ الإمام، العلامة القدوة الحافظ شيخ الإسلام، مُحيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، المفسر، صاحب التصانيف كـ«شرح السنة» و«معالم التنزيل» و«الجمع بين الصحيحين» وأشياء، انظر: «سير أعلام النبلاء» (١٤/ ٣٢٨).

(٢) انظر: «شرح السنة» للبغوي (١٥/ ٢٥٧) بتصرف من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

(٣) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٣٣):**

«والرِّجْل تأتي بمعنىٰ: الطائفة، كما في حديث أيوب عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ [أخرجه البخاري (٣٣٩١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ]، أرسل الله إليه رِجل جراد من ذهب؛ يعني: طائفة من جراد» اهـ.

ثانيًا: أنه قال: «حَتَّىٰ يَضَعَ» ولم يقل: حتىٰ يلقىٰ، كما قال في قوله: «ولا يزالُ يُلقىٰ فيها».

ثالثًا: أن قوله: «قَدَمَهُ» لا يفهم منه هذا لا حقيقة ولا مجازًا.

إلىٰ غير ذلك من الوجوه التي ذكرها الشيخ تقي الدين وغيره في إثبات صفة القَدم لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ حقيقة كما يليق بجلاله وعظمته، والرد علىٰ من زعم غير ذلك.

⊙ **قوله:** «**يَقُولُ الله**» إلخ: هذا الحديث رواه البخاري ومسلم في «صحيحيهما» من حديث أبي سعيد الخدري، وتمامه: «**قال: وما بَعْث النار؟ قال: مِن كلِّ ألفٍ تِسعُ مِئة وتسعة وتسعون، فذلك حين يَشيبُ الصَّغيرُ وتضع كلُّ ذاتِ حَمْل حملَها وترىٰ الناسَ سكارىٰ وما هم بسكارىٰ ولكن عذابَ الله شديد**»، فاشتد ذلك عليهم، فقالوا: يا رسول الله، أينا ذلك الرجل؟ قال: «**أبْشِروا فإن مِن يأجوج ومأجوجَ تِسع مئة وتسعة وتسعين ومنكم واحد، أنتم في الأرْضِ كالشَّعرة السوداء في جنب الثَّور الأبيض، أو كالشَّعرة البيضاء في جنب الثور الأسود، إني لأرجو أن تكونوا رُبعَ أهل الجنة**» فكبرنا، ثم قال: «**ثُلُثَ أهل الجنة**» فكبرنا، ثم قال: «**شَطرَ أهل الجنة**»(١) فكبرنا، وروىٰ هذا المعنىٰ جماعة من الصحابة.

⊙ **قوله:** «**لَبَّيْكَ**»: لبيك من: ألب بالمكان؛ إذا أقام به، أي: أنا مقيم علىٰ طاعتك.

⊙ **قوله:** «**وَسَعْدَيْكَ**»: من المساعدة وهي المطاوعة، ومعناها: إسعاد بعد إسعاد.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٧٠)، ومسلم (٢٢٢)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد اشتملت كلمات التلبية على فوائد عظيمة:

أولًا: أن قوله: (لبيك) يتضمن إجابة داعٍ دعاك ومنادٍ ناداك، ولا يصح في لغة ولا عقل إجابة من لا يتكلم ولا يدعو مَن أجابه.

ثانيًا: أنها تتضمن المحبة، ولا يقال: (لبيك) إلا لمن تحبه وتعظمه.

ثالثًا: أنها تتضمن التزام دوام العبودية؛ ولهذا قيل: هي من الإقامة، أي: أنا مقيمٌ على طاعتك.

رابعًا: أنها تتضمن الخضوع والذل، أي: خضوعًا بعد خضوع، من قولهم: أنا ملبٌّ بين يديك، أي: خاضعٌ ذليل.

خامسًا: أنها تتضمن الإخلاص؛ ولهذا قيل: إنها من اللُّب، وهو الخالص.

سادسًا: أنها تتضمن الإقرار بسمع الرب؛ إذ يستحيل أن يقول الرجل لمن لا يسمع دعاءه: لبيك.

سابعًا: أنها تتضمن التقرب من الله، ولهذا قيل: إنها من الإلباب[1] وهو التقرب[2]. انتهى.

⊙ **قوله: «فَيُنَادِي»:** بكسر الدال، أي: الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

⊙ **قوله: «بِصَوتٍ»:** فيه إثبات الصوت حقيقة كما يليق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ،

---

(١) في الأصل: «الألباب»، والصواب ما أثبتناه من المصدر المذكور.

(٢) انظر: «عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم» (٥/ ١٧٨).

وصوته من صفات ذاته لا يشبه خلقه، ولا حاجة أن يقيد النداء بصوت فإنه بمعناه، فإذا انتفىٰ الصوت انتفىٰ النداء؛ ولهذا قيده بالصوت إيضاحًا وتأكيدًا كما قيد التكليم بالمصدر في قوله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤].

⊙ **قوله**: «بَعْثًا إِلَى النَّارِ»: البعث هنا هو بمعنىٰ المبعوث الموجه إليها، ومعناه: ميِّز أهل النار من غيرهم. انتهىٰ.

وإنما خصَّ آدم بذلك لكونه والد الجميع، ولكونه كان قد عرف أهل السعادة من أهل الشقاء، فقد رآه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليلة الإسراء وعن يمينه أسودة وعن يساره أسودة، الحديث. انتهىٰ من «فتح الباري»[١].

أفاد هذا الحديث إثبات صفة القول لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأنه قال ويقول متىٰ شاء إذا شاء كما يليق بجلاله، وأفاد إثبات النداء لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وأنه نداءٌ حقيقةً بصوت.

وفيه أن النداء والقول يكون يوم القيامة، فهذا من أدلة الأفعال الاختيارية.

وأفاد إثبات صفة الكلام وأنها صفة ذاتٍ وفعل، فإنه سبحانه متصفٌ بهذه الصفة ويتكلم متىٰ شاء إذا شاء كيف شاء، فكلامه سبحانه قديم النوع حادث الآحاد.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد دل القرآن وصريح السنة والمعقول وكلام السلف علىٰ أن الله يتكلم بمشيئته، كما دل علىٰ أن كلامه صفةٌ قائمةٌ بذاته، وهي صفة ذاتٍ وفعلٍ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾ [النحل: ٤٠][٢]. انتهىٰ.

---

(١) انظر: «فتح الباري» (١١/ ٣٨٩).

(٢) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٥٠١).

وفيه دليلٌ علىٰ أن الله يتكلم بحرفٍ وصوت، ولأن النداء لا يكون إلا بحرفٍ وصوتٍ بإجماع أهل اللغة، وكان أئمة السنة يعدون من أنكر تكلمه بصوت من الجهمية، كما قال الإمام أحمد لما سئل عمن قال: إن الله لا يتكلم بصوت؟ فقال: هؤلاء إنما يدورون علىٰ التعطيل.

قال شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية: أول ما ظهر إنكار أن الله يتكلم بصوت في أثناء المئة الثالثة لمَّا ظهرت الجهمية والمعطلة(١).

وقال عبد الله بن أحمد في كتاب «السنة»: قلت لأبي: يا أبتي، إنهم يقولون: إن الله لا يتكلم بصوت! فقال: بلىٰ، يتكلم بصوت(٢).

وقال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب «خلق أفعال العباد»: ويُذكر عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أنه كان يحب أن يكون الرجل خافضًا من الصوت، ويكره أن يكون رفيع الصوت، وأن الله ينادي بصوت يسمعه مَن بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ، وليس هذا لغير الله، قال: وفي هذا دليلٌ علىٰ أن صوته لا يشبه أصوات الخلق؛ لأن صوت الله يسمعه من بعُد كما يسمعه من قرُب، وأن الملائكة يصعقون من صوته، وساق حديث جابر: أنه سمع عبد الله بن أُنيس يقول: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «يَحشرُ اللهُ العبادَ فيناديهم بصوتٍ يَسمعه مَن بَعُد كما يَسمَعه مَن قَرُب: أنا المَلِكُ أنا الدَّيَّانُ»(٣)

---

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٥٢٥).

(٢) انظر: «المسائل والرسالة المروية عن الإمام أحمد» (١/ ٣٠٢).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٩٥)، والحاكم (٣٦٣٨)، وغيرهما من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في ظلال الجنة (٥١٤).

الحديث، ثم احتج بحديث أبي سعيد المتقدم[١].

فهذان إماما أهل السنة علىٰ الإطلاق: أحمد بن حنبل والبخاري، وكل أهل السنة علىٰ قولهما، وقد صرح بذلك وحكاه إجماعًا: حرب بن إسماعيل صاحب الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق، وصرح به غيره، وقد احتج بحديث ابن مسعود وغيره وأخبر أن المنكرين لذلك هم الجهمية.

وقد روي في إثبات الحرف والصوت في كلام الله أكثر من أربعين حديثًا بعضها صحاح وبعضها حِسان ويحتج بها، أخرجها الضياء المقدسي وغيره، وأخرج أحمد غالبها واحتج به، واحتج بها البخاري وغيره من أئمة الحديث، فقد صححوا رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ هذه الأحاديث واعتقدوها واعتمدوا عليها منزهين الله عما لا يليق بجلاله؛ كما قالوا في سائر الصفات من النزول والاستواء والمجيء والسمع والبصر والعين وغيرها، فأثبتوا هذه الصفات كما يليق بالله إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل.

وفي الحديث دليلٌ علىٰ أن الله نادىٰ آدم وكلَّمه، وفيها **الرد** علىٰ من زعم: أن كلام الله هو المعنىٰ النفسي، فإن آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سمع كلام الله، والمعنىٰ المجرد لا يُسمع، **وفيه الرد** علىٰ من زعم: أن كلام الله شيءٌ واحد لا يتجزأ ولا يتبعَّض.

⊙ **قوله: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ»** إلخ: هذا الحديث رواه البخاري ومسلم من حديث عدي بن حاتم قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«ما منكم مِن أحدٍ إلا سَيُكَلِّمُه ربُّه يوم القيامة ليس بَينه وبينه تُرجُمان، ثم يَنظر فلا يَرىٰ شيئًا قُدَّامه، ثم يَنظر**

---

(١) انظر: «خلق أفعال العباد» (٩٨).

بين يديه فتَستقبله النارُ، فمن استطاع منكم أن يَتَّقي النارَ ولو بشقِّ تَمرَة»[١]، هذا لفظ البخاري، وفي رواية لهما: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اتَّقوا النارَ»، ثم أعرض وأشاح، ثم قال: «اتَّقوا النارَ» ثم أعرض وأشاح ثلاثًا حتى ظننا أنه ينظر إليها، ثم قال: «اتَّقوا النارَ ولو بشِقِّ تَمرَة، فمَن لم يَجد فبكلمةٍ طيبة»[٢].

⊙ **قوله:** «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ» الحديثَ: ظاهرُ الخطاب للصحابة ويلتحق بهم المؤمنون كلهم سابقهم ومقصرهم. انتهى. والمراد: أنه يكلمهم بلا واسطة، فتكليمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نوعان:

الأول: بلا واسطة، كما في هذا الحديث.

الثاني: بواسطة، وقد تقدمت الإشارة إليه.

⊙ **قوله:** «تُرْجُمَانٌ»: هو من يعبِّر بلُغة عن لغة، كما قال بعضهم:

ومن يفسر لغة بلغة ... مترجِم عند أهيل اللغة

أفاد هذا الحديث إثبات صفة الكلام لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ والرد على الجهمية والأشاعرة من نفاة صفة الكلام، فإن الكلام صفة كمال، وأدلة ذلك من الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه، وأفاد هذا الحديث أنه يكلم جميع الناس، وأما قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٧٤] الآية، فالمراد: لا يكلمهم كلامًا يسُرُّهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٧٤)، ومسلم (١٠١٦)، وغيرهما من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٧٤)، ومسلم (١٠١٦/ ٦٨)، وغيرهما من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَوْلُهُ فِي رُقْيَةِ الْمَرِيضِ: «رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ، تَقَدَّسَ اسْمُكَ! أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ! كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ، اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الأَرْضِ! اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا وَخَطَايَانَا! أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ! أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ، وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجَعِ [فَيَبْرَأَ]»(١). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

وَقَوْلُهُ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ؟!»(٢) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ.

وَقَوْلُهُ: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ(٣)، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ»(٤). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمَا.

وَقَوْلُهُ لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللهُ؟». قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ. قَالَ: «مَنْ أَنَا؟». قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ. قَالَ: «أَعْتِقْهَا فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»(٥). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

الشرح

⊙ **قوله:** «فِي رُقْيَةِ الْمَرِيضِ»: هذا الحديث رواه أبو داود من حديث أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «مَن اشتكى منكم شيئًا فليقل:

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٩٢)، وأحمد (٦/ ٢١)، وغيرهما من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وضعفه العلامة الألباني في «المشكاة»، برقم (١٥٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٤)، ومسلم (١٠٦٤)، وغيرهما من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) في نسخة: «والعرش فوق الماء والله فوق العرش» حديث حسن رواه أبو داود وغيره.

(٤) أخرجه -بمعناه- أبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، من حديث العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وضعفه العلامة الألباني في «ضعيف سنن أبي داود».

(٥) أخرجه مسلم (٥٣٧)، وأبو داود (٩٣٠)، وغيرهما من حديث معاوية بن الحكم السلمي.

رَبنا الله الذي في السماء»[١] الحديث، وأخرجه النسائي -أيضًا- من حديث أبي الدرداء: أنه أتاه رجل يذكر أن أباه احتبس بوله وأصابته حصاة؛ فعلَّمه هذا فرقاه بها فبرأ[٢]، هذا لفظ النسائي، وقد رواه البيهقي والحاكم والطبراني.

⊙ **قوله**: «فِي رُقْيَةِ الْمَرِيضِ»: أي: القراءة على المريض، مِن: رقاه برقية إذا قرأ عليه، ففيه دليلٌ على إباحة الرقية لهذا الحديث وغيره، كما روى مسلم وأبو داود من حديث عوف بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «**لا بأس بالرُّقى ما لم تكن شركًا**»[٣]، وقوله ﷺ وقد سئل عن الرقى: «**مَن استطاع منكم أن يَنفعَ أخاه فلْيَنْفَعْه**»[٤]. رواه مسلم وأحمد وابن ماجه من حديث جابر.

وأما ما رواه مسلم في «صحيحه» من حديث جابر أن رسول الله ﷺ نهى عن الرقى، فالمراد بها: الرقى التي تتضمن الشرك وتعظيم غير الله؛ كغالب رقى الجاهلية فلا يعارض ما تقدم من الأحاديث في إباحة الرقى.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٩٢)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٤٢٢).

(٢) أخرجه الحاكم (١٢٧٢)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٦/ ٢٥٧)، وغيرهما من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «المشكاة» (١٥٥٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٠)، وأبو داود (٣٨٨٦)، وابن حبان (٦٠٩٤)، وغيرهم من حديث عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٢١٩٩)، وأحمد (٣/ ٣٠٢)، وغيرهما من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال السيوطي[١]: قد أجمع العلماء علىٰ جواز الرقىٰ عند اجتماع ثلاثة شروط:

(١) أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته.

(٢) أن تكون باللسان العربي وما يُعرف معناه.

(٣) أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله. انتهىٰ[٢].

⊙ **قوله:** «رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ»: فيه إثبات العلو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ علىٰ الخلق، وفسر قوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «في السماء» بتفسيرين:

الأول: أن «في» بمعنىٰ «علىٰ»، فقوله «فِي السَّمَاءِ»، أي: علىٰ السماء، كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، وقوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢] أي: عليها.

الثاني: أن المراد بالسماء: العلو، فقوله: «فِي السَّمَاءِ»، أي: العلو، والسماء كل ما علاك وأظلك، فهو سبحانه في جهة العلو.

⊙ **قوله:** «تَقَدَّسَ اسْمُكَ»: أي: تنزه، من التقديس، وهو التنزيه عما لا يليق، فأسماؤه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ منزهةٌ عن العيوب والنقائص وعن تأويل المحرفين وتشبيه الممثلين.

⊙ **قوله:** «أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»: أي: أمرك الكوني القدري، وأمرك الديني الشرعي.

---

(١) كذا في الأصل، والصواب: «ابن حجر».

(٢) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (١٠/ ١٩٥).

فأمره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: أمر كوني قدري، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] الآية.

الثاني: الأمر الديني الشرعي، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] الآية، فأمره سبحانه الكوني نافذٌ لا رادَّ له في السماء والأرض، فلا رادَّ لأمره ولا معقب لحكمه.

⊙ **قوله:** «كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ»: فيه إثبات صفة الرحمة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كما يليق بجلاله.

⊙ **قوله:** «أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ»: فيه إثبات العلو، وهذه الرحمة مخلوقة.

فإن الرحمة المضافة إليه تنقسم إلىٰ قسمين:

الأول: رحمةٌ تضاف إليه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من باب إضافة الصفة إلىٰ الموصوف، كقوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله في الحديث: «برَحمَتِك أَسْتَغِيثُ»(١).

الثاني: رحمةٌ تضاف إليه سبحانه من باب إضافة المخلوق إلىٰ خالقه، كما قال

---

(١) أخرجه الحاكم (٢٠٠٠)، والنسائي في «السنن الكبرىٰ» (٦/ ١٤٧)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٨٢٠).

في الحديث: «أَنزِل رَحمةً مِن رَحمَتِك»(١)، وكما في حديث: «خلق اللهُ مئةَ رَحمَة»(٢)، وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قال سبحانه للجنَّة: أنتِ رَحمتي أرحَمُ بِكِ مَن أشاء»(٣) وقد تقدم الكلام على هذا البحث في الكلام على الآيات.

⊙ **قوله:** «اغْفِرْ لَنَا حُوبَنَا»: هذا فعل دعاء، مِن الغفْر، وهو الستر ووقاية الأثر، ومنه المِغفر، والجمع: الغفير.

⊙ **قوله:** «حُوبَنَا»: **الحُوب**: هو الإثم، ومنه قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝٢﴾ [النساء: ٢].

⊙ **قوله:** «وَخَطَايَانَا»: الخطايا: هي الذنوب والآثام.

⊙ **قوله:** «أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ»: جمع طيِّب، وخصَّهم بالذِّكر لِما اتصفوا به من الطيب، ومعلوم أنه رب كل شيء، ما يتصف بالطيب والخبث وغيرها، ولكن هذه ربوبية خاصة بأنبيائه وعباده الصالحين، لها اختصاص على الربوبية العامة للخلق، فإن من أعطاه الله من الكمال أكثر مما أعطى غيره، فقد ربَّه ورباه ربوبية وتربية أكمل من غيره.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٩٢)، والحاكم (١٢٧٢)، وغيرهما من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٤٢٢).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٢٧٥٢/ ١٨)، واللفظ له، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٦٩)، ومسلم (٢٨٤٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فالربوبية تنقسم إلىٰ قسمين:

الأول: ربوبيةٌ عامةٌ، وهي لسائر الخلق.

الثاني: ربوبيةٌ خاصةٌ، وهي ربوبيةٌ لأنبيائه وعباده الصالحين.

وفي هذا الحديث إشارةٌ إلىٰ التوسل بربوبيته سبحانه للطيبين، وهذا التوسل الشرعي وهو التوسل بربوبيته سبحانه وأسمائه وصفاته، وهذا التوسل من أعظم الوسائل للحصول علىٰ المقصود، ولا يكاد يُردُّ دعاء من توسل بها؛ فلهذا دعا الله بعدها بالشفاء الذي هو شفاء الله الذي لا يدع مرضًا إلا أزاله، وفيه أنه ينبغي أن يأتي من صفاته في كل مقام بما يناسبه؛ كلفظ (الغفور) عند طلب المغفرة، و(الرازق) عند طلب الرزق، ونحو ذلك، والقرآن والأدعية النبوية مملوءةٌ بذلك.

⊙ **قوله:** «عَلَىٰ هَذَا الْوَجِعِ»: بكسر الجيم، أي: المصاب بالمرض.

⊙ **قوله:** «أَلَا تَأْمَنُونِي»: هذا الحديث أخرجه في «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري قال: بعث عليٌّ من اليمن بذُهيبةٍ في أديمٍ مقروظٍ لم تحصل من ترابها، فقسمها رسول الله ﷺ بين أربعة: زيد الخير، والأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، وعلقمة بن علاثة، أو عامر بن الطفيل -شك عمارة- فوجد من ذلك بعض الصحابة من الأنصار وغيرهم، فقال رسول الله ﷺ: «**ألا تأمنوني وأنا أمينُ مَن في السماء؟! يأتيني خبرُ السَّماء صباحًا ومساءً**»(١) أخرجه البخاري ومسلم.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٩٤)، ومسلم (١٠٦٤)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

⊙ **قوله: «أَلَا تَأْمَنُونِي»**: ألا: أداة استفتاح.

⊙ **قوله: «وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»**: أي: أمين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الذي في السماء علىٰ تبليغ شرعه ودينه، قيل: إن القائل للنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو ذو الخويصرة اليمني، فاستأذنه بعض الصحابة في قتله، فقال النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«دَعْهُ، فإنه يَخرُج مِن ضِئضئ هذا -أي: مِن جِنْسه- قومٌ تَحقِرُون صلاتكم مع صلاتِهم، وقراءتكم مع قراءتهم، يَمرُقُون من الدِّينِ كما يَمرقُ السَّهمُ مِن الرَّميَّة، فأينما لَقيتُموهم فاقتلوهم، فإن في قتلهم أجرًا لمَن قتلهم»**(١) الحديث.

فأول بدعةٍ وقعت في الإسلام فتنة الخوارج، وكان مبدؤهم بسبب الدنيا حين قسم النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غنائم حنين، فكأنهم رأوا في عقولهم الفاسدة: أنه لم يعدل في القسمة ففاجئوه بهذه المقالة، ثم كان ظهورهم في أيام علي بن أبي طالب فقتلهم في النهروان، ثم تشعبت منهم شعوبٌ وآراءٌ وأهواءٌ ومقالاتٌ ونِحلٌ كثيرة منتشرة، ثم حدثت بعدهم بدعة القدرية، ثم المعتزلة، ثم الجهمية، وغير ذلك من البدع التي أخبر عنها الصادق المصدوق صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: **«وسَتفترق هذه الأمةُ علىٰ ثلاثٍ وسبعين فِرقة كلُّها في النار إلا واحِدَة»** قالوا: وما هم يا رسول الله؟ قال: **«مَن كان علىٰ مِثْلِ ما أنا عليه وأصحابِي»**(٢)، أخرجه الحاكم في «مستدركه».

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٦٦)، من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، والحاكم (٤٤٤)، وغيرهما من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وروي عن غير واحد من الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠٤٢).

أفاد هذا الحديث فوائد:

أولًا: ما كان عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصبر والتحمل لأذى المنافقين.

ثانيًا: ترك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا المنافق وغيره استبقاءً لانقيادهم وتأليفًا لقلوبهم، فإنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما استأذنه بعض الصحابة في قتل بعض المنافقين قال: «**مَعاذَ الله أن يَتَحَدَّثَ الناسُ أن محمدًا يقتلُ أَصحابَه**»(١).

ثالثًا: فيه دليلٌ لمن لم يكفر الخوارج.

قال النووي: ومذهب الشافعي وجماهير أصحابه وجماهير العلماء: أن الخوارج لا يكفرون، وكذلك القدرية والمعتزلة وسائر أهل الأهواء(٢). انتهىٰ.

رابعًا: فيه دليلٌ علىٰ علو الله علىٰ خلقه، فقوله: «في السماء» فسرت «في» بمعنىٰ «علىٰ»، أو أن المراد بالسماء العلو، ولا تنافي بين التفسيرين، وقد تقدم، فليس معنىٰ قوله: «في السماء» أن السماء تظله أو تقله أو تحيط به أو تحويه، فإن هذا ما لا توجبه اللغة، وخلاف ما فطر الله عليه الخلق.

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللَّهُ في «**الرسالة الحموية**»: ثم من توهم أن كون الله في السماء تحيط به وتحويه فهو كاذبٌ إن نقله عن غيره، وضال إن اعتقده في ربه، وما سمعنا أحدًا يفهمه من اللفظ ولا رأينا أحدًا نقله عن أحد، ولو سئل سائر المسلمين: هل يفهمون من قول الله ورسوله: إن الله في السماء؛ أن السماء تحويه؛ لبادر كل أحد

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٠)، ومسلم (٢٥٨٤)، وغيرهما من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (٢/ ٥٠).

أن يقول: هذا شيء لعله لم يخطر ببالنا، وإذا كان الأمر هكذا فمن التكلف أن يجعل ظاهر اللفظ شيئًا محالًا يفهمه الناس منه، ثم يريد أن يتأوله.

بل عند المسلمين أن الله في السماء وهو علىٰ العرش شيءٌ واحد، إذ السماء إنما يراد به العلو، فالمعنىٰ أن الله في العلو لا في السُّفل، وقد علم المسلمون أن كرسيه سبحانه وسع السموات والأرض، وأن الكرسي في العرش كحلقة ملقاة في أرض فلاة، وأن العرش خلقٌ من مخلوقات الله لا نسبة له إلىٰ قدرة الله وعظمته، فكيف يتوهم متوهمٌ بعد ذلك أن خلقًا يحصره أو يحويه؟! وقال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن فرعون: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، وقال: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٣٧] بمعنىٰ «علىٰ» ونحو ذلك، وهو كلامٌ عربيٌّ حقيقةً لا مجازًا(١). انتهىٰ.

⊙ **قوله: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ...»** إلخ: هذا الحديث رواه أبو داود وغيره من حديث العباس بن عبد المطلب، ولفظ أبي داود عن العباس بن عبد المطلب قال: كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فمرت بهم سحابةٌ فنظر إليها فقال: **«ما تُسمُّون هذه؟»** قالوا السحاب، قال: **«والمُزْن»**، قالوا: والمزن، قال: **«والعنان»**، قالوا: والعنان. قال أبو داود: لم أتقن جيدًا، قال: «**هل تَدرون بُعد ما بين السماء والأرض؟**» قالوا: لا ندري، قال: «**إن بُعد ما بينهما إما واحِدَة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السَّماء فوقها كذلك حتىٰ عدَّ سبع سموات، ثم فوق السَّماء السابعة بحرٌ بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلىٰ سماء، ثم فوق ذلك ثَمانية أَوْعال بين أظْلَافِهم ورُكَبهم مثل ما بين سماء إلىٰ سماء، ثم علىٰ ظُهورهم العرشُ بين أسفله**

(١) انظر: «الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ» (٥٢٥، ٥٢٦).

وأعلاه مثل ما بين سماء إلىٰ سماء، ثم الله فوق ذلك»(١). ورواه -أيضًا- ابن ماجه والترمذي وحسنه، ورواه الحافظ ضياء الدين المقدسي في «المختارة».

⊙ **قوله**: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ»: تقدم الكلام علىٰ العرش.

أفاد هذا الحديث عدة فوائد:

الأول: إثبات العرش، وقد تكاثرت الأدلة من الكتاب والسنة علىٰ إثباته، **وفيها الرد** علىٰ من نفىٰ العرش وزعم أن معنىٰ عرشه ملكه وقدرته، ولا شك في بطلان ذلك، **وفيه دليلٌ** علىٰ أن العرش فوق المخلوقات، وأنه ليس فوقه من المخلوقات شيء.

وفيه دليلٌ علىٰ أن الله في السماء مستوٍ علىٰ العرش، فلو كان في كل مكان لم يكن لهذا التخصيص معنًىٰ ولا فيه فائدة، **وفيه** تفسير الاستواء بالعلو كما فسَّره الصحابة والتابعون والأئمة، خلافًا للمعطلة من الجهمية والمعتزلة ومن أخذ عنهم من الأشاعرة وغيرهم ممن ألحد في أسماء الله وصفاته، وصرفها عن المعنىٰ التي وضعت له ودلت عليه من إثبات صفات الله التي دلت علىٰ كماله جَلَّ وَعَلَا، **وفيها** إثبات فوقيته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعلوه علىٰ خلقه.

وهذا الحديث صريحٌ في فوقية الذات، ففيه الرد علىٰ من زعم أن الفوقية فوقية رتبة وشرف، فإن حقيقة الفوقية: علو ذات الشيء علىٰ غيره، وقد تقدم ذكر أنواع الفوقية، فله سبحانه الفوقية التامة والعلو الكامل المطلق، هذا مذهب أهل السنة

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٣)، والترمذي (٣٣٢٠)، وابن ماجه (١٩٣)، وغيرهم من حديث العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٢٤٧).

والجماعة، وبدَّعوا وضلَّلوا من خالفه من الجهمية والمعتزلة.

وفي هذا الحديث إثبات علمه المحيط بكل معلوم، فلا تخفىٰ عليه خافية، وفيه الجمع بين الإيمان بعلوه علىٰ خلقه واستوائه علىٰ عرشه وبين الإيمان بإحاطة علمه بالموجودات كلها، وقد جمع بين الأمرين في عدة مواضع.

⊙ **قوله: «قَوْلُهُ لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللهُ؟»... إلخ»**: هذا الحديث رواه مسلم من حديث معاوية بن الحكم السُّلمي، وأخرجه أبو داود والنسائي، وروىٰ سببه بألفاظ متعددة، وفي بعض ألفاظه عن الحكم بن معاوية السلمي قال: اطلعت علىٰ غُنيمة ترعاها جارية لي قِبل أُحد والجوانية، فوجدت الذئب قد أصاب منها شاة، وأنا من بني آدم آسف كما يأسفون، فصككتها صكةً ثم انصرفت إلىٰ رسول الله ﷺ فأخبرته فعظَّم ذلك عليَّ، قال: قلت: يا رسول الله: أفلا أعتقها؟ قال: «بَلىٰ جِئْني بها». قال: فجئت بها رسول الله ﷺ فقال: لها: «أينَ الله؟» قالت: في السماء، قال: «مَن أنا؟» قالت: أنت رسول الله ﷺ، قال: «أَعتِقْها فإنها مُؤمِنَة»(١).

قال الحافظ الذهبي في كتاب «العلو»: هذا حديثٌ رواه جماعة من الثقات، قال: وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي وغير واحد من الأئمة في تصانيفهم يروونه كما جاء ولا يتعرضون له بتأويل ولا تحريف(٢)، ثم بين الذهبي طرقه واختلاف ألفاظه.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧)، وأبو داود (٩٣٠)، وغيرهما من حديث معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها» (١٤).

هذا الحديث فيه فوائد:

أولًا: فيه جواز السؤال عن الله بـ(أين؟) خلافًا للمبتدعة.

ثانيًا: فيه جواز الإشارة إلىٰ العلو كما جاء صريحًا في حديث أبي هريرة الذي أخرجه أبو داود في باب الإيمان والنذور: «فأشارت بأصبعها إلىٰ السماء».

ثالثًا: فيه إثبات العلو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإن معنىٰ قوله: «في السماء» أي: علىٰ السماء، يعني علىٰ العرش. وقد تقدم الكلام.

رابعًا: فيه الدليل علىٰ أن من شهد هذه الشهادة أنه مؤمن.

خامسًا: فيه دليلٌ علىٰ أنه يشترط في صحة العتق الإيمان.

سادسًا: فيه دليلٌ علىٰ أن من شهد هذه الشهادة يُكتفىٰ في ذلك بإيمانه ويقبل منه ذلك ولو لم يذكر دليلًا، فإن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل منها مجرد الشهادة بعلو الله ورسالة رسوله، خلافًا للمتكلمين الذين يقولون: لابد من النظر والقصد إلىٰ النظر أو الشك، فإن هذه أقوالٌ باطلة، فإن معرفة الله سبحانه فطريةٌ فطر الله عليها عباده، كما في الحديث قال: «**كلُّ مَولودٍ يُولَدُ علىٰ الفِطرَة، فأبواه يهوِّدانه أو يُمجِّسانه أو يُنصِّرانه**»[1]. الحديث.

سابعًا: فيه دليلٌ علىٰ أن الاعتراف بعلو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وفوقيته مفطورٌ عليه الخلق مغروزٌ في نفوسهم، وقد جرت عادة المسلمين عامتهم وخاصتهم بأن يدعو

---

(١) أخرجه البخاري (١٣١٩) واللفظ له، ومسلم (٢٦٥٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ربهم عند الابتهال والرغبة إليه فيرفعوا أيديهم إلىٰ السماء، وذلك لاستفاضة العلم عندهم بأن ربهم المدعو في السماء، وقد تطابق أدلة العقل والنقل علىٰ إثباته.

◈ ◈ ◈

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ الإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ»(١). حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَقَوْلُهُ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلاةِ؛ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ، فَلَا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ»(٢). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ! فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى! مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ! أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا! أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ! وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ! وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ! وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ! اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ»(٣). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَقَوْلُهُ لَمَّا رَفَعَ أَصْحَابُهُ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ: «أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا، إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»(٤). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ(٥).

---

(١) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (ص٥٤١)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٢٤)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٦٠): «رواه الطبراني في «الأوسط» و«الكبير»، وقال: تفرد به عثمان بن كثير»، قلت: ولم أرَ مَن ذكره بثقة ولا جرح. اهـ، وضعَّفه العلامة الألباني في «ضعيف الجامع»، برقم (١٠٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤١٣)، ومسلم (٥٥١)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧١٣)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٦٤٠٩)، ومسلم (٢٧٠٤)، وغيرهما من حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) وهذا الحديث لم يشرحه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ.

الشَّرح

⊙ **قوله: «أَفْضَلُ الإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الله مَعَكَ...»**[(١)] **إلخ: في هذا الحديث دليلٌ** علىٰ إثبات معيته سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والمعية تنقسم إلىٰ قسمين، وقد تقدم الكلام عليها، وهذا الحديث فيه ذكر المعية العامة، وهي معية العلم والاطلاع.

وقد تكاثرت الأدلة بالندب إلىٰ استحضار قربه سبحانه في حال العبادات؛ كقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إذا قام أحدُكم يُصلِّي فإنَّه يُناجي ربَّه»**[(٢)]، وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إنَّ الله يَنصِبُ وجْهَه لوجهِ عَبده في صلاته ما لم يَلتَفِتْ»**[(٣)].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن فهم من هذه الأحاديث تشبيهًا أو حلولًا أو اتحادًا فإنما أُتي من جهله وسوء فهمه عن الله ورسوله، والله ورسوله بريئان من ذلك كله، فسبحان من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير[(٤)]. انتهىٰ.

وفي هذا الحديث دليلٌ علىٰ أن الإيمان يتفاضل، ودليلٌ علىٰ أن بعض خصال الإيمان أفضل من بعض.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٧٩٦)، وفي «مسند الشاميين» (٥٣٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٢٤) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٠٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٧)، ومسلم (٥٥١)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٦٣)، وأحمد (٤/ ١٣٠)، وابن خزيمة (٤٨٣)، وغيرهم من حديث الحارث الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٥٢).

(٤) انظر: «جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم» (١/ ١٣١-١٣٢).

وفيه دليلٌ علىٰ فضل عمل القلب، ودليلٌ علىٰ أن أعمال القلوب داخلة في مسمىٰ الإيمان.

وفيه الرد علىٰ من زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

وفيه دليلٌ علىٰ أن الإحسان أكمل مراتب الدين، وهو أن يعبد ربه كأنه يراه، فيستحضر قرب الله واطلاعه وأنه بين يديه، وذلك يوجب الخشية والخوف والتعظيم، ويوجب النصح في العبادة وبذل الجهد في تحسينها وإتمامها، فيجمع العبد بين الإيمان بعلو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ واستحضار قربه، ولا منافاة بين الأمرين.

⊙ **قوله:** «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَىٰ الصَّلاةِ»(١): هذا الحديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن جماعة من الصحابة، منهم: أنس، وأبو هريرة، وجابر بن عبد الله، وابن عمر، وغيرهم.

⊙ **قوله:** «يَبْصُقَنَّ»: أي: يتْفل، والبُصاق والبزاق لغتان، والبصاق لغة قليلة.

⊙ **قوله:** «قِبَلَ»: بكسر القاف وفتح الباء، أي: مواجه.

في هذا الحديث فوائد: فيه دليلٌ علىٰ قرب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإحاطته كما يليق بجلاله وعظمته، كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾﴾ [البروج: ٢٠]، فإذا كان محيطًا بالعالم فهو فوقه بالذات عالٍ عليه من كل وجه وبكل معنىٰ، فالإحاطة تتضمن العلو والسعة والعظمة، وإحاطته سبحانه بخلقه لا تنفي مباينته ولا علوه علىٰ مخلوقاته،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٧)، ومسلم (٥٥١)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

بل هو سبحانه فوق خلقه محيط بهم مباين لهم. انتهىٰ من «الصواعق» باختصار(١).

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللَّهُ في «الحموية»: وكذلك العبد إذا قام يصلىٰ فإنه يستقبل ربه وهو فوقه فيدعوه من تلقائه لا عن يمينه ولا عن شماله، ويدعوه من العلو لا من السفل كما إذا قدر أنه يخاطب القمر فإنه لا يتوجه إليه إلا بوجهه مع كونه فوقه(٢). اهـ.

وقد نزع بهذا الحديث بعض المعتزلة إلىٰ أن الله في كل مكانٍ بذاته، وهذا جهلٌ فاضح، والأدلة المتواترة ترد ذلك وتفيد علو الله واستوائه علىٰ عرشه، وأيضًا: فإن آخر الحديث ينقض قولهم وهو قوله: «**أو تحت قدمه**».

وفي الحديث إشارةٌ للندب إلىٰ استحضار قربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ومعيته في حال العبادة، فإن ذلك يوجب الخشية والخوف من الله، ويدعو إلىٰ إتمام العبادة علىٰ الوجه اللائق.

وفيه دليلٌ علىٰ القيام في الصلاة، وأن العمل اليسير لا يبطل الصلاة.

وفيه دليلٌ علىٰ جواز البصاق وهو يصلي، وفيه دليلٌ علىٰ الندب إلىٰ إزالة المستقذر أو ما يتنزه عنه من المسجد، وفيها أن النفخ والتنحنح في الصلاة جائزان؛ لأن النخامة لابد أن يقع معها شيء من ذلك.

وفيه النهي عن البصاق قِبل وجهه، والنهي عن البصاق عن يمينه تشريفًا لها،

---

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٤٨٧).

(٢) انظر: «الرسالة العرشية» (٣٢).

وفي رواية البخاري: «**ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكان**»(١).

وفيه جواز البصاق تحت قدمه وعن يساره، والمراد إذا كان خارج المسجد، فأما في المسجد فلا يجوز البصاق في أرض المسجد مطلقًا؛ لحديث: «**البُصاق في المسجد خَطيئة، وكفَّارَتُها دَفْنُها**»(٢)، فهذا مخصصٌ للحديث المتقدم، فإذا بدره البصاق في المسجد بصق في ثوبه ودلَك بعضها في بعض كما دلت علىٰ ذلك الأحاديث المخصصة لما تقدم.

واستفيد من الحديث تحريم البصاق إلىٰ القبلة سواء كان في المسجد أو لا، وفي «صحيحي ابن خزيمة وابن حبان» من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**مَن تَفَل تجاهَ القِبلة جاء يوم القيامة وتَفلُه بين عَينَيه**»(٣)، ولأبي داود وابن حبان من حديث السائب بن خلاد، أن رجلًا أَمَّ قومًا فبصق في القبلة، فلما فرغ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يُصلِّي لكم**»(٤) الحديث، وفيه: «**إنَّك قد آذيتَ الله ورسولَه**»، وفي هذه الأحاديث دليلٌ علىٰ أن النخامة والبصاق طاهران، ودليلٌ علىٰ صيانة المساجد وتعظيمها.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٨٢٤)، وابن خزيمة (٩٢٥)، وابن حبان (١٦٣٩)، وغيرهم من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦١٦٠).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٨١)، وابن حبان (١٦٣٦)، من حديث عن أبي سهلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «المشكاة» (٧٤٧).

⊙ **قوله:** «**اللهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ**»[(١)] هذا الحديث أخرجه مسلم من حديث سهيل قال: كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع علىٰ شقه الأيمن ثم يقول: «**اللَّهمَّ ربَّ السَّمواتِ السَّبع**» الحديث، قال: وكان يروي ذلك عن أبي هريرة، وأخرجه -أيضًا- أهل السنن.

⊙ **قوله:** «**اللهُمَّ**»: أصله يا ألله، فالميم عوض عن ياء، ولذلك لا يجمع بينهما، وشذ قول بعض العرب:

إني إذا ما حدثٌ ألمَّا ... أقول يا اللهم يا اللهمَّا

قال الحسن البصري: اللهم: مَجمع الدعاء، وقال النضر بن الشُّميل: من قال: اللهم فقد دعا الله بجميع أسمائه.

⊙ **قوله:** «**رَبَّ**»: تأتىٰ لفظة (رب) بمعنىٰ المربي والمالك والخالق.

⊙ **قوله:** «**رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ**»: أي: هو خالق العالم العلوي.

⊙ **قوله:** «**وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**»: أي: الكبير، في الحديث: «**ما السَّمواتُ السبع والأَرَضُون السَّبعُ وما بينهن وما فيهن في الكُرسِي إلا كحلقةٍ ملقاةٍ في أرضٍ فلاةٍ، وأن الكرسِيَّ بما فيه بالنِّسبة إلىٰ العرش كتلك الحَلقةِ في تلك الفلاة**»[(٢)].

وقال الضحاك عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: إنما سُمِي عرشًا لارتفاعه. وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: العرش لا يقدر قدره إلا الله.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧١٣)، وابن حبان (٥٥٣٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه.

فيه إثبات عظمة العرش، وأنه أعظم المخلوقات، وأنه مخلوق، ومنه يستفاد عظمة الباري بعظمة مخلوقاته، وفيه الرد علىٰ من زعم أن العرش ليس بمخلوق، أو أن عرشه ملكه أو قدرته، وقد تقدم الكلام علىٰ هذا.

⊙ **قوله:** «رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ»: فيه إثبات عموم ربوبيته وملكه، وأنه خالق كل شيء، وأنه المنعم الحقيقي علىٰ سائر الخلق، وفيها الرد علىٰ القدرية الذين يزعمون أن العبد يخلق فعل نفسه؛ فإن ربوبيته العامة وقدرته التامة تشمل أفعال خلقه، فمن زعم أن العبد يخلق فعل نفسه فقد أثبت خالقًا مع الله، ولم يُدخِل أفعالَ خلقه في عموم قدرته وربوبيته.

⊙ **قوله:** «فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ»: أي: شاق، والفَلْق: الشق، أي: الذي يشق حب الطعام ونوىٰ التمر ونحوهما للإنبات، والنوىٰ: عجم التمر ونحوه.

⊙ **قوله:** «مُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ»: أي: منزل التوراة علىٰ موسىٰ، والإنجيل علىٰ عيسىٰ، والقرآن علىٰ محمد.

فيه دليلٌ علىٰ أن هذه الكتب من كلام الله، وأنها منزلة من عند الله، وأنها غير مخلوقة، خلافًا لأهل البدع الذين يزعمون أن كلام الله مخلوق، أو أنها كلام غيره.

وفيه دليلٌ علىٰ علو الله سبحانه؛ لأن الإنزال والنزول والتنزيل المعقول عند العرب لا يكون إلا من أعلىٰ إلىٰ أسفل.

⊙ **قوله:** «أَعُوذُ»: أي: ألتجئ وأعتصم وألتصق بجناب الله من شر كل ذي شر، والعياذ يكون لدفع الشر، واللياذ يكون لطلب الخير، كما قال المتنبي:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبـر النـاس عظمًـا أنـت كاسـره ولا يهيضـون عظمًـا أنـت جـابره

⊙ **قوله: «دَابَّةٍ»**: الدابة لغة: كل ما دبَّ علىٰ وجه الأرض، وأُطلق عرفًا علىٰ ذوات الأربع.

⊙ **قوله: «بِنَاصِيَتِهَا»**: أي: تحت قهره وسلطانه سبحانه، أي: أعوذ بك من شر كل شيء من المخلوقات؛ لأنها كلها في سلطانه وهو آخذ بنواصيها متصرفٌ فيها يصرِّفها كيف يشاء، والناصية: مقدَّم الرأس.

⊙ **قوله: «أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ»**: هذا تفسير رسول الله ﷺ، فلا تفسير أكمل من تفسيره، ففيه دليلٌ علىٰ أوليته سبحانه وأنه قبل كل شيء، ففيه الرد علىٰ من زعم قِدم هذه المخلوقات، وفيه دليلٌ علىٰ أبديته سبحانه وبقائه بعد كل شيء، وفيه دليلٌ علىٰ علوه سبحانه علىٰ خلقه وفوقيته واستوائه علىٰ عرشه، فإن الظاهر هو العالي المرتفع.

⊙ **قوله: «وَأَنْتَ الْبَاطِنُ»**: فيه دليلٌ علىٰ قربه سبحانه وإحاطته، وأنه أقرب إلىٰ كل شيء من نفسه، وقربه سبحانه لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته، فإنه ليس كمثله شيء، وليس قربه كقرب الأجسام بعضها من بعض، تعالىٰ الله أن يشبهه شيء من خلقه، فهذه الأسماء الأربعة متقابلة؛ اسمان منها لأزلية الرب وأبديته، واسمان لعلوه وقربه.

⊙ **وقوله: «اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ»**: هذا فعل دعاء أي: أدِّ. قوله: «الدَّين»، أي: واحد الديون، والمراد به حقوق الله وحقوق عباده كلها من جميع الأنواع.

⊙ **قوله: «أَغْنِنِي»**: الغِنىٰ بالكسر والقصر: هو عدم الحاجة، وبفتح الغين:

النفع، وبالكسر مع المد: الأصوات المطْرِبة، كما قال بعضهم:

غنــــاء الصـــوت ممــــدود بمــــا يســـتجلب الطـــرب
وكـــل غنـــىً فمقصـــور كـــذا نطقـــت بـــه العـــرب

والفقر بالفتح: ضد الغنىٰ، وهو في اصطلاح الفقهاء: من وَجد أقل من نصف كفايته أو لم يجد شيئًا أصلًا، وأما المسكين فهو: من وجد نصف كفايته فأكثر، فالفقير أشد حاجة من المسكين، لكن إذا أطلق الفقير دخل فيه المسكين وبالعكس، وإذا ذُكرَا معًا فسِّر كل واحد منهما بتفسير، كالإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا.

وفي الحديث من الفوائد غير ما تقدم: دعاء الله بأسمائه وصفاته، وهذا مما تكرر في الأحاديث، وهذا هو التوسل الشرعي، والمتوسل بهذه الوسيلة جديرٌ بالإجابة.

◈ ◈ ◈

قَوْلُهُ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ؛ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا؛ فَافْعَلُوا»(١). مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ رَبِّهِ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ؛ فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ، كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ.

الشَّرح

⊙ **قوله: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ»**: هذا الحديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث جرير بن عبد الله البجلي، قال: كنا جلوسًا عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنظر إلى القمر ليلة أربع عشرة، وقال: «**إنَّكم سَترون ربَّكم عيانًا كما تَرون هذا، لا تُضامون في رُؤيته، فإنِ استَطعتم أن لا تُغلبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمسِ وقبل الغُروب فافعلوا**»، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ [ق: ٣٩]»(٢) وفي بعض ألفاظه: «**ستُعاينون ربَّكم كما تُعاينُون القمرَ**»(٣).

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**هَل تُضارُّون في القمرِ ليلةَ**

(١) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣)، وغيرهما من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٩)، وأطرافه فيه، ومسلم (٦٣٣)، وغيرهما من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٩٣٠١).

البَدر؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**هل تُضارُّون في الشمس ليس دونها حجاب؟**» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**إنَّكم تَرَوْنَه كذلك**»(١). إلىٰ غير ذلك من الأحاديث التي بلغت حدَّ التواتر، قال يحيىٰ بن مَعين: عندي سبعة عشر حديثًا في الرؤية، كلها صحاح.

وقال أحمد: والأحاديث التي رويت عن النبي ﷺ «**إنَّكم ترون ربَّكم**» صحيحة وأسانيدها غير مدفوعة، والقرآن شاهدٌ أن الله يُرىٰ في الآخرة(٢). انتهىٰ.

وقد تواطأ علىٰ إثبات ذلك أدلة الكتاب والسنة المتواترة وإجماع الصحابة وأئمة الإسلام وأهل الحديث، وقد أنكر الرؤيةَ الجهميةُ والمعتزلة وأضرابهم؛ اعتمادًا علىٰ عقولهم الفاسدة، وتقليدًا لأعداء الدين الذين نبذوا كتاب الله وسنةَ رسوله وراءهم ظِهريًّا.

⊙ **قوله**: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ»: السين فيه لتأكيد الوعد وتحقيق الأمر.

⊙ **قوله**: «سَتَرَوْنَ»: أي: رؤية بصرية، والمخاطَب بذلك المؤمنون، فالكفار محجوبون عن رؤيته، كما قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٠٤)، ومسلم (١٨٢)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الحافظ في «الفتح»: «قال العيني: روي في إثبات الرؤية حديث الباب، وعن نحو عشرين صحابيًّا».

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٦/ ٤٩٩ - ٥٠٠).

⊙ **قوله:** «**كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ**»: القمر بعد ثلاث من الشهر إلىٰ آخر الشهر، سمي قمرًا لبياضه. والبدر: القمرُ ليلةَ كماله، وهو الممتلئ نورًا، وهي ليلة الرابعة عشر من الشهر، سمي بذلك؛ لمبادرة طلوعه قبل غروب الشمس وطلوعها قبل غروبه.

⊙ **قوله:** «**كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ**»: تحقيقًا للرؤية ونفيًا لتوهم المجاز الذي يظنه المعطلون، فترونه رؤية حقيقية بالعين البصرية، والتشبيه في قوله: «**كما ترون القمر**» تشبيه للرؤية بالرؤية لا للمرئي بالمرئي، فإنه سبحانه لا شبيه له ولا نظير.

⊙ **قوله:** «**لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ**»: بضم الفوقية وتخفيف الميم، أي: لا يلحقكم ضَيْمٌ، وروي بالفتح وتشديد الميم من: التضام والازدحام، كما ينضم بعض إلىٰ بعض في رؤية الشيء الخفي كالهلال، يعني: إنكم ترونه رؤية محققة، كل منكم يراه في مكانه، فهذا الحديث أفاد إثبات رؤية الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الآخرة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: دل الكتاب والسنة المتواترة وإجماع الصحابة وأئمة الإسلام وأهل الحديث علىٰ أن الله سبحانه يُرىٰ بالأبصار عِيانًا كما يُرىٰ القمر ليلة البدر صحوًا، وكما تُرىٰ الشمس في الظهيرة، فإن كان لذلك حقيقة وأن الرؤية حق فلا يمكن أن يرونه إلا من فوقهم؛ لاستحالة أن يروه من أسفل منهم أو خلفهم أو أمامهم، وإن لم يكن لذلك حقيقة كما يقوله أفراخ الصابئة والفلاسفة والمجوس والفرعونية بطل الشرع والقرآن[١]. انتهىٰ.

---

(١) انظر: «حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح» (٣٤٢).

وفيه الرد علىٰ من زعم: أن المراد بالرؤية العلم؛ لأن (رأىٰ) بمعنىٰ (عَلِم) تتعدىٰ إلىٰ مفعولين، تقول: رأيت زيدًا فقيهًا، أي: علمته، فإن قلت: رأيت زيدًا لم يفهم منه إلا رؤية البصر ويزيده تحقيقًا قوله في الحديث: «**إنكم سترون ربكم عِيانًا**»(١)؛ لأن اقتران الرؤية بالعَيان لا يحتمل أن يكون بمعنىٰ العلم، وفي الحديث - كما تقدم - دليلٌ علىٰ إثبات علو الله وأنهم يرونه من فوقهم كما في حديث جابر الذي رواه أحمد وغيره.

⊙ **قوله**: «فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا»: معناه: لا تصيروا مغلوبين بالاشتغال عن صلاتي الصبح والعصر، فهي المرادة في الحديث كما في «صحيح مسلم»، ففي هذا الحديث دليلٌ علىٰ فضل هاتين الصلاتين، وأن المحافظ عليهما حقيق بأن يرىٰ ربه يوم القيامة، قال بعض العلماء: ووجه مناسبة ذكر هاتين الصلاتين عند ذكر الرؤية: أن الصلاة أفضل الطاعات، وقد ثبت أن لهاتين الصلاتين من الفضل علىٰ غيرهما، ما ذكر من اجتماع الملائكة فيهما ورفع الأعمال وغير ذلك، فهما أفضل الصلوات، فناسب أن يُجازىٰ عليهما بأفضل العطايا. وهو النظر إلىٰ وجه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. اهـ.

⊙ **قوله**: «إِلَىٰ أَمْثَالِ»: أي: أشباه هذه الأحاديث التي أوردها المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فإن أهل السنة يؤمنون بذلك كما يؤمنون بما جاء في القرآن، فإن السنة كالقرآن في وجوب القبول وإفادة العلم واليقين.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٩)، وأطرافه فيه، ومسلم (٦٣٣)، وغيرهما من حديث جرير بن عبد الله البجلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

⊙ **قوله: «إِلَىٰ أَمْثَالِ هَذِهِ الأَحَادِيثِ... إلخ»:** إشارة إلىٰ الرد علىٰ الجهمية والمعتزلة والرافضة الذين نبذوا كتاب الله وسنة رسوله وراء ظهورهم وقدحوا في دلالتهما علىٰ الصفات، وقالوا: الكتاب والسنة ظواهر لفظية لا تفيد اليقين، وأن القواطع العقلية والبراهين اليقينية في المناهج الفلسفية والطرق الكلامية، فانظر كيف لعب بهم الشيطان حتىٰ أخرجهم من الإيمان؛ قال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥] الآية. وفي الحديث أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يُؤمِنُ أحدُكم حتىٰ يكونَ هواه تبعًا لما جئتُ به**»[١]. وطريق أهل السنة والجماعة هو التمسك بالنص الصحيح ولا يعارضونه بمعقول ولا بقول فلان، فكتاب الله وسنة رسوله هما المعيار، فما طابقهما قُبِل، وما خالفهما رُدَّ من قاله كائنًا من كان.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «عجبت لقوم يعرفون الإسناد وصحته ويذهبون إلىٰ رأي سفيان، والله سبحانه يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣] أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيءٌ من الزيغ فيهلِك»[٢].

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع العلماء علىٰ أن من استبانت له سنة رسول الله لم يكن له أن يدعها لقول أحد كائنًا من كان»[٣]، ونظائر ذلك كثير في كلام السلف.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «الصارم المسلول علىٰ شاتم الرسول» (٥٧).

(٣) انظر: «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (١/ ٦).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «النونية»:

مَــنْ قَــالَ قَــوْلًا غَيْــرَهُ قُمْنَــا عَلَــىٰ ... أَقْوَالِـــهِ بِالسَّـــبْرِ وَالْـــمِيزَانِ
إِنْ وَافَقَــتْ قَــوْلَ الرَّسُــولِ وَحُكْمَــهُ ... فَعَلَــىٰ الــرُّءُوسِ تُشَــالُ كَالتِّيجَــانِ
أَوْ خَالَفَــتْ هَـــذَا رَدَدْنَاهَـــا عَلَــىٰ ... مَــنْ قَالَــهَا مَــنْ كَــانَ مِــنْ إِنْسَــانِ
أَوْ أَشْـــكَلَتْ عَنَّـــا تَوَقَّفْنَـــا وَلَـــمْ ... نَجْـــزِمْ بِـــلَا عِلْــمٍ وَلَا بُرْهَـــانِ
هَـــذَا الَّـــذِي أَدَّىٰ إِلَيْـــهِ عِلْمُنَـــا ... وَبِـــهِ نَـــدِينُ اللهَ كُـــلَّ أَوَانِ

فالذي عليه أهل السنة والجماعة أن السنة كالقرآن في وجوب القبول وإفادة العلم واليقين؛ خلافًا لما عليه أهل البدع والضلال، وتقدم الكلام علىٰ أن خبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول عملًا به وتصديقًا له يفيد العلم اليقيني عند جماهير الأمة، ولم يكن بين سلف الأمة في ذلك نزاعٌ، وهو الحق الذي تشهد له الأدلة، كخبر عمر: «**إنَّما الأعمالُ بالنيَّات**»(١)، وكقوله: «**يَحرُم مِن الرَّضاع ما يَحرُم مِن النَّسَب**»(٢)، إلىٰ أمثال ذلك.

وهو نظير خبر الذي أتىٰ مسجد قباء وهم يصلون وأخبر أن القبلة تحولت فاستداروا إلىٰ القبلة، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرسل رسله آحادًا ويرسل كتبه مع الآحاد، والأدلة علىٰ ذلك كثيرة، وقد حقق ذلك الشيخ تقي الدين ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وأطال عليه في «الصواعق»، وذكر الأدلة ورد علىٰ المخالفين ردًّا

---

(١) أخرجه البخاري (١)، وأطرافه فيه، ومسلم (١٩٠٧)، وغيرهما من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٠٢)، ومسلم (١٤٤٧)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وافيًا، وكذلك في «النونية»، وأشار إلىٰ ذلك في «فتح المجيد»، وذهب غير واحد إلىٰ أن خبر «الصحيحين» يفيد العلم اليقيني، وهو الحق.

◈ ◈ ◈

بَلْ هُمُ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الأُمَّةِ، كَمَا أَنَّ الأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الأُمَمِ.

فَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ (الْجَهْمِيَّةِ)، وَبَيْنَ أَهْلِ التَّمْثِيلِ (الْمُشَبِّهَةِ).

الشرح

⊙ **قوله**: «وَسَطٌ»: يأتي بمعنىٰ التوسط بين الشيئين، ويأتي بمعنىٰ العدل الخيار، فأهل السنة وسط، أي: عدولٌ خيارٌ معتدلين بين الطرفين المنحرفين في جميع أمورهم، وفي الحديث: «**خَيرُ الأمور أوْساطُها**»(١).

قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «خير الناس النمط الأوسط الذي يرجع إليهم الغالي ويلحق بهم التالي»، ذكره ابن المبارك عن محمد بن طلحة عن علي(٢).

وقد مدح الله أهل التوسط بين الطرفين المنحرفين، ونهىٰ الله عن الإفراط والتفريط والغلو والتقصير في غير موضعٍ من كتابه، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقال بعض السلف: دين الله بين المغالي فيه والمجافي عنه.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٥/ ١٦٩)، وفي «السنن الكبرىٰ» (٣/ ٢٧٣) موقوفًا علىٰ عمرو بن الحارث، وقال: هذا منقطع.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ١٠٠) (٣٤٤٩٨) عن محمد بن طلحة، عن، زبيد، قال: قال علي... فذكره؛ موقوفًا.

وفي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إيَّاكم والغُلوَّ في الدِّين، فإنَّما أهْلَكَ مَن كان قبلكم الغُلوُّ في الدين**»(١)، أخرجه النسائي وابن ماجه، وصححه ابن خزيمة وابن حبان، وصححه الحاكم.

والغلو: هو المبالغة في الشيء والتشديد فيه بتجاوز الحد، قال الشاعر:

ولا تغلُ في شيء من الأمر واقتصد ... كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وفي حديث ابن مسعود، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**هَلك المُتَنَطِّعُون**»(٢) قالها ثلاثًا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: ومن كيد عدو الله إبليس أن يشم قلب العبد، فإن رأىٰ عنده قوة إقدام وعلو همة قلَّل عنده المأمور وأوهمه أنه لا يكفي وأنه يحتاج معه إلىٰ مبالغة، وإن رأىٰ الغالب عنده الانكفاف والإحجام ثبَّطه عن المأمور وثقَّله عليه حتىٰ يتركه أو بعضه، كما قال بعضهم: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان؛ إما إلىٰ إفراطٍ وتقصير، وإما إلىٰ مجاوزةٍ وغلو، ولا يبالي بأيهما ظفر، وقد اقتطع أكثر الناس إلا القليل في هذين الواديين(٣). انتهىٰ.

⊙ **قوله**: «**كَمَا أَنَّ الأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الأُمَمِ**: قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ

---

(١) أخرجه النسائي (٣٠٥٧)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وابن خزيمة (٢٨٦٧)، وابن حبان (٣٨٧١)، وغيرهم من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٨٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٧٠)، وأبو داود (٤٦٠٨)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ١٠٨).

جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾»: أي: عدلًا خيارًا لتوسطها بين الطرفين المذمومين، فلم يغلوا غلو النصارىٰ، ولم يقصروا كتقصير اليهود، ولكنهم أهل وسطٍ واعتدال، فهم معتدلون في باب توحيد الله؛ إذ كان اليهود يصفون الله بالنقائص ويشبهونه بالمخلوق، كما أخبر الله عنهم أنهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨١]، ونفىٰ عن نفسه اللغوب الذي وصفوه به، والنصارىٰ يصفون المخلوق بصفات الخالق التي اختص بها، فلا يشركه فيها غيره كالإلهية وغيرها، وقالوا بأن المسيح هو الله، وقالوا: ابن الله، وثالث ثلاثة.

وأمة محمد وسط يعبدون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويصفونه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوصفوه بصفات الكمال ونزَّهوه عن صفات النقص والعيب، وكذلك في النبوات، فاليهود تقتل الأنبياء وتستكبر علىٰ أتباعهم، والنصارىٰ يجعلون من ليس بنبيٍّ ولا رسولٍ نبيًّا ورسولًا، وهذه الأمة تؤمن بجميع أنبياء الله ورسله.

وأما الشرائع؛ فاليهود منعوا الخالق أن يبعث رسولًا بغير شريعة الرسول الأول، والنصارىٰ جوزوا لأحبارهم أن يغيروا من الشرائع ما بعث الله به رسله، وكذلك في العبادات؛ النصارىٰ يعبدونه ببدعٍ ما أنزل الله بها من سلطان، واليهود معرِضون عن العبادات، والمسلمون عبدوه بما شرع ولم يعبدوه بالبدع.

وكذلك في حق الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فلم يغلوا فيهم كما غلت النصارىٰ في المسيح، ولا جفوهم كما جفت فيهم اليهود، فالنصارىٰ عبدوهم، واليهود قتلوهم وكذَّبوهم، والأمة الوسطىٰ -هي هذه الأمة- آمنوا بهم وعزَّروهم ونصروهم، فهذه

الأمة أفضل الأمم على الإطلاق، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] الآية، وفي حديث أبي هريرة: «أنتم تُوفُون سبعين أُمّة أنتم خيرُها وأكرَمُها على الله»(١)، وأما قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في بني إسرائيل: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦﴾ [الجاثية: ١٦] فالمراد: أنه سبحانه فضلهم على عالمي زمانهم، كشعب بُختنصَّر وغيرهم.

⊙ **قوله:** «فَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ صِفَاتِ الله»: أي: أهل السنة وسط، أي: عدلٌ خيارٌ معتدلون بين الطرفين المنحرفين، فهم معتدلون في باب توحيد الله يصفونه سبحانه بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله أعرفُ الناس بربه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من غير تعطيل، فلا ينفى عنه ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله، ولا تشبيه، فلا يقال: له سمع كأسماعنا، ولا بصر كأبصارنا ونحو ذلك، كما قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١].

فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ردٌّ على المشبهة، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ ردٌّ على المعطلة.

⊙ **قوله:** «أَهْلِ التَّعْطِيلِ»: أي: الذين نفوا حقائق أسماء الله وصفاته وعطلوه منها، من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة وأشباههم، فالجهمية نفوا صفات الله لفظها

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٨)، وغيرهما من حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولم أقف عليه من حديث أبي هريرة، وحسنه الألباني في «المشكاة» (٦٢٨٥).

ومعناها وزعموا أن إثباتها يفضي إلىٰ التشبيه فعطلوها، فَرُّوا من شيء ووقعوا في أشد منه، فإنهم لم يعطلوها حتىٰ شبهوا الله سبحانه بخلقه واعتقدوا أن صفات الله كصفات المخلوق فعطلوها فرارًا من التشبيه بزعمهم، فوقعوا في أشد من ذلك، وهو تشبيهه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالمعدومات والناقصات.

فشبهوا أولًا وعطلوا ثانيًا، ثم شبهوا ثالثًا، فإن من لا صفات له بالكلية لا وجود له، فإن من ليس له سمعٌ ولا بصرٌ، ولا قدرةٌ ولا إرادة، ولا هو فوق ولا أسفل، ولا يمين ولا شمال.. إلىٰ آخر ما هو موجود في كتبهم - ليس له وجودٌ بالكلية، بل هو مقدَّرٌ في الأذهان لا وجود له في الأعيان، تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

وكلام العلماء في ذمهم -وأنهم يدورون علىٰ أن يقولوا: ليس ثَمَّ إلا العدم المحض- كثير، وأما المعتزلة فأثبتوا الأسماء ونفوا المعاني، فيقولون: إنه سبحانه سميعٌ بلا سمع، بصيرٌ بلا بصر، عليمٌ بلا علم، إلىٰ غير ذلك مما يقولونه، وتصوُّر هذا المذهب كافٍ ردِّه وإبطاله، وأما الأشاعرة فأثبتوا لله بعض الصفات ونفوا البعض، فاضطربوا وتناقضوا.

⊙ **قوله: «الْجَهْمِيَّةِ»**: نسبة إلىٰ الجهم بن صفوان الترمذي الضال، والنسبة إليه: جَهمي بفتح الجيم، والجهم أخذ بدعته هذه -أي: بدعة تعطيل الصفات- من الجعد بن درهم، فهو أول من تكلم في التعطيل في الإسلام، فقتله خالد بن عبد الله القسري بعد أن استشار علماء التابعين فأفتوا بقتله، فخطب في يوم عيد الأضحىٰ فقال: يا أيها الناس، ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضحٍّ بالجعد بن درهم، فإنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولم يكلم موسىٰ تكليمًا، فنزل فذبحه في أصل

المنبر، قال ابن القيم رحمه الله:

وَلأَجْلِ ذَا ضَحَّىٰ بِجَعْدٍ خَالِدُ الْـ ـقَسْرِيُّ يَوْمَ ذَبَائِحِ الْقُرْبَانِ
إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لَيْسَ خَلِيلَهُ كَلَّا وَلَا مُوسَىٰ الْكَلِيمَ الدَّانِي
شَكَرَ الضَّحِيَّةَ كُلُّ صَاحِبِ سُنَّةٍ لله دَرُّكَ مِنْ أَخِي قُرْبَانِ

والجعد بن درهم أول من قال بخلق القرآن، أخذ بدعته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم زوج بنته، وأخذ لبيد عن يهودي باليمن، وأخذ هذه البدعة عن الجعد: الجهم بن صفوان الترمذي، وأخذ عن الجهم بِشْر المريسي، وأخذها عن بشر أحمد بن أبي داؤد.

وأما الجهم بن صفوان فقتله سلم بن أحوز أمير خراسان سنة مئة وثمانية وستين، ونسبت الطائفة إلىٰ الجهم؛ لأنه الذي ناضل عن هذا المذهب الخبيث وأظهره ودعا إليه، وتقلد هذا المذهب الخبيث بعده المعتزلة، ولكن كان الجهم أدخلَ في التعطيل منهم؛ لأنه ينكر الأسماء حقيقةً، وهم لا ينكرون الأسماء بل الصفات.

قال جمع من العلماء في الجهمية: إنهم ليسوا من فرق هذه الأمة الثنتين والسبعين فرقة، منهم: عبد الله بن المبارك، ويوسف بن أسباط، وغيرهما(١).

قال ابن القيم رحمه الله في «النونية»:

ولقد تقلَّد كفرَهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان
واللالكائي الإمامُ حكاه عنْـ ـهُم بل حكاه قبله الطبراني

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله: المشهور من مذهب الإمام أحمد وعامة

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٩/ ١٣٧).

أئمة السنة تكفير الجهمية، وهم المعطلة لصفات الرحمن، فإن قولهم صريح في مناقضة ما جاءت به الرسل من الكتاب والسنة، وحقيقة قولهم: جحود الصانع وجحود ما أخبر به علىٰ لسان رسوله، بل وجميع الرسل؛ ولهذا قال عبد الله بن المبارك: إنا لنحكي كلام اليهود والنصارىٰ، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية، وقال غير واحد من الأئمة: إنهم أكفر من اليهود والنصارىٰ(١).

⊙ **قوله:** «وأَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشَبِّهَة»: أهل التمثيل المشبهة الذين شبهوا الله بخلقه ومثّلوه بهم، تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

والتشبيه ينقسم إلىٰ قسمين -كما تقدم-:

الأول: تشبيه الخالق بالمخلوق، كما تقول: لله يدٌ كأيدينا، وعينٌ كأعيننا، وقَدمٌ كأقدامنا.

الثاني: تشبيه المخلوق بالخالق، كتشبيه الأصنام والأوثان بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن ذلك، فإنه -سبحانه- لا شبيه له، ولا مثيل له، ولا نظير، قال تعالىٰ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورىٰ: ١١]، فالمعطلة غلَوا في النفي حتىٰ شبهوه بالمعدومات والناقصات، والمشبهة غلوا في الإثبات حتىٰ شبهوه بالمخلوقات، وأهل السنة والجماعة أثبتوا لله الأسماء والصفات ونفوا عنه مشابهة المخلوقات.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٢/ ٤٨٥).

وَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ الله بَيْنَ (الْقَدَرِيَّةِ) وَ(الْجَبْرِيَّةِ).

وَفِي بَابِ وَعِيدِ الله بَيْنَ (الْمُرْجِئَةِ) وَبَيْنَ (الْوَعِيدِيَّةِ) مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ.

الشَّرْح

⊙ **قوله**: «وَهُمْ وَسَطٌ فِي بَابِ أَفْعَالِ الله بَيْنَ الْقَدَرِيَّةِ والْجَبْرِيَّةِ»: فالجبرية نفوا أفعال العباد وزعموا أنهم لا يفعلون شيئًا البتة، وإنما الله هو فاعل تلك الأفعال حقيقة، فهي نفس فعله لا أفعالهم، والعبيد ليس لهم القدرة ولا إرادة ولا فعل البتة، وإنما أفعال العباد كحفيف الأشجار، أو كحركة المرتعش، والكل فعل الله، وعليه فسائر الأفعال طاعة؛ لأنها موافِقة لإرادة الله الكونية القدرية، فالزنا واللواط والقتل وشرب الخمر علىٰ هذا القول طاعات، وقد قال بعض غلاتهم:

أصبحتُ مُنفَعِلًا لِمَا يَختاره ربِّي ففعلي كلُّه طاعات

ولا شك في فساد هذا المذهب، وأدلةُ الكتاب والسُّنَّةِ -بل والعقل- متواطئةٌ علىٰ رده وإبطاله، بل لا يمكن أن تعيش أمة علىٰ هذا المذهب الخبيث أو تنتظم أمورها.

ولا شك أن هذا المذهب مخالف لجميع أديان الأنبياء، والجبرية سموا بذلك؛ لأنهم يقولون: إنا مجبورون علىٰ أفعالنا، فغلوا في إثبات القدر، وزعموا أن العبد لا فعلَ له البتة.

قال في «التعريفات»: الجبرية من الجبر، وهو إسناد فعل العبد إلىٰ الله، والجبرية اثنان: متوسطةٌ تُثبت للعبد كسبًا في الفعل كالأشعرية، وخالصةٌ لا

تُثبت كالجهمية[١]. انتهىٰ.

ولفظ «جبر» لفظ مبتدع أنكره السلف؛ كالثوري والأوزاعي وأحمد وغيرهم، وقالوا: الجبر لا يكون إلا من عاجز، فيقال: «جَبَلَ» كما جاءت به السنة، أشار إلىٰ ذلك الشيخ تقي الدين وابن القيم رَحِمَهُمَاٱللَّهُ[٢]، وأصل قول الجبرية مأخوذٌ عن الجهم بن صفوان، فهو إمام المُجْبِرة، والجبرية عكس القدرية نفاة القدر، فإن القدرية نسبوا إلىٰ القدر لنفيهم إياه، وقد تسمىٰ الجبرية قدرية؛ لأنهم غلوا في إثبات القدر، والتسمية علىٰ النافين أغلب.

قال الشيخ تقي الدين في «تائيته»:

ويُدعىٰ خصومُ الله يوم مَعادهم ... إلىٰ النار طُرًّا فرقة القدرية
سواء نفوا أو سعوا ليخاصموا ... به اللهَ أو ماروا به للشريعة

فالقدرية النفاة هم الذين ورد فيهم الحديث الذي في «السنن»: «أنهم مجوس هذه الأمة»[٣].

وأكثر المعتزلة علىٰ هذا المذهب الباطل، فإنهم يقولون: إن أفعال العباد وطاعتهم ومعاصيهم لم تَدخل تحت قضاء الله وقدره، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علىٰ زعمهم لا يقدر علىٰ أفعال العباد ولا شاءها منهم، ولكنهم يعملونها دون مشيئة الله وقدرته،

---

(١) انظر: «كتاب التعريفات» (٧٤).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ٤٣٢)، و«شفاء العليل» (١٢٩).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٩١)، والحاكم (٢٨٦)، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٤٢).

وأن الله لا يقدر أن يهدي ضالًّا، ولا يضل مهتديًا، فأثبتوا خالقًا مع الله سبحانه، وهذا إشراكٌ مع الله في توحيد الربوبية.

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وقول القدرية يتضمن الإشراك والتعطيل، فإنه يتضمن إخراج بعض الحوادث عن أن يكون لها فاعل، ويتضمن إثبات فاعلٍ مستقلٍّ غير الله، وهاتان شعبتان من شعب الكفر، فإن أصل كل كفر هو التعطيل والشرك. انتهىٰ. «منهاج»(١).

وقد وردت أحاديث في ذم القدرية، وأنهم مجوس هذه الأمة، وذلك لمضاهاة قولهم لقول المجوس، فإن المجوس يثبتون خالقين، خالق الخير وخالق الشر، وهما: النور والظلمة، فالنور خالق الخير، والظلمة خالقة الشر، وكذلك القدرية أثبتوا خالقَين: أثبتوا أن الله خالق الحيوان، وأن الحيوان يخلق فعل نفسه.

فمما ورد في ذمهم: ما رواه أبو داود في «سننه» من حديث ابن عمر أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«القَدريَّةُ مَجوسُ هذه الأمَّة، إن مَرِضوا فلا تَعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»**(٢).

وروي في ذم القدرية أحاديثُ أُخر، تكلم أهل الحديث في صحة رفعها، والصحيح أنها موقوفة.

---

(١) انظر: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (٣/ ٢٧٨).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٩١)، والحاكم (٢٨٦)، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٤٢).

وأول من تكلم في القدر مَعبَد الجُهني[١]، ثم غَيلان الدمشقي[٢]، وكان ذلك في آخر عصر الصحابة، وأنكر عليهم الصحابة وتبرءوا منهم وبدَّعوهم، فالجبرية غلوا في إثبات القدر، والمعتزلة غلوا في نفيه.

وهدىٰ الله أهلَ السنة والجماعة للقول الوسط الذي تؤيده أدلة الكتاب والسنة، فأثبتوا أن العباد فاعلون حقيقة، وأن أفعالهم تنسب إليهم علىٰ جهة الحقيقة لا علىٰ جهة المجاز، وأن الله خالقهم وخالق أفعالهم كما قال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦]، وأثبتوا للعبد مشيئة واختيارًا تابعين لمشيئة الله، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [الصافات: ٩٦]، وسيأتي الكلام علىٰ هذه المباحث إن شاء الله[٣].

---

(١) هو معبد بن عبد الله بن عويمر، ويقال: معبد بن خالد، وهو أول من تكلم في القدر، ويقال: إنه أخذ ذلك عن رجلٍ من النصارىٰ من أهل العراق يقال له: سوسن، وأخذ غيلان القدر من معبد، وقد كان لمعبد عبادة وفيه زهادة، قال الحسن البصري: «إياكم ومعبدًا؛ فإنه ضالٌّ مضل» اهـ، وكان ممن خرج مع ابن الأشعث فعاقبه الحجاج عقوبة عظيمة بأنواع العذاب ثم قتله، وقال سعيد بن عفير: «بل صلبه عبد الملك بن مروان في سنة ثمانين بدمشق ثم قتله» اهـ، انظر: «تاريخ بغداد» (١٠/ ٣)، و«البداية والنهاية» (٩/ ٣٤)، و«شذرات الذهب» (١/ ٨٨).

(٢) هو غيلان بن يونس-ويقال: ابن مسلم- أبو مروان القدري، كان قبطيًا، أخذه هشام بن عبد الملك فصلبه بباب دمشق، وكانوا يرون أن ذلك بدعوة عمر بن عبد العزيز عليه، قال الأوزاعي: «أول من تكلم في القدر معبد الجهني ثم غيلان بعده»، انظر: «تاريخ مدينة دمشق» (٤٨/ ١٦٨)، و«المعارف» لابن قتيبة (٤٨٤).

(٣) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ١١٥-١١٩):

=

=

«ونقول هنا: إن أهل السنة في باب أفعال الله وسط بين الجبرية والقدرية، والجبرية قسمان:

القسم الأول: جبرية الظاهر والباطن، وهم الجهمية، والجبرية، وغُلاة الصوفية، فهؤلاء يقولون: إن الإنسان في أفعاله كالريشة في مهب الريح ليس له اختيار البتة؛ بل هو كالهباءة والريشة تلعب بها الريح كيف شاءت.

القسم الثاني: جبرية الباطن لا الظاهر، الذين يقولون: إن الإنسان في الظاهر مُختار وفي الباطن مجبور، وهذا قول الأشاعرة.

ولأجل هذا التفريق اخترع أبو الحسن الأشعري لفظ الكسب وقال: أفعال العباد كسب لهم. (كسب) يعني: تُضاف إليهم، وإلا فالفاعل هو الله، وهم لا يُضاف إليهم الفعل حقيقةً، وإنما يُضاف إليهم الفعل مجازًا.

قالوا: هو في الباطن مجبور وفي الظاهر مُختار. ما وظيفته؟

قالوا: هو كالسكين في يد القاطع وعمله القطع، فالقطع فعل العبد، والسكين آلة، وحامل السكين التي يمرها علىٰ الشيء الذي يُراد قطعه هو الفاعل، فالفاعل للفعل الذي حصل في الحقيقة هو الله، والإنسان آلة فُعِل به أو أضيف إليه الفعل وصار مكسوبًا له؛ ولهذا قال بعض أهل العلم:

ممـــا يقـــال ولا حقيقـــة تحتـــه ... معقولـــة تـــدنو إلـــىٰ الأفهـــام

الكســـب عنـــد الأشـــعري والحـــال ... عنـــد البهشـــمي وطفـــرة النَّظَّـــام

فهذه ثلاث ليس لها حقيقة؛ ولهذا اختلف الأشاعرة الذين يقولون بالجبر في الباطن في تفسير الكسب الذي اخترعه أبو الحسن الأشعري إلىٰ اثني عشر قولًا مذكورة في الشروح المطولة لـ«الجوهرة» وغيرها.

المقصود أن الجبرية قسمان: جبرية الظاهر والباطن، وجبرية الباطن فقط.

والقدرية -أيضًا- قسمان:

القسم الأول: القدرية الغُلاة نُفاة العلم، وهم الذين ينفون العلم السابق، وهذه الفرقة هي التي جاء فيها قول السلف: «ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خُصموا، وإن أنكروه كفروا».

=

⊙ **قوله**: «وَفِي بَابِ وَعِيدِ الله»: الوعيد: التخويف والتهديد، فالوعيد والإيعاد: في الشر، وأما الوَعد والعِدَة: ففي الخير، كما قال الشاعر:

وإني وإن أوْعدْتُــــه أو وَعدْتُــــه ... لَمُخلِـفُ إيعــادي ومُنجِـزُ موعــدي

⊙ **قوله**: «الْمُرْجِئَةِ»: نسبة إلىٰ الإرجاء، أي: التأخير؛ لأنهم أخَّروا الأعمال عن الإيمان، حيث زعموا أن مرتكب الكبيرة غير فاسق، وأن الناس في الإيمان سواء، فإيمان أفسق الناس كإيمان الأنبياء، وأن الأعمال الصالحة ليست من الإيمان، ويكذبون بالوعيد والعقاب بالكلية، ومذهبهم باطلٌ ترده أدلة الكتاب والسنة.

ولا شك أن هذا المذهب من أخبث المذاهب وأفسدها؛ إذ يدعو إلىٰ الانسلاخ من الدين، وإهمال جميع الأعمال، واستباحة جميع المنكرات، وهؤلاء أحد فرق المبتدعة.

قال الشيخ تقي الدين: لا تختلف نصوص أحمد أنه لا يكفر المرجئة، فإن بدعتهم من جنس اختلاف الفقهاء في الفروع. والمرجئة فرقتان:

=

ويُعْنَىٰ بالقدرية: الغُلاة الذين ينكرون علم الله السابق للأشياء، ويقولون: إن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها. ويقولون: إن الأمر أنف. يعني: مُستأنف، وهؤلاء هم الذين قال فيهم ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «أخبرهم أني بريء منهم وأنهم براء مني».

القسم الثاني: المعتزلة وهم الذين يقولون: إن العبد يخلق فعل نفسه.

فأولئك قالوا: إن العبد مجبور، وهؤلاء قالوا: يفعل كما يريد وكما يشاء، والله عَزَّوَجَلَّ لا يخلق فعل العبد؛ بل العبد يخلق فعل نفسه، فإرادته يخلقها وقدرته يخلقها وما ينتج عنها يخلقه العبد فيكون فعل العبد مخلوقًا له» اهـ.

الأولىٰ: الذين قالوا: إن الأعمال ليست من الإيمان، وهم مع كونهم مبتدعة في هذا القول، فقد وافقوا أهل السنة علىٰ أن الله يعذب من يعذبه من أهل الكبائر بالنار، ثم يخرجهم بالشفاعة كما جاءت به الأحاديث الصحيحة، وعلىٰ أنه لابد في الإيمان أن يتكلم به بلسانه، وعلىٰ أن الأعمال المفروضة واجبة وتاركها مستحقٌّ للذم والعقاب، وقد أضيف هذا القول إلىٰ بعض الأئمة من أهل الكوفة.

أما الفرقة الثانية: فهم الذين قالوا: إن الإيمان هو مجرد التصديق بالقلب، وإن لم يتكلم به، ولا شك في فساد هذا القول ومصادمته لأدلة الكتاب والسنة، فإن الإيمان قول باللسان وعمل بالأركان واعتقاد بالجَنان، فإذا اختل واحد من هذه الأركان لم يكن الرجل مؤمنًا، وعلىٰ هذا أدلة الكتاب والسنة، ودرج علىٰ هذا السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين. انتهىٰ من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله بتصرف(١).

⊙ **قوله**: «**الْوَعِيدِيَّةِ**»: وهم القائلون: بالوعيد، وهو من أصول المعتزلة، وهو أن الله لا يغفر لمرتكب الكبيرة إلا بالتوبة، وأن أهل الكبائر مخلدون في النار، ويُخرِجونهم من الإيمان بالكلية، ويكذبون بشفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيره زعمًا منهم أنه إذا أوعد عبيده، فلا يجوز أن لا يعذبهم، ويخلف وعيده.

وهذا المذهب يقول به المعتزلة والخوارج، وهو باطلٌ ترده أدلة الكتاب والسنة المتواترة والإجماع، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ١٩٤، ١٩٥).

قال في «فتح المجيد»: وفي الآية ردٌّ على الخوارج المُكفِّرين بالذنوب، وعلى المعتزلة القائلين بأن أصحاب الكبائر يخلَّدون في النار، وليسوا عندهم بمؤمنين ولا كفار، ولا يجوز أن يُحمل قوله سبحانه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ على التائب، فإن التائب من الشرك مغفورٌ له، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، فهنا عمَّم وأطلق؛ لأن المراد هنا التائب وهناك خصَّ وعلَّق؛ لأن المراد به مَن لم يتب، هذا ملخص كلام شيخ الإسلام تقي الدين رحمه الله(١).

أما القول الوسط الذي عليه أهل السنة والجماعة فهو أن الفاسق معه بعض الإيمان وأصله، وليس معه جميع الإيمان الواجب الذي يستوجب به الجنة، فهو تحت مشيئة الله؛ إن عفا عنه أدخله الجنة من أول وَهْلة، وإلَّا عذَّبه بقدر ذنوبه ثم أدخله الجنة. فلابد له من دخول الجنة.

فلا يُعطى الإيمان المطلق، ولا يُسلب عنه مطلق الإيمان، بل يقال: مؤمنٌ بإيمانه فاسقٌ بكبيرته، أو يقال: مؤمنٌ ناقصُ الإيمان، وهذا هو الحق الذي دلت عليه أدلة الكتاب والسنة، ودرج عليه السلف الصالح، عكس ما عليه الخوارج والمعتزلة والمرجئة.

فالمرجئة في طرف، والخوارج والمعتزلة في طرف آخر، فالخوارج والمعتزلة غلوا، والمرجئة جفوا، فالمرجئة يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، والخوارج

---

(١) انظر: «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» (٧٣).

يقولون: يكفر المسلم بكل ذنب. وكذلك المعتزلة يقولون: يحبط إيمانه كله بالكبيرة فلا يبقىٰ معه شيء من الإيمان، لكن الخوارج يقولون: يخرج من الإيمان ويدخل في الكفر، والمعتزلة يقولون: يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر، بل يكون في منزلة بين منزلتين، وبقولهم بخروجه من الإيمان أوجبوا له الخلود في النار، وكلاهما مخالفٌ للسنة المتواترة ولإجماع سلف الأمة وأئمتها.

وأما استدلالهم بقوله سبحانه: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥﴾ [الليل: ١٥]، فقد بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذا الصَّلْيَ لأهل النار الذين هم أهلها كما في حديث أبي سعيد، وأن الذين ليس هم من أهلها فإنها تصيبهم بذنوبهم، وأن الله يميتهم فيها حتىٰ يصيروا فحمًا، ثم يشفع فيهم فيخرجون ويؤتىٰ بهم إلىٰ نهر الحياة فينبتون كما تنبت الحِبَّة في حَميل السيل.

وهذا المعنىٰ مستفيضٌ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل متواترٌ في أحاديث كثيرةٍ في «الصحيحين» وغيرهما من حديث أبي سعيد وأبي هريرة وغيرهما، قال: والصَّلي المذكور في الآية هو الصلي المطلق، وهو المُكث فيها والخلود علىٰ وجه يصل العذاب إليهم دائمًا، فأما من دخل وخرج فإنه نوع من الصلي ليس هو الصلي المطلق. انتهىٰ من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بتصرف(١).

◈ ◈ ◈

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ١٩٧).

وَفِي بَابِ أَسْمَاءِ الإِيمَانِ وَالدِّينِ بَيْنَ (الْحَرُورِيَّةِ) وَ(الْمُعْتَزِلَةِ)، وَبَيْنَ (الْمُرْجِئَةِ) وَ(الْجَهْمِيَّةِ).

وَفِي أَصْحَابِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ (الرَّوَافِضِ) وَ(الْخَوَارِجِ).

الشَّرح

⊙ **قوله**: «وَفِي بَابِ أَسْمَاءِ الإِيمَانِ والدِّينِ»: أي أن هؤلاء تنازعوا في الأسماء والأحكام، أي: أسماء الدِّين؛ مثل: مسلمٍ، وكافرٍ، وفاسق، وكذلك في أحكام هؤلاء في الدنيا والآخرة.

فالخوارج والمعتزلة متفقون في اسم الدين؛ مثل: مؤمنٍ، ومسلمٍ، وفاسقٍ، وكافر، إلا أن المعتزلة أحدثوا المنزلة بين المنزلتين، وهذه خاصة المعتزلة التي اختصوا بها دون غيرهم دون سائر أقوالهم، فقد شاركهم فيها غيرهم، فالخوارج والمعتزلة يقولون: إن الدين والإيمان قولٌ وعملٌ واعتقاد؛ ولكن لا يزيد ولا ينقص، ومن أتىٰ كبيرة كفر عند الحرورية، وصار فاسقًا عند المعتزلة في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر.

وأما الحكم؛ فالمعتزلة وافقوا الخوارج علىٰ حكمهم في الآخرة، فعندهم أن من أتىٰ كبيرة فهو خالدٌ مخلَّدٌ في النار لا يخرج منها لا بشفاعة ولا بغير شفاعة، أما في الدنيا فالخوارج حكموا بكفر العاصي واستحلوا دمه وماله، وأما المعتزلة فحكموا بخروجه من الإيمان ولم يُدخلوه في الكفر ولم يستحلوا منه ما استحلته الخوارج، وقابلتهم المرجئة والجهميةُ ومن اتبعهم، فقالوا: ليس من الإيمان فِعلُ الأعمال

الواجبة، ولا تركُ المحظورات البدنية، فإن الإيمان لا يقبل الزيادة ولا النقصان، بل هو شيءٌ واحدٌ يستوي فيه جميع المؤمنين من الملائكة والمقتصدين والمقربين والظالمين.

فالمرجئة يقولون: الإيمان مجرد التصديق، والجهمية يقولون: مجرد المعرفة، والأعمال ليست من الإيمان، فإيمان أفسق الناس كإيمان الأنبياء والمرسلين، وقالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب.

فالخوارج والمعتزلة غلو، والمرجئة والجهمية جفوا، وهدى الله أهل السنة والجماعة للقول الوسط، وهو -كما تقدم-: أن الإيمان والدين قولٌ وعملٌ واعتقاد، وأنه يزيد وينقص، وأن صاحب الكبيرة مؤمنٌ بإيمانه فاسقٌ بكبيرته، أو مؤمنٌ ناقص الإيمان، وأما حكمه في الآخرة فهو تحت مشيئة الله؛ إن شاء عفا عنه، وأدخله الجنة من أول وهلة، وإلا عذّب بقدر ذنوبه ثم دخل الجنة، فلابد له من دخول الجنة، هذا هو القول الحق الذي تدل عليه أدلة الكتاب والسنة، وعليه السلف الصالح والأئمة(١).

---

(١) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ١٢٣-١٢٩)**:

«ويعني بقوله: «أَسْمَاءِ الإِيمَانِ والدِّينِ» مثل: الإسلام والإيمان والإحسان، أو مسلم، ومؤمن، من أهل الوعد، أو من أهل الوعيد، ونحو ذلك، ومثلها مسألة الأحكام، والحكم عليه أنه من أهل الدين أو أنه خارج من الدين في هذه الدنيا، وفي الآخرة الحكم عليه بأنه من أهل الخلود في النار أو من أهل الجنة، ونحو ذلك.

=

=

فهذه المسائل التي تُسمىٰ مسائل الأسماء والأحكام هذه مما كان أهل السنة -رحمهم الله تعالىٰ- وسطٌ فيها بين الغالين والجافين؛ لأن هذا الدين وسط بين الغلو والتقصير أو بين الغلو والجفاء.

فالذين غلَوا فسلبوا أسماء الدين والإيمان عمن يستحقها شرعًا، هؤلاء هم الحرورية والمعتزلة، والذين وصفوا بأسماء الدين، والإسلام، والإيمان، ونحو ذلك من لا يستحقها وهم المرجئة.

وأصل هذه المسألة مبني علىٰ اعتقاد الحرورية والمعتزلة والمرجئة والجهمية، فلابد من معرفة اعتقادهم في هذه المسائل:

أولًا: الحرورية: ويراد بهم الخوارج، وهم منسوبون إلىٰ موضع تجمعوا فيه أول ما خرجوا علىٰ علي، والخوارج كفَّروا بالمعصية، وكفَّروا بالذنب، فالمعصية -التي هي من الكبائر- من فعلها عندهم كافر خارج من الملة، يُطلق عليه اسم الكافر في الدنيا، وفي الآخرة خالد في النار أبدًا مثل سائر الكفرة.

ثانيًا: المعتزلة الذين يعتقدون أن فاعل الكبيرة في الآخرة حكمه أنه من أهل النار خالدًا مُخلدًا فيها، وفي الدنيا يقولون: لا نعطيه اسم الإيمان، ولا نعطيه اسم الكفر، ولا نسلب عنه في الدنيا اسم الإسلام جملة، وإنما نقول: هو في منزلة بين المنزلتين. وهذه المنزلة هي التي ابتدعها المعتزلة -عمرو بن عبيد، وواصل ابن عطاء- وقالوا: إن فاعل الكبيرة ليس كما تقول الخوارج كافر في الدنيا، وليس كما يقول المرجئة: إنه لا يضر مع الإيمان ذنب، ولكنه في الدنيا ليس من أهل الإيمان وليس من أهل الكفران، بل هو فاسق يُطلق عليه اسم الفاسق.

وهل هو فاسق مؤمن؟ قالوا: لا؛ لأن اسم الفسق الذي هو الكبيرة يُخرجه من مُسمىٰ الإيمان إلىٰ منزلة بين منزلة الإيمان والكفر.

وهذا غلو في مسألة فاعل المعصية أو فعل الكبيرة؛ لأن الكبيرة من كبائر الذنوب إذا فعلها العبد؛ فإن الأدلة دلت علىٰ أنه لا يخرج من اسم الإيمان، ولا يدخل في اسم الكفر، بل هو جامع بين الإيمان وبين الفسق.

=

=

فالخوارج قالوا: يكفر. والمعتزلة قالوا: يفسق ولا يُسمىٰ مؤمنًا. والمرجئة قالوا: يُسمىٰ مؤمنًا ولا يسمىٰ فاسقًا، يعني: في إطلاق، هذا الطرف الأول، وهو طرف الحرورية الخوارج والمعتزلة.

والطرف الآخر: المُرجئة والجهمية، والمُرجئة طائفة في الأصل أرجأت الكلام علىٰ من حصل منهم الكبائر، حتىٰ آل الأمر إلىٰ أنهم أرجئوا العمل عن مسمىٰ الإيمان، فقالوا: «الإيمان قول واعتقاد». وأخرجوا العمل عن مسمىٰ الإيمان. فمنهم من يقول: هو لازم له خارج عنه. ومنهم من يقول: هو خارج عنه وليس بلازم أيضًا. ومن المرجئة من سلبوا -أيضًا- القول، فقالوا: يكفي الاعتقاد. ومن هؤلاء من زعموا أن الاعتقاد يجمع العلم والتصديق الجازم، فقالوا: نكتفي فيه -أيضًا- بالعلم. فصار المُرجئة علىٰ مراتب وأنواع ومنهم الجهمية.

فقوله: «وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ» يعني بالمرجئة: من كان عليه اسم الإرجاء؛ كمرجئة الفقهاء الذين أخرجوا العمل عن مُسمىٰ الإيمان، أو كالأشاعرة ونحوهم، ويعني بالجهمية: الذين قالوا: الإيمان هو العلم والمعرفة فقط.

وهل لابد أن يكون مع التصديق؟ قالوا: لا، حتىٰ لو لم يكن مع التصديق؛ فإن ذلك يكفي في اسم الإيمان، واسم الإسلام.

فهؤلاء أدخلوا في الإسلام وأبقوا فيه من تدل الأدلة علىٰ خروجه منه، والحرورية والمعتزلة أخرجوا من الإسلام من دلت الأدلة علىٰ بقائه في الإسلام والإيمان. وأهل السنة وسط بين هؤلاء، وهذه مسألة عظيمة؛ لأنها من المسائل التي أوجبت الافتراق والاختلاف في هذه الأمة؛ لأن مسألة مَن يُطْلَق عليه أسماء الإيمان، أو من يُطْلَق عليه أسماء الفسوق، هذه من الأسباب التي أحدثت الافتراق في الأمة، فدائمًا إذا توبع فيها الشر لم يحصل الاختلاف والافتراق، وإذا بغىٰ الناس بعضهم علىٰ بعض؛ فإنه يحصل الافتراق والاختلاف.

كذلك من الأسماء: البدعة والتبديع، والفسق والتفسيق، والإيمان والإسلام، والشهادة، والإحسان، والإمامة، كل هذه الأسماء يجب أن لا تُطلق إلا علىٰ من دل الدليل علىٰ

=

=

استحقاقه لها، أو دل الدليل علىٰ استحقاقه بسلبه إياها، والخروج فيها عن مقتضىٰ الأدلة وعن مقتضىٰ كلام أهل السنة يوقع الفرقة والاختلاف.

وأول ما حصل الخلاف من الخوارج في هذه المسألة فإنهم قالوا: هؤلاء كفار لأجل الحكم.

ثم ناقضهم طائفة، فصار عندنا طوائف أربعة:

في أول الأمر: الخوارج الذين كفَّروا عليًّا. والرافضة: الذين ألَّهوا عليًّا. والمُرجئة: الذين أرجئوا. والناصبة: الذين ناصبوا عليًّا العداء.

وظهرت أسماء وفرق من جراء الخلاف في الأسماء والأحكام؛ لهذا يجب علىٰ طالب العلم ألَّا يُطلق هذه الأسماء إلا علىٰ من علم بالدليل الواضح أنه يصح أن يُطْلِقَ علىٰ صاحبه شيء من هذه الأسماء، وليست المسألة مسألة ظن أو اجتهاد؛ لأن إطلاق هذه الأسماء أو الأحكام علىٰ الناس تسبب الخلاف والفُرقة؛ لأنه لابد أن يكون ثَمَّ اختلاف في المعين، فإذا صار الخلاف في المعين من جهة الرأي حصل الافتراق، وإذا حصل النظر في جهة المعين من جهة الدليل والشرع حصل الاتفاق.

فهذا يقول: هو فاسق، والآخر يقول: هو صالح، وهذا يقول: إمام، والثاني يقول: زنديق، وهذا يقول: مُبتدع، والثالث يقول: مُجاهد أو عالِم أو نحو ذلك، فتَقَابُل هذه الأسماء يُخرج الناظر فيها عن دليل الشرع.

والواجب علىٰ أهل العلم وعلىٰ طلبة العلم أن يقتفوا سيرة أهل السنة والجماعة في هذه المسألة؛ لأجل ألَّا يحصل الفرقة والخلاف في الأمة، فلا يُطلقوا هذه الأسماء إلا علىٰ من استحقها شرعًا.

وطُلَّاب العلم الذين ابتدؤوا في طلب العلم أو توسطوا ينبغي عليهم أن يتباعدوا عن هذه الإطلاقات، ويتركوها لأهل العلم الذين يعلمون حدود هذه الإطلاقات نفيًا وإثباتًا، ومن يُوصف بأسماء الإيمان ومن يُسلب عنه ذلك، إما أصله أو كماله، ومن ذلك -أيضًا- مسألة التكفير ينبغي ألَّا يدخل فيها صغار طلاب العلم أو المتوسطون؛ لأنها تتبعها مسائل كبيرة، وحصل في هذا الزمن خلاف في مسائل التكفير في كثير من أمصار المسلمين من جراء الخلاف

=

⊙ **قوله: «الْحَرُورِيَّةِ»**: هم الخوارج، سموا حَرورية[(١)] نسبة إلىٰ قرية حَروراء بالفتح والمد، قرية بالعراق قريبة من الكوفة اجتمعوا فيها حين خرجوا علىٰ علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ فسمي الخوارج حرورية.

وأما المعتزلة فهم أصحاب واصل بن عطاء الغَزَّال[(٢)]، اعتزل عن مجلس الحسن البصري وأخذ يقرر أن مرتكب الكبيرة لا مؤمن ولا كافر ويثبت له المنزلة بين المنزلتين. فقال الحسن: قد اعتزل عنا واصل، ويلقَّبون بالقدرية لإسنادهم أفعالَ العباد إلىٰ قدرتهم، وقالوا: إن من يقول بالقدر خيره وشره من الله أولىٰ باسم القدرية، ويرده قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**القَدريَّة مَجوسُ هذه الأمة**»[(٣)]، ولقبوا أنفسهم بأصحاب العدل والتوحيد؛ لقولهم بوجوب الأصلح علىٰ الله، وقولهم بنفي الصفات، وبأن

=

في الأحكام، وظهرت فرق وجماعات جديدة لأجل الخلاف في الأسماء والأحكام هذه» اهـ.

(١) نسبة إلىٰ حروراء، وهو موضع بنواحي الكوفة علىٰ ميلين منها، نزل به جماعة من الخوارج خالفوا عليًّا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقيل لهم: حرورية نسبة إلىٰ هذا الموضع، ومن يعتقد اعتقادهم يقال له: الحروري. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» (٣/ ٣٢)، و«التعاريف» (١/ ٢٧٧).

(٢) هو واصل بن عطاء، أبو حذيفة البصري الغزَّال، رأس المعتزلة وكبيرهم ورئيسهم وأولهم، مولده سنة ثمانين بالمدينة، كان تلميذ الحسن البصري، ثم أظهر القول بالمنزلة بين المنزلتين، وأن صاحب الكبيرة ليس بمؤمن ولا بكافر، فطرده الحسن عن مجلسه، فاعتزل عنه وجلس إليه عمرو بن عبيد، توفي سنة إحدىٰ وثلاثين ومائة. انظر: «وفيات الأعيان» (٦/ ٨)، و«سير أعلام النبلاء» (٥/ ٤٦٤).

(٣) أخرجه ابو داود (٤٦٩١)، والحاكم (٢٨٦)، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٤٢).

كلامه مخلوقٌ محدَث، وبأنه غير مرئيٍّ في الآخرة، ويجب عليه رعاية الحكمة في أفعاله، وثواب المطيع والتائب، وعقاب صاحب الكبيرة، ثم افترقوا عشرين فرقة يكفر بعضهم بعضًا.

⊙ **قوله**: «الرَّافِضَة»: من الرفض وهو الترك، سموا بذلك لأنهم قالوا لزيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: تبرأ من الشيخين: أبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: معاذ الله! وزيرا جدِّي، فتركوه ورفضوه، فسموا رافضة، والنسبة رافضي.

والرافضة فرقٌ شتىٰ، قد تكفل الشيخ تقي الدين ابن تيمية ببيان مذهبهم والرد عليهم في كتاب «منهاج السنة»، ويُلقَّبون بالشيعة، وكان هذا اللقب في الأصل للذين ألفوه في حياته؛ كسَلمان وأبي ذر والمِقداد وعمار وغيرهم، ثم صار بعد ذلك لقبًا علىٰ من يرىٰ تفضيله علىٰ كل الصحابة، ويرىٰ أمورًا أخرىٰ لا يرضاها علي ولا أحد من ذريته ولا غيرهم ممن يقتدىٰ به.

قال في «المنهاج»: سموا بالشيعة لما افترق الناس فرقتين: فرقة شايعت أولياء عثمان، وفرقة شايعت علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يكونوا يسمون رافضة في ذلك الوقت، وإنما سموا رافضة لما خرج زيد بن علي بن الحسين في الكوفة في خلافة هشام بن عبد الملك، فسألته الشيعة عن أبي بكر وعمر، فترحَّم عليهما، فرفضه قوم، فقال: رفضتموني؟! فسموا رافضة، وتولاه قوم فسموا زيدية؛ لانتسابهم إليه(١). انتهىٰ.

---

(١) انظر: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (٢/ ٩٦).

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللَّهُ: أول من ابتدع الرفض عبد الله بن سبأ(١)، وكان منافقًا زنديقًا أراد إفساد دين الإسلام، كما فعل بُولس صاحب الرسائل التي بأيدي النصارىٰ، حيث ابتدع لهم بدعًا أفسد بها دينهم، وكان يهوديًّا، فأظهر النصرانية نفاقًا لقصد إفساد مِلَّتِهم، وكذلك كان ابن سبأ يهوديًّا فأظهر الإسلام والتَّنَسُّكَ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليتمكن بذلك من أغراضه الفاسدة، فسعىٰ في فتنة عثمان بن عفان وقتله، ثم لما قدم الكوفة أظهر الغلو في علي بن أبي طالب، فبلغ ذلك عليًّا فطلبه ليقتله فهرب إلىٰ قرقيسا(٢). انتهىٰ.

والرافضة من أخبث الطوائف حتىٰ أخرجهم بعض العلماء من فرق الأمة، وروىٰ عن الشعبي أنه قال: أحذركم هذه الأهواء المضلة، وشرها الرافضة، لم يدخلوا في الإسلام رغبةً ولا رهبةً، ولكن مقتًا لأهل الإسلام وبغيًا عليهم، قد حرقهم علي بن أبي طالب ونفاهم إلىٰ البلدان، منهم عبد الله بن سبأ -يهودي من أهل صنعاء نفاه إلىٰ ساباط- وعبد الله بن يسار -نفاه إلىٰ خازر- وكلام أهل العلم في

---

(١) هو عبد الله بن سبأ الذي ينسب إليه السبئية، وهم الغلاة من الرافضة، أصله من أهل اليمن، كان يهوديًّا وأظهر الإسلام، وطاف بلاد المسلمين ليلفتهم عن طاعة الأئمة ويدخل بينهم الشر، وكان يقول لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنت الإله، فنفاه إلىٰ المدائن، فلما قتل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ زعم أن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يمت، وإنما الذي قتله عبد الرحمن بن ملجم كان شيطانًا، وأما علي ففي السحاب، والرعد صوته، والبرق سوطه، وأنه ينزل إلىٰ الأرض ويملأها عدلًا، ويقولون عند الرعد: عليك السلام يا أمير المؤمنين، انظر: «تاريخ دمشق» (٢٩/ ٣)، و«وفيات الأعيان» (٤/ ٣١٠)، و«التعريفات» (١٥٥).

(٢) انظر: «الفتاوىٰ الكبرىٰ لابن تيمية» (١/ ٧٠، ٧١).

ذمهم كثير جدًّا.

وأما **الخوارج** فسموا بذلك لخروجهم على عليٍّ بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومفارقتهم له، وقد ثبت أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«تَمرُق مارقةٌ على حين فُرقة مِن الناس؛ تَقتُلُهم أولى الطَّائفتين بالحقِّ»**(١)، فخرجوا في زمن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقتلهم عليٌّ وطائفته. وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حقهم: **«يَحقِر أحدُكم صلاتَه مع صلاتِهم، وصيامَه مع صيامِهم، وقراءته مع قراءتهم، يَقرءون القرآنَ لا يُجاوزُ حناجِرَهم، يَمرُقُون من الدِّين كما يَمرُق السَّهمُ مِن الرَّميَّة، أينما لَقِيتُموهم فاقتلوهم، فإن في قَتلهم أجرًا عند الله لمَن قتلَهم يوم القيامة»**(٢).

وقد روى مسلم أحاديثهم في «صحيحه» من عشرة أوجه، واتفق الصحابة على قتالهم، وفي الترمذي عن أبي أمامة الباهلي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الخوارج: **«إنَّهم كِلابُ أهل النار»**(٣)، وقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]. وقال الإمام أحمد: صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه، وقد خرجها مسلم في «صحيحه»، وخرج البخاري طائفة منها.

وقال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللَّهُ: الخوارج هم أول من كفَّر المسلمين بالذنوب، ويكفرون من خالفهم في بدعتهم ويستحلون دمه وماله، وأول بدعة حدثت في

(١) أخرجه مسلم (١٠٦٤)، وأبو داود (٤٦٦٧)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٧٦)، والحاكم (٢٦٥٤)، والطبراني (٨٠٤٢)، وغيرهم من حديث أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «المشكاة» (٣٥٥٤).

الإسلام بدعة الخوارج والشيعة حديثًا في أثناء خلافة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، فعاقب الطائفتين، أما الخوارج فقاتلوه فقتلهم، وأما الشيعة فحرق غَالِيَتَهُمْ(١) بالنار، وطلب قتل عبد الله بن سبأ فهرب منه، وأمر بجلد من يفضّله على أبي بكر وعمر، وروى عنه من وجوه كثيرة أنه قال: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر، ورواه عنه البخاري في «صحيحه»(٢). انتهى.

فالخوارج والرافضة في أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في طرفي نقيض، فالرافضة غلوا في علي بن أبي طالب وأهل البيت، وكفروا جميع الصحابة؛ كالثلاثة ومن والاهم، وفسّقوهم، ويكفرون من قاتل عليًّا، ويقولون: إن عليًّا إمامٌ معصوم، وقالوا: لا ولاء إلا ببراء، أي: لا يتولى أحدٌ عليًّا حتى يتبرأ من أبي بكر وعمر، وقد تقدم الكلام عليهم.

وأما الخوارج فإنهم يكفرون عليًّا وعثمان ومن والاهما.

وأما أهل السنة والجماعة فقولهم في الصحابة وسطٌ، لم يغلوا غلو الرافضة، ولم يجفوا كالخوارج، بل وَالَوْا جميع الصحابة وأحبُّوهم، وعرفوا فضلهم وأنزلوهم منازلهم التي يستحقونها، فلم يغمطوهم حقهم، ولم يغلوا فيهم، واعتقدوا أنهم أفضل هذه الأمة علمًا وعملًا، فرضوان الله عليهم أجمعين.

◈ ◈ ◈

---

(١) في الأصل: «غالبيتهم»، والصواب ما أثبتناه من المصدر المذكور.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٧٩).

وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَنْ رَسُولِهِ ﷺ وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ، مِنْ أَنَّهُ -سُبْحَانَهُ- فَوْقَ سَمَوَاتِهِ، عَلَى عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ، وَهُوَ -سُبْحَانَهُ- مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا، يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ، كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤].

الشَّرح

⊙ **قوله: «تَوَاتَرَ»: التواتر لغة: التتابع بِعُلُوٍّ. واصطلاحًا:** خبر عددٍ يمتنع معه لكثرته تواطؤٌ علىٰ الكذب عن محسوس.

وينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: لفظي، وهو ما اشترك عدده في لفظٍ بعينه، وذلك كحديث: «**مَن كَذَب عليَّ مُتعمِّدًا، فلْيَتَبَوَّأْ مَقعَدَه مِن النار**»(١)، رواه نيِّف وستون، منهم العشرة.

الثاني: معنوي، بأن يتواتر معنىٰ في ضمن أحاديث مختلفة الألفاظ متحدة المعنىٰ.

⊙ **قوله: «سَلَفُ الأُمَّةِ»:** أي: متقدموهم، والمراد: السلف الصالح، وهم الصدر الأول من التابعين وغيرهم الذين هم حملة الشريعة ونقلة الدين علىٰ التحقيق.

---

(١) سبق تخريجه.

⊙ **قوله: «وَقَدْ دَخَلَ...» إلخ:** أي: وقد دخل في الإيمان بالله: الإيمان بعلوه - سبحانه- وفوقيته واستوائه علىٰ العرش، فمن لم يؤمن بعلوه وفوقيته لم يؤمن به، ولم يصدق رسله، ولم يؤمن بكتابه وبما جاء به رسوله محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال إمام الأئمة ابن خزيمة: من لم يقر بأن الله علىٰ عرشه استوىٰ فوق سبع سموات، وأنه بائن من خلقه فهو كافرٌ يستتاب، فإن تاب وإلا ضُربت عُنقُه وأُلقي علىٰ مزبلة؛ لئلا يتأذىٰ بريحه أهل القبلة وأهل الذمة(١).

⊙ **قوله: «بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَنْ رَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»:** كما قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، وقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الصريحة في إثبات العلو التام بجميع أنواعه والفوقية، وقد تقدم ذكر أنواع العلو والفوقية، وتقدم حديث الأوعال وغيره من الأحاديث الصريحة في إثبات العلو والفوقية، وأدلة إثبات العلو والفوقية متواترة، وانضم إلىٰ ذلك شهادة الفطرة والعقول المستقيمة.

والنصوص الواردة الدالة علىٰ علو الله، وكونه فوق عباده تقرب من عشرين نوعًا، وأفراد هذه الأنواع لو بسطت لبلغت نحو ألف دليلٍ، كما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ وغيره(٢).

⊙ **قوله: «وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ»:** قال أبو عمر الطلمنكي رَحِمَهُ اللهُ: أجمع أهل

---

(١) انظر: «العرش» للذهبي (٢/ ٣٥٥).

(٢) انظر: «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (٢/ ٢١٧).

السنة علىٰ أن الله علىٰ عرشه علىٰ الحقيقة لا علىٰ المجاز، ثم ساق بسنده عن مالك قوله: الله في السماء وعلمه في كل مكان، ثم قال: أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنىٰ قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [النحل: ٥٠] ونحو ذلك من القرآن: أنه علمه، وأن الله فوق السموات بذاته مستوٍ علىٰ عرشه(١).

وهذا كثيرٌ في كلام الصحابة والتابعين والأئمة، فأثبتوا ما أثبته الله في كتابه وعلىٰ لسان رسوله علىٰ الحقيقة علىٰ ما يليق بجلال الله وعظمته.

⊙ **قوله:** «وَهُوَ -سُبْحَانَهُ- مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا، يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ»:

أي: سبحانه مع عباده بعلمه وإحاطته واطلاعه ومشاهدته، لا يخفىٰ عليه منهم شيء، ومعيته سبحانه لعباده لا تنافي علوه وفوقيته، فإنه جمع بينهما في قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الحديد: ٤] الآية، كما أشار إلىٰ ذلك المصنف بقوله: «**كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ:** ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الحديد: ٤]...» **إلخ**.

فأخبر سبحانه أنه خلق السموات الأرض، وأنه استوىٰ علىٰ عرشه، وأنه مع خلقه يبصر أعمالهم من فوق عرشه، فعلوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يناقض معيته، ومعيته لا تبطل علوه، بل كلاهما حق.

وهذه الآية من أدل شيء علىٰ مباينة الرب لخلقه، فإنه لم يخلقهم في ذاته، بل خلقهم خارجًا عن ذاته، ثم بان عنهم باستوائه علىٰ عرشه، وهو يعلم ما هم عليه،

---

(١) ذكره الإمام أبو عمر الطلمنكي في كتابه «الْوُصُول إِلَىٰ معرفَة الْأُصُول»، وذكره الذهبي، انظر: «العلو للعلي الغفار» (٢٤٦).

وينفذ بصره فيهم، ويحيط بهم علمًا، وقدرةً، وسمعًا، وبصرًا.

وفي هذه الآية إثبات علوه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ واستوائه علىٰ عرشه، وفيها إثبات علمه، وإحاطة علمه بالكليات والجزئيات، وبما كان وما يكون، وما لم يكن، ولو كان كيف يكون، وفيها إثبات معيته -سبحانه- لخلقه وأن معيته سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ لا تنافي علوه وفوقيته، فإنه جمع بينهما.

وفيها الرد علىٰ من زعم أن الاستواء مجاز، وأن معنىٰ استوىٰ: استولىٰ؛ لأن الله قال: ﴿ٱسْتَوَىٰ﴾ في عدة مواضع، والاستواء غير الاستيلاء، فإن الاستواء معناه: العلو والارتفاع، وأما الاستيلاء فلا يكون إلا بعد مُغالبة؛ ولأنه سبحانه خَصَّ العرش بالاستواء، ولو كان المراد الاستيلاء لم يخصه؛ لأنه مُستولٍ علىٰ الخلق جميعهم.

وقد رد تأويل الاستواء بالاستيلاء من وجوه عديدة، أنهاها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ اثنين وأربعين وجهًا(١)، وقد تقدم ذِكر بعضها، وفي الآية فوائد غير ما ذكر، قد تقدمت الإشارة إليها في الكلام علىٰ الآيات(٢).

---

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٣٧١).

(٢) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٨٢، ٨٣):

«وهذا الذي حققه شيخ الإسلام في كتبه، وقال: إنه لا حاجة إلىٰ أن نؤول الآية، بل الآية علىٰ ظاهرها، لكن مع اعتقادنا بأن الله تعالىٰ في السماء علىٰ عرشه، فهو معنا حقًّا، وهو علىٰ عرشه حقًّا، كما نقول: إنه ينزل إلىٰ السماء الدنيا حقًّا وهو في العلو، ولا أحد من أهل السنة ينكر هذا أبدًا؛ كل أهل السنة يقولون: هو ينزل حقًّا، متفقون علىٰ أنه في العلو؛ لأن صفات الخالق ليست مثل صفات المخلوق.

وقد عثرت علىٰ تقرير للشيخ محمد بن إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يبين هذا المعنىٰ تمامًا؛ أي: إن =

وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾: أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ، فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ، وَهُوَ خِلَافُ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ، وَخِلَافُ مَا فَطَرَ اللهُ عَلَيْهِ الْخَلْقَ، بَلِ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ، وَهُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ

=

المعية حق على حقيقتها، ولا تستلزم أن يكون مختلطًا بالخلق، أو أنه في الأرض؛ قال جوابًا على قول بعض السلف: «معهم بعلمه».

«إذا جاءت هذه الكلمة؛ فهي تفسير للمعية بالمقتضى، ليس تفسيرًا لحقيقة الكلمة، والذي يحمل ويحدو على التفسير بهذا أن المنازع في هذا المبتدعة الذين يقولون: إنه مختلط بهم، فيأتي البعض من السلف بالمراد بالسياق، وهو أنه بكمال علمه، ولكن لا يريدون أن كلمة «مع» مدلولها بكل شيء عليم، بل اجتمعت معها في العلم، وزادت المعية في المعنى، وهو كونه معهم؛ فتفسيرها بالمقتضى لا يدل على أن معناها باطل؛ فالكل حق...».

إلى أن قال: «ولهذا؛ شيخ الإسلام في عقيدته الأخرى المباركة المختصرة؛ بين أن قوله: (معهم) حق على حقيقته؛ فمن فسرها من السلف بالمقتضى؛ فلحاجة دعت إلى ذلك، وهو الرد على أهل الحلول الجهمية الذين ينكرون العلو كما تقدم، والقرآن يفسر بالمطابقة وبالمفهوم وبالاستلزام والمقتضى وغير ذلك من الدلالات، وهؤلاء العلماء الذين روي عنهم التفسير بالمقتضى لا ينكرون المعية، بل هي عندهم كالشمس» اهـ. من «الفتاوى» تقريرًا على «الحموية» «مجموع فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم (١/ ٢١٢)».

سؤال: هل يصح أن نقول: هو معنا بذاته؟

الجواب: هذا اللفظ يجب أن يبعد عنه؛ لأنه يوهم معنًى فاسدًا، يحتج به من يقول بالحلول، ولا حاجة إليه؛ لأن الأصل أن كل شيء أضافه الله إلى نفسه؛ فهو له نفسه؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾، هل يحتاج أن نقول: جاء بذاته؟! وإلى قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَنْزِلُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا**»، هل يحتاج أن نقول: ينزل بذاته؟! إننا لا نحتاج إلى ذلك، اللهم إلا في مجادلة من يدعي أنه جاء أمره أو ينزل أمره؛ لرد تحريفه» اهـ.

الْمُسَافِرِ وَغَيْرِ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ.

وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ، مُطَّلِعٌ إِلَيْهِمْ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ.

الشَّرح

⊙ **قوله**: «وَلَيْسَ مَعْنَىٰ قَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالخَلْقِ»: بل المعنىٰ: أنه معهم بعلمه واطلاعه ومشاهدته، وقد تقدم طرفٌ من الكلام في هذا الموضوع.

⊙ **قوله**: «فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ»: أي: لغة العرب لا توجب أن «مع» تفيد اختلاطًا أو امتزاجًا أو مجاورة، فإن «مع» في كلام العرب للصحبة اللائقة، لا تُشعِر بامتزاجٍ ولا اختلاطٍ ولامماسَّةٍ ولا مجاورة، فتقول: زوجتي معي، وهي في مكان وأنت في مكان، ويقولون: ما زلنا نسير والقمر معنا، وقال تعالىٰ: ﴿وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩]. فليس في هذا ما يدل علىٰ الاختلاط والامتزاج، فكيف تكون حقيقة المعية في حق الرب ذلك؟! فليس في ذلك ما يدل علىٰ أن ذاته فيهم ولا ملاصقةٌ لهم ولا مجاورةٌ بوجه من الوجوه، وغاية ما تدل عليه المصاحبة، وهي في كل موضع بحسبه.

⊙ **قوله**: «وَهُوَ خِلَافُ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الأُمَّةِ»: أي أن ما زعمه أهل البدع أنه سبحانه في كل مكانٍ بذاته، أو أنه مختلطٌ بالخلق ممتزجٌ بهم أو حالٌّ فيهم، إلىٰ غير ذلك من الأقوال المبتدَعةِ المخالفة لما عليه السلف الصالح، فإن السلف الصالح أجمعوا علىٰ أن الله سبحانه مستوٍ علىٰ عرشه، عالٍ علىٰ خلقه، بائنٌ منهم، ليس في

ذاته شيءٌ من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيءٌ من ذاته، كما تواترت بذلك الأدلة.

وقد تقدم -أيضًا- ذكر إجماع السلف على معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ [الحديد: ٤]: أنه معهم بعلمه.

وقال أبو بكر الآجري -إمام عصره في الحديث والفقه- في كتابه: فإن قال قائل: فما معنى قوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] الآية؟ قيل له: علمه معهم والله على عرشه، وعلمه محيطٌ بهم، كذا فسره أهل العلم، والآية تدل أولها وآخرها على أنه العلم وهو على عرشه، هذا قول المسلمين(١). انتهى.

⊙ **قوله:** «فَطَرَ»: أي: خلق ابتداء: ومنه: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الأنعام: ١٤] الآية، أي: أن ما زعموه من أنه سبحانه مختلطٌ بالخلق أو حالٌّ فيهم خلاف ما فطر الله عليه الخلق، فإن الخلق فُطروا على الإقرار بعلوه سبحانه على خلقه، وإنما جاءت الرسل بتقرير ما في الفِطر والعقول، فالعقل الصحيح لا يخالف النقل الصريح، ولما سأل النبي ﷺ الجارية: «أينَ اللهُ؟» قالت: في السماء(٢).

وقال يزيد بن هارون: من زعم أن الرحمن على العرش استوى على خلاف ما تقرر في قلوب العامة فهو جهمي(٣).

---

(١) انظر: «الشريعة» (٣/ ١٠٧٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٣/ ١٧٨).

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله: والذي تقرر في قلوب العامة هو ما فطر الله عليه الخليقة من توجهها إلىٰ ربها عند النوازل والشدائد إليه تعالىٰ نحو العلو لا تلتفت يَمنةً ولا يَسرةً من غير موقف وقفهم عليه، ولكن فطرة الله التي فطر الناس عليها، وما من مولود إلا وهو يولد علىٰ هذه الفطرة حتىٰ يُجهِّمه وينقله إلىٰ التعطيل من يقيِّض له(١). انتهىٰ.

⊙ **قوله: «بَلِ الْقَمَرُ آيَةٌ»**: الآية لغة: العلامة. والآية والدليل والبرهان والسلطان والحجة: ألفاظٌ متقاربة، أي أن القمر من الآيات الدالة علىٰ وجوده سبحانه وعظيم قدرته، وأنه المستحق للعبادة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت: ٣٧] الآية، وقد أقسم الله سبحانه بالقمر الذي هو آية الليل، وفيه من الآيات الباهرة الدالة علىٰ ربوبية خالقه وبارئه وحكمته وعلمه ما هو معلوم بالمشاهدة.

والآيات تنقسم إلىٰ قسمين: آياتٍ مشاهدةٍ مرئيةٍ؛ كالسموات والأرض والشمس والقمر ونحو ذلك، وآياتٍ مسموعةٍ متلوةٍ؛ كالقرآن، وكذلك السُّنَّة فإنها مُبيِّنةٌ ومُقرِّرةٌ لما دل عليه القرآن.

فآياته العيانية في خلقه تدل علىٰ صدق آياته المسموعة المتلوة، كما قال تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، أي: أن القرآن حقٌّ، فأخبر أنه يدل بآياته المرئية علىٰ صدق آياته المتلوة المسموعة.

---

(١) نقله عنه ابن القيم في كتابه «اجتماع الجيوش الإسلامية» (٢/ ٢١٤).

⊙ **قوله**: «**وَهُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ**»: أي: القمر موضوعٌ في السماء الدنيا.

⊙ **قوله**: «**وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ**»: من السفر، وهو لغة: قطع المسافة، مِن: أسْفَر؛ إذا برَز، ومنه السِّفْر، وهي الكتب؛ لأنه يُسفِر عما فيه، قيل: سمي السَّفَر -بالفتح- سَفَرًا؛ لأنه يُسفِر عن أخلاق الرجال.

⊙ **قوله**: «**وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ وَغَيْرِ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ**»: أي: القمر مع المسافر وغير المسافر، فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا، أو النجم والقمر في مكانه غير مختلطٍ بهم ولا محاذٍ ولا مماسٍّ ولا مجاور، ولا يفهم أحدٌ منه هذا، هذه لغة العرب المعروفة لديهم.

فإذا كان هذا القمر الذي هو من أصغر مخلوقات الله، فكيف تكون حقيقة المعية في حق الرب ذلك؟! فإن غاية ما تدل عليه «مع» المصاحبة، وهي في كل موضع بحسبه، وقد ضرب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثلًا بذلك بالقمر: ﴿**وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ**﴾ [النحل: ٦٠]، ولكن المقصود بالتمثيل: بيان جواز هذا وإمكانه، لا تشبيه الخالق بالمخلوق، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ما مِنكم مِن أحدٍ إلا سيَرى ربَّه مُخليًا به**»، فقال له أبو رَزين العقيلي: كيف يا رسول الله، وهو واحدٌ ونحن جمع؟ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَأنبئك بمِثل هذا في آلاء الله، هذا القمرُ كلُّكم رآه مخليًا به، وهو آيةٌ من آيات الله، فاللهُ أكبرُ**»(١)، أو كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فشبَّه الرؤية

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٣١)، وابن ماجه (١٨٠)، وغيرهما من حديث أبي رزين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٣٧٤).

بالرؤية، وإن لم يكن المرئي مشابهًا للمرئي، فالمؤمنون إذا رأوا ربهم يوم القيامة وناجوه كل يراه فوقه قِبل وجهه كما يرىٰ الشمس والقمر، ولا منافاة أصلًا. انتهىٰ من «الحموية» باختصار(١).

قال ابن القيم رحمه الله علىٰ حديث أبي رزين: وفيه القياس في أدلة التوحيد والمعاد، والقرآن مملوءٌ منه، وفيه أن حكم الشيء حكم نظيره(٢). انتهىٰ.

⊙ **قوله:** «فَوْقَ العَرْشِ...»: كما قال سبحانه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] في سبعة مواضع من القرآن، وقال تعالىٰ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، إلىٰ غير ذلك من الآيات، وقد تقدم الكلام علىٰ هذا الموضوع والإشارة إلىٰ أن الأدلة علىٰ علو الله وفوقيته بلغت حد التواتر، وتواطأ علىٰ ذلك دليل العقل والفطرة.

⊙ **قوله:** «رَقِيبٌ عَلَىٰ خَلْقِهِ»: قال الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١]، أي: أنه سبحانه مراقبٌ لأحوالكم وأعمالكم لا يخفىٰ عليه خافية، وفيها إرشادٌ وحثٌّ علىٰ مراقبة الله واستحضار قربه، كما في الحديث: «**أفضلُ الإيمانِ أن تعلمَ أن اللهَ معك حيثما كنت**»(٣).

---

(١) انظر: «الحموية» (٥٢٨).

(٢) انظر: «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٣/ ٥٩٥).

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٧٩٦)، وفي «مسند الشاميين» (٥٣٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٢٤) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٠٠٢).

⊙ **قوله:** «مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ»: **قال ابن عباس وغير واحد:** المهيمن، أي: الشاهد علىٰ خلقه بأعمالهم، بمعنىٰ هو رقيبٌ عليهم، كقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٦﴾ [المجادلة: ٦]، يقال: هيمن يهيمن فهو مهيمن؛ إذا كان رقيبًا علىٰ الشيء.

⊙ **قوله:** «إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ...»: فإن ربوبيته سبحانه إنما تتحقق بكونه فعَّالًا مدبرًا متصرفًا في خلقه، يعلم ويقدر، ويسمع ويبصر، فإذا انتفت أفعاله وصفاته انتفت ربوبيته.

◈ ◈ ◈

وَكُلُّ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ مِنْ: أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَأَنَّهُ مَعَنَا- (حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ)، لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ. [مِثْلِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، أَنَّ السَّمَاءَ تُقِلُّهُ أَوْ تُظِلُّهُ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ والإِيمَانِ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، وَهُوَ الَّذِي يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ؛ إِلاَّ بِإِذْنِهِ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ](١).

الشَّرح

⊙ **قوله:** «حَقٌّ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ»: فيجب اعتقاده والإيمان به؛ لتواطؤ الأدلة علىٰ إثباته، والحق في اللغة: هو الثابت الذي لا يَسوغ إنكاره، وفي اصطلاح أهل المعاني: هو الحكم المطابق للواقع يطلق علىٰ الأقوال والأديان والعقائد والمذاهب باعتبار اشتمالها علىٰ ذلك، ويقابله الباطل. انتهىٰ. «تعريفات»(٢).

⊙ **قوله:** «حَقِيقَتِهِ»: الحَقِيقة اسمٌ لما أريد به ما وُضع له، (فَعِيلَة) مِن: حقَّ الشيء: إذا ثبت؛ بمعنىٰ (فاعِلَة)، وفي الاصطلاح: هو كلمة مستعملة فيما وضعت له في اصطلاح التخاطب به.

⊙ **قوله:** «وَلَكِنْ»: حرف استدراك.

⊙ **قوله:** «يُصَانُ»: أي يُحفظ، يقال: صانه يصونه صيانة، أي: حفظه.

---

(١) زيادة من نسخة.

(٢) انظر: «كتاب التعريفات» (٨٩).

⊙ **قوله:** «عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ»: الظن: مصدر من باب (قتل)، وهو خلاف اليقين، قاله الأزهري وغيره، وقد يستعمل بمعنىٰ: اليقين، كقوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] الآية.

⊙ **قوله:** «وَكُلُّ هَذَا الْكَلَامِ حَقٌّ عَلَىٰ حَقِيقَتِهِ» إلخ: هذا إشارة للرد علىٰ المعطلة من الجهمية والمعتزلة وأشباههم الذين يزعمون أن ما جاء من ذكر فوقيته وعلوه واستوائه علىٰ عرشه ليس بحقيقةٍ وإنما هو مجاز، وما زعموه باطلٌ مصادمٌ لأدلة الكتاب والسنة الصحيحة الصريحة وإجماع السلف علىٰ أن ذلك حقيقة، كما يليق بجلال الله سبحانه وعظمته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الصواعق»: ومما ادعوا فيه أنه مجاز: (الفوقية). وساق أدلة كثيرة في إثبات الفوقية الكاملة مع جميع الوجوه، منها: أن الأصل الحقيقة، والمجاز علىٰ خلاف الأصل، ومنها: أن الظاهر خلاف ذلك، ومنها: أن الاستعمال المجازي لابد فيه من قرينة تخرجه عن حقيقته، فأين القرينة في فوقية الرب؟[1].

وقال أبو عمر الطلمنكي: أجمع أهل السنة علىٰ أن الله استوىٰ علىٰ عرشه علىٰ الحقيقة لا علىٰ المجاز[2].

وقال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا كتاب الله من أوله إلىٰ آخره، وسنة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكلام الصحابة والتابعين وسائر الأئمة مملوء بما هو

---

(١) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٤٣١).

(٢) انظر: «العلو للعلي الغفار» (٢٤٦).

نصٌّ أو ظاهرٌ أن الله فوق كل شيء، وأنه فوق العرش، وأنه العلي الأعلىٰ، وأنه مستوٍ علىٰ عرشه(١)، وساق أدلة كثيرة في إثبات ما ذكَر وأنه حقيقة، وإبطال ما زعموه من المجاز، وقد تكاثرت الأدلة في ذلك، وأجمع علىٰ ذلك السلف، ودل علىٰ ذلك -أيضًا- دليل العقل، وليس مع من خالف سوىٰ الظنون الكاذبة والشُّبه الفاسدة التي لا يعارض بها ما دل عليه نصوص الوحي والأدلة العقلية، وقد ذم الله سبحانه الظن المجرد وأهله، فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣] ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [النجم: ٢٨]، وفي «الصحيح» أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِيَّاكُم والظَّنَّ، فإنَّ الظَّنَّ أَكذَبُ الحَديثِ**»(٢).

وقال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: النفاة للعلو ونحوه من الصفات معترفون بأنه ليس مستندهم خبر الأنبياء لا الكتاب ولا السنة ولا أقوال السلف الصالح، ولا مستندهم فطرة العقل وضرورته، ولكن يقولون: معنا النظر العقلي، وأما أهل السنة المثبتون للعلو، فيقولون: إن ذلك ثابت بالكتاب والسنة والإجماع مع فطرة الله التي فطر العباد عليها، وضرورة العقل مع نظر العقل واستدلاله(٣). انتهىٰ.

⊙ **وقوله: «لَا يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَحْرِيفٍ»**: إشارة للرد علىٰ المعطلة الذين حرفوا الأدلة، وسموا تحريفهم تأويلًا، ترويجًا علىٰ الجهال، وهو في الحقيقة تبديلٌ وتغيير

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ١٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٤٩)، وأطرافه فيه، ومسلم (٢٩١٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ١١٠).

لكلام الله ورسوله، فإن ما جاء من الأدلة في إثبات العلو والفوقية وغير ذلك من الصفات صريح اللفظ واضح المعنىٰ نصٌّ في معناه لا يحتمل التأويل.

⊙ **قوله:** «تُقِلُّهُ»: أي: تحمله وترفعه.

⊙ **قوله:** «أَوْ تُظِلُّهُ»: أي: تستره، والظلة: الشيء الذي يظلك من فوق.

⊙ **قوله:** «مِثْلِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ فِي السَّمَاءِ» إلخ: أي: في مثل قوله سبحانه: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، وقول الجارية لما سألها النبي ﷺ قالت: «في السماء»(١)، وهذا ظنٌّ فاسدٌ مصادمٌ لأدلة الكتاب والسنة الصريحة الدالة علىٰ علو الله سبحانه وفوقيته، وعلىٰ أنه فوق عرشه حقيقةً بائنٌ من خلقه لا يحلُّ فيهم ولا يختلط، فليس في ذاته شيءٌ من مخلوقاته، ولا في مخلوقاته شيءٌ من ذاته، من زعم غير ذلك فقد ظن به ظن السوء وتنقصه غاية التنقص.

وقال الشيخ تقي الدين رحمه الله: فأهل السنة إذا قالوا: إنه فوق العرش أو إنه في السماء، لا يقولون: إن هناك شيئًا يحويه أو يحصره ويكون مَحَلًّا له أو ظرفًا أو وعاء، تعالىٰ الله عن ذلك، بل هو فوق كل شيء، وهو مستغنٍ عن كل شيء، وكل شيء مفتقرٌ إليه، وهو عالٍ علىٰ كل شيء، وهو الحامل للعرش ولحملة العرش بقوته وقدرته، وهو غنيٌّ عن العرش وعن كل مخلوق.

قال: وما جاء في الكتاب والسنة من قوله: «في السماء» قد يفهم منه بعضهم أن

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧)، وأبو داود (٩٣٠)، وغيرهما من حديث معاوية بن الحكم السلمي رضي الله عنه.

السماء نفس المخلوق العالي العرش فما دونه، فيقولون: إن قوله: في السماء، كما قال: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، ولا حاجة لهذا، بل السماء جنسٌ للعالي لا يخص شيئًا، فقوله: «في السماء» أي العلو دون السفل، وهو العلي الأعلىٰ، فله أعلىٰ العلو، وهو ما فوق العرش، وليس هناك غير العلي الأعلىٰ سبحانه(١). انتهىٰ.

وقال: فالجهمية وأشباههم لا يصفونه سبحانه بالعلو، بل إما أن يصفونه بالعلو والسفول، وإما أن ينفوا عنه العلو والسفول، فهم نوعان: قسمٌ يقولون: إنه في كل مكان بذاته. والقسم الآخر يقولون: إنه لا داخل العالم ولا خارجه، فالقسم الأول وصفوه بالحلول في الأمكنة ولم ينزهوه عن المَحالِّ المستقذرة، والقسم الثاني وصفوه بالعدم، تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

⊙ **قوله**: «فَإِنَّهُ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ»:

لما ذكر المصنف رحمه الله العلو والفوقية، وأنهما حقيقةٌ ثابتةٌ لله علىٰ ما يليق بجلاله وعظمته أورد بعد ذلك بعض الأدلة النقلية والعقلية في إثبات ذلك، فقال: (فإن الله قد وسع كرسيه السموات الأرض) أي: ملأ وأحاط.

والكرسي مخلوقٌ عظيمٌ بين يدي العرش، وهو أعظم من السموات الأرض، وهو بالنسبة إلىٰ العرش كأصغر شيء، وقد ذكر ذلك، فإذا كانت السموات والأرض بالنسبة للكرسي الذي هو بالنسبة إلىٰ العرش شيء صغير والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العظيم الأعظم الذي لا أجلَّ منه ولا أعظم، فكيف تحويه السموات والأرض أو تحوطه أو تُقلُّه أو تظله؟!

---

(١) انظر مجموع الفتاوىٰ» (١٦/ ١٠١).

فهذه الآية صريحة في علو الله ومباينته لخلقه، وأنه غير مختلطٍ بهم، ولا ممازجٍ لهم ولا حالٍّ فيهم، تعالىٰ الله عما يقول المبتدعة علوًّا كبيرًا.

⊙ **قوله**: «وَهُوَ الَّذِي يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولَا»: أي: أن تضطربا عن أماكنهما.

⊙ **قوله**: «وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَىٰ الأَرْضِ؛ إِلَّا بِإِذْنِهِ»: أي: إلا بأمره ومشيئته. وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يَقبِضُ اللهُ الأرضَ يوم القيامة، ويَطوي السماءَ بيَمِينه، ثم يقول: أنا المَلكُ، أين مُلوك الأرض؟**»[١].

⊙ **قوله**: «﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾»: أي: من العلامات الدالة علىٰ وجوده سبحانه وعظيم قدرته وقيام كل شيء به، قال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]، وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، أي: القائم لنفسه المقيم لغيره، القائم بتدبير خلقه وأرزاقهم وجميع أحوالهم. وفي «الصحيح» من حديث أبي موسىٰ الأشعري: «**إن اللهَ لا ينامُ ولا ينبغي له أن ينامَ، يَخفضُ القسطَ ويَرفَعُه، يُرفع إليه عملُ الليل قبل عمل النهار، وعملُ النهار قبل عمل الليل، حجابُه النورُ لو كشفَه لأحرقَت سُبُحاتُ وَجهه ما انتهىٰ إليه بصرُه من خلقه**»[٢] رواه مسلم.

فهذه الآيات صريحةٌ في أن الرب -سبحانه- ليس هو عينَ هذه المخلوقات ولا

(١) أخرجه البخاري (٤٥٣٤)، ومسلم (٢٧٨٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩)، وأحمد (٤/ ٤٠٥)، وغيرهما من حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

صفةً ولا جزءًا منها، فإن الخالق غير المخلوق وليس بداخلٍ فيها محصور، بل هي صريحةٌ في أنه مباينٌ لها، وأنه ليس حالًّا فيها ولا مَحلًّا لها، فإن الكرسي في العرش كحلقةٍ ملقاةٍ بأرضٍ فلاةٍ، والعرش من مخلوقات الله لا نسبة له إلىٰ قدرة الله وعظمته، فكيف يتوهم بعد هذا أن خلقًا يحصره ويحويه؟!

وفيها **دلالةٌ** علىٰ عظمته سبحانه وعظيم قدرته وعظم مخلوقاته، وقد تعرف سبحانه إلىٰ عباده بصفاته وعجائب مخلوقاته، وكلها تدل علىٰ كماله، وأنه المعبود الحق وحده لا شريك له في ربوبيته وإلهيته، وأن العبادة لا تصلح إلا له ولا يصلح منها شيء لملَكٍ مقرَّبٍ ولا نبيٍّ مُرسَل، فضلًا عن غيرهما.

وتدل -أيضًا- علىٰ إثبات الصفات لله علىٰ ما يليق بجلاله إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهًا بلا تعطيل، وعلىٰ هذا سلف الأمة ومن تبعهم بإحسان، وهو الذي دلت عليه أدلة الكتاب والسنة.

◈ ◈ ◈

وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ: الإِيْمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيْبٌ مِنْ خَلْقِهِ [مُجِيبٌ]، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وَقَالَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِّنْ عُنقِ رَاحِلَتِهِ»(١).

وَمَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ لَا يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّه، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّه.

الشَّرح

⊙ **قوله: «وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ...»**: أي: في الإيمان بالله بأنه قريبٌ مجيبٌ كما جمع بين ذلك في الآية والحديث. وسبب نزول الآية: أن أعرابيًّا قال: يا رسول الله، أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فسكت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأنزل الله هذه الآية. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير(٢).

وروى الإمام أحمد عن أبي موسىٰ قال: كنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة فجعلنا لا نصعد شرفًا، ولا نعلو شرفًا، ولا نهبط واديًا إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير، قال: فدنا منا، فقال: **«يا أيُّها الناس، ارْبَعُوا علىٰ أنفُسِكم، فإنكم لا تدعُون أصمَّ ولا غائبًا، إنما تدعون سميعًا بصيرًا، إن الذي تدعون أقربُ إلىٰ أحدكم مِن عُنُق**

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه ابن أبي حاتم (١/ ٣١٤)، والطبراني (٣/ ٤٨٠).

راحلته، يا عبدَ الله بن قيس: ألا أُعلِّمُك كلِمَةً مِن كنوز الجنَّة: لا حولَ ولا قُوَّةَ إلا بالله»(١) خرجاه في «الصحيحين» وبقية الجماعة.

⊙ **قوله:** «ارْبَعُوا»: بهمزة وصل وبفتح الباء الموحدة، معناه: أرفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم، فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبُعد من يخاطبه ليسمعه، وأنتم تدعون الله وليس هو بأصمَّ ولا غائبًا، بل هو سميعٌ قريب.

ففيه الندب إلىٰ خفض الصوت بالذكر إذا لم تدعُ حاجة إلىٰ رفعه، فإنه إذا خفضه كان أبلغ في توقيره وتعظيمه، فإن دعت الحاجة إلىٰ الرفع رفع كما جاءت به أحاديث كما في التلبية وغيرها فقد ورد الشرع برفعه فيها(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٦٨)، ومسلم (٢٧٠٤)، وغيرهما من حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٨٩-٩٢):

«ودليل ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

في هذه الآية ستة ضمائر تعود علىٰ الله، وعلىٰ هذا؛ فيكون القرب قربه عَزَّوَجَلَّ، ولكن نقول في ﴿قَرِيبٌ﴾ كما قلنا في المعية: إنه لا يستلزم أن يكون في المكان الذي فيه الإنسان.

وإذا كان الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول: «إنه أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ». ولا يلزم أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ نفسه في الأرض بينه وبين عنق راحلته.

وإذا كان قول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «فإن الله قِبَل وجه المصلي». لا يستلزم أن يكون الله بينه وبين الجدار، إن كان يصلي إلىٰ الجدار، ولا بينه وبين الأرض إن كان ينظر إلىٰ الأرض.

فكذلك لا يلزم من قربه أن يكون في الأرض؛ لأن الله ليس كمثله شيء في جميع صفاته، وهو محيط بكل شيء.

=

⊙ **قوله: «هُوَ أَقْرَبُ إِلَىٰ أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»: المراد به: قرب الإحاطة والعلم،**

=

واعلم أن من العلماء من قسم قرب الله تعالىٰ إلىٰ قسمين، كالمعية، وقال: القرب الذي مقتضاه الإحاطة قرب عام، والقرب الذي مقتضاه الإجابة والإثابة قرب خاص.

ومنهم من يقول: إن القرب خاص فقط؛ مقتضٍ لإجابة الداعي وإثابة العابد، ولا ينقسم.

ويستدل هؤلاء بقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وبقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**». وأنه لا يمكن أن يكون الله تعالىٰ قريبًا من الفجرة الكفرة.

وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله تعالىٰ.

ولكن أورد علىٰ هذا القول قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦]، فالمراد بـ﴿الْإِنسَانَ﴾ كل إنسان، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾ [ق: ٢٢]، إلىٰ أن قال: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾ [ق: ٢٤] فهو شامل.

وأورد عليه -أيضًا- قوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٥]، ثم قسم هؤلاء الذين بلغت أرواحهم الحلقوم إلىٰ ثلاثة أقسام، ومنهم الكافر.

وأجيب عن ذلك بأن قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦]؛ يعني: بملائكتنا، واستدل لذلك بقوله: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ [ق: ١٧] فإن ﴿إِذْ﴾ ظرف متعلق بـ﴿أَقْرَبُ﴾؛ يعني: ونحن أقرب إليه حين يتلقىٰ المتلقيان، وهذا يدل علىٰ أن المراد بقربه تعالىٰ قرب ملائكته.

وكذلك قوله في المحتضر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ المراد: قرب الملائكة، ولهذا قال: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٥]، وهذا يدل علىٰ أن هذا القريب موجود عندنا، لكن لا نبصره، وهذا يمتنع غاية الامتناع أن يكون المراد به الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن الله في السماء.

وما ذهب إليه شيخ الإسلام؛ فهو عندي أقرب، ولكنه ليس في القرب بذاك» اهـ.

كما في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: ١٦] انتهىٰ. «نووي»(١).

ومن أسمائه سبحانه القريب، وقربه سبحانه نوعان:

قربٌ عام، وهو إحاطة علمه بجميع الأشياء، كما في الحديث المتقدم، وقوله سبحانه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾. وقيل: إن المراد قرب ملائكته منه، وأضاف ذلك إلىٰ نفسه بصيغة الجمع علىٰ عادة العظماء في إضافة أفعال عبيدها إليها، ورجحه ابن القيم واختاره الشيخ تقي الدين.

الثاني: قربٌ خاص، وينقسم إلىٰ قسمين: قربه من داعيه بالإجابة، وقربه من عابده بالإثابة.

فالأول: كقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ [البقرة: ١٨٦] الآية؛ ولهذا نزلت جوابًا للصحابة وقد سألوا رسول الله: أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟

والثاني: كقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أقْرَبُ ما يكون العبدُ مِن ربِّه وهو ساجدٌ، وأقربُ ما يكونُ الرَّبُّ مِن عَبده في جَوْف اللَّيْل»**(٢)، فهذا قربه من أهل طاعته.

وأما حديث أبي موسىٰ المتقدم، ففيه القرب الخاص بالداعين دعاء العبادة والثناء، وهذا القرب لا ينافي كمال مباينته سبحانه لخلقه، واستوائه علىٰ عرشه، بل يجامعه ويلازمه، فإنه ليس كقرب الأجسام بعضها من بعض، تعالىٰ الله عن ذلك

---

(١) انظر: «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (١٧/ ٢٦).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٢)، وأبو داود (٨٧٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بدون ذكر الجملة الأخيرة.

علوًّا كبيرًا، ولكنه نوع آخر.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **في «المدارج» علىٰ قوله: «وأنتَ الباطِنُ فليس دونك شيء»**، قال: فهذا قرب الإحاطة العامة، وأما القرب المذكور في الكتاب والسنة، فقربٌ خاصٌّ من عابديه وسائليه وداعيه، وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ الآية. وفي «الصحيح»: **«أقربُ ما يكون العبدُ مِن ربِّه وهو ساجد»**(١)، فهذا قربٌ خاصٌّ غير قرب الإحاطة وقرب البطون(٢). انتهىٰ.

⊙ **قوله: «مُجِيبٌ»**: أي: المجيب لدعاء الداعين وسؤال السائلين.

وإجابته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نوعان:

الأول: إجابةٌ عامةٌ لكل مَن دعاه دعاءَ عبادة أو دعاء مسألة، كما قال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فهذا يقع من البر والفاجر، ويستجيب الله سبحانه لكل من دعاه بحسب الحال المقتضية، وبحسب ما تقتضيه حكمته سبحانه، وهذا مما يستدل به علىٰ كرم المولىٰ سبحانه وشمول إحسانه، ولا يدل علىٰ حسن حال الداعي إن لم يقترن بذلك ما يدل عليه كسؤال الأنبياء ودعائهم علىٰ قومهم ولقومهم فيجيب سبحانه، فإنه يدل علىٰ صدقهم فيما أخبروا به وكرامتهم علىٰ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) لم أقف عليه في «المدارج»؛ لكنه موجود بنصه في «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (٢٢).

الثاني: إجابةٌ خاصة، ولها أسبابٌ عديدة، منها: دعوة المضطر، قال الله سبحانه: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، ومن أسبابها: طول السفر والتوسل إلىٰ الله سبحانه بأحب أسمائه وصفاته ونعمه، وكذلك دعوة المريض والمظلوم والصائم والوالد علىٰ ولده أو له، وفي الأوقات والأحوال الفاضلة.

وفيما تقدم دليلٌ علىٰ أن الدعاء من أقوىٰ الأسباب في جلب المنافع ودفع المضارِّ، وفيه الرد علىٰ من زعم من المتصوفة وأتباعهم أن الدعاء لا ينفع، وقولهم باطلٌ مردودٌ بأدلة الكتاب والسنة المتواترة والعقل وتجارب الأمم.

وفيه أن الدعاء يطلق علىٰ السؤال والطلب، ويطلق علىٰ العبادة، فالدعاء معناه لغة: السؤال والطلب، وينقسم إلىٰ قسمين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

فدعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو دفع ضر.

وأما دعاء العبادة: فهو سائر العبادات من تسبيحٍ وتهليلٍ وتكبيرٍ وصلاةٍ وغير ذلك؛ لأن العابد سائلٌ في المعنىٰ فيكون داعيًا عابدًا(١).

---

(١) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ١٥٨-١٦٠):

«قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، وهذا القرب في هذه الآية خاص، وقد جعله الله عَزَّوَجَلَّ قربَ إجابةٍ، وقرب الإجابة نوعان:

* قرب عطاء.

* وقرب إثابة.

فمن سأل الله عَزَّوَجَلَّ في دعائه كان داعيًا دعاء المسألة، فيكون قرب الله عَزَّوَجَلَّ منه قربَ مَن =

=

يُعطي، وإذا دعا العبد ربه عَزَّوَجَلَّ في عبادة وطاعة، يعني دعاء عبادة، كان قرب الله عَزَّوَجَلَّ منه قرب إثابة.

فإذًا الإجابة في تفسير السلف في قوله: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ فُسرت بأنها إعطاء السؤال أو إثابة الداعي، وكل عبد مؤمن يسأل الله عَزَّوَجَلَّ شيئًا، أو يدعو الله عَزَّوَجَلَّ شيئًا، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يعطيه ويُجيب دعاءه ولابد؛ فإنه ما من داعٍ يدعو إلا والله عَزَّوَجَلَّ يُجيب دعاءه، ولكن إجابة الدعاء أعم من إعطاء عين السؤال؛ فإن العبد قد يدعو بدعاءٍ فيه مسألة، وقد يدعو بدعاء ليس فيه مسألة خاصة، فإذا سأل العبد ربه مسألة خاصة وقال: أعطني كذا. فإنه يُجاب بإحدىٰ ثلاث خصال:

الأولىٰ: إما أن يُعطىٰ عين ما سأل؛ كأن يقول: اللهم هيئ لي زوجة صالحة، اللهم هيئ لي من أمري رشدًا، اللهم اجعل هذا الأمر خيرًا لي. فيُجاب في سؤاله ويُعطىٰ عين ما سأل.

الثانية: ألَّا يُعطىٰ عين ما سأل، ولكن يؤخر له ذلك في الآخرة، فيكون جواب السؤال في الآخرة، وهذا أعظم في بعض الأحوال.

الثالثة: أن يُصرف عنه من السوء مثل ما سأل، فهو سأل شيئًا وقضىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بحكمته ألَّا يُعطي العبد عين ما سأل، فيصرف عنه من السوء مثل ما سأل.

وهذا قد جاء في الحديث الذي رواه مسلم في «الصحيح» وغيره: **«ما من عبد يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدىٰ ثلاث خصال...»** وذكر هذه الخصال السابقة.

فإذًا، إجابة الداعي قد تكون إجابة للسائل وقد تكون إثابة للعابد، وإجابة السائل أعم من إعطاء عين المسئول؛ ولهذا في حديث التنزل الإلهي تبارك ربنا وتقدس، قال صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **«ينزل ربُّنا إلىٰ السماء الدنيا كل ليلة حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر، فيقول: مَنْ يدعوني فأستجيب له؟ مَنْ يسألني فأُعطيه، مَنْ يستغفرني فأغفر له»**. معلوم أن الاستغفار من السؤال؛ فإن المستغفر سائل وليس كل سائل مُستغفرًا؛ كما أن السائل داعٍ وليس كل داعٍ سائلًا.

ولهذا نقول: الدعاء ينقسم إلىٰ قسمين:

* دعاء مسألة.

⊙ **قوله**: «وَمَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِهِ لا يُنَافِي مَا ذُكِرَ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ...»: فإن علوه سبحانه من لوازم ذاته، فلا يكون قط إلا عاليًا، ولا يكون فوقه شيء البتة، كما قال أعلم الخلق بربه: «**وأنت الظاهرُ فليس فوقك شيء**»(١)، فهو سبحانه قريبٌ في علوه عالٍ في قُربه، فأخبر صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه أقرب إلىٰ أحدهم من عنق راحلته، وأخبر أنه فوق سماواته علىٰ عرشه مطلعٌ علىٰ خلقه يرىٰ أعمالهم، وهذا حقٌّ لا يناقض أحدهما الآخر، والذي يسهل عليك فهم هذا معرفة عظمته سبحانه وإحاطته بخلقه، وأن السموات السبع في يده كخردلة في يد العبد، فكيف يستحيل في حق من هذا بعض عظمته أن يكون فوق عرشه، ويقرب من خلقه كيف شاء وهو علىٰ العرش؟!. انتهىٰ من «الصواعق»(٢).

⊙ **قوله**: «**في دُنُوِّه**»: **أي**: قُربه.

⊙ **قوله**: «**في نُعُوتِهِ**»: **أي**: في صفاته، فالوصف والنعت مترادفان، وقيل: متقاربان، فالوصف للذات، والنعت للفعل.

◈ ◈ ◈

=

* ودعاء عبادة.

وهذا كله داخل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة:١٨٦]» اهـ.

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٤٨٣).

وَمِنَ الإِيمَانِ به وَبكُتُبِهِ: الإيمانُ بِأَنَّ القُرْآنَ كَلامُ الله، مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ هَذَا القُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ كَلامُ اللهِ حَقِيقَةً، لا كَلامَ غَيْرِهِ.

• الشرح •

⊙ **قوله:** «وَمِنَ الإِيمَانِ به وَبكُتُبِهِ: **الإِيمَانُ بِأَنَّ القُرْآنَ كَلامُ اللهِ**»: فمن لم يؤمن بأن القرآن كلام الله لم يؤمن بالله وكتبه.

قال عبد الله بن المبارك: «من كفَر بحرفٍ من القرآن؛ فقد كفر بالقرآن، ومن قال: لا أؤمن بهذا الكلام؛ فقد كفر».

⊙ **قوله:** «كَلامُ اللهِ»: قال تعالىٰ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، وقال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥] الآية. وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعرض نفسه في الموسم فيقول: «**ألا رَجلٌ يَحمِلني إلىٰ قومِه لأُبَلِّغ كلامَ ربِّي**»(١). رواه أبو داود، فاتضح بهذا أن القرآن كلام الله لا كلام غيره، فمن زعم أنه كلام غيره؛ فهو كافرٌ بالله العظيم.

وقال غير واحد من السلف: من أنكر أن يكون الله متكلمًا أو يكون القرآن كلامه؛ فقد أنكر رسالة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل ورسالة جميع الرسل التي حقيقتها تبليغ كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، فإذا لم يكن ثَمَّ كلامٌ فماذا يبلغ الرسول؟! بل كيف يعقل كونه

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥)، وغيرهما من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٤٧).

رسولًا؟ ولهذا قال منكروا رسالته عن القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٥]، فمن قال: إن الله لم يتكلم به -أي القرآن- فقد ضاهىٰ قوله قولهم؛ تعالىٰ الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

⊙ **قوله:** «**مُنَزَّلٌ**»: هذا ردٌّ لكلام الجهمية والمعتزلة ممن يقول: إنه لم ينزل منه، فبيَّن في غير موضع أنه مُنَزَّلٌ من الله، فمن قال: إنه مُنَزَّلٌ من بعض المخلوقات كاللوح والهواء؛ فهو مفترٍ علىٰ الله مكذِّبٌ لكتابه، قال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]، ورُوح القدس: جبريل، وهو الروح الأمين المذكور في قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣].

فجبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ سمعه من الله، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمعه من جبريل، ولم يقل أحدٌ من السلف: إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سمعه من الله، وإنما قاله بعض المتأخرين، والآية صريحةٌ في الرد عليهم، وصريحةٌ في أنه المتكلم به، وأنه منه نزل ومنه بدأ وهو الذي تكلم به، ومن هنا قال السلف: من الله بدأ، فأخبر في الآيات المتقدمة أنه منزلٌ من الله، ولم يخبر عن شيء أنه منزلٌ من الله إلا كلامه، بخلاف نزول الملائكة والمطر والحديد وغير ذلك، وقد تقدم ذكر أقسام الإنزال في الكلام علىٰ الآيات.

⊙ **قوله:** «**غَيْرُ مَخْلُوقٍ**»: هذا ردٌّ لكلام الجهمية والمعتزلة وغيرهم ممن يقول: كلام الله مخلوق، فالجهمية يقولون: إن الله لا يتكلم، بل خلق كلامًا في غيره، وجعل غيره يعبر عنه، وما جاء من الأدلة: أن الله تكلم أو يكلم أو نادىٰ أو نحو ذلك، قالوا: هذا مجاز.

وأما المعتزلة فيقولون: إن الله متكلمٌ حقيقة، لكن معنىٰ ذلك أنه خلق الكلام في غيره، فمذهبهم ومذهب الجهمية في المعنىٰ سواء، وحقيقة قول الطائفتين: أنه غير متكلم، وهذا باطلٌ مخالفٌ لقول السلف والأئمة ومخالفٌ للأدلة العقلية والسمعية، فإنه لا يعقل متكلمٌ إلا مَن قام به الكلام، ولا مريدٌ إلا من قامت به الإرادة؛ ولا محبٌّ ولا راضٍ إلا من قام به ذلك؛ ولأن كلام الله -سبحانه- من صفاته، وصفاتُه -سبحانه- غير مخلوقة، كما في «الصحيح» عن خَولة بنت حكيم، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَن نزَل مَنزلًا فقال: أعوذُ بكلمات الله التَّامات مِن شَرِّ ما خَلق؛ لم يَضُرَّه شيء حتىٰ يرحلَ مِن مَنزله ذلك»(١).

فاستدل العلماء بذلك علىٰ أن كلام الله غير مخلوق. قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك، وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ [لقمان: ٢٧] الآية، فهذا دليلٌ علىٰ أن كلام الله غير مخلوق؛ لأن كل مخلوق ينفد ويَبيد، وكلماته لا تنفد ولا تبيد، وهذا الوصف لا يكون لمخلوق، فالقرآن كلام الله ووحيه وتنزيله فهو غير مخلوق، فمن زعم أن القرآن مخلوقٌ فهو كافرٌ بالله العظيم، كما روي ذلك عن السلف.

وذكر الشيخ أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكَرَجي(٢) في كتابه «الأصول»،

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) محمد بن عبد الملك بن محمد أبو الحسن الكرجي -بالجيم-، فقيه، محدث، مفسر، أديب، شاعر، ولد سنة (٤٥٨) بالكرَج، وتوفي سنة (٥٣٢هـ). انظر ترجمته في: «تاريخ الإسلام» =

قال: سمعت الإمام أبا منصور محمد بن أحمد يقول: سمعت أبا حامد الإسفرايني يقول: ومذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الأمصار: أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال: مخلوقٌ؛ فهو كافر، والقرآن حمله جبريل مسموعًا من الله عَزَّوَجَلَّ، والنبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ سمعه من جبريل، والصحابة سمعوه من رسول الله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وهو الذي نتلوه بألسنتنا وفيما بين الدفتين، وما في صدورنا مسموعًا ومكتوبًا ومحفوظًا، وكل حرف منه كالباء، والتاء؛ كله كلام الله غير مخلوق، ومن قال: مخلوق؛ فهو كافرٌ عليه لعائن الله والناس أجمعين(١).

وقال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللَّهُ: ولم يقل أحدٌ من السلف: إن القرآن مخلوقٌ أو قديم، بل الآثار متواترةٌ عنهم بأنهم يقولون: القرآن كلام الله، ولما ظهر من قال: إنه مخلوق، قالوا ردًّا لكلامه: إنه غير مخلوق، وأول من عرف أنه قال: «القرآن مخلوق» الجعد بن درهم وصاحبه الجهم بن صفوان، وأول من عُرف أنه قال: «إنه قديم» هو عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب(٢). انتهىٰ.

وأما أفعال العباد كأصواتهم ومدادهم الذي يكتبون به القرآن، والورق الذي يكتبون عليه، فإن ذلك من جملة المخلوق، ولذلك يقولون: الكلام كلام الباري والصوت صوت القارئ، وفي الحديث: «**زَيِّنوا القرآنَ بأصواتكم**»(٣). قال ابن

=

للذهبي (١١/ ٥٧٨). وكتابه المذكور اسمه «الفصول في الأصول عن الأئمة الفحول إلزامًا لذوي البدع والفضول».

(١) نقله عنه ابن تيمية في «مجموع الفتاوىٰ» (١٢/ ٣٠٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٢/ ٣٠١).

(٣) سبق تخريجه.

القيم في «النونية»:

وكــذلك القــرآن عــين كلامــه الــ ... مســموع منــه حقيقــة ببيــان
هــو قــول ربــي كلــه لا بعضــه ... لفظًــا ومعنــىٰ مــا همــا خلقــان
تنزيــل رب العــالمين وقولــه ... اللفــظ والمعنــىٰ بــلا روغــان
لكــنَّ أصــوات العبــاد وفعلهــم ... كمــدادهم والــرق مخلوقــان
فالصــوت للقــاري ولكــنَّ الكــلا ... م كــلام رب العــرش ذي الإحســان

⊙ **قوله**: «مِنْهُ بَدَا»: أي: ظهر وخرج منه سبحانه، أي: هو المتكلم به وهو الذي أنزله من لدنه، فمن قال: إنه مخلوق، يقول: إنه خُلق في بعض المخلوقات القائمة بنفسها، فمن ذلك المخلوق نزل وبدأ ولم ينزل من الله، فإخبار الله: أنه منزلٌ من الله يناقض أن يكون قد نزل من غيره، قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي﴾ [السجدة: ١٣]، وقال: ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢].

وروىٰ أحمد وغيره عن جبير بن نفير قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّكم لن ترجعوا إلىٰ اللهِ بشيءٍ أفضلَ مما خَرَج منه**»(١)، وقال خباب بن الأرت: «يا هَنْتاه، تقرب إلىٰ الله بما استطعت، فلن تتقرب إلىٰ الله بشيء أحب إليه مما خرج منه»(٢)، وقال أبو بكر الصديق لأصحاب مسيلمة الكذاب لما سمع قرآن مسيلمة:

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩١٢)، والحاكم (٣٦٥١) رواه الترمذي مرسلًا، ورواه الحاكم موصولًا من حديث عقبة بن عامر الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٠٤٢).

(٢) رواه الحاكم (٢/ ٤٧٩) (٣٦٥٢) -وصححه ووافقه الذهبي-، وأحمد في «الزهد» (ص١٦٥) (١١٢٣)، وعبد الله ابن الإمام أحمد في «السنة» (١/ ١٤١) (١١١)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (١/ ٥٨٧) (٥١٣)، وابن أبي شيبة (٦/ ١٣٥) (٣٠٠٩٨)، وغيرهم؛ موقوفًا.

«ويحكم! أين يذهب بعقولكم؟! إن هذا كلام لم يخرج من إلٍّ»[(١)]، أي: من رَبٍّ.

وقال أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: كلام الله من الله ليس ببائنٍ منه، وهذا معنىٰ قول السلف: القرآن كلام الله منه بَدا وإليه يعود. ومقصود السلف: الرد علىٰ الجهمية، فإنهم زعموا أن القرآن خلقه الله في غيره، فيكون قد بدأ، وخرج من ذلك المحل الذي خلق فيه لا من الله، كما يقولون: كلامه لموسىٰ خرج من الشجرة، فبين السلف والأئمة: أن القرآن من الله بدأ وخرج، وذكروا قوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي﴾، فأخبر أن القول منه لا من غيره من المخلوقات، و«من»: لابتداء الغاية، فإن كان المجرور بها عينًا يقوم بنفسه لم يكن صفة الله، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وأما إذا كان المجرور بها صفة ولم يُذكر لها محلٌّ كان صفة لله، كقوله: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي﴾.

⊙ **قوله: «وَإِلَيْهِ يَعُودُ»: أي**: يرجع؛ بأن يُسرىٰ به في آخر الزمان ويُرفع فلا يبقىٰ في الصدور منه ولا في المصاحف منه آية، كما جاء ذلك في عدة آثار، وهو أحد أشراط الساعة الكبار، كما في حديث ابن مسعود وغيره أنه قال: «**يُسرىٰ علىٰ القُرآن فلا يَبقىٰ في المصاحف منه آيةٌ ولا في الصُّدور آية**»[(٢)]. أخرجه الطبراني وأخرجه ابن ماجه عن حذيفة، وأخرجه الديلمي عن معاذ.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٣٢/ ١٤).

(٢) أخرجه الطبراني (٨٧٠٠)، والحاكم (٨٥٣٨)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا عليه.

⊙ **قوله**: «وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً»: **قال تعالىٰ**: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، والآيات والأحاديث في إثبات كلامه سبحانه، وأنه تكلم بالقرآن كثيرةٌ جدًّا، وكلها دالةٌ علىٰ أنه سبحانه تكلم حقيقةً لا مجازًا، بل حقيقة الإرسال تبليغ كلام المرسِل، وإذا انتفت عنه حقيقة الكلام، انتفت عنه حقيقة الرسالة والنبوة، والرب يخلق بقوله وكلامه، فإذا انتفت عنه حقيقة الكلام انتفىٰ عنه الخلق.

وقد عاب الله آلهة المشركين بأنها لا تتكلم ولا تكلم عابديها، والجهمية وصفوا الرب بصفة هذه الآلهة، وقد تكاثرت الأدلة علىٰ أن الله نادىٰ وناجىٰ وأمر ونهىٰ، وكل هذا دالٌّ أنه تكلم حقيقةً لا مجازًا، فاتضح بما ذكره أن الله يتكلم حقيقة، وأما من ادعىٰ المجاز بعد هذا البيان؛ فقد شاق الله ورسوله والمؤمنين، فالقرآن كلام الله حروفه ومعانيه، هذا قول السلف.

وفي قوله: «حَقِيقَةً»: ردٌّ علىٰ من زعم: أن كلامه سبحانه معنًىٰ واحدٌ قام بذات الباري لم يُسمع منه، وإنما هو الكلام النفساني ولم يتكلم به حقيقة؛ لأنه لا يقال لمن قام به الكلام النفساني، ولم يتكلم به: إن هذا كلام حقيقة، وإلا يلزم أن يكون الأخرس متكلمًا، ولزم أن لا يكون الذي في المصحف عند الإطلاق هو القرآن ولا كلام الله، ولكنه عبارةٌ عنه ليست كلام الله، كما لو أشار إلىٰ شخص بإشارةٍ مفهومةٍ فكتب ذلك الشخص عبارة عن المعنىٰ الذي أوحاه إليه ذلك الأخرس، فالمكتوب هو عبارة ذلك الشخص عن ذلك المعنىٰ، فعندهم أن المَلَك فَهِم منه معنًىٰ قائمًا بنفسه لم يَسمع منه حرفًا ولا صوتًا، بل فهم معنًىٰ مجردًا ثم عبَّر عنه، فهو الذي أحدث نظم القرآن وتأليفه، وقد تقدم الكلام في الرد علىٰ من زعم أن كلام الله المعنىٰ النفسي، وأن الشيخ تقي الدين ردَّ ذلك من تسعين وجهًا، كل واحد يدل علىٰ بطلانه

بأدلة نقلية وعقلية، وقال ابن القيم في «النونية»:

تسعون وجهًا بيّنت بطلانه أعني كلام النفس ذا البطلان

⊙ **قوله:** «وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ...» إلخ: قال تعالىٰ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢] الآية.

وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، والأدلة علىٰ إثبات صفة الكلام كثيرةٌ لا تنحصر، والوصف بالتكلم من أوصاف الكمال وضده من أوصاف النقص، قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨] الآية. فعلم أن عدم التكلم نقصٌ يستدل به علىٰ عدم ألوهية العِجل.

قال البخاري في «صحيحه»: باب كلام الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مع أهل الجنة، وساق فيه عدة أحاديث، فأفضل نعيم الجنة رؤية وجهه سبحانه وتكليمه، وكم في الكتاب والسنة من دليلٍ علىٰ تكليم الله لأهل الجنة وغيرهم، قال تعالىٰ: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس: ٥٨]، وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بينما أهل الجنة في نعيمهم؛ إذ سطع لهم نور فرفعوا أبصارهم، فإذا الرب جَلَّ جَلَالُهُ قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة**»(١). وهو قوله سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ الحديث، ويأتي إن شاء الله.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٠٩)، وغيرهما من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٣٦٣).

وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللهِ، أَوْ عِبَارَةٌ [عَنْهُ]؛ بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللهِ حَقِيقَةً، فَإِنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لَا إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا. [وَهُوَ كَلَامُ اللهِ: حُرُوفُهُ، وَمَعَانِيهِ، لَيْسَ كَلَامُ اللهِ الْحُرُوفَ دُونَ الْمَعَانِي، وَلَا الْمَعَانِيَ دُونَ الْحُرُوفِ](١).

الشَّرْح

⊙ **قوله:** «وَلَا يَجُوزُ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللهِ، أَوْ عِبَارَةٌ...»: كما تقوله الأشاعرة والكلَّابية، فالأشاعرة يقولون: إن هذا الموجود المقروء عبارةٌ عن كلام الله، والكلابية يقولون: حكاية عن كلام الله، وبعض هؤلاء يقول: الخلاف لفظيٌّ لا طائل تحته.

فالأشاعرة والكلابية يقولون: القرآن نوعان: ألفاظٌ، ومعاني. فالألفاظ مخلوقةٌ وهي هذه الألفاظ الموجودة، والمعاني قديمةٌ قائمةٌ بالنفس وهي معنًى واحد لا تبعَّض فيه ولا تعدد، إن عبر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراةً، أو بالسريانية كان إنجيلًا، وهذا القول تصوره كافٍ بمعرفة بطلانه، وليس لهم دليلٌ ولا شبهةٌ إلا بيت ينسب للأخطل النصراني، وهو قوله:

إن الكـــلام لفـــي الفـــؤاد وإنمـــا ... جُعِـل اللســان علـى الفـؤاد دلــيلا

وهذا البيت إن ثبت فمعناه: إن الكلام من القلب، يخرج من القلب، ويعبر عنه

---

(١) زيادة من نسخة.

اللسان، وأما الكلام الذي في اللسان فقط، فهو يشبه كلام النائم والهاذي ونحوهما، وأدلة الكتاب والسنة ترد هذا القول، والذي يعقله العقلاء أن الكلام صفة المتكلم المسموع منه، وأن ما في النفس لا يسمىٰ كلامًا بوجه من الوجوه، كما في حديث: **«عُفي لأمَّتي عن الخطأ والنِّسيان وما حدَّثَت به أنفُسَها ما لم تعْمَلْ به أو تَتكَلَّمْ»**(١)، فهذا صريحٌ بأن ما حدثت به أنفسها ليس بكلام.

إلىٰ غير ذلك من الأدلة الدالة علىٰ بطلانه، وأيضًا: فإن الحكاية تماثل المحكي، فمن قال: إن القرآن حكاية كلام الله بهذا المعنىٰ؛ فقد ضل ضلالًا مبينًا، فإن القرآن لا يقدر أحدٌ علىٰ أن يأتي بمثله، ولا يقدر أحدٌ أن يأتي بما يحكيه، وأول من قال: إنه حكاية عن كلام الله: عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب.

وأما القول: بأنه عبارة عن كلام الله، كما هو قول الأشاعرة، فإنه يلزم عليه أن كلَّ تالٍ مُعَبِّرٌ عما في نفس الله، والمُعبِّر عن غيره هو المنشيء للعبارة، فيكون كل قارئ هو المنشيء لعبارة القرآن، وهذا معلوم الفساد بالضرورة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **في «الصواعق»**: وهذا المذهب مبني علىٰ مسألة إنكار قيام الأفعال الاختيارية بالله، ويسمونها مسألة حلول الحوادث، وحقيقتها إنكار أفعاله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وربوبيته ومشيئته(٢). انتهىٰ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٠٤٥)، وابن حبان (٧٢١٩)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في «المشكاة» (٦٢٨٤).

(٢) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة» (٤٩٨).

وأول من قال بالعبارة هو الأشعري، وهو قول باطل، كالقول بالحكاية، فإن الأدلة دلت علىٰ أن القرآن لفظه ومعناه كلام الله.

وأما القول بأن القرآن عبارة عن كلام الله أو حكاية؛ فهو مبتَدَعٌ باطل ترده الأدلة، ولم يقل أحدٌ من السلف بذلك.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: القرآن كيف تصرف فيه، فهو غير مخلوقٍ ولا نرىٰ القول بالحكاية والعبارة، وغلط من قال بهما وجهله، وقال: هذه بدعة لم يقل بها السلف(١).

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في «الفتح»: المنقول عن السلف اتفاقهم علىٰ أن القرآن كلام الله غير مخلوق، تلقاه جبريل عن الله، وبلغه جبريل إلىٰ محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبلغه محمد إلىٰ أمته(٢). انتهىٰ.

قال الله سبحانه: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ولم يقل ما هو عبارة عن كلام الله، والأصل الحقيقة، ومن قال: إن المكتوب في الصحف عبارة عن كلام الله أو حكاية عن كلام الله وليس فيها كلام الله، فقد خالف الكتاب والسنة وسلف الأمة، وكفىٰ بذلك ضلالًا! قال ابن القيم في «النونية»:

زعموا القُرَانَ عِبارةً وحكايةً ... قلنا كما زعموه قرآنِ
هذا الذي نتلوه مخلوق كما ... قال الوليد وبعده الفئتان

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٢/ ٥١٧).

(٢) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (١٣/ ٤٦٣).

والآخـــر المعنىٰ القـــديم فقـــائم بـــالنفس لـــم يُســـمع مـــن الـــديان
ودلـــيلهم في ذاك بيـــتٌ قالـــه فيمـــا يقـــال الأخطـــل النصـــراني

ولو كان ما في المصحف عبارةٌ عن كلام الله، وليس هو كلام الله لما حرم علىٰ الجُنب والمُحدِث مسُّه، ولو كان ما يقرأ القارئ ليس هو كلام الله لما حرم علىٰ الجنب، بل القرآن كلام الله؛ محفوظٌ في الصدور، ومقروء بالألسن مكتوبٌ في المصاحف، كما قال أبو حنيفة في «الفقه الأكبر» وغيره: وهو في هذه المواضع كلها حقيقة لا يصح نفيه، والمجاز يصح نفيه، فلا يجوز أن يقال: ليس في المصحف كلام الله، ولا ما قرأ القارئ كلام الله.

⊙ **قوله: «بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ...» إلخ:** قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٨]، وقال تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، وقال تعالىٰ: ﴿يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾ [البينة: ٢، ٣]، وفي حديث ابن عمر قال: «**نهىٰ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يسافر بالقرآن إلىٰ أرض العدو مخافة أن يُنال بسوء**»(١). وهذا الحديث رواه البخاري ومسلم، إلىٰ غير ذلك من الأدلة الدالة علىٰ أن القرآن كلام الله حقًّا حيث تلاه التالون أو حفظه الحافظون أو كتبه الكاتبون، وهو المعجزة بلفظه ومعناه.

⊙ **قوله: «فَإِنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ...» إلخ:** قال تعالىٰ: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، أي: مِن مُبَلِّغِهِ، فسماع كلام الرب وغيره ينقسم إلىٰ قسمين: مطلق، ومقيد:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٢٨)، ومسلم (١٨٦٩)، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

فالمطلق: ما كان بغير واسطة، كما سمع موسىٰ بن عمران كلام الرب، وكما يسمع جبريل وغيره كلامه سبحانه وتكليمه، ومنه قول الرسول: «**ما مِنكم من أحدٍ إلا سيُكَلِّمُه ربُّه ليس بينه وبينه تُرجُمانٌ**»(١).

وأما المقيد: فالسمع بواسطة المبلِّغ كسماع الصحابة، وسماعنا لكلام الله حقيقة بواسطة المبلِّغ عنه، ومنه قوله: ﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾، وكما في الحديث المتقدم أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ألا رجلٌ يَحملُني حتىٰ أبلِّغَ كلامَ ربي**»(٢)، وكما قال أبو بكر الصديق لما خرج علىٰ قريش: «فقرأ: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢﴾ [الروم: ١، ٢] الآية، فقالوا: هذا كلامك أو كلام صاحبك، فقال: ليس بكلامي ولا بكلام صاحبي، وإنما هو كلام الله». فبين أن ما يبلغه ويتلوه هو كلام الله، وإن كان يبلغه بأفعاله وصوته، والناس إذا سمعوا من يروي قصيدة أو كلامًا أو قرآنًا، قالوا: هذا كلام فلان(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٧٤)، ومسلم (١٠١٦)، وغيرهما من حديث عدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ١٨١، ١٨٢):

«فلهذا إذا قلنا: اللفظ الذي تلفظ به المُسمِع للقرآن مخلوق؛ فإن هذا القول يحتمل أن يكون المراد به الملفوظ، ويحتمل أن يكون المراد به التلفظ يعني الحركة؛ ولهذا امتنع السلف في هذه المسألة -مسألة اللفظ- عن أن يقولوا: إن لفظ القارئ بالقرآن مخلوق؛ لأن كلمة (لفظ) ككلمة (خلق) قد يُعنىٰ بها الملفوظ وربما يُعنىٰ بها التلفظ، فكلمة (خلق) كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١١] يعني: هذا مخلوق الله، وتأتي ويُراد بها صفة من صفاته، يعني: =

⊙ **قوله:** «وَهُوَ كَلامُ الله»: لأنه هو الذي ألَّفه وأنشأه، وأما قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾ [الحاقة: ٤٠] الآية، فإضافته إليه إضافة تبليغٍ، لا إضافة إنشاء وابتداء، فإنه قال: قول رسول، ولم يقل: قول ملَك ولا نبي، فإن الرسول يبلغ كلام مرسِله.

وأيضًا، فقوله: أمين[1]، دليلٌ علىٰ أنه لا يزيد ولا ينقص، بل هو أمينٌ علىٰ ما أرسل به يبلغه عن مرسله، وأيضًا، فإن الله كَفَّر من جعله قول البشر، ومحمدٌ بشر، فمن جعله قول محمد بمعنىٰ: أن محمدًا أو غيره أنشأه فقد كفر، وما ذكر الله في القرآن عن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وغيره وعن فرعون وإبليس، فإن ذلك الكلام كلام الله إخبارًا عنهم، وكلام موسىٰ وغيره من المخلوقين مخلوق، والقرآن كلام الله لا كلامهم.

⊙ **قوله:** «وَهُوَ كَلامُ الله: حُرُوفُهُ، ومَعَانِيهِ»: ليس شيءٌ منه كلامًا لغيره لا

=

تخليق الله عَزَّوَجَلَّ، فمثل كلمة (اللفظ) و(الخلق) تأتي ويُراد بها المفعول، وتأتي ويُراد بها المصدر: الحدث. لهذا نقول في مسألة القراءة من جهة المسموع: إذا تلفظ به القارئ فإنه لا يُخرجه عن كونه كلام الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يجوز أن يُقال: إن اللفظ أخرجه عن أن يكون قرآنًا بل هو لفظ، يعني: تلفظ بالقرآن فأسمعنا القرآن، ولهذا من قال: إن لفظه بالقرآن مخلوق. فهو مُبتدع، ومن قال: إن لفظه بالقرآن غير مخلوق. فهو -أيضًا- مبتدع، إلا في مقام التفصيل؛ فإن اللفظ يُعنىٰ به تارة الملفوظ وهذا غير مخلوق، ويُعنىٰ به تارة فعل العبد الذي هو التلفظ وهذا مخلوق» اهـ.

(١) يشير الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣﴾ [الشعراء: ١٩٣] وقد أوضح الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ المسألة بأشمل من ذلك عند شرحه لقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ ﴾ [النحل: ١٠٢]، انظر: (ص ٣٨٢، وما بعدها).

لجبريل ولا لمحمد ولا لغيرهما، بل قد كفَّر الله من جعله قول البشر، ولم يقل أحدٌ من السلف: إن جبريل أحدث ألفاظه ولا محمد، ولا أن الله خلقها في الهواء أو غيره من المخلوقات، ولا أن جبريل أخذها من اللوح المحفوظ، إلىٰ غير ذلك من الأقوال المبتدَعة.

بل أهل السنة يقولون: إن القرآن عيْنُ كلام الله حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف، عكس ما عليه أهل البدع من المعتزلة والأشاعرة والكلابية وغيرهم؛ لأن كلام المتكلم هو عبارة عن ألفاظه ومعانيه، وعامة ما يوجد في الكتاب والسنة وكلام السلف، فإنه عند إطلاقه يتناول اللفظ والمعنىٰ جميعًا لشموله لهما، فلفظ القول والكلام وما تصرَّف منهما من فعل ماضٍ ومضارع وأمر ونحو ذلك إنما يُعرف في القرآن وسائر كلام العرب إذا كان لفظًا ومعنىٰ.

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والصواب الذي عليه السلف والأئمة: أن الكلام حقيقة في اللفظ والمعنىٰ، كما أن الإنسان حقيقة في البدن والروح، فالنزاع في الناطق كالنزاع في منطقه[(١)]. انتهىٰ.

والدليل علىٰ أنه حروف: حديث ابن مسعود أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن قرأ القرآنَ فأعْرَبَه فله بكلِّ حرف عشرُ حَسَنات**»[(٢)]، وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) انظر: «جامع المسائل لابن تيمية» (٥/ ١٢٥).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٥٧٤)، وقال الهيثمي (المجمع: ٧/ ٣٣٩): «رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه نَهْشَل وهو متروك».

«اقرءوا القرآنَ قبل أن يأتي قومٌ يُقيمون حروفَه إقامةَ السَّهم لا يُجاوز تراقِيَهم؛ يتعَجَّلون آخِرَه ولا يتأَجَّلُونَه»[١]، رواه بنحوه أحمد، وأبو داود، والبيهقي في «سننه»، والضياء المقدسي في «المختارة» عن جابر.

وقال أبو بكر وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه، وقال علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: من كفَر بحرف منه فقد كفر به كله.

واتفق المسلمون علىٰ عدد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه، ولا خلاف بين المسلمين في أن من جحد من القرآن سورةً أو آيةً أو كلمةً أو حرفًا متفقًا عليه أنه كافر، وفي هذا حجة قاطعة علىٰ أنه حروف[٢]. انتهىٰ.

⊙ **قوله:** «لَيْسَ كَلَامُ اللهِ الْحُرُوفَ...» إلخ: فالقرآن كلام الله حروفه ومعانيه، ليس كلام الله الحروف دون المعاني، كما يقوله بعض المعتزلة، ولا المعاني فقط دون الحروف، كما هو قول الأشاعرة ومن شابههم، وكلا القولين باطلٌ مخالفٌ للكتاب والسنة وما عليه سلف الأمة، فإن الأدلة دلت علىٰ أن القرآن العزيز الذي هو سورٌ وآياتٌ وحروفٌ وكلماتٌ عيْن كلامه سبحانه، لا تأليف ملَك ولا بشر، وأن القرآن جميعه حروفه ومعانيه نفس كلامه، والذي تكلم به، وليس بمخلوق، ولا بعضه قديم، وهو المعنىٰ، وبعضه مخلوق، وهو الكلمات والحروف، بل القرآن جميعه حروفه ومعانيه تكلم الله به حقيقة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٨٣٠)، والطبراني (٦/ ٢٠٦) واللفظ له، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٧٤٠).

(٢) انظر: «لمعة الاعتقاد» (٢١).

والقرآن اسمٌ لهذا النظم العربي الذي بلغه الرسول عن جبريل عن رب العالمين.

قال تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النحل: ٩٨]، وإنما يقرأ القرآن العربي لا يقرأ معانيه المجردة[(١)]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] الآية، فأبطل سبحانه قول الكفار بأن لسان الذي يلحدون إليه أعجمي، والقرآن لسانٌ عربيٌّ مبين، فلو كان الكفار قالوا: يعلِّمه معانيه فقط، لم يكن هذا ردًّا لقولهم، فإن الإنسان قد يتعلم من الأعجمي شيئًا بلغة ذلك العجمي ويعبر عنه بعباراته، وإذا كان الكفار جعلوا الذي يعلمه بشر، فأبطل الله ذلك بأن لسان ذلك أعجمي، وهذا لسان عربي مبين، علىٰ أن روح القدس نزل باللسان العربي المبين، وأن محمدًا لم يؤلف نظم القرآن، بل سمعه من روح القدس، وإذا كان روح القدس نزل من الله عُلم أنه سمعه ولم يؤلفه هو[(٢)]. انتهىٰ.

◈ ◈ ◈

---

(١) جاءت في الأصل «المحدودة»، والصواب ما أثبتناه من المصدر المذكور.

(٢) هذا الكلام من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٢/ ١٢٣).

وَقَد دَخَلَ -أَيْضًا- فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِرُسُلِهِ: الإِيمَانُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ: كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ، وَكَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ وَلَا يُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ(١).

يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَهُو(٢) فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ، كَمَا يَشَاءُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الشَّرْح

⊙ **قوله:** «وَقَد دَخَلَ -أَيْضًا- فِيمَا ذَكَرْنَاهُ...» إلخ: أي: قد دخل في الإيمان بالله وبكتبه وملائكته ورسله: الإيمان بأن المؤمنين يرونه سبحانه يوم القيامة، فمن لم يؤمن بأنه سبحانه يرىٰ يوم القيامة فقد ردَّ أدلة الكتاب والسنة وخالف ما عليه سلف الأمة وأئمتها ولم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله.

قال أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: من لم يقل بالرؤية فهو جهمي، وقال أبو داود: سمعت الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: من قال: إن الله لا يُرىٰ في الآخرة فهو كافر، وقال: من زعم أن الله لا يُرىٰ في الآخرة؛ فقد كفر بالله وكذَّب بالقرآن وردَّ علىٰ الله أمره؛ يستتاب، فإن تاب وإلا قتل(٣).

وقال ابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ: إن المؤمنين يرون ربهم خالقهم يوم المعاد، ومن أنكر

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣)، وغيرهما من حديث جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) في نسخة: «وهم».

(٣) انظر: «طبقات الحنابلة» (١/ ٥٩، ١٤٩).

ذلك فليس بمؤمن عند المؤمنين(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: دلَّ الكتاب والسنة المتواترة وإجماع الصحابة وأئمة أهل الإسلام والحديث على أن الله يرىٰ يوم القيامة بالأبصار عَيانًا، كما يرىٰ القمر ليلة البدر، وكما ترىٰ الشمس صحوًا، فإن كان لما أخبر الله به ورسوله حقيقة -وإن له والله حق الحقيقة- فلا يمكن أن يروه إلا من فوقها؛ لاستحالة أن يروه من أسفل منهم أو ورائهم أو قدامهم ونحو ذلك، ولا يجتمع في قلب عبد اطلع على هذه الأحاديث وفهِم معناها إنكارها والشهادة بأن محمدًا رسول الله أبدًا(٢). اهـ.

⊙ **قوله**: «بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ»: كما تواترت بذلك الأدلة، وهذا بخلاف الكفار فإنهم لا يرونه سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥].

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لما أن حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليلٌ على أن أولياءه يرونه في حال الرضا(٣).

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا الذي قاله الإمام الشافعي في غاية الحسن، وهو استدلال بمفهوم هذه الآية، كما دل عليه منطوق قوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، وكما دلت على ذلك الأحاديث المتواترة في رؤية المؤمنين لربهم في الدار الآخرة بالأبصار في عَرَصات القيامة وفي روضات

---

(١) انظر: «التوحيد» لابن خزيمة (٢/ ٥٨٥).

(٢) انظر: «حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح» (٣٤٢).

(٣) انظر: «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٢/ ٥٠٦).

الجنات الفاخرة[١]. اهـ.

⊙ **قوله:** «**يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»: إشارةٌ للرد على من زعم: أنه سبحانه يُرى في الدنيا، كما يقوله بعض المتصوفة، وهذا باطلٌ ترده الأدلة، كما في «صحيح مسلم» من حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه سأل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: هل رأى ربه؟ فقال: «**نُورٌ أَنَّى أَراه؟!**»[٢] أي: حالت بيني وبين رؤيته الأنوار. وقالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: من حدثك أن محمدًا رأى ربه فقد كذب[٣]، وفي «صحيح مسلم» مرفوعًا: «**واعْلمُوا أنَّكم لن تروا ربَّكم حتى تموتوا**»[٤].

وقال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُٱللَّهُ: أهل السنة متفقون على أن الله سبحانه لا يراه أحدٌ بعينه في الدنيا: لا نبي ولا غير نبي، وإنما يروى ذلك بإسنادٍ موضوعٍ باتفاق أهل المعرفة[٥].

⊙ **قوله:** «**عِيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ**»: كما في حديث جرير وغيره، وقوله: «عِيانًا» بكسر العين من قولك: عاينت الشيء عِيانًا؛ إذا رأيته بعينك، أي: ترونه رؤية محققة لا خفاء فيها.

---

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٨/ ٣٤٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٨)، والترمذي (٣٢٨٢)، وغيرهما من حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٩٤٥)، وغيره من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣٢٤)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ولم أقف عليه عند مسلم.

(٥) انظر: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (٢/ ٦٣٦).

قال ابن القيم: وقوله: «عيانًا» تحقيقًا للرؤية ونفيًا لتوهم المجاز الذي يظنه المعطلون(١). اهـ.

⊙ **قوله:** «كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا...» إلخ: كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة، أن أناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرىٰ ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هل تُضارُّون في رُؤيةِ القَمر ليلةَ البَدر؟**» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «**هل تُضارُّون في رؤيةِ الشَّمسِ ليس دونها سَحابٌ؟**»، قالوا: لا، قال: «**فإنَّكم تَرونَه كذلك**»(٢)، وتقدم حديث جرير، إلىٰ غير هذه الأحاديث التي بلغت حد التواتر، والتي يجزم من أحاط بها علمًا أن الرسول ﷺ قالها، فهذه الأحاديث فيها إثبات الرؤية والرد علىٰ الأشاعرة والقائلين: بأنه سبحانه يرىٰ من غير مواجهة ومعاينة.

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله: وهذا قول انفردوا به دون سائر طوائف الأمة، وجمهور العقلاء علىٰ أن فساد هذا معلومٌ بالضرورة(٣).

⊙ **قوله:** «صَحْوًا»: أي: ذات صحو، أي: انقشع عنها الغيم.

⊙ **قوله:** «كَمَا يَرَوْنَ...» **إلخ:** هذا تشبيه للرؤية بالرؤية، فإن الكاف: حرف تشبيه دخل علىٰ الرؤية، ولم يشبِّه المرئي، فإنه سبحانه لا شبيه له ولا مثيل ولا نظير.

⊙ **قوله:** «وَلَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ»: **قال في «النهاية»:** يروىٰ بالتشديد

---

(١) انظر: «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٣/ ٥٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٠٤)، ومسلم (١٨٢)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوي» (١٦/ ٨٤).

والتخفيف، فالتشديد معناه: لا ينضم بعضكم إلىٰ بعض، وتتزاحمون وقت النظر إليه، ويجوز ضم التاء وفتحها، ومعنىٰ التخفيف: لا ينالكم ضيم في رؤيته، فيراه بعضكم دون بعض، والضيم: الظلم(١).

وأما من زعم: أن الخبر يدل علىٰ أنهم يرونه لا في جهة؛ فهذا تفسير باطل لم يقله أحد من أئمة أهل العلم، بل هو تفسيرٌ منكر، فإن الحديث يدل صراحةً علىٰ أنه سبحانه يتجلىٰ تجليًا ظاهرًا، فيرونه كما تُرىٰ الشمس والقمر بلا ضيم يلحقهم في رؤيته علىٰ هذه الرواية، وعلىٰ الرواية الأخرىٰ معناه: لا ينضم بعضكم إلىٰ بعض، كما يتضام الناس عند رؤية الشيء الخفي كالهلال. انتهىٰ من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية(٢).

⊙ **قوله: «يَرَوْنَهُ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ»**: كما في «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفي أفراد مسلم عن جابر في حديثه: «**إنَّ اللهَ يَتَجَلَّىٰ للمُؤمنين**»(٣)، يعني: في العرصات.

⊙ **قوله: «العَرَصَات»**: جمع عَرْصَة، وهي: كل موضعٍ واسعٍ لا بناء فيه، وعَرْصة الدار وسطها، وعَرَصات القيامة: مواقف الحساب والعرض وغير ذلك. ويرونه بعد دخول الجنة، كما في حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بَينا أهلُ الجنة في نَعيمِهم؛ إذ سَطَعَ لهم نورٌ فرَفَعوا أبصارَهم، فإذا**

---

(١) انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٣/ ١٠١).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوي» (١٦/ ٨٦).

(٣) أخرجه مسلم (١٩١) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الرَّبُّ جَلَّجَلَالُهُ قد أشْرَف عليهم مِن فَوقِهم، فقال: السَّلامُ عَليكم يا أهلَ الجنَّة»[(١)]، وهو قول الله سبحانه: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ [يس: ٥٨]، فلا يلتفتون إلىٰ شيء مما هم فيه من النعيم ماداموا ينظرون إليه حتىٰ يحتجب عنهم، وتبقىٰ بركته ونوره، رواه ابن ماجه وغيره.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ففي هذا الحديث إثبات صفة الكلام، وإثبات الرؤية، وإثبات العلو، والمعطلة تنكر هذه الثلاثة وتكفر القائل بها. اهـ[(٢)].

وأما ما استدل به المعتزلة وغيرهم من نفاة الرؤية من قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، وقوله لموسىٰ: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فالجواب: أن الآية الأولىٰ هي علىٰ جواز الرؤية أدل منها علىٰ امتناعها، فإن الله -سبحانه- إنما ذكرها في سياق التمدح، ومعلومٌ أن المدح إنما يكون بالأوصاف الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمالٍ ولا يمدح به، فلو كان المراد بكونه: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أنه لا يرىٰ بحال لم يكن في ذلك مدحٌ ولا كمالٌ لمشاركة المعدوم له في ذلك، فإن العدم الصرف لا يرىٰ، ولا تدركه الأبصار، والرَّبُّ -سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ جَلَّجَلَالُهُ- يتعالىٰ أن يمدح بما يشاركه فيه العدم المحض، فإذًا المعني: إنه يرىٰ ولا يدرك ولا يحاط، فقوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ يدل علىٰ غاية عظمته، وأنه أكبر من كل شيء، وأنه لعظمته لا يدرك بحيث يحاط به، فإن

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٨٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٠٩)، وغيرهما من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٣٦٣).

(٢) انظر: «حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح» (٢٤٣).

الإدراك هو: الإحاطة بالشيء، وهو قدرٌ زائدٌ علىٰ الرؤية، كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢]، فلم ينف موسىٰ الرؤية، ولم يريدوا بقولهم: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: ٦١]: إنا لمرئيون، فإن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ نفىٰ إدراكهم إياهم بقوله: كلا، وأخبر أنه لا يخاف دركهم بقوله: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: ٧٧].

فالرؤية والإدراك كل منهما يوجد مع الآخر وبدونه، فالرب يرىٰ ولا يدرك كما يُعلم ولا يُحاط به، وهذا الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية. قال ابن عباس: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]: لا تحيط به، وقال قتادة: هو أعظم من أن تدركه الأبصار. انتهىٰ ملخصًا، من «حادي الأرواح»(١).

وأجاب بعضهم بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، أي: في الدنيا، وبأن نفي الإدراك لا يستلزم نفي الرؤية؛ لإمكان رؤية الشيء من غير إحاطة بحقيقته، والجواب عن الاستدلال بقوله لموسىٰ: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣]: استدلال فاسد، والآية حجة عليهم، فإنها دالةٌ علىٰ الرؤية من وجوه:

أحدها: أنه لا يظن بموسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يسأل ربه ما لا يجوز عليه.

الثاني: أنه لم ينكر عليه سؤاله، ولو كان محالًا لأنكره عليه.

الثالث: أنه أجابه بقوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، ولم يقل: إني لا أُرىٰ، أو لا تجوز رؤيتي، فهذا يدل علىٰ أنه يُرىٰ، ولكن موسىٰ لا تحتمل قواه رؤيته في هذه الدار لضعف قوة

---

(١) انظر: «حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح» (٢٩٤).

البشر فيها عن رؤيته تعالىٰ، إلىٰ غير ذلك من الوجوه الدالة علىٰ أن الآية فيها إثبات الرؤية، وليست دالة علىٰ نفيها، كما يقوله المعتزلة وأشباههم في إثبات الرؤية، هذا مع ما جاء من الأحاديث الدالة علىٰ إثبات الرؤية، والتي تلقاها المسلمون بالقبول من لدن الصحابة والتابعين حتىٰ حدث من أنكر الرؤية وخالف السلف(١).

⊙ **قوله**: «كَمَا يَشَاءُ اللهُ»: أي: من غير إحاطة ولا تكييف، كما نطق بذلك الكتاب وفسرته السنة علىٰ ما أراد الله سبحانه وعلمه، وكل ما جاء في الكتاب والسنة، فهو كما قال: معناه علىٰ ما أراد، ولا ندخل في ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا، كما قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ: آمنت بالله علىٰ ما جاء من عند الله علىٰ مراد الله، وآمنت برسول

---

(١) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ١٠٣، ١٠٤)**:

«فالمؤمنون يرون الله في عرصات يوم القيامة قبل أن يدخلوا الجنة؛ كما قال الله تعالىٰ عن المكذبين بيوم الدين: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، ﴿يَوْمَئِذٍ﴾؛ يعني: يوم الدين، ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطففين: ٦]، ويرونه كذلك بعد دخول الجنة.

أما في عرصات القيامة؛ فالناس في العرصات ثلاثة أجناس:

١ - مؤمنون خُلَّص ظاهرًا وباطنًا.

٢- وكافرون خُلَّص ظاهرًا وباطنًا.

٣- ومؤمنون ظاهرًا كافرون باطنًا، وهم المنافقون.

فأما المؤمنون؛ فيرون الله تعالىٰ في عرصات القيامة وبعد دخول الجنة، وأما الكافرون؛ فلا يرون ربهم مطلقًا، وقيل: يرونه؛ لكن رؤية غضب وعقوبة، ولكن ظاهر الأدلة يدل علىٰ أنهم لا يرون الله؛ كما قال الله تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

وأما المنافقون؛ فإنهم يرون الله عَزَّ وَجَلَّ في عرصات القيامة، ثم يحتجب عنهم، ولا يرونه بعد ذلك» اهـ.

الله، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١)(٢).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٦/ ٣٥٤).

(٢) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ١٩٤-١٩٧):

«وهذه المسائل عظيمة جدًّا، وهي: مسألة الرؤية، ومسألة الإيمان بالقرآن، ومسألة الصفات، وهذه كلها ينبعث معها العمل؛ لأن من أيقن بأن القرآن كلام الله العظيم الجليل لابد له من عمل بعد ذلك؛ لأن الإيمان هو قولٌ وعمل، وكل ركن من أركان الإيمان يبعث علىٰ العمل، فليست اعتقادات لاهُوتيَّة مُجردة، يعني: لا عمل معها، واعتقادات عقلية، كذلك الإيمان بالرؤية ليس اعتقادًا لا عمل معه؛ فإن اعتقاد أهل السنة والجماعة هو مبعث للعمل؛ لهذا الإيمان إذا كان في مرتبة الاعتقاد فإنه يبعث مباشرة علىٰ العمل والمقال الصالح.

فإذا ثَمَّ تلازُم بين أركان الإيمان الثلاثة: القول والعمل والاعتقاد؛ فإن الاعتقاد إذا وُجد لزم منه صواب العمل وصحة العمل، ولزم منه صحة وصواب القول؛ ولهذا لا يُظنن أن أهل السنة حين يبحثون هذه المسائل يبحثونها بحثًا لاهوتيًّا مُجردًا أو فلسفيًّا أو عقليًّا، وإنما يبحثونها لأن فيها التسليم لنصوص الكتاب والسنة، فإذا أيقنت أن القرآن كلامه فما ثَمَّ إذًا إلا اتباع القرآن والاستجابة لما جاء في الكتاب، وإذا أيقنت بأن المؤمنين يرون ربهم عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة، وأن المنافقين والكفار لا يرونه، وأن من دخل الجنة رأىٰ ربه عَزَّوَجَلَّ وهذا أعلىٰ النعيم، حض ذلك علىٰ حُسن العمل وعلىٰ تصفية القلب من كون غير الله عَزَّوَجَلَّ فيه؛ لأن أعظم ما يُصاب به العباد من جهة أن يكون في قلوبهم غير الله عَزَّوَجَلَّ، فإذا كان في القلب حب الدنيا، وحب الملذات، وحب الشهوات، وحب الجاه، وحب الشهرة، وحب المال، خرج بعض التوحيد، وأصيب العبد من مقاتله.

أما إذا كان المرء يوطن نفسه ويُجاهد علىٰ أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ في قلبه، وليس في قلبه إلا ربه عَزَّوَجَلَّ؛ فإنه حاز في ذلك قصب السبق؛ ولهذا جاء في الأثر: «ما وسعتني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن»؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ خص ابن آدم بأن قلبه يمكن أن يكون =

وَمِنَ الإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الآخِرِ: الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَبِنَعِيمِهِ.

= عالمًا بالله عَزَّ وَجَلَّ على قدر ما يحتمله القلب، والقلب يسع الإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ الكامل، والله عَزَّ وَجَلَّ آثار أسمائه وصفاته جميعها عجزت عنها السماوات والأرض؛ لهذا بعضها في السماوات، وبعضها في الأرض، وبعضها في الملائكة، وبعضها في الناس... ولكن قلب المؤمن يُدرك ذلك ويعلم آثار أسماء الله عَزَّ وَجَلَّ وصفاته. وهذا بابٌ واسع من آثار العقيدة الصحيحة، وقد لا يُدركه طالب العلم أول ما يبدأ في دراسة العقيدة، ولكن متى يبدأ يحس بذلك ويُدركه، وخاصةً آثار الأسماء والصفات، وآثار الاعتقاد في القلب حيث يشعر بعظم هذه العقيدة متى ما أَلِفَها، وهذا الإِلْف يكون بكثرة الترداد عليها؛ لأنه في أول طلب العلم يسعى لتصور الاعتقاد من حيث هو، وفهم أدلته واستيعابه، ثم إذا صار الاعتقاد نظر في الأدلة وأقوال المخالفين... إلى آخره.

ثم إذا ارتقى في العلم وصار ثابتًا ولا يحتاج إلى مُجاهدة؛ فإنه يحس بأنه ينتقل إلى أثر هذا الاعتقاد، وليس بمجاهدة وإنما يوجد هذا في قلبه، ولكن هذا بعد مجاهدة النفس بالاستمرار على تعلم العقيدة؛ لهذا بعض الناس يقول: إن بعض طلبة العلم وبعض المشايخ مثلًا يُكثرون من تكرار العقيدة، فإلى متى يستمرون في تكرارها؟

وهذا له أجوبة كثيرة وأوجه مُتعددة من جهة واقع الناس وحاجتهم إلى الاعتقاد لصحة القلوب، لكن له جهة أخرى يُغفل عنها، وهي جهة حاجة المعلم إلى هذا الاعتقاد، المعلم الذي يُعلم إذا كرَّر هذا الاعتقاد وبيَّن أدلته وفصَّله؛ فإنه بهذا التكرير يكون على حال من الثبات ومن القرب مما يُرغب فيه، والقرب من الله عَزَّ وَجَلَّ وحُسن الظن به عَزَّ وَجَلَّ والاعتقاد والعلم به عَزَّ وَجَلَّ ما لا يمكن أن يكون عليه لو تُرك.

فإذًا تكرير الاعتقاد مصلحته للسامع، ومصلحته للمعلم وللمتعلم، وكلٌّ يأخذ منه بدرجته، ويتأثر بمقامه» اهـ.

فَأَمَّا الْفِتْنَةُ: فَإِنَّ النَّاسَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ فَـ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: اللهُ رَبِّي، وَالإِسْلَامُ دِينِي، وَمُحَمَّدٌ نَبِيِّي.

وَأَمَّا الْمُرْتَابُ فَيَقُولُ: آه آه(١)، لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُه، فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَّةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ؛ لَصَعِقَ(٢).

ثُمَّ بَعْدَ هَذِهِ الْفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ، إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبْرَى، فَتُعَادُ الْأَرْوَاحُ إِلَى الْأَجْسَادِ.

• الشَّرح •

⊙ **قوله:** «الإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الآخِرِ»: الذي هو أحد أصول الإيمان الستة المذكورة في حديث عمر وغيره، والمراد بالإيمان به: التصديق بما يقع من الحساب والميزان، والجنة والنار، وغير ذلك، وسمي باليوم الآخر لتأخره عن الدنيا(٣).

---

(١) هكذا هنا، وفي «أبي داود» و«المسند»: «هاه هاه»، وعند البقية: «لا أدري».

(٢) يشير لما أخرجه البخاري (١٣٧٤)، ومسلم (٢٨٧٠)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويشير -أيضًا- إلىٰ حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي أخرجه أبو داود (٤٧٥٣)، واللفظ له، وأحمد (٤/ ٢٨٧، ٢٨٨)، وغيرهما، وقد صححه العلامة الألباني وساقه سياقًا واحدًا، وضم إليه جميع الزوائد والفوائد التي وردت في طرقه الثابتة وذلك في كتابه النافع «أحكام الجنائز» (ص ١٥٦-١٥٩).

(٣) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ١٠٦، ١٠٧):**
«وسمي اليوم الآخر باليوم الآخر؛ لأنه يوم لا يوم بعده؛ فهو آخر المراحل:
والإنسان له خمس مراحل: مرحلة العدم، ثم الحمل، ثم الدنيا، ثم البرزخ، ثم الآخرة.
=

⊙ **قوله: «الإيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخبرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِمَا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ»:** أي: من فتنة القبر وعذابه ونعيمه، وكونه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة، وتوسيعه على بعض وتضييقه على بعض وضغطه ونحو ذلك، وإعادة الروح إلى الميت، فيؤمنون بما يقع في البرزخ مما وردت به الأدلة.

والبرزخ لغة: الحاجز بين الشيئين، كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ [الفرقان: ٥٣]، أي: حاجز.

=

فأما مرحلة العدم، فقد دل عليها قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ١﴾ [الإنسان: ١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ٥﴾ [الحج: ٥].

وأما مرحلة الحمل، فقال الله عنها: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزمر: ٦].

وأما مرحلة الدنيا، فقال الله عنها: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٧٨﴾ [النحل: ٧٨].

وهذه المراحل هي التي عليها مدار السعادة والشقاء، وهي دار الامتحان والابتلاء، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ٢﴾ [الملك: ٢].

وأما مرحلة البرزخ، فقال الله عنها: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ١٠٠﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وأما مرحلة الآخرة، فهي غاية المراحل، ونهاية الراحل؛ قال الله تعالى بعد ذكر المراحل: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ١٦﴾ [المؤمنون: ١٥، ١٦]» اهـ.

وفي الشرع: البرزخ: مِن وقت الموت إلىٰ القيامة، من مات دخله، وسمىٰ برزخًا لكونه يحجز بين الدنيا والآخرة.

⊙ **قوله:** «**بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ**»:

الفتنة لغة: الامتحان والاختبار، والفتانان: منكرٌ ونكير، ويريد بفتنة القبر مسألة منكرٍ ونكير، ويجب الإيمان بذلك؛ لثبوته عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عدة أخبار يبلغ مجموعها حد التواتر.

⊙ **قوله:** «**وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَبِنَعِيمِهِ**»: تواترت الأخبار عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثبوت عذاب القبر، ولمن كان أهلًا لذلك، فيجب اعتقاد ذلك والإيمان به ولا يتكلم في كيفيته؛ إذ ليس للعقل وقوفٌ علىٰ كيفيته؛ لكونه لا عهد له به في هذه الدار، وعلىٰ هذا درج السلف الصالح، وأنكره الخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة.

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تواترت الأحاديث عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في عذاب القبر(١).

ففي «**الصحيحين**» عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: سألت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن عذاب القبر قال: «**نَعَم، عَذابُ القَبر حَقٌّ**»(٢)، وفي «صحيح مسلم» عن ابن عباس عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن: «**اللَّهم إني أعوذُ بك من عذاب جهنَّمَ، وعذاب القَبر، وأعوذ بك مِن فِتنة المَحيا والمَمات، وأعوذُ بك مِن فِتنة المَسيح الدَّجال**»(٣)، وفي «الصحيحين» من حديث ابن

---

(١) انظر: «روائع التفسير» (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي) (٢/ ٣٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٦)، ومسلم (٥٨٤)، وغيرهما من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٣) أخرجه مسلم (٥٩٠)، وأبو داود (١٥٤٢)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: مر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقبرين، فقال: «**إنهما ليُعَذَّبان وما يُعذَّبان في كبير**»، ثم قال: «**بلى، إنه كبيرٌ، أمَّا أحدُهما فكان لا يَسْتَتِرُ مِن البول، وأما الآخَرُ فكان يَمشي بالنَّميمة**»(١).

وقال المروذي: قال أبو عبد الله أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ: عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال مضل(٢). اهـ.

وعذاب القبر على الروح والبدن.

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللَّهُ: العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعًا باتفاق أهل السنة والجماعة(٣).

⊙ **قوله: «فَإِنَّ النَّاسَ يُفْتَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ...»: أي:** بأن تعاد إليهم أرواحهم، كما في حديث البراء وغيره، فتعاد إليه روحه إعادةً غير الإعادة المألوفة في الدنيا؛ ليُسأل ويُمتحن في قبره. انتهى.

وهذا الرد إعادةٌ خاصة توجب حياة البدن قبل يوم القيامة.

فإن الروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق متغايرة الأحكام:

أحدها: تعلقها به في بطن الأم جنينًا.

الثاني: تعلقها به بعد خروجه إلى الأرض.

---

(١) أخرجه البخاري (٢١٥)، ومسلم (٢٩٢)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: «لوامع الأنوار البهية» (٢/ ٢٣).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٨٢).

الثالث: تعلقها به حال النوم، فلها تعلق به من وجه ومفارقة من وجه.

الرابع: تعلقها به في البرزخ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقًا كليًّا.

الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد، وهذا أكمل أنواع تعلقها بالبدن، انتهىٰ من كتاب «الروح»(١).

⊙ **قوله: «فَيُقَالُ لِلرَّجُلِ»: أي**: للإنسان من رجلٍ وامرأة وغيرهما ممن وردت الأدلة أنه يمتحن في قبره، أي: يقوله له الملكان واسمهما (المنكر والنكير) نص علىٰ ذلك أحمد، وفي حديث أبي هريرة: «**يأتِيه مَلَكَان أسودان أزْرَقان، يقال لأحدهما: المُنكر، وللآخر: النَّكير**»(٢) رواه ابن حبان والترمذي، وفي رواية ابن حبان: «**يُقال لهما: مُنكَر ونكِير**»(٣).

وقوله «منكر»: مُفعَل، و«نكير»: فعيل بمعنىٰ: مفعول مِن أنكر، وكلاهما ضد المعروف، وسُمِّيا به لأن الميت لم يعرفهما ولم ير صورة مثل صورتهما، وظاهر هذا ومقتضي الأحاديث: استواء الناس في اسمهما، وذكر بعض العلماء أن اللذين يسألان المؤمن اسمهما: البشير والمبشر، والأول هو الصحيح.

---

(١) انظر: «الروح» (٤٣).

(٢) أخرجه الترمذي (١٠٧١)، وابن حبان (٣١١٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٤).

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢٧٠٣)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

⊙ **قوله:** «فَيُقَالُ للرَّجُلِ: مَنْ رَبُّكَ...» إلخ: كما أخرج الشيخان من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [إبراهيم: ٢٧] الآية: «**نزلت في عذاب القبر**»، زاد مسلم: «**فيُقال له: مَن رَبُّك؟ فيقول: ربِّي الله، وَنَبِيِّي مُحمَّد**»، فذلك: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ الآية[(١)].

وفي «الصحيحين» من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن العبد إذا وُضع في قبره وتولىٰ عنه أصحابه، وإنه ليَسمع قَرْعَ نِعالِهم، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال له: انظر مقعدك من النار، وقد أبدلك الله به مقعدًا من الجنة، قال: فيراهما جميعًا** -يعني: المقعدين. قال قتادة: ذُكر لنا أنه يفسح له في قبره- **وأما المنافق والكافر، فيقال له: ما تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت، ولا تليت، ويضرب بمطراقٍ من حديد ضربةً فيصيح صيحةً يسمعه من يليه غير الثقلين**»[(٢)].

⊙ **قوله:** «فَإِنَّ النَّاسَ يُفْتَنُونَ...» إلخ: ظاهره أن السؤال في القبر عام للمؤمن والفاسق والكافر، كما اختاره الشيخ تقي الدين وابن القيم وجمهور العلماء، خلافًا لابن عبد البر حيث قال: لا يسأل إلا مؤمن أو منافق كان منسوبًا لدين الإسلام بظاهر

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٢٨٧١)، وغيرهما من حديث البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (١٢٧٣)، ومسلم (٢٨٧٠)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الشهادة، بخلاف الكافر[١]، والكتاب والسنة تدل على هذا القول، قال الله تعالى: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وفي البخاري: «وأمَّا الكافرُ والمُنافِقُ فيقول: لا أَدْرِي»[٢] بالواو، ورجحه -أيضًا- ابن حجر.

ويفيد أيضًا: أن السؤال عامٌّ للأمم كلها ليس خاصًّا بهذه الأمة، كما اختاره ابن القيم وعبد الحق الإشبيلي وغيرهم، وجزم به القرطبي، وقال الحكيم الترمذي: إنه خاصٌّ بهذه الأمة، وتوقف ابن عبد البر.

ويستثنى مما تقدم: المرابط في سبيل الله، فقد صح أنه لا يفتن في قبره[٣]، كما في «صحيح مسلم» وغيره، وكشهيد المعركة، والصابر في الطاعون، وغير هؤلاء مما جاء في الأحاديث.

⊙ **قوله: «فِي قُبُورِهِمْ»**: وكذا مَن لم يدفن من مصلوبٍ ونحوه يناله نصيبه من فتنة السؤال وضغطة القبر.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في كتاب «الروح»**: ومما ينبغي أن يُعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحقٌّ للعذاب ناله نصيبه من ذلك قُبِرَ أو لم يقبر، فلو أكلته السباع، أو أحرق حتى صار رمادًا، أو نسف في الهواء، أو غرق في

---

(١) ذكره ابن عبد البر في «التمهيد» (٢٢/ ٢٥٢).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٣) من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الترمذي (١٦٢١)، وأحمد (٦/ ٢٠)، وغيرهما من حديث فضالة بن عبيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «المشكاة» (٣٨٢٣).

البحر، وصل إلىٰ روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلىٰ المقبور(١). اهـ.

⊙ **قوله**: «**فَيُقَالُ لِلرَّجُلِ**»: ظاهره اختصاص السؤال بالمكلَّف، أما الصغير فجزم غير واحد من الشافعية أنه لا يُسأل، وجزم القرطبي في «التذكرة»(٢) بأنه يسأل، وهو منقول عن الحنفية.

وأفاد قوله: (**فَيُقَالُ لِلرَّجُلِ**...) إلىٰ آخره: أن السؤال والجواب يكون باللغة العربية، خلافًا لما ذُكر عن البُلقيني أنه يجيب باللغة السُّرْيانية(٣)؛ إذ لا دليل عليه، وأفاد -أيضًا- أن السؤال في القبر للروح والبدن، وكذلك عذاب القبر ونعيمه، والأدلة صريحة بذلك وعليه أهل السنة والجماعة.

وأفاد قوله: (**فَيَقُولَانِ لَه**): أن الملائكة الذين يسألون في القبر اثنان، وزعم بعضهم أنهم أربعة، والصحيح الأول للأدلة الصحيحة في ذلك، وأفاد -أيضًا- أن السؤال مرة واحدة.

وقال **القسطلاني**: وذكر ابن رجب عن بعضهم: أن المؤمن يفتن سبعًا والكافر أربعين صباحًا، ومن ذلك كانوا يستحبون أن يطعم عن المؤمن سبعة أيام من يوم

---

(١) انظر: «الروح» (٥٣).

(٢) (ص١٠٣٦ وما بعدها).

(٣) قال السفاريني في «لوامع الأنوار البهية» (٢/ ١١): «ذَكَرَ الْحَافِظُ جَلَالُ الدِّينِ السُّيُوطِيُّ أَنَّهُ وَقَعَ فِي فَتَاوَىٰ شَيْخِهِ عَلَمِ الدِّينِ الْبُلْقِينِيِّ أَنَّ الْمَيِّتَ يُجِيبُ السُّؤَالَ بِاللُّغَةِ السُّرْيَانِيَّةِ، قَالَ: وَلَمْ أَقِفْ لِذَلِكَ عَلَىٰ مُسْتَنَدٍ» اهـ.

دفنه. قال: وهذا مما انفرد به، ولا أعلم أن أحدًا قاله غيره[١]. انتهىٰ.

وأفاد -أيضًا- أن عذاب القبر واقعٌ علىٰ الكفار، ومن شاء الله من الموحدين، وأفاد ذم التقليد في الاعتقادات لمعاقبة من قال: سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته، وأفاد -أيضًا- أن الميت يحيا في قبره للمسألة، خلافًا لابن حزم[٢]، وقد سبقت الإشارة إلىٰ ذلك.

⊙ **قوله**: «﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ ﴾»: نزلت هذه الآية في سؤال المكلفين في القبر كما قاله الجمهور.

قال الطبري: يثبتهم في الدنيا علىٰ الإيمان حتىٰ يموتوا، وفي الآخرة عند المسألة. انتهىٰ[٣].

⊙ **وقوله**: «﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾»: أي: الذي ثبت عندهم بالحجة، وهي كلمة التوحيد، وثبوتها: تمكنها في القلب واعتقاد حقيقتها واطمئنان القلب بها، وتثبيتهم في الدنيا أنهم إذا فتنوا لم يزالوا عنها، وإن ألقوا في النار ولم يرتابوا، وتثبيتهم في الآخرة أنهم إذا سئلوا في القبر لم يتوقفوا في الجواب، وكذلك إذا سئلوا في الحشر وعند موقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم لم تدهشهم أحوال يوم القيامة، وبالجملة: فالمرء علىٰ قدر ثباته في الدنيا يكون ثباته في القبر وما بعده.

---

(١) انظر: «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري» (٢/ ٤٦٥).

(٢) كما ذكر ذلك ابن حزم في كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل» (٤/ ٥٦).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١٣/ ٦٦٧) ط: هجر.

⊙ **قوله**: «**وَأَمَّا الْمُرْتَابُ...**»: أي: الشاك: (فيقول: هاه هاه) هي كلمة توجع، والهاء الأولىٰ مبدلة من همزة (آه)، وهو الآليق بمعنىٰ هذا الحديث. اهـ.

⊙ **قوله**: «**فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَّةٍ مِنْ حَدِيدٍ**»: قال في «النهاية»: المرزبة بالتخفيف: المِطرقة الكبيرة التي للحدَّاد.

⊙ **قوله**: «**يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الإِنْسَانَ**»: وفي حديث آخر: «فيَصيحُ صَيحةً يَسمَعُها مَن يَلِيه غيرَ الثَّقَلَيْن»(١)، أي: الجن والإنس، قيل لهم ذلك؛ لأنهم كالثقل علىٰ وجه الأرض. انتهىٰ «فتح الباري»(٢).

⊙ **قوله**: «**لَصَعِقَ**»: أي: خرَّ ميتًا، وصعق أيضًا: إذا غشي عليه(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٧٣)، من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) انظر: «فتح الباري» (٣/ ٢٤٠).

(٣) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين** رَحِمَهُٱللَّهُ **في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ١١٨، ١١٩)**:

«يعني: أنه لا يسمع هذا الصياح، وذلك لحكم عظيمة، منها:

أولًا: ما أشار إليه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقوله: «**لولا أن لا تدافنوا؛ لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر**».

ثانيًا: أن في إخفاء ذلك سترًا للميت.

ثالثًا: أن فيه عدم إزعاج لأهله؛ لأن أهله إذا سمعوا ميتهم يعذب ويصيح؛ لم يستقر لهم قرار.

رابعًا: عدم تخجيل أهله؛ لأن الناس يقولون: هذا ولدكم! هذا أبوكم! هذا أخوكم! وما أشبه ذلك.

خامسًا: أننا قد نهلك؛ لأنها صيحة ليست هينة، بل صيحة توجب أن تسقط القلوب من معاليقها، فيموت الإنسان أو يغشىٰ عليه.

=

⊙ **قوله: «ثم بعد هذه الفتنة إما نعيم وإما عذاب»**: المراد: أنه لابد من أحد الأمرين، ولا يُفهم منه دوام العذاب، فإن الناس بالنسبة لدوام عذاب القبر وعدمه، ينقسمون إلىٰ قسمين: قسم عذابه دائم لا ينقطع، كما قال سبحانه: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر: ٤٦] الآية، وكما في حديث البراء بن عازب في قصة الكافر: «**ثم يفتح له باب إلىٰ النار، فينظر إلىٰ مقعده فيها حتىٰ تقوم الساعة**»(١). رواه أحمد في بعض طرقه.

النوع الثاني: إلىٰ مدة وينقطع، وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت

=

سادسًا: لو سمع الناس صراخ هؤلاء المعذبين، لكان الإيمان بعذاب القبر من باب الإيمان بالشهادة، لا من باب الإيمان بالغيب، وحينئذٍ تفوت مصلحة الامتحان؛ لأن الناس سوف يؤمنون بما شاهدوه قطعًا، لكن إذا كان غائبًا عنهم، ولم يعلموا به إلا عن طريق الخبر؛ صار من باب الإيمان بالغيب.

تنبيه:

قول المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ لَصُعِقَ**» [أخرجه البخاري (١٣١٦)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ]: إنما ورد قوله: «يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الإِنْسَان..». إلخ في قول: الجنازة إذا احتملها الرجال علىٰ أعناقهم؛ كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فإن كانت صالحة؛ قالت: قدموني، وإن كانت غير صالحة، قالت: يا ويلها، أين يذهبون بها؟! يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعه؛ لصعق**» [أخرجه البخاري (١٣١٤)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ]. أما الصيحة في القبر؛ فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين». أخرجه البخاري بهذا اللفظ [أخرجه البخاري (١٣٧٤)، من حديث أنس بن مالك]، والمراد بالثقلين: الإنس والجن» اهـ.

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧) من حديث البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو في «الصحيحين».

جرائمهم، فيعذب بحسب جرمه ثم يخفف عنه، وقد ينقطع عنه العذاب بدعاء أو صدقة أو استغفار أو ثواب حج أو غير ذلك من الأسباب(١).

---

(١) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ١٢٣-١٢٦):

«فإن قال قائل: لو أن هذا الرجل تمزق أوصالًا، وأكلته السباع، وذرته الرياح، فكيف يكون عذابه، وكيف يكون سؤاله؟!

فالجواب: أن الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ كل شيء قدير، وهذا أمر غيبي، فالله عَزَّوَجَلَّ قادر علىٰ أن يجمع هذه الأشياء في عالم الغيب، وإن كنا نشاهدها في الدنيا متمزقة متباعدة، لكن في عالم الغيب ربما يجمعها الله.

فانظر إلىٰ الملائكة تنزل لقبض روح الإنسان في المكان نفسه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [الواقعة: ٨٥]. ومع ذلك لا نبصرهم.

وملك الموت يكلم الروح، ونحن لا نسمع. وجبريل يتمثل أحيانًا للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ويكلمه بالوحي في نفس المكان، والناس لا ينظرون ولا يسمعون.

فعالم الغيب لا يمكن أبدًا أن يقاس بعالم الشهادة، وهذه من حكمة الله عَزَّوَجَلَّ، فنفسك التي في جوفك ما تدري كيف تتعلق ببدنك؟ كيف هي موزعة علىٰ البدن؟ وكيف تخرج منك عند النوم؟ هل تحس بها عند استيقاظك بأنها ترجع؟ ومن أين تدخل لجسمك؟

فعالم الغيب ليس فيه إلا التسليم، ولا يمكن فيه القياس إطلاقًا، فالله عَزَّوَجَلَّ قادر علىٰ أن يجمع هذه المتفرقات من البدن المتمزق الذي ذرته الرياح، ثم يحصل عليه المساءلة والعذاب أو النعيم؛ لأن الله سبحانه علىٰ كل شيء قدير.

فإن قال قائل: الميت يدفن في قبر ضيق؛ فكيف يوسع له مد البصر؟

فالجواب: أن عالم الغيب لا يقاس بعالم الشهادة، بل إننا لو فرض أن أحدًا حفر حفرة مد البصر، ودفن فيها الميت، وأطبق عليه التراب؛ فالذي لا يعلم بهذه الحفرة، هل يراها أو لا يراها؟ لا شك أنه يراها، مع أن هذا في عالم الحس، ومع ذلك لا يرىٰ هذه السعة، ولا يعلم بها، إلا من شاهدها.

⊙ **قوله:** «إلىٰ أن تقوم القيامة الكبرىٰ»: بعد ما ينفخ في الصور نفخة البعث، فإن يوم القيامة يقع علىٰ ما بعد نفخة البعث من أهوال وزلزلة وغير ذلك، إلىٰ آخر الاستقرار في الجنة أو النار.

⊙ **قوله:** «الكبرىٰ»: إشارة إلىٰ أن فيه قيامة صغرىٰ وهو الموت، كما قيل:

خرجت من الدنيا وقامت غداة أقلَّ الحاملون جنازتي

=

فإذا قال قائل: نحن نرىٰ الميت الكافر إذا حفرنا قبره بعد يوم أو يومين، نرىٰ أن أضلاعه لم تختلف وتتداخل من الضيق؟

فالجواب كما سبق: أن هذا من عالم الغيب، ومن الجائز أن تكون مختلفة؛ فإذا كشف عنها؛ أعادها الله، وردَّ كل شيء إلىٰ مكانه؛ امتحانًا للعباد؛ لأنها لو بقيت مختلفة ونحن قد دفناه وأضلاعه مستقيمة؛ صار الإيمان بذلك إيمانَ شهادة.

فإن قال قائل كما قال الفلاسفة: نحن نضع الزئبق علىٰ الميت، وهو أسرع الأشياء تحركًا ومروقًا، وإذا جئنا من الغد، وجدنا الزئبق علىٰ ما هو عليه، وأنتم تقولون: إن الملائكة يأتون ويجلسون هذا الرجل، والذي يجلس؛ كيف يبقىٰ عليه الزئبق؟

فنقول -أيضًا- كما قلنا سابقًا: هذه من عالم الغيب، وعلينا الإيمان والتصديق، ومن الجائز -أيضًا- أن الله عَزَّوَجَلَّ يرد هذا الزئبق إلىٰ مكانه بعد أن تحول بالجلوس.

ونقول أيضًا: انظروا إلىٰ الرجل في المنام؛ يرىٰ أشياء لو كان علىٰ حسب رؤيته إياها؛ ما بقي في فراشه علىٰ السرير، وأحيانًا تكون رؤيا حق من الله عَزَّوَجَلَّ، فتقع كما كان يراها في منامه، ومع ذلك؛ نحن نؤمن بهذا الشيء.

والإنسان إذا رأىٰ في منامه ما يكره، أصبح وهو متكدر، وإذا رأىٰ ما يسره، أصبح وهو مستبشر، كل هذا يدل علىٰ أن أمور الروح ليست من الأمور المشاهدة، ولا تقاس أمور الغيب بالمشاهد ولا ترد النصوص الصحيحة، لاستبعادنا ما تدل عليه حسب المشاهد» اهـ.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: القيامة قيامتان: صغرىٰ وكبرىٰ، فالصغرىٰ: ما تقوم علىٰ كل إنسان في خاصته من خروج رُوحه وانقطاع سعيه وحصوله علىٰ علمه، وأما الكبرىٰ: فهي التي تعم الناس وتأخذهم أخذة واحدة، قيل: سمىٰ ذلك اليوم يوم القيامة؛ لكون الناس يقومون من قبورهم، قال تعالىٰ: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ [القمر: ٧]، وقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ [المعارج: ٤٣]، وروىٰ مسلم في «صحيحه» مرفوعًا: «﴿يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ [المطفّفين: ٦]، **قال: يقوم أحدهم في رشحه إلىٰ أنصاف أذنيه**»(١)، قال ابن عمر: «يقومون مئة سنة»(٢).

⊙ **قوله:** «فتعاد الأرواح إلىٰ الأجساد»: وذلك حين ينفخ إسرافيل في الصور نفخة البعث والنشور، قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ۝٥١﴾ [يس: ٥١]، وإذا أطلق النفخ في الصور فالمراد به: نفخة البعث. والأرواح: جمع رُوح وهو ما يحيا به الإنسان، وهو من أمر الله، كما قال سبحانه: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

قال شيخ الإسلام تقي الدين: وروح الآدمي مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل الحديث، وقد حكىٰ إجماع الأمة علىٰ أنها مخلوقة غير واحد من أئمة السلف(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٥٤)، ومسلم (٢٨٦٢)، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) انظر: «جامع البيان في تأويل القرآن» (٢٤/ ٢٨٠).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٢١٦).

ويجب الإيمان بالبعث والنشور، ويكفر الإنسان بإنكاره، قال الله سبحانه: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٧﴾ [التغابن: ٧]، والبعث لغة: إثارة الشيء، والمراد به هنا: إحياء الأموات وخروجهم من قبورهم ونحوها إلىٰ حكم يوم القيامة.

والبعث والنشور مترادفان، وهما بمعنىٰ: إعادة الأبدان وإدخال الأرواح فيها، يقال: نشر الميت وأنشره بمعنىٰ: أحياه، وأما الحشر: فهو لغة: الجمع، تقول: حشرت الناس؛ إذا جمعتهم، والمراد: جمع أجزاء الإنسان بعد تفرقها، ثم إحياء الأبدان بعد موتها، فيبعث الله جميع العباد ويعيدهم بعد موتهم ويسوقهم إلىٰ محشرهم لفصل القضاء بينهم، وأدلة ذلك في الكتاب والسنة والإجماع.

قال ابن القيم وغيره: معاد الأبدان متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارىٰ(١).

قال جلال الدين الدراني: هو بإجماع أهل الملل وبشهادة نصوص القرآن الذي لا يقبل التأويل؛ كقوله سبحانه: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ [يس: ٧٩].

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وأبو حاتم، والضياء في «المختارة»، وابن مردويه، والبيهقي عن ابن عباس قال: جاء العاص بن وائل إلىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعظم حائل ففتَّه بيده، فقال: يا محمد، يحيي الله هذا بعد ما أرِم؟ قال: «**نعم، يبعثُ الله**

---

(١) انظر: «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٦/ ١٠).

هذا، ثم يُميتُك، ثم يُحييك، ثم يدخلك نارَ جهنم»(١)، فنزلت الآيات من آخر سورة يس: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [يس: ٧٧] الآيات، فهذا نص صريح في الحشر الجسماني، وقد ورد في عدة مواضع من القرآن التصريح به لا يقبل التأويل، فيجب الإيمان به واعتقاده، ويكفر منكره كما تقدم.

وأما النفخ في الصور فينفخ فيه ثلاث نفخات:

نفخة الفزع: وهي التي يتغير بها العالَم، قال الله سبحانه: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾ [ص: ١٥]، أي: رجوع ومرَد، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [النمل: ٨٧]، سميت نفخة الفزع؛ لما يقع من هول تلك النفخة.

والنفخة الثانية: نفخة الصعق، وفيها هلاك كل شيء، قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزُّمَر: ٦٨] الآية.

وفسر الصعق بالموت وهو متناول حتىٰ الملائكة، والاستثناء متناول لمن في الجنة من الحور العين وغيرهم.

الثالث: نفخة البعث والنشور، قال تعالىٰ: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، وقال: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزُّمَر: ٦٨]، وأخرج ابن جرير والبيهقي وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله: وما الصور؟ قال: **«عظيم، إن عظم دارة فيه كعرض**

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/ ٤٦٣)، والحاكم (٣٦٠٦)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

السموات والأرض، فينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولىٰ: نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخة القيام لرب العالمين»(١). انتهىٰ(٢).

◈ ◈ ◈

(١) أخرجه الطبري (٨/ ٢٨٩)، وإسحاق بن راهويه (١/ ٨٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٢١٩-٢٢١):

«وهذا التقسيم إلىٰ ثلاث نفخات هو الذي رجحه شيخ الإسلام وابن القيم وجماعة من المحققين، ودل عليه -أيضًا- حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المعروف بحديث الصور الطويل الذي رواه ابن جرير وأبو يعلىٰ والطبراني والبيهقي وجماعة، لكن الحديث ضعيف لأن فيه مجهولًا وضعيفًا؛ كما أعله الحافظ ابن حجر بذلك، ولكن هو موافق في ذلك لظاهر القرآن؛ لأن في القرآن ثلاث نفخات: نفخة فزع، ونفخة صعق، ونفخة بعث.

وقال كثير من أهل العلم: إن النفخات اثنتان، ونفخة الصعق طويلة تمتد، أولها فزع وآخرها صعق. ودل علىٰ ذلك الحديث الذي رواه مسلم في «الصحيح» أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «يُنفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغىٰ لِيتًا ورفع لِيتًا» [أخرجه مسلم (١١٦/ ٢٩٤٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] يعني: جهة عنقه، قال: «وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال: فيصعق ويصعق الناس»، فهذا دليل علىٰ أن الفزع يتبعه صعق.

وعلىٰ العموم فالقول الأول أظهر من حيث دلالة الآيات وأن النفخات ثلاث: ﴿يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ﴾ [النمل: ٨٧]، ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ۝٦٨﴾ [الزُّمَر: ٦٨]. والنفخة الأولىٰ علىٰ هذا التقسيم: هي نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصعق، ومعنىٰ الصعق يعني الموت، فهي نفخة يموت منها من سمعها، إلا من استثنىٰ الله من الذين في قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزُّمَر: ٦٨]، فهؤلاء يُستثنون من الصعق» اهـ.

وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ. فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا(١)، وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، وَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ(٢)، وَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ، فَيُوزَنُ فِيهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣].

وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ: وَهِيَ صَحَائِفُ الْأَعْمَالِ، فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وَآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣-١٤].

الشَّرح

⊙ **قوله:** «فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ...» إلخ: قال سبحانه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٦]، وروىٰ مسلم في «صحيحه» عن ابن عمر مرفوعًا: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٦]، قال: «**يقومُ الناسُ حتىٰ يَغيبَ أحدُهم في رَشْحِه إلىٰ نِصف أُذُنِه**»، وفي البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخطب علىٰ المنبر يقول: «**إنَّكم مُلاقُو ربِّكم حفاةً**

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢٤-٦٥٢٥)، ومسلم (٢٨٦٠)، وغيرهما من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٤)، وغيره من حديث المقداد بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عُراةً غُرْلًا»(١)، وزاد في رواية «مُشَاةً»(٢)، وفي رواية فيهما: قال: قام رسول الله فينا بموعظة، فقال: «يا أيُّها الناسُ، إنَّكم مَحشورون إلىٰ الله حُفاةً عُراة غرلًا: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]»(٣).

⊙ قوله: «حُفَاة»: جمع حاف: وهو الذي ليس عليه نعل ولا خُفٌّ.

⊙ قوله: «عُرَاة»: جمع عارٍ: وهو الذي ليس عليه لباس.

⊙ وقوله: «غُرْلًا»: بضم الغين المعجمة وإسكان الراء، جمع أغرل: وهو الأقلف.

وفي «الصحيحين» من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: قلت: يا رسول الله: الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلىٰ بعض؟ قال: «الأمر أشد من أن يهمهم ذلك»(٤).

قال العلماء رَحِمَهُمُٱللَّهُ: مراتب المعاد: البعث والنشور، ثم المحشر، ثم القيام لرب العالمين، ثم العرض، ثم تطاير الصحف وأخذها باليمين والشمال، ثم السؤال والحساب، ثم الميزان. انتهىٰ(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٧١)، ومسلم (٢٨٥٩)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٠)، من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (٦١٦١)، ومسلم (٢٨٦٠)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

(٤) أخرجه البخاري (٦٢٦٢)، ومسلم (٢٨٥٩)، وغيرهما من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا.

(٥) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُٱللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ١٣٠):

«فإذا قلت: ربما يؤكل الإنسان من قِبل السباع، ويتحول جسمه الذي أكله السبع إلىٰ تغذية =

⊙ **قوله:** «**وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، وَيُلْجِمُهُمُ العَرَقُ**»: أي: تقرب منهم الشمس حتىٰ تكون قدر ميل أو ميلين، كما روىٰ مسلم عن المقداد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**إذا كان يوم القيامة أُدنيت الشَّمسُ مِن العباد حتىٰ تكون قَدرَ مِيل أو ميلين**»، قال: «**فتَصهرهم الشمسُ، فيكونون في العَرق كقدْرِ أعمالهم، منهم من يأخذه إلىٰ عَقبيه، ومنهم من يأخذه إلىٰ حِقْوَيه، ومنهم من يُلجمه العرقُ إلجامًا**»(١).

⊙ **قوله:** «**عَقِبيه**»: هو مؤخر القدَم.

⊙ **قوله:** «**حِقوَيه**»: **الحقو**: معقِد الإزار.

⊙ **قوله:** «**يلجمهم العرق**»: أي: يصل إلىٰ أفواههم، فيصير لهم بمنزلة اللجام يمنعهم عن الكلام. انتهىٰ. «نهاية».

⊙ **وقوله:** «**يلجمهم العرق**»: ظاهره التعميم، لكن دلت أحاديث علىٰ أنه مخصوص بالبعض وهم الأكثر، ويستثنىٰ من ذلك الأنبياء والشهداء ومن شاء الله. انتهىٰ(٢).

=

لهذا الآكل تختلط بدمه ولحمه وعظمه وتخرج في روثه وبوله؛ فما الجواب علىٰ ذلك؟

فالجواب: أن الأمر هين علىٰ الله؛ يقول: كن فيكون، ويتخلص هذا الجسم الذي سيبعث من كل هذه الأشياء التي اختلط بها، وقدرة الله عَزَّوَجَلَّ فوق ما نتصوره، فالله علىٰ كل شيء قدير» اهـ.

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٤)، وأحمد (٥/ ٢٥٤)، وغيرهما من حديث أبي أمامة، والمقداد بن الأسود، وغيرهما رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

(٢) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ **في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ١٣٦-١٣٧):**

«ولكن هذا غاية ما يصل إليه العرق، وإلا؛ فبعضهم يصل العرق إلىٰ كعبيه، وإلىٰ ركبتيه،

=

وأخرج الشيخان عن أبي هريرة مرفوعًا: «يعرق الناس يوم القيامة حتىٰ يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعًا، ويلجمهم حتىٰ يبلغ آذانهم، فهذا اليوم العظيم فيه من الأهوال العظيمة والشدائد الجسيمة ما يذيب الأكباد، ويذهل المراضع ويشيب الأولاد»(١)، قال الله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ

=

وإلىٰ حقويه، ومنهم من يلجمه؛ فهم يختلفون في هذا العرق، ويعرقون من شدة الحر؛ لأن المقام مقام زحام وشدة ودنو شمس؛ فيعرق الإنسان مما يحصل في ذلك اليوم، لكنهم علىٰ حسب أعمالهم.

فإن قلت: كيف يكون ذلك وهم في مكان واحد؟

فالجواب: أننا أصلنا قاعدة يجب الرجوع إليها، وهي: أن الأمور الغيبية يجب علينا أن نؤمن بها ونصدق دون أن نقول: كيف؟ ولِم؟ لأنها شيء وراء عقولنا، ولا يمكن أن ندركها أو نحيط بها.

أرأيت لو أن رجلين دُفنا في قبر واحد: أحدهما مؤمن، والثاني: كافر؛ فإنه ينال المؤمن من النعيم ما يستحق، وينال الكافر من العذاب ما يستحق، وهما في قبر واحد، وهكذا نقول في العرق يوم القيامة.

فإن قلت: هل تقول: إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يجمع من يلجمهم العرق في مكان، ومن يصل إلىٰ كعبيه في مكان، وإلىٰ ركبتيه في مكان، وإلىٰ حقويه في مكان؟

فالجواب: لا نجزم بهذا، والله أعلم، بل نقول: من الجائز أن يكون الذي يصل العرق إلىٰ كعبه إلىٰ جانب الذي يلجمه العرق، والله علىٰ كل شيء قدير، وهذا نظير النور الذي يكون للمؤمنين؛ يسعىٰ بين أيديهم وبأيمانهم، والكفار في ظلمة، فيوم القيامة يجب علينا أن نؤمن به وبما يكون فيه، أما كيف؟ ولِم؟ فهذا ليس إلينا» اهـ.

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٧)، ومسلم (٢٨٦٣)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ٢]، وذلك يوم القيامة وهو حق ثابت ورد به الكتاب والسنة والإجماع(١).

⊙ **قوله:** «وَتُنْصَبُ المَوَازِينُ، فَيُوزَنُ فِيهَا أَعْمَالُ العِبَادِ، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢-١٠٣]»:

تكاثرت أدلة الكتاب في إثبات الميزان، كما تواترت بذلك الأحاديث، وأجمع أهل الحق على ثبوته ووجوب الإيمان به، وأنه ميزان حقيقي حسِّي له لسان وكفتان، كما هو صريح الأدلة، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ١٣٥):

«قد يقول قائل: المعروف الآن أن الشمس لو تدنو بمقدار شعرة عن مستوى خطها؛ لأحرقت الأرض؛ فكيف يمكن أن تكون في ذلك اليوم بهذا المقدار من البعد، ثم لا تحرق الخلق؟

فالجواب على ذلك: أن الناس يحشرون يوم القيامة، ليسوا على القوة التي هم عليها الآن، بل هم أقوى وأعظم وأشد تحمُّلًا.

لو أن الناس الآن وقفوا خمسين يومًا في شمس لا ظل ولا أكل ولا شرب، فلا يمكنهم ذلك، بل يموتون، لكن يوم القيامة يبقون خمسين ألف سنة، لا أكل ولا شرب ولا ظل، إلا من أظله الله عَزَّ وَجَلَّ، ومع ذلك؛ يشاهدون أهوالًا عظيمة، فيتحملون.

واعتبر بأهل النار، كيف يتحملون هذا التحمل العظيم: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء: ٥٦].

وبأهل الجنة، ينظر الإنسان إلى ملكه مسيرة ألف عام إلى أقصاه، كما ينظر إلى أدناه، كما روي ذلك عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [أخرجه الترمذي (٢٥٥٣)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وضعفه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «ضعيف الجامع» (١٣٨٢)]» اهـ.

قال: «**إن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قال: يا رب، علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به، قال: قل يا موسىٰ: لا إلهَ إلا اللهُ، قال: يا رب، كل عبادك يقولون هذا؟ قال: يا موسىٰ، لو أن السموات السبع وعامرهن غيري في كفة، ولا إلهَ إلا اللهُ في كفة لرجحت بهن لا إلهَ إلا اللهُ**»(١) الحديث.

وروىٰ الإمام أحمد وغيره من حديث عبد الله بن عمرو في حديث البطاقة، وفيه: «... **فيخرج له بطاقة فيها: لا إلهَ إلا اللهُ، فتوضع السجلات في كفة، ولا إلهَ إلا اللهُ في كِفَّة، فطاشت السِّجلَّات وثَقُلت البطاقة**...»(٢) الحديث، إلىٰ غير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي بلغت حد التواتر.

وجَمْعُ المصنف الموازين ظاهره تعددها، والصحيح أنه ميزان واحد، وجمعه؛ قيل: لأن الميزان يشتمل علىٰ الكفتين والشاهدين واللسان، ولا يتم الوزن إلا باجتماعها، ويحتمل أن الجمع للتفخيم، كما في قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء: ١٠٥]، مع أنه لم يرسل إليهم إلا واحدًا، وقيل: يجوز أن يكون لفظه جمعًا ومعناه واحدًا، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ [المؤمنون: ٥١]، وأما الوزن فهو للأعمال كما أشار إليه المصنف، واستدل بالآية المذكورة، في «صحيح مسلم» عن أبي مالك الأشعري، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الطهورُ شَطر الإيمان، والحَمد لله**

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦٢١٨)، والحاكم (١٩٣٦)، وأبو يعلىٰ (١٣٩٣)، وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وضعفه العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٩٢٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٣٩)، وأحمد (٢/ ٢١٣)، وغيرهما من حديث ابن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح الجامع» (١٧٧٦).

تملأ الميزان...» [١] الحديث.

وأخرجه أبو داود والترمذي وصححه ابن حبان، عن أبي الدرداء، عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«ما يوضعُ في الميزان أثقلُ مِن خُلق حَسَن»** [٢]، وفي «الصحيحين» وغيرهما عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«كَلمتان حبيبتان إلىٰ الرَّحمن، خفيفتان علىٰ اللِّسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان اللهِ وبحمده، سبحان الله العظيم»** [٣]، إلىٰ غير ذلك من الأحاديث الدالة علىٰ أن الوزن للأعمال، وإلىٰ هذا ذهب أهل الحديث.

وقيل: الوزن لصحائف الأعمال، كما في حديث صاحب البطاقة، وصوبه مرعي في «بهجته»، وذهب إليه جمهور من المفسرين وصححه ابن عبد البر، والقرطبي، وغيرهما.

قيل: يوزن صاحب العمل، كما في الحديث: **«يُؤتىٰ يوم القيامة بالرَّجل السَّمين، فلا يَزِنُ عند الله جناحَ بعوضة، ثم قرأ قوله سبحانه: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]»** [٤] **الآية** [٥].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣)، والترمذي (٣٥١٧)، وغيرهما من حديث أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣)، وابن حبان (٤٨١)، وغيرهم من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (٥٧٢٦).

(٣) أخرجه البخاري (٦٠٤٣)، ومسلم (٢٦٩٤)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٤٤٥٢)، ومسلم (٢٧٨٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ١٤٢):**

=

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كله صحيحًا، فتارة توزن الأعمال، وتارة توزن محالها، وتارة يوزن فاعلها، والله أعلم[١].

قال الغزالي والقرطبي: ولا يكون الميزان في حق كل أحد، فالسبعون ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب لا يرفع لهم ميزان، ولا يأخذون صحفًا[٢]. اهـ.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال العلماء: إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها؛ ليكون الجزاء بحسبها، قال الشيخ مرعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والحكمة في الوزن مع أن الله عالم بكل شيء: إظهار العدل وبيان الفضل؛ حيث يزن مثاقيل الذر من خير وشر. انتهى[٣].

=

«وهناك نصوص أخرى تدل على أن الذي يوزن العامل، مثل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، مع أنه قد ينازع في الاستدلال بهذه الآية، فيقال: إن معنى قوله: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾؛ يعني: قدرًا.

ومثل ما ثبت من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؛ أنه كان يجتني سواكًا من الأراك، وكان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ دقيق الساقين، جعلت الريح تحركه، فضحك الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مم تضحكون؟» قالوا: من دقة ساقيه، قال: «والذي نفسي بيده، لهما في الميزان أثقل من أُحُد» [أخرجه أحمد (١/ ٤٢٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ]» اهـ.

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٥١).

(٢) انظر: «تذكرة القرطبي» (٧١٩).

(٣) انظر: «تذكرة القرطبي» (٣٠٩).

ومن المقرر أن أحوال البرزخ وأحوال الآخرة لا تقاس علىٰ ما في الدنيا، وإن اتفقت الأسماء، فنؤمن بها كما ورد من غير بحث عن كنهها وحقيقتها، كما أخبر الصادق المصدوق من غير زيادة ولا نقصان.

⊙ **قوله:** «﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾»: أي: رجحت حسناته علىٰ سيئاته، ولو بواحدة. قاله ابن عباس.

⊙ **قوله:** «﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾»: أي: الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة، والفلاح هو الفوز والظفر والحصول علىٰ المطلوب.

⊙ **قوله:** «﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾»: أي: ثقلت سيئاته علىٰ حسناته ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي: خابوا وفازوا بالصفقة الخاسرة.

⊙ **وقوله:** «﴿فِى جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ﴾»: أي: ماكثون فيها دائمون، والخلود هو المكث الطويل.

أفادت هذه الآية إثبات الميزان، والرد علىٰ المعتزلة الذين أنكروه، وقالوا: الميزان عبارة عن العدل، وهذا تأويل فاسد مخالف للكتاب والسنة والإجماع، وأفادت أن الوزن للأعمال، وأما جمع الموازين مع إنه ميزان واحد، فقد تقدم الجواب عنه.

⊙ **قوله:** «**وتُنشر الدواوين**»: جمع ديوان: وهو الدفتر الذي يُكتب فيه أعمال العباد، والصحائف جمع صحيفة: وهي الورقة التي يكتب فيها من الرق والقرطاس، والمراد بها هنا: الكتب التي كتبتها الملائكة، وأحصوا ما فعله كل إنسان من سائر

أعماله القولية والفعلية، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠﴾ [التكوير: ١٠]، قال الثعلبي: أي: التي فيها أعمال العباد نشرت للحساب.

فيجب الإيمان بنشر الصحف، وأخذها بالأيمان أو بالشمائل لثبوت ذلك بالكتاب والسنة والإجماع، قال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢﴾ [الانشقاق: ٧-١٢].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا قال: «**تُعرض الناسُ يوم القيامة ثلاث عرضات، فأما عرضتان فجدال ومعاذير، وعند ذلك تطير الصحف في الأيدي، فآخذٌ كتابَه بيمينه وآخذ بشماله**»(١)، رواه الترمذي. وقال الترمذي: لا يصح؛ لأن الحسن لم يسمع من أبي هريرة، وهو عند أحمد وابن ماجه من هذا الوجه مرفوعًا، وأخرجه البيهقي في «البعث» بسند حسن عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا.

وروىٰ أحمد والترمذي، وأبو بكر بن أبي الدنيا عن أبي موسىٰ الأشعري قال، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فعرضتان جدال ومعاذير، وعرضة تطاير الصحف، فمن أوتي كتابه بيمينه وحوسب حسابًا يسيرًا دخل الجنة، ومن أوتي كتابه بشماله دخل النار**»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٢٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وابن ماجه (٤٢٧٧)، وأحمد (٤/ ٤١٤)، وغيرهما من حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «ضعيف الجامع» (٦٤٣٢).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٤١٤)، وغيره من حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه العلامة =

⊙ **قوله**: «﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۝١٠﴾ [الانشقاق: ١٠]»: الآية، قال مجاهد: تجعل شماله وراء ظهره فيأخذ بها كتابه، وقال سعيد بن المسيب: الذي يأخذه بشماله تُلوىٰ يده خلف ظهره ثم يُعطىٰ كتابه.

⊙ **وقوله**: «﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ﴾ [الإسراء: ١٣]»: انتصب (كلَّ) بفعل مضمر، وقوله: ﴿طَائِرَهُ﴾: هو ما طار عنه من عمله من خير وشر. قال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: والمعنىٰ: أن عمله لازم له، والمقصود: أن عمل الإنسان محفوظ عليه قليله وكثيره ويكتب عليه ليلًا ونهارًا، كما قال سبحانه: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وقوله: ﴿فِي عُنُقِهِ﴾: خص العنق بالذكر؛ لأن اللزوم فيه أشد، ومن ألزم شيئًا فيه فلا محيد له عنه، والمعنىٰ: أن عمله لازم له لزوم القلادة، أو لغل في العنق لا ينفك عنه(١).

=

الألباني رحمه الله في «ضعيف الجامع» (٦٤٣٢).

(١) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٢٣٦):

«الطائر هو ما يطير عن الإنسان من العمل من خير أو شر؛ لأنه كأنه كان في سَعة قبل أن يعمل فلما عمل طار عنه ولم يعد يتمكن من إرجاعه؛ إن كان خيرًا فخير وإن كان شرًّا فشر، فسُمي ما يعمله الإنسان طائرًا؛ لأنه طار عنه.

وقال بعض أهل العلم: سُمي طائرًا لأنه يحصل منه العمل -أي: من العمل- وبسببه السعادة أو الشقاوة، وقد كانت العرب تتطير بالطير فتتفاءل أو تتشاءم من سوانح الطير أو بوارحها، فيُقدِمون علىٰ العمل أو السفر -فيما يعتقدون- أو لا يُقدِمون، فسُمي العمل طائرًا باعتبار

=

⊙ **قوله:** «﴿ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾»: أي: صحيفة أعماله بالحسنات والسيئات، يعطاه بيمينه إن كان سعيدًا، وبشماله إن كان شقيًّا.

⊙ **قوله:** «﴿ يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾»: أي: يلقىٰ الإنسان ذلك الكتاب، أي: يراه منشورًا، أي: مفتوحًا يقرؤه هو وغيره فيه جميع عمله من أول عمره إلىٰ آخره، كما قال تعالىٰ: ﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ ﴾ [القيامة: ١٣].

⊙ **وقوله:** «﴿ ٱقْرَأْ كِتَـٰبَكَ ﴾ [الإسراء: ١٤]»: تقديره :يقال له: اقرأ كتابك، أي: كتاب أعمالك وما كان منك.

⊙ **قوله:** «﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ﴾»: باء زائدة في الفاعل.

⊙ **قوله:** «﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾»: أي: محاسبًا؛ لأنك ذكرت جميع ما كان منك وعرفته، ولا ينسىٰ أحد ما كان منه، وكل أحد يقرأ كتابه من كاتب وأُمِّي.

الحساب: مصدر حاسب، وحسب الشيء يحسبه: إذا عدَّه، فهو لغة: العدد، واصطلاحًا: هو توقيف الله العباد قبل الانصراف من الحشر علىٰ أعمالهم خيرًا كانت أو شرًّا، إلا من استثنىٰ منهم، وهو ثابت بالكتاب والسنة وإجماع أهل الحق، فيجب الإيمان به واعتقاد ثبوته.

قال تعالىٰ: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا

=

النهاية أنه يحصل منه السعادة والشقاوة بحسب ما جرىٰ من الاستعمال.

والصحيح أن العمل سُمي طائرًا لأنه طار عن المرء فلا يمكن استرجاعه، ودُوِّن في كتاب» اهـ.

يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: ٧-٨] الآية، وقال تعالىٰ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

⊙ **وقوله:** ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ﴾، أي: عدها وكتبها وأثبتها فيه، إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالة علىٰ إثبات الحساب.

وفي «الصحيحين» من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن نُوقِش الحسابَ عُذِّب**»، قالت: فقلت: أليس يقول الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: ٧-٨] الآية؟ فقال: «**إنما ذلك العَرْض، وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك**»[1]، والمعنىٰ: أنه لو ناقش في حسابه لعبيده لعذبهم، ولكنه يعفو ويصفح.

◇ ◇ ◇

(١) أخرجه البخاري (١٠٣)، ومسلم (٢٨٧٦)، وغيرهما من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلائِقَ، وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ؛ كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَأَمَّا الْكُفَّارُ؛ فَلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُمْ لَا حَسَنَاتَ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ، وَتُحْصَى، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا وَيُجْزَوْنَ بِهَا.

وَفِي عَرْصَةِ القِيَامَةِ: الحَوْضُ المَوْرُودُ لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهْرٌ، وَآنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً؛ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا(١).

الشَّرح

⊙ **قوله:** «وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلائِقَ...» إلخ: ظاهره العموم، ولكن دلت الأدلة أنه يستثنى من ذلك من يدخل الجنة بغير حساب، كما في «الصحيحين» من حديث ابن عباس في السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة من غير حساب ولا عذاب(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢)، وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ١٥٣-١٥٤):

«وقول المؤلف: «الخلائق» جمع خليقة، يشمل كل مخلوق.

إلا أنه يستثنى من ذلك من يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب؛ كما ثبت ذلك في «الصحيحين»: أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى أمته ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وهم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون.

وقد روى الإمام أحمد بسند جيد: أن مع كل واحد سبعين ألفًا.

فتضرب سبعين ألفًا بسبعين ألفًا، ويزاد سبعون ألفًا. هؤلاء كلهم يدخلون الجنة بلا =

⊙ **قوله**: « وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ...»: أي: ينفرد سبحانه بعبده ويقرره بذنوبه، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ يقال: قرره بكذا، أي: جعله يعترف به، كما في «الصحيح» من حديث ابن عمر، وفيه: «**يدنو أحدكم من ربه حتىٰ يضع كنفه عليه، فيقول: عملت كذا وكذا، فيقول: نعم، فيقرره، ثم يقول: إني سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، ثم تطوىٰ صحيفة حسابه، وأما الآخرون وهم الكفار والمنافقون، فينادي بهم علىٰ رءوس الخلائق:** ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ١٨]»[(١)].

قال المهلب: في الحديث تَفَضُّلُ الله سبحانه علىٰ عباده وستره لذنوبهم يوم القيامة، وأنه يغفر ذنوب من شاء منهم، بخلاف قول من أنفذ الوعيد علىٰ أهل الإيمان[(٢)]. اهـ.

=

حساب ولا عذاب.

قوله: «الخلائق»: يشمل -أيضًا- الجن؛ لأنهم مكلفون، ولهذا يدخل كافرهم النار بالنص والإجماع؛ كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ ﴾ [الأعراف: ٣٨]. ويدخل مؤمنهم الجنة علىٰ قول جمهور أهل العلم، وهو الصحيح، كما يدل عليه قوله تعالىٰ: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ إلىٰ قوله: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ ﴿٥٦﴾﴾ [الرحمن: ٥٦].

وهل تشمل المحاسبة البهائم؟

أما القصاص؛ فيشمل البهائم؛ لأنه ثبت عن النبي عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أنه يقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**». وهذا قصاص، لكنها لا تحاسب حساب تكليف وإلزام؛ لأن البهائم ليس لها ثواب ولا عقاب» اهـ.

(١) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (١٠/ ٤٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٧٩)، ومسلم (٢٢٩٢)، وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو بن

=

⊙ **قوله**: «**وَأَمَّا الكُفَّارُ...**» إلخ: أي: لأنه إنما يحاسب من له حسنات وسيئات، والكافر ليس له في الآخرة حسنات توزن، فإن أعمالهم حابطة باطلة؛ لأنها فاقدة لشروط العبادة التي هي الإخلاص والمتابعة، فكل عمل لا يكون خالصًا وعلىٰ الشريعة المرضية فهو باطل، وأعمال الكفار لا تخلو من ذلك، فلا يحصل لهم من أعمالهم التي عملوها فائدة، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]، ففيها دليل علىٰ أن الكافر لا توزن أعماله؛ إذ لا ثواب له في الآخرة، ولا يجازىٰ فيها بشيء من عمله في الدنيا، قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]، وإن عمل الكافر من نحو عتق أو صدقة أو عمل حسن، وُفِّيَ له في حياته الدنيا، فليس له في الآخرة جزاء عمل لكن يرجىٰ أن يخفف عنه من عذاب معاصيه؛ لحديث ثُوَيْبَةَ حين أعتقها أبو طالب.

وفي «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله لا يَظلمُ مُؤْمِنًا حسنةً يُعطَىٰ بها في الدنيا ويُجزىٰ بها في الآخرة، وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا حتىٰ إذا أفضىٰ إلىٰ الآخرة لم تكن له حسنة يجزىٰ بها**»(١).

قال النووي في «شرح مسلم»: أجمع العلماء علىٰ أن الكافر الذي مات علىٰ كفره لا ثواب له في الآخرة ولا يجازىٰ فيها بشيء من عمله في الدنيا متقربًا به إلىٰ الله،

=

العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٨)، وأبو يعلىٰ (٢٨٤٤)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وصرح في هذا الحديث بأنه يطعم في الدنيا بما عمله من الحسنات، أي: بما فعله متقربًا به إلىٰ الله مما لا تفتقر صحته إلىٰ النية؛ كصلة الرحم والصدقة والعتق والضيافة وتسهيل الخيرات ونحوها، وأما المؤمن فيُدَّخر له -أيضًا- حسناته وثواب أعماله إلىٰ الآخرة، ويجزىٰ بها مع ذلك في الدنيا، ولا مانع من جزائه بها في الدنيا والآخرة، وقد ورد الشرع به فيجب اعتقاده[1].

⊙ **قوله:** «وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ، وَتُحْصَىٰ، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا...» إلخ: أي: تحسب أعمالهم ويخبَرون بها ويقرَّرون بها، كقوله: ﴿يُنَبَّؤُا ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ١٣﴾ [القيامة: ١٣]، وقال: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ [الكهف: ٤٩] الآية، إلىٰ غير ذلك من الآيات.

⊙ **قوله:** «عَرْصَة»: بوزن ضربة لغة: كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء، وعرصات القيامة مواقفها من العرض والحساب وغير ذلك، والحوض لغة: مجمع الماء، والمراد به هنا: هو ما ذكره المصنف، وهو حق ثابت بإجماع أهل الحق، وأنكره الخوارج وبعض المعتزلة، وقد تواترت الأحاديث في إثبات الحوض.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قد روىٰ أحاديث الحوض أربعون من الصحابة، وكثير منها أو أكثرها في «الصحيح»[2]. اهـ.

وقال الحافظ جلال الدين السيوطي في كتابه «البدور السافرة»: ورد ذكر

---

(١) انظر: «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (١٧/ ١٥٠).

(٢) انظر: «شرح السنن» (١٣/ ٥٦).

الحوض من رواية بضعة وخمسين صحابيًّا، منهم الخلفاء الأربعة الراشدون وحفاظ الصحابة المكثرون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ثم ذكر الأحاديث واحدًا واحدًا[١]. انتهىٰ.

فمنها ما رواه البخاري عن أنس، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ قدْرَ حَوضي ما بين إيلةَ إلىٰ صنعاء اليمن، وإن فيه من الأباريق كعَدد نجوم السماء**»[٢].

وروىٰ البخاري ومسلم عن جندب بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**أنا فَرَطُكم علىٰ الحوض...**»[٣]، والفَرَط الذي سبق إلىٰ الماء.

وفي «الصحيحين» وغيرهما من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَوضي مسيرةُ شَهر، ماؤه أبيضُ مِن اللَّبن، وريحُه أطيبُ مِن المسك، وكيزانُه كنجوم السماء، مَن شَرب منه لا يظمأ أبدًا**»[٤]، وفي رواية: «**حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء، وماؤه أبيض من الورِق**»[٥]، وهي عندهما -أيضًا-، إلىٰ غير ذلك من الأحاديث المتواترة في إثبات الحوض، فيجب الإيمان بذلك واعتقاد ثبوته.

---

(١) انظر: «البدور السافرة» (١٩٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦٢٠٩)، ومسلم (٢٣٠٣)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٢١٧)، ومسلم (٢٢٨٩)، وغيرهما من حديث جندب بن عبد الله البجلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه البخاري (٦٢٠٨)، ومسلم (٢٢٩٢)، وغيرهما من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) أخرجه مسلم (٢٢٩٢/ ٢٧)، وغيره من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

⊙ **قوله**: «**وَفِي عَرْصَةِ القِيَامَةِ**»: ظاهره أن الحوض قبل الصراط؛ لأنه يختلج ويمنع منه أقوام قد ارتدوا على أعقابهم، ومثل هؤلاء لا يجاوزون الصراط، وروى البخاري عن سهل بن سعد الأنصاري قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إني فَرَطُكُم على الحَوض، من مرَّ عليَّ شرب، ومَن شرب لم يَظمأ أبدًا، ليردن علي أقوام أعرفهم ويعرفوني ثم يُحال بيني وبينهم**»(١).

قال: «**الحَوْض المَوْرُود لِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**» ظاهره أن الحوض خاصٌّ به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دون غيره من الأنبياء والمرسلين، ولكن جاء في عدة أحاديث أن لكل نبي حوضًا ترد عليه أمته، وإنما الحوض الأعظم مختص به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يشركه فيه غيره، فحوضه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو أعظم الحياض وأحلاها وأكثرها واردًا، كما أخرج الترمذي من حديث سمرة رفعه: «**إن لكلِّ نبي حوضًا، وهو قائمٌ على حوضه، بيده عصا يدعو من عَرف من أمته، إلا أنهم يتباهون أيهم أكثر تبعًا، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تبعًا**»(٢).

واختلف في الميزان والحوض، أيهما يكون قبل الآخر. فقيل: الميزان وقيل: الحوض.

قال أبو الحسن القابسي: والصحيح أن الحوض قبل(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢١٢)، ومسلم (٢٢٩٠)، وغيرهما من حديث سهل بن سعد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٤٣)، والطبراني (٧/ ٢١٢)، وغيرهما من حديث سمرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: «التذكرة» (ص٧٠٣).

قال القرطبي: والمعنىٰ يقتضيه، فإن الناس يخرجون عطاشًا من قبورهم، فيقدم قبل الميزان والصراط[١].

قال القرطبي[٢]: هما حوضان:

الأول: قبل الصراط، وقبل الميزان علىٰ الأصح، فإن الناس يخرجون عطاشًا من قبورهم فيردونه قبل الميزان.

والثاني: في الجنة، وكلاهما يسمىٰ كوثرًا، كما روىٰ مسلم في «صحيحه» عن أنس قال: بينا رسول الله بين أظهرنا؛ إذ أغفىٰ إغفاءة، ثم رفع رأسه مبتسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «**أُنزلت علي آنفًا سورة**»، فقرأ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ [الكوثر: ١]، ثم قال: «**أتدرون ما الكوثر؟**» قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: «**فإنه نهرٌ وَعَدنِيه ربِّي عليه خيرٌ كثير، وهو حَوضي تَرِدُ عليه أمتي يومَ القيامة، آنيتُه عدد نجوم السماء، يُختَلج العبدُ منهم، فأقول: يا ربِّ، إنه من أمتي، فيقال: أما تَدري ما أحدَثوا بعدَك**»[٣].

◈ ◈ ◈

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق (ص٧٠٢).

(٣) أخرجه مسلم (٤٠٠)، وأبو داود (٤٧٤٧)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وَالصِّرَاطُ مَنْصُوبٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ: فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالرِّيحِ، ومِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَرِكَابِ الإِبِلِ، ومِنْهُم مَن يَعْدُو عَدْوًا، وَمِنْهُم مَن يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُم مَن يَزْحَفُ زَحْفًا، وَمَنْهُم مَن يُخْطَفُ خَطْفًا فَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّ الْجِسرَ عَلَيْهِ كَلَالِيبُ تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِم.

فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ، فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ؛ وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِم مِن بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا؛ أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ(١).

وَأَوَّلُ مَن يَسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢)، وَأَوَّلُ مَن يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٣).

الشَّرْح

⊙ قوله: «الصِّرَاطُ»: لغةً: الطريق الواضح، وفي الشرع: جسر منصوب على متن جهنم، وهو الجسر الذي بين الجنة والنار يَرِدُه الأولون والآخرون، فيمرون عليه على قدر أعمالهم، وذلك بعد مفارقة الناس للموقف وحشرهم وحسابهم، فإن الصراط عليه ينجون إلى الجنة، ويسقط أهل النار فيها، كما ثبت في الأحاديث.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٣٣١-١٩٦-١٩٧)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٠/ ٨٥٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

⊙ **قوله: «يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ...»**: أي: أنهم يكونون في سرعة المرور علىٰ مراتبهم وأعمالهم، فبحسب استقامة الإنسان وثباته علىٰ دين الإسلام يكون ثباته واستقامته علىٰ الصراط، فمن ثبت علىٰ الصراط المعنوي الذي هو دين الإسلام ثبت علىٰ الصراط الحسي المنصوب علىٰ متن جهنم، ومن زلَّ عن الصراط المعنوي زلَّ عن الصراط الحسي جزاءً وِفاقًا، وما ربك بظلام للعبيد، وقد تكاثرت الأحاديث في إثبات الصراط، فيجب الإيمان به واعتقاد ثبوته.

في «الصحيح» أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**يُضربُ الصِّراط بين ظَهري جهنَّم، ويمرُّ المؤمنون عليه فرقًا، فمنهم كالبَرق، ثم كمر الريح، ثم كمر الطير، وأشد الرجال، حتىٰ يجيء الرجل ولا يستطيع السير إلا زحفًا، وفي حافتيه كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت بأخذه: فمخدوش ناجٍ، ومكردس في النار**»(١)، ووقع في حديث أبي سعيد: قلنا: وما الجسر؟ قال: «مَدحَضَةٌ مَزلَّة»(٢)، أي: زلق تزلق فيه الأقدام، ووقع عند مسلم: قال: قال أبو سعيد: «بلغني أن الصراط أحد من السيف، وأدق من الشعرة»، وعن سعيد بن هلال قال: «بلغنا أن الصراط أدق من الشعر علىٰ بعض الناس، ولبعض الناس مثل الوادي الواسع»، أخرجه ابن المبارك، وابن أبي الدنيا، وهو حديث معضل، إلىٰ غير ذلك من الأحاديث الثابتة في «الصحاح» و«المسانيد» و«السنن» ما لا يحصىٰ إلا بكلفة. وقد أجمع السلف علىٰ إثباته.

⊙ **قوله: «وَهُوَ الجَسْرُ»**: بفتح الجيم وكسرها لغتان، وهو الصراط.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥)، والحاكم (٨٧٤٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرة، وحذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٠١)، ومسلم (١٨٣)، وغيرهما من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

⊙ **قوله: «يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ»**: أي: أنهم يكونون في سرعة المرور علىٰ حسب مراتبهم وأعمالهم.

⊙ **قوله: «يَعْدُو عَدْوًا»**: أي: يجري أو يركض.

⊙ **قوله: «يَزْحَفُ زَحْفًا»**: قال ابن دُريد: الزحف: هو المشي علىٰ الإست، مع إشرافه بصدره.

⊙ **قوله: «فَإِنَّ الجِسْرَ عَلَيْهِ كَلَالِيبُ»**: جمع كَلُّوب -بفتح الكاف وضم اللام المشددة- وهي حديدة معطوفة الرأس يعلق اللحم ويرسل إلىٰ التنور.

⊙ **قوله: «تَخْطَفُ»**: هي بفتح الطاء، ويجوز كسرها، أي: يختلسها، والخطف: هو استلاب الشيء وأخذه بسرعة.

⊙ **قوله: «بِأَعْمَالِهِمْ»**: أي: تخطفهم بسبب أعمالهم القبيحة.

⊙ **قوله: «فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ وَقَفُوا...»** إلخ: لِما في «الصحيح» عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **«يَخلُص المؤمنون من النار، فيُحبَسُون علىٰ قنطرة بين الجنة والنار، فيُقتصُّ لبعضهم من بعض مظالمَ كانت بينهم في الدنيا، إذا هُذِّبوا ونُقُّوا أُذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسُ محمد بيده، لأحدهم أهدىٰ بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»**[(١)].

وأخرج ابن أبي حاتم بسند صحيح عن الحسن قال: بلغني أن رسول الله صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **«يُحبَسُ أهلُ الجنة بعدما يَجوزون الصراطَ حتىٰ يُؤخَذَ لبعضهم من**

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٧٠)، وغيره من حديث أبي سعيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

بعض ظلامات الدنيا ويدخلون الجنة، وليس في قلوب بعضهم لبعض شيء»[1].

⊙ **قوله:** «عَبَرُوا»: أي: مضوا ونجوا من السقوط في النار بعدما جازوا على الصراط، قال القرطبي: هؤلاء المؤمنون هم الذين علم الله أن القصاص لا يستنفد حسناتهم. اهـ[2].

وخرج من هذا صنفان: من دخل الجنة بغير حساب، ومن أوبقه عمله.

⊙ **قوله:** «عَلَىٰ قَنْطَرَةٍ»: القنطرة: الجسر وما ارتفع من البُنيان، قاله في «القاموس»، وهذه القنطرة المذكورة في الحديث قيل: هي من تتمة الصراط وهي طرفه الذي يلي الجنة، وقيل: إنهما صراطان، وبهذا جزم القرطبي[3]، ولكن القنطرة صراط خاص بالمؤمنين، وليس يسقط أحد منهم في النار. اهـ.

⊙ **قوله:** «فيُقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ»: أي: يُستوفى لكل واحد ما له عند الآخر.

⊙ **قوله:** «فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا»: بضم الهاء والنون، وهما بمعنى: التمييز والتخليص من التبعات. انتهى؛ «فتح»[4].

⊙ **قوله:** «أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ»: أي: بعد اقتصاص بعضهم من بعض، وخلاصهم من التبعات التي بينهم، فلا يبقى في قلوب بعضهم على بعض شيء،

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «التفسير» (٨٤٩٥).

(٢) انظر: «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» (ص٧٦٧).

(٣) في «التذكرة» (ص٧٦٧).

(٤) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (١١/ ٣٩٩).

فيدخلون الجنة، وقد ذهب ما في قلوب بعضهم على بعض من الغل والحقد وغير ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الأعراف: ٤٣] الآية.

⊙ **قوله: «وَأَوَّلُ مَنْ يَسْتَفْتِحُ بَابَ الجَنَّةِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»**: أي: يطلب الفتح للجنة بالقرع، فيفتح له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما في «الصحيح» عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«آتِي بابَ الجنَّة يوم القيامة، فأَستفْتِح، فيقول الخازِنُ: مَن أنت؟ فأقول: مُحمَّد، فيقول: بكَ أُمرتُ أن لا أفتحَ لأحدٍ مِن قبلك»**(١)، وفي رواية: **«أنا أوَّلُ مَن يَقرَع بابَ الجنَّة...»**(٢)، الحديث.

⊙ **قوله: «وَأَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»**: وذلك لفضلها على الأمم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] الآية، وفي «المسند» عن أبي هريرة عن النبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«أنْتم تُوفون سبعين أمَّة أنتم خيرُها وأكرَمُها على الله»**(٣)، وأما قوله سبحانه في بني إسرائيل: ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الجاثية: ١٦]، فالمراد -والله أعلم- على عالمي زمانهم، كشعب بختنصر وغيرهم.

وفي «الصحيح» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٧)، وأحمد (٣/ ١٣٦)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (١٩٦)، وابن حبان (٦٤٨١)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٨)، وأحمد (٥/ ٣)، وغيرهم من حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم أقف عليه من حديث أبي هريرة، وحسنه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «المشكاة» (٦٢٨٥).

«**نحن السَّابِقُون الأوَّلون يومَ القيامة، بَيدَ أنَّهم أُوتوا الكتابَ مِن قَبْلِنا وأُوتيناه مِن بعدهم**»(١)، أي: لم يسبقونا إلا بهذا القدر، فمعنىٰ (بَيْد): معنىٰ (سوىٰ) و(غير) و(إلّا) ونحوها، وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نحنُ الآخِرون الأوَّلون يوم القيامة، ونحن أوَّلُ مَن يدخل الجنةَ**»(٢).

وروىٰ الدارقطني من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنَّ الجنَّة حُرِّمت علىٰ الأنبياء كلهم حتىٰ أدْخُلَها، وحُرِّمت علىٰ الأمم حتىٰ تَدخُلَها أمتي**»(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: فهذه الأمة أسبق الأمم خروجًا من الأرض، وأسبقهم إلىٰ أعلىٰ مكان في الموقف، وأسبقهم إلىٰ ظل العرش، وأسبقهم إلىٰ الفصل والقضاء بينهم، وأسبقهم إلىٰ الجواز علىٰ الصراط، واسبقهم إلىٰ دخول الجنة، فالجنة محرمة علىٰ الأنبياء حتىٰ يدخلها محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومحرمة علىٰ الأمم حتىٰ تدخلها أمته، وأما أول الأمة دخولًا فأبو بكر الصديق، كما رواه أبو داود في «السنن» عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٤). اهـ.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٥٥)، وأحمد (٢/ ٢٤٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٨٥٥/ ٢٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٩٤٢)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم أقف عليه عند الدارقطني، وضعفه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «ضعيف الجامع» (١٤٢٨).

(٤) انظر: «حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح» (١١٢).

وَلَهُ فِي الْقِيَامَةِ ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ:

أَمَّا الشَّفَاعَةُ الأُولَى: فَيَشفَعُ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَرَاجَعَ الأَنْبِيَاءُ؛ آدَمُ، وَنُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسى ابْنُ مَرْيَمَ -عَلَيْهِمْ مِنَ اللهِ السَّلَامُ- عَنِ الشَّفَاعَةِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ(١).

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ: فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَن يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ. وَهَاتَانِ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ.

وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ: فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ: يَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَلَّا يَدْخُلَهَا، وَيَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا.

وَيُخْرِجُ اللهُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا بِغَيرِ شَفَاعَةٍ؛ بَلْ بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ(٢)، وَيَبْقَى فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُنْشِئُ اللهُ لَهَا أَقْوَامًا فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ(٣).

• الشَّرح •

الشفاعة: هي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم، وعرَّفها بعضهم بقوله: هي سؤال الخير للغير، وهي مشتقة من الشفع وهو ضد الوتر، فكأن الشافع ضمَّ سؤاله إلىٰ سؤال المشفوع.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٧٣٨٤)، ومسلم (٣٨/ ٢٨٤٨)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والشفاعة ثابتة تواترت الأدلة في إثباتها، فمنها: ما في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ يدعوها، فأريد أن أخبأ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة»**(١). وعنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لكل نبي دعوة مُستجابة، فتَعجَّل كلُّ نبي دعوته، وإني اختبأتُ دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلةٌ إن شاء الله مَن مات مِن أمتي لا يشرك بالله شيئًا»**(٢) متفق عليه.

وفي «الصحيح» أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«أنا أولُ شافع وأوَّلُ مُشفَّع»**(٣)، وأنه ذُكر عنده عمه أبو طالب، فقال: **«لعلَّه تَنفعه شفاعتي، فيُجعل في ضحْضَاحٍ من نار»**(٤)، وروىٰ البيهقي حديث: **«خُيِّرتُ بين الشفاعة، وبين أن يَدخل شطرُ أمتي الجنة، فاخترتُ الشفاعة؛ لأنها أعم وأكفىٰ، أترونها للمتقين؟ لا، ولكنها للمذنبين المتلوثين الخاطئين»**(٥)، إلىٰ غير ذلك من الأحاديث التي بلغت حد التواتر، فيجب الإيمان بها واعتقاد مضمونها، عكس ما عليه الخوارج والمعتزلة الذين أنكروا شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أهل الكبائر من أمته.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٩٤٥)، ومسلم (١٩٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٤٦)، ومسلم (١٩٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٨)، وابو داود (٤٦٧٣)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) أخرجه مسلم (٢١٠)، وأحمد (٣/ ٨)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٧٥)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وعند ابن ماجه (٤٣١١) من حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم أجده عند البيهقي، وضعفه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «ضعيف الجامع» (٢٩٣٢).

فالناس في إثبات الشفاعة وعدمه انقسموا إلىٰ ثلاثة أقسام:

قسم: غلوا في إثباتها حتىٰ أثبتوا شفاعة الأصنام والأوثان، وهم المشركون ومن وافقهم من مبتدعة هذه الأمة، فأثبتوا الشفاعة التي نفاها القرآن، كما ذكر الله عنهم في قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر: ٣].

القسم الثاني: غلوا في نفي الشفاعة، وهم الخوارج والمعتزلة، فأنكروا شفاعة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أهل الكبائر من أمته.

القسم الثالث: أهل السنة والجماعة، أثبتوا الشفاعة للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولغيره من النبيين والصادقين وغيرهم بقيودها حسب ما جاءت بذلك الأدلة وتواترت الأحاديث في إثبات شفاعته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وأما ما احتجت به المعتزلة لمذهبهم الفاسد في نفي الشفاعة من قوله سبحانه: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]، وقوله: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨]، فاستدلال فاسد، فإن الآيات المذكورة مخصوصة بالكفار، ويؤيد هذا أن مساق الخطاب معهم، وأيضًا:

فالشفاعة المذكورة في القرآن تنقسم قسمين:

شفاعة منفية.

وشفاعة مثبَتة.

فالمنفية: هي الشفاعة للكافر والمشرك، كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدَّثر: ٤٨]، وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا

يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَٰؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس: ١٨]، فنفىٰ وقوع شفاعة هؤلاء وأخبر أنها شرك بقوله: ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾.

النوع الثاني: هو الشفاعة المثبتة، وهي التي أثبتها القرآن، وهي خالصة لأهل الإخلاص، وقيدها بأمرين: إذن الله للشافع أن يشفع، ورضاه عن المشفوع له، كما قال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ [الأنبياء: ٢٨] الآية، وهو سبحانه لا يرضىٰ إلا التوحيد، كما في «الصحيح» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: **«من قال: لا إلهَ إلا اللهُ خالصًا من قلبه»**(١). اهـ.

⊙ **قوله: «وَلَهُ فِي القِيَامَةِ ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ»:**

الشفاعة الأولىٰ: في أهل الموقف حتىٰ يُقضىٰ بينهم بعد أن يتدافعها الأنبياء أصحاب الشرائع: آدم ونوح وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وقد تكاثرت الأحاديث في إثباتها، فوردت من حديث أبي بكر الصديق، وأنس، وأبي هريرة، وابن عباس، وابن عمر، وحذيفة، وعقبة بن عامر، وأبي سعيد الخدري، وسلمان وغيرهم، وهي المرادة: بقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لكل نبي دعوة مستجابة»**(٢) الحديث، وهذا الحديث ذكر السيوطي أنه متواتر، وهذه الشفاعة خاصة به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي مجمع عليها لم ينكرها أحد.

---

(١) أخرجه البخاري (٩٩)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٩٤٦)، ومسلم (١٩٩)، واللفظ له، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

⊙ **قوله: «وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ: فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلُوا الجَنَّةَ»**: وقد ذكرها أبو هريرة في حديثه الطويل المتفق عليه، وفي «صحيح مسلم» عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«أنا أول شفيع في الجنة»**(١)، وهذه الشفاعة كالتي قبلها خاصتان له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

⊙ **قوله: «الثَّالِثَةُ: فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَلَّا يَدْخُلَهَا...»** إلخ: فهذه الشفاعة في عصاة الموحدين الذين يدخلون النار بذنوبهم، والأحاديث بها متواترة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة، وبدَّعوا من أنكرها وصاحوا به من كل جانب، ونادوا عليه بالضلال.

⊙ **قوله: «وَلِسَائِرِ»**: أي: باقي وجميع، وذلك لِما روى ابن ماجه في حديث عثمان: **«يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء»**(٢). وفي «الصحيح» عن أبي سعيد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«قال الله تعالى: شفَعتِ الملائكة، وشفعَ النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يَبْقَ إلا أرحمُ الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط»**(٣) الحديث.

ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الأنواع الأربعة، وزاد في «شرح الطحاوية» وغيره أربعة أنواع أُخر، فيكون الجميع ثمانية بالأربعة التي ذكرها المصنف.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٦)، وأحمد (٣/ ١٤٠)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٣١٣)، والبيهقي في «الشعب» (١٧٠٧)، من حديث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «ضعيف الجامع» (٦٤٢٨)، وقال: موضوع.

(٣) أخرجه مسلم (١٨٣)، والطيالسي (٢١٧٩)، وغيرهما من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والخامس: شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورِفعة درجاتهم، وهذه مما لم ينازع فيه أحد.

السادس: شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة.

السابع: شفاعته في أقوام أن يدخلوا الجنة من غير حساب ولا عذاب، ويحسن أن يستشهد لهذا النوع بما في «الصحيحين» من حديث عكَّاشة بن محصن حين دعا له النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجعله من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة من غير حساب ولا عذاب(١).

الثامن: شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في بعض أهله الكفار من أهل النار حتىٰ يخفف عذابه، وهذه خاصة بأبي طالب، فإن قيل: إن أبا طالب مات كافرًا، وقد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ [المدَّثر: ٤٨]، فأجاب بعض العلماء بقوله: إن شفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي طالب شفاعة تخفيف لا شفاعة إخراج، والمقصود في الآية: أنها لا تنفعهم في الإخراج من النار.

⊙ **قوله: «وَيُخْرِجُ اللهُ أَقْوَامًا مِنَ النَّارِ...» إلخ:**

قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وقال: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وفي «الصحيحين» من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -في حديثه

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣٧٨)، ومسلم (٢١٨)، وغيرهما من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الطويل- قال: فيقول الله: «شَفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط»(١).

⊙ **قوله:** «بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ»: يفيد أن دخول الجنة والنجاة من النار بفضلة سبحانه ورحمته لا بمجرد العمل، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس أحد منكم يدخل الجنة بعمله**»(٢) الحديث، وإنما العمل سبب لدخول الجنة، كما قال تعالىٰ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، والله سبحانه هو خالق السبب والمسبب، فرجع الكل إلىٰ محض فضله وإحسانه ورحمته.

⊙ **قوله:** «وَيَبْقَىٰ فِي الجَنَّةِ فَضْلٌ...» إلخ: أي: زيادة في الجنة عمن دخلها من أهلها، وذلك لسعتها العظيمة، فإنها كما وصفها في كتابه: ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

⊙ **قوله:** «فَيُنْشِئُ اللهُ»: أي: يخلق ويحدث سبحانه أقوامًا فيدخلهم الجنة بفضله ورحمته، كما في «الصحيحين» عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تزالُ جهنَّمُ يُلقىٰ فيها، وهي تقول: هل من مزيد؟ حتىٰ يَضع ربُّ العزة عليها قدمه، فينزوي بعضها إلىٰ بعض، وتقول: قَطْ قَطْ بعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضْل حتىٰ ينشئ الله لها خلقًا فيسكنهم فضل الجنة**»(٣)، وفي لفظ

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٣)، والطيالسي (٢١٧٩)، وغيرهما من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٤٩)، ومسلم (٢٨١٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٦٧)، ومسلم (٢٨٤٨/ ٣٨)، واللفظ له، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

مسلم: «يبقىٰ من الجنة ما شاء الله أن يبقىٰ، ثم ينشئ الله سبحانه لها خلقًا، فيسكنهم فضل الجنة»(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما اللفظ الذي في البخاري من حديث أبي هريرة «أنه ينشئ للنار من يشاء فيلقىٰ فيها، فتقول: هل من مزيد؟»(٢)، فغلط من بعض الرواة انقلب عليه لفظه، والروايات الصحيحة، ونص القرآن يرده، فإن الله سبحانه أخبر أنه يملأ النار من إبليس وأتباعه، فإنه لا يعذب إلا من قامت عليه حجته وكذَّب رسله، كما قال سبحانه: ﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨﴾ [المُلك: ٨] الآيتين(٣)(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٤٨/ ٣٩)، وأحمد (٣/ ٢٦٥)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٧٠١١)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) انظر: «حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح» (٣٩٤).

(٤) قال الشيخ صالح آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (١/ ٤٢٦):

«قال: (فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَىٰ بَعْضٍ، فَتَقُولُ: قَط قَط) يعني بعد أن يضع عليه الجبار جَلَّوَعَلَا قدمه ينزوي بعضُها إلىٰ بعض، يعني يلتقي طرفاها، فتصغر جهنم بعد ذلك، بعد وضع الجبار عليها قدمه، فتكون مملوءة بعد ذلك بأهلها.

فالجنة وعدها الله جَلَّوَعَلَا ملأها ويدخل أهل الجنة فيها ثم يبقىٰ فيها فضل كما جاء ذلك في السنة، يبقىٰ فيها فضل فينشيء الله جَلَّوَعَلَا للجنة خلقًا آخر يدخلهم ويسكنهم الجنة بفضله وبرحمته.

وأما النار فهي دار عدله ودار جزائه، فإذا بقي فيها فضل فإن الله جَلَّوَعَلَا يضع عليها قدمه فينزوي طرفاها وتصغر حتىٰ تمتلئ بأهلها الذين دخلوها، وهذا معنىٰ قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٥﴾ [ص: ٨٥].

فالنار لها ملؤها، والجنة لها ملؤها، وأما إنشاء الخلق للنار فهذا ليس بصحيح، والنار دار عدل =

وَأَصْنَافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِنَ الحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ وَالجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذْكُورَةٌ فِي الكُتُبِ المُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالآثَارَةِ مِنَ العِلْمِ المَأْثُورَةِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ، وَفِي العِلْمِ المَوْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي، فَمَنِ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ.

الشَّرْح

⊙ **قوله**: «وَأَصْنَافُ»: جمع صِنف، وهو النوع والصنف، والنوع والضَّرب بمعنىً واحد.

⊙ **قوله**: «تَضَمَّنَتْهُ»: أي: اشتملت عليه.

⊙ **قوله**: «الدَّارُ الآخِرَةُ»: سميت آخرة لتأخرها عن الدنيا وكونها بعدها.

⊙ **قوله**: «الثَّوَاب وَالعِقَاب»: الثواب والمثوبة جزاء الطاعة، وهو مِن: ثاب يثوب إذا رجع، ويكون الثواب في الخير والشر إلا أنه في الخير أخص وأكثر استعمالًا وهو المراد هنا، والعقاب: العقوبة. قال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ﴾ [المجادلة: ٦] الآية، وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١﴾ [النجم: ٣١].

=

الله جَلَّ وَعَلَا، ولا ينشيء الله لها خلقًا فيملؤها، بل ملؤها يكون من الجِنَّة والناس. وأما الجَنَّة فهي التي يبقىٰ فيها فضل فينشيء الله جَلَّ وَعَلَا لها خلقًا آخر» اهـ.

وفي حديث أبي ذر عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه أنه يقول: «**يا عبادي، إنما هي أعمالُكم أُحصيها لكم، ثم أُوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**»(١)، إلىٰ غير ذلك من الأدلة الدالة علىٰ أن الجزاء مرتب علىٰ الأعمال، قال تعالىٰ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ [الواقعة: ٢٤]، أي: بسبب أعمالكم، فالباء باء السببية، وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ليس أحد منكم يدخل الجنة بعمله**»(٢) الحديث، فالباء المنفية باء العِوَض، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الجنة، كما زعمت المعتزلة أن العامل يستحق دخول الجنة علىٰ ربه بعمله، وقولهم باطل، وقد تقدم الكلام علىٰ هذا البحث.

⊙ **قوله: «الجَنَّة وَالنَّار»**: الجنة لغة: البستان الذي فيه أشجار مثمرة، سميت جنة؛ لاجتنانها وتسترها بالأشجار، والمراد هنا: الدار التي أعدها الله لأوليائه وعباده الصالحين، وأما النار فأعدها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لأعدائه -أعاذنا الله منها- فيجب الإيمان بهما واعتقاد أنهما حق موجودتان الآن؛ لثبوت ذلك في الكتاب والسنة وإجماع الأمة.

قال الله سبحانه عن الجنة: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ [الحديد: ٢١]، وعن النار: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤]، ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ٢٢﴾ [النبأ: ٢١-٢٢].

وأما الأحاديث: فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لما**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، والحاكم (٧٦٠٦)، وغيرهما من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٤٩)، ومسلم (٢٨١٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

خلق الله الجنة قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فنظر إليها، فقال: أي رب، وعزتك وجلالك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، ثم حفَّها بالمكاره، ثم قال: يا جبريل، اذهب فانظر إليها، فذهب ونظر إليها ثم جاء، فقال: أي رب، لقد خشيت أن لا يدخلها أحد، فلما خلق النار قال: يا جبريل، اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها فقال: أي رب، وعزتك وجلالك لا يسمع بها أحد فيدخلها، ثم حفها بالشهوات ثم قال: يا جبريل، اذهب فانظر إليها، قال: أي رب، وعزتك وجلالك لقد خشيت أن لا يبقىٰ أحد إلا دخلها»(١)، رواه أبو داود والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتىٰ يبعثك الله يوم القيامة»**(٢)، وفي «الصحيحين» -واللفظ للبخاري- عن عبد الله بن عباس قال: انخسفت الشمس علىٰ عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فذكر الحديث، وفيه فقالوا: رأيناك تناولت شيئًا في مقامك ثم رأيناك تكعكعت، فقال: **«إني رأيت الجنة وتناولت عنقودًا لو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار فلم أر منظرًا كاليوم قط أفظع منها...»**(٣) الحديث.

وفي «صحيح مسلم» من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«وأيم الذي نفسي بيده، لو**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٤٤)، الترمذي (٢٥٦٠)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (٥٢١٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٣١٣)، ومسلم (٢٨٦٦)، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٠١)، ومسلم (٩٠٧)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا»، قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: «**أعد الله الجنة لأوليائه، وأعد النار لأعدائه**»(١).

ولم يزل علىٰ ذلك أهل السنة والجماعة حتىٰ نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية فأنكرت ذلك وزعمت أن الله ينشئهما يوم القيامة، وأن إيجادهما الآن عبث، وحملهم علىٰ ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة: لِما يفعله الله!! وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي أن يفعل كذا، وقاسوه علىٰ خلقه في أفعالهم، فهم مشبِّهة في الأفعال معطِّلة في الصفات، والأدلة علىٰ بطلان هذا القول أكثر من أن تُحصىٰ.

كما تكاثرت أدلة الكتاب والسنة علىٰ دوام الجنة والنار، وأنهما لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان، قال تعالىٰ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص: ٥٤]، وقال: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحِجر: ٤٨]، وقال في النار: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الأحزاب: ٦٥]، إلىٰ غير ذلك من الأدلة التي لا تحصر.

⊙ **قوله**: «وَتَفَاصِيل ذَلِكَ...»: أي: تبيين ذلك وتوضيحه مذكورة في الكتب المنزلة من السماء، فإن يوم القيامة وما اشتمل عليه معروف عند الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من آدم إلىٰ نوح إلىٰ إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ وغيرهم من حين أهبط آدم، قال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٤]، وقال: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٥]، ولما قال إبليس:

---

(١) أخرجه مسلم (٤٢٦)، والنسائي (١٣٦٣)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحجر: ٣٦]، قال: ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [الحِجر: ٣٧-٣٨].

وأما نوح فقال سبحانه حكاية عنه: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴿١٨﴾ ﴾ [نوح: ١٧-١٨]، وقال إبراهيم: ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٨٢]، وقال: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقال عن موسىٰ: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [طه: ١٥]، ومؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد، وإنما آمن بموسىٰ وحذر قومه مما يقع يوم القيامة، فقال تعالىٰ حكاية عنه: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾ [غافر: ٣٢] إلىٰ قوله: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٩]، إلىٰ غير ذلك مما هو مذكور في الكتب السابقة وعن الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ(١).

---

(١) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية»: (٢/ ٢٩٦-٢٩٧):

«وذلك لشدة الحاجة إلىٰ هذا العلم؛ لأن علم الجزاء من أهم العلوم؛ بل هو أحد العلوم الثلاثة النافعة، فمن علم أحوال الناس يوم القيامة، وما يحصل في ذلك اليوم وما يكون؛ فإن هذا ثلث العلم.

فهذه العلوم الثلاثة: التوحيد، والحلال والحرام، وعلم الجزاء.

وهذا العلم يُطلب تفاصيله من النصوص؛ لأنه لا استنباط فيه، ولا مدخل للفهم فيه، وإنما هو علم مبني علىٰ دليل وليس محلًّا للاجتهاد والرأي، فتفاصيله مذكورة في كل الكتب المنزلة من السماء، والأنبياء يذكرون تفاصيل ذلك، وهو حق علىٰ حقيقته؛ كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به لا =

⊙ **قوله:** «**المَأْثُورَة**»: أي: المنقول المذكور، يقول: أثرت الحديث إذا نقلته من غيرك، واصطلاحًا: الأثر يطلق على المروي مطلقًا سواء كان عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو عن صحابي، وهو قول الجمهور.

⊙ **قوله:** «**العِلْم**»: أي: العلم الشرعي النافع، وهو ما جاء عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العلم ما قام عليه الدليل، والنافع ما جاء عن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**العلم ثلاثة؛ فما سوى ذلك فهو فضل علم: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة**»(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «النونية»:**

العلم قال الله قال رسوله ... قال الصحابة هم أولو العرفان

ما العلمُ نصبَك للخلاف سفاهةً ... بين الرسول وبين رأي فلان

=

يجوز أن نتأول شيئًا من أمور الغيب فنحمله على غير ظاهره، فقاعدة أهل السنة في جميع الغيبيات في الصفات وفيما في الملكوت من خلق الله وما يحصل يوم القيامة، قاعدتهم جميعًا في الغيبيات: أن ما جاء في الشرع من ألفاظ يوصف بها ما غاب عنا يحملونها على ظاهرها، وأن لا يؤولوها بتأويلات تصرفها عن ظاهرها المتبادر منها، فما في يوم القيامة من حشر، وما في يوم القيامة من نور وظلمة وعرق ودنو الشمس والحوض والميزان، وإلى غير ذلك، كل ما في ذلك يُحمل على حقيقته، والنار حقيقة نار تستعر، والجنة دار مُقام... إلى آخره. وفي كل ذلك خالف فيها من خالف -بحملها إلى غير ما يتبادر منها- إما من مبتدعة المتكلمين، وإما من الفلاسفة، في أصناف شتى من أهل الأقوال التي تُنسب لهذه الأمة» اهـ.

(١) أخرجه أبو داود (٢٨٨٥)، وابن ماجه (٥٤)، وغيرهما من حديث ابن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وضعفه العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «ضعيف الجامع» (٣٨٧١).

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله: العلم الممدوح هو الذي ورَّثه الأنبياء، وهذا العلم أقسام ثلاثة:

الأول: علم بالله وأسمائه وصفاته وما يتبع ذلك، وفي مثله أنزل الله سورة الإخلاص وآية الكرسي ونحوهما.

الثاني: العلم بما أخبر الله به مما كان من الأمور الماضية، ومما يكون من المستقبلة، ومما هو كائن من الأمور الحاضرة، وفي مثله أنزل الله القصص والوعد والوعيد وصفة الجنة والنار.

الثالث: العلم بما أمر الله به من الأمور المتعلقة بالقلوب والجوارح من الإيمان بالله، ومن معارف القلوب وأحوالها، وأحوال الجوارح وأعمالها، وهذا يندرج فيه العلم بأصول الدين وقواعد الإسلام، والعلم بالأقوال والأفعال الظاهرة مما هو مذكور في كتب الفقه(١). انتهىٰ.

وقال ابن القيم:

والعلم أقسام ثلاث ما لها ... من رابع والحق ذو تبيان
علمٌ بأوصاف الإله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني

⊙ **قوله**: «الموروث عن محمد صلى الله عليه وسلم»:

الموروث: من الإرث، وهو لغة: البقية وانتقال الشيء من قوم إلىٰ قوم آخرين،

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ٣٩٦-٣٩٧).

والمراد به هنا إرث العلم والحكمة، كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث أبي الدرداء: «**والعلماء ورثة الأنبياء، وأن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر**»(١)، ولهذا قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: إنما ترك ما بين الدفتين، يعني: القرآن، والسنةُ مفسِّرة له ومبيِّنة وموضِّحة، أي: تابعة له، والمقصود الأعظم كتاب الله.

⊙ **قوله**: «يَكْفِي»: أي: يغني.

⊙ **قوله**: «يَشْفِي»: مأخوذ من: شفى يشفي، أي: يبرئ، فالكتاب والسنة بهما غاية الشفاء والكفاية، فقد أنزل الله على نبيه القرآن العظيم الذي شرفه الله على كل كتاب أنزله وجعله مهيمنًا عليها وناسخًا لها، والسنة مفسرة للقرآن ومبينة له وموضحة له، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

ففي كتاب الله وسنة رسوله غاية الشفاء لجميع الأدواء القلبية والبدنية وأدواء الدنيا والآخرة، وفي حديث ابن عباس أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ليس منا من لم يتغن بالقرآن**»(٢)، ولما رأى مع عمر ورقة من التوراة غضب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال:

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وغيرهما من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (٦٢٩٧).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٨٩)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

«أمتهوِّكُون يا ابنَ الخطاب؟! لو كان موسىٰ حيًّا ما وسعه إلا اتباعي»(١).

وروي عن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه حينما سمع رجلًا من قيس كتب كتاب دانيال غضب عليه وأمره فمحاه، وساق ما عمل معه النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

ولم يمت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتىٰ أكمل الله له الدين، فلا خير إلا دل الأمة عليه، ولا شر إلا حذرها منه، وقد أُعطي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جوامع الكلِم وخواتمه، وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «تركتكم علىٰ المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»(٢)، وقال أبو ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «توفي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا وذكر لنا منه علمًا».

⊙ **قوله:** «فَمَنِ ابْتَغَاهُ»: أي: طلبه.

⊙ **قوله:** «وَجَدَهُ»: أي: حصَّله وأدركه، فهو سهل اللفظ، قريب المعنىٰ، واضح الأسلوب، قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٧﴾ [القمر: ١٧](٣).

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٧)، والبيهقي في «الشعب» (١/ ١٩٩)، من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وحسنه العلامة الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ في «المشكاة» (١٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٧٦)، والحاكم (٣٣١)، واللفظ له، وغيرهما من حديث العرباض بن سارية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ في «السلسلة الصحيحة» (٩٣٧).

(٣) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٢٩٧-٣٠١):**

«وإذا تقرر هذا فإن علىٰ المؤمن أن يستعد لذلك اليوم أشد الاستعداد؛ لأنه يوم مَهيب عصيب، وكل أحد سيلقىٰ ما عمل، وهي الحياة الباقية التي ليس ثَم حياة بعدها، ولا دار =

=

للتصحيح بعدها، ولا مكان بعدها يمكن أن تعمل فيه فتُغير حالك، فالمكان الذي اختُبرت فيه وابتُليت فيه بالاتباع بالاستجابة هو هذه الدار؛ فإن كنت فيها مفلحًا ناجحًا فأنت في الآخرة كذلك، ومَن كان فيها أعمىٰ فهو في الآخرة أعمىٰ؛ ولهذا يجب علىٰ المؤمن أن يُثمر في قلبه الإيمان باليوم الآخر ثمرات عظيمة وعديدة، وأعظم تلك الثمرات أن يكون قلبه معلقًا بالآخرة في حركاته وأعماله، وأن يكون الله جَلَّوَعَلَا أعظم في قلبه من الخلق، ويكون عمله لله لينال رضىٰ الله عنه؛ فإن غضب الناس عليه أو سخطهم عليه ليس بشيء ما دام الله راضيًا عنه؛ لأن الله جَلَّوَعَلَا هو الذي خلق، وهو الذي رزق، وهو الذي إليه المآب وإليه الرجعىٰ؛ فإن كان كذلك فإنما المسير إليه، وإنما العمل سيرىٰ بين يديه.

ولهذا يجب علىٰ المؤمن أن يأخذ حِذره، وأن لا يتمنىٰ علىٰ الله الأماني، وألا يجعل حياته هكذا تذهب دون استعداد ودون جد في حياته؛ لأنك إذا كنت جادًّا في هذه الدنيا فإنك ستجد -إن شاء الله- ثمرة ذلك في الآخرة، ومن أعظم ما يكون أن المرء إذا عمل عملًا صالحًا وعزم في قلبه علىٰ أعمال صالحات كثيرة؛ فإنه يكتب له ذلك وإن توفاه الله جَلَّوَعَلَا، وهذه من العظائم؛ فإن الله جَلَّوَعَلَا قال: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]، فمن سعىٰ في شيء وقلبه معلق أنه يعمل كذا وكذا في الخيرات إذا امتد به الزمن وامتدت به الحياة؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ كريم يعطي عباده بغير حساب ويجزل لهم الثواب، ومن رحمته وكرمه بعباده المؤمنين أن العبد إذا كان قلبه معلقًا بشيء في المستقبل أن يعمله من الطاعات متىٰ ما حان الأوان فإنه يؤته ذلك.

وكم من رجل تمنىٰ أن يموت شهيدًا في سبيل الله ولم يحصل له لقاء الأعداء بالجهاد، فمات علىٰ فراشه، فبلَّغه الله عَزَّوَجَلَّ منازل الشهداء! وكم من رجل تمنىٰ أن يكون في علمه عالمًا وإمامًا للمتقين، فمات قبل ذلك! فلعل الله عَزَّوَجَلَّ أن يبلغه ذلك... وهكذا؛ فإن النيات عظيمة وهي مطايا، وإذا خلص قصد العبد ومحبته لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله فإنه يحصل علىٰ الخير، والله عَزَّوَجَلَّ يعلم ما في الصدور، ويعلم ما تكنه قلوب الناس، فإذا نويتَ خيرًا فأبشر بالخير، وإذا نويتَ غير ذلك فأنت وما ترتضي لنفسك.

لهذا من الخير أن تجعل أمانيك من الخيرات عظيمة، وألا تقنع في أمرك مثلًا من العلم

=

وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ.

وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ:

فَالدَّرَجَةُ الأُولَى: الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِمَ مَا الْخَلْقُ عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلًا وَأَبَدًا، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِمْ مِنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي

= والتعلم بشيء يسير؛ بل كن كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في وصف المؤمنين الصالحين: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٢-٧٥] دعوا بدعوة، فقد يكونون صاروا أئمة أو لا، لكن فضل الله عَزَّوَجَلَّ يؤتيه من يشاء.

وثَم فرق عظيم بين حب الإمامة في الدين وبين الترفع وحب الجاه والرغبة في أن ينظر الخلق إلىٰ ذلك الرجل، وقد ذكر هذا الفرق ابن القيم وغيره، فمصدر محبة الإمامة في الدين الرضىٰ عن الله عَزَّوَجَلَّ وعن شرعه ودينه، والرغبة في الآخرة، وأن يكون قلب الرجل معلقًا بالآخرة ولا ينظر إلىٰ الدنيا، فهو يريد أن يكون إمامًا للمتقين لكي يهديهم إلىٰ دين الله، ولكي يبصِّرهم في أمر الله ونهيه، وما جاء في كتابه، فيحب ذلك لا لنفسه ولكن محبة لدلالة الخلق علىٰ خالقهم، وإرشاد الخلق ما يرضي ربه عَزَّوَجَلَّ.

وأما الآخر فمراده وقصده أن يكون له في الناس جاه وسمعه ورفعة، إذا حصل له ذلك حصل له مبتغاه، فهذا من الشيطان.

ولهذا ينبغي للمؤمن أن يقدِم علىٰ سبل الخير، ويُخلص فيها نيته وقصده، ويجاهد نفسه في ذلك؛ فإنه علىٰ شعبة من شعب الخير، وإذا رأىٰ من نفسه حب الشهرة أو حب الجاه أو حب السمعة أو حب الرفعة -حتىٰ في كلمة يقولها بين أصحابه- فليعلم أنه يوم القيامة لابد أن يحاسب علىٰ كل شيء، والإخلاص هو الذي به تصلح الأعمال وتحسن، ففرق بين المقامات، والله عَزَّوَجَلَّ هو الموفق والهادي إلىٰ سواء السبيل» اهـ.

وَالأَرْزَاقِ وَالآجَالِ.

ثُمَّ كَتَبَ اللهُ تَعَالَى فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ.

فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ: الْقَلَمُ، فَقَالَ لَهُ: «اكْتُبْ»، فَقَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: «اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

فَمَا أَصَابَ الإِنْسَانَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ، جَفَّتِ الأَقْلَامُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، وَقَالَ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢].

الشرح

⊙ **قوله:** «وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ...» إلخ(١):

---

(١) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ١٨٩-١٩٠):

«وللإيمان بالقدر فوائد، منها:

أولًا: أنه من تمام الإيمان، ولا يتم الإيمان إلا بذلك.

ثانيًا: أنه من تمام الإيمان بالربوبية؛ لأن قدر الله من أفعاله.

ثالثًا: رد الإنسان أموره إلى ربه؛ لأنه إذا علم أن كل شيء بقضائه وقدره؛ فإنه سيرجع إلى الله في دفع الضراء ورفعها، ويضيف السراء إلى الله، ويعرف أنها من فضل الله عليه.

رابعًا: أن الإنسان يعرف قدر نفسه، ولا يفخر إذا فعل الخير.

خامسًا: هون المصائب على العبد؛ لأن الإنسان إذا علم أنها من عند الله، هانت عليه المصيبة؛ =

(القَدَر)[1]: بالفتح والسكون لغة: مصدر قدرت الشيء، إذا أحطت بمقداره،

=

كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، قال علقمة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضىٰ ويسلم» [أخرجه الطبري (٢٨/ ١٢٣)].

سادسًا: إضافة النعم إلىٰ مسديها؛ لأنك إذا لم تؤمن بالقدر، أضفت النعم إلىٰ من باشر الإنعام، وهذا يوجد كثيرًا في الذين يتزلفون إلىٰ الملوك والأمراء والوزراء، فإذا أصابوا منهم ما يريدون؛ جعلوا الفضل إليهم، ونسوا فضل الخالق سبحانه.

صحيح أنه يجب علىٰ الإنسان أن يشكر الناس؛ لقول النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**من صنع إليكم معروفًا فكافئوه**» [أخرجه أبو داود (١٦٧٢)، والنسائي (٢٥٦٧)، من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح الجامع» (٦٠٢١)]، ولكن يعلم أن الأصل كل الأصل هو فضل الله عَزَّ وَجَلَّ جعله علىٰ يد هذا الرجل.

سابعًا: أن الإنسان يعرف به حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنه إذا نظر في هذا الكون وما يحدث فيه من تغييرات باهرة، عرف بهذا حكمة الله عَزَّ وَجَلَّ، بخلاف من نسي القضاء والقدر، فإنه لا يستفيد هذه الفائدة» اهـ.

(١) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٣٠٨):**

«فهذا الباب -باب القدر- مبني علىٰ عدم الخوض في الحِكَم، بعدم الخوض في التعليلات، أي: مبني علىٰ التسليم؛ لأن ذلك سر الله عَزَّ وَجَلَّ، فإذا تدارسناه فإننا نتدارسه لأجل فهم الأدلة وما ثبت بالدليل، وقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إذا ذُكر القدر فأمسكوا**» [أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٤٤٨) من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الصحيحة» (٣٤)]، يعني: أمسكوا عن الخوض فيه بغير علم، أما الكلام في القدر بعلم فإنه فهم لنصوص الكتاب والسنة، وما دام أن الله عَزَّ وَجَلَّ أخبرنا بذلك، وأخبرنا به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فإنَّ فَهمَه والعِلمَ به وتدارسه وذكره هذا فهم للشرع؛ وليس ذلك مما يُمسَك عن الكلام فيه، وإنما يُمسَك

=

وعرَّفه بعضهم بقوله: هو تعلق علم الله وإرادته أزلًا بالكائنات قبل وجودها، فلا حادث إلا وقد قدَّره الله أزلًا، أي: سبق به علمه وتعلقت به إرادته، والإيمان بالقدر هو أحد أصول الإيمان الستة المذكورة في حديث جبريل وغيره، وأجمع عليها أهل السنة والجماعة، ولم يخالف في ذلك إلا مجوس هذه الأمة القدرية، وقد خرجوا في أواخر عهد الصحابة، وأنكر عليهم الصحابة الموجودون إذ ذاك، وأول من قال ذلك معبد الجهني بالبصرة، كما روىٰ مسلم في «صحيحه» عن ابن عمر أنه قال: «والذي نفسي بيده، لو كان لأحدهم مثل أُحُد ذهبًا ما قَبِله الله منه حتىٰ يؤمن بالقدر خيره وشره»، ثم استدل بقول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمنَ بالقدر خيره وشره**»(١)، فجعل الإيمان بالقدر سادس أصول الإيمان، فمن أنكره فليس بمؤمن، بل ولا مسلم، فلا يقبل عمله.

وقال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ **بعد ذكر آثار في الإيمان بالقدر، قال**: وهذه الآثار كلها تحقق هذا المقام، وتبين أن من لم يؤمن بالقدر، فقد انسلخ من التوحيد، ولبس جلباب الشرك، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه، وهذا في كل كتاب أنزله الله علىٰ رسله(٢). انتهىٰ.

=

عن الكلام في الخوض في هذه المسائل بدون علم، يعني في التعليلات والآراء، أما إذا كان تفقهًا في دلالات الكتاب والسنة فإن هذا من العلم النافع؛ بل من العلم الذي يجب علىٰ طائفة من هذه الأمة أن تتفقه فيه وتُعلمه حتىٰ تحفظ علىٰ الأمة دينها» اهـ.

(١) أخرجه مسلم (٨)، وأبو داود (٤٦٩٥)، وغيرهما من حديث عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) انظر: «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (٨٣).

وقال طاوس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أدركت ثلاث مئة من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقولون: كل شيء بقدر(١).

وقال أيوب السختياني: أدركت الناسَ وما كلامهم إلا أن قضىٰ وقدَّر(٢).

وفي «صحيح مسلم» عن طاوس: أدركت أناسًا من أصحاب رسول الله يقولون: كل شيء بقدر، وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ حَتَّىٰ العَجْزِ وَالكَيْسِ**»(٣).

⊙ **قوله**: «خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»: فلا كائن إلا بإرادته ومشيئته، فهو الخالق لكل شيء.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إثبات الشر في القضاء إنما هو بالإضافة إلىٰ العبد والمفعول إذا كان يقدر عليه بسبب جهله وظلمه وذنوبه لا إلىٰ الخالق، فله في ذلك من الحِكَم ما تقصر عنه أفهام البشر، فهو شر بالإضافة إلىٰ العبد، وأما بالإضافة إلىٰ الخالق، فكله خير وحِكَم، فإنه صادر عن حكمة وعلم، وما كان كذلك فهو خير محض بالنسبة إلىٰ الرب؛ إذ هو موجب أسمائه وصفاته، ولا تعارض بينه وبين قوله: «**والشر ليس إليك**»(٤)؛ لأن معناه: أنه يمنع إضافة الشر إليه بوجه من الوجوه، فلا يضاف الشر إلىٰ ذاته ولا إلىٰ أسمائه وصفاته وأفعاله، فإن ذاته منزهة عن كل شر وصفاته كذلك، إذ كلها صفات كمال ونعوت جلال لا نقص فيها بوجه من الوجوه.

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (ص٦٦).

(٢) السابق.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٥٥)، وأحمد (٢/ ١١٠)، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه مسلم (٧٧١)، وأبو داود (٧٦٠)، وغيرهما من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

انتهىٰ بتصرف(١)(٢).

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (٩٣).

(٢) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ١٨٧-١٨٩):

«وقوله: «بالقدر خيره وشره»: القدر في اللغة، بمعنىٰ: التقدير، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]، وقال تعالىٰ: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المرسلات: ٢٣].

وأما القضاء فهو في اللغة: الحُكم.

ولهذا نقول: إن القضاء والقدر متباينان إن اجتمعا، ومترادفان إن تفرَّقا، علىٰ حد قول العلماء: هما كلمتان: إن اجتمعتا افترقتا، وإن افترقتا اجتمعتا.

فإذا قيل: هذا قدر الله؛ فهو شامل للقضاء، أما إذا ذكرا جميعًا؛ فلكل واحد منهما معنىٰ.

فالتقدير: هو ما قدره الله تعالىٰ في الأزل أن يكون في خلقه.

وأما القضاء، فهو ما قضىٰ به الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير، وعلىٰ هذا يكون التقدير سابقًا.

فإن قال قائل: متىٰ؟ قلنا: إن القضاء هو ما يقضيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خلقه من إيجاد أو إعدام أو تغيير، وإن القدر سابق عليه إذا اجتمعا؛ فإن هذا يعارض قوله تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، فإن هذه الآية ظاهرها أن التقدير بعد الخلق.

فالجواب علىٰ ذلك من أحد وجهين:

إما أن نقول: إن هذا من باب الترتيب الذكري لا المعنوي، وإنما قدم الخلق علىٰ التقدير لتتناسب رءوس الآيات.

ألم تر إلىٰ أن موسىٰ أفضل من هارون، لكن قدم هارون عليه في سورة «طه» في قوله تعالىٰ عن السحرة: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه: ٧٠]، لتتناسب رءوس الآيات، وهذا لا يدل علىٰ أن المتأخر في اللفظ متأخر في الرتبة.

أو نقول: إن التقدير هنا بمعنىٰ: التسوية؛ أي: خلقه علىٰ قدر معين؛ كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الأعلىٰ: ٢]؛ فيكون التقدير بمعنىٰ: التسوية.

=

⊙ **قوله:** «وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَىٰ دَرَجَتَيْنِ» إلخ:

ذكر المصنف مراتب الإيمان بالقدر، فبدأ بمرتبة العلم، وقد تقدم الكلام علىٰ صفة العلم، وأنها من الصفات الذاتية، وأنها متناولة الموجود والمعدوم، والواجب والممكن، والممتنع.

قال شيخ الإسلام: إن علم الله السابق محيط بالأشياء علىٰ ما هي عليه لا محو فيه ولا تغيير، ولا زيادة ولا نقص، فإنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون، وما لا يكون، ولو كان كيف يكون(١). انتهىٰ.

والأدلة علىٰ إثباتها من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصر، واتفق عليها الصحابة والتابعون ومَن تبعهم، ولم يخالف فيها إلا مجوس هذه الأمة.

⊙ **قوله:** «**فَالدَّرَجَةُ الأُولَىٰ: الإِيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ عَلِمَ مَا الْخَلْقُ عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ...**» إلخ: قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، فهو سبحانه موصوف بالعلم، وبأنه بكل شيء عليم أزلًا وأبدًا، فلم يتقدم علمه جهالة، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم: ٦٤]، فيعلم سبحانه ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وأشار بما تقدم للرد علىٰ غلاة المعتزلة والرافضة الذين أنكروا أن الله عالم بالأول، وقالوا: إن الله لا يعلم أفعال العباد حتىٰ يفعلوها -تعالىٰ الله عن قولهم علوًّا كبيرًا- قال تعالىٰ:

=

وهذا المعنىٰ أقرب من الأول؛ لأنه يطابق تمامًا؛ لقوله تعالىٰ: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الأعلىٰ: ٢]، فلا إشكال» اهـ.

(١) انظر: «مختصر الفتاوىٰ المصرية لابن تيمية» (١٨٨).

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [المُلك: ١٤].

⊙ **قوله**: «أَزَلًا وَأَبَدًا»: الأزل: القِدَم الذي لا نهاية له، فالأزل هو الدوام في الماضي، والأبد ما ليس له آخر فهو الدوام في المستقبل، فالأزلي: هو الذي لم يزل كائنًا، والأبدي: هو الذي لا يزال كائنًا، وكونه لم يزل كائنًا، وكونه لم يزل ولا يزال معناه: دوامه وبقاؤه الذي ليس مبتدأ ولا منتهىٰ. انتهىٰ من كلام شيخ الإسلام(١).

⊙ **قوله**: «مِنَ الطَّاعَاتِ»: جمع طاعة، مأخوذة من: طاع يطوع، واصطلاحًا: الطاعة: هي موافقة الأمر، وكل قربة طاعة ولا عكس، والمعاصي: جمع معصية وهي ضد الطاعة، والمعصية: هي الذنب والإثم، ألفاظ مترادفة، والمعصية اصطلاحًا: مخالفة الأمر.

⊙ **قوله**: «وَالأَرْزَاقِ وَالآجَالِ»: الأرزاق جمع رزق، وهو لغة: الحظ والنصيب، وشرعًا: هو ما ينفع من حلال وحرام، قال الله تعالىٰ: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، فلابد لكل مخلوق من استكمال رزقه، كما في حديث حذيفة، أن رسول الله ﷺ قال: «**هذا رسول رب العالمين نفث في رُوعي أنه لا تموت نفس حتىٰ تستكملَ رزقها**»(٢)، رواه البزار، وفي المتفق عليه من حديث ابن مسعود قال: «**يرسل المَلَك فيؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله**

---

(١) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٢/ ٢٢٥).

(٢) أخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، والبزار كما في «صحيح الترغيب»، من حديث حذيفة رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧٠٢).

وعمله وشقي أو سعيد»[١] الحديث.

وزعمت المعتزلة أن الحرام ليس برزق، فعلىٰ قولهم يكون من أكل الحرام طول عمره لم يرزقه الله، وهذا باطل مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف، فإن الله سبحانه رازق كل الخلق، وليس مخلوق بغير رزق، ومعلوم أن الحرام معيشة لبعض الناس، وقال تعالىٰ: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾ [هود: ٦].

وقد قسم سبحانه معايشهم في الحياة الدنيا: قال تعالىٰ: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾ [الزُّخرُف: ٣٢]، وفي الحديث: «**إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم**»[٢]، إلىٰ غير ذلك من الأدلة.

⊙ **قوله**: «وَالآجَالِ»: أي: أنه سبحانه قد عَلِم رزقه وأجله قبل خلقه وإيجاده، قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]، والأجل هو غاية الوقت في الموت ومدة الشيء. وفي «صحيح مسلم» عن عبد الله قال: قالت أم حبيبة زوج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «اللهم أمتعني بزوجي رسول الله وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية» قال: فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: «**لقد سألتِ اللهَ لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئًا قبل أجله أو يؤخر شيئًا عن أجله، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في القبر كان خيرًا أو أفضل**»[٣]، إلىٰ

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٢٦)، ومسلم (٢٦٤٣)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٧)، والبيهقي في «الشعب» (٥٥٢٤)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٦٣)، وأحمد (١/ ٣٩٠)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ.

غير ذلك من الأدلة علىٰ أن الميت مات بعد استيفاء أجله واستكمال رزقه، سواء مات حتف أنفه أو مات بالقتل، خلافًا للمعتزلة القائلين بأن المقتول قطع عليه أجله، وقولهم باطل ترده أدلة الكتاب والسنة.

⊙ **قوله: «ثُمَّ كَتَبَ اللهُ تَعَالَىٰ فِي اللَّوْحِ» إلخ:**

هذه المرتبة الثانية من مراتب الإيمان بالقدر، وهي مرتبة الكتابة، وهي أن الله كتب مقادير الخلائق وما هو كائن إلىٰ يوم القيامة في اللوح المحفوظ، فأعمال العباد تجري علىٰ ما سبق في علمه وكتابته.

والأدلة من الكتاب والسنة علىٰ إثبات هذه المرتبة كثيرة جدًّا، وأجمع علىٰ إثباتها الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة والحديث، قال الله تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ [الحديد: ٢٢] الآية، وفي «سنن أبي داود» عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتىٰ تقوم الساعة**»(١).

وفي «الصحيح» من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**قدّر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه علىٰ الماء**»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠)، والبيهقي (١٠/ ٢٠٤)، وغيرهما من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (٢٠١٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٣)، والترمذي (٢١٥٦)، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

وأفاد هذا الحديث: أن التقدير وقع بعد خلق العرش، فدل علىٰ أن العرش مخلوق قبل القلم(١).

---

(١) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٣١٤-٣١٦):

«هذا كما جاء في الحديث الذي رواه أبو داود وغيره: «**أول ما خلق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ القلم قال له: اكتب...**» [أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن أبي داود»] هكذا يرويها بعضهم «**أَوَّلُ**»، وشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ لا يختار أن تُقرأ علىٰ هذا النحو: «**أَوَّلُ**»، وإنما يختار أن تُقرأ «**أَوَّلَ**» فتكون قراءته هنا فيما ذُكر: «**فأولَ ما خلق الله: القلم قال له: اكتب**»، وتكون (أولَ) بمعنىٰ حين، يعني: أول شيء بعد خلقه قال له: اكتب.

ولفظ: «**أولَ ما خلق الله القلم قال له: اكتب**» ما هو المعتمد فيه، هل هو «**أولُ**» أو «**أولَ**»؟ الصحيح أنه (أولَ)، يعني: حين؛ وذلك لأن القلم -علىٰ الصحيح- خُلق بعد العرش، فليس القلم أول مخلوقات الله، بل العرش كان مخلوقًا قبله، وهذه المسألة مرتبطة بمسائل أخرىٰ مما يسمونه: تسلسل وقِدَم جنس المخلوقات.

المقصود من ذلك أن القلم لما خلقه الله عَزَّوَجَلَّ أمره أن يكتب، وأن العرش كان مخلوقًا قبل خلق القلم.

والقول الثاني: أن القلم قبل العرش لأجل دِلالة هذا الحديث: «**أولُ ما خلق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ القلم قال له: اكتب...**»، في رواية بـ(الفاء): «**فأولُ**» وهذه لا تناسب «**أولُ**»، وفي رواية أخرىٰ: «**إن أولَ ما خلق الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ القلم**»، وتوجيه ذلك أن هذه مروية بالمعنىٰ، لهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

والناس مختلفون في القلم الذي ... كُتب القضاء به من الديان
هل كان قبل العرش أو هو بعده ... قولان عند أبي العلا الهمذاني
والحق أن العرش قبلُ لأنه ... قبل الكتابة كان ذا أركان

=

⊙ **قوله: «فَمَا أَصَابَ الإِنْسَانَ» إلخ:** هذا هو حقيقة الإيمان بالقدر، فما يصيب الإنسانَ مما يضره وينفعه، فكله مقدَّر عليه، ولا يصيب العبد إلا ما كُتب له من مقادير ذلك في الكتاب السابق، كما قال سبحانه: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١]، وفي حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال له: «**واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك...**»(١) الحديث(٢).

=

وكتابـــة القلـــم الشـــريف تعقبـــت ... إيجـــاده مـــن غيـــر فصـــل زمـــان

لمـــا بـــراه الله قـــال اكتـــب كـــذا ... فغـــــدا بـــــأمر الله ذا جريـــــان

فجـــرىٰ بمـــا هـــو كـــائن أبـــدًا إلـــىٰ ... يـــوم المعـــاد بقـــدرة الـــرحمن

هذا هو الصحيح: أن القلم مخلوق بعد العرش والعرش قبل ذلك، فإذًا يكون قوله هنا: «**فأولَ ما خلق الله: القلم قال له: اكتب**» يعني: حين خلق الله القلم، فتكون (ما) هنا ليست موصولة، وإنما هي مصدرية؛ لأنها إذا كانت موصولة يعني (أولُ الذي خلق الله) يصير علىٰ هذا المعنىٰ حين خلق الله القلم قال له: اكتب، يعني: عند خلق القلم قال الله له بعد أن خلقه: اكتب، وهذا هو الذي يقرره شيخ الإسلام، فتُفهم عقيدته هذه علىٰ نحو ما يقرر في كتبه» اهـ.

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧)، وغيرهما من حديث أبي بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُٱللَّهُ في «صحيح الجامع» (٥٢٤٤).

(٢) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٣١٩-٣٢٢):**

«وهناك توفيق وهناك خِذلان، والتوفيق والخذلان من الألفاظ التي يختلف فيها قول أهل السنة عن قول غيرهم.

فالتوفيق عند أهل السنة: هو إعانة الله العبد علىٰ الفعل، وإضعاف أو إبطال الأسباب التي تعيق الفعل؛ فالله عَزَّوَجَلَّ يوفق للطاعات، وهو سبحانه أعطىٰ العبد أن يختار هذا وهذا، وهذا

=

=
الخيار عدلٌ منه عَزَّوَجَلَّ، فيمُن عَزَّوَجَلَّ على بعض العباد بأن يوفقهم، يعني: يعينهم على الطاعة؛ وذلك بأن يعطي العبد قوة عليه ويعينه على ذلك ويُثبط أو يبطل أو يعطل أو يضعف الأسباب التي تعوق دون فعله.

وهذه لها تفاصيل لكن بالمثال يمكن أن يقرب الكلام، ولا شك أن العبد في تحصيله لأي فعل من الأفعال لابد له من إرادة وقدرة، لا يمكن أن يحصل فعل إلا بإرادة جازمة وقدرة تامة، فإذا كانت إرادته قاصرة مترددة لم يحصل الفعل، وإذا كانت قدرته ناقصة لم يتم الفعل، أو كان ليس عنده قدرة لم يتم الفعل، فإذا وُجدت القدرة والإرادة تم الفعل، هذا من جهة؛ فإعانته على أن يريد وأن يتوجه قلبه لذلك هنا فيه إعانة خاصة، وإقداره على ذلك في بعض الأعمال التي تحتاج إلى قدرة خاصة، يعني: ليست مما يتوجه لها العبد ابتداء، مثل: الجهاد مثلًا، والأعمال العظيمة، فالله عَزَّوَجَلَّ يوفقه بأن يجعله قادرًا على أن يتوجه إلى الفعل، وهناك مثبطات من عمل شياطين الجن والإنس ومن الملهيات والشهوات... إلى آخر ذلك. فالله عَزَّوَجَلَّ يوفقه بإضعاف الأسباب المثبطة عن الفعل، أو إبطال تلك الأسباب وعدم تعرضها لهذا العبد الموفَّق.

فإذًا التوفيق عند أهل السنة والجماعة يشمل شيئين:

الأول: إعانة خاصة على الإرادة والقدرة.

الثاني: إضعاف أو إبطال أو تعطيل الأسباب المثبطة عن العمل.

أما الخذلان فهو: أن يُترك العبد ونفسه، والعبد يُعامَل بالعدل، فلا يعان في إرادة ولا قدرة، ولا تُثبَّط عنه، أو تُضعَف أو تبطَل أو تعطَّل الأسباب المانعة، فإذا خُذل العبد تسلطت عليه شياطين الإنس والجن، وتسلطت عليه الشهوات، فخُذل ووُكل إلى نفسه، ومن وكل إلى نفسه فقد خسر خسرانًا مبينًا؛ ولهذا كانت «لا حول ولا قوة إلا بالله» كنزًا من كنوز الجنة؛ لأنها سبب كل خير، وهي سبب الأعمال التي تُدخِل إلى الجنة؛ لأن معناها أنه لا توفيق إلا بالله ولا إعانة إلا من الله، فهي طلب للتوفيق وإبعاد عن الخذلان.

أما الأشاعرة -وهذه تكثر عند النووي في «شرحه على مسلم» وغيره- فإنهم يفسرون التوفيق بأنه خَلق القدرة على الطاعة، والخذلان: منع القدرة عن الطاعة، أو خلق قدرة على المعصية، بأنه منع
=

⊙ **قوله: «جَفَّتِ الأَقْلَامُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ»**: هذا كناية عن كتابة المقادير كلها والفراغ منها من أمد بعيد، وقد دل الكتاب والسنة علىٰ مثل هذا المعنىٰ كما في حديث ابن عباس المتقدم: **«واعلم أن الأمة لو اجتمعوا علىٰ أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا علىٰ أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفَّت الصحف»**(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له: **«جفَّ القلمُ بما أنت لاقٍ»**(٢). وفي «صحيح مسلم» عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا قال: يا رسول الله، فيم العمل؟ أفيما جفت الأقلام وجرت به المقادير؟ أم فيما يُستقْبَل؟ قال: **«فيما جفَّت به الأقلامُ وجرَت به المقاديرُ»**، قال: ففيم العمل؟ قال: **«اعملوا فكل مُيَسَّرٌ لِما خُلق له»**(٣).

=

القدرة علىٰ الطاعة، أو خلق قدرة علىٰ المعصية، وهذا عندهم وعند المعتزلة تقريبًا، وهو ليس بجيد؛ لأن خلق القدرة علىٰ الطاعة هذه مقارنة، والتوفيق سابق خلق القدرة علىٰ الطاعة، وهذا ظاهر أصلًا من قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمن سأله عما يقربه من الجنة ويباعده من النار: «لقد وُفق هذا» [أخرجه مسلم (١٢/ ١٣) من حديث أبي أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا] أي: هُدي إلىٰ ذلك الشيء فأُعين عليه وأُبطلت الأسباب المثبطة عنه، وهذا له تفاصيل تزيد علىٰ ذلك» اهـ.

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (١/ ٢٩٣)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «المشكاة» (٥٣٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٧٨٨)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٤٨) واللفظ له، وأحمد (٣/ ٣٠٤)، وغيرهما من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قد تضمن هذا الحديث الرد علىٰ القدرية والجبرية، وإثبات القدر والشرع، وإثبات الكتاب الأول المتضمن لعلم الله سبحانه الأشياء قبل كونها، وإثبات خلق الفعل الجزائي، وهو يبطل أصول القدرية الذين ينفون خلق الفعل مطلقًا، ومن أقر منهم بخلق الفعل الجزائي دون الابتداء هدم أصله ونقض قاعدته، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر بمثل ما أخبر به الرب: أن العبد مُيسَّر لِما خُلق له لا مجبور، فالجبر لفظ بدعي، والتيسير لفظ القرآن والسنة(١). اهـ.

⊙ **قوله**: «**الأَقْلَام**»: ذكر الأقلام في هذه الأحاديث وغيرها مجموعة، دليل علىٰ أن للمقادير أقلامًا غير القلم الأول الذي تقدم ذكره مع اللوح المحفوظ، والذي دلت عليه السنة أن الأقلام أربعة:

الأول: القلم العام الشامل لجميع المخلوقات، وهو الذي كُتب به مقادير كل شيء.

الثاني: حين خلق آدم، وهو قلم عام أيضًا، لكن لبني آدم، وورَد في هذا آيات تدل علىٰ أن الله قدر أعمال بني آدم وأرزاقهم وآجالهم وسعادتهم عَقيب خلق أبيهم.

الثالث: حين يرسل الملك إلىٰ الجنين في بطن أمه، فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أو سعيد.

الرابع: الموضوع علىٰ العبد عند بلوغه الذي بأيدي الكرام الكاتبين الذين يكتبون ما يفعله بنو آدم، كما ورد ذلك في الكتاب والسنة. انتهىٰ من كلام ابن القيم(٢).

---

(١) انظر: «التبيان في أقسام القرآن» (٦٤).

(٢) لم أقف عليه لابن القيم، والكلام بنصه موجود في «شرح الطحاوية» (٢/ ٣٤٨).

⊙ **قوله:** «﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾»: أي: من قحط وقلة نبات وقلة ثمار.

⊙ **قوله:** «﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾»: من أمراض وفقد أولاد ونحو ذلك.

⊙ **قوله:** «﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾»: وهو اللوح المحفوظ.

⊙ **قوله:** «﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾»: أي من قبل أن نخلق الأرض والأنفس.

⊙ **قوله:** «﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾»: أي: إن علمه الأشياء قبل كونها وكتابته لها طبق ما يوجد في حينها سهل على الله؛ لأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون.

ففي هذه الآيات أخبر سبحانه عن قدره السابق في خلقه قبل أن يبرأ البرية، فما أصابهم من خير وشر قد كُتب عليهم وقُدِّر ولابد من وقوعه، وهذه الآيات فيها الرد على القدرية نفاة العلم السابق.

قال النووي في «شرح مسلم»: قال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: وكتاب الله ولوحه وقلمه والصحف المذكورة في الأحاديث، كل ذلك مما يجب الإيمان به، وأما كيفية ذلك وصفته فعلمه إلى الله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥][1] اهـ.

◇ ◇ ◇

(١) انظر: «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (١٦/ ١٩٨).

وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا: فَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا شَاءَ.

فَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ؛ بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُقَالُ: «اكْتُبْ رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ...»(١) وَنَحْوَ ذَلِكَ. فَهَذَا الْقَدَرُ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلَاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنْكِرُوهُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ.

وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: فَهِيَ مَشِيئَةُ اللهِ تَعَالَى النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ: الإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلَا سُكُونٍ؛ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ إِلَّا مَا يُرِيدُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ، فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ إِلَّا اللهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ، لَا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ.

الشرح

⊙ **قوله:** «وَهَذَا التَّقْدِيرُ...» إلخ: أي: المتقدم ذكره، وهو تقدير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لمقادير الخلق في علمه وكتابه قبل تكوينها وإيجادها يكون في مواضع جملة وتفصيلًا: فمنها ما هو عام شامل لكل كائن؛ كما في حديث: «**لما خلق الله القلم قال له: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة**»(٢)، ومنها ما هو كالتفصيل من

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٩٤)، ومسلم (٢٦٤٣)، وغيرهما من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣١٩)، وابن أبي شيبة (٧/ ٢٦٤)، وغيرهما من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الترمذي» (٢٦٤٥).

القدر السابق بعضها أخص من بعض، فما في الحديث المتقدم تقدير شامل، وأخص منه ما في حديث ابن مسعود: «**يُجمع خلق أحدكم...**»(١)، الحديث، وأخص منهما ما ورد أنه يقدر في ليلة القدر ما يلقاه في تلك السنة إلىٰ السنة الأخرىٰ.

⊙ **فقوله**: «**فَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ...**» إلىٰ آخره، وهذا هو التقدير العام قبل خلق السموات والأرض، وما ذكره في حديث ابن مسعود: «**يُجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم أربعين يومًا علقة مثل ذلك، ثم أربعين يومًا مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقي أم سعيد**»(٢)، الحديث، فهذا تقدير عمري.

وما رواه عبد الرزاق وابن جرير عن قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله تعالىٰ: ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ ﴾ [القدر: ٤] الآية. قال: يقضي ما يكون في السنة إلىٰ مثلها، فهذا التقدير تقدير حولي.

وما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**إن الله خلق لوحًا محفوظًا من درة بيضاء دفتاه من ياقوتة حمراء قلمه نور وكتابه نور، عرضه ما بين السموات والأرض ينظر فيه كل يوم ثلاث مئة وستين نظرة يحيي ويميت، ويعز ويذل، ويفعل ما يشاء، فكذلك قوله سبحانه**: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩]»(٣) رواه عبد الرزاق وابن المنذر

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٢٦)، ومسلم (٢٦٤٣)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الطبراني (١٠/ ٢٦٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٢٥)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «ضعيف الجامع» (١٦٠٨).

والطبراني والحاكم، فهذا التقدير المذكور في هذا الحديث تقدير يومي.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: وكل واحد من هذه التقادير كالتفصيل من القدر السابق، وفي ذلك دليل علىٰ كمال علمه سبحانه وقدرته وحكمته وزيادة تعريفه الملائكة وعباده المؤمنين بنفسه وأسمائه، قال: فاتفقت هذه الأحاديث ونظائرها علىٰ أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال عليه، بل يوجب الجد والاجتهاد(١). اهـ(٢).

---

(١) انظر: «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (٢٤).

(٢) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٣٣٠-٣٣٣):**

«إذًا كتابة رزقه وأجله وعمله وشقي أم سعيد حين كان في الرحم، هي باعتبار العاقبة لا باعتبار ما يكون في تفاصيل حياته؛ لهذا قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتىٰ ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها**»؛ لأنه كُتب أنه سعيد، فسيؤول أمره إلىٰ أنه يُسلم، أو إلىٰ أنه يتوب قبل أن يموت، فيكون من أهل الجنة.

فهاتان الكتابتان: العمرية والسنوية هذه يكون فيها التعليق، يعني: يقال فيها: «إنْ فعل العبد كذا فيكون القدر كذا، وإن فعل العبد كذا فيكون القدر كذا»، مثال ذلك: فإن وصل رحمه زيد في عمره ووُسِّع له في رزقه. فما يكون فيه المحو والإثبات هو في هذه الصحف التي فيها التقدير السنوي أو العمري الذي بأيدي الملائكة، وهذه تكون معلقة؛ كما قال ابن عباس في تفسير قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد: ٣٩]، فهناك أشياء من القدر تقبل المحو والإثبات، وهناك أشياء من الكتابة لا تقبل المحو والإثبات؛ بل هي آجال لا تقبل التغيير أو أشياء لا تقبل التغيير، وذلك ما في اللوح المحفوظ، أما ما في صحف الملائكة فإنه يقبل التغيير، وكل ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، يعني: مكتوب التفصيل والنهاية، لكنه لا يقبل المحو والإثبات، أما ما في صحف

=

=

الملائكة فإنه يقبل المحو والإثبات؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرعد: ٣٩].

وهذا الوجه قال به ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو وجه ظاهر البيان والصحة؛ لأنه موافق للأدلة كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: ١١]، بعض أهل العلم في التفسير فهم الآية أن معناها وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمر معمر آخر إلا في كتاب، وأن تعمير المعمر يكون بسبب قد قُدر هو والتعمير معًا، فيكون قد عُمر لا بالنسبة إلىٰ أنه كان عمره ليس بطويل فأُطيل فيه.

وهذا يخالف ما جاءت به السنة الصحيحة من قول المصطفىٰ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من سره أن يُبسط له في رزقه، وأن يُنسأ له في أثره، فليصل رحمه»** [أخرجه البخاري (٢٠٦٧)، ومسلم (٢٠/ ٢٥٥٧)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] فكان وصل الرحم سببًا في زيادة الرزق، وسببًا في نسء الأثر وزيادة العمر، وقال أيضًا: **«صلة الرحم محبة في الأهل مثراة في المال منسأة في الأثر»** [أخرجه الترمذي (١٩٧٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي»] وقال: **«إن الرجل ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه»** [أخرجه ابن ماجه (٤٠٢٢)، من حديث ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن ابن ماجه»]، هذا كله من التغيير فيما كُتب في صحف الملائكة، وهذا التغيير والعمل كله بقدر، وهو موجود في الصحف، لكن له من الرزق كذا، وإن عمل كذا يُحرم الرزق، فيكون إذًا السبب والمسبب والنتيجة كلها موجودة في ذلك، فيمحو الله عَزَّوَجَلَّ من صحف الملائكة ما يشاء، ويثبت فيها ما يشاء؛ لأن فيها كل شيء.

فإذًا هاتان المرتبتان -العلم والتقدير- فيهما إجمال وتفصيل، أي: علم إجمالي وعلم تفصيلي، أو علم بالكليات وعلم بالجزئيات، وكذلك التقدير فيه تقدير عام لجميع المخلوقات وهناك تقديرات أُخر، وأنواع من الكتابة تفصيلية، وقد فصَّل فيها ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «شفاء العليل»، وذكر هذه المراتب، وذكر أنواع التقدير الخمسة، وذكر الأدلة عليه بما يحال به عليه؛ لأنها كلها تفصيلات للقدر السابق» اهـ.

⊙ **قوله**: «فَهَذَا الْقَدَرِ»: أي: المذكور فيما تقدم، وهو علمه الأشياء قبل كونها لها طِبْقَ ما يوجد في حينها، قد كان ينكره غلاة القدرية؛ كمعبد الجهني الذي سئل ابن عمر عن مقالته، وكعمرو بن عبيد وغيره، فينكرون علمه المتقدم وكتابته السابقة، ويزعمون: أنه أمر ونهي، وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه، بل الأمر أُنُف -أي مستأنف-، وهذا القول أول ما حدث في الإسلام بعد انقراض عصر الخلفاء الراشدين، وكان أول من أظهر ذلك بالبصرة معبد الجهني، وأخذ عنه هذا المذهب غيلان الدمشقي، فلما ابتدع هؤلاء التكذيب بالقدر رد عليهم من بقي من الصحابة؛ كعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وواثلة بن الأسقع وغيرهم.

والقدرية ينقسمون إلىٰ فرقتين:

الأولىٰ: تنكر أن الله سبق علمه بالأشياء قبل وجودها، وتزعم: أن الله لم يقدر الأمور أزلًا ولم يتقدم علمه بها، وإنما يعلمها إذا وقعت، قال العلماء: والمنكرون لهذا انقرضوا وهم الذين كفَّرهم الأئمة مالك والشافعي وأحمد، وهم الذين قال فيهم الشافعي: ناظروا القدرية بالعلم، فإن أقروا به خُصموا، وإن أنكروه كفروا[1].

الفرقة الثانية: المقرون بالعلم، وإنما خالفوا السلف في زعمهم بأن أفعال العباد مقدورة لهم وواقعة منهم علىٰ جهة الاستقلال، وهو مع كونه مذهبًا باطلًا أخف من المذهب الأول.

قال الشيخ تقي الدين ﷺ: وأما هؤلاء -يعني الفرقة الثانية- فإنهم مبتدعون

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٢٣/ ٣٤٩).

ضالون لكنهم ليسوا بمنزلة أولئك، قال: وفي هؤلاء خلق كثير من العلماء والعبَّاد، وكتب عنهم، وأخرج البخاري ومسلم لجماعة منهم، لكن من كان داعية لم يخرِّجوا له، وهذا مذهب فقهاء الحديث كأحمد وغيره، ومن كان داعية إلىٰ بدعة، فإنه يستحق العقوبة بدفع ضرره عن الناس، وإن كان في الباطل مجتهدًا، فأقل عقوبته أن يهجر، فلا يكون له رتبة في الدين، فلا يستقضي ولا تقبل شهادته ونحو ذلك[1]. اهـ.

⊙ **قوله:** «وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ...» إلخ: هذه المرتبة الثالثة من مراتب الإيمان بالقدر، وهو إثبات مشيئة الله النافذة، أي: الماضية التي لا راد لها، مِن: نفذ السهم نفوذًا، إذا خرق الرمية، ونفذ الأمر: مضىٰ، هذه المرتبة الثالثة من مراتب الإيمان بالقدر، وهو إثبات نفوذ قدرته ومشيئته، وشمول قدرته قد دل عليها الكتاب والسنة وأجمع عليها سلف الأمة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]، إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالة علىٰ نفوذ مشيئته، فلا خروج لكائن عن مشيئته، كما لا خروج له عن علمه.

وفي هذه الآيات وغيرها الرد علىٰ القدرية والمعتزلة نفاة القدر الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله من العبد وشاءه، وأما أهل السنة والجماعة، فتمسكوا بالكتاب والسنة في هذا الباب وغيره، واعتقدوا أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله في كل شيء مما يوافق ما شرعه، وما يخالفه من أفعال العبد وأقواله، فالكل بمشيئة الله، فما وافق ما شرعه رضيه وأحبه، وما خالفه كرهه، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ﴾ [الزُّمَر: ٧] الآية.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٣٨٥).

⊙ **قوله:** «وَهُوَ: الإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ...» إلخ: فسر المصنف معنىٰ الإيمان بهذه المرتبة، وأشار بهذا إلىٰ الرد علىٰ القدرية والمعتزلة الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف مشيئة الله، وتقدم ذكر الأدلة علىٰ بطلان قولهم، وهل أضل ممن يزعم أن الله شاء الإيمان من الكافر، والكافر شاء الكفر، فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله - تعالىٰ الله عن قولهم- وقد تقدم ذكر أقسام الإرادة والمشيئة والفرق بينهما وبين المحبة والرضا.

⊙ **قوله:** «وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ...» إلخ:

قال الله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦](١)، ففيها دليل علىٰ

---

(١) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٣٤٥-٣٤٩):

«والأشاعرة والماتريدية وغيرهم قالوا: القدرة لها تعلقان:

تعلق صلوحي.

وتعلق قديم.

فيُعلقون القدرة بما يشاءه الله عَزَّوَجَلَّ، فيقولون: تعلق قدرة الرب عَزَّوَجَلَّ بما يشاء؛ ولذلك يعدلون عما جاء في القرآن من قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩]؛ لأن القدرة عندهم متعلقة بما شاء الله أن يحصل أما ما لم يشأ أن يحصل فلا تتعلق به القدرة، فإذا قيل: هل الله قادر علىٰ ألا يوجد إبليس؟ فيقولون: لا هو غير قادر. هل الله قادر علىٰ ألا توجد السماوات؟ يقولون: لا غير قادر. لأن القدرة عندهم متعلقة بما شاءه عَزَّوَجَلَّ، وما لم يشأه في كونه مما لم يحصل بعد أو مما حصل فإن القدرة غير متعلقة به؛ ولذلك يقول قائلهم: «ليس في الإمكان أبدع مما كان»؛ لأن القدرة عندهم متعلقة بما شاءه الله عَزَّوَجَلَّ.

وهذه عند أهل السنة والجماعة باطلة، فلا يجوز للمرء أن يخالف نص القرآن ويقول: (والله علىٰ =

=

ما يشاء قدير) نَعَم هو عَزَّوَجَلَّ علىٰ ما يشاء قدير؛ لكن قدرته علىٰ ما يشاء وعلىٰ ما لم يشأه، فهو سبحانه قدير علىٰ ما شاء وقدير علىٰ ما لم يشأه، فعندهم القدرة متعلقة بما شاءه، وعند أهل السنة القدرة متعلقة بما شاءه عَزَّوَجَلَّ وبما لم يشأه؛ لقوله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥].

نعم جاء في حديث الرجل الذي يدخله الله عَزَّوَجَلَّ الجنة، وهو آخر من يدخلها، أن الله عَزَّوَجَلَّ يقول له: «**إني لا أستهزئ منك ولكني علىٰ ما أشاء قادر**»، والجواب علىٰ ذلك معروف؛ لأنه متعلق بأشياء مخصوصة وليست تعليقًا للقدرة بالمشيئة، أو يقال: إن قدرته علىٰ ما يشاء في مثل هذه الأحاديث لا تنفي قدرته علىٰ ما لم يشأ عَزَّوَجَلَّ، وهذا يثبته أهل السنة؛ لأنه دليل علىٰ أنه عَزَّوَجَلَّ علىٰ ما يشاء قدير، وهذا دل عليه قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٩].

لكن المبتدعة عندهم شعار أنهم يعرضون عن قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠]، إلىٰ قولهم: (والله علىٰ ما يشاء قدير)، وإذا كان شعارًا لأهل البدع فإن استعماله فيه موافقة لهم مع صحته في نفسه، وقول القائل: (إنه عَزَّوَجَلَّ علىٰ كل شيء قدير) هذا يشمل ما شاءه وما لم يشأه، وفيه موافقة للنصوص من الكتاب والسنة. هذا معنىٰ قول شيخ الإسلام: «وأنه سبحانه علىٰ كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات» وهذا كله متعلق بما يمكن، أما المحال مما أحاله أو منعه عَزَّوَجَلَّ أن يكون في مُلكه وأوجب ذلك علىٰ نفسه فهو عَزَّوَجَلَّ قدير علىٰ كل شيء؛ علىٰ هذا وذاك، ولكن لما جعل ذلك محالًا فهو لا يكون، وقدرته شاملة عَزَّوَجَلَّ لكل شيء، ولكن المحال هو الذي جعله عَزَّوَجَلَّ محالًا مثل أن يكون ثَم إله بحق؛ فهذا محال فلا يكون البتة.

هل هذا متعلق بالقدرة؟ نقول: نعم القدرة متعلقة بكل شيء، لكن هذا محال لا يكون، كذلك أن يوجد إله آخر هذا محال، كذلك أن يكون له عَزَّوَجَلَّ ولد هذا محال... إلىٰ آخره.

وهذه المحالات هو عَزَّوَجَلَّ الذي جعلها محالة، فلا تُبحث هذه كما بحثها الفلاسفة وطائفة هل تدخل تحت القدرة أو لا تدخل؛ لأن هذه جعلها الله عَزَّوَجَلَّ محالات، فما يُبحث هو ما جاءت فيه النصوص، وأما ما جعله الله عَزَّوَجَلَّ محالًا؛ فإننا نأخذه علىٰ ما جاء في النص، ولا

=

شمول قدرته، فكل ممكن فهو مندرج فيها، وفيها الرد علىٰ القدرية: فإن مذهبهم أنه سبحانه ليس علىٰ كل شيء قدير، وأن العباد يقدرون علىٰ ما لا يقدر عليه، وأنه سبحانه لا يقدر أن يهدي ضالًّا ولا يضل مهتديًا، وهذا المذهب باطل ترده أدلة الكتاب والسنة، وهو كما قال بعض العلماء: شرك في الربوبية مختصر، ولذلك ورد أن «**القَدريَّة مَجُوس هذه الأُمَّة**»[(١)]؛ لمشابهة قولهم لقول المجوس، وأما أهل السنة فيثبتون أن العبد فاعل حقيقة، ولكنه مخلوق لله ومفعول، ولا يقولون: هو نفس فعل الله، ويفرقون بين الخلق والمخلوق والفعل والمفعول.

⊙ **قوله**: «مِنَ المَوْجُودَاتِ»: كأفعال خلقه من الملائكة والنبيين وسائر حركات العباد، فلا يخرج عن خلقه وملكه شيء.

⊙ **قوله**: «وَالمَعْدُومَات»: كما قال سبحانه: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٩]، أي: شيئًا في الخارج، وإن كان شيئًا في علمه سبحانه، وأما المحال لذاته، فلا حقيقة له ولا يتصور وجوده، فلا يسمىٰ شيئًا باتفاق العقلاء، وذلك مثل كون الشيء الواحد موجودًا معدومًا، ومن هذا الباب خلق مثل نفسه[(٢)].

=

نخوض فيه (هل) تشمله القدرة أو لا تشمله؛ لأنه لا فائدة منه، ولأن فيه استدراكًا واعتراضًا علىٰ النصوص» اهـ.

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩١)، والحاكم (٢٨٦)، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وحسنه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (٤٤٤٢).

(٢) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ **في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٢٠٧-٢٠٨)**:

=

⊙ **قوله: «فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ إِلَّا اللهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ»:**

قال تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الفرقان: ٢]، وقال: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزُّمَر: ٦٢]، فامتدح بأن الله خلق كل شيء، وبأنه يعلم كل شيء، فكما أنه لا يخرج عن علمه شيء، فكذا لا يخرج عن خلقه شيء، فثبت أن الأفعال خيرها وشرها كلها صادرة عن خلقه وإحداثه إياها. اهـ.

وفي هذه الآيات الرد علىٰ القدرية الذين يزعمون أن العبد يخلق فعل نفسه استقلالًا بدون مشيئة الله وإرادته، ولا شك في بطلان هذا المذهب وفساده ومصادمته لأدلة الكتاب والسنة، فإن قوله سبحانه: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢] شامل لأفعال العباد لدخولها في عموم (كل)، ولا يدخل في ذلك أسماء

=

«ذكر بعض العلماء استثناء من ذلك، وقال: إلا ذاته، فليس عليها بقادر! وزعم أن العقل يدل علىٰ ذلك!

فنقول: ماذا تريد بأنه غير قادر علىٰ ذاته؟

إن أردت أنه غير قادر علىٰ أن يعدم نفسه أو يلحقها نقصًا، فنحن نوافقك علىٰ أن الله لا يلحقه النقص أو العدم، لكننا لا نوافقك علىٰ أن هذا مما تتعلق به القدرة؛ لأن القدرة إنما تتعلق بالشيء الممكن، أما الشيء الواجب أو المستحيل، فهذا لا تتعلق به القدرة أصلًا؛ لأن الواجب مستحيل العدم، والمستحيل مستحيل الوجود.

وإن أردت بقولك: إنه غير قادر علىٰ ذاته: أنه غير قادر علىٰ أنه يفعل ما يشاء، فلا يقدر أن يجيء أو نحوه! فهذا خطأ، بل هو قادر علىٰ ذلك، وفاعل له، ولو قلنا: إنه ليس بقادر علىٰ مثل هذه الأفعال، لكان ذلك من أكبر النقص الممتنع علىٰ الله سبحانه.

وبهذا علم أن هذا الاستدراك من عموم القدرة في غير محله علىٰ كل تقدير» اهـ.

الله وصفاته، كما أنه سبحانه لم يدخل في عموم (كل)، فكذلك أسماؤه وصفاته.

قال ابن القيم ما معناه: في هذه الآيات دليل على أن سبحانه خالق أفعال العباد، كما أنه خالق ذواتهم وصفاتهم، فالعبد كله مخلوق: صفاته وذاته وأفعاله، ومن أخرج أفعاله عن خلق الله، فقد جعل فيه خالقًا مع الله؛ ولهذا شبه السلف القدرية النفاة بالمجوس، وقالوا: هم مجوس هذه الأمة، صح ذلك عن ابن عباس(١). اهـ.

⊙ **قوله**: «**لَا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ**»(٢): إشارة إلىٰ الرد علىٰ القدرية

---

(١) انظر: «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٣/ ٥٣٢).

(٢) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين** رحمه الله **في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٢١١-٢١٣)**:

«قوله: «لا خالق غيره»: إن قلت: هذا الحصر يرد عليه أن هناك خالقًا غير الله؛ فالمصور يعد نفسه خالقًا، بل جاء في الحديث أنه خالق: «**فإن المصورين يعذبون، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم**» [أخرجه البخاري (٢١٠٥)، ومسلم (٢١٠٧)، وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنها]، وقال عز وجل: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فهناك خالق، لكن الله تعالىٰ هو أحسن الخالقين، فما الجواب عن قول المؤلف؟

الجواب: أن الخلق الذي ننسبه إلىٰ الله عز وجل هو الإيجاد وتبديل الأعيان من عين لأخرىٰ؛ فلا أحد يوجد إلا الله عز وجل، ولا أحد يبدل عينًا إلىٰ عين إلا الله عز وجل، وما قيل: إنه خلق، بالنسبة للمخلوق، فهو عبارة عن تحويل شيء من صفة إلىٰ صفة، فالخشبة -مثلًا- بدلًا من أن كانت في الشجرة، تحول بالنجارة إلىٰ باب، فتحويلها إلىٰ باب يسمىٰ خلقًا، لكنه ليس الخلق الذي يختص به الخالق، وهو الإيجاد من العدم، أو تبديل العين من عين إلىٰ أخرىٰ.

وقوله: «ولا رب سواه»؛ أي: أن الله وحده هو الرب المدبر لجميع الأمور، وهذا حصر حقيقي، ولكن ربما يرد عليه أنه جاء في الأحاديث إثبات الربوبية لغير الله.

ففي لُقَطة الإبل قال النبي صلى الله عليه وسلم: «**دعها، معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء، وتأكل** =

المجوسية الذين يثبتون مع الله خالقين للأفعال ليست أفعالهم مقدورة له، وهي صادرة بغير مشيئته وإرادته ولا قدرة له عليها، فربوبيته سبحانه الكاملة المطلقة تبطل أقوال هؤلاء كلهم؛ لأنها تقتضي ربوبيته لجميع ما فيه من الذوات والصفات والحركات والأفعال. وحقيقة قول هؤلاء أنه ليس ربًّا لأفعال الحيوان ولا تناولتها ربوبيته، وكيف تتناول ما لا يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه؟!

أما أهل السنة والجماعة فيؤمنون بأن الله خالق كل شيء لا خالق غيره، وأنه علىٰ كل شيء قدير، وبشمول مشيئته لكل ما كان، وأنه بكل شيء عليم، فيؤمنون بعموم خلقه، وشمول قدرته، ونفوذ مشيئته، وعلمه بالأشياء قبل أن تكون تقديره لها، وكتابته إياها قبل أن تكون.

فعندهم مراتب الإيمان بالقضاء والقدر أربع كما سبقت إشارة المصنف إليها:

الأولىٰ: علمه السابق بما هم عاملون قبل إيجادهم.

=

الشجر، حتىٰ يجدها ربُّها» [أخرجه البخاري (٢٣٧٢)، ومسلم (١٧٢٢)، وغيرهما من حديث زيد بن خالد الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]، وربها: صاحبها.

وجاء في بعض ألفاظ حديث جبريل، يقول: «**حتىٰ تلد الأمة ربها**».

فما هو الجمع بين هذا وبين قول المؤلف: «لا رب سواه»؟

نقول: إن ربوبية الله عامة كاملة؛ كل شيء؛ فالله ربه، لا يُسأل عما يفعل في خلقه؛ لأن فعله كله رحمة وحكمة، ولهذا يقدر الله عَزَّوَجَلَّ الجدب والمرض والموت والجروح في الإنسان وفي الحيوان، ونقول: هذا غاية الكمال والحكمة. أما ربوبية المخلوق للمخلوق، فربوبية ناقصة قاصرة، لا تتجاوز محلها، ولا يتصرف فيها الإنسان تصرفًا تامًّا، بل تصرفه مقيد: إما بالشرع، وإما بالعرف» اهـ.

الثانية: كتابته لذلك في الذكر عنده قبل خلق السموات والأرض.

الثالثة: مشيئته المتناولة لكل موجود، فلا خروج لكائن عن مشيئته، كما لا خروج له عن علمه.

الرابعة: خلقه له وإيجاده وتكوينه فإنه لا خالق غيره.

ونظم ذلك بعضهم بقوله:

عِلْـــمٌ كِتابَـــةُ مَولانَـــا مَشـــيئَتُهُ وَخَلْقُـــهُ وَهْـــوَ إِيجَـــادٌ وَتَكْـــوِينُ

فيجب الإيمان بالقضاء والقدر، ولا يجوز الاحتجاج به في ترك أوامر الله وفعل نواهيه، بل يجب أن نؤمن بذلك، ونعلم أن لله الحجة علينا بإنزال الكتب وبعث الرسل(١).

---

(١) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٢١٠-٢١١):

«وفيه آية خاصة في الموضوع، وهو خلق أفعال العباد.

فقال إبراهيم لقومه: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦].

فـ(ما) مصدرية، وتقدير الكلام: خلقكم وعملكم، وهذا نص في أن عمل الإنسان مخلوق لله تعالىٰ.

فإن قيل: ألا يحتمل أن تكون (ما) اسمًا موصولًا، ويكون المعنىٰ: خلقكم وخلق الذي تعملونه؟

فكيف يمكن أن نقول: إن الآية دليل علىٰ خلق أفعال العباد علىٰ هذا التقدير أن (ما) موصولة؟

فالجواب: أنه إذا كان المعمول مخلوقًا لله؛ لزم أن يكون عمل الإنسان مخلوقًا؛ لأن المعمول كان بعمل الإنسان، فالإنسان هو الذي باشر العمل في المعمول، فإذا كان المعمول مخلوقًا =

وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَقَدْ أَمَرَ اللهُ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ. وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَلَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، وَلَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَلَا يُحِبُّ الْفَسَادَ.

وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللَّهُ خَلَقَ أَفْعَالَهُمْ. وَالْعَبْدُ هُوَ: الْمُؤْمِنُ، وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ، وَالْمُصَلِّي، وَالصَّائِمُ. وَلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلَهُمْ إِرَادَةٌ، وَاللهُ خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ قُدْرَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ؛ كَمَا قَالَ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩].

=

لله، وهو فعل العبد؛ لزم أن يكون فعل العبد مخلوقًا، فيكون في الآية دليل على خلق أفعال العباد على كلا الاحتمالين.

وأما الدليل النظري على أن أفعال العبد مخلوقة لله؛ فتقريره أن نقول: إن فعل العبد ناشئ عن أمرين: عزيمة صادقة وقدرة تامة.

مثال ذلك: أردت أن أعمل عملًا من الأعمال فلا يوجد هذا العمل حتى يكون مسبوقًا بأمرين:

أحدهما: العزيمة الصادقة على فعله؛ لأنك لو لم تعزم ما فعلته.

الثاني: القدرة التامة؛ لأنك لو لم تقدر ما فعلته؛ فالذي خلق فيك هذه القدرة هو الله عَزَّوَجَلَّ، وهو الذي أودع فيك العزيمة، وخالق السبب التام خالق للمسبب.

ووجه ثانٍ نظري: أن نقول: الفعل وصف الفاعل، والوصف تابع للموصوف، فكما أن الإنسان بذاته مخلوق لله؛ فأفعاله مخلوقة؛ لأن الصفة تابعة للموصوف.

فتبين بالدليل أن عمل الإنسان مخلوق لله، وداخل في عموم الخلق أثريًا ونظريًا، والدليل الأثري قسمان عام وخاص، والدليل النظري له وجهان» اهـ.

وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ الْقَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَجُوسَ هَذِهِ الأُمَّةِ»(١)، وَيَغْلُو فِيهَا قَومٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ، حَتَّى يَسلبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَيُخرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ حِكَمَهَا وَمَصَالِحَهَا.

الشَّرْح

⊙ **قوله:** « وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَقَدْ أَمَرَ الله الْعِبَادَ...» إلخ: قال تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ [النساء: ٦٤]، وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾ [النساء: ٨٠] الآية، والإيمان بالقدر من تمام طاعة الله وطاعة رسوله، ومن أثبت القدر، وجعل ذلك معارضًا للأمر، فقد أذهب الأصل، فقول المصنف: «ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته» إلخ، إشارة للرد علىٰ من عارض شرعه وأمره بقضائه وقدره، وجعل مشيئته العامة دافعة للأمر، كفعل الزنادقة إذا أُمروا أو نُهوا احتجوا بالقدر، وقد احتج سارق علىٰ عمر بالقدر، فقال: وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره.

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله تعالىٰ: من ادعىٰ أن العارف إذا شهد الإرادةَ سقط عنه الأمرُ كان هذا من الكفر الذي لا يرضاه أحد، بل هذا ممتنع في العقل محال في الشرع(٢). انتهىٰ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩١)، والحاكم (١/ ١٥٩)، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وحسنه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (٤٤٤٢).

(٢) انظر: «مجموعة الرسائل والمسائل» (٥/ ١٣٣).

وقال ابن القيم بعد كلام: والمقصود: أنه لم يؤمن بالقضاء والقدر والحكمة والأمر والنهي والوعد والوعيد حقيقةَ الإيمان إلا أتباع الرسل وورثتهم(١).

⊙ **قوله:** «وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ...» إلخ: هذا رد على من زعم أن المشيئة والمحبة سواء أو متلازمان، كما يقوله الجبرية والقدرية، وقد دل على الفرق بينهما الكتاب والسنة والإجماع والفطرة:

قال الله تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨]، مع أن ذلك كله بمشيئته، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]، مع أنه واقع بمشيئته وقضائه وقدره، وفي «المسند»: «إن الله يحب أن يُؤخذ برُخَصِه، كما يكره أن تُؤتى معصيته»(٢)، فهذه المحبة والكراهية لأمرين اجتمعا في المشيئة، وافترقا في المحبة والكراهة، وهذا أكثر من أن يحصر، فالمشيئة والمحبة ليس مدلولهما واحدًا، ولا هما متلازمان، بل قد يشاء الله ما لا يحبه ويحبُّ ما لا يشاء كونه.

فالأول: كمشيئته لوجود إبليس وجنوده، ومشيئته العامة لجميع ما في الكون مع بغضه لبعضه.

الثاني: كمحبته لإيمان الكفار والفجار، ولو شاء ذلك لوجد كله، فإن ما شاء

---

(١) انظر: «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (٩٢).

(٢) أخرجه أحمد (٢/١٠٨)، وابن حبان (٣٥٤)، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (١٨٨٦).

الله كان وما لم يشأ لم يكن.

فأهل الكتاب والسنة يقولون: الإرادة في كتاب الله نوعان:

الأول: إرادة كونية قدرية، والثاني: إرادة دينية شرعية.

فالإرادة الشرعية: هي المتضمنة للمحبة والرضا، والكونية: هي المشيئة الشاملة لجميع الحوادث، وقد تقدمت الإشارة إلىٰ ذلك في الكلام علىٰ الآيات بما فيه الكفاية إن شاء الله(١).

---

(١) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٢١٦-٢١٨):

«فإن قلت: كيف يوقع ما لا يرضاه وما لا يحبه؟ وهل أحد يكرهه علىٰ أن يوقع ما لا يحبه ولا يرضاه؟

فالجواب: لا أحد يكرهه علىٰ أن يوقع ما لا يحبه ولا يرضاه، وهذا الذي يقع من فعله عَزَّوَجَلَّ وهو مكروه له، هو مكروه له من وجه، محبوب له من وجه آخر؛ لما يترتب عليه من المصالح العظيمة.

فمثلًا: الإيمان محبوب لله، والكفر مكروه له، فأوقع الكفر وهو مكروه له؛ لمصالح عظيمة؛ لأنه لولا وجود الكفر؛ ما عرف الإيمان ولولا وجود الكفر؛ ما عرف الإنسان قدر نعمة الله عليه بالإيمان، ولولا وجود الكفر ما قام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الناس كلهم يكونون علىٰ المعروف، ولولا وجود الكفر ما قام الجهاد، ولولا وجود الكفر؛ لكان خلق النار عبثًا، لأن النار مثوىٰ الكافرين، ولولا وجود الكفر؛ لكان الناس أمة واحدة، ولم يعرفوا معروفًا ولم ينكروا منكرًا، وهذا لا شك أنه مخل بالمجتمع الإنساني، ولولا وجود الكفر ما عرفت ولاية الله؛ لأن من ولاية الله أن تبغض أعداء الله وأن تحب أولياء الله.

وكذلك يقال في الصحة والمرض؛ فالصحة محبوبة للإنسان وملائمة له، ورحمة الله تعالىٰ فيها ظاهرة، لكن المرض مكروه للإنسان، وقد يكون عقوبة من الله له، ومع ذلك يوقعه؛ لما =

⊙ **قوله: «وَالعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً...»** إلخ: قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦]، أي: خلقكم والذي تعملونه، فدلت علىٰ أن أفعال العبد مخلوقة لله، وعلىٰ أنها أفعال لهم حقيقة.

ففيها الرد علىٰ الجبرية الذين يقولون: إن العبد لا فعل له، وفيها الرد علىٰ القدرية الذين يقولون: إن العبد يخلق فعل نفسه استقلالًا، وفي حديث حذيفة: «**أن الله خالقُ كلِّ صانع وصنعته**»(١)، فالله سبحانه خلق الإنسان بجميع أغراضه

=

في ذلك من المصالح العظيمة.

كم من إنسان إذا أسبغ الله عليه النعمة بالبدن والمال والولد والبيت والمركوب، ترفَّع ورأىٰ أنه مستغنٍ بما أنعم الله به عليه عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال تعالىٰ: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦-٧]، وهذه مفسدة عظيمة، فإذا أراد الله أن يرد هذا الإنسان إلىٰ مكانه؛ ابتلاه حتىٰ يرجع إلىٰ الله، وشاهد هذا قوله تعالىٰ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١].

وأنت أيها الإنسان إذا فكرت هذا التفكير الصحيح في تقديرات الله عَزَّوَجَلَّ، عرفت ما له سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ من الحكمة فيما يقدره من خير أو شر، وأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ يخلق ما يكرهه ويقدر ما يكرهه لمصالح عظيمة، قد تحيط بها، وقد لا تحيط بها ويحيط بها غيرك، وقد لا يحيط بها لا أنت ولا غيرك.

فإن قيل: كيف يكون الشيء مكروهًا لله ومرادًا له؟

فالجواب: أنه لا غرابة في ذلك؛ فها هو الدواء المُرُّ طعمًا الخبيثُ رائحةً يتناوله المريض وهو مرتاح؛ لما يترتب عليه من مصلحة الشفاء، وها هو الأب يمسك بابنه المريض ليكويه الطبيب، وربما كواه هو بنفسه، مع أنه يكره أشد الكره أن يحرق ابنه بالنار» اهـ.

(١) أخرجه الحاكم (٨٥)، والبيهقي في «الشعب» (١/ ٢٠٧)، وغيرهما من حديث حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ،

=

وحركاته، والآيات الدالة علىٰ خلق أفعال العباد كثيرة.

فقول المصنف: «والعباد فاعلون حقيقة»: رد علىٰ الجبرية الذين يقولون: إن العبد ليس بفاعل أصلًا، بل هو مجبور علىٰ أفعاله وواقعة بغير اختياره، وأن الفاعل فيه سواه والمحرك له غيره، فهو آلة محضة وحركاته بمنزلة هبوب الرياح وحركات المرتعش، وقد يغلون في ذلك حتىٰ يروا أفعالهم كلها طاعات خيرها وشرها لموافقتها للمشيئة والقدر، وهؤلاء شر من القدرية النفاة وأشد عداوة لله ومناقضة لكتابه ورسله ودينه.

⊙ **قوله:** «**وَاللهُ خَالِقُ أَفْعَالِهِمْ**»: رد علىٰ القدرية النفاة الذين يقولون: إن الله لم يخلق أفعالهم، وأنها واقعة بمشيئتهم وقدرتهم دون مشيئة الله، وأن الله لم يقدِّر ذلك عليهم ولم يكتبه ولا شاءه، وأن الله لا يقدِر أن يهدي ضالًّا ولا يضل مهتديًا، وأن العباد خالقون لأفعالهم بدون مشيئة الله، فشابهوا المجوس في كونهم أثبتوا خالقًا مع الله، ولذا سموا مجوس هذه الأمة، والأدلة علىٰ فساد قولهم وبطلانه كثيرة جدًّا.

وقد أطبق الصحابة والتابعون علىٰ ذمهم وتبديعهم وتضليلهم، وبيَّن أئمة الإسلام أنهم أشباه المجوس وأنهم قد خالفوا أدلة الكتاب والسنة، بل وخالفوا العقل والفطرة.

⊙ **قوله:** «**وَالعَبْدُ هُوَ: المُؤْمِنُ وَالكَافِرُ...**» إلخ:

قال تعالىٰ: ﴿ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [البقرة: ٤]، وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ﴾ [النساء: ٥٦]، وقال: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [النساء: ٧٧]،

= وصححه العلامة الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (١٦٣٧).

وقال: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، إلىٰ غير ذلك من الأدلة الدالة علىٰ نسبة أفعال العبد إليه من أفعال عبيده، بل العبد حقيقة هو المصلي والصائم، ولا يليق بالله سبحانه أن يعاقبهم علىٰ نفس فعله، بل إنما يعاقبهم علىٰ أفعالهم التي فعلوها حقيقة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزُّخرُف: ٧٦].

فالعبد هو الذي صام وصلىٰ وأسلم، وهو الفاعل حقيقة، يجعل الله له فاعلًا، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [القصص: ٤١]، إلىٰ غير ذلك من الأدلة الدالة علىٰ أن العبد فاعل حقيقة، وأن فعله ينسب إليه، وأنه يثاب علىٰ حسنته ويجازىٰ علىٰ سيئته، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

⊙ **قوله:** «**وَلِلعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَىٰ أَعْمَالِهِمْ وَإِرَادَةٌ**»: إشارة للرد علىٰ الجبرية.

⊙ **قوله:** «**وَاللهُ خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ قُدْرَتِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ...**» إلخ: إشارة للرد علىٰ القدرية، فالجبرية والقدرية في طرفي نقيض، فالجبرية غلوا في الإثبات، والقدرية غلوا في النفي، وهدىٰ الله أهل السنة والجماعة للقول الوسط، فأثبتوا أن العباد فاعلون، ولهم قدرة علىٰ أعمالهم ولهم إرادة ومشيئة، وأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خالقهم وخالق قدرتهم ومشيئتهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩].

فأثبت مشيئة للعبد، وأخبر أنها لا تكون إلا بمشيئة الله، فأفعال العبد تضاف إليه

علىٰ جهة الحقيقة، والله خلقه وخلق فعله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ٩٦﴾ [الصافات: ٩٦]، فأخبر أن العباد يعملون ويصنعون ويؤمنون ويكفرون ويفسقون ويكذبون، والأدلة علىٰ إثبات أفعال العباد كثيرة جدًّا.

⊙ **قوله**: «**وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ القَدَرِ**»: وهي إثبات أن العبد فاعل حقيقة، وأن الله خلقه وخلق فعله يُكذِّب بها عامة القدرية، أي: جميع القدرية أو أكثرهم، فيزعمون أن العبد يخلق فعل نفسه استقلالًا بدون مشيئة الله وإرادته، وسموا قدرية؛ لإنكارهم القدَر، وكذلك تسمىٰ الجبرية المحتجون بالقدر قدرية؛ لخوضهم في القدر، والتسمية علىٰ الطائفة الأولىٰ أغلب.

قال ابن تيمية في «تائيته»:

ويدعىٰ خصوم الله يوم معادهم ... إلىٰ النار طُرًّا فرقةَ القدريَّةِ
سواء نفوه أو سَعوا ليخاصموا ... به اللهَ أو ماروا به للشَّريعةِ

⊙ **قوله**: «**مجوس هذه الأمة**»: سموا بذلك؛ لمضاهاة قولهم لقول المجوس، فإن المجوس يثبتون خالقَين، وكذلك القدرية أثبتوا أن الله خلقهم، وأنهم خلقوا أفعالهم استقلالًا، كما روىٰ أبو داود في «سننه» عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم**»(١)، وروىٰ أبو داود -أيضًا- عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا**

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩١)، والحاكم (٢٨٦)، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وحسنه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (٤٤٤٢).

قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوه، وهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال»(١).

وأحاديث القدرية المرفوعة كلها ضعيفة، وإنما يصح منها الموقوف، وقد تقدم الكلام على هذا الموضوع، وقد اختلف العلماء في تكفير هؤلاء، وأما من أنكر العلم القديم فنص الشافعي وأحمد وغيرهما من أئمة الإسلام على تكفيره، وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك.

⊙ **قوله: «وَيَغْلُو فِيهَا قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ...»** إلخ: أشار المصنف بقوله هذا إلى المُجبِرة، فإنهم غلوا في نفي أفعال العباد حتى سلبوا العباد قدرتهم واختيارهم، وزعموا: أنهم لا يفعلون شيئًا البتة، وإنما الله هو فاعل تلك الأفعال حقيقة فهي نفس فعله لا أفعالهم، والعبيد ليس لهم قدرة ولا إرادة ولا فعل البتة، وأن أفعالهم بمنزلة حركة الجمادات لا قدرة له عليها.

وإمام هؤلاء الجهم بن صفوان الترمذي، وقولهم باطل؛ لأننا نفرق بالضرورة بين حركة البطش وحركة المرتعش، ونعلم بأن الأول باختياره دون الثاني؛ ولأنه لو لم يكن للعبد فعل أصلًا لما صح تكليفه ولا ترتب استحقاق الثواب والعقاب على أفعاله، ولا إسناد الأفعال التي تقتضي سابقة قصد إليه على سبيل الحقيقة، مثل: صلى وصام وكتب، بخلاف مثل: طال واسودَّ لونه، والنصوص القطعية تنفي ذلك،

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٩٢)، وأحمد (٥/ ٤٠٦)، وغيرهما من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «ضعيف الجامع» (٤٧١٢).

قال الله تعالىٰ: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٤]، وقال: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، إلىٰ غير ذلك.

قال ابن القيم: وهؤلاء خصماء الله الذين جاء فيهم الحديث: «**يقال يوم القيامة: أين خصماء الله فيؤمر بهم إلىٰ النار**»(١)، وتقدم ما ذكره الشيخ في «تائيته».

وقال ابن القيم: سمعت تقي الدين يقول: القدرية المذمومون في السنة وعلىٰ لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاثة نفاته، وهم: القدرية المجوسية، والمعارضون به للشريعة الذين قالوا: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وهم القدرية المشركية، والمخاصمون به للرب، وهم أعداء الله وخصومه، وهم القدرية الإبليسية وشيخهم إبليس، وهو أول من احتج علىٰ الله بالقدر، فقال: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ [الأعراف: ١٦]، ولم يعترفْ بالذنب ويَبُؤْ به، كما اعترف به آدم، فمن أقر بالذنب وباء ونزَّه ربَّه، فقد أشبه أباه آدم، ومَن أشبه أباه فما ظلم، ومَن برَّأ نفسه، واحتج علىٰ ربه بالقدر، فقد أشبه إبليس، ولا ريب أن هؤلاء القدرية الإبليسية والمشركية شر من القدرية النفاة.

والذي عليه أهل السنة والجماعة، هو ما تقدم: الإيمانُ بأن أفعال العباد مخلوقة لله صادرة عن مشيئته وإرادته، وهي أفعال لهم وكسب لهم باختيارهم، فلذا ترتب عليها الثواب والعقاب كما تكاثرت بذلك الأدلة(٢).

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧١٦٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٤١٨): «رواه الطبراني في «الأوسط» وفيه محمد بن الفضل بن عطية، وهو متروك».

(٢) انظر: «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (٨٦).

⊙ **قوله**: «وَيُخْرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ حِكَمَهَا وَمَصَالِحَهَا...» إلخ: أي: أن هؤلاء الجهمية يزعمون أن الله تعالىٰ لا يفعل لعلة ولا حكمة، وإنما هو محض مشيئة وصرف إرادة مجردة عن الحكمة والرحمة، وكان شيخهم الجهم بن صفوان يقف علىٰ الجُذماء فيقول: أرحم الراحمين يفعل مثل هذا؟! إنكارًا للرحمة والحكمة، وأدلة الكتاب والسنة تبطل هذا المذهب.

قال ابن القيم رحمه الله: ولهذا الأصل لوازم وفروع كثيرة فاسدة، وذكرها وردها من تسعين وجهًا[1]. اهـ.

والذي عليه أهل السنة والجماعة إثبات العلة والحكمة في أفعاله سبحانه وشرعه وقدره، فما خلق شيئًا ولا قضاه ولا شرعه إلا لحكمة بالغة، وإن تقاصرت عنها عقول البشر، والأدلة في إثبات ذلك كثيرة جدًّا، فإنه سبحانه حكيم شرع الأحكام لحكمة ومصلحة، فما خلق شيئًا عبثًا ولا خلقه سدًىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقال: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، إلىٰ غير ذلك من الأدلة علىٰ إثبات هذا الأصل.

◈ ◈ ◈

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ١١٢).

وَمِنْ أُصُولِ الفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ: أَنَّ الدِّينَ وَالإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ: قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ. وَأَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ.

الشَّرح

⊙ **قوله**: «أَنَّ الدِّينَ»: معناه لغة: الذل، يقال: دنته فدان، أي: أذللته فذَلَّ، وشرعًا: هو ما أمر الله به على ألسنة رسله، والإيمان لغة: التصديق، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]، أي: بمصدق، وشرعًا: الإيمان هو ما ذكره المصنف.

قال الشيخ تقي الدين ﷺ: لفظ الإيمان إذا أطلق يراد به ما يراد بلفظ البر، وبلفظ التقوىٰ، وبلفظ الدين، فكل ما يحبه الله ورسوله يدخل في اسم الإيمان(١). انتهىٰ.

وفي حديث جبريل: سمىٰ النبي ﷺ الإسلام والإيمان والإحسان دينًا.

⊙ **قوله**: «قَوْلُ القَلْبِ»: وهو الاعتقاد، كاعتقاد ما أخبر الله به عن نفسه وأسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله.

⊙ **قوله**: «قَوْلُ اللِّسَانِ»: وهو التكلم بالشهادتين والقيام بذكره سبحانه وتبليغ أوامره والدعوة إليه والذب عن دينه ونحو ذلك.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ١٧٩).

⊙ **قوله: «وَعَمَلُ القَلْبِ»**: وهو نيته وإخلاصه والتوكل والإنابة والمحبة والانقياد والخوف منه سبحانه، والرجاء وإخلاص الدين له والصبر، ونحو ذلك من أعمال القلوب(١).

⊙ **قوله: «وَعَمَلُ اللِّسَانِ وَالجَوَارِحِ»**: كالصلاة والحج والجهاد ونحو ذلك، فالإيمان عند أهل السنة والجماعة هو ما تقدم أنه قول واعتقاد، وحكىٰ الشافعي علىٰ ذلك إجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم ممن أدركهم، وأنكر السلف علىٰ من أخرج الأعمال من الإيمان إنكارًا شديدًا.

روىٰ اللالكائي بإسناد صحيح عن البخاري قال: لقيت أكثر من ألف رجل من

---

(١) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ **في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٢٣١-٢٣٢)**:

«فإذا قال قائل: أين الدليل علىٰ أن الإيمان يشمل هذه الأشياء؟

قلنا: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره»**: فهذا قول القلب: أما عمل القلب واللسان والجوارح، فدليله قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الإيمان بضع وسبعون شعبة: أعلاها قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان»** [أخرجه مسلم (٣٥) وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]، فهذا قول اللسان وعمله وعمل الجوارح، والحياء عمل قلبي، وهو انكسار يصيب الإنسان ويعتريه عند وجود ما يستلزم الحياء.

فتبين بهذا أن الإيمان يشمل هذه الأشياء كلها شرعًا.

ويدل لذلك -أيضًا- قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، قال المفسرون: أي: صلاتكم إلىٰ بيت المقدس؛ فسمىٰ الله تعالىٰ الصلاة إيمانًا، مع أنها عمل جوارح وعمل قلب وقول لسان.

هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة» اهـ.

العلماء بالأمصار، فما رأيت أحدًا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص(١).

وقال الأوزاعي: كان من مضىٰ من السلف لا يفرقون بين العمل والإيمان(٢).

وفي «صحيح البخاري» أن عمر بن عبد العزيز كتب إلىٰ عدي بن عدي أن للإيمان فرائض وشرائع، وحدودًا وسننًا، فمن استكملها فقد استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان، فإن أعش فسأبينه لكم، وإن أمت فما أنا علىٰ صحبتكم بحريص، وفي «الصحيحين» عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال لوفد عبد القيس: **«آمركم بأربع: الإيمان بالله وحده، وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إلهَ إلا اللهُ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدوا الخمس من المغنم»**(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: **فيه:** أن الإيمان بالله هو مجموع هذه الخصال القول والعمل، كما علم ذلك أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والتابعون وتابعوهم، وعلىٰ ذلك ما يقارب من مئة دليل من الكتاب والسنة(٤). اهـ.

⊙ **قوله: «وَأَنَّ الإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالمَعْصِيَةِ»**: كما قال سبحانه:

---

(١) انظر: «شرح أصول الاعتقاد للالكائي» (١/ ١٧٣-١٧٤).

(٢) انظر: «جامع العلوم والحكم» (١/ ٥٧).

(٣) أخرجه البخاري (٨٧)، ومسلم (١٧)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) انظر: «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٣/ ٥٣١).

﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ﴾ [الفتح: ٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]، وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا**»(١)، وفي «الصحيحين» من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إلهَ إلا اللهُ، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء من الإيمان**»(٢)، ولفظه لمسلم، إلىٰ غير ذلك من الأدلة الدالة علىٰ أن الإيمان يزيد وينقص، وعلىٰ أن المؤمنين يتفاضلون في الإيمان، فبعضهم أكمل إيمانًا من بعض، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: ٣٢]، فدلت هذه الآية أن المؤمنين ينقسمون إلىٰ ثلاثة أقسام: سابقون، ومقتصدون، وظالمون لأنفسهم.

فالسابق إلىٰ الخيرات: هو الذي عمل الواجبات والمستحبات، واجتنب المحرمات والمكروهات، والمقتصد: هو من اقتصر علىٰ فعل الواجبات واجتناب المحرمات، والظالم لنفسه: هو من أخل ببعض الواجبات وانتهك بعض المحرمات، فكل واحد من هذه الأقسام يطلق عليه أنه مؤمن.

أما أصول الإيمان، فستة كما في حديث جبريل، وهي: «**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره**»(٣)، وفي الحديث

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح الجامع» (١٢٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) سبق تخريجه.

المذكور جعل مراتب الدين ثلاثة: الإيمان والإسلام والإحسان، فأعلاها: الإحسان، ثم الإيمان، ثم الإسلام، فكل محسن مؤمن مسلم، ولا ينعكس، وكل مؤمن مسلم لا العكس، فالمرتبة الأولىٰ الإسلام، وهي التي يدخل فيها الكافر أول ما يتكلم بإسلام، وأعلىٰ منها مرتبة الإيمان؛ لأن الله نفىٰ الإيمان عمن ادعىٰ الإيمان من أول وهلة الإيمان، وأثبت لهم الإسلام، كما قال تعالىٰ: ﴿۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ [الحُجُرات: ١٤].

المرتبة الثالثة: الإحسان، وهي أعلىٰ من المرتبتين الأوليين، فقد ينفي عن الرجل الإحسان ويثبت له الإيمان، وينفي عنه الإيمان ويثبت له الإسلام، كما في حديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»(١)، ولا يخرجه عن مرتبة الإسلام إلا الكفر بالله والشرك المخرج عن الملة.

وأما المعاصي والكبائر كالزنا وشرب الخمر ونحو ذلك؛ فلا يخرجه عن دائرة الإسلام والإيمان إذا ذُكرا جميعًا، فإن الإسلام يفسَّر بالانقياد للأعمال الظاهرة، والإيمان يفسر بالأعمال الباطنة، كما فرق بينهما في حديث جبريل، فقال: «الإسلام أن تشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا، والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره»(٢).

وروىٰ الإمام أحمد من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٤٣)، ومسلم (٥٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه.

«**الإسلام علانية والإيمان بالقلب**»(١)، وهذا إذا ذُكرا معًا، أما إذا أُفرد أحدهما عن الآخر كقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، فإنه يدخل فيه الآخر، فإذا أُفرد الإيمان دخل فيه الإسلام وبالعكس، دلالة الاقتران والانفراد، كالفقير والمسكين ونحو ذلك(٢).

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٤)، وأبو يعلىٰ (٢٩٢٣)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «ضعيف الجامع» (٢٢٨٠).

(٢) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين** رَحِمَهُ اللَّهُ **في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٢٣٤-٢٣٥):**

«وأسباب زيادة الإيمان أربعة:

الأول: معرفة الله تعالىٰ بأسمائه وصفاته؛ فإنه كلما ازداد الإنسان معرفة بالله وأسمائه وصفاته؛ ازداد إيمانه.

الثاني: النظر في آيات الله الكونية والشرعية: قال الله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [يونس: ١٠١].

وكلما ازداد الإنسان علمًا بما أودع الله تعالىٰ في الكون من عجائب المخلوقات ومن الحِكَم البالغات؛ ازداد إيمانًا بالله عَزَّ وَجَلَّ، وكذلك النظر في آيات الله الشرعية يزيد الإنسان إيمانًا بالله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأنك إذا نظرت إلىٰ الآيات الشرعية، وهي الأحكام التي جاءت بها الرسل، وجدت فيها ما يبهر العقول من الحِكَم البالغة والأسرار العظيمة التي تعرف بها أن هذه الشريعة نزلت من عند الله، وأنها مبنية علىٰ العدل والرحمة، فتزداد بذلك إيمانًا.

الثالث: كثرة الطاعات وإحسانها؛ لأن الأعمال داخلة في الإيمان وإذا كانت داخلة فيه؛ لزم من ذلك أن يزيد بكثرتها.

السبب الرابع: ترك المعصية تقربًا إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، فإن الإنسان يزداد بذلك إيمانًا بالله عَزَّ وَجَلَّ.
=

وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ؛ كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ؛ بَلِ الأُخُوَّةُ الإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ فِي آيَةِ الْقِصَاصِ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وَقَالَ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجُرات: ٩-١٠].

الشَّرْح

⊙ **قوله:** «وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لا يُكَفِّرُونَ»: أي لا ينسبونهم للكفر ويحكمون عليهم به.

⊙ **قوله:** «أَهْلَ الْقِبْلَةِ»: أي: من يدعي الإسلام، ويستقبل الكعبة، وإن كان عليه ذنوب ومعاصي عدا الشرك بالله، والكفر المخرج عن الملة الإسلامية، كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من صلىٰ صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو المسلم، له ما لنا وعليه ما علينا**»(١).

=

أسباب نقص الإيمان أربعة:

الأول: الإعراض عن معرفة الله تعالىٰ وأسمائه وصفاته.

الثاني: الإعراض عن النظر في الآيات الكونية والشرعية، فإن هذا يوجب الغفلة وقسوة القلب.

الثالث: قلة العمل الصالح، ويدل لذلك قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النساء: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للُبِّ الرجل الحازم من إحداكن**» قالوا: يا رسول الله، كيف نقصان دينها؟ قال: «**أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم؟!**».

الرابع: فعل المعاصي؛ لقوله تعالىٰ: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطفِّفين: ١٤]» اهـ.

(١) أخرجه البخاري (٣٨٤)، وغيره من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

فأهل السنة والجماعة لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر، كما يفعله الخوارج والمعتزلة، فإن الخوارج يقولون: من فعل كبيرة فهو في الدنيا كافر وفي الآخرة مخلد في النار لا يخرج منها لا بشفاعة ولا بغير شفاعة، والمعتزلة يقولون: من فعل كبيرة فهو في الدنيا لا مؤمن ولا كافر، بل في منزلة بين المنزلتين، وفي الآخرة خالد مخلد في النار كقول الخوارج.

وقابلتهم المرجئة فقالوا: إنه لا يضر مع الإيمان ذنب كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وقالوا: إيمان أفسق الناس كإيمان أبي بكر وعمر.

فالخوارج والمعتزلة غلوا والمرجئة جفوا، أولئك تعلقوا بأحاديث الوعيد، وهؤلاء تعلقوا بأحاديث الوعد فقط.

وهدى الله أهل السنة والجماعة للقول الوسط الذي تدل عليه أدلة الكتاب والسنة، فقالوا: إن الفاسق لا يخرج من الإيمان بمجرد فسقه، ولا يخلد في النار في الآخرة، بل هو تحت مشيئة الله؛ إن عفا عنه دخل الجنة من أول وهلة، وإن لم يعف عنه عذِّب بقدر ذنوبه ثم دخل الجنة، فلابد له من دخول الجنة، فالعاصي معرَّض لعقوبة الله وعذابه.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ٤٨]، فهذه الآية صريحة في أن من مات غير مشرك فهو تحت مشيئة الله، ففيها الرد على الخوارج المكفرين بالذنوب، وعلى المرجئة القائلين بأن الذنوب لا تضر، وأن الناس في الإيمان سواء، لا تفاضل بينهم، وعن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثلاث من أصل الإيمان: الكف عمن قال: لا إله**

إلا الله، لا نكفره بذنب، ولا نخرجه من الإسلام بعمل، والجهاد ماض منذ بعثني الله حتىٰ يقاتل آخر أمتي الدجال لا يبطله جور جائر ولا عدل عادل، والإيمان بالأقدار»(١). رواه أبو داود، وفي «الصحيح»: «يخرج من النار من قال: لا إلهَ إلا الله، وفي قلبه مثقال ذرة من إيمان»(٢).

ففيه دليل علىٰ زيادة الإيمان ونقصانه، وعلىٰ دخول طائفة من الموحدين النار، وإن الكبائر لا يكفر فاعلها، ولا يخلد في النار.

وقال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: باب خوف المؤمن أن يحبط عمله، وهو لا يشعر، قال إبراهيم التيمي: ما عرضت قولي علىٰ عملي إلا خشيت أن أكون مكذبًا، وقال ابن أبي مُلَيكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه علىٰ إيمان جبريل وميكائيل، ويذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق(٣).

⊙ **قوله:** «بَلِ الأُخُوَّةُ الإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ المَعَاصِي»: كما قال تعالىٰ في آية

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٣٢)، وأبو يعلىٰ (٤٣١١)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وضعفه العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «ضعيف الجامع» (٢٥٣٢).

(٢) أخرجه البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣)، بنحوه وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٢٣٧-٢٣٨):**

«والفرق بين الشيء المطلق ومطلق الشيء: أن الشيء المطلق؛ يعني: الكمال، ومطلق الشيء؛ يعني: أصل الشيء.

فالمؤمن الفاعل للكبيرة عنده مطلق الإيمان، فاصل الإيمان موجود عنده، لكن كماله مفقود.

فكلام المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ دقيق جدًّا» اهـ.

القصاص: ﴿ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [البقرة: ١٧٨]، فسماه أخًا مع وجود القتل منه، ففيه دليل على أن العاصي لا يخرج من الإيمان بمجرد الذنوب والمعاصي.

⊙ **قوله:** «﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾»: الآية: الطائفة: القطعة من الشيء ويطلق على الواحد، فما فوقه عند الجمهور. وقوله: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ [الحُجُرات: ٩]، فسماهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخاري وغيره على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية لا كما يقول الخوارج والمعتزلة ومن تابعهم.

وفي «صحيح البخاري» من حديث الحسن عن أبي بكرة أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»**(١)، فكان كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أصلح الله بين أهل الشام والعراق بعد الحروب الطويلة.

⊙ **قوله:** «﴿ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ ﴾»: أي: تعدّت إحداهما على الأخرى وأبت الإجابة إلى حكم كتاب الله. قوله: ﴿ حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾، أي: ترجع إلى أمر الله ورسوله وتسمع للحق وتطيعه، كما في «الصحيح» عن أنس أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»**(٢)، قلت: يا رسول الله، هذا نصرته مظلومًا كيف أنصره ظالمًا؟ قال: **«تمنعه من الظلم، فذلك نصرك إياه»**(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣٠)، وغيره من حديث أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٣١١)، وغيره من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٥٢)، وغيره من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ

⊙ **قوله**: «﴿ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾»: فيه إثبات المحبة لله كما يليق بجلاله وعظمته، وفيه فضل الإصلاح بين الناس، وفيه مدح العدل والإنصاف، وروىٰ ابن أبي حاتم عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**المقسطون علىٰ منابر من نور عن يمين العرش، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا**»(١) رواه مسلم والنسائي، وفيه أنه لم يخرجوا بالبغي من الإيمان، وفيه أنه أوجب قتالهم، وأنه أسقط عنهم التبعة فيما أتلفوه في قتالهم، وفيه إجازة قتال كل من منع حقًّا عليه والأحاديث بذلك مشهورة.

⊙ **قوله**: «﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾»: أي: إخوة في الدين، سماهم مؤمنين مع وجود الاقتتال بينهم، وجعلهم إخوة في الدين مع وجود الاقتتال بينهم، فدل علىٰ أنهم لا يخرجون من الإيمان بالمعصية.

⊙ **قوله**: «وَالكَبَائِر»: هي جمع كبيرة، وهي الفعلة القبيحة من الذنوب العظيم أمرها، والكبيرة كل معصية فيها حدٌّ في الدنيا أو وعيد في الآخرة، وزاد شيخ الإسلام ابن تيمية: أو ورد فيها وعيد ينفي إيمان، أو لعن أو غضب ونحوهما.

في قوله: «والكَبَائِر»: إشارة إلىٰ أن الذنوب تنقسم إلىٰ كبائر وصغائر، وهو الصواب الذي تدل عليه الأدلة.

وأما عدد الكبائر، فعند سعيد بن جبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رجل لابن عباس: الكبائر سبع، فقال ابن عباس: هي إلىٰ السبع مئة أقرب منها إلىٰ السبع، غير أنه لا

(١) أخرجه مسلم (١٨٢٧)، والنسائي (٥٣٧٩)، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار، وقد أوصلها علماؤنا إلىٰ أكثر من السبعين، كما في «الإقناع».

قال في «شرح الطحاوية»: وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء، وعدم المبالاة، وترك الخوف ما يلحقها بالكبائر، وقد يقترن بالكبيرة من الحياء والخوف والوجل ما يلحقها بالصغائر، وهذا أمر مرجعه إلىٰ ما يقوم بالقلب، وقد يُعفىٰ لصاحب الإحسان العظيم ما لا يعفىٰ لغيره، فإن فاعل السيئات تسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب عُرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة:

الأول: التوبة.

الثاني: الاستغفار.

الثالث: الحسنات الماحية.

الرابع: المصائب الدنيوية.

الخامس: عذاب القبر.

السادس: دعاء المؤمنين واستغفارهم.

السابع: ما يهدىٰ إليه بعد الموت من ثواب صدقة أو قراءة أو حج ونحو ذلك.

الثامن: أهوال يوم القيامة وشدائده.

التاسع: ما ثبت أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا علىٰ قنطرة بين الجنة والنار ليُقتَصَّ لبعضهم من بعض.

العاشر: شفاعة الشافعين.

الحادي عشر: عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة كما تقدم. انتهىٰ باختصار[١].

إذا عُرف ما تقدم، فينبغي أن يكون المؤمن خائفًا راجيًا، ويكون خوفه ورجاؤه سواء، فإنه إذا رجح الخوف حمله علىٰ القنوط من رحمة الله، وإذا رجح الرجاء حمله علىٰ الأمن من مكر الله، وكلاهما من كبائر الذنوب.

◈ ◈ ◈

(١) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (٢/ ٤٥١).

وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ اسْمَ الإِيمَانِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ؛ كَمَا تَقُولُه الْمُعْتَزِلَةُ. بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَانِ؛ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإِيمَانِ الْمُطْلَقِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، وَقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»(١). وَيَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ، أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ، فَلَا يُعْطَى الِاسْمَ الْمُطْلَقَ، وَلَا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الِاسْمِ.

الشَّرح

⊙ **قوله:** «الفَاسِق...»: الفسق: لغة: الخروج عن الاستقامة، والجور، وبه سمي الفاسق فاسقًا، وشرعًا: الفاسق من فعل كبيرة أو أصر على صغيرة. وينقسم إلى قسمين:

الأول: فسق اعتقاد، كالرفض والاعتزال ونحوهما.

الثاني: فسق عمل، كالزنا واللواط وشرب الخمر، ونحو ذلك.

⊙ **قوله:** «المِلِّيّ»: أي: الذي على ملة الإسلام، ولم يرتكب من الذنوب ما يوجب كفره، فأهل السنة والجماعة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٧٨)، ومسلم (٥٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يكفر كفرًا ينقل عن الملة بالكلية، وعلىٰ أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام، ويدخل في الكفر، ومتفقون علىٰ أنه لا يستحق الخلود مع الكافرين، وأن من مات علىٰ التوحيد، فلابد له من دخول الجنة، خلافًا للخوارج والمعتزلة، فإن الخوارج أخرجوهم من الإيمان، وحكموا عليهم بالخلود في النار، والمعتزلة وافقوا الخوارج في الحكم عليهم في الآخرة دون الدنيا، فلم يستحلوا منهم ما استحلته الخوارج، وأما في الأسماء فأحدثوا المنزلة بين المنزلتين، وهذه خاصة المعتزلة التي انفردوا بها، وسائر أقوالهم قد شاركهم فيها غيرهم، وهذا الخلاف -فيما ذكر- أول خلاف حدث في الملة.

قال ابن عبد الهادي في «مناقب الشيخ تقي الدين»: أول خلاف حدث في الملة في الفاسق الملي: هل هو كافر أو مؤمن؟ فقالت الخوارج: إنه كافر، وقالت الجماعة: إنه مؤمن، وقالت طائفة المعتزلة: هو لا مؤمن ولا كافر، منزلة بين المنزلتين، وخلدوه في النار، واعتزلوا حلقة الحسن البصري، فسموا معتزلة(١). اهـ.

والأدلة علىٰ بطلان مذهب الخوارج والمعتزلة كثيرة جدًّا، وقد تقدم ذكر بعضها، كقوله تعالىٰ: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وكقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحُجُرات: ٩]، فسماهم مؤمنين مع وجود القتل والاقتتال، وسماهم إخوة مع وجود ذلك، والمراد: أُخوَّة الدِّين كما تقدم، وقد تقدم ذكر انقسام المؤمنين إلىٰ ثلاثة أقسام: سابقين، ومقتصدين، وظالمين لأنفسهم.

---

(١) انظر: «العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية» (١/ ٢٥٠).

وقد تواتر في الأحاديث: «أخرجوا من النار من قال: لا إلهَ إلا اللهُ، وفي قلبه مثقال ذرة من إيمان»[(١)]، وحديث «الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأعلاها: قول: لا إلهَ إلا اللهُ، وأدناها: إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[(٢)]، فعُلم أن الإيمان يقبل التبعيض والتجزئة، وأن قليله يُخرِج به صاحبه من النار إن دخلها، وأيضًا: فلو كان العاصي كافرًا كفرًا ينقل عن الملة بالكلية لكان مرتدًّا، ولا يقبل عفو ولي القصاص، ولا تجري الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر، وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام، ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل علىٰ أن الزاني والسارق وشارب الخمر والقاذف لا يقتل، بل يقام عليه الحد، فدل علىٰ أنه ليس بمرتد.

وقال ابن القيم في «المدارج»: والفسوق -أيضًا- ينقسم إلىٰ قسمين: فسق من جهة العمل، وفسق من جهة الاعتقاد -إلىٰ أن قال- وفسق الاعتقاد كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله، ويحرمون ما حرم الله ورسوله، ويوجبون ما أوجبه، ولكن ينفون كثيرًا مما أثبت الله ورسوله جهلًا وتأويلًا وتقليدًا للشيوخ، ويثبتون ما لم يثبته الله ورسوله كذلك، وهؤلاء كالخوارج المارقة، وكثير من الروافض والقدرية والمعتزلة، وكثير من الجهمية الذين ليسوا غلاة في التجهم.

وأما غالية الجهمية وغلاة الرافضة، فليس للطائفتين في الإسلام نصيب؛ ولذلك أخرجهم جماعة من السلف من الثنتين والسبعين فرقة، وقالوا: هم مباينون

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

للملة، فالتوبة من هذا الفسوق بإثبات ما أثبته الله ورسوله من غير تشبيه ولا تعطيل، وتنزيهه عما نزَّه به نفسه ونزَّهه به رسوله من غير تشبيه ولا تعطيل، وتلقي الإثبات والنفي من مشكاة الوحي لا من آراء الرجال ونتائج أفكارهم، فتوبة هؤلاء الفساق من جهة الاعتقادات الفاسدة بمحض اتباع السنة، ولا يكتفي -أيضًا- منهم حتىٰ يبينوا فساد ما كانوا عليه من البدعة[1]. انتهىٰ.

⊙ **قوله:** «بَلِ الفَاسِقُ يَدْخُلُ...» إلخ:

فإن أعتق رقبة مؤمنة فيما يشترط في العتق إيمان الرقبة، أجزأت الرقبة الفاسقة، فقد دخلت في اسم الإيمان المطلق، وإن لم تكن من أهل الإيمان الكامل، فالفاسق يدخل في جملة أهل الإيمان علىٰ سبيل إطلاق أهل الإيمان، وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق، كما في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] الآية، فالفاسق لا يُسلب عنه اسم الإيمان علىٰ الإطلاق، ولا يثبت له علىٰ الإطلاق، بل يقال: مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، وحقيقة الأمر أن من لم يكن من المؤمنين حقًّا يقال فيه: إنه مسلم ومعه إيمان يمنعه من الخلود في النار.

⊙ **قوله:** «﴿إِنَّمَا﴾»: أداة حصر تثبت المذكور وتنفي ما عداه.

⊙ **قوله:** «﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾»: أي: الإيمان الكامل المأمور به.

⊙ **قوله:** «﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾»: أي: خافت.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٦٩-٣٧٠).

⊙ **قوله:** «﴿وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾»: فيها دليل علىٰ أن الإيمان يزيد وينقص.

⊙ **قوله:** «﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾»: أي: يفوِّضون أمرهم إلىٰ الله، ففيها فضل التوكل، وأنه من أَجَلِّ أعمال القلوب، وفيها دليل علىٰ أن الأعمال الظاهرة والباطنة داخلة في مسمىٰ الإيمان شرعًا، فكل ما نقص من الأعمال التي لا يخرج نقصها من الإسلام، فهو نقص في كمال الإيمان الواجب، كما في حديث أبي هريرة المتفق عليه: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»(١) الحديث، فالمنفي في هذا الحديث كمال الإيمان الواجب، فلا يطلق الإيمان علىٰ مثل أهل هذه الأعمال إلا مقيدًا بالمعصية أو الفسوق، فيقال: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فيكون معه من الإيمان بقدر ما معه من الأعمال الباطنة والظاهرة، فيدخل في أهل الإيمان علىٰ سبيل إطلاق أهل الإيمان، كما تقدم في قوله: ﴿وَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ [النساء: ٩٢].

وأما المؤمن الإيمان المطلق الذي لا يتقيد بمعصية ولا فسوق ونحو ذلك، فهو الذي أتىٰ بما يستطيعه من الواجبات مع تركه لجميع المحرمات، فهو الذي يطلق عليه اسم الإيمان من غير تقييد، فهذا هو الفرق بين مطلق الإيمان والإيمان المطلق.

الثاني: هو الذي لا يصرُّ صاحبه علىٰ ذنب، والأول: هو المُصرُّ علىٰ بعض الذنوب.

فمطلق الإيمان هو وصف المسلم الذي معه أصل الإيمان الذي لا يتم الإسلام إلا به، فلا يصح إلا به.

---

(١) سبق تخريجه.

والمرتبة الثانية: مرتبة أهل الإيمان المطلق الذين كمُل إسلامهم وإيمانهم بإتيانهم بما وجب عليهم، وتركهم ما حرم الله عليهم، وعدم إصرارهم على الذنوب، فهذه المرتبة الثانية الذي وعد الله أهلها بدخول الجنة والنجاة من النار. انتهى.

وفي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**»[(١)] الحديث، دليل على دخول الأعمال في مسمى الإيمان، فلولا أن ترك هذه الكبائر من مسمى الإيمان لما انتفى اسم الإيمان عن مرتكب شيء منها؛ لأن الاسم لا ينتفي إلا بانتفاء بعض أركان المسمى أو واجباته، والمراد بنفي الإيمان: نفي بلوغ حقيقته ونهايته، وفي هذا الحديث الرد على المرجئة والجهمية ومن اتبعهم الذين يقولون: إن مرتكب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان، ويزعمون أن الإيمان لا يتفاضل، وهو إما أن يزول بالكلية أو يبقى كاملًا، وقولهم ظاهر البطلان، فقد دل الحديث على أن الزاني وشارب الخمر ونحوهم حين فعلهم المعصية قد انتفى الإيمان عنهم، وقد دلت النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة على أنهم غير مرتدين بذلك، فعلم أن الإيمان المنفي في هذا الحديث وغيره إنما هو كمال الإيمان الواجب، فإن الله ورسوله لا ينفي اسم مسمًّى شرعي إلا بانتفاء بعض أركانه أو واجباته.

⊙ **قوله**: «**نُهْبَة**»: بضم النون هو ما يُنهب، والمراد: المأخوذ جهرًا قهرًا.

⊙ **قوله**: «**ذَاتَ شَرَفٍ**»: أي: ذات قدر عظيم.

⊙ **قوله**: «**يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ**»: أي: ينظرونها لعظم قدرها.

---

(١) سبق تخريجه.

⊙ **قوله:** «**وَنَقُولُ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ، أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ...**» إلخ: فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أطلق عليه الإيمان كما تقدم من قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] الآية، وقوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾ [الحُجُرات: ٩] الآية، وكذلك الرسول صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أطلق عليه الإيمان، كما ثبت في «الصحيح» أن النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من كانت له عند أخيه مظلمة فليتحلل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم...**»(١) الحديث، إلىٰ غير ذلك من الأدلة الدالة علىٰ إطلاق الإيمان علىٰ الفاسق.

⊙ **قوله:** «**وَيَقُولُونَ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ**» إلخ: خلافًا للمرجئة والجهمية ومن اتبعهم، فإن الإيمان عندهم لا يقبل الزيادة والنقصان، بل هو شيء واحد يستوي فيه جميع المؤمنين من الملائكة والمقتصدين والمقربين والظالمين، وقد سبق ذكر مذهبهم والرد عليه.

⊙ **قوله:** «**فَلَا يُعْطَىٰ الِاسْمَ الْمُطْلَقَ...**»: أي: لا يعطىٰ الفاسق اسم الإيمان المطلق، أي: الكامل الذي صاحبه يستحق عليه دخول الجنة والنجاة من النار، وهو فعل الواجبات وترك المحرمات، وهو الذي يطلق علىٰ من كان كذلك بلا قيد، فلا يطلق علىٰ الفاسق الإيمان إلا مقيدًا، فيقال: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، أو يقال: مؤمن ناقص الإيمان، فلا يسمىٰ مؤمنًا إلا بقيد، وهذا الذي يسميه العلماء: مطلق الإيمان.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٦٩)، وغيره من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال الشيخ تقي الدين رحمه الله: والتحقيق: أن يقال: إنه مؤمنٌ ناقص الإيمان، مؤمنٌ بإيمانه فاسقٌ بكبيرته، فلا يُعطىٰ الاسم المطلق، فإن الكتاب والسنة نَفَيا عنه الاسم المطلق، واسم الإيمان يتناوله فيما أمر الله به ورسوله؛ لأن ذلك إيجاب عليه وتحريم عليه وهو لازمٌ له كما يلتزم غيره، وإنما الكلام في المدح المطلق(١). اهـ.

⊙ **قوله:** «وَلَا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسْمِ»: كما تقدم إطلاق الإيمان في الآيات عليه، وكذلك رسوله، فيطلق عليه الإيمان مقيدًا كما تقدم، فيقال: مؤمنٌ بإيمانه فاسقٌ بكبيرته، ويقال: مؤمنٌ ناقص الإيمان، وعلىٰ هذا يدل الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة خلافًا للخوارج والمعتزلة، أما ما جاء في بعض الأحاديث من نفي الإيمان عن بعض العصاة فالمراد به: نفي الإيمان المطلق لا مطلق الإيمان كما تقدم.

قال الشيخ تقي الدين في «كتاب الإيمان»: الإيمان إذا أطلق في كلام الله ورسوله يتناول فعل الواجبات وترك المحرمات، ومن نفىٰ الله ورسوله عنه الإيمان فلابد أن يكون ترك واجبًا أو فعل محرمًا، فلا يدخل في الاسم الذي يستحق أهله الوعد دون الوعيد(٢). انتهىٰ.

قال ابن القيم رحمه الله في «بدائع الفوائد»: الإيمان المطلق لا يطلق إلا علىٰ الكامل الكمال المأمور به، ومطلق الإيمان يطلق علىٰ الكامل والناقص؛ ولهذا نفىٰ الإيمان المطلق عن الزاني وشارب الخمر والسارق، ولم يَنفِ عنه مطلق الإيمان؛

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٢٤١).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٤٢).

لئلا يدخل في قوله: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٨﴾ [آل عمران: ٦٨]، ولا في قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون: ١]، ولا في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] الآية، ويدخل في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، وفي قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [الحجرات: ٩] الآية؛ فلهذا كان قوله: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] نفيًا للإيمان المطلق لا لمطلق الإيمان لوجوهٍ ساقها، فالإيمان المطلق يمنع دخول النار، ومطلق الإيمان يمنع الخلود فيها، فإذا قيل: الفاسق مؤمن، فهو على هذا التفصيل(١). انتهى(٢).

◇ ◇ ◇

---

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (٤/ ١٦).

(٢) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٢٤٤):

«والفرق بين مطلق الشيء والشيء المطلق: أن الشيء المطلق هو الشيء الكامل، ومطلق الشيء؛ يعني: أصل الشيء، وإن كان ناقصًا.

فالفاسق الملِّي لا يُعطىٰ الاسم المطلق في الإيمان، وهو الاسم الكامل، ولا يُسلب مطلق الاسم، فلا نقول: ليس بمؤمن، بل نقول: مؤمن ناقص الإيمان، أو: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته.

هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، وهو المذهب العدل الوسط» اهـ.

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: سَلَامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠]، وَطَاعَةً لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قَوْلِهِ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»(١).

الشرح

⊙ **قوله: «وَمِنْ أُصُولِ»**: جمع أصل، وهو لغة: ما يُبنىٰ عليه غيره، واصطلاحًا: ما له فرع.

ويطلق الأصل علىٰ أربعة أشياء:

علىٰ الدليل غالبًا؛ كقولهم: أصل هذه المسألة الكتاب والسنة، أي: دليله.

الثاني: علىٰ الراجح من الأمرين؛ كقولهم: الأصل في الكلام: الحقيقة دون المجاز.

الثالث: القاعدة المستمرة؛ كقولهم: أكل الميتة علىٰ خلاف الأصل.

الرابع: المقيس عليه، وهو ما يقابل الفرع في باب القياس. انتهىٰ من «الكوكب المنير»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) [illegible] من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «شرح الكوكب المنير» (١/ ٤١).

⊙ **قوله:** «سَلَامَةُ قُلُوبِهِمْ»: أي: من الغل والحقد والبغض والعداوة لأصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسلامة ألسنتهم من الطعن فيهم واللعن والوقيعة فيهم، كما يفعله الرافضة والخوارج، وكذلك يجب اعتقاد فضلهم -رضوان الله عليهم- ومعرفة سابقتهم، وذِكْرُ محاسنهم والتَّرَحُّمُ عليهم والاستغفار لهم، والكفُّ عما شجر بينهم؛ فإنهم خير القرون وهم السابقون الأولون، وفي الكتاب والسنة من ذكر فضائلهم ومناقبهم ومقاماتهم الحميدة ما لا يتسع لذكره هذا المختصر، فلا مقام بعد مقام النبوة أعظم من مقام قومٍ ارتضاهم الله لصحبة نبيه ونصرة دينه، فهم أسعد الأمة بإصابة الصواب، وأجدر بفقه السنة والكتاب لفوزهم بصحبة نبيه فلا يبارون في فهمهم، ولا يجارون في علمهم فكل علمٍ وخيرٍ وصل فبسببهم، قال الله تعالىٰ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] الآية، وفي هذه الآية أعظم ردٍّ علىٰ الرافضة والخوارج.

⊙ **قوله:** «لأَصْحَابِ.....» إلخ: جمع صاحب، والصحابي: هو من اجتمع بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مؤمنًا به ومات علىٰ ذلك، قيل: ولو تخللته ردة، وقال البخاري: من صحب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه. انتهىٰ.

وآخر من مات منهم: هو أبو الطفيل عامر بن واثلة الليثي، كما جزم به مسلم في «صحيحه»، وكان موته سنة مئة، وقيل: سنة مئة وعشرة، وأما عدد الصحابة فقيل: مئة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، كما قال السيوطي:

والفضل فيما بينهم مراتب ... وعدهم للأنبيا يقاربُ

وكلهم عدولٌ ثقاتٌ لا يُفتَّش عن عدالة أحدٍ منهم بالإجماع، وحكىٰ الإجماعَ

ابن الصلاح وابن عبد البر، وحكاه إمام الحرمين(١).

وقال الشيخ تقي الدين: الذي عليه جمهور سلف الأمة وجمهور الخلف: أن الصحابة كلهم عدولٌ بتعديل الله لهم فيما أنزله علىٰ رسوله بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠](٢). اهـ(٣).

---

(١) انظر: «مقدمة ابن الصلاح» (ص١٤٦، ١٤٧)، و«الاستيعاب» لابن عبد البر (١/ ٩)، و«إرشاد الفحول» للشوكاني (ص٦٩).

(٢) انظر: «شرح الكوكب المنير» (٢/ ٤٧٣).

(٣) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٤٠٨-٤١٢):**

«هذا الفصل ذكر فيه شيخ الإسلام أصلًا من أصول أهل السنة؛ ألا وهو اعتقادهم في الصحابة رضوان الله عليهم، وما يعقدون عليه قلوبهم وما ينطقون به بألسنتهم في أمر صحابة رسول الله ﷺ.

وأصل هذه المسألة أُدخِلَت في العقائد لأجل مخالفة من خالف فيها؛ لأن أمر الجماعة قبل أن تتفرق الأمة كان علىٰ اعتقاد جميع ما جاء في الكتاب والسنة من الأصول والفروع، من القواعد والتفريعات، لكن ثَمَّ مسائل ظهرت طوائف خالفت فيها، وكان أهل السنة والجماعة فيها علىٰ عقيدة واضحة بينة، خالفوا فيها عقائد الضالين، فأفردوا لها فصولًا وكُتُبًا وبينوا فيها ما دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة، وما قاله الصحابة فمن بعدهم فيها.

ومن تلك المسائل: مسألة الصحابة؛ فإن مخالفة الخوارج والروافض وقبلهم الشيعة الغُلاة في ذلك جعلت تلك الفرق بائنة عن طريقة الجماعة، أي: طريقة أصحاب رسول الله ﷺ، والخلاف في الصحابة كان ظاهرًا لمَّا حصلت الفتنة في مقتل عثمان رضي الله عنه؛ فإن الناس بعده انقسموا:

=

* منهم من تولىٰ عليًا وغلا فيه.

* ومنهم من تولىٰ عليًا وعَدَلَ فيه، يعني: كان فيه علىٰ ما جاءت به النصوص والأدلة، وهم الصحابة جميعًا ومن تبعهم علىٰ ذلك.

* ومنهم من جفا عليًا ومن معه من الصحابة.

حتىٰ صارت الفرق ما بين غالٍ وجافٍ ومعتدل، فالسبئية الشيعة الغلاة: غلوا في علي حتىٰ ألّهوه وكفّروا أكثر الصحابة، وكانوا يكرهون عامة الصحابة إلا أربعة نفر وكفّروا الأكثرين منهم، ثم الخوارج: قابلوا الصحابة بالقتال لما حصلت مسألة التحكيم، وتبع ذلك أن قالوا في الصحابة -رضوان الله عليهم-: إنَّ من لم يعتقد اعتقاد الخوارج فإنه كافر ولو كان من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثم جاءت النواصب: الذين قابلوا أولئك.

ثم وتنوعت الفرق في الصحابة -رضوان الله عليهم- فكان من اعتقد الاعتقاد الحق في الصحابة فيما لهم من المكانة والمنزلة، وفي اعتقاد اجتهادهم، وفي توليهم وحبهم وسلامة الألسنة وسلامة القلوب في حقهم، كان من اعتقد ذلك الاعتقاد وبقي علىٰ ما كانت عليه الجماعة كان هو صاحب القول الحق، وهو الذي عليه الصحابة فمن بعدهم رضوان الله عنهم أجمعين.

إذًا سبب ذكر تلك المسألة المُخالفة، وتبع هذا الذكر أن كثيرًا من أهل السنة خالفوا -أيضًا- تلك الطوائف، وأظهروا هذه العقيدة في الصحابة وبينوها، وكانت لأهل السنة شعارًا، وأدخلوها في أشياء من العبادات وفي كلامهم، كما فعلوا في إدخال الترضِّي عن الصحابة، والترضي عن أمهات المؤمنين، والترضي عن جميع الآل، في خطبة الجمعة، وفي غيرها من الخطب؛ فإن إدخال الترضي عن الصحابة وعن زوجات النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن في عهده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا في عهد أبي بكر وعمر ولا في عهد عثمان، ثم بعد ذلك الأئمة من التابعين فمن بعدهم أدخلوا هذا الترضي وأدخلوا هذا الشعار؛ لأنه صار شعارًا لأهل السنة في مقابلة غيرهم من الروافض والخوارج والنواصب ومن شابه أولئك.

كذلك في مسألة الصلاة علىٰ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الأصل فيها: أن الصلاة عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلىٰ آله - كما جاء ذلك مُبينًا في حديث أبي حميد وغيره في «الصحيحين» وغيرهما؛ فإن

=

⊙ **قوله:** «كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾» الآية؛ أي: كما وصف أتباعهم بإحسان بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الحشر: ١٠] وهم التابعون الذين يجيئون بعد المهاجرين والأنصار إلىٰ يوم القيامة.

⊙ **قوله:** «﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا﴾»: أي: يسألون الله المغفرة لهم ولإخوانهم في الدين الذين سبقوهم بالإيمان، وهم أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

⊙ **قوله:** «﴿وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾»: أي: ولا تجعل في قلوبنا بغضًا وحسدًا وغشًّا للذين آمنوا، وفي حديث ابن مسعود الذي رواه الترمذي: «**ثلاثٌ لا يَغلُّ عَليهن قلبُ مُسلم: إخلاصُ العَمل لله، ومُناصحةُ أئمة المسلمين، ولزُومُ جَماعتهم، فإن دَعوتَهم تُحيط مَن وراءهم**»، أي: أن هذه الثلاث تنفي الغل عن القلب

= النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علمهم أن تكون الصلاة عليه وعلىٰ آله، فإن أهل السنة إذا ذكروا الصلاة عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأرادوا أن يذكروا الآل، أدخلوا معهم الصحابة، فقالوا: صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه. ولم يقتصروا علىٰ الآل، وهذا عند أكثر أهل السنة لأجل ألَّا يُشابهوا الرافضة والشيعة في توليهم للآل دون الصحب.

هذا كله تفريع عن هذه المسألة العظيمة.

فهذا الفصل ذكر فيه شيخ الإسلام اعتقاد أهل السنة والجماعة في صحابة رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا ليس من أركان الإيمان الستة، ولكنه من أصول أهل السنة والجماعة؛ لأنهم خالفوا به أهل الضلال وفرق الضلال التي تفرقت عن الجماعة الأولىٰ، والتي قال فيها صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والذي نفس مُحمدٍ بيده لتفترقن أُمتي علىٰ ثلاثٍ وسبعين فرقة فواحدة في الجنة وثنتان وسبعون في النار**». قيل يا رسول الله من هم؟ قال: «**الجماعة**».» اهـ.

فلا يبقىٰ فيه معها غلٌّ ولا غش، فالإخلاص يمنع غلَّ القلب وفساده، وكذلك النصيحة فإنها لا تجامع الغل، فمن نصح الأئمة والأمة فقد برئ من الغل، وهذا بخلاف أهل البدع من الرافضة والخوارج والمعتزلة وغيرهم فإن قلوبهم ممتلئةٌ غلًّا وغشًّا؛ ولهذا تجد الرافضة أبعد الناس من الإخلاص وأغشهم للأئمة والأمة، وأشدهم بعدًا عن جماعة المسلمين.

وفي هذه الآية الحث علىٰ محبة جميع المؤمنين ومودتهم والدعاء لهم والاستغفار، وأن من صفات المؤمنين سلامة قلوبهم من الغل والحقد والبغض لإخوانهم المؤمنين، كما في «الصحيحين» من حديث النعمان بن بشير: «**مَثَل المُؤمنين في تَوَادِّهم وتَراحُمِهم وتَعاطُفِهم كمَثل الجسَد الواحِدِ إذا اشْتكىٰ منه عضوٌ تَداعىٰ له سائرُ الأعضاء بالحُمَّىٰ والسَّهَر**»[1]. وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تَباغَضوا ولا تَحاسَدوا ولا تَدابَروا ولا تَقاطَعوا، وكونوا عبادَ الله إخوانًا، ولا يَحلُّ لمُسلم أن يَهجُرَ أخاه فوقَ ثَلاثٍ**»[2]. متفق عليه.

⊙ **قوله**: «﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾»: ﴿رَءُوفٌ﴾، أي: ذو رأفة وهي أشد الرحمة، وهو أبلغ من الرحيم، تضمنت هذه الآية الثناء علىٰ المهاجرين والأنصار وعلىٰ الذين جاءوا من بعدهم يستغفرون لهم ويسألون الله أن لا يجعل في قلوبهم غلًّا لهم، وتضمنت أن هؤلاء الأصناف هم المستحقون للفيء.

ولا ريب أن الرافضة خارجون من الأصناف الثلاثة، فإنهم لم يستغفروا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٦)، وأحمد (٤/ ٢٧٠)، وغيرهما من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٧١٨)، ومسلم (٢٥٥٩)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

للسابقين، وفي قلوبهم غلٌّ عليهم، ففيها الثناء على الصحابة وعلى أهل السُّنة الذين يتولونهم وإخراج الرافضة من ذلك، وروى ابن بطة وغيره عن مالك بن أنس قال: «من سب السلف فليس له من الفيء من نصيب»، واستدل بالآية[(١)]، وروي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «أمر الله بالاستغفار لأصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو يعلم أنهم يقتتلون»[(٢)].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أُمرتم بالاستغفار لأصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسببتموهم، سمعت نبيكم يقول: «**لا تَذهب هذه الأمةُ حتى يَلعَنَ آخِرُها أوَّلَها**»[(٣)]، ورواه البغوي.

قال العماد بن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «فيا ويل من سبهم أو أبغضهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولاسيما سيد الصحابة بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخيرهم وأفضلهم -أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن قحافة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم -عياذًا بالله من ذلك- وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن إذ يسبون من رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأما أهل السُّنة فإنهم يترضون عمن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم

---

(١) انظر: «الشرح والإبانة» لابن بطة (ص١٦٢) بنحوه.

(٢) رواه أحمد في «فضائل الصحابة» (٢/ ٩١٠) (١٧٤١).

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٢٤١)، من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، إسناده ضعيف من أجل إسماعيل بن إبراهيم بن مهاجر، قال الحافظ في «التقريب» (٤١٧): ضعيف.

متبعون لا مبتدعون ومقتدون لا مبتدون؛ ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون(١). اهـ.

وقال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: من أصبح وفي قلبه بغض لأحدٍ من الصحابة فقد أصابته هذه الآية، يعني قوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩] الآية(٢).

وقد ذكر بعض العلماء أن الرافضة ليسوا من فرق الأمة المحمدية، وباستقراء ما هم عليه الآن من الغلو في أهل البيت والبناء علىٰ قبورهم وإظهار اللعن والسب لأصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسفاهات أخرىٰ يمجها العقل والدين، يعلم أن هذه الطائفة ليست من الإسلام في شيء؛ ولذلك صرح بعض العلماء بتكفيرهم لسبهم الصحابة، فقال صاحب «تبيين المحارم»(٣): واعلم أن الروافض كفارٌ عندنا؛ لأنهم يسبون أبا بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكذلك من أنكر خلافتهما يكفر عندنا علىٰ الأصح.

وإمام هذه الطائفة الخبيثة منافقٌ معروفٌ يهودي الأصل، وهو عبد الله بن

---

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ١٧٨).

(٢) انظر: «الشفا بتعريف حقوق المصطفي» (٢/ ٦١٦).

(٣) وهو: يوسف بن عبد الله، سنان الدين الخلوتي الأماسي: واعظ حنفي، تركي مستعرب، سكن مكة، وعرف بشيخ الحرم، وتوفي في بلدته «أماسية»، وقيل: بمكة. له كتب، منها «تبيين المحارم – خ» في مجلد كبير، رتَّبه علىٰ ٩٨ بابًا، علىٰ ترتيب ما وقع في القرآن من الآيات التي تدل علىٰ حُرمة شيء من فتوىٰ الفقهاء، فرغ من تأليفه في رابع رجب (٩٨٠)، توفي نحو (٩٨٦هـ). انظر: «الأعلام» (٨/ ٢٣٣).

سبأ ادعىٰ الإسلام حيلة، وسعىٰ جهده لتفريق وتشتيت الكلمة، وأدرك بعض قصده بقتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم أظهر الغلو في علي بن أبي طالب، وقصته مشهورة.

حديث: «**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي**»(١) رواه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «كان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف شيءٌ فسبَّه خالد، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَسبُّوا أصحابي، فإن أحدَكم لو أنفق مِثلَ أُحُدٍ ذهبًا ما بَلَغ مُدَّ أحدِهم ولا نَصِيفَهُ**»(٢)، انفرد مسلم بذكر سب خالد لعبد الرحمن دون البخاري، فقوله: «**لا تَسبُّوا أصحابي**» يعني: عبد الرحمن بن عوف وأمثاله من السابقين الأولين، فهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان، وبعد مصالحة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أهل مكة، ومنهم خالد بن الوليد، فنهىٰ من له صحبة أن يسب من له صحبة أولىٰ لامتيازهم عنهم من الصحبة بما لا يمكن أن يشركوهم فيه حتىٰ لو أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه، فإذا كان هذا حال الذين أسلموا بعد الحديبية، فكيف حال من ليس من الصحابة بحال؟!

⊙ **قوله:** «**لَا تَسُبُّوا**»: أي: لا تشتموا.

⊙ **قوله:** «**أُحُدٍ**»: هو جبل معروف في المدينة، سمي بذلك لتوحده من الجبال كما ذكره السهيلي.

⊙ **قوله:** «**مُدَّ**»: **المد**: مكيال معروف وهو رطل وثلث بالعراقي، والنصيف:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٥٤٠)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٤١) من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

النصف، والمعنىٰ: أن غير الصحابة لو أنفق في سبيل الله جبل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه في الثواب.

وفي هذا دليلٌ علىٰ تحريم سب أصحاب رسول الله ﷺ وأنه من كبائر الذنوب، وفيه دليلٌ علىٰ تحريم لعن أصحاب رسول الله ﷺ من باب أولىٰ، وأنه من كبائر الذنوب، فإن الحديث صريح في تحريم السب، واللعنُ أعظم من السَّبِّ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**لَعْنُ المُؤمِنِ كَقَتْلِه**»(١) وأصحابه ﷺ خيار المؤمنين كما قال ﷺ: «**خَيرُ القُرون قَرْني**»(٢) الحديث.

وروىٰ الترمذي عن عبد الله بن مغفل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اللهَ اللهَ في أصحابي، لا تَتَّخِذُوهم غَرَضًا، فمَن أحبَّهم فبِحُبِّي أحَبَّهم، ومَن أبغضَهم فببُغْضي أبغضَهم، ومَن آذاهم فقد آذاني، ومَن آذاني فقد آذىٰ اللهَ، ومَن آذىٰ اللهَ يُوشِكُ أنْ يَأخُذَه**»(٣)، قال الترمذي: حديثٌ غريب، إلىٰ غير ذلك من الأحاديث الدالة علىٰ وجوب احترامهم وحفظ كرامتهم، وتحريم سبهم والطعن فيهم ولعنهم.

قال الشيخ تقي الدين: مَن لعن أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ فإنه

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٥٤)، ومسلم (١١٠)، وغيرهما من حديث ثابت بن الضحاك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٧٢)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأصله في «الصحيحين» من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «**خير الناس قرني**».

(٣) أخرجه الترمذي (٣٨٦٢)، وأحمد (٥/ ٥٤)، وغيرهما من حديث عبد الله بن مغفل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١١٦٠).

يستحق العقوبة البليغة[١] باتفاق المسلمين، وقد تنازعوا: هل يعاقب بالقتل أو ما دون القتل[٢].

واستدل بهذا الحديث على عدالة جميع الصحابة لثناء النبي هذا الثناء العظيم الدال على فضلهم وعدالتهم، وفيه دليلٌ على تفضيل الصحابة كلهم على جميع من بعدهم، وهو قول الجمهور.

قال بعض السلف لما سئل عن عمر بن عبد العزيز ومعاوية: أيهما أفضل؟ قال: غبارٌ في أنف معاوية مع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضل من عمر بن عبد العزيز[٣].

وسبب تفضيل نفقتهم أنها كانت في وقت الضنك والضيق بخلاف غيرهم؛ ولأن إنفاقهم كان في نصرته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحمايته، وذلك معدومٌ بعده، وكذا جهادهم وسائر طاعتهم كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

◈ ◈ ◈

---

(١) في الأصل: «البالغة»، والصواب ما أثبتناه من المصدر المذكور.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣٥/ ٥٨).

(٣) انظر: «البداية والنهاية» (٨/ ١٣٢).

وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالإِجْمَاعُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ.

فَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ -وَهُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ- وَقَاتَلَ عَلَى مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدِهِ وَقَاتَلَ، وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الأَنْصَارِ.

وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ لأَهْلِ بَدْرٍ -وَكَانُوا ثَلاثَ مِئَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ-: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُم فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»(١).

وَبِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢)، بَلْ قَدْ رَضِيَ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِئَةٍ.

وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَالْعَشَرَةِ، وَكَثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَمَّاسٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ.

الشرح

⊙ **قوله**: «وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَالإِجْمَاعُ»: هذا فيه الرد على الروافض والنواصب، فقد أثنى الله -سبحانه- على أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ووعدهم بالجنة كما قال سبحانه: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] الآية، وقال: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وقال: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)، وغيرهما من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٩٦)، وغيره من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

والآيات والأحاديث في فضل الصحابة كثيرةٌ جدًّا، منها ما في «الصحيحين» من حديث عمران وغيره: **«خيرُ القُرون قرني»**(١) الحديث.

وروىٰ ابن بطة بإسنادٍ صحيحٍ عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه قال: **«لا تسبوا أصحاب محمد، فلمقام أحدهم ساعة -يعني مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ- خيرٌ من عمل أحدكم أربعين سنة»**، وفي رواية وكيع: **«خير من عبادة أحدكم عمره»**(٢).

والأدلة في فضل الصحابة كثيرةٌ لا يرتاب فيها إلا زائغ، فلا شك أنهم حازوا قصبات السَّبْق، واستولوا علىٰ الأمد، وبلغوا في الفضل والمعروف والعلم وجميع خصال الخير ما لم يبلغه أحد، فالسعيد من اتبع صراطهم واقتفىٰ آثارهم، تاللهِ؛ لقد نصروا الدين ووطَّدوا قواعد الملة وفتحوا القلوب والأوطان وجاهدوا في الله حق جهاده، فرضي عنهم وأرضاهم.

⊙ **قوله:** «مِنْ فَضَائِلِهِمْ»: هو جمع فضيلة، وهو الخصلة الجميلة التي يحصل لصاحبها بسببها شرف وعلو منزلة. انتهىٰ.

⊙ **قوله:** «وَمَرَاتِبِهِمْ»: جمع مرتبة، والمُرتبة -بالضم- هي المنزلة، والمكان، وفيه جواز المفاضلة بين الصحابة، وهو الذي تدل عليه الأدلة وبه قال الجمهور، فعند أهل السُّنة أفضل الصحابة أبو بكر الصديق، ثم عمر الفاروق، ثم عثمان ذو النورين، ثم علي المرتضي، ثم بقية العشرة المشهود لهم بالجنة، ثم أهل بدر، ثم بيعة

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) صححه الألباني في «شرح الطحاوية» (٥٣٠).

الرضوان، ثم أُحد، ثم بقية الصحابة، ثم باقي الأمة أفضل من سائر الأمم، كما قال تعالىٰ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] الآية، وفي «السنن» من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أنتم تُوفُون سبعين أمّة أنتم خيرُها وأكرمُها على الله»(١).

⊙ **قوله:** «مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ»: وهؤلاء هم السابقون من المهاجرين والأنصار والمذكورين في قوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠] الآية، فالسابقون: هم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم، قال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]، أي: لا يستوي في الأجر والثواب من أنفق ماله في سبيل الله ونصرة رسوله قبل الفتح ومن أنفق بعده، وذلك أن الإنفاق قبل الفتح في حال شدةٍ وضعف، فلم يكن يؤمن حينئذٍ إلا الصديقون، أما بعد الفتح فإنه ظهر الإسلام ظهورًا عظيمًا ودخل الناس في دين الله أفواجًا، والمراد هنا بالفتح هو: صلح الحديبية كما أشار إليه المصنف.

وفي «صحيح البخاري» عن أنس في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١] هو صلح الحديبية(٢)، وعن البراء: «أنتم تعدون الفتح مكة، وقد كان فتح

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٠١)، وابن ماجه (٤٢٨٨)، وغيرهما من حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم أقف عليه من حديث أبي هريرة، وحسنه الألباني في «المشكاة» (٦٢٨٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٣٩) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا.

مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعةَ الرضوان يوم الحديبية»(١). ذكره البخاري، وسئل النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن صلح الحديبية: أفتحٌ هو؟ قال: «نَعَمْ»(٢).

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُٱللَّهُ: وأهل العلم علىٰ أنه أنزل فيه -أي صلح الحديبية-: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١﴾، قال: وهذه الآية نصٌّ علىٰ تفضيل المنفقين المقاتلين قبل الفتح علىٰ المنفقين بعده؛ ولهذا ذهب جمهور العلماء إلىٰ أن السابقين في قوله: ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ [الحديد: ١٠]، وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم، وذهب بعضهم إلىٰ أن السابقين من صلىٰ إلىٰ القبلتين وهذا ضعيف، وأطال الكلام في رد هذا القول في كتابه «المنهاج»(٣). انتهىٰ.

وكانت بيعة الرضوان عام الحديبية سنة ست من الهجرة، وبذلك الصلح حصل من الفتح والخير ما لا يعلمه إلا الله، مع أنه كرهه خلقٌ كثيرٌ من المسلمين، ولم يعلموا ما فيه من حسن العاقبة.

وكان عدد الصحابة الذين بايعوا النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ تحت الشجرة أكثر من ألف وأربع مئة وهم الذين فتحوا خيبر، وسورة الفتح أنزلها الله قبل فتح مكة، إنما سمي صلح الحديبية فتحًا؛ لما حصل فيه من الخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩١٩) من حديث البراء رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٢٧٣٦)، والحاكم (٢٥٩٣)، وغيرهما من حديث مجمع بن جارية رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٥٨٧).

(٣) انظر: «مختصر منهاج السنة» (١/ ٧٥).

قال في «الهَدْي»: وسمي صلح الحديبية فتحًا في اللغة: عبارة عن فتح المُغلَق، والصلحُ الذي حصل مع المشركين في الحديبية كان بابه مسدودًا مغلقًا حتىٰ فتحه الله[١]. انتهىٰ.

وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: والجمهور علىٰ أن المراد بالفتح هاهنا: فتح مكة[٢]. اهـ.

⊙ **قوله:** «الحُدَيْبِيَة»: كدُوَيْهِيَة -وقد تُشدَّد- بئر قربَ مكة. انتهىٰ «قاموس»[٣].

في هذه الآية دليلٌ علىٰ أن الصدقة وكذلك سائر الأعمال تتفاضل بحسب الزمان والمكان، وفيها دليلٌ علىٰ فضل النفقة في سبيل الله وفضل الجهاد في سبيل الله، وفيها دليلٌ علىٰ تفاضل الصحابة رضوان الله عليهم، واستدل بهذه الآية علىٰ أن الصحابة كلهم من أهل الجنة، قال ابن حزم: الصحابة من أهل الجنة قطعًا واستدل بهذه الآية.

⊙ **قوله:** «وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَىٰ الأَنْصَارِ»: وذلك لما فضلهم الله به من المنزلة والشرف والتقديم في الذكر والرتبة كما قال سبحانه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وقال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ [الحشر: ٨] الآية.

⊙ **قوله:** «الْمُهَاجِرِينَ»: وهم الذين هاجروا من مكة إلىٰ المدينة. انتهىٰ. «قسطلاني»[٤].

---

(١) انظر: «زاد المعاد في هدي خير العباد» (٣/ ٢٧٥).

(٢) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٨/ ٤٦).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» (١/ ٧٣).

(٤) انظر: «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري» (٦/ ٨١).

وقال في «الفتح»: والمراد بالمهاجرين من عدا الأنصار، ومن أسلم يوم الفتح وهلم جَرًّا[(١)]. اهـ.

والهجرة هنا لغةً: الترك، وشرعًا: هو الانتقال من بلد الشرك أو بلد تغلب فيه أحكام البدع المضلة إلىٰ بلد الإسلام أو السنة.

⊙ **قوله: «الأَنْصَارِ»**؛ أي: أنصار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المراد بهم: الأوس والخزرج، وكانوا يُعرفون قبل ذلك ببني قيلة، وهي الأم التي تجمع القبيلتين، فسماهم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الأنصار، فصار ذلك علمًا عليهم، وخصوا بهذه المنقبة العظمىٰ دون غيرهم من القبائل لما فازوا به من إيواء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه والقيام بأمرهم ومواساتهم بأنفسهم وأموالهم، والأحاديث في فضل الأنصار كثيرة، كحديث أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**آيةُ الإيمان: حبُّ الأنصار، وآيةُ النفاق: بُغْضُ الأنصار**»[(٢)].

⊙ **قوله: «وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ الله تَعَالَىٰ قَالَ لأَهْلِ بَدْرٍ...»** إلخ: كما روىٰ الحاكم في «المستدرك» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ الله اطَّلَعَ علىٰ أهل بَدرٍ فقال: اعمَلوا ما شِئتم فقد غفرتُ لكم**»[(٣)]، وفي «صحيح مسلم» عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن غلامًا لحاطب قال: ليدخلن حاطبٌ النار، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٧/ ٩).

(٢) أخرجه البخاري (١٧)، ومسلم (٧٤)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الحاكم (٦٩٦٨)، وابن أبي شيبة (٦/ ٣٩٨) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧١٩).

«كَذبتَ، إنه شَهِد بدرًا والحُدَيْبِيَةَ»(١)، وفي «الصحيح» من حديث علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في قصة كتاب حاطب بن أبي بلتعة لقريش يخبرهم بخروج النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «إنه شَهِدَ بَدرًا، وما يُدريكَ لعلَّ اللهَ اطَّلع علىٰ أهل بدرٍ فقال: اعمَلوا ما شئتُم فقد غفرتُ لكم»(٢) رواه الإمام أحمد.

⊙ **قوله: «لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ» الحديث**: صرح العلماء بأن الترجي المذكور في كلام الله وكلام رسوله للوقوع، وقد وقع عند أحمد وأبي داود وغيرهم في حديث أبي هريرة بالجزم، ولفظه: «إنَّ اللهَ اطَّلع علىٰ أهلِ بَدر...»(٣) الحديث، وفي هذه الأحاديث دليلٌ علىٰ فضيلة أهل بدر وبشارةٌ عظيمة لهم.

قال النووي في «شرح مسلم»، قال العلماء رَحِمَهُمُٱللَّهُ: معناه الغفران لهم في الآخرة، فإن توجَّهَ علىٰ أحدٍ منهم حدٌّ أو غيره أقيم عليه في الدنيا، ونقل القاضي عياض: الإجماع علىٰ إقامة الحد، وأقامه عمر علىٰ بعضهم، وقال: وضرب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِسطحًا وكان بدريًا(٤). انتهىٰ(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٥)، والترمذي (٣٨٦٤)، وغيرهما من حديث جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٨٤٥)، ومسلم (٢٤٩٤)، وأحمد (١/ ٧٩)، وغيرهم من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر: «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (١٦/ ٥٦).

(٥) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٤٣٢، ٤٣٣)**:

«وقوله: «قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» هل هي مغفرة في الدنيا والآخرة جميعًا، أم مغفرة في الآخرة؟

=

⊙ **قوله: «وَكَانُوا ثَلاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ»**: أي: عدة أهل بدر، كما روى البخاري عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نتحدث أن عدة أصحاب بدر على عدة أصحاب طالوت الذين عبروا معه النهر ولم يجاوزه معه إلا مؤمنٌ بضعة عشر وثلاث مئة.

وبدر قرية مشهورة على نحو أربع مراحل من المدينة المنورة، وسميت الوقعة باسم موضعها الذي وقعت فيه، ووقعة بدر من أشهر الوقائع التي أعز الله بها الإسلام وقمع بها عبدة الأصنام.

=

الأظهر: أنها مغفرة في الآخرة، وأما في الدنيا فإنه إذا عمل الواحد منهم ما يوجب عقوبةً عليه - يعني: عقوبة شرعية من حدٍّ أو تعزيرٍ أو نحو ذلك- أُخِذَ به؛ كما عليه عمل الخلفاء الراشدين، فقوله: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُم، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» يعني: أنهم وإن وقعت منهم ذنوب فإنهم مغفور لهم، ولما حصل من حاطب بن أبي بلتعة ما حصل من إفشاء سر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو من أهل بدر، قال الله عَزَّ وَجَلَّ في شأنه: ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة:١] وحاطب كان بدريًا، ولأنه من أهل بدر وهم مغفورٌ لهم كان ذنبه ذاك مغفورًا، لكن من يحصل منه شيء مما يوجب عقوبةً أو حدًّا أو عزلًا أو مؤاخذة؛ فإن الصحابة آخذوا أهل بدر؛ ولهذا تفسير قوله: «فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ» يعني: في الآخرة.

قال العلماء: معنى ذلك أنهم يُوَفَّقُون لما به تُغفر ذنوبهم، إما بمصائب تحصل لهم، وإما بحسناتٍ ماحية، وإما بابتلاء يحصل لهم، أو نحو ذلك من مُكفرات الذنوب وما به يغفر الله عَزَّ وَجَلَّ ذلك.

والله عَزَّ وَجَلَّ قد يغفر بدون سبب، وهذا إذا لم يحصل للعبد أشياء مما يُغْفَرُ به الذنوب والسيئات؛ فإن الله يَمُن على أهل بدر بمغفرته لهم عَزَّ وَجَلَّ» اهـ.

وكانت وقعة بدر نهار الجمعة لسبع عشرة خلت من رمضان من السنة الثانية من الهجرة، واستشهد فيها من المسلمين أربعة عشرة نفسًا، ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار، وقتل من الكفار سبعون.

⊙ **قوله:** «وَبِأَنَّهُ لا يَدْخُلُ النَّارَ» إلخ: قال الله تعالىٰ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧]. وقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] الآية.

وفي «صحيح مسلم» من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**لا يَدخُل النارَ أحدٌ بايع تحت الشَّجرة**»(١)، وفي «الصحيحين» وغيرهما من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا في الحديبية ألفًا وأربع مئة، فقال لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أنتُم خيرُ أهل الأرض**»(٢)، أفاد هذا الحديث: أن عدد من بايع تحت الشجرة ألف وأربع مئة، وفي رواية من حديث جابر أنهم ألفٌ وخمس مئة(٣)، وفي حديث البراء أنهم ألفٌ وأربع مئة أو أكثر(٤)، وجمع بين هذه الروايات بأن من قال: ألفٌ وخمس مئة جبر الكسر، ومن قال: ألفٌ وأربع مئة ألغاه.

وكان سبب هذه البيعة أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قصد مكة ليعتمر فصدَّه المشركون، وكان قد بعث عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ مكة فشاع أن عثمان قتل، فطلب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٦)، وأبو داود (٤٦٥٣)، وغيرهما من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٢٣)، ومسلم (١٨٥٦)، وغيرهما من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

البيعة فبايعوه تحت الشجرة، ثم صالح المشركين صلح الحديبية المعروف، وذلك في سنة ست من الهجرة في ذي القعدة، ثم رجع بهم إلىٰ المدينة وغزا بهم خيبر ففتح الله عليهم في أول سنة سبع وقسمها بينهم.

⊙ **قوله**: «الشَّجَرَةِ»: هي شجرةٌ خضراء من سدرٍ كانت البيعة تحتها، ويقال لها: شجرة البيعة، ولما كان في خلافة عمر رأىٰ أناسًا يذهبون إليها فيصلون تحتها، فقطعها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مخافة الفتنة بها اختفىٰ مكانها، وأما الحديبية فهي قريبةٌ من مكة أكثرها في الحرم، والحديبية: بئرٌ كانت هناك، وسمي المكان بها، بينها وبين مكة نحو مرحلة واحدة، ومن المدينة تسع مراحل.

⊙ **قوله**: «ونَشْهَدُ بالْجَنَّةِ..» إلخ: أي: ويشهد أهل السنة والجماعة بالجنة لمن شهد له الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كالعشرة وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وأبو عبيدة بن الجراح، وطلحة، كما روىٰ الترمذي في «جامعه» عن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أبو بَكر في الجنَّة، وعمرُ في الجنة، وعثمانُ في الجنَّةِ، وعليٌّ في الجنة، والزُّبيرُ بن العوَّام في الجنة، وعبدُ الرحمن بنُ عَوف في الجنة، وسعدُ بن أبي وقَّاص في الجنَّة، وسعيدُ بن زيد في الجنة، وأبو عُبيدة بن الجرَّاح في الجنة**»[1]، ورواه أحمد في «مسنده» والضياء عن سعيد بن زيد، وتبشير النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العشرة بالجنة لا ينافي مجيء تبشير غيرهم في أخبار أخرىٰ؛ لأن

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٨٧)، وأبو داود (٦/ ٣٥٠)، وغيرهما من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٠١٠).

العدد لا ينفي الزائد.

وعن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أبو بَكر وعمرُ سَيِّدَا كُهولِ أهلِ الجنة مِن الأوَّلين والآخرين إلا النَّبيِّين والمُرسلين**»[(١)]، أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه، وأخرجه أبو يعلىٰ، والضياء في «المختارة» عن أنس، وأخرجه الطبراني في «الأوسط» عن جابر وأبي سعيد.

وقد اتفق أهل السنة علىٰ تعظيم هؤلاء العشرة وتقديمهم لما اشتهر من فضائلهم ومناقبهم، خلافًا للرافضة الذين يبغضونهم ويسبونهم، بل يكرهون لفظ العشرة أو فعل شيء يكون فيه عشرة ويتشاءمون به لموافقته لاسم العشرة المبشرة بالجنة، لكنهم يستثنون عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولديهم من الجهالات والعوائد الذميمة وسفاهة العقول ما يقضي بعزلهم عن زمرة العقلاء، وإلا فما ذنب هذا النوع من العدد؟! لكنه البغض المتأصل والعداوة البالغة لخيار المؤمنين وساداتهم، وأفضل قرونهم رضوان الله عليهم أجمعين.

⊙ **قوله**: «**وَثَابِتِ بْنِ قِيْسٍ**»: هو خطيب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما رواه البخاري في «صحيحه» عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده في بيته منكسًا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ قال: شرٌّ، كان يرفع صوته فوق صوت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٦٥)، وأحمد (١/ ٨٠)، وغيرهما من حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥١).

حبط عمله فهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأخبره أنه قال: كذا وكذا، قال: فرجع إليه المرة الأخيرة فأخبره ببشارة عظيمة، فقال: «**اذهَبْ إليه فقل له: إنَّك لستَ مِن أهل النَّار، ولكنَّكَ مِن أهل الجنة**»(١)، تفرد به البخاري من هذا الوجه، وفي رواية أحمد عن أنس: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، ورواه مسلم بلفظ آخر، ورواه ابن جرير وغيره، وروى ابن أبي حاتم عن ثابت عن أنس في قصة ثابت بن قيس فقال في آخرها: فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة كان في بعضنا بعض الانكشاف، فأقبل قد تكفن وتحنط، فقاتل حتى قتل.

⊙ **قوله**: «**وَغَيْرِهِم مِّنَ الصَّحَابَةِ**»: وذلك كعبد الله بن سلام والحسن، فقد شهد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمذكورين كما روى البخاري في «صحيحه» عن سعدٍ بن أبي وقاص قال: ما سمعت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لأحدٍ يمشي: «**إنَّه من أهل الجنة**» إلا لعبد الله بن سلام، وفي حديث أبي سعيد الخدري أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الحَسَن والحسينُ سَيِّدَا شبابِ أهل الجنة**»(٢)، وفي حديث عكَّاشة بن محصن لما ذكر السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة من غير حسابٍ ولا عذاب، فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: «**أنتَ مِنهم...**»(٣) الحديث.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٧)، من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٦٨)، وأحمد (٣/ ٣)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣١٨١).

(٣) سبق تخريجه.

ولا يُشهد لغير من شهد له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بجنةٍ ولا نار؛ لأنه لا يُعلم ماذا يختم له به، وألحق بعض العلماء بمن تقدم من اتفقت الأمة علىٰ الثناء عليه؛ كعمر بن عبد العزيز والحسن البصري وغيرهما، وكان أبو ثور يشهد لأحمد بن حنبل بالجنة، وفي «المسند»: «**يُوشِكُ أن تَعلموا أهلَ الجنَّةِ مِن أهل النار**»، قالوا: بماذا يا رسول الله؟ قال: «**بالثَّناء الحسَن والثَّناءِ السَّيِّئ**»(١).

وفي «الصحيحين» أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرَّ عليه بجنازةٍ فأثنوا عليها خيرًا، فقال: «**وَجَبَتْ**»، ومُرَّ عليه بجنازة فأثنوا عليها شرًّا فقال: «**وَجَبَتْ**»، فقيل: يا رسول الله، ما قولك: وجبت؟ فقال: «**هذه الجنازةُ أَثنيتُم عليها بالخيرِ فقلتُ: وَجبتْ لها الجنَّةُ، وهذه الجنازةُ أثنيتم عليها شرًّا فقلت: وجبتْ لها النَّارُ، أنتم شهداءُ الله في الأرض**»(٢).

◇ ◇ ◇

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٢١)، وابن حبان (٧٣٨٤)، وغيرهما من حديث أبي زهير الثقفي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٠٠).

(٢) أخرجه البخاري (١٣٠٣)، ومسلم (٩٤٩)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ. وَيُثَلِّثُونَ بِعُثْمَانَ، وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ، كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآثَارُ، وَكَمَا أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ فِي الْبَيْعَةِ.

مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدِ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ -بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى [تَقْدِيمِ] أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ- أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟

فَقَدَّمَ قَوْمٌ عُثْمَانَ وَسَكَتُوا، أَوْ رَبَّعُوا بِعَلِيٍّ، وَقَدَّم قَوْمٌ عَلِيًّا، وَقَوْمٌ تَوَقَّفُوا، لَكِنِ اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ ثُمَّ عَلِيٍّ.

وَإِنْ كَانَتْ هَذِه الْمَسْأَلَةُ -مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ- لَيْسَتْ من الأُصُولِ الَّتِي يُضَلَّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّةِ؛ لَكِنَّ [المَسْأَلَةَ] الَّتِي يُضَلَّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا: مَسْأَلَةُ الخِلَافَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ.

وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلَافَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الأَئِمَّةِ؛ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ.

الشَّرْح

⊙ **قوله**: «وَيُقِرُّونَ»: الإشارة للرد على الرافضة الذين يفضلون عليًّا على أبي بكر وعمر، ويطعنون في خلافتهما، ويزعمون أن عليًّا أفضل منهما، وأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصى إليه، وقد سئل عليٌّ عن ذلك فأنكر ذلك، كما روى الإمام أحمد والبخاري عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «خير هذه الأمة بعد نبيها

أبو بكر وعمر»، قال الحافظ الذهبي: هذا متواتر، والروافض تكذب هذه الأخبار - لعنهم الله- ما أجهلَهم وأضلهم!

وقال في «الفتاوىٰ» للشيخ تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد رُوي عن علي من نحو من ثمانين وجهًا أو أكثر أنه قال علىٰ منبر الكوفة: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر(١).

وقال في «المنهاج»: وروىٰ الترمذي عنه أنه سمع ذلك من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولا ريب أن عليًّا لا يقطع بذلك إلا عن علم، ورُوي عنه أنه قال: لا أوتىٰ بمن يفضلني علىٰ أبي بكر وعمر إلا جلدته جلد المفتري(٢).

وروىٰ الشيخان عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان أبو بكر أعلمنا برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وروىٰ الترمذي عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر وعمر: **«هذان سَيِّدَا كُهول أهل الجنة مِن الأوَّلين والآخرين إلا الأنبياء والمُرسلين»**(٣)، وروىٰ أبو الدرداء عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: **«ما طَلَعت شمسٌ ولا غربت بعد النبيين والمرسلين علىٰ أفضلَ مِن أبي بكر وعمر»**(٤)، وذكر الشيخ تقي الدين ابن تيمية في غير موضع من كتبه اتفاق العلماء علىٰ أن أعلم الصحابة أبو بكر ثم عمر.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٤٠٧).

(٢) انظر: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (٧/ ٣٨٥).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٣٢٥)، من حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وليس فيه ذكر عمر.

وذكر الإمام السمعاني أحد الأئمة الستة في كتاب «تقويم الأدلة»: أجمع علماء السنة علىٰ أن أبا بكر أعلم من علي[(١)].

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية: وما علمت أحدًا من الأئمة المشهورين ينازع في ذلك[(٢)]. اهـ.

⊙ **قوله**: «وَيُثَلِّثُونَ بِعُثْمَانَ، وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ»: أي: يكمِّلون بعثمان ثلاثة ويكملون بعلي أربعة، فالخلفاء الأربعة علىٰ هذا الترتيب في الفضل والخلافة، كما روىٰ الشيخان عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «كنا نفاضل علىٰ عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان»[(٣)]، وفي لفظ: «يبلغ ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا ينكره».

وقال أبو أيوب السختياني وأحمد بن حنبل والدارقطني وغيرهم: من قدَّم عليًّا علىٰ عثمان فقد أزرىٰ بالمهاجرين والأنصار[(٤)].

فهؤلاء الأربعة هم الخلفاء الراشدون والأئمة المهديون، كما في حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«عليكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلفاء الرَّاشدين المَهدِيِّين مِن بعدي، تَمَسَّكوا بها وعَضُّوا عليها بالنَّواجذ، وإيَّاكم ومُحدَثَات الأمور..»**[(٥)] الحديث.

---

(١) انظر: «منهاج السنة» (٧/ ٥٠٢).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٣٩٩).

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، وغيره من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) انظر: «منهاج السنة النبوية» (١/ ٥٣٣).

(٥) سبق تخريجه.

⊙ **قوله: «وَكَمَا أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَىٰ تَقْدِيمِ عُثْمَانَ فِي الْبَيْعَةِ»**: فإن الصحابة -رضوان الله عليهم- اختاروه وأجمعوا علىٰ بيعته، كما في حديث عبد الرحمن بن عوف: أنه قام ثلاثًا لم يغتمض فيها بنوم يشاور الأولين والتابعين لهم بإحسان، وشاوروا أمراء الأنصار، فأشار عليه المسلمون بولاية عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهذا من الأدلة الدالة علىٰ أن عثمان أفضل؛ لأنهم قدموه باختيارهم وأجمعوا عليه، كما تقدم من قول أبي أيوب وأحمد والدارقطني، وغيرهم من الأئمة: من قدم عليًّا علىٰ عثمان فقد أزرىٰ بالمهاجرين والأنصار.

فأفضل الأمة أبو بكر بإجماع أهل السنة، ولا ينازع في ذلك إلا زائغ، واسمه عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعيد بن تميم بن مرة، الصديق؛ لقبه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، وهو أول الناس إيمانًا وتصديقًا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علىٰ المشهور عند أهل السنة، وقيل: أول الناس إسلامًا عليٌّ، وقيل: غير ذلك.

وروي عن الإمام أبي حنيفة أنه قال: الأورَع أن يقال: أول من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق، ومن الصبيان عليٌّ، ومن النساء خديجة، ومن الموالي زيد بن حارثة، ومن العبيد بلال، وهكذا رُوي عن إسحاق بن راهويه، وهذا من أحسن ما قيل؛ لجمعه الأقوال، وأبو بكر أول من ولي الخلافة وأحق الناس بها، وأول من سُمي خليفة.

قال الإمام الشافعي: خلافة أبي بكر قضاها الله في سمائه، وجمع عليها قلب نبيه(١).

---

(١) ذكره ابن القيم في «اجتماع الجيوش» (٢/ ١٦٥)، ولكن بلفظ: «وَصَحَّ عَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ قَالَ: خِلَافَةُ =

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الإعلام»: ولا يحفظ لأبي بكر الصديق خلاف نصٍّ واحدٍ أبدًا، ولا يحفظ له فتوىٰ ولا حكم مأخذها ضعيف، وهو تحقيق في كون خلافته خلافة نبوة(١). انتهىٰ.

صحب أبو بكر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حين أسلم إلىٰ أن توفي وشهد معه المشاهد كلها، ومناقبه أشهر من أن تذكر، توفي وله ثلاث وستون سنة، وكانت خلافته سنتين وأشهر، ودفن بجنب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢).

=

أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حَقٌّ، قَضَاهَا اللهُ فِي سَمَائِهِ وَجَمَعَ عَلَيْهَا قُلُوبَ أَصْحَابِ نَبِيِّهِ».

(١) انظر: «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (٤/ ٩٣).

(٢) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٤٤٦-٤٥٢):

«وأبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ اختلف أهل العلم: هل ولي الخلافة بعهدٍ من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم وُلي الخلافة باتفاق الصحابة وإجماعهم عليه، أو هي بيعة الصحابة له؟

من أهل العلم من قال: بل هو بعهد ونص؛ لأن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»** [أخرجه الترمذي (٣٦٦٢) من حديث حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي»]، وقال -أيضًا- للمرأة التي أتته تسأله في شيء من قضاء دينها، وقالت: فإن لم أجدك؟ -كأنها تعني الوفاة- فقال: **«إن لم تجديني فأتي أبا بكر»** [أخرجه البخاري (٣٦٥٩)، ومسلم (١٠/ ٢٣٨٦) من حديث جبير بن مطعم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ]، وكذلك قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«مروا أبا بكر فليُصل بالناس»** [أخرجه البخاري (٦٦٤)، ومسلم (٩٤/ ٤١٨) من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا]، فالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أثناء مرضه رضي أبا بكر لهذه الأمة إمامًا لها في صلاتها التي هي أعظم أركان الإسلام، فكان ذلك عهدًا منه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر.

=

=

وقال طائفة: بل هذه مُحتملة، ولو كان هذا العهد واضحًا لما اختلف الصحابة -رضوان الله عليهم- بعد وفاة النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في مسألة من يلي الخلافة، فقد تنازعوا ولو كانت المسألة بعهد لما تنازعوا. فعلىٰ هذا القول كانت ببيعة واجتماع وليست بعهد.

وهذا هو القول الثاني رجحه طائفة -أيضًا- من المُحققين من أهل العلم.

والصواب في ذلك عندي: أن هذه المسألة اجتمع فيها هذا وهذا، اجتمع فيها العهد واجتمعت فيها البيعة والاجتماع، فالعهد النصوص فيه كثيرة، والنبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أوصىٰ بأبي بكر، وأمر بأن يؤمهم في الصلاة، وأمر بالاقتداء به، بل قال: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»، فما معنىٰ قوله: «من بعدي» إلا مسألة الخلافة؛ ولهذا نقول: اجتمع في حق أبي بكر العهد والاجتماع، وهذا العهد الذي عهده النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حق أبي بكر ليس هو الذي به صار خليفة.

ومن قال من أهل العلم: إنه بالاجتماع عنىٰ أنه لم يعهد النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عهدًا صار به أبو بكر خليفة. وهذا صحيح، فإن عهد النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأبي بكر ليس هو عهد الخلافة كما عهد أبو بكر لعمر، وإنما هو عهد وصية بأن يكون أبو بكر بعده في إمامة الناس، وليس بعهدٍ مكتوب، بل كان يريد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يكتب عهدًا فتركه لما تماروا عنده، وكان الذي نهىٰ عن الكتابة عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كما ثبت ذلك في «الصحيح» وغيره من «السنن» و«المسانيد».

وعمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كانت خلافته بعهد أبي بكر؛ لأن أبا بكر عهد لعمر بعده بالخلافة، وعثمان كانت خلافته شورىٰ، ببيعةٍ له من أهل الحل والعقد من الستة وغيرهم، الستة الذين ترك عمر الأمر فيهم، وقال: «توفي رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو عنهم راضٍ»، فكانت خلافة عثمان ببيعةٍ واجتماع.

وعلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بعد ذلك ببيعة أهل المدينة واجتماعهم عليه، وولاية معاوية بن أبي سفيان لم تكن مستقيمة في عهد علي، ولا في عهد الحسن بن علي بعده، وإنما كان في عهد علي باغيًا علىٰ علي، رضي الله عنهم أجمعين.

ومعاوية لم يبايع عليًّا، ولم يقر له بالولاية حتىٰ يُسلِّم قتلة عثمان؛ وذلك لأن الله عَزَّوَجَلَّ

=

=

قال: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الإسراء:٣٣]، وولي عثمان الأقرب له كان معاوية، فكان معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يطلب من علي أن يُسلم له قتلة عثمان حتىٰ يقتص منهم، وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان لا يستطيع لاختلاف الأمر أن يسلم أولئك القتلة؛ لأن الناس كانوا في هرج ومرج، وكانت فتنة عظيمة في المدينة لم يكن معها علي مُستطيعًا أن يُسلم القتلة لمعاوية؛ لأن الأمر لم يستتب له بعدُ، فأراد علي أن يتأخر أمر قتلة عثمان حتىٰ يستتب الأمر له وحتىٰ يقوىٰ جانب الخلافة، ثم بعد ذلك يقتص من قتلة عثمان، ولكن معاوية بادره علىٰ ذلك وحصل ما حصل.

ولم تكن ولاية علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الخلافة مستقيمة، وإنما كان فيها ما فيها من القتال والدماء، وكان سبب ذلك الخوارج؛ لأنهم هم الذين فتنوا المؤمنين وفرقوا بين صفوفهم. فالقتال الذي حصل -مثلًا- في وقعة الجمل المشهورة بين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ومن معها وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي أثار القتال هم الخوارج، فذهبوا إلىٰ مُعسكر علي فنَمُّوا لهم بكلام، وذهبوا إلىٰ معسكر عائشة فنمُّوا لهم بكلام، وإلا فعائشة لم تأتِ للقتال؛ وإنما أتت لصلح ولكي يُعظموا أمر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحضور زوجته التي يحبها، والتي هي من العلم والفضل بما هو معلوم عند الفئتين، لكن حرَّك الخوارج المقتلة بين الفئتين فالذين حركوا القتال بين الصحابة هم الخوارج.

ولما قُتِلَ علي، قتله عبد الرحمن بن ملجم، وهو رأس من رءوس الخوارج، وقد كان قارئًا للقرآن عابدًا صالحًا تقيًا في عهد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكتب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ عاهله في مصر عمرو بن العاص فقال له: «إني مُرسلٌ إليك برجل آثرتك به علىٰ نفسي وهو عبد الرحمن بن ملجم، اجعل له دارًا أو اكْتَرِ له دارًا، فجعله يُعلم الناس، وكان من أكثر الناس عبادة؛ ومن أكثر الناس صلاحًا في أول أمره، حتىٰ دخلته الفتنة بالقيام علىٰ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم سار مع علي، ثم كان آخر الأمر أن قتل سيد المسلمين في زمانه وأفضل من علىٰ الأرض في زمانه وهو علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، فاقتص منه الحسن بن علي، فقُتل عبدالرحمن بن ملجم بعد أيام من موت علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وبعد موت علي لم يستتب الأمر لمعاوية، وإنما بايع الناس الحسن بن علي، فاستمرت

=

ثم بعد أبي بكر عمرُ في الفضل، وهو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزىٰ بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب، يجتمع مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كعب بن لؤي، سماه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفاروق؛ لفرقه بين الحق والباطل، أسلم في السنة السادسة من البعثة وعمره سبع وعشرون سنة، ومناقبه أشهر من أن تذكر، وكناه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأبي حفص وهو لغة الأسد، وهو أول من سمي أمير المؤمنين لاستثقالهم خليفة خليفة رسول الله، ولي الخلافة بعد الصديق سنة ثلاثة عشر، وقام بها أتم قيام، وكثرت الفتوح في مدة خلافته رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو أفضل هذه الأمة بعد أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بإجماع السلف.

وسيرة عمر قد أفردها بعض العلماء بالتأليف، وبلغت مجلدات، وعَدْلُه يُضرب به المَثل، فيقال: سيرة العُمَرَين، والعمران: أبو بكر وعمر، وقيل لهما:

=

خلافته ستة أشهر ثم تنازل بالخلافة لمعاوية، فاجتمع الناس علىٰ معاوية في عام واحد وأربعين من الهجرة؛ لأن عليًّا كان قتله في رمضان، ثم ستة أشهر من رمضان ولاية الحسن بن علي، ثم تنازل بالخلافة في سنة واحد وأربعين لمعاوية، فصار عام الجماعة.

وسماه المسلمون عام الجماعة، يعني: عام الاجتماع، فبدأ عهد معاوية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وكان عهد تغلب، يعني: وُلِّي الخلافة بالتغلب، وكان ملكًا، وهو أول ملوك المسلمين، وخير ملوك المسلمين؛ كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

فإذًا تحصل من هذا أن الخلفاء خمسة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والحسن بن علي؛ لأن الحسن بن علي إمامته مُنعقدة فقد ولي الخلافة بعد أبيه، لكن عامة العلماء لا يذكرون الحسن بن علي علىٰ أنه خليفة؛ لأنه لم يحصل له زمان يقوم بمهام الخليفة؛ ولهذا يقولون: الخلفاء أربعة، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، رضي الله عنهم أجمعين» اهـ.

العمران تغليبًا، مثل ما يقال: القمران: للشمس والقمر، والأبوان: للأب والأم، مات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شهيدًا، طعنه أبو لؤلؤة في المسجد سنة ثلاثة وعشرين، ودفن بالحجرة النبوية بجنب أبي بكر مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ثم بعد عمر في الفضل عثمان بن عفان بن الحارث بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، ولد في السنة السادسة من الفيل، وأسلم قديمًا وهاجر الهجرتين، وتزوج بنتي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسمي «ذو النورين»، وجمع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القرآن، وجهَّز جيش العُسرة، ولي الخلافة بعد عمر بإجماع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وفضائله كثيرة، استشهد في داره سنة خمس وثلاثين وله بضع وثمانون سنة، تجمعت أوباشٌ وأنذالٌ من أوباش العراق ومصر والشام فحاصروه في بيته، وأخيرًا اقتحموا عليه وقتلوه شهيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم بعد عثمان في الفضل: علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ابن عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وزوج بنته فاطمة الزهراء، ومناقبه كثيرة، بايعه الناس بعد قتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واتفق السلف علىٰ فضله وخلافته بعد عثمان.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: عليٌّ رابعهم في الخلافة والتفضيل، وهو أول خليفة من بني هاشم، وقيل: إنه أول من أسلم، ونقل بعضهم الإجماع عليه، وتقدم الكلام في أول من أسلم في مناقب أبي بكر الصديق، ومناقبه كثيرةٌ وفضائله شهيرة، حتىٰ قال أحمد بن حنبل: ما جاء لأحد من الفضائل ما جاء لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مات ليلة الأحد لتسع عشرة مضت من رمضان سنة أربعين، قتله عبد الرحمن بن مُلجم قبحه الله، وعمره ثلاثة وستون سنة، وخلافته خمس سنين إلا نحو أربعة أشهر.

⊙ **قوله:** «مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ...» إلخ: فروي عن أبي حنيفة تقديم علي

علىٰ عثمان، ولكن ظاهر مذهبه تقديم عثمان، وكذلك روي عن سفيان الثوري تقديم علي علىٰ عثمان، ويقال: إنه رجع عنه لما اجتمع به أبو أيوب السختياني، وقال: من قدم عليًّا علىٰ عثمان فقد أزرىٰ بالمهاجرين والأنصار، وقيل: لا يفضل أحدهما علىٰ الآخر، قاله مالك في «المُدوَّنة»، وتبعه جماعة منهم يحيىٰ القطان، ومن المتأخرين ابن حزم، والذي عليه جمهور أهل السنة -بل استقر أمر أهل السنة عليه-: تقديم عثمان علىٰ علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما أشار إليه المصنف.

قال في «المنهاج»: وسائر أئمة أهل السنة علىٰ تقديم عثمان، وهو مذهب جماهير أهل الحديث، وعليه يدل النص والإجماع والاعتبار[(١)]. انتهىٰ.

وفي «الصحيح» عن ابن عمر قال: «كنا نقول ورسول الله حي: أفضل أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعده أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي»[(٢)]، وفي لفظ: «يبلغ ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا ينكره»[(٣)]، وقال عبد الرحمن بن عوف لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إني نظرت أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان، وقال أبو أيوب: من لم يقدم عثمان علىٰ علي فقد أزرىٰ بالمهاجرين والأنصار. وقد تقدم، وهذا دليلٌ علىٰ أن عثمان أفضل؛ لأنهم قدموه باختيارهم واشتوارهم، وعليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من جملة من بايع عثمان، وغزا معه، وكان يقيم الحدود بين يديه.

⊙ **قوله**: «**بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ...**» إلخ: أي: أن أهل السنة متفقون علىٰ تقديم أبي بكر

---

(١) انظر: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (٢/ ٧٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، وغيره من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٧٠٢)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وعمر علىٰ عثمان؛ وذلك لما لأبي بكر وعمر من الفضائل التي لم يشاركهما فيها أحدٌ من الصحابة لا عثمان ولا علي ولا غيرهما، وهذا كان متفقًا عليه في الصدر الأول إلا أن يكون خلافًا شاذًّا لا يُعبأ به.

⊙ **قوله:** «وَإِنْ كَانَتْ هَذِه الْمَسْأَلَةُ مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ...» إلخ: أي: مسألة التفضيل بينهما لوجود الخلاف، فقد قال بعض أهل السنة بتقديم علي، والبعض توقف، وأما من حكىٰ الإجماع علىٰ تفضيل عثمان فقد غلط، فالخلاف موجودٌ، فلذا لا يُضلل المخالف.

⊙ **قوله:** «يُضَلَّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا» إلخ: أي: ينسب إلىٰ الضلال، هي مسألة الخلافة، فأهل السنة والجماعة يؤمنون بأن بعد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو بكر الصديق لفضله وسابقته، وتقديم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له علىٰ جميع الصحابة، وإجماع الصحابة علىٰ ذلك، ولم يكن الله ليجمعهم علىٰ ضلالة.

ثم أحقهم بالخلافة بعد أبي بكر عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذلك لفضله وعهد أبي بكر إليه واتفاق الأمة بعده عليه، ثم عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لتقديم أهل الشورىٰ له، واتفاق الأمة عليه. قال الإمام أحمد: ما اجتمعوا علىٰ بيعة ما اجتمعوا علىٰ بيعة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم عليٌّ لفضله وإجماع أهل عصره عليه، ولا شك أن عليًّا هو الخليفة في زمانه خلافة نبوة، كما دل علىٰ ذلك حديث سفينة الذي سيأتي، وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: عليٌّ رابعهم في الخلافة والتفضيل، وأما معاوية فهو من العدول الفضلاء والصحابة النجباء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فهؤلاء هم الخلفاء الأربعة المشار إليهم في حديث العرباض بن سارية:

«عَليكُم بسُنَّتي وسنةِ الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي...»(١) الحديث(٢).

⊙ **قوله:** «وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلَافَةِ أَحَدٍ...» إلخ: لمخالفته النصوص الصريحة والإجماع، ولم يخالف في ذلك إلا ضال زائغ.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من فضل عليًّا علىٰ أبي بكر وعمر، وقدمه عليهما في الفضيلة والإمامة دون النسب؛ فهو رافضيٌّ مبتدعٌ فاسق، ذكره القاضي أبو يعلىٰ، وتبرأ الإمام أحمد ممن ضللهم أو أحدًا منهم، وقال الإمام أحمد: من لم يربِّع بعليٍّ في الخلافة؛ فهو أضل من حمار أهله(٣)، واحتج الإمام أحمد بحديث سفينة عن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٤٤٤، ٤٤٥):

«وهذا هو الصحيح؛ لأن الأصل هو ما يتبعه اعتقاد، ومسألة عثمان وعلي إنما هي في الفضل وليست في الخلافة، لا ينبني عليها تضليل الطائفة الأخرىٰ، ولا ينبني عليها أن من قدم عثمان علىٰ علي في الخلافة أنه مُخطئ، وإنما اختاروا في الفضل أن هذا أفضل.

وإذا تأملت الأمر في الحقيقة فإن مسألة الفضل في أصلها هي عند الله عَزَّوَجَلَّ، هو الذي يعلم سبحانه هذا أفضل أم هذا أفضل، ولكن لما قَدَّمَ الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ عثمان علىٰ علي؛ فإننا نأخذ بهذا الأصل وهو أنهم لن يقدموا لإمامتهم في دينهم وفي دنياهم إلا من هو أفضل.

فهذا الأصل وهو إجماع الصحابة علىٰ بيعة عثمان، وعلىٰ تقديمه علىٰ علي يجعل ذلك الأمر الخفي -وهو أن هذا أفضل- الذي لم يرد فيه نص بخصوصه؛ فإنه يجعل الأمر علىٰ أن عثمان هو الأفضل، وأن عليًّا بالنسبة إلىٰ عثمان مفضول» اهـ.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٣٥/ ١٨-١٩).

النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**تكون خلافةُ النُّبوة ثلاثين سَنة، ثم تكون مُلكًا**»(١)، وآخر الثلاثين خلافة علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع أيام ابنه الحسن، وكانت ستة أشهر وشيئًا.

وروى حديث سفينة أصحاب «السنن» وصححه ابن حبان وغيره، فترتيب الخلفاء في التفضيل والخلافة كما ذكره المصنف، خلافًا للرافضة من الشيعة وغيرهم الذين يزعمون أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد نص على خلافة علي، وهذا من أعظم الكذب والافتراء، والأدلة على بطلان هذه الدعوى لا تحصى، بل قد سئل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن ذلك فأنكره.

قال النووي: وأما ما تدعيه الشيعة من النص على عليٍّ والوصية إليه؛ فباطلٌ لا أصل له باتفاق المسلمين، وأول من كذبهم عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم ذكر ما روى البخاري عن أبي جُحيفة قال: قلت لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هل عندكم من الوحي شيءٌ غير القرآن؟ قال: لا، والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهمًا يعطيه الله رجلًا في القرآن، وما في هذه الصحيفة، قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلمٌ بكافر(٢).

وروى مسلم عن الأسود بن يزيد قال: ذكروا عند عائشة أن عليًّا كان وصيًّا، فقالت: متى أوصى إليه، فقد كنت مسندته -تعني النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلى صدري، فدعا بالطست، فلقد انخنث في حجري، وما شعرت أنه مات، فمتى أوصى إليه؟!

(١) أخرجه الطبراني (١/ ٥٥) من حديث سفينة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (١٥/ ١٥٥).

إلىٰ غير ذلك من الأدلة الدالة علىٰ بطلان ما تزعمه الشيعة من أنه أوصىٰ إليه، أو أن لدىٰ أهل البيت شيئًا من العلم -لاسيما عليٌّ- لم يطلع عليه أحدٌ غيره.

وقد أطال في «المنهاج» في رد هذا وإبطاله بأدلة واضحة صريحة -إلىٰ أن قال-: وأما النص الذي تدعيه الرافضة، فهو كالنص الذي تدعيه الراوندية علىٰ العباس، وكلاهما معلوم الفساد بالضرورة عند أهل العلم، ولو لم يكن في إثبات خلافة عليٍّ إلا هذا لم يثبت له إمامة، كما لم تثبت للعباس إمامة بنظيره[1]. اهـ[2].

◈ ◈ ◈

---

(١) انظر: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (١/ ٥٤٦).

(٢) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٢٧٢، ٢٧٣):

«فيجب علينا أن نعتقد بأن الخليفة بعد رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم عليٌّ، وأنهم في أحقية الخلافة علىٰ هذا الترتيب، حتىٰ لا نقول: إن هناك ظلمًا في الخلافة، كما ادعته الرافضة حين زعموا أن أبا بكر وعمر وعثمان والصحابة كلهم ظلمة؛ لأنهم ظلموا عليَّ بن أبي طالب؛ حيث اغتصبوا الخلافة منه.

أما مَن بعدهم؛ فإننا لا نستطيع أن نقول: إن كل خليفة استخلفه الله علىٰ الناس، فهو أحق بالخلافة من غيره؛ لأن من بعدهم ليسوا في خير القرون، بل حصل فيهم من الظلم والانحراف والفسوق ما استحقوا به أن يُولِّي عليهم من ليس أحق بالخلافة منهم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأنعام: ١٢٩].

واعلم أن الترتيب في الأفضلية علىٰ ما سبق لا يعني أن من فضل غيره فإنه يفضله في كل شيء، بل قد يكون للمفضول فضيلة لم يشاركه فيها أحد، وتميز أحد هؤلاء الأربعة أو غيرهم بميزة يفضل بها غيره لا يدل علىٰ الأفضلية المطلقة، فيجب التفريق بين الإطلاق والتقييد» اهـ.

وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ، وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ: «أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي»(١).

وَقَالَ -أَيْضًا- لِلْعَبَّاسِ عَمِّه -وَقَدِ شَكَا إِلَيْهِ أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ يَجْفُو بَنِي هَاشِمٍ- فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحِبُّوكُمْ، للهِ وَلِقَرَابَتِي»(٢). وَقَالَ: «إِنَّ اللهَ اصْطَفَى إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ»(٣).

الشَّرح

⊙ **قوله**: «وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» إلخ: أي: أن أهل السنة والجماعة يحبون أهل بيت الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويتولونهم، ويحترمونهم، ويكرمونهم؛ لقرابتهم من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاحترامهم ومحبتهم والبر بهم من توقيره واحترامه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وامتثالًا لما جاء به الكتاب والسنة من الحث على ذلك، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، وقد تكاثرت الأحاديث بالأمر بذلك والحث عليه.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ **بعد كلام**: ولا ننكر الوصاية بأهل البيت والأمر بالإحسان

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨)، وغيره من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٥٨)، وأحمد (٤/ ١٦٥)، من حديث عبد المطلب بن ربيعة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وضعفه العلامة الألباني في «ضعيف سنن الترمذي».

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٦)، وغيره من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

إليهم واحترامهم وإكرامهم، فإنهم من ذريةٍ طاهرة، وأشرف بيتٍ وجد على وجه الأرض فخرًا وحسبًا ونسبًا، ولاسيما إذا كانوا متبعين للسنة النبوية الصحيحة الواضحة الجلية، كما كان عليه سلفهم كالعباس وبنيه وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأهل بيته وذريته[١].

وأهل البيت هم آل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين حرمت عليهم الصدقة، كما فسر ذلك راوي الحديث: وهم آل علي، وآل جعفر، وآل عَقيل، وآل العباس، وبنو الحارث بن عبد المطلب، كما جاء تفسيره في «صحيح مسلم»، وكذلك أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أهل بيته، كما دل عليه سياق آية الأحزاب، كما قرر ذلك الشيخ تقي الدين وابن القيم وغيرهما. انتهى.

وأفضل أهل بيته: علي وفاطمة والحسن والحسين الذي أدار عليهم الكساء وخصهم بالدعاء، وذكره الشيخ تقي الدين -رحمه الله تعالى-[٢].

⊙ **قوله: «وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...»** إلخ: أي أن الرسول أوصى باحترامهم والإحسان إليهم وإكرامهم كما في الحديث الذي ذكره المصنف.

⊙ **قوله: «حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ...»** الحديثَ: قوله (خُمٍّ): بضم الخاء وتشديد الميم، هو اسم لغيضة على ثلاثة أميال من الجحفة، وهو غدير مشهور

---

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» (٧/ ١٨٤، ١٨٥).

(٢) انظر: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (٧/ ١٢٥).

يضاف إلىٰ الغيضة، فيقال: غدير خم، والغيضة: الشجر الملتف، والحديث رواه مسلم في «صحيحه» عن زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطيبًا بماءٍ يدعي خمًّا بين مكة والمدينة، فحمد الله، وأثنىٰ عليه، ووعظ، وذكَّر، ثم قال: «**أمَّا بَعدُ، أيُّها الناسُ، إنما أنا بَشَرٌ يُوشِكُ أن يَأتِيني رسولُ ربِّي فأُجِيب، وإني تاركٌ فيكم ثَقَلَين: أوَّلُهما: كتابُ اللهِ، فيه الهُدىٰ والنور، فخُذوا بكتاب الله، واستمسكوا به**»، فحث علىٰ كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، ورغَّب فيه، ثم قال: «**وأهْلُ بَيتي، أُذكِّرُكُم اللهَ في أهل بَيتي، أذكِّرُكم اللهَ في أهل بيتي، أُذكِّركم اللهَ في أهل بيتي**»(١)، فقال حصين: ومَن أهل بيته يا زيد، أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال: من هم؟ قال: هم آل علي، وآل عَقيل، وآل جعفر، وآل عباس، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم، وروىٰ هذا الحديث أحمد وغيره، وقد رواه الترمذي، وزاد فيه: «**وإنَّهما لن يفْتَرِقَا حتىٰ يَرِدَا عَلَيَّ الحَوضَ**»(٢).

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد طعن غير واحدٍ من الحفاظ في هذه الزيادة، وقال: إنها ليست من الحديث(٣)، فهذا الحديث فيه الوصية بأهل البيت والحث علىٰ احترامهم وإكرامهم.

⊙ **قوله**: «**أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**»: أي: أذكركم الله، أي: ما أمر به من

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٨)، وأحمد (٤/ ٣٦٦)، وغيرهما من حديث زيد بن أرقم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٨٨)، والحاكم (٤٧١١)، وغيرهما من حديث زيد بن أرقم وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٥٨).

(٣) انظر: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (٧/ ٣١٨).

احترامهم، وإكرامهم، والقيام بحقهم. قوله «ثَلَاثًا»: مبالغة في الحث على ذلك وكرره للتأكيد.

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا اليوم الذي خطب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الغدير المشهور هو ثامن عشر ذي الحجة، مرجِعَه من حجة الوداع، وقد زاد أهل الأهواء في ذلك، وزعموا أنه عهد إلىٰ علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الخلافة، وذكروا كلامًا طويلًا باطلًا، وزعموا أن الصحابة تمالئوا علىٰ كتمان هذا النص، وغصبوا الوصي حقه، وفسَّقوا وكفروا إلا نفرًا قليلًا، وقد جعل أهل البدع هذا اليوم عيدًا، وهذا ابتداع في الدين؛ إذ الأعياد شريعة من الشرائع فيجب فيها الاتباع لا الابتداع، ولم يكن في السلف، لا من أهل البيت ولا من غيرهم من اتخذ ذلك عيدًا. انتهىٰ من «الاقتضاء»(١).

⊙ **قوله**: «وَقَالَ أَيْضًا لِلْعَبَّاسِ...» إلخ: هذا الحديث رواه الإمام أحمد وغيره عن العباس بن عبد المطلب قال: قلت: يا رسول الله، إن قريشًا إذا لقي بعضهم بعضًا لقوهم ببشرٍ حسن، وإذا لقونا لقونا بوجوهٍ لا نعرفها، فغضب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غضبًا شديدًا، وقال: «**والَّذي نفسي بيده، لا يَدخُل قلبَ رَجلٍ الإيمانُ حتىٰ يُحِبَّكم للهِ ولرَسُولِه**»(٢) رواه أحمد، وفي لفظ ثم قال: «**يَا أَيُّها الناس، مَن آذىٰ عمِّي فقد آذاني، فإنما عَمُّ الرَّجُل صِنْوُ أبيه**»(٣). رواه الترمذي، وقال: حسن صحيح.

---

(١) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» (٢/ ١٢٢).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٧)، والحاكم (٥٤٣٣)، وغيرهما من حديث العباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «المشكاة» (٦١٤٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٧٥٨)، وأحمد (٤/ ١٦٥)، وغيرهما من حديث المطلب بن ربيعة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، =

⊙ **قوله**: «لِلْعَبَّاسِ»: هو ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، عم رسول الله ﷺ، ووالد الخلفاء العباسيين، وكان أسن من النبي ﷺ بسنتين أو ثلاث، وكان إسلامه على المشهور قبل فتح مكة، وكنيته أبو الفضل، ومات في خلافة عثمان سنة اثنتين وثلاثين، وله بضع وثمانون سنة، وصلى عليه عثمان، ودفن بالبقيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

⊙ **قوله**: «وَقَدِ شَكَا إِلَيْهِ»: من الشكوى، وهو أن تخبر عن مكروه أصابك. انتهى «نهاية»(١).

⊙ **قوله**: «يَجْفُوا»: الجفاء: ترك البر والصلة. انتهى «نهاية»(٢).

⊙ **قوله**: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ»: فيه الحلف على الفتيا، وفيه دليلٌ على دخول الأعمال في مسمى الإيمان، وهذا قول أهل السنة والجماعة.

⊙ **قوله**: «لا يُؤْمِنُونَ...» الحديثَ: هذا نفي لكمال الإيمان الواجب، ففيه دليلٌ على عظيم حقهم، ووجوب احترامهم، والتحذير من بغضهم، والترغيب في حبهم، حتى نفى الإيمان عمن لا يحبهم، وفيه أن محبة أهل البيت وقرابة النبي ﷺ من محبته ﷺ واحترامه وإكرامه، وفيه دليلٌ على فضل قرابة النبي ﷺ.

=

وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٠٨٧).

(١) انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٢/ ٤٩٧).

(٢) انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (١/ ٢٨١).

⊙ **قوله:** «**وَلِقَرَابَتِي**»: قرابة النبي ﷺ من ينسب إلىٰ جده الأقرب، وهو عبد المطلب ممن صحب النبي ﷺ، أو رآه من ذكر أو أنثىٰ. انتهىٰ «فتح الباري»(١). وروىٰ البخاري عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «ارقبوا محمدًا في أهل بيته». وفي «الصحيح» أن الصديق قال لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله لَقَرابةُ رسول الله ﷺ أحبُّ إليَّ أن أصل من قرابتي»، وقال عمر بن الخطاب للعباس: «والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم؛ لأن إسلامك كان أحب إلىٰ رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب».

⊙ **قوله:** «**إِنَّ اللهَ...**» إلخ: هذا الحديث رواه أحمد ومسلم عن واثلة بن الأسقع بلفظ: «**إنَّ الله اصطفىٰ كِنانةَ مِن ولد إسماعيلَ، واصطفىٰ قريشًا من كِنانة، واصطفىٰ مِن قريشٍ بني هاشم، واصطفاني مِن بني هاشم**»(٢)، ورواه -أيضًا- الترمذي بلفظ: «**إن الله اصطفىٰ من ولد إبراهيمَ إسماعيلَ، واصطفىٰ من ولد إسماعيلَ بني كِنانة**»(٣) الحديث، قال الترمذي: حسن صحيح.

⊙ **قوله:** «**اصْطَفَىٰ**»: أي: اختار، والصفوة الخيار. في هذا الحديث دليلٌ علىٰ شرف نسبه ﷺ، ودليلٌ علىٰ فضله ﷺ، وأنه أفضل الخلق علىٰ

---

(١) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٧/ ٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٧٦)، والترمذي (٣٦٠٦)، وغيرهما من حديث واثلة بن الأسقع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٠٥)، وأحمد (٤/ ١٠٧)، وغيرهما من حديث واثلة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٥٥٣).

الإطلاق، وروىٰ مسلم في «صحيحه» أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أنا سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ ولا فَخْر**»(١)، وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن الله فضَّل محمدًا علىٰ أهل السماء وعلىٰ الأنبياء. ورواه البيهقي، وفي هذا الحديث إشارة إلىٰ فضل إسماعيل علىٰ سائر إخوته.

وهذا الحديث صريحٌ في أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ذرية إسماعيل ولا خلاف في ذلك، فهو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وفيه دليلٌ علىٰ فضل العرب، وأنهم أفضل من غيرهم.

وفيه أن محبتهم دين؛ لأن الحب والبغض يتبع الفضل، وقد روي: «حب العرب إيمانٌ وبغضهم نفاقٌ وكفر»، وقد احتج بهذا الحديث حرب الكرماني وغيره، فقال حرب في وصفه للسنة التي قال فيها: هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الأثر أهل السنة المعروفين بها المقتدىٰ بهم فيها، وساق كلامًا طويلًا إلىٰ أن قال: ونعرف للعرب حقها وفضلها وسابقتها ونحبهم لحديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حب العرب إيمان وبغضهم نفاق»(٢)، ولا نقول بقول الشعوبية، وأراذل الموالي الذين لا

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٣٠٨)، من حديث أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٧٧)، وقال: بعضه عند مسلم.

(٢) أخرجه الحاكم (٦٩٩٨)، والطبراني في «الأوسط» (٢٥٣٧)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٦٨٣).

يحبون العرب، ولا يقرون بفضلهم، فإن قولهم بدعة وخلاف. انتهىٰ من «اقتضاء الصراط المستقيم» ملخصًا(١).

وقال **الشيخ تقي الدين أيضًا**: الذي عليه أهل السنة والجماعة اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم، عبرانيهم وسريانيهم، رومهم وفرسهم وغيرهم، وأن قريشًا أفضل العرب، وأن بني هاشم أفضل قريش، وأن رسول الله ﷺ أفضل بني هاشم، فهو أفضل الخلق نفسًا وأفضلهم نسبًا. انتهىٰ من «اقتضاء الصراط المستقيم»(٢).

قال النووي رحمه الله: واستدل به أصحابنا علىٰ أن غير قريش من العرب ليس بكفء لهم ولا غير بني هاشم كفؤ لهم، إلا بني المطلب، فإنهم هم وبنو هاشم شيء واحد، كما صرح به الحديث(٣). اهـ.

◇ ◇ ◇

(١) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» (١/ ٤٢١).

(٢) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» (١/ ٤٢١).

(٣) انظر: «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (١٥/ ٣٦).

وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُقِرُّونَ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الآخِرَةِ، خُصُوصًا خَدِيجَةَ أُمَّ أَكْثَرِ أَوْلَادِهِ، وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَى أَمْرِهِ، وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ.

وَالصِّدِّيقَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ، الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»(١).

الشَّرْح

⊙ **قوله**: «وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...» إلخ: أي: أن أهل السنة والجماعة يتولون جميع أزواج رسول الله الطاهرات المبرءات من كل سوء، ويترضَّوْن عنهن، ويعظمون قدرهن، ويعرفون فضلهن، ويتبرءون ممن آذاهن أو سبَّهن.

⊙ **قوله**: «أَزْوَاجَ»: جمع زوج، وقد يقال: زوجة، والأول أفصح، كما قال الله سبحانه: ﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥] الآية.

⊙ **قوله**: «أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ»: أي: في الاحترام والتعظيم وتحريم نكاحهن على التأبيد لا في النظر والخلوة بهن، فإنه يحرم في حقهن كالأجانب(٢)، قال الله عَزَّ وَجَلَّ:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٦٩)، ومسلم (٢٤٣١)، وغيرهما من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٤٦٥، ٤٦٦)**:

«وهن أمهات المؤمنين من جهة المكانة لا من جهة المَحرمية، فلا يحل لأحد أن يتزوج امرأة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعده، والناس ليسوا محارم لزوجاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بل هن أجنبيات =

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، أي: في الاحترام والتعظيم، فيجب احترامهن، وتعظيمهن، ويحرم الطعن فيهن، وقذفهن، لاسيما عائشة أم المؤمنين، فمن قذفها بما برأها الله منه؛ فهو كافر، وأما من قذف غيرها من نساء النبي، ففيه قولان: قال ابن كثير: والأصح أنهن كعائشة رضي الله عنهن أجمعين.

⊙ **قوله: «وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الآخِرَةِ»**: وذلك لما في «صحيح البخاري» وغيره: لما بعث عليٌّ عمارًا والحسن إلىٰ الكوفة ليستنفرهم خطب عمارٌ، فقال: إني لأعلم أنها زوجته -أي عائشة- في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم لتتبعوه أو إياها، وعند ابن حبان من طريق سعيد بن كثير عن أبيه، حدثتنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لها: **«تَرْضَيْنَ أَنْ تَكونِي زَوجَتي في الدنيا والآخرة»**[1]، وفي حديث سودة، لما أراد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فراقها أنها قالت: يا رسول الله، والله ما لي

=

عن الأمة.

فإذًا: هن من جهة الحرمة مُحرَّمَات، أما من جهة المحرمية ليس الرجال محارم لزوجات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهذه مرتبة بين المراتب، فهناك من النساء من هُنَّ مُحرمات ويكون من حُرمت عليه المرأة كان محرمًا لها، وهناك من النساء من هن محرَّمات ولا يكون الرجل محرمًا لها مع أنها مُحرمة عليه، وهناك من النساء من هي محرمة ويكون من حرمت عليه محرمًا لها لكن لا يُستحسن أن يكون خاليًا بها أو محرمًا لها في سفر، ونحو ذلك علىٰ ما هو معلوم من تفاصيل ذلك في كتاب النكاح» اهـ.

(١) أخرجه ابن حبان (٧٠٩٥)، والحاكم (٦٧٢٩)، وغيرهما من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢٥٥).

بالرجال من حاجة، ولكن أحب أن أُبعث مع نسائك يوم القيامة(١)، الحديث.

وأول زوجاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خديجة بنت خويلد بن أسد، تزوجها رسول الله بمكة، وهو ابن خمس وعشرين سنة، وبقيت معه إلىٰ أن أكرمه الله برسالته؛ فآمنت به ونصرته، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، ومن خصائصها رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يتزوج عليها غيرها، وأولاده كلهم منها إلا إبراهيم، فإنه من سريته مارية، ومنها: أنها خير نساء الأمة.

واختلف في تفضيلها علىٰ عائشة علىٰ ثلاثة أقوال: منها: أن الله بعث إليها السلام مع جبريل، فبلغها النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذلك، ومنها: أنها لم تسؤه قط، ولم تغاضبه ولم ينلها منه إيلاء ولا عتب قط ولا هجرة، ومنها: أنها أول امرأة آمنت بالله ورسوله من هذه الأمة.

فلما توفاها الله تزوج بعدها سودة بنت زَمعة وكبِرت عنده، وأراد طلاقها، فوهبت يومها لعائشة، وهذه من خصائصها.

وتزوج الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وهي بنت ست قبل الهجرة بسنتين، وبنىٰ بها الرسول أول مقدَمه في السنة الأولىٰ وهي بنت تسع، ومات عنها وهي بنت ثمانية عشر سنة، وتوفيت بالمدينة ودُفنت بالبقيع، وأوصت أن يصلي عليها أبو هريرة سنة ثمانية وخمسين.

ومن خصائصها: أنها أحب أزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إليه، وأنه لم يتزوج بكرًا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٤٢) بنحوه، وغيره من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

غيرها، وأنه كان ينزل عليه الوحي في لحافها، وأن الله لما أنزل آية التخيير بدأ بها فخيرها، وأن الله برأها مما رماها به أهل الإفك، وأن أكابر الصحابة كان إذا أشكل عليهم الأمر استفتوها، فيجدون علمه عندها، وأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توفي في بيتها وفي يومها وبين سحرها ونحرها، ودفن في بيتها، وأن الملَك أرىٰ صورتها للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يتزوجها في سرقة حرير، وأن الناس كانوا يتحرون بهداياهم يومها من رسول الله تقربًا إلىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وتزوج رسول الله حفصة بنت عمر بن الخطاب، وتوفيت قبل سنة سبع، وقيل: ثمانية وعشرين.

وتزوج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم حبيبة بنت أبي سفيان، واسمها رملة، وتزوجها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهي بأرض الحبشة، وأصدقها عنه النجاشي أربع مئة دينار، وولىٰ نكاحها عثمان بن عفان.

وتزوج الرسول أم سلمة، واسمها هند بنت أبي أمية، وتوفيت قبل سنة اثنين وخمسين، ودفنت بالبقيع، وهي آخر أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موتًا، وقيل: ميمونة.

وتزوج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زينب بنت جحش، وكانت قبلُ عند مولاه زيد بن حارثة فطلقها، فزوجها الله إياه من فوق سبع سموات، وأنزل الله عليه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]، وهذا من خصائصها، وتوفيت بالمدينة سنة عشرين، ودفنت بالبقيع.

وتزوج الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ زينب بنت خزيمة الهلالية، تزوجها الرسول

سنة ثلاث من الهجرة، وكانت تسمىٰ أم المساكين، ولم تلبث عند رسول الله إلا يسيرًا شهرين أو ثلاثة وتوفيت.

وتزوج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جويرية ابنة الحارث من بني المصطلق، وكانت سُبيت في غزوة بني المصطلق، فوقعت في سهم ثابت بن قيس، فكاتبها، فقضىٰ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كتابتها، وتزوجها سنة ست من الهجرة، وتوفيت سنة ست وخمسين.

وتزوج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صفية بنت حيي من ولد هارون بن عمران أخي موسىٰ سنة سبع، فإنها سُبيت من خيبر، توفيت سنة ست وثلاثين، وقيل: سنة خمسين، ومن خصائصها أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعتقها، وجعل عتقها صداقها.

وتزوج رسول الله ميمونة بنت الحارث الهلالية، تزوج بها في سَرِف، وبنىٰ بها بسرف، وماتت بسرف، وسرف علىٰ سبعة أميال من مكة، وميمونة آخر من تزوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أمهات المؤمنين، توفيت سنة ثلاث وستين، فهؤلاء جملة من دخل بهن من النساء، وهن إحدىٰ عشرة.

قال الحافظ المقدسي: وعقد علىٰ سبع، ولم يدخل بهن، ولا خلاف أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توفي عن تسع كان يقسم منهن لثمان، وهن: عائشة، وحفصة، وزينب بنت جحش، وأم سلمة، وصفية، وأم حبيبة، وميمونة، وسودة، وجويرية.

أول نسائه لحوقًا به زينب بنت جحش سنة عشرين، وآخرهن موتًا أم سلمة

سنة اثنتين وستين في خلافة يزيد. انتهىٰ من كلام ابن القيم(١).

⊙ **قوله:** «**خُصُوصًا**»: أي: ولاسيما خديجة وعائشة فلهن من المزايا والخصائص ما ليس لغيرهن من أزواج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والخصوص: الإفراد، يقال: خصَّ فلان بكذا، أي: أفرد به، ولا شركة للغير فيه، وقد تقدم ذكر بعض خصائصهن.

⊙ **قوله:** «**أُمَّ أَكْثَرِ أَوْلَادِهِ**»: بل هي أم أولاده كلهم سوىٰ إبراهيم، فإنه من سُرِّيَّته مارية، ويروىٰ أن عائشة أتت بسِقط ولم يصح ذلك، والمتفق عليه من أولاده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منها: القاسم، وبه كان يكنىٰ، مات صغيرًا قبل بعثته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو بعدها، وبناته الأربع: زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، وعبد الله وُلد بعد المبعث، فكان يقال له: الطاهر والطيب، وقيل: هما أخوان له، ومات الذكور صغارًا باتفاق. انتهىٰ من «فتح الباري»(٢).

⊙ **قوله:** «**وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ...**»؛ أي: من النساء لا مطلقًا، كما تقدم كلامٌ لأبي حنيفة وغيره أن أول من آمن من الرجال أبو بكر، ومن الصبيان عليٌّ، ومن النساء خديجة.. إلخ، وقيل: إنها أول من آمن به علىٰ الإطلاق، كما ذكره المصنف.

⊙ **قوله:** «**وَعَاضَدَهُ**»: أي: أعانه ونصره، فإن خديجة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا عاضدته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أول أمره، ونصرته واحتملت من الأذىٰ ما لم يحتمله غيرها،

---

(١) انظر: «زاد المعاد في هدي خير العباد» (١/ ١١٠).

(٢) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٧/ ١٣٧).

وكانت نصرتها للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أعظم أوقات الحاجة.

⊙ **قوله: «وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ»**: أي: الرفيعة؛ لأنها من أول من آمن به، وعاضده، وكانت له وزير صدق، وكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحبها كثيرًا ويذكرها، كما روىٰ أحمد من حديث مسروق عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«آمَنَتْ بي إذ كفَر الناسُ، وصَدَّقَتْني إذ كَذَّبَني الناسُ، ووَاسَتْني بمَالها إذ حَرَمَني الناس، ورَزَقَني اللهُ وَلَدَها إذ حَرمني أولاد النِّساء»**(١).

وفي «صحيح البخاري» عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: ما غرت علىٰ امرأة للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما غرت علىٰ خديجة، لِما كنت أسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشرها بقصر من قصب، وإن كان ليذبح الشاة، فيهدي في خلائلها منها ما يسعهن.

فهذا الحديث وغيره دليلٌ علىٰ محبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها، وعلىٰ عظم قدرها عنده ومزيد فضلها.

⊙ **قوله: «وَالصِّدِّيقَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ»**؛ أي: عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حبيبة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنت الصديق الأكبر، أبوها أبو بكر الصديق، لقبه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، وأنزل الله براءتها من فوق سبع سموات، واتفقت الأمة علىٰ كفر قاذفها، وأفتىٰ غير واحد بقتل سابِّها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وتقدم ذكر خصائصها.

⊙ **قوله: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَىٰ النِّسَاءِ..»** إلخ: هذا الحديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ١١٧)، والطبراني (٢٣/ ١٣)، وغيرهما من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

«كَمُل مِن الرجال كثيرٌ، ولم يَكْمُلْ مِن النساء إلا مَريمُ بِنت عِمران، وآسيةُ امرأةُ فِرعون، وفَضْلُ عائشةَ علىٰ النِّساء، كفَضْلِ الثَّريدِ علىٰ سائر الطَّعام»(١)، فهذا الحديث فيه دليلٌ علىٰ فضل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، واستدل به كثير من أهل السنة علىٰ أن عائشة أفضل نسائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وذهب بعض العلماء -كالموفق وابن حجر وغيرهما- إلىٰ أن خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أفضل من عائشة لأدلة ذكروها، قالوا: والحديث المتقدم ليس صريحًا في تفضيل عائشة علىٰ خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، والذي يفهم من كلام المصنف توقفه عن التفضيل لتقارب جهات التفضيل بينهن، وقال في موضع آخر: اختصت كل واحدةٍ منهن بخصائص، فخديجة كان تأثيرها في أول الإسلام، وبذلت نفسها في نصرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومالها، واحتملت من الأذىٰ ما لم يحتمله غيرها، وكانت نصرتها للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أعظم أوقات الحاجة، فلها من النصرة والبذل والتأثير في الإسلام ما ليس لغيرها، وعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تأثيرها في آخر الإسلام، فلها من الفقه والعلم ما ليس لغيرها. اهـ.

⊙ **قوله: «كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَىٰ سَائِرِ الطَّعَامِ»**: الثريد هو الخبز إذا أُدم بلحم، كما قال الشاعر:

إذا ما الخبز تأدمه بلحم ... فذاك أمانة الله الثريد(٢)

⊙ **قوله: «سَائِرِ الطَّعَامِ»**: أي: جميعه. انتهىٰ. والثريد هو أفضل الأطعمة؛ لأنه

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٠)، ومسلم (٢٤٣١)، وغيرهما من حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (٣/ ١٣٠) ط: الفكر.

خبز ولحم، والبُر أفضل الأقوات، واللحم أفضل الإدام، كما في الحديث الذي رواه ابن قتيبة وغيره عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَيِّد إدامِ أهل الدُّنيا والآخرة اللَّحْمُ**»[١]، فإذا كان اللحم سيد الإدام والبر سيد الأقوات ومجموعها الثريد؛ كان الثريد أفضل الطعام، وقد صح من غير وجه عن الصادق المصدوق أنه قال: «**فَضلُ عائشةَ علىٰ النساء كفضْلِ الثَّريد علىٰ سائر الطعام**»[٢]. وفي «الصحيح» عن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، أي النساء أحب إليك؟ قال: «**عائشة**»، قلت: ومن الرجال؟ قال: «**أبوها**»، قلت: ثم من؟ قال: «**عمر**»، وسمىٰ رجالًا[٣]. انتهىٰ «منهاج»[٤][٥].

---

(١) لم أقف عليه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٤١٠٠)، وغيره من حديث عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) انظر: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (٤/ ٣٠٣).

(٥) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٤٦٩، ٤٧٠):**

«وهكذا ينبغي في سائر مسائل التفضيل، سواء في المسائل التي وردت في العقيدة أم في غيرها، فإن مسائل التفضيل يختلف فيها الناس، إذا قيل: هذه المسائل أصح، أو هذا الرجل أفضل، أو هذا العالم أعلم، أو هذا أشجع، أو هذا أقدر، ونحو ذلك، فإذا جاء أفعل التفضيل يختلف الناس في ذلك لزامًا؛ لأن جهات التفضيل متعددة وليست واحدة، فلابد أن يُختلف في التفضيل، فإذا تكلم الناس في التفضيل بعدلٍ وبحكمةٍ لم يتبع ذلك الاختلافَ تفرقًا، وأما إذا تكلموا في التفضيل بنوع ابتداء فإنه ربما أحدث ذلك تفرقًا.

والذي ينبغي علىٰ طالب العلم أن يستفيد من تحقيق شيخ الإسلام في مسألة التفضيل بين =

وَيَتَبَرَّءُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُمْ، وَطَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِئِهِم: مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَ[عَامَّةُ] الصَّحِيحِ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ: إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ.

• الشَّرْح •

⊙ **قوله:** «وَيَتَبَرَّءُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُمْ...» إلخ: أي: أن أهل السنة والجماعة وسطٌ في أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويترضون عنهم جميعًا، ويحبونهم، ويتبرءون من طريقة الرافضة الذين يسبون الصحابة، ويطعنون فيهم، ويزعمون: أنهم عصوا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وارتدوا بعده إلا بضعة عشر منهم، ويغلون في علي بن أبي طالب وأهل البيت(١).

= خديجة وبين عائشة في نظائر ذلك من التفضيل الذي له جهات؛ فإنه يُفصِّل، فيكون المقام مقام تفصيل، فيقول: إذا نظرت إلىٰ هذه الجهة فتقول: هذا العالم أفضل، وإذا نظرت إلىٰ جهةٍ أخرىٰ فتقول: هذا العالم أفضل، وإذا نظرت إلىٰ هذه الجهة تقول: هذا العالم أعلم وأزهد، وإذا نظرت إلىٰ هذه الجهة قلت: ذاك أعلم وأحكم، وهكذا.

فإذا تعددت جهات التفضيل أو جهات الإعجاب، فالتفصيل يكون هو العدل في الغالب إذا تنازع الناس في مسائل التفضيل، وهو المُستفاد من كلام شيخ الإسلام في مسألة التفضيل بين عائشة وخديجة» اهـ.

(١) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٢٨٣، ٢٨٤):**

«وفي الحقيقة: إن سب الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ليس جرحًا في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فقط، بل هو =

فالرافضة ينقسمون إلىٰ ثلاثة أقسام:

قسمٌ غلاةٌ، غلوا في علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حتىٰ زعموا أنه إله، أو أن الله حلَّ فيه، أو أنه الرسول، ولكن جبريل غلط، أو أخطأ في إعطاء الرسالة إلىٰ محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، إلىٰ غير ذلك من أنواع الغلو.

وقسمٌ مفضِّلَةٌ، يفضلون عليًّا علىٰ أبي بكر وعمر وغيرهما من الصحابة.

وقسمٌ ثالثٌ سبَّابة، يسبون أبا بكر وعمر وغيرهما من الصحابة، ويزعمون أن عليًّا هو الوصي، وأن الصحابة غصبوه حقه وظلموه بتقديم أبي بكر وعمر.

=

قدح في الصحابة وفي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وفي شريعة الله وفي ذات الله عَزَّوَجَلَّ:

- أما كونه قدحًا في الصحابة، فواضح.
- وأما كونه قدحًا في رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فحيث كان أصحابه وأمناؤه وخلفاؤه علىٰ أمته من شرار الخلق، وفيه قدح في رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من وجه آخر، وهو تكذيبه فيما أخبر به من فضائلهم ومناقبهم.
- وأما كونه قدحًا في شريعة الله؛ فلأن الواسطة بيننا وبين رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في نقل الشريعة هم الصحابة، فإذا سقطت عدالتهم، لم يبق ثقة فيما نقلوه من الشريعة.
- وأما كونه قدحًا في الله سبحانه؛ فحيث بعث نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في شرار الخلق، واختارهم لصحبته وحمل شريعته ونقلها لأمته.
- فانظر ماذا يترتب من الطوام الكبرىٰ علىٰ سب الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ.
- ونحن نتبرأ من طريقة هؤلاء الروافض الذين يسبون الصحابة ويبغضونهم، ونعتقد أن محبتهم فرض، وأن الكف عن مساوئهم فرض، وقلوبنا -ولله الحمد- مملوءة من محبتهم، لما كانوا عليه من الإيمان والتقوىٰ ونشر العلم ونصرة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ» اهـ.

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللَّهُ: فعاقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الطوائف الثلاث، فأمر بإحراق أولئك الذين ادعوا فيه الإلهية، فإنه خرج ذات يومٍ فسجدوا له، فقال لهم: ما هذا؟ فقالوا: أنت هو، قال: من أنا؟ قالوا: أنت الله الذي لا إله إلا هو، فقال: ويحكم! هذا كفرٌ، ارجعوا عنه وإلا ضربت أعناقكم، فصنعوا به في اليوم الثاني والثالث، وأخَّرهم ثلاثة أيام؛ لأن المرتد يستتاب ثلاثة أيام، فلما لم يرجعوا أمر بأخاديد من نار، فحدث أنه قال:

لمَّا رأيتُ الأمرَ أمرًا منكرًا أجَّجتُ ناري ودعوت قُنبَرَا

وقتْلُ هؤلاء واجبٌ بالاتفاق، لكن في جواز تحريقهم نزاع، وأما السبابة الذين يسبون أبا بكر وعمر، فإن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما بلغه ذلك طلب ابن السوداء الذي بلغه ذلك عنه -وقيل: إنه قتله-، فهرب منه إلىٰ قرقيسا.

وأما المفضلة الذين يفضلونه علىٰ أبي بكر وعمر، فروي عنه أنه قال: لا أوتي بأحد يفضلني علىٰ أبي بكر وعمر إلا ضربته حد المفتري.

وقد تواتر عنه أنه كان يقول علىٰ منبر الكوفة: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر، وروي عنه هذا من أكثر من ثمانين وجهًا، ورواه البخاري وغيره. انتهىٰ من كلام الشيخ باختصار (١).

⊙ **قوله**: «وَطَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ»: جمع ناصب، يقال: ناصبه مناصبة، أي: عاداه وقاومه، وهم الذين ينصبون العداوة لعلي بن أبي طالب وأهل البيت، ويتبرءون

---

(١) انظر: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (١/ ٣٠٦).

منهم، ولا يحبونهم، بل يكفرونهم، أو يفسقونهم كالخوارج.

قال الشيخ تقي الدين بعد كلام: فأهل السنة وسطٌ في جميع أمورهم، فهم في عليٍّ وسطٌ بين الخوارج والروافض، وفي عثمان وسطٌ بين المروانية والزيدية، وفي سائر الصحابة بين الغلاة فيهم والطاعنين عليهم(١).

وقال أيضًا: والروافض شرٌّ من النواصب، وأما أهل السنة فيتولون جميع المؤمنين، ويتكلمون فيهم بعلمٍ وعدلٍ ليسوا من أهل الجهل، ولا من أهل الأهواء، ويتبرءون من طريقة الروافض والنواصب جميعًا، ويتولون السابقين الأولين كلهم، ويعرفون قدر الصحابة وفضلهم ومناقبهم، ويرعون حقوق أهل البيت التي شرعها الله لهم، ولا يرضون بما فعله المختار ونحوه من الكذابين، ولا ما فعله الحجاج ونحوه من الظالمين، ويعلمون من هذا مراتب السابقين الأولين، ويعرفون ما لأبي بكر وعمر من التقدم والفضائل ما لم يشاركهما فيها أحد من الصحابة لا عثمان ولا علي ولا غيرهما، كان هذا متفقًا عليه في الصدر الأول إلا أن يكون خلافًا شاذًّا لا يُعبأ به، حتىٰ إن الشيعة الأولىٰ من أصحاب عليٍّ لم يكونوا يرتابون في تقديم أبي بكر وعمر، كيف؟ وقد ثبت عنه من وجوهٍ متواترةٍ أنه كان يقول: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر(٢). انتهىٰ.

ومِن كَذِبِ الرافضة وضلالهم تسميتهم أهل السنة ناصبةً حيث لم يوافقوهم

---

(١) انظر: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (٥/ ١٧٢).

(٢) انظر: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (٢/ ٧٢).

علىٰ بدعتهم وظلمهم، فإن الرافضة يزعمون أن من تولىٰ الصحابة لم يتولىٰ القرابة، ويقولون: لا ولاء إلا ببراء، فمن لم يتبرأ من الصحابة لم يتولَّ القرابة.

ويقابلهم الخوارج، وأشباههم من النواصب الذين يزعمون أن الرفض هو محبة أهل البيت، ويذمون الرفض بهذا المعنىٰ، وهذا كله كذبٌ وضلال، فلا دليل علىٰ ذم النصب بالتفسير الذي زعمه الرافضة، كما لا دليل علىٰ ذم الرفض بمعنىٰ موالاة أهل البيت، ولكن المبتدعة يلقبون أهل السنة بألقاب يتنقصونهم بها، فيسمونهم رافضة وناصبة، فهم كما قيل: «رمتني بدائها وانسلت».

وقد تقدم أن أهل السنة -رضوان الله عليهم- يوالون جميع الصحابة والقرابة، ويترضون عنهم، وينزلونهم منازلهم التي يستحقونها، فلا يغمطونهم حقهم ولا يغلون فيهم، وقد قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ الناصبة:

يا راكبًا قف بالمُحصب من منىٰ ... واهتف بقاعد خيفها والناهضِ
إن كان رفضًا حبُّ آل محمد ... فليشهد الثقلان أني رافضي (١)

وقال غيره:

إن كان نصبًا حبُّ صحب محمد ... فليشهد الثقلان أني ناصبي (٢)

وقال غيره:

إن كان نصبًا ولاء الصحاب ... فإني كما زعموا ناصبي

---

(١) من «ديوان الشافعي»، وانظر: «مناقب الشافعي» للبيهقي (٢/ ٧١).

(٢) نسبه الإمام ابن القيم إلىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُمَاٱللَّهُ، انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٨٧).

وإن كــــان رفضًـــا ولاء الجميـــع فــلا بـــرح الــرفض مـــن جــانبي[(١)]

⊙ **قوله:** «وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ»: أي: يقفون عن الخوض عما وقع بين الصحابة من اختلافٍ ومنازعة، مثل ما وقع بين عليٍّ ومعاوية، وما وقع بين طلحة والزبير وعليٍّ وغير ذلك.

⊙ **قوله:** «شَجَرَ»؛ أي: اضطرب واختلف الأمر بينهم، واشتجر القوم وتشاجروا: تنازعوا، والمشاجرة: المنازعة، فمذهب أهل السنة والجماعة: الكف عما جرىٰ بين أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والإمساك عما شجر بينهم؛ لما في الخوض في ذلك من توليد الإحن والحزازات والحقد علىٰ أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك من أعظم الذنوب، فإنهم خير القرون والسابقون الأولون، فتجب محبتهم جميعًا والترضِّي عنهم والكفُّ عما جرىٰ بينهم مما لعله لم يصح، وما صح فله تأويلاتٌ سائغة، ثم هو قليلٌ مغمورٌ في جانب فضائلهم.

قال ابن حمدان -من أصحابنا- في «نهاية المبتدئين»: يجب حبُّ كل الصحابة والكفُّ عما جرىٰ بينهم كتابةً وقراءةً وإقراءً، وسماعًا وإسماعًا، ويجب ذكر محاسنهم، والترضي عنهم والمحبة لهم، وترك التحامل عليهم، واعتقاد العذر لهم، وأنهم فعلوا ما فعلوا باجتهادٍ سائغٍ لا يوجب كفرًا ولا فسقًا، بل ربما يثابون عليه؛ لأنه اجتهادٌ سائغ[(٢)]. انتهىٰ.

---

(١) ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في «درء تعارض العقل والنقل» (١/ ٢٤٠) ولم ينسبه لقائل، ونسبه الإمام ابن القيم لشيخ الإسلام، انظر: «الصواعق المرسلة» (٣/ ٩٤١).

(٢) انظر: «نهاية المبتدئين في أصول الدين» (٦٦).

وأما الحروب التي كانت بينهم، فكانت لكل طائفةٍ شبهةٌ اعتقدت تصويب أنفسها بسببها، وكلهم عدولٌ ومتأولون في حروبهم وغيرها، ولم يخرج شيءٌ من ذلك أحدًا منهم عن العدالة؛ لأنهم مجتهدون اختلفوا في مسائل من محل الاجتهاد كما يختلف المجتهدون ولا يلزم من ذلك نقص أحدٍ منهم، بل يجب الترضي عنهم واعتقاد عدالتهم، وأن ما وقع منهم هم فيه معذورون ومأجورون، وأما معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهو من العدول الفضلاء وهو مجتهدٌ مخطئ، والحق في جانب علي، وعليٌّ هو الخليفة في وقته بالإجماع لا خلافة لغيره، وقد تقدم الكلام علىٰ ذلك، والناس انقسموا في ذلك الزمان إلىٰ ثلاثة أقسام:

قسم: رأىٰ الحق مع أحد الطرفين، فوجب عليه اتباعه بموجب اعتقاده والقتال معه.

وقسمٌ: توقف ولم يظهر له شيء فاعتزل، وهذا هو الواجب عليه، وكلهم معذورون ومأجورون، رضوان الله عليهم أجمعين.

قال الشيخ تقي الدين في «المنهاج»: وأما الصحابة فجمهورهم وجمهور أفاضلهم لم يدخلوا في فتنة(١)، ثم ساق عن ابن سيرين قال: هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشرة آلاف فما حضرها منهم مئة، بل لم يبلغوا ثلاثين، وهذا أصح إسنادٍ علىٰ وجه الأرض، وساق كلامًا طويلًا يدل علىٰ أن أكثر الصحابة اعتزل الفريقين.

---

(١) انظر: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (٦/ ٢٣٦).

إذا عرفت ما تقدم علمت أن طريق السلامة هو الكف عما شجر بينهم والترضي عن الجميع، ونقول كما قال الله تعالىٰ عن التابعين بإحسان: إنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠]، وما شجر بينهم وتنازعوا فيه أمره إلىٰ الله لا نُسأل عن ذلك، قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤]، وما أحسن ما روي عن عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال لما سئل عما وقع بين الصحابة: تلك دماءٌ طهَّر الله منها يدي فلا أحب أن أخضب بها لساني.

⊙ **قوله:** «**وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ...**» إلخ: أي: أن أهل السنة متفقون علىٰ محبة الصحابة والترضي عنهم، وأنهم خير الأمة بعد نبيهم لما تواتر من الأدلة في فضلهم ولما اشتهر عنهم من الأعمال الفاضلة ومسابقتهم إلىٰ طاعة الله وطاعة رسوله، وبذل نفوسهم وأموالهم في سبيل الله، كما أنهم متفقون علىٰ أن الصحابة كلهم عدولٌ ثقاتٌ لا يُفتَّش عن عدالة أحد منهم، فلا يترك هذا العلم المتيقن المتحقق الثابت لمشكوكٍ فيه، بل مقطوعٌ بكذبه.

فما يروىٰ في حقهم من المثالب؛ إما أن يكون كذبًا محضًا، وإما أن يكون محرفًا قد دخله من الزيادة والنقصان ما يخرجه إلىٰ الذم والطعن، والصحيح من ذلك هو موارد الاجتهاد التي إن أصاب المجتهد فله أجران وإن أخطأ فله أجرٌ واحد، كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا اجتهدَ الحاكِمُ فأصاب فله أجران، وإن اجتهدَ وأخطأ**

فله أجرٌ واحد»(١).

فما وقع منهم رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ إن ثبت فهو عن اجتهاد فهم معذورون ومأجورون علىٰ كلا الحالين؛ ولهذا اتفق أهل الحق ممن يعتد به في الإجماع علىٰ قبول شهادتهم وروايتهم وثبوت عدالتهم، وأنه يجب تزكية جميعهم ويحرم الطعن فيهم، ويجب اعتقاد أنهم أفضل جميع الأمة بعد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. قال أبو زرعة: إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن القرآن حق والرسول حق وما جاء به حق، وما أدىٰ ذلك النبأ كله إلا الصحابة، فمن جرحهم فإنما أراد إبطال الكتاب والسنة(٢). اهـ.

قال الشيخ تقي الدين في «المنهاج» بعد كلام: ما ينقل عن الصحابة من المثالب فهو نوعان:

أحدهما: ما هو كذب، إما كذبٌ كله، وإما محرَّفٌ قد دخله من الزيادة والنقصان ما يخرجه إلىٰ الذم والطعن، وأكثر المنقول من المطاعن الصريحة هو من هذا الباب يرويها الكذابون المعروفون بالكذب، مثل أبي مِخنف لوط بن يحيىٰ(٣)،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩١٩)، ومسلم (١٧١٦)، وغيرهما من حديث عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) انظر: «العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ» (١/ ٣٤).

(٣) هو لوط بن يحيىٰ بن مِخنف بن سليمان الأزدي، توفي سنة سبعة وخمسين ومائة، قال يحيىٰ بن معين: ليس بثقة، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال الدارقطني: أخباري ضعيف، ومن تصانيفه: «فتوح الشام» و«فتوح العراق» و«كتاب الجمل» و«كتاب صفين». انظر: «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٣٠٢)، و«معجم الأدباء» (٥/ ٢٩).

ومثل هشام بن محمد بن السائب الكلبي[1] وأمثالهما من الكذابين.

والنوع الثاني: ما هو صدق، وأكثر هذه الأمور لهم فيها معاذير تخرجها من أن تكون ذنوبًا وتجعلها من موارد الاجتهاد التي إن أصاب المجتهد فيها فله أجران وإن أخطأ فله أجرٌ واحد، وعامة المنقول الثابت عن الخلفاء الراشدين من هذا الباب، وما قدر من هذا الأمور ذنبًا محققًا، فإن ذلك لا يقدح فيما عُلم من فضائلهم وسوابقهم وكونهم من أهل الجنة؛ لأن الذنب المحقق يرتفع عقابه في الآخرة بأسباب متعددة، منها: التوبة والحسنات الماحية، ومنها المصائب المكفرة، ومنها دعاء المؤمنين بعضهم لبعض وشفاعة نبيهم، فما من سبب يسقط به الذم والعقاب عن أحد من الأمة إلا والصحابة أحق بذلك، فهم أحق بكل مدح، ونفي كل ذم ممن بعدهم من الأمة[2].

◇ ◇ ◇

---

(١) هو هشام بن محمد بن السائب بن بشر، أبو المنذر الكلبي، توفي سنة أربعة ومائتين، وقيل: سنة ستة ومائتين، قال الإمام أحمد: ما ظننت أن أحدًا يحدث عنه إنما هو صاحب سير. وقال الدارقطني وغيره: متروك وفيه رفض. انظر: «المجروحين» (٣/ ٩١)، «الضعفاء والمتروكين» (٣/ ١٧٦).

(٢) انظر: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (٥/ ٨١- ٨٣).

وَهُم مَّعَ ذَلِكَ لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ؛ بَلْ تَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ، وَلَهُمْ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ -إِنْ صَدَرَ- حَتَّى إِنَّهُ يُغْفَرُ لَهُم مِّنَ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدهُمْ؛ لأَنَّ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْس لِمَنْ بَعْدهُمْ.

وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ: «خَيْرُ الْقُرُونِ»(١)، «وَأَنَّ الْمُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا تصدق بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مِمَّن بَعْدَهُمْ»(٢).

الشَّرح

⊙ **قوله:** «مَعْصُومٌ»: من العصمة وهي: الحماية والحفظ.

⊙ **قوله:** «بَلْ يَجُوزُ»، أي: يمكن، أي: أن أهل السنة يعرفون قدر أصحاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقرابته فينزلونهم منازلهم كما ورد في الحديث: «**وأَنْزِلوا الناسَ مَنازِلَهم**»(٣)، فلا يغلون فيهم بحيث يرفعونهم عن منزلتهم التي أنزلهم الله بها فلا يعتقدون أنهم معصومون عن الذنوب والخطايا، بل يجوز عليهم ما يجوز على غيرهم من الذنوب والخطايا، وفي الحديث أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**كلُّ ابنِ آدم**

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٥١، ٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣-٢٥٣٥)، من حديث أبي هريرة، وابن مسعود، وعمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٨٤٢)، وأبو يعلى (٤٨٢٦)، وغيرهما من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٨٩٤).

خطَّاء وخيرُ الخطَّائِين التَّوَّابُون»[١] **وفي حديث أبي ذر: «إنَّكم تُخطِئون باللَّيل والنهار، وأنا أغفرُ الذُّنوبَ جميعًا، فاستَغْفِروني أغفرْ لكم»**[٢].

وقال الشيخ تقي الدين: ولم يقل أحدٌ يعتد به: إن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أو غيرهم من الأولياء أو القرابة معصومٌ من كبائر الذنوب أو من الصغائر، بل يجوز عليه وقوع الذنب والله يغفر لهم، وقصة حاطب في «الصحيح»، فقد غفر له الذنب العظيم بشهوده بدرًا. اهـ.

فأهل السنة والجماعة لا يرون عصمة أحد لا من الصحابة ولا من القرابة ولا يؤثِّمونهم باجتهادهم، بخلاف أهل البدع الذين غلوا من الجانبين: طائفة عصمتهم، وطائفة أثَّمتهم.

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية: ولم يقل أحدٌ من الأئمة إلا الإمامية والإسماعيلية. وقول بعضهم: إن النبي معصومٌ والولي محفوظ، إن أراد بالحفظ ما يشبه العصمة فباطل[٣]. انتهىٰ.

أما الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فاتفق العلماء علىٰ أنهم معصومون في تبليغ الرسالة لا يجوز أن يستقر في ذلك شيء من الخطأ، وكذلك معصومون من الكبائر أما الصغائر، فقد تقع منهم ولكن لا يقرون عليها.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «المشكاة» (٢٣٤١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧)، وابن حبان (٦١٩)، وغيرهما من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: «بغية المرتاد في الرد علىٰ المتفلسفة والقرامطة والباطنية» (٤٩٦).

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللَّهُ **بعد كلام**: فالعلماء متفقون علىٰ أنهم لا يقرون علىٰ خطأٍ في الدين أصلًا، ولا علىٰ فسقٍ أو كذبٍ، ففي الجملة: كل ما يقدح في نبوتهم وتبليغهم عن الله، فهم متفقون علىٰ تنزيههم عنه، وعامة الجمهور الذين يجوزون عليهم الصغائر يقولون: إنهم معصومون من الإقرار عليها فلا يصدر منهم ما يضرهم، كما جاء في الأثر: كان داود بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة، والله سبحانه يحب التوابين ويحب المتطهرين، وإن العبد يفعل السيئة يدخل بها الجنة، وأما النسيان والسهو في الصلاة فذلك واقعٌ منهم، وفي وقوعه حكمة استنان المسلمين بهم، كما روي في «موطأ مالك»: «**إنّما أنسَىٰ أو أُنَسَّىٰ لأسُنَّ**»(١)»(٢). اهـ.

⊙ **قوله**: «**وَلَهُمْ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ**» إلخ: أي: حدث، فما يقع منهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يغتفر في جانب ما لهم من الحسنات العظيمة كما في قصة حاطب: فقد غفر له الذنب العظيم بشهوده بدرًا: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [النساء: ٩٥]. وفي «جامع الترمذي» أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لما جاءه عثمان لتجهيز جيش العسرة: «**مَا ضَرَّ عثمانَ ما عَمل بعد اليوم**»(٣) مرتين، رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسن، وروىٰ أحمد وأبو داود والترمذي عن جابر، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يَدخُل النارَ أحدٌ بايع تحت الشجرة**»(٤)، وأخرج أحمد بسندٍ رجاله ثقات عن أبي سعيد الخدري: أن

---

(١) أخرجه مالك (٢٢٥) بلاغًا.

(٢) انظر: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (١/ ٤٧٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٧٠٨)، وأحمد (٥/ ٦٣)، وغيرهما من حديث عبد الرحمن بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «المشكاة» (٦٠٦٤).

(٤) أخرجه مسلم (٢٤٩٦)، وأبو داود (٤٦٥٣)، والترمذي (٣٨٦٠)، وأحمد (٣/ ٣٥٠)، =

النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأهل الحديبية: «لا يُدركن قومٌ بعدَكم صاعَكم ولا مُدَّكم»(١).

⊙ **قوله:** «حَتَّىٰ إِنَّهُ يُغْفَرُ لَهُمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ» إلخ: وذلك لما لهم من الفضائل والسوابق والوعد بالمغفرة، قال تعالىٰ: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، فلأصحاب رسول الله من الحسنات والأسباب التي تمحو السيئات أعظم نصيب، قال: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ [الزمر: ٣٥]، والحبيب يسامح بما لا يسامح به غيره؛ لأن المحبة أكبر شفعائه كما قيل:

وإذا الحبيب أتىٰ بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع(٢)

فلمقاماتهم العظيمة وجهادهم في الله أعدائه حق الجهاد يحتمل لهم ما لا يحتمل لغيرهم.

وذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «المدارج» في أثناء كلام له: إنه يعفىٰ للمحب ولصاحب الإحسان العظيم ما لا يعفىٰ لغيره، ويسامح بما لا يسامح به غيره، قال: وقد استدل الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ ذلك بقصة سليمان حين ألهته الخيل عن صلاة العصر فأتلفها فعوَّضه الله عَزَّ وَجَلَّ الرِّيح(٣)، وكذلك لطم موسىٰ عين ملك

=

وغيرهم من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٢٦)، والنسائي في «السنن الكبرىٰ» (٨٨٥٥)، وغيرهما من حديث أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٤٧).

(٢) البيت لابن نباتة المصري في «ديوانه».

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٢١/ ١٩١).

الموت ففقأها ولم يعتب عليه ربُّه[١]، وفي ليلة الإسراء عاتب ربَّه في النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه رُفع فوقه[٢]، ولم يعتبه الله على ذلك لما له من المقامات العظيمة. وكان شديد الغضب لربه فاحتمل له ما لم يحتمله لغيره، وذو النون لمَّا لم يكن له هذا المقام سجنه في بطن الحوت من أجل غضبه[٣]، و﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق: ٣]. انتهى بتصرف[٤].

⊙ **قوله: «وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»** إلخ: أخرجه مسلم في الفضائل من حديث أبي هريرة، وأخرجه أبو داود من حديث ابن مسعود، وأخرجه البخاري ومسلم والنسائي من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**خيرُ القُرون قرني، ثم الذين يَلونَهم، ثم الذين يلونهم**»[٥]، قال عمران بن حصين: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا، وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**خيرُ الناس قرني، ثم الَّذين يَلونَهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يَجيء قومٌ تَسبق شهادةُ أحدِهم يَمينَه، ويَمينُه شَهادَتَه**»[٦].

⊙ **قوله: «قَرْنِي»: القرن**: أهل زمانٍ واحدٍ متقاربٍ اشتركوا في أمر من الأمور

---

(١) والحديث أخرجه البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٧/ ٢١١).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١٨/ ٥١١).

(٤) انظر: «مدارج السالكين» (١/ ٣٣٨).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) أخرجه البخاري (٢٥٠٩)، ومسلم (٢٥٣٣)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

المقصودة، ويطلق القرن علىٰ مدة من الزمان اختلفوا في تحديدها، ووقع في حديث عبد الله بن بُسر عند مسلم ما يدل علىٰ أن القرن مئة عام، وهو المشهور. انتهىٰ من «فتح الباري»[١].

والمراد بقرنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الصحابة، واتفق العلماء علىٰ أن خير القرون قرنه.

⊙ **قوله: «ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»**: يعني: التابعين «ثم الذين يلونهم» يعني: أتباع التابعين، واقتضىٰ هذا الحديث أن تكون الصحابة أفضل من التابعين، والتابعون أفضل من أتباع التابعين، واستدل بهذا علىٰ تعديل القرون الثلاثة وإن تفاوتت منازلهم في الفضل، واستدل علىٰ جواز المفاضلة بين الصحابة -رضوان الله عليهم-.

⊙ **قوله: «وَأَنَّ الْمُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ» إلخ**: كما في «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا تَسبُّوا أصحابي، فلو أنَّ أحدَكم أنفق مثلَ أُحُدٍ ذهبًا ما بلَغَ مُدَّ أحدِهم ولا نصيفَه**»[٢]، وقد تقدم الكلام عن هذا الحديث.

◈ ◈ ◈

---

(١) انظر: «فتح الباري شرح صحيح البخاري» (٧/ ٥).

(٢) سبق تخريجه.

ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ عنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ؛ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ، وأَتَى بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ، أَو غُفِرَ لَهُ؛ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِين هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَوْ ابْتُلِيَ بِبَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ.

فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ، فَكَيْفَ بِالأُمُورِ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ إِنْ أَصَابُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَئُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالْخَطَأُ مغْفورٌ.

ثُمَّ الْقَدْرُ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَلِيلٌ نَزْرٌ مَغْمُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ: مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ، وَرَسُولِهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَمَنْ نَظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ [وَعَدْلٍ] وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهِم مِنَ الْفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِينًا: أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ، لَا كَانَ وَلا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى الله تعالى.

• الشَّرح •

⊙ **قوله**: «ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ...» إلخ: والتوبة تَجبُّ ما قبلها كما في الحديث: «التَّائبُ مِن الذَّنب كمَن لا ذنبَ له»(١)، والتوبة مقبولةٌ من جميع الذنوب، قال تعالىٰ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ [مريم: ٦٠]، وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ [النور: ٥]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٤]، وقد

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠)، والطبراني (١٠/ ١٥٠)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٤٥).

أخبر الله في كتابه عن توبة أنبيائه ودعائهم بالتوبة، قال تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧]، وقال عن موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أنه قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: ١٤٣]، إلىٰ غير ذلك من الآيات.

وأما المأثور عن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكثيرٌ جدًّا، وأصحابه كانوا أفضل قرون الأمة، فهم أعرف القرون بالله وأشدهم له خشية، وقد وقع من بعضهم أشياء ندموا عليها وتابوا منها. وهذا مشهور.

⊙ **قوله: «وأتَىٰ بحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ»**: قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤] وقال النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وأَتْبِع السَّيِّئَة الحَسَنَةَ تَمْحُها»**(١)، وقال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للرجل الذي قال: أصبت حدًّا فأقمه عليَّ، فقال: **«هل صلَّيتَ معنا هذه الصَّلاةَ؟»** قال: نعم، قال: **«اذْهبْ فإن اللهَ قد غفر لك حدَّك»**(٢) الحديث، والحسنات تتفاضل بحسب ما في القلوب من الإيمان والتقوىٰ، وحينئذٍ فيعرف أن من هو دون الصحابة قد تكون له حسناتٌ تمحو ما يذم من أحدهم، فكيف بالصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ؟!

⊙ **قوله: «أَو غُفِرَ لَهُ؛ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ»**: كما تقدم من الأدلة علىٰ ذلك، ومنها:

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣)، والدارمي (٢٧٩١)، وغيرهما من حديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «المشكاة» (٥٠٨٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٨١)، وأحمد (٥/ ٢٦٥)، وغيرهما من حديث أبي أمامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٩/ ٣٨١/ صحيح وضعيف سنن أبي داود).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لعلَّ اللهَ اطَّلع علىٰ أهل بدرٍ فقال: اصنَعوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم**»(١)، وكما في قصة حاطب بن أبي بلتعة فقد غفر له ذلك الذنب العظيم بشهوده بدرًا، وقد برئ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما صنع خالدٌ ببني جذيمة وقال: «**اللَّهم إني أبرأُ إليك مما صنع خالدٌ**»(٢) ولم يؤاخذه به لحسن بلائه ونصره للإسلام، إلىٰ غير ذلك من الأدلة الكثيرة.

⊙ **قوله**: «**أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» إلخ: فإنهم أخص الناس بدعائه وشفاعته.

⊙ **قوله**: «**أَوْ ابْتُلِيَ بِبَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ**»: أي: امتحن وأصيب بمصيبة كفر الله بها عنه، أي: محا عنه ذلك الذنب؛ لأنها تكفر الذنب: كما في «الصحيح» أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**ما يُصيب المؤمنَ مِن وَصَب ولا نصَبٍ، ولا غَمٍّ ولا هَمٍّ ولا حُزن، حتىٰ الشَّوكة يُشاكها إلا كفَّر اللهُ بها من خَطاياه**»(٣) متفق عليه.

ذكر المصنف هنا بعض الأسباب المسقطة للعقوبة، وقد استوفاها في «المنهاج» وشرحها شرحًا وافيًا، ثم قال: فهذه الأسباب لا تفوت كلها من المؤمنين إلا القليل، فكيف بالصحابة -رضوان الله عليهم- الذين هم خير قرون هذه الأمة؟! فإذا كان الذنب المحقق تسقط عقوبته بعدة أسباب في حق آحاد الناس، فكيف في أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟! فما من ذنب يسقط به الذم والعقاب عن أحد

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٨٤)، وغيره من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه البخاري (٥٣١٨)، ومسلم (٢٥٧٣)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من الأمة إلا والصحابة أحق بذلك، فهم أحق بكل مدح ونفي كل ذم ممن بعدهم من الأمة. انتهىٰ.

⊙ **قوله**: «فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ»: تسقط عقوبتها عن آحاد الأمة بأسبابٍ عديدة، فكيف بأصحاب رسول الله ﷺ فهم أحق بذلك لما لهم من الفضائل والسوابق، والوعد بالمغفرة، إلىٰ غير ذلك مما لا يمكن أن يلحقهم فيه من بعدهم.

فإذا كان ما تقدم في الذنوب المحققة فكيف الأمور التي كانوا فيها مجتهدين؛ إن أصابوا فلهم أجران وإن أخطئوا فلهم أجرٌ واحد، والخطأ مغفور، فهم مأجورون علىٰ كلا الحالين، كما في «الصحيحين» من حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا اجتهد الحاكِمُ فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجرٌ واحد**»[١]، وقد تقدم، فما صدر منهم فهم فيه معذورون ومأجورون، ولم يُخرج ذلك أحدًا منهم عن العدالة؛ لأنهم مجتهدون اختلفوا في مسائل من محل الاجتهاد كما يختلف المجتهدون.

⊙ **قوله**: «ثُمَّ الْقَدْرُ..» إلخ: ثم حرف عطف. قوله: «جَنْبِ»: أي: جهة وناحية.

⊙ **قوله**: «نَزْرٌ»: أي: قليل تافه. قوله: «مَغْمُور»: أي: مغطىٰ من غمره، إذا غطاه وعلاه، أي: إن ما أتوا به من الحسنات وما لهم من الفضائل والسوابق غَمَر ما وقع منهم وغطاه وجعله كَلَا شيء، أو كقطرة نجاسة وقعت في بحر، هذا علىٰ فرض ثبوت

---

(١) سبق تخريجه.

ذلك عنهم ووقوعه منهم، وإلا فغالب ما ينقل عنهم من المساوئ، إما كذبٌ محض، وإما محرَّفٌ كما تقدم؛ لأن غالب ما ذكر عنهم ذكره المؤرخون الذين يكثر الكذب فيما يروونه، وقلَّ أن يسلم نقلهم من الزيادة والنقصان، وأيضًا إذا ثبت صدوره عنهم فهو صادرٌ عن اجتهادٍ سائغ هم مأجورون فيه على كلا الحالين.

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومَن علم ما دل عليه القرآن والسنة من الثناء على القوم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ واستحقاقهم الجنة؛ وأنهم خير هذه الأمة التي أخرجت للناس لم يعارض هذا المتيقن المعلوم بأمور مشتبهة منها ما لا يعلم صحته، ومنها ما يتبين كذبه، ومنها ما لا يعلم كيف وقع، ومنها ما يعلم عذر القوم فيه، ومنها ما يعلم توبتهم منه، ومنها ما يُعلم أن لهم من الحسنات ما يغمره، فمن سلك سبيل أهل السنة استقام قوله وكان من أهل الحق والاستقامة والاعتدال، وإلا حصل في جهل ونقص وتناقض كحال هؤلاء الرافضة الضلال(١).

⊙ **قوله:** «وَمَنْ نَظَرَ»: أي: تدبر وتفكر فيها.

⊙ **قوله:** «فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ»: أي: خطتهم وعادتهم، وما كانوا عليه من الأحوال الفاضلة والسيرة العادلة وجمعها سِيَر، وهو ما يعامل به الناس من خير وشر، وأصل السيرة: هيئة فعل السَّيْر، وسِير رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هيئة أفعاله حيث كانت.

⊙ **قوله:** «بِعِلْمٍ»: العلم: هو حصول صورة المعلوم في الذهن.

⊙ **قوله:** «وَبَصِيرَةٍ»: أي: معرفة ويقين، والبصيرة للقلب والبصر للعين.

---

(١) انظر: «منهاج السنة النبوية» (٤/ ٣٠٩ - ٣١٢).

قال ابن القيم في «المدارج» بعد كلام على قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]، قال: يريد أن تصل باستدلالك إلىٰ أعلىٰ درجات العلم، وهي البصيرة التي تكون نسبة المعلوم فيها إلىٰ القلب كنسبة المرئي إلىٰ البصر، وهذه الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة وهي أعلىٰ درجات العلماء(١). انتهىٰ.

⊙ **قوله**: «عَلِمَ يَقِينًا»: أي: علمًا لازمًا لا يدخله شك ولا شبهة، فاليقين لغة، طمأنينة القلب علىٰ حقيقة الشيء، يقال: يقن الماء في الحوض إذا استقر فيه، واصطلاحًا هو: اعتقادٌ جازمٌ لا يقبل التغيير، ومراتب اليقين ثلاثة: حق اليقين، وعلم اليقين، وعين اليقين.

فعلم اليقين: هو التصديق التام به بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة تقدح في تصديقه.

وعين اليقين: هي مرتبة الرؤية والمشاهدة.

وحق اليقين: هي مباشرة الشيء والإحساس به.

⊙ **قوله**: «لَا كَانَ وَلَا يَكُونُ مِثْلُهُمْ»: كان تامة.

⊙ **قوله**: «الصَّفْوَةُ»: أي: الخيار، والصفوة من كل شيء: خالصه وخياره، فأصحاب رسول الله ﷺ هم خير الخلق بعد الأنبياء، ومن نظر في سيرتهم وتأمل أحوالهم وما هم عليه من الدعوة إلىٰ الله والجهاد في سبيله وبذل النفس

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٤٥١).

والنفيس في سبيل إعلاء كلمته، مع ما هم عليه من الصدق مع الله والمسارعة إلىٰ الخير مع العلم النافع، إلىٰ غير ذلك من صفاتهم الفاضلة - علم يقينًا أنهم خير الخلق بعد الأنبياء، وأنهم أكمل هذه الأمة عقلًا وعلمًا ودينًا.

كما قال فيهم عبد الله بن مسعود: «من كان منكم مستنًّا فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد كانوا خير هذه الأمة وأبرَّها قلوبًا وأعمقها علمًا وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لنبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم، فإنهم كانوا علىٰ الهدىٰ المستقيم». رواه غير واحد -منهم ابن بطة- عن قتادة(١).

وروىٰ هو وغيره بالأسانيد إلىٰ ذر بن حُبيش قال: قال عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «إن الله سبحانه نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون علىٰ دينه، فما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئًا فهو عند الله سيئ». رواه أحمد وأبو داود الطيالسي(٢).

وما قال عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ فيهم حقٌّ كما تواترت بذلك الأحاديث عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: «**خيرُ القرون قرني**»(٣) الحديث، وهم أفضل الأمة

---

(١) انظر: «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (٢/ ٩٧).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٩)، والطيالسي (٢٤٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ موقوفًا عليه، وحسنه الألباني في «الضعيفة» (٥٣٣).

(٣) سبق تخريجه.

الوسط الشهداء علىٰ الناس، وهم الصفوة من قرون هذه الأمة وأكرمها علىٰ الله سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩] قال طائفةٌ من السلف: هم أصحاب محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولا ريب أنهم أفضل المصطفين من هذه الأمة التي قال الله فيها: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، فأمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذين أُورثوا الكتاب بعد الأمتين قبلهم: اليهود والنصارىٰ، وقد أخبر أنهم الذين اصطفىٰ، فأصحاب محمد هم المصطفين من المصطفين من عباد الله، فهم صفوة الصفوة - رضوان الله عليهم أجمعين- فأمة محمد خير الأمم وأكرمها علىٰ الله كما قال سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وروىٰ الإمام أحمد، عن حكيم بن معاوية، عن أبيه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «أنتم تُوفُون سبعين أمّة أنتم خيرُها وأكْرَمُها علىٰ الله سبحانه»(١)، رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم في «مستدركه»، وأصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير هذه الأمة، فهم أفضل الخلق علىٰ الإطلاق بعد النبيين والمرسلين.

◇ ◇ ◇

---

(١) سبق تخريجه.

وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ: التَّصْدِيقُ بِكَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ، وَمَا يُجْرِي اللهُ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ: كَالْمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَغَيْرِهَا، وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ قُرُونِ الأُمَّةِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

• الشَّرح •

⊙ **قوله:** «**التَّصْدِيقُ بِكَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ...**» إلخ: أي: من أصول أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات أوليائه، كما دل على ذلك القرآن والأحاديث الصحيحة والآثار المتواترة عن الصحابة والتابعين وغيرهم، وإنما أنكرها أهل البدع من الجهمية والمعتزلة ومن تابعهم، والكرامة هو ما يجري الله على أيدي أوليائه من المؤمنين من خوارق العادات، كما جرى لأُسيد بن حُضير في نزول الظُّلة عليه بالليل فيها مثل السُّرج، فأخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك فقال: «**تِلك الملائكةُ نَزلَتْ لسَماعِ قراءتك**»(١). ومثل ما جرى لسعد بن أبي وقاص في القادسية ومرورهم على الماء بجنودهم(٢)، وقد جرى قبل ذلك نحوه للعلاء بن الحضرمي(٣).

(١) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٧٩٦)، وغيرهما من حديث أسيد بن حضير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (١٠/ ٨ وما بعدها).

(٣) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٤٨٩، ٤٩٠):**

«هذا المبحث مبحث الكلام على كرامات الأولياء يُذكرُ في كتب الاعتقاد لمخالفة المعتزلة والعقلانيين فيه، فكرامات الأولياء يُنكرها أهل الاعتزال ومن شابههم، وأهل السنة يُقرُّون بها
=

⊙ **قوله: «مِّنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ... إلخ»:** أي: أنها خرقت العادة وخالفت مقتضاها وجاءت علىٰ خلاف مألوف الآدميين؛ كإحياء ميتٍ، وانفجار الماء من بين الأصابع.

⊙ **قوله: «فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ... إلخ»:**

أي: أن الكرامة تنقسم إلىٰ أقسام: منها ما يكون في الكشف والعلم، ومنها ما

=

ويصدقون بها لما جاء من الأدلة في ذلك، فوضع أهل السنة بحث كرامات الأولياء في كتب العقيدة لمخالفة أهل السنة للفرق الضالة في ذلك.

وسبب الضلال في هذا الباب ومنشؤه عند أهل الاعتزال وغيرهم: أنهم أصَّلُوا أصلًا في آيات وبراهين الأنبياء؛ لأن آية النبي وبرهان نبوته قائمٌ علىٰ خرقِه للعادة، فما أجرىٰ الله من الآيات علىٰ يد الأنبياء والرسل؛ كعصا موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكمسح عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ للمريض والأكمه والأبرص ونحو ذلك، وكدخول إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ النار، ونحو ذلك من الآيات والبراهين الدالة علىٰ صدق الأنبياء. هذه كلها العمدةُ فيها عند المعتزلة ومن شابههم أنها أمور خارقة للعادة.

قالوا: فإذا كان ذلك خارقًا للعادة فمعناه أن الآية قامت للنبي في نبوته، فإذا كان هناك خوارق للعادة أُخَر يجوز أن تقع لغيرهم من السحرة والكهنة أو من الأولياء؛ فإن النبوة تكون مُشتبهة وليس لها دليلٌ واضح؛ لأن عمدة الدليل عندهم علىٰ خرق العادة، وكرامات الأولياء خوارق للعادات، وسحر الساحر خوارق للعادات... وهكذا؛ لهذا لا يصدقون بكرامات الأولياء ولا بالخوارق التي تكون علىٰ أيدي مُمَخرِقين؛ لأن ذلك عندهم يجعل حجة النبي غير قائمة.

هذا أصل شُبهتهم وأصل ضلالهم في هذا الباب، فخالفهم أهل السنة في التأصيل وفي التفريع: خالفوهم في التأصيل من أن خرق العادة الذي ذكروه لا يُفهم علىٰ ما فهموه، وخالفوهم من حيث التفريع؛ فإن النصوص ثبتت في كرامات الأولياء، والأدلة عليها كثيرة جدًّا في الكتاب والسنة، وفيما وقع وتواتر، ولقيام الدليل القطعي العقلي من حيث التواتر بحصول ذلك في الأمم المختلفة» اهـ.

يكون في القدرة والتأثير، فما كان من باب العلم والكشف، فتارة يَسمع ما لا يسمعه غيره، أو يرىٰ ما لا يراه غيره يقظةً أو منامًا أو نحو ذلك، ويسمىٰ كشفًا ومشاهدات ومكاشفات ومخاطبات، فالسماع مخاطبات، والرؤيا مشاهدات والعلم مكاشفة، ويسمىٰ ذلك كله كشفًا ومكاشفة، أي: كشف له عنه وأطلعه علىٰ ما لم يطلع عليه غيره، فحصل لقلبه من انكشاف الحقائق التي لا تخطر ببال غيره ما خصه الله به.

فمن باب الكشف والعلم للأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: إخبار نبينا عن أخبار الأنبياء المتقدمين وأممهم، وكذلك عن الأمور المستقبلة؛ كمملكة أمته وزوال مملكة فارس والروم، وقتال الترك، ونحو ذلك مما لا يحصىٰ، وأما القدرة والتأثير فكانشقاق القمر، وردِّ الشمس ليوشع بن نون، وإسرائه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ، ونبع الماء بين أصابعه غير مرة، إلىٰ غير ذلك مما لا يحصىٰ.

وأما الخوارق لغير الأنبياء من باب الكشف والعلم: فمثل قول عمر في قصة سارية(١)، ومثل إخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلًا(٢)، وقصة صاحب موسىٰ في علمه بحال الغلام، وأما من باب القدرة والتأثير: فمثل قصة الذي عنده علمٌ من الكتاب، وقصة أهل الكهف، وقصة مريم، ونحو ذلك. انتهىٰ ملخصًا من كلام

---

(١) وسيأتي ذكرها قريبًا.

(٢) يعني ما رواه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٤٩٢) عَنْ نَافِعٍ، قَالَ: بَلَغَنَا أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ: «إِنَّ مِنْ وَلَدِي رَجُلًا بِوَجْهِهِ شَيْنٌ يَلِي، فَيَمْلَأُ الْأَرْضَ عَدْلًا»، قَالَ نَافِعٌ مِنْ قِبَلِهِ: وَلَا أَحْسَبُهُ إِلَّا عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ.

شيخ الإسلام ابن تيمية(١).

وشرط كون الخارق كرامة أن يكون من جرىٰ علىٰ يديه صالحٌ متبعٌ للسنة، فمن ادعىٰ محبة الله وولايته ولم يتبع محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فليس من أوليائه، بل من أعدائه وأولياء الشيطان، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]. قال الحسن: ادعىٰ قوم محبة الله فامتحنهم الله بهذه الآية(٢).

ولهذا اتفق أئمة الدين علىٰ أن الرجل لو طار في الهواء ومشىٰ علىٰ الماء لم يثبت له ولايةٌ، بل ولا إسلامٌ حتىٰ يُنظر وقوفه عند الأمر والنهي الذي بعث الله به رسوله، فولي الله هو المؤمن المتقي كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣] وسمي وليًّا لموالاته لطاعة الله.

والولي خلاف العدو، وهو مشتقٌّ من الولاء وهو الدنو والقرب، فولي الله من والىٰ الله بموافقته في محبوباته والتقرب إليه بمرضاته، والأولياء علىٰ قسمين: مقتصدون ومقربون، فالمقتصدون: الذين يتقربون إلىٰ الله بالفرائض من أعمال القلوب والجوارح، والسابقون: الذين يتقربون إلىٰ الله بالنوافل بعد الفرائض، وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين هم أُولو العزم، وهم: إبراهيم ونوح وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد، قيل: وأفضلهم محمد،

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ٣١٨).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٢٢).

ثم إبراهيم، ثم موسىٰ، ثم عيسىٰ، ثم نوح، ونظمهم بعضهم علىٰ هذا الترتيب فقال:

محمد إبراهيم موسىٰ كليمه فعيسىٰ فنوح هم أولو العزم فاعلم[(١)]

ولا يشترط في الولي أن يكون معصومًا، بل من ادعىٰ العصمة لأحدٍ من الأولياء فقد كذب، ولا يمكن أن يصل الولي -مهما علت رتبته وبلغ في الجد والاجتهاد ما بلغ- إلىٰ مراتب الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ[(٢)]، وليس للولي زيٌّ

---

(١) انظر: «تحفة الحبيب علىٰ شرح الخطيب» للبجيرمي (١/ ٣٦).

(٢) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٥١٠-٥١٢):

«وأول من أحدث القول بِخَتْم الوِلاية، وباحتمال أن يَفْضُلَ الولي علىٰ النبي فيما يُذْكَر عنه: الحكيم الترمذي صاحب كتاب «نوادر الأصول»، وذلك في كتاب سماه «ختم الوَلاية» وعنىٰ بها: ختم الأولياء، ذكر فيه أصولًا في هذا الباب، وكان ذلك سببًا لضلال جهلة المتصوفة والاتحادية في هذا الباب.

فقالوا: إن الولاية تُخْتَم كما تُخْتَم النبوة، وإنه يمكن أن يكون الولي أفضل من النبي. وقد تبنىٰ هذا -والعياذ بالله- ابن عربي الطائي المعروف صاحب كتاب «الفتوحات المكية» و«فُصُوص الحِكَم»، ذكره في كتابه «الفُصُوص»، وذكر أن خاتم الأولياء -قالوا: يعني بذلك نفسه- أفضل من خاتِم الأنبياء.

ولهذا كفَّرَهُ العلماء بذلك، وحكموا عليه بالزندقة؛ بل قالوا: وأي كفر أعظم من هذا حيث قال: إن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثَّل لبناء الأنبياء بأنه لم يبق فيه إلا لبنة، فكان هو صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك اللبنة. قال: وخاتم الأولياء يَنْظُرُ نفسه في موضع لبنتين، لَبِنَة في الظاهر ولَبِنَة في الباطن، فلبنة الظاهر تتابع رسم الشريعة، ولبنة الباطن تَسْتَقِي من المَعْدِن الذي يَسْتَقِي منه المَلَك الذي أوصل الخبر إلىٰ النبي.

وقد أَلَّفَ ابن عربي هذا كتابًا فيه الأحاديث التي يرويها عن ربنا عَزَّوَجَلَّ مباشرة، وهو مطبوع

خاصٌّ ولا لباسٌ خاص.

وأما ما يجري الله على أيدي الأنبياء والرسل من خوارق العادات يدل بها عباده على صدق ما ادعوه من النبوة والرسالة، فيقال له: معجزة، أما إذا كانت حال من ظهرت الخارقة على يديه غير مرضية فليست بكرامة، بل هو استدراجٌ وخيالٌ شيطاني ليس من حال أولياء الله وكرامتهم، فمن زعم أنه يصل إلى حدٍّ تسقط عنه التكاليف الشرعية، أو زعم أنه يسعه الخروج من شريعة محمد، كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسى، أو زعم أنه محتاجٌ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في علم الظاهر دون علم الباطن أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة، فهو كافرٌ بالله العظيم، من أولياء الشيطان، ليس من أولياء الرحمن، كما ذكر ذلك الشيخ تقي الدين وغيره، إذ قد أجمع العلماء على أن شرط الكرامة كونها على يد متبعٍ للشرع المطهر، وبهذا التفصيل يظهر الفرق بين المعجزة والكرامة والأحوال الشيطانية، فالثلاث تجتمع في كونها خارقةً للعادة، وتمتاز المعجزة في كونها على يد مدعي الرسالة والنبوة، فيؤيد

=

سمَّاه «الأربعين عن رب العالمين»، فكانت جهة التفضيل هي هذه.

ولذلك تجد أن هؤلاء يرون أنه سقطت عنهم التكاليف؛ لأنهم خوطبوا بما لم يُخاطب به غيرهم، وأنهم في الظاهر يتبعون، لكن في الباطن هم معذورون أو لهم شريعتهم الخاصة.

وهذا لا شك أنه زندقة وهو الذي ذكره إمام هذه الدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في «نواقض الإسلام»، فقد كان كثير من الناس في نجد وما حولها وفي الحجاز وفي البلاد الإسلامية الأخرى إلى يومنا يعتقد أنه يَسَعُهُ الخروج عن شريعة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما وَسِعَ الخضر الخروج عن شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ويعنون بذلك ختم الولاية» اهـ.

الله الصادقين بأنواع المعجزات والأخلاق والأعمال التي تدل علىٰ صدقهم، وقد يكون منها ما لا يستطيع المخلوق مثله كإنزال القرآن، ونبوع الماء من بين أصابعه، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتىٰ في حق عيسىٰ، وكعصا موسىٰ ويده.

أما الكرامة: فهي الخارقة الحاصلة علىٰ يد المؤمن التقي التابع لشرع محمدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ودينه؛ إما لتقوية إيمانه، أو لحاجة، أو لإقامة حجةٍ علىٰ خصمه المعارض له في الحق، كما جرىٰ لسعيد بن زيدٍ وسعد بن أبي وقاص لما دَعوا علىٰ من رماهما بخلاف الحق، فأجاب الله دعوتهما[(١)].

والكرامة في الحقيقة من معجزات ذلك النبي الذي اتبعه ذلك المؤمن الذي وقعت له تلك الكرامة كما قال بعض العلماء: كل كرامةٍ لوليٍّ فهي معجزةٌ لنبيه[(٢)]؛

---

(١) قصة سعيد بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أخرجها مسلم (١٦١٠)، وقصة سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أخرجها البخاري (٧٥٥)، ومسلم (٤٥٣).

(٢) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٣٠٠-٣٠٣):**

«قال العلماء: كل كرامة لولي، فهي آية للنبي الذي اتبعه؛ لأن الكرامة شهادة من الله عَزَّ وَجَلَّ أن طريق هذا الولي طريق صحيح، وعلىٰ هذا؛ ما جرىٰ من الكرامات للأولياء من هذه الأمة فإنها آيات لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ولهذا قال بعض العلماء: ما من آية لنبي من الأنبياء السابقين؛ إلا ولرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مثلها.

- فأورد عليهم أن الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يلق في النار فيخرج حيًّا، كما حصل ذلك لإبراهيم.

فأجيب بأنه جرىٰ ذلك لأتباع الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، كما ذكره المؤرخون عن أبي مسلم الخولاني، وإذا أكرم أتباع الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بجنس هذا الأمر الخارق للعادة، دل ذلك علىٰ أن دين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حق؛ لأنه مؤيد بجنس هذه الآية التي حصلت لإبراهيم.

لأنها لم تقع له إلا بسبب اتباعه له.

أما إذا وقعت الخارقة على يد معرضٍ عن الشرع صادٍّ عن الحق متلبسٍ بالمعاصي، فما وقع من الأحوال الشيطانية التي تصد بها الشياطين الناس عن اتباع الحق، فإن الشياطين تعمل كل حيلةٍ لإضلال الناس وصدهم عن الحق، وتدخل الأصنام وتكلم

=

وأورد عليهم أن البحر لم يفلق للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد فلق لموسىٰ!

فأجيب بأنه حصل لهذه الأمة فيما يتعلق في البحر شيء أعظم مما حصل لموسىٰ، وهو المشي علىٰ الماء، كما في قصة العلاء بن الحضرمي، حيث مشوا علىٰ ظهر الماء، وهذا أعظم مما حصل لموسىٰ؛ لأن موسىٰ مشىٰ علىٰ أرض يابسة.

وأورد عليهم أن من آيات عيسىٰ إحياء الموتىٰ، ولم يقع ذلك لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فأجيب بأنه وقع لأتباع الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، كما في قصة الرجل الذي مات حماره في أثناء الطريق، فدعا الله تعالىٰ أن يحييه، فأحياه الله تعالىٰ.

وأورد عليهم إبراء الأكمة والأبرص.

فأجيب بأنه حصل من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن قتادة بن النعمان لما جرح في أُحُد، ندرت عينه حتىٰ صارت علىٰ خده، فجاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأخذها بيده، ووضعها في مكانها، فصارت أحسن عينيه. فهذه من أعظم الآيات.

فالآيات التي كانت للأنبياء السابقين كان من جنسها للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو لأمته، ومن أراد المزيد من ذلك، فليرجع إلىٰ كتاب «البداية والنهاية في التاريخ» لابن كثير.

تنبيه:

الكرامات، قلنا: إنها تكون تأييدًا أو تثبيتًا أو إعانة للشخص أو نصرًا للحق، ولهذا كانت الكرامات في التابعين أكثر منها في الصحابة؛ لأن الصحابة عندهم من التثبيت والتأييد والنصر ما يستغنون به عن الكرامات فإن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان بين أظهرهم، وأما التابعون، فإنهم دون ذلك، ولذلك كثرت الكرامات في زمنهم تأييدًا لهم وتثبيتًا ونصرًا للحق الذي هم عليه» اهـ.

عبَّادها وتحكم بينهم، وقد تقضي لأوليائها بعض الحاجات، وقد ترفع بعضهم في الهواء ثم تعيده، ولا سيما في الرقص واللعب، وقد تنقل بعض عبادها إلىٰ بلدةٍ بعيدةٍ ثم ترجعه، أو إلىٰ عرفات وقت الحج ثم تعيده، كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»(١)(٢).

---

(١) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص١٧١).

(٢) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٥٠٤-٥٠٨):**

«إذا تقرر ذلك فبحث الكرامات بحث مهم، وسبق أن ذكرنا أن المعتزلة ينفون الكرامات ولا يُصدقون بكرامات الأولياء، وأهل السنة يُصدقون بكرامات الأولياء، وكذلك الأشاعرة يُصدقون بكرامات الأولياء.

وهناك فرق بين قول أهل السنة وقول الأشاعرة:

فأهل السنة يُصدقون بكرامات الأولياء، وما يُجْرِي الله علىٰ أيديهم من خوارق العادات بالقيد الذي سبق بيانه: أن كرامة الولي لا تبلغ آية النبي.

والأشاعرة يقولون: كرامة الولي تساوي آية النبي، والفرق بينهما أن كرامة الولي ليست مقرونة بدعوىٰ النبوة، وآية النبي أو كرامة النبي أو البرهان الذي يُعطيه الله عَزَّوَجَلَّ للأنبياء والرسل هذه مقرونة بدعوىٰ النبوة. فالفرق بينهما عند الأشاعرة من جهة اقتران الكرامة أو الخارق للعادة بدعوىٰ النبوة؛ فإن كان مع الخارق للعادة دعوىٰ النبوة صارت آية وبرهانًا ومعجزة، وإن خلت من دعوىٰ النبوة صارت كرامة.

وهذا يُخالف مذهبنا وطريقتنا وقول أئمة أهل السنة في أن كرامات الأولياء لا تبلغ آيات الأنبياء؛ ولهذا نقول: إن آيات الأنبياء وبراهين الأنبياء خارقة لمقدور جنس المخلوقات: الجن، والإنس، والملائكة.. إلىٰ آخره، أما كرامة الولي فهي محدودة: خارقة لعادة ناس زمانهم.

وخلاصة القول في مذهب أهل السنة والجماعة في كرامات الأولياء: أن كرامات الأولياء =

=

لا تتساوىٰ، وعدم تساويها ليس لأجل تفاضل الإيمان، فقد يُعطىٰ الأكمل في الولاية من الكرامة ما هو أقل مما يُعطىٰ الأقل منه إيمانًا، وقد يُعطىٰ مَنْ عصىٰ شيء من الكرامة، ولا يُعطاها المؤمن التقي المُسدد؛ لأجل حاجة ذاك إلىٰ ما يُقوي إيمانه، ولطف الله عَزَّوَجَلَّ به وعدم حاجة ذاك.

ومن أصول أهل السنة في هذا: أن أهل البدع والمحدثات والعصيان والكبائر ليسوا بأهل للكرامة، فلا يُجرىٰ علىٰ أيديهم خوارق للعادات، وهذا يعني أن ما يحصل لأهل البدع من خوارق العادات إنما هو من الشياطين أو من الاحتيال؛ ولهذا شيخ الإسلام ابن تيمية لما ذُكِرَت له الرفاعية -طائفة صوفية منسوبة إلىٰ أحمد الرفاعي، المعروفة في الشام- أنهم من آياتهم التي تدل علىٰ أنهم أولياء أنهم يدخلون النار ولا تحرقهم، فقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن هناك زيتًا يُباع في المشرق إذا أُطلي به الجسد لم تصل النار إلىٰ الجسد؛ فإن كانوا صادقين فليغتسلوا اغتسالًا جيدًا قبل أن يدخلوا النار. فأبوا أن يفعلوا ذلك.

هذا من جهة الاحتيال، وقد يكون من جهة الشياطين؛ كمن يدخل السكين في بطنه، أو يأكل الأفعىٰ ولا تصيبه، ونحو ذلك، هذا من جهة تصوير الشياطين.

فإذن التقعيد أن ما يحصل لأهل البدع من الكرامات ليس هو كرامات، وإنما هي خوارق شيطانية إلا في حالة واحدة، وهي: حالة قتال أهل البدع للكفار والمشركين، فهذه حالة مُستثناة عند أهل السنة، وهي أن أهل البدع إذا قاتلوا المشركين والكفار فقد يُكرمون، وقد تكون لهم كرامات، وهذه الكرامات ليست إكرامًا لأشخاصهم؛ لأنهم أهل بدع وعصيان وضلالات، ولكنها إكرام لما حملوه من أصل الإسلام؛ لهذا قال شيخ الإسلام في كتاب «النبوات»، وفي غيره: إن أهل البدع يُعطون كرامات إذا كانوا في جهاد للمشركين إما جهاد لسان أو جهاد سنان، ففي جهاد السنان يُعطىٰ المبتدع كرامة، لكن لا يدل علىٰ أن ما عليه من مخالفة الكتاب والسنة وأخذ البدع والعصيان أنه حق، بل لأجل أن يفوق بما معه من أصل دين الإسلام علىٰ ما مع أولئك من الكفر والضلال.

فإذًا: يكون إعطاء المبتدع في حال القتال الكرامة لأجل إظهار أن الله عَزَّوَجَلَّ أيّد من علىٰ

=

⊙ **قوله**: «كَالْمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الأُمَمِ»: أي: كالمنقول عن سالف الأمم، أي: متقدمها، كما ذكر الله تعالىٰ في كتابه عن حمل مريم بلا زوج، ووجود فاكهة الشتاء عندها في الصيف وبالعكس، وإحضار آصف بن برخيا عرش بلقيس في لحظةٍ من مسيرة شهر، وكما ذكر سبحانه في سورة الكهف عن أصحاب الكهف أنهم بقوا ثلاث

=

الإسلام ولو كان مُبتدعًا علىٰ من هو علىٰ الكفر.

ويُمثَّل لذلك بعدة أمثلة منها:

قتال المبتدعة من هذه الأمة المشركين والملحدين في قديم الزمان وفي حديثه، وهذا لأجل ما معهم من أصل الدين في مواجهة الكافر المُشرك أو المُلحد، فأيَّدهم الله عَزَّوَجَلَّ بالكرامات لبيان أن هذا الدين أعظم مما هم عليه؛ لأجل التصديق بهذا الدين.

المواجهة بالبيان والجهاد باللسان، فأيد الله عَزَّوَجَلَّ وأكرم بعض المبتدعة من هذه الأمة -كالمعتزلة وبعض الأشاعرة- في حجاجهم ومواجهتهم لطوائف الضلال من التناسخية في الهند، والحُلولية، واليهود، والنصارىٰ، وأصحاب الملل المختلفة، فيؤيدون حال الحِجاج.

فإذًا: في حال الجهاد المسألة تختلف، فقد يعطىٰ المبتدع الكرامة لا لذاته ولكن لنصرة ما معه من أصل الدين؛ وهذا فرق مهم، وكثير ممن خاض في الزمن الأخير كالذي حصل للأفغان من أمور، من شاهدها قال: إنها كرامات. وتناقلت بين الناس، وهناك من يُكذب ذلك ويقول: هؤلاء مُبتدعة، والمُبتدع لا يحصل له كرامة أصلًا. وهناك من يقول: هي كرامات، وهذا يدل علىٰ أنهم عند الله عَزَّوَجَلَّ لهم مكانة الأولياء، ونحو ذلك. وبهذا التفصيل يُفهم الفرق بين حال الكرامة في الجهاد، وحال الكرامة في غير الجهاد؛ فإنه في الجهاد ليست دليلًا علىٰ أن المجاهد ولي، بل قد يكون غير ذلك؛ كما هو الواقع؛ فإن الحال في أولئك أن الكثير منهم مُبتدعة، وكثير منهم عندهم شركيات وخُرافات، فما حصل لهم من الكرامات فيما نَقَلَ النقلة قد يكون لأجل تأييد ما هم عليه من أصل دين الإسلام علىٰ ما عليه أولئك الكفرة من الإلحاد والظلم العظيم» اهـ.

مئة سنة، فإن بقاءهم ثلاث مئة سنةٍ بلا آفةٍ من أعظم الخوارق.

وكالمأثور عن صدر هذه الأمة، أي أولها، وصدر كل شيء أوله، أي أول هذه الأمة من الصحابة، كما في قصة العلاء بن الحضرمي وأصحابه حين مشوا علىٰ الماء، وكرؤية عمر لجيش سارية وهو علىٰ المنبر في المدينة ونداءه لأمير الجيش وهو بنهاوند: يا سارية الجبل(١)؛ تحذيرًا له من العدو مع بعد المسافة، وكشرب خالد بن الوليد السمَّ من غير أن يحصل له منه تضرر به(٢)، وكجريان النيل بكتاب أمير المؤمنين عمر(٣)، إلىٰ غير ذلك من كرامات الصحابة التي لا تحصىٰ.

⊙ **قوله**: «مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ»: التابع لغة: التالي، وفي عرف الفقهاء: من اجتمع بالصحابي، أي: أن كرامات الأولياء لا تزال موجودة إلىٰ يوم القيامة في جميع أصناف أمة محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بشرطها المتقدم، كما روي أن الحسن تغيب عن الحجاج فدخلوا عليه ست مرات فدعا الله عَزَّوَجَلَّ فلم يروه(٤)، ودعا علىٰ بعض

---

(١) والأثر أخرجه أبو نعيم في «دلائل النبوة»، وابن عساكر (٢٠/ ٢٤)، وغيرهما، وقال الحافظ ابن حجر في «الإصابة» (٣/ ٥): «إسناده حسن»، وكذلك حسنه الألباني، انظر: «الصحيحة» (١١١٠).

(٢) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (٢/ ٨١٥) (١٤٧٨)، والطبراني (٤/ ١٠٥) (٣٨٠٨)، وأبو يعلىٰ (١٣/ ١٤١) (٧١٨٦)، وابن أبي شيبة (٦/ ٥٤٨) (٣٣٧٣٠)، وغيرهم، وقد ذكر هذه القصة غير واحد من أهل العلم، منهم الذهبي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وذكر محقق كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» أن سندها حسن لغيره.

(٣) رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٦/ ٤٦٣)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٤ / ٣٣٦) وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٢٤)، بإسناد ضعيف.

(٤) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص١٦٣، ١٦٤).

الخوارج كان يؤذيه فخر ميتًا[١].

وصِلة بن أشيم مات فرسه وهو في الغزو، فقال: اللهم لا تجعل لمخلوقٍ عليَّ منة، ودعا الله عَزَّوَجَلَّ فأحيا له فرسه، فلما وصل إلىٰ بيته قال: يا بني خذ سرج الفرس فإنه عاريةٌ، فأخذ سرجه فمات الفرس[٢]، وجاع مرة بالأحواز فدعا الله عَزَّوَجَلَّ، واستطعمه فوقعت خلفه دوخلة رطب في ثوب حرير فأكل التمر وبقي الثوب عند زوجته زمانًا[٣]، وجاءه الأسد وهو يصلي في غيضة بالليل، فلما سلَّم قال له: اطلب الرزق من غير هذا الموضع؛ فولَّىٰ الأسد وله زئير[٤].

وكان سعيد بن المسيب في أيام الحرة يسمع الأذان من قبر رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أوقات الصلوات، وكان المسجد قد خلا فلم يبق غيره، ولما مات أويس القرني وجدوا في ثيابه أكفانًا لم تكن معه قبل، ووجدوا له قبرًا محفورًا فيه لحدٌ في صخرةٍ فدفنوه فيه وكفنوه في تلك الأثواب.

وكان عمرو بن عقبة بن فرقد يصلي يومًا في شدة الحر فأظلته غمامةٌ، وكان السبع يحميه وهو يرعىٰ ركاب أصحابه؛ لأنه كان يشترط علىٰ أصحابه في الغزو أنه يخدمهم.

وكان مطرف بن عبد الله بن الشِّخير إذا دخل بيته سبحت معه آنيته، وكان هو

---

(١) المصدر السابق (ص١٦٤).

(٢) السابق.

(٣) السابق.

(٤) السابق، وانظر: «البداية والنهاية» لابن كثير (٩/ ٢٢)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٢/ ٨٨).

وصاحب له يسيران في ظلمة فأضاء لهما طرف السوط، إلىٰ غير ذلك من كرامات أولياء الله التي لا تحصىٰ، ذكر ذلك الشيخ تقي الدين في كتابه «الفرقان» قال: وأما ما نعرفه نحن عيانًا ونعرفه في هذا الزمان فكثير(١). انتهىٰ.

⊙ **قوله**: «وَسَائِرِ»: أي: باقي أو جميع فرق الأمة، ولا يختص ذلك في صنفٌ معين، بل توجد الكرامات وخوارق العادات في جميع أصناف أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور، فيوجد ذلك في أهل القرآن، وأهل العلم، وفي أهل الجهاد، وفي التجار والصناع والزراع وغيرهم ممن كان صالحًا متبعًا لسنة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

◇ ◇ ◇

(١) «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص١٦٦).

ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ.

وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ قَالَ: «عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»(١).

الشرح

⊙ **قوله:** «طَرِيقَةِ»: أي: سبيل ومنهاج.

⊙ **قوله:** «السُّنَّة»: لغة: الطريقة. وشرعًا: هي أقوال النبي وأفعاله وتقريراته، وقد تقدم، وهذا معناها باعتبار العرف الخاص، وأما معناها باعتبار العرف العام: فهو ما نقل عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو عن السلف من الصحابة والتابعين وغيرهم من الأئمة المقتدىٰ بهم.

قال ابن رجب: وكثير من المتأخرين يخصون السنة بما يتعلق بالاعتقاد؛ لأنها أصل الدين، والمخالف فيها علىٰ خطر عظيم(٢). انتهىٰ.

وقد اتفق من يعتد به من أهل العلم علىٰ أن السنة المطهرة مستقلة بتشريع الأحكام، وأنها كالقرآن في التحليل والتحريم وغير ذلك، وقد ثبت عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وقال: «حسن صحيح»، وغيرهما من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني في «ظلال الجنة»، برقم (٢٦-٣٤).

(٢) انظر: «جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم» (٢/ ١٢٠).

أنه قال: «ألا وإنِّي أُوتيتُ القرآنَ ومثلَه معه»[١]، وما روي من الأمر بعرض الأحاديث على القرآن، فقال يحيىٰ بن معين: إنه موضوعٌ وضعته الزنادقة، وهو مخالف لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] الآية، وقد تقدم الكلام علىٰ هذا الحديث بأكمل من هذا فارجع إليه.

⊙ **قوله**: «اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»: أي: سلوك طريقه والسير علىٰ منهاجه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: الاتباع سلوك طريق المتبَع والإتيان بمثل ما أتىٰ به[٢]. انتهىٰ.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وعن أنسٍ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا يؤمِنُ أحدُكم حتىٰ يكونَ هواه تبعًا لما جئت به»[٣]، إلىٰ غير ذلك من الآيات والأحاديث التي فيها الأمر باتباع الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والوعيد الشديد في الإعراض عن هدية صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاتباعه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وامتثال أمره من أعظم الفروض، بل كل قولٍ أو عملٍ يخالف ما عليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (٢/ ١٣١).

(٣) سبق تخريجه.

وأصحابه فهو باطلٌ مردودٌ علىٰ فاعله كائنًا من كان، كما في «الصحيح» من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن عَمِلَ عَملًا ليس عليه أمْرُنا فهو رَدٌّ**»(١).

فاتباع الرسول شرطٌ لصحة العمل، كما قال تعالىٰ: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [البقرة: ١١٢]، وقال: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود: ٧].

قال الفضيل بن عياض: أي: أخلصه وأصوبه. قيل: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل، حتىٰ يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون علىٰ سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٢).

وقد اتفق المسلمون علىٰ أن حبَّ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فرض، بل لا يتم الإيمان والإسلام إلا بكونه أحبَّ إلىٰ العبد من نفسه فضلًا عن غيره، واتفقوا علىٰ أن حبه لا يتحقق إلا باتباع آثاره والتسليم لما جاء به والعمل علىٰ سنته، وترك ما خالف قوله، كما قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] وقال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء: ٦٥] الآية.

فمن زعم: أن أدلة القرآن والسنة لا تفيد اليقين، وأن أحاديث الأسماء

---

(١) أخرجه مسلم (١٧١٨)، وأحمد (٦/ ١٤٦)، وغيرهما من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٢) انظر: «حلية الأولياء» (٨/ ٩٥).

والصفات أخبار آحاد لا تفيد العِلم فهو بعيدٌ عن هذا التحكيم، فيجب اعتقاد أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الواسطة في التبليغ عن الله شرعه ودينه، فالله سبحانه المُشرِّع ورسوله المُبلِّغ، فالحلال: ما أحله الله، والحرام ما حرمه، والدين ما شرعه.

فاتخاذ الواسطة ينقسم إلىٰ قسمين:

الأول: اتخاذ واسطة ببينك وبين الله علىٰ أنها تنفع وتضر، فاتخاذ هذه الواسطة شركٌ وكفرٌ بالإجماع، كما ذكر ذلك الشيخ تقي الدين ابن تيمية.

الثاني: اتخاذ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ واسطة في التبليغ عن الله وشرعه ودينه، فإسقاط هذه الواسطة كفرٌ بالله، فمن زعم أنه يأخذ عن الله بدون واسطة رسله وأنبيائه فهو كافر، أو زعم أنه يصل إلىٰ حدٍّ تسقط عنه التكاليف الشرعية، أو أنه يسعه الخروج عن شريعة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما وسع الخضر الخروج عن شريعة موسىٰ، أو انه محتاجٌ إلىٰ محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في علم الظاهر دون علم الباطن أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة، أو أن هدي غير محمدٍ أحسن من هديه - فهو كافرٌ بالله العظيم.

⊙ **قوله:** «آثار رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ»؛ أي: ما أثر عنه وروي عنه من قولٍ أو فعلٍ أو تقرير، وليس المراد آثاره الحسية كمواضع نومه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجلوسه وقيامه ونحو ذلك، فلا ينبغي تتبع ذلك؛ لأنه وسيلة إلىٰ الفتنة بتلك المواضع، وربما آلَ إلىٰ جعلها معابد، ولذلك قطع عمر بن الخطاب الشجرة التي بايع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحتها الصحابة لما بلغه أن أناسًا يذهبون إلىٰ الشجرة فيصلون تحتها، ونهىٰ عن اتباع آثاره الحسية، وقال: إنما هلك من كان قبلكم باتباع آثار أنبيائهم، وأما

ما كان يفعله ابن عمر من تتبع آثار رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتىٰ إنه بال في الموضع الذي بال فيه رسول الله، فقد خالفه أبوه وجمهور الصحابة، والصواب معهم حسمًا لمواد الشرك وسدًّا للذرائع التي توصل إليه، والإسلام مبنيٌّ علىٰ أصلين: ألا نعبد إلا الله، وأن نعبده بما شرع، لا نعبده بالبدع، وقد تقدم ذكر ذلك.

⊙ **قوله**: «بَاطِنًا وَظَاهِرًا»: إشارة إلىٰ أنه لابد من الإخلاص في العمل، وأن كل عمل لا يراد به وجه الله فليس لعامله فيه ثواب، كما أن كل عملٍ لا يكون عليه أمر الله ورسوله فهو مردودٌ علىٰ عامله(١).

---

(١) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٣٠٩-٣١١):**

«ثم اعلم أن آثار الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام أو أكثر:

أولًا: ما فعله علىٰ سبيل التعبد؛ فهذا لا شك أننا مأمورون باتباعه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، فكل شيء لا يظهر فيه أنه فعله تأثرًا بعادة أو بمقتضىٰ جبلة وفطرة أو حصل اتفاقًا، فإنه علىٰ سبيل التعبد، ونحن مأمورون به.

ثانيًا: ما فعله اتفاقًا، فهذا لا يشرع لنا التأسي فيه؛ لأنه غير مقصود، كما لو قال قائل: ينبغي أن يكون قدومنا إلىٰ مكة في الحج في اليوم الرابع من ذي الحجة! لأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدم مكة في اليوم الرابع من ذي الحجة.

فنقول: هذا غير مشروع؛ لأن قدومه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا اليوم وقع اتفاقًا.

ولو قائل قال: ينبغي إذا دفعنا من عرفة ووصلنا إلىٰ الشعب الذي نزل فيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبال أن ننزل ونبول ونتوضأ وضوءًا خفيفًا كما فعل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ! فنقول: هذا لا يشرع.

وكذلك غيرها من الأمور التي وقعت اتفاقًا، فإنه لا يشرع التأسي فيه بذلك؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعله لا علىٰ سبيل القصد للتعبد، والتأسي به تعبد.

ثالثًا: ما فعله بمقتضىٰ العادة، فهل يشرع لنا التأسي به؟

=

⊙ **قوله:** «وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ... إلخ»: أي: سلوك طريقهم والسير علىٰ منهاجهم، والسبيل في الأصل: الطريق، فمن أصول أهل السنة اتباع سبيل

=

الجواب: نعم، ينبغي لنا أن نتأسىٰ به، لكن بجنسه لا بنوعه.

وهذه المسألة قلَّ مَن يتفطن لها من الناس، يظنون أن التأسي به فيما هو علىٰ سبيل العادة بالنوع، ثم ينفون التأسي به في ذلك.

ونحن نقول: نتأسىٰ به، لكن باعتبار الجنس، بمعنىٰ: أن نفعل ما تقتضيه العادة التي كان عليها الناس، إلا أن يمنع ذلك مانع شرعي.

رابعًا: ما فعله بمقتضىٰ الجبلة، فهذا ليس من العبادات قطعًا، لكن قد يكون عبادة من وجه، بأن يكون فعله علىٰ صفة معينة عبادة: كالنوم؛ فإنه بمقتضىٰ الجبلة، لكن يسن أن يكون فعله علىٰ صفة معينة عبادة: كالنوم، فإنه بمقتضي الجبلة، لكن يسن أن يكون علىٰ اليمين، والأكل والشرب جبلة وطبيعة، ولكن قد يكون عبادة من جهة أخرىٰ، إذا قصد به الإنسان امتثال أمر الله والتنعم بنعمه والقوة علىٰ عبادته وحفظ البدن، ثم إن صفته -أيضًا- تكون عبادة كالأكل باليمين، والبسملة عند البداءة، والحمدلة عند الانتهاء.

وهنا نسأل: هل اتخاذ الشَّعر عادة أو عبادة؟

يرىٰ بعض العلماء أنه عبادة، وأنه يسن للإنسان اتخاذ الشعر.

ويرىٰ آخرون أن هذا من الأمور العادية، بدليل قول الرسول ﷺ للذي رآه قد حلق بعض رأسه وترك بعضه، فنهاهم عن ذلك، وقال: «**احلقوا كله أو ذروا كله**» [أخرجه أبو داود (٤١٩٥)، والنسائي (٥٠٤٨)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «الصحيحة» (١١٢٣)] وهذا يدل علىٰ أن اتخاذ الشعر ليس بعبادة، وإلا، لقال: أبقه، ولا تحلق منه شيئًا!

وهذه المسألة ينبغي التثبت فيها، ولا يحكم علىٰ شيء بأنه عبادة، إلا بدليل؛ لأن الأصل في العبادات المنع، إلا ما قام الدليل علىٰ مشروعيته» اهـ.

السابقين، وذلك لما خصهم الله به من العلم والفضل والفقه عن الله ورسوله فقد شاهدوا التنزيل وسمعوا التأويل وتلقوا عن الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلا واسطة أحد، فهم أحق بإصابة الصواب وأجدر باتباع السنة والكتاب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ **في «إعلام الموقعين»**: ومن المحال أن يكون الصواب في غير طريق من سبق إلىٰ كل خير علىٰ الإطلاق[(١)]. انتهىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠] وذلك متناولٌ لكل من اتبعهم إلىٰ يوم القيامة كما ذكر ذلك أهل العلم.

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ: للصحابة سنة يُعمل عليها ويُرجع إليها، ومن الدليل علىٰ ذلك أمور... ثم ساقها، وقال عبد الله بن مسعود: «من كان منكم مستنًّا فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد أبر هذه الأمة قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقهم وتمسكوا بهديهم فإنهم كانوا علىٰ الهدىٰ المستقيم[(٢)]. انتهىٰ.

فخيرُ قلوب العباد أحق الخلق بإصابة الصواب، فكل خيرٍ وإصابةٍ ومعارف ومكارم إنما عرفت ووصلت إلينا منهم رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ.

وقال الإمام أحمد: أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب

---

(١) انظر: «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (٤/ ١٠٦).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٢٦).

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ ولهذا كان اعتقاد الفرقة الناجية هو ما كان عليه أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما شهد لهم بذلك في قوله: «**من كانَ علىٰ مِثل ما أنا عليه اليومَ وأصحابي**»(١).

وأكثر العلماء علىٰ أن أقوال الصحابة حجة يجب اتباعها، ويحرم الخروج عليها حيث لا نص نبوي.

وقد غلط من زعم أن طريقة السلف، أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم، فإن هذا القائل لم يَعرف قدر السلف، بل ولا عرف الله ورسوله والمؤمنين حق المعرفة. كيف يكون هؤلاء المحجوبون المنقوصون الحيارىٰ أعلمَ بالله وأسمائه وصفاته وأحكامه من السابقين الأولين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان من ورثة الأنبياء الذين وهبهم الله علم الكتاب والحكمة وأحاطوا من حقائقه ومعارفه ما عجز أولئك عن فهم معانيه وإدراكه؟! ثم كيف يكون خير قرون هذه الأمة أنقصَ في العلم والحكمة -لاسيما العلم بالله وأحكام أسمائه وصفاته وآياته- من هؤلاء الأصاغر المنقوصين الحيارىٰ المتهوكين؟! ولا شك أن هذا القول إذا تدبره الإنسان وجده في غاية الجهالة، بل في غاية الضلالة(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٥٢٦-٥٣٩):**

«قوله: «مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ» المهاجرون: اسم لمن هاجر من مكة إلىٰ المدينة، والأنصار: هم الذين ناصروا المهاجرين، والأنصار إما من الأوس وإما من الخزرج، وهذان =

=

الاسمان «المهاجرون والأنصار» اسمان شرعيان، الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي سمىٰ هؤلاء المهاجرين وسمىٰ من نصرهم الأنصار؛ كما في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة:١٠٠] فهذا يدل علىٰ أن الأسماء التي في التعريف تجوز، شرط أن لا يُتَعَصَّبَ لها من دون اسم الإسلام والإيمان، فإحداث الأسماء في الإسلام غير اسم المسلم والمؤمن جائز بشرط أن لا يُتَعَصَّبَ له، لأن التَعَصُّبَ للأسماء من الجاهلية.

ويدل علىٰ ذلك أنه لما نادىٰ أحد المهاجرين في خصومةٍ بينه وبين الأنصار فقال: يا للمهاجرين -يندبهم لنصرته-، وقال الأنصاري: يا للأنصار -يندبهم لنصرته-، فبلغ ذلك النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**أبدعوىٰ الجاهلية وأنا بين أظهركم؟!**» [أخرجه الطبري في «تفسيره» (٤/ ٢٣) من طريقين عن زيد بن أسلم، وهو حديث مرسل من مراسيل زيد بن أسلم، فالحديث ضعيف] مع أن التعصب جاء علىٰ اسم شرعي سمىٰ الله عَزَّوَجَلَّ به أهله، وكان الاسم -وهو اسم المهاجري أو الأنصاري- للتعريف والوصف، فلما تحول إلىٰ اسم للتعصب عليه والنداء والنخوة به، ذمه النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وجعله من دعوىٰ الجاهلية.

وهذا فيه الدليل علىٰ وجوب لزوم الاسم الأول الذي هو اسم المسلم واسم المؤمن الذي سمانا الله عَزَّوَجَلَّ به، وسمانا به رسوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونادىٰ الله الناس في القرآن به: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [التوبة:٣٨]، ونحو ذلك، فإنما ناداهم باسم الإيمان دون غيره من الأسماء أو الصفات.

وهذا من جنس الأسماء المُحدثة في الإسلام مثل: الحنابلة، والشافعية، والمالكية، والحنفية، والظاهرية، ومن مثل المدارس السلوكية ونحو ذلك، فهذه الأسماء إذا كانت للتعريف فلا بأس بها، أما إذا تُعُصِّب لها أو اعتُقِد أن مَنْ هذا اسمه فهو علىٰ الحق وغيره علىٰ الباطل؛ فإن هذا ليس من طريقة أهل السنة بل رَدُّوا ذلك، حاشا التسمية بما كان عليه صحابة رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من اسم أهل السنة والجماعة، وأتباع السلف الصالح، وأهل الأثر، وأهل الحديث... ونحو ذلك، فإن هذه الأسماء نصرتُها والتعصب لها يعني التعصب لما اشتملت عليه من العقيدة الصحيحة، وهذا تعصبٌ لأصل الإسلام، وليس تعصبًا لمُحدث، فإذا تُعصِّب

=

=

لعقيدةِ أولئك فقد تُعصب للحق.

أما إذا تُعصب لاسمٍ دون ما تميز به ذلك الاسم فإن ذلك باطل ولا يجوز، مثل ما يحصل في هذا الزمن في بعض البلاد الإسلامية أنهم يتعصبون للأسماء هذه، وقد لا يكونون من أهل الاعتقاد الصحيح على وجه الكمال، مثل ما يتعصب في بعض البلاد أهل الحديث ضد السلفيين، واسم أهل الحديث في الأصل بمعنى أهل السنة والجماعة، واسم أتباع السلف الصالح بمعنى أهل السنة والجماعة، فهما بمعنى واحد.

لكن في هذا الزمن حصل هناك التعصب لأسماء دون ما احتوت عليه الأسماء؛ لأنها صارت لها أحوال أحزاب، أو تنافس، ونحو ذلك.

فالواجب: أن تكون مثل هذه الأسماء للتعريف، وأما الاجتماع فهو على العقيدة الصحيحة التي كان عليها أهل السنة والجماعة، فهي التي يُتَعَصَّبُ لها، وهي التي تنصر ويُدافَع عنها ويُدافَع عن أسماء أصحابها وأهلها.

وإذا كان الدفاع أو التعصب لاسمٍ دون الحقيقة فإن هذا نوع من أنواع الجاهلية.

فهذه الأسماء المُحدثة تكلم عنها شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «اقتضاء الصراط المستقيم» وفي غيره، فالواجب أن تُعرَفَ شروط جواز التسمي بهذه الأسماء.

وإذا كان الاسمان الشرعيان الأولان -المهاجرون والأنصار- قد صارا نوعًا من الجاهلية لمَا تُعُصِبَ لهما، مع أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي سماهم بذلك، دل على أن التسمية بغير ذلك إذا تُعصب له يكون من باب أولى نوعًا من أنواع الجاهلية.

إذا تبين ذلك فإننا نقول: إن التسميات الحادثة في هذه الأمة بأنواعها، سواء كانت لنسب، أو قبيلة، أو بلد، أو جنس، أو مذهب، أو طريقة، فإن الأحوال فيها ثلاثة:

الحال الأولى: أن تكون ممدوحة.

والحال الثانية: أن تكون مذمومة.

والحال الثالثة: أن تكون مُباحة.

أما الحال الأولى: وهي أن تكون ممدوحة، فهي إذا كانت التسميات مما تُمَيِّزُ المسلمين بما

=

نُصَّ في الكتاب والسنة علىٰ حسنه وعلىٰ اعتباره، فالله عَزَّوَجَلَّ سمىٰ المسلمين باسم الإسلام والإيمان، وكذلك وصف المتقين مع أن فيها تزكية، ووصف بالأبرار مع أن فيها تزكية، ونحو ذلك؛ فهذه تسميات هي من قبيل الأوصاف لاسم المسلم واسم المؤمن، وكل مسلم لديه تقوىٰ بحسبه، وكل مؤمن لديه تقوىٰ وبر بحسبه. وكذلك ما جاء بالوصف كلزوم السنة والجماعة، فاسم السنة واسم الجماعة هذه من الأسماء التي جاءت في الأحاديث وأصلها في القرآن؛ ولهذا يُسمىٰ خاصة أهل الإسلام أهل السنة والجماعة؛ لأنهم لزموا سنة النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولزموا الجماعة، والنبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو الذي أذن بهذه التسمية بقوله في حديث الافتراق لما قالوا: من هم؟ قال: «**هي الجماعة**»، ولذلك أئمة السلف وأهل الحديث أقاموا هذا الاسم مقام الأسماء المُحدثة، فلما تفرقت الأسماء وتعددت رجعوا إلىٰ الاسم الذي يميز أهل الإسلام المُتمسكين بالأمر الأول عما عداهم؛ لأنهم بين أمرين:

❊ إما أن يسلبوا اسم الإسلام عن أصحاب الأهواء المُحدثة، وهذا ليس بصحيح لأنهم مسلمون.

❊ وإما أن يصفوا من كان علىٰ الإسلام الأول باسم يُخَصُّون به ويكون منصوصًا عليه في الأدلة، فهذا يكون سائغًا.

وهذا إجماع منهم علىٰ أن من كان علىٰ الأمر الأول، فإنه يُسمىٰ -مثلًا- أهل السنة والجماعة، أو قد يُقال: أهل الحديث؛ لأن السنة هي الحديث، أو يُقال: أهل الأثر، أو أتباع السلف... ونحو ذلك، هذه كلها في معنىٰ واحد؛ لأنها ترجع بالأمر إلىٰ ما كانت عليه الجماعة الأولىٰ التي نص النبي صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ علىٰ أنها ناجية، فهذه تسمية ممدوحة.

الحال الثانية: الأسماء والدعاوىٰ المذمومة، وهذه مما حدث في الأمة من الأهواء المختلفة التي اتخذت لنفسها اسمًا يُخالف الاسم الذي كان عليه الصحابة؛ كالخوارج، والمُرجئة، والمُعتزلة وأشباه ذلك؛ لأنهم يدعون إلىٰ ذلك ويرون أنهم علىٰ صوابٍ فيه، وربما سموا أنفسهم أهل السنة والجماعة بأحد الاعتبارات، فكل تسمية فيها إشارة لمذهب يشتمل علىٰ باطل في العقيدة أو باطل في السلوك فإن التسمية في نفسها مذمومة، ولو لم يقترن بها شيءٌ

=

آخر، فكيف إذا اقترن بها التعصب؟ أو اقترنت بها بدع أخرىٰ أو أهواء أُخر؟! لهذا فإن الأصل ألا يخرج عن دعوىٰ الإسلام؛ كما قال شيخ الإسلام: «كل ما خرج عن دعوىٰ الإسلام والقرآن من نسب أو بلد أو جنس أو مذهب أو طريقة فهو من عزاء الجاهلية»، إلا ما أُذن به مما ذكرت أو سنذكر.

فإذًا: هذه التسميات كلها باطلة وتكون من عزاء الجاهلية؛ لأنها تُفرِّق، مثل: الطرق الصوفية المختلفة الأسماء، ويدخل فيها -أيضًا- الأسماء المُحدثة للجماعات الإسلامية بأنواعها، التي جعلت لها اسمًا يصدق عليه أنه اسم لحزب يُميز هذا الحزب عن غيره، كحزب التحرير مثلًا، وكحزب الإخوان المسلمين، وكجماعات أُخر تظهر في بلد دون بلد، فهذه تسميات مُحدثة، وهي مذمومة؛ لأن الاسم في نفسه مُشتمل علىٰ دعوىٰ تُفرِّق المسلمين، وتنصر من كان في هذا الحزب دون غيره.

ولهذا نقول: إن هذه الأسماء المُحدثة -الجماعات الإسلامية مثلًا، والأحزاب- علىٰ نوعين:

* منها ما هو للتعريف.

* ومنها ما هو للتنظيم.

فما كان منه للتعريف فالأصل في باب التعريف في الأسماء أنه واسع، مثل ما سيأتي تفصيله في الأسماء المباحة إن شاء الله تعالىٰ.

وأما ما كان من قبيل التنظيم، وأنه يُوالىٰ فيه ويُعادىٰ، ويُتعصب له دون غيره، ويُنصر صاحبه دون غيره، فهذا لا شك أنه من عزاء الجاهلية، وأعظم مما رغبوا فيه انتصار المهاجري باسم شرعي، وهو (المهاجرون)، وانتصار الأنصاري لاسم شرعي، وهو (الأنصار)، ومع ذلك لما انتصر لاسم ولأهله دون غيرهم صار من دعوىٰ الجاهلية بنص كلام النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فإذا كان الأمر في الأسماء المُحدثة وانتُصر لها ودُوفع عنها دون غيرها؛ بل ربما حُورب غير من كان معهم من المسلمين مع أنهم علىٰ طاعة وعلىٰ خير؛ فإن هذا يدخل في دعوىٰ الجاهلية وعزاء الجاهلية من باب أولىٰ.

والمتأمل اليوم ينظر إلىٰ أن واقع الجماعات الإسلامية بعامةٍ في الأسماء أن هذه التسميات لو

=

كانت للتعريف فقط لكان الأمر أسهل، لكنها ليست للتعريف؛ بل هي للدلالة علىٰ الحزب أو التنظيم، ولكي يتعارف أصحابها فيما بينهم، فتجد أن المسلم -مثلًا- يذهب اليوم إلىٰ بلد من البلاد فتجد أن أصحاب الحزب المُعين يسألون هذا مِن أي فئة أو أي جهة...؟ إلىٰ آخره، فإذا أُثنيَ عليه لأنه كان من هذه الجماعة المعينة، أو من أهل الحزب، أو أنه مُتعاطف معهم تبنوه، وإذا لم يكن بذاك -وإن كان عالمًا جليلًا وليس من تلك الفئة- فإنهم يرفضونه ويتواصون برفضه، مع أنه قد يكون عنده علم كبير بكلام الله عَزَّوَجَلَّ وكلام رسوله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وإذا جاءت مشكلة أو جاءت مُنافسة علىٰ شيء فإنهم يجتمعون علىٰ ذلك الاسم، ويتعصبون له دون غيره.

والذي نظر فيما أحدثته الحزبيات والأسماء في أقرب شيء إلينا -وهو ما حصل في أفغانستان في العشرين سنة الماضية - وجد ذلك ماثلًا في أن وجود الأحزاب والأسماء فيه لم تكن للتعريف، وإنما كانت للاجتماع عليها والتعصب لها دون غيرها، فلما خرج العدو ونصر الله عبادَه ظهرت المفاسد الأخرىٰ للتعصب المذموم للحزبيات هذه، فأوقعت المسلمين فيما بينهم.

وهذا كله يدل علىٰ أن كل مخلص لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وكل مخلص لدين الإسلام، وكل راغب في رفع راية الإسلام، يجب ألا يتعصب لاسم دون اسم الإسلام، بل يكون التعامل مع المسلمين علىٰ اسم الإسلام ما داموا علىٰ التوحيد، ولم يكونوا من أهل الشرك الأكبر، فإذا كان كذلك قرُبت.

ومن المتقرر عند أهل السنة والجماعة أن كل مسلم يُوالي بحسب ما عنده من الإسلام، وبحسب ما عنده من الإيمان، فوَلاية المسلم للمسلم تتبعض بقدر ما عنده من تحقيق الإسلام وتحقيق الإيمان، وهذا هو نظر السلف في الشرع فيما تعاملوا به مع الناس، أما الولاء والبراء، والحب والبغض، والمكايد، ونحو ذلك مما يحصل، فهذا كله من فعل الجاهلية، وأثر من آثار التسميات التي لا يُقرها أهل الحق البتة.

فإذًا نصل من ذلك إلىٰ أنَّ الأسماء المذمومة هذه في الجماعات أو في غيرها يجب علىٰ كل مخلص أن يسعىٰ إلىٰ ألا تبقىٰ في الناس، بل أن يبقىٰ المؤمنون إخوة يبحثون عن الحق في

كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وفي سنة رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وفي هدي السلف الصالح، ولو زالت هذه الشعارات وهذه الأسماء لزالت الشحناء من النفوس، ولاجتمع هذا العدد الكبير من المؤمنين علىٰ كلمةٍ سواء، وجاهدوا في الله حق جهاده، ولحصل أشياء يَمُنّ الله عَزَّوَجَلَّ بها إذا اجتمع العباد علىٰ كلمته.

أما إذا رضينا بعزاء الجاهلية، وبهذا الموجود، فالله المُستعان، وهذا ظاهر في أحوال كثير من المسلمين الآن، وقل من يتخلص منه، وواجب علىٰ العبد أن يكون الأمر بينه وبين ربه عَزَّوَجَلَّ، وأن يُخلص نفسه من الهوىٰ، وأن ينظر لكل مؤمن بميزان اسم الإسلام والإيمان، وأن يكون ميزانه هو ميزان أهل السنة والجماعة في ذلك، وألا يكون الميزان ميزان أحزاب أو تنظيمات، أو أن هذا من هؤلاء أو ليس منهم، ونحو ذلك من الأسماء.

كذلك مما يجب علىٰ عباد الله المؤمنين، ألا يُحدثوا أسماء تزيد من الافتراق، وهذا حصل ويحصل في كل زمن من أنه إذا تباغضت فئتان لمز هؤلاء باسم، والآخرون سموا أولئك باسم، فنشأت فرق جديدة، أو نشأت جماعات، أو نشأت مذاهب أو أفكار جديدة زادت من فُرقة المسلمين.

ومن قواعد أهل السنة والجماعة: أن البدعة لا تُرد ببدعة، والغلط لا يُرد بغلط، بل يُصبر، حتىٰ الإنسان إذا اعتُدي عليه ونيل منه يصبر ويحتسب عند الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يُقابل الباطل بباطل، أو يُقابل التسمية بتسمية، أو يُقابل البدعة ببدعة؛ لأن هذا يُفرق أكثر وأكثر ولا تجمع النفوس، وقد جُرِّب ذلك ووُجد أن انتصار الناس للأسماء أعظم من انتصارهم للحق، وقل من ينتصر للحق المُجرد، ولكنه إذا جاء الاسم فإنه يتحرك أكثر وأكثر، وجُرب هذا في أنه إذا ذُكر اسم أحد من المُعظمين عند أي فئة من الفئات -مثلًا- بشيء مما قد لا يليق أن يُذكر به، فستجد أن يُتعصب له ويُنتصر له أعظم مما لو خولفت مسألة شرعية، أو وقع الناس في مُنكر أو في باطل، وهذا من استيلاء عزاء الجاهلية علىٰ النفوس، وهذا كثير في كل بلاد المسلمين بلا استثناء، والله المُستعان.

لهذا الواجب علىٰ كل مخلص أن يسعىٰ إلىٰ أن يجمع الناس علىٰ كلمة سواء، فيها تحكيم

=

الكتاب والسنة، واتباع طريقة السلف، وإلغاء الأسماء، وعدم إحداث التعصبات التي قد تثير الناس وتفرق عن الاجتماع، وكل ناصح لابد أن يسعىٰ في ذلك، وأما إذا أقررنا في أي بلد كان هذه التسميات وسعينا فيها، أو أن أهلها رضوا بها، فإن الواقع لن يكون سارًّا لنا، وأمامنا تجارب كثيرة دلت علىٰ أن الفرقة لا تأتي بخير؛ كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «في الفُرقة عذاب».

والآن الناس في سعة، لكن لا ندري ما المستقبل، وربما تحول التراشق بالكلام إلىٰ تراشق بغيره؛ كما حدث في بعض البلاد.

لهذا أُوصي طلاب العلم علىٰ أن يجمعوا الناس علىٰ تقوىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، وعلىٰ لزوم الكتاب والسنة وطريقة السلف الصالح، وأنَّ إلزام الناس أو دعوتهم إلىٰ الكتاب والسنة وطريقة السلف الصالح يجب أن تكون مُتخلصة من التنابز بالألقاب والقدح، ومما يجعل النفوس تثور فيها ثوائر الجاهلية، ويثور فيها الغضب الباطل وحمية الجاهلية بعد أن أذهب الله عَزَّوَجَلَّ عنا ذلك، وإذا رضينا بما نحن عليه فإننا نرضىٰ بغير الحق، وواجب أن يُبرئ الإنسان ذمته تجاه ذلك، وألا يخوض فيما لا يُحب الله ويرضىٰ.

النوع الثالث: التسميات المُباحة، هي كل اسم أُحدث وكان للتعريف، وليس للموالاة والمُعاداة فيه أو للتعصب عليه، وأصل الإباحة في ذلك من الله عَزَّوَجَلَّ لما سمىٰ المهاجرين مهاجرين وصار هذا الاسم باقيًا عليهم، وسَمَّىٰ الأنصار كذلك، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نادىٰ قُريشًا باسمها، ونادىٰ القبائل باسمها، بل جعل في الحروب كل قبيلة لها جناح من الجيش ليكون ذلك أدعىٰ باجتهادهم وجهادهم لأعداء الله عَزَّوَجَلَّ. وهذا كله للتعريف، فإذا كانت الأسماء للتعريف فلا حرج في التعريف، سواء كانت النسبة هذه أو الأسماء لنسب القبائل أو لأسماء القبائل، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ [الحجرات:١٣]، فالتعريف لا بأس به بأي صفةٍ كانت.

وكذلك إذا كانت النسبة لمذهب من المذاهب مما لا يشتمل في نفسه علىٰ باطل؛ يعني أن يكون مؤسسًا علىٰ باطل، كالنسبة -مثلًا- للمذهب الحنبلي، والشافعي، والمالكي، والحنفي، ومذهب الظاهرية، ونحو ذلك، فهذه مذاهب للتعريف.

=

⊙ **قوله**: «حَيثُ قَالَ»: أي: في حديث العرباض بن سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**عَليكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلفاء الرَّاشدين...**»(١) الحديثَ، رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: حسنٌ صحيح، وقال الحافظ أبو نعيم: جيدٌ صحيح.

وفي هذا الحديث: الحث علىٰ التمسك بسنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

=

كذلك ما نسب إلىٰ مكان معين -إلىٰ بلد أو إقليم أو نحو ذلك- أو النسبة إلىٰ جنس، هذا كله للتعريف والأمر فيه واسع.

كذلك الطرق المختلفة والجمعيات أو الجماعات إذا كانت للتعريف فلا بأس بذلك.

ومثال ذلك: جماعات تحفيظ القرآن الكريم في هذه البلاد المباركة، موجودة باسم الجماعة، ولا تشتمل علىٰ موالاة لمن فيها ومُعاداة علىٰ من ليس فيها؛ وذلك أن الاسم للتعريف ليس إلا، ولتنظيم العمل، وهذا أمرٌ سائغ؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أذن بالأسماء خلاف اسم المسلمين والمؤمنين.

وهذه الأسماء في نفسها إذا تحولت إلىٰ تعصب وموالاة ومُعاداة، فإنه يجب إبطال هذا التعصب وهذه الموالاة والرجوع إلىٰ الأصل في ذلك. فإذا أتىٰ -مثلًا- أتباع المذهب الشافعي وأتباع المذهب المالكي وتعصبوا لأنفسهم ضد مذهب آخر لينتصروا لمذهبهم، كان هذا من عزاء الجاهلية.

وكذلك إذا أراد أهل قبيلة ما أن ينتصروا لقبيلتهم ضد قبيلة أخرىٰ، وكان هذا بمجرد الاسم كان هذا من عزاء الجاهلية.

كذلك كل ما يتصل بهذه الأسماء المُباحة لو أرادوا أن ينتصروا للاسم، وأن يوالوا ويُعادوا عليه، وأن يُضعفوا اسم الإسلام أو أثر الإسلام والإيمان، هذا كله من آثار الجاهلية في ذلك» اهـ.

(١) سبق تخريجه.

ووجوب اتباعها، وفيه قَرَنَ سنة الخلفاء الراشدين بسنته ووجوب اتباعها مع عدم وجود سنته، وفيه أن للخلفاء سنة وأن الأخذ بها واتباعها رشادٌ وهدىً، وفيه أن ما سنَّه الخلفاء الراشدون أو أحدهم حجة لا يجوز العدول عنها بخلاف غيرهم من ولاة الأمور، ولحديث: «**اقْتَدوا باللَّذَين مِن بعدي: أبي بكر وعُمرَ**»[(١)]، ولو لم تقم الحجة بقولهم لما أمرنا باتباعهم، وهذا القول هو الحق.

⊙ **قوله**: «**وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ**»: وهم الخلفاء الأربعة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، كما في حديث سفينة: «**الخِلافة بعدي ثلاثون سَنَة ثم يكون مُلكًا**»[(٢)] رواه أحمد وصححه ورواه غيره، وإنما وصف الخلفاء بالراشدين؛ لأنهم عرفوا الحق وقضوا به، والراشد ضد الغاوي، والغاوي من عرف الحق وعمل بخلافه.

⊙ **قوله**: «**المَهْدِيِّينَ**»: يعني: أن الله -سبحانه- يهديهم إلىٰ الحق ولا يضلهم عنه، فالأقسام ثلاثة: راشدٌ، وغاوٍ، وضال، فالراشد: عرف الحق واتبعه، والغاوي: عرفه ولم يتبعه، والضال: لم يعرفه بالكلية. انتهىٰ من كلام ابن رجب[(٣)].

⊙ **قوله**: «**تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**»: هذا كنايةٌ عن شدة التمسك بها، والنواجذ: آخر الأضراس.

⊙ **قوله**: «**وَمُحْدَثَاتِ**»: بضم الميم وسكون الحاء، جمع مُحدَثة، والمراد بها:

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٦٢)، وابن ماجه (٩٧)، وغيرهما من حديث حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٣٣).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: «جامع العلوم والحكم» (٢/ ١٢٦).

البدع، والبدعة لغةً: كل شيءٍ عُمل علىٰ غير مثالٍ سابق، وأما البدعة الشرعية: فهي ما لم يدل عليه دليلٌ شرعي، فلفظ البدعة في اللغة أعم من لفظ البدعة في الشريعة، وهذا الحديث دل علىٰ التحذير من البدع والرد علىٰ من زعم تقسيم البدعة إلىٰ حسنة وقبيحة، وأما قول عمر: «نعمت البدعة» فالمراد بها: البدعة اللغوية؛ إذ أصل صلاة التراويح مشروعة؛ فقد صلاها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصحابه ثم تركها لما خشي أن تفرض عليهم.

وتنقسم البدعة إلىٰ قسمين:

بدعة اعتقادٍ، وهو اعتقاد خلاف ما أخبر به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كقوله: «**ستَفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين فِرقة كلُّها في النار إلا واحدة**» قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «**مَن كان علىٰ مثل ما أنا عليه وأصحابي**»(١).

الثانية: بدعةٌ عملية، وهو التعبد بغير ما شرع الله ورسوله، فمن تعبد بغير الشرع أو حرم ما لم يحرمه الشارع فهو مبتدع، والبدعتان غالبًا متلازمتان قلَّ أن تنفك إحداهما عن الأخرىٰ.

قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ اللَّهُ: اعلم أن المحدَث علىٰ قسمين: محدَث ليس له أصلٌ من الشريعة، فهذا باطلٌ مذموم، ومحدث يحمل النظير علىٰ النظير فهذا ليس بمذموم؛ لأن البدعة ولفظ المحدث لا يذمان لمجرد الاسم، بل لمعنىٰ مخالفة السنة، والداعي إلىٰ الضلالة، ولا يذم ذلك مطلقًا، فقد قال سبحانه: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن

---

(١) سبق تخريجه.

ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢] الآية، وقال عمر: نعمة البدعة هذه؛ يعني التراويح(١).

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأصل ضلال أهل الأرض إنما نشأ من هذين: إما اتخاذ دين لم يشرعه الله، أو تحريم ما لم يحرمه الله، ولهذا كان الأصل الذي بنىٰ عليه الإمام أحمد وغيره من الأئمة مذاهبهم: أن أعمال الخلق تنقسم إلىٰ عبادات يتخذونها، وإلىٰ عادات ينتفعون بها في معائشهم، فالأصل في العبادات: أن لا يُشرع إلا ما شرعه الله ورسوله، والأصل في العادات: أن لا يُحظر منها إلا ما حظره الله(٢). اهـ.

قال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: العبادات مبناها علىٰ التوقيف والاتباع لا علىٰ الاختراع والابتداع، فالأصل في العبادات التحريم إلا ما شرعه الله ورسوله؛ ولهذا يشترط للعبادة شرطان: الإخلاص، والمتابعة، كما في «الصحيح» من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«مَن أحدَثَ في أمرِنا هذا ما ليس منه فهو رَدٌّ»**(٣)، أي: مردودٌ كائنًا ما كان، وفي «صحيح مسلم» عن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه كان يقول في خطبته: **«إنَّ خيرَ الحديث كتابُ الله، وخيرَ الهَدي هديُ مُحمَّدٍ** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **وشرَّ الأمور مُحدَثاتُها، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ»**(٤) وفي رواية النسائي:

---

(١) انظر: «شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية» (٩٨).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ١٩٦).

(٣) أخرجه البخاري (٢٥٥٠)، وغيره من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٤) أخرجه مسلم (٨٦٧)، وأحمد (٣/ ٣٧١)، وغيرهما من حديث جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

«وكل ضَلالةٍ في النار»(١) وقال عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم، وقال الأوزاعي رَحِمَهُٱللَّهُ: عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوه لك بالقول، إلىٰ غير ذلك من الأدلة علىٰ تحذير الأمة من اتباع الأمور المحدثة المبتدعة، وتقدم أن المراد بالبدعة ما أحدث مما لا أصل له من الشرع يدل عليه، وأما ما كان له أصل من الشرع يدل عليه فليس ببدعةٍ شرعًا، وإن كان بدعةً لغة(٢).

---

(١) «السنن الصغرىٰ» (١٥٧٨).

(٢) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٥٤٩-٥٥١):**

«الأمر الثاني: العلاقة بين البدع والتبديع، اعلم أن لا مُلازمة بين كون الرجل يأتي بالبدعة وكونه مُبتدعًا، فإنه قد يعمل ببدعة ولا يُطلق عليه لفظ المُبتدع؛ لأن هذه الثنائية لا تلازم بينها، فلا تلازم بين البدعة والتبديع، ولا تلازم بين الكفر والتكفير، ولا تلازم بين الفسق والتفسيق، فقد يعمل الرجل بالفسق ولا يُسمىٰ فاسقًا، وقد يعمل بالبدعة ولا يُسمىٰ مُبتدعًا، وقد يعمل بالكفر ولا يُطلق عليه أنه كافر؛ وذلك لأن من شرط هذه الأسماء أن تُقام الحُجة علىٰ من قام به أحد تلك الأعمال.

* إذا قامت الحجة علىٰ من عمل ببدعة، وصدف عنها، ولم يتبع الحجة التي قال بها أهل العلم، وأعلمه إياها أهل العلم، فإنه يُصبح مُبتدعًا.

* كذلك الفسق لا يلزم لكون الرجل يعمل كبيرة أن يكون فاسقًا، الفاسق هو من يعمل الكبيرة، أما الصغائر فلا يُسمىٰ فاعلها فاسقًا، ولا يُسمىٰ فاسقًا حتىٰ تُقام عليه الحُجة، ويُبين له، ثم لا يأبه لذلك.

* كذلك الكفر قد يقوم الكفر بأحد، يعني: يعمل عملًا شركيًا، أو عملًا كُفريًا، لكن لا نُسميه مُشركًا أو كافرًا حتىٰ تقوم عليه الحُجة.

=

وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلَامِ كَلَامُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ، فَيُؤْثِرُونَ كَلَامَ اللهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كَلَامِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ؛ وَبِهَذَا سُمُّوا (أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ)، وَسُمُّوا (أَهْلَ الْجَمَاعَةِ)؛ لِأَنَّ الْجَمَاعَةَ: هِيَ الِاجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ.

• الشَّرح •

⊙ **قوله:** «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ... إلخ»: فلا أحد أصدق منه قولًا ولا خبرًا، فكل ما أخبر به سبحانه فهو صدقٌ وحقٌّ لا مرية فيه ولا شك، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧]، وقال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته

=

وهذه قاعدة مهمة بينها الأئمة في غير ما موضع، لكن كيف تُقام الحجة؟ هذا له بحث آخر.

لما ذكرنا تعريف البدعة ذكرنا لفظ الملازمة وزدناه علىٰ تعريف الشاطبي، وهذا مهم قد نبه عليه شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره؛ وذلك لأن من عمل عملًا لم يلتزمه فإنه يكون عمل عملًا علىٰ خلاف السنة، ولكن لم يلتزمه ولم يجعله طريقة تُطرق وتُتبع وتُسلك، وإنما فعله مرة أو مرتين، فإنه يُعد مخالفًا للسنة في هذا العمل ويُقال: أخطأ فلان في كذا وكذا، ونحو ذلك، أما إذا لازمه فيكون بملازمته لهذا العمل أو العمل المُلازم عليه ليُضاهي به المشروع يكون بدعة، فليس كل مخالفة للسنة تُعد بدعة، فمن أخطأ خالف السنة، لكن لا يُعد مُبتدعًا إلا إذا لزمه، وكذلك يكون عمله خلافًا للسنة لكن لا يُعد مُبتدعًا» اهـ.

واشتد غضبه حتىٰ كأنه منذر جيش يقول: «**صَبَّحكم ومسَّاكم، ويقول: أمَّا بعدُ، فإن خيرَ الحديث كتابُ الله، وخَيرَ الهَدي هديُ مُحمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأُمُور مُحدَثاتُها، وكلَّ بِدعةٍ ضَلالةٌ**»(١) رواه مسلم(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٥٥١-٥٥٣):

«وفي هذا المقام لابد من إيضاح الفرق ما بين البدعة والمصلحة المُرسلة: والبدعة فهمنا معناها وتعريفها، أما المصلحة المُرسلة فهي مُختلفٌ فيها في التعريف:

فمن أهل العلم من يُعد العبادات التي أحدثها الخلفاء الراشدون من المصالح المرسلة، ومنهم من يُقيد المصلحة المرسلة بالدنيا.

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وعدد من المحققين علىٰ القول الأول يجعلون المصلحة المرسلة ما لم يقم المقتضي لفعله في زمن النبي ﷺ ولم يفعله ﷺ، يعني لم يقم المقتضي للفعل في عهده ثم فُعِلَ من العبادات، فهذا يُعَدُّ مصلحةً مرسلة، مثل الأذان الأول، ونحو ذلك، فهي عند شيخ الإسلام من المصالح المرسلة، يعني في عهده ﷺ لم يقم المقتضي للفعل بعد ذلك من أمور العبادات. وكذلك من أمور الدنيا ما لم يقم المقتضي لفعلها في عهده ﷺ، وقام بعد ذلك، فتُسمىٰ مصلحةً مرسلة؛ لأن الشارع أرسل العمل بها، ولم يقيد العمل بما كان في وقته ﷺ.

والثاني من الأقوال: أن المصلحة المرسلة ما كان من أمر الدنيا، وما كان فيه تيسير العمل وتيسير أمور الناس في دنياهم.

فتكون المصلحة المرسلة مفارقة للبدعة من جهتين:

الأولىٰ: أن البدعة في الدين في العبادة، وأما المصلحة المرسلة فهي في الدنيا.

الثاني: أن البدعة تقصد لذاتها -كما قال الشاطبي في تعريفه- فيقصد بالسلوك عليها المبالغة في =

⊙ **قوله:** «**وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ**»: الهَدي بفتح الهاء وسكون الدال: السَّمْت والطريقة والسيرة، وقرئ بالضم، أي: الدلالة والإرشاد، والمراد: تفضيل دينه وسنته علىٰ سائر الأديان والسنن، فدينه ﷺ أكمل الأديان علىٰ الإطلاق، وشريعته أفضل الشرائع اختارها الله لخيرته من خلقه ولأمته خير أمة أخرجت للناس، وجعلها حجةً باقيةً إلىٰ يوم القيامة لا يتطرق إليها النسخ ولا يعتريها التبديل والتغيير الذي وقع في الشرائع قبلها؛ ولهذا المعنىٰ الذي ذكرناه كان كل عاقل من اليهود والنصارىٰ -كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية-: يعترف بأن دين الإسلام حقٌّ وأن محمدًا رسول الله، وأن من أطاعه منهم دخل الجنة، بل كثيرٌ منهم يعترفون بأن دين الإسلام خيرٌ من دينهم كما أطبقت علىٰ ذلك الفلاسفة، كما قال ابن سينا: أجمع فلاسفة العالم علىٰ أنه لم يطرق العالم ناموس أعظم من هذا الناموس.

ولا شك أن هذه الشريعة العظيمة الكاملة من دلائل نبوته ﷺ،

=

التعبد، وأما المصلحة المرسلة فهي لأمر الدنيا لا يقصد بها المبالغة في التعبد، والمصلحة المرسلة وسيلة لتحقيق كلي من كليات الشريعة، وأما البدعة فهي ليست وسيلة وإنما هي مقصودة ذاتًا.

هذا هو الفرق بين البدعة والمصلحة المرسلة، والذي يظهر لي ويترجح هو القول الثاني، أما قول شيخ الإسلام ابن تيمية فكأنه لا ينضبط في بعض المسائل من المحدثات فيما يظهر لي.

وما أُحدِثَ في عهد الخلفاء الراشدين ندخله ضمن قول النبي ﷺ: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي**»، فهي سنة الخلفاء وليست مصلحة مرسلة، والخلاف من جهة اللفظ، أما من جهة التطبيق فيتفق الجمهور مع قول شيخ الإسلام رحمه الله تعالىٰ» اهـ.

وكذلك أخلاقه وأقواله وأفعاله وسيرته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلها من آياته ودلائل نبوته، كما أشار إلىٰ ذلك الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد جبله الله عَزَّ وَجَلَّ علىٰ أجمل الأخلاق وأزكاها واختار له أفضلها وأولاها، وأخلاقه مقتبسة من القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، قال العوفي عن ابن عباس: «وإنك لعلىٰ دينٍ عظيم» وهو دين الإسلام.

وفي «صحيح مسلم» عن سعيد بن هشام قال: «سألت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عن خلق رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقالت: أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلىٰ، فقالت: كان خلقه القرآن»(١) ومعنىٰ هذا: أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مهما أمره الله به في القرآن امتثله ومهما نهاه عنه اجتنبه، هذا ما جبله الله -سبحانه- عليه من الأخلاق الجِبِلِّيَّة الأصلية العظيمة التي لم يكن أحدٌ من البشر، ولا يكون علىٰ أجمل منها، فكان فيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحياء والكرم والشجاعة والحلم والصفح وسائر الأخلاق الكاملة ما لا يحد ولا يمكن وصفه، وقد خرَّج الإمام أحمد في «مسنده» من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكارِمَ الأخلاقِ**»(٢).

⊙ **قوله: «وَيُؤْثِرُونَ كَلَامَ اللهِ...إلخ»**: أي: يقدمون كلام الله علىٰ كلام غيره من خلقه كائنًا من كان، ولا يعدلون عنه ولا يعارضونه بمعقولٍ ولا قول فلان، فإنه الفرقان المفرِّق بين الحق والباطل، والنافع والضار، وهو الإمام الذي يجب اتباعه

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦)، وأحمد (٦/ ٩٤)، وغيرهما من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٨١)، والحاكم (٤٢٢١)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٥).

والرجوع إليه عند التنازع؛ إذ لا سعادة في الدنيا والآخرة إلا بالاعتصام بحبل الله، ولا نجاة إلا بالتمسك بما جاء في كتابه، فإنه الشفاء والنور والحياة الحقيقية، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، قال قتادة والسُّدِّيُّ وكثيرٌ من أهل التفسير: هو القرآن، وقال عبد الله بن مسعود عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «إن هذا القرآن هو حبل الله، وهو النور المبين، والشفاء النافع، وعصمةٌ لمن تمسك به، ونجاةٌ لمن اتبعه»(١).

وقال علي بن أبي طالب عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في القرآن: «هو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تختلف به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلَق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، من قال به صدق، ومن عمل به أُجر، ومن حكم به عدل، ومن دُعي إليه هُدي إلىٰ صراط مستقيم»(٢).

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قال: جمع الله في هذا الكتاب علم الأولين والآخرين وعلم ما كان وعلم ما يكون، والعلم بالخالق أمره وخلقه، أخرجه ابن رزين. انتهىٰ.

وقد سماه عَزَّوَجَلَّ رُوحًا؛ لتوقف الحياة الحقيقية عليه، ونورًا؛ لتوقف الهداية عليه، قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ

---

(١) أخرجه الدارمي (٣٣١٥)، والحاكم (٢٠٤٠)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٠٦)، والدارمي (٣٣٣١)، وغيرهما من حديث علي رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٠٨١).

وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢)﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، والرد إليه هو الرد إلىٰ كتابه، والرد إلىٰ الرسول هو الرد إليه في حياته، والرجوع إلىٰ سنته بعد وفاته، وهذا معناه بإجماع المفسرين، فيجب الرجوع إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله، ولا يجوز العدول عنها ولا معارضتها ولا الاعتراض عليها، ففيها غاية البغية وفصل النزاع، قال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

⊙ **قوله:** «وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...**إلخ**»: أي: يقدمون شرعه ودينه، فدينه أكمل الأديان علىٰ الإطلاق، وشريعته أفضل الشرائع، فمن ادعىٰ أن هدي غير محمدٍ أفضل من هديه، أو ادعىٰ غناه عن الرسالة بمكاشفة أو مخاطبة أو عصمة، سواء ادعىٰ ذلك لنفسه أو لغيره فهو من أضل الناس، بل من اعتقد أنه يجوز له فإنه يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل كائنًا من كان، ذكر ذلك شيخ الإسلام تقي الدين في كتابه «الفرقان»(١).

وكذلك من زعم أن الشريعة قاصرة وأنها لا تساير الزمن، وأنه يسوغ له سن النظم والتعليمات لكل زمانٍ بما يناسبه علىٰ زعمه، أو زعم أن النظم الإفرنجية أحسن من نظام الشريعة أو نحو ذلك من الأقوال فهو زنديق.

---

(١) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (٥١، ٧٨).

⊙ **قوله**: «**وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ**»: وذلك لاتباعهم للكتاب والسنة الثابتة عن نبيهم في الأصول والفروع، والأخذ بهما وتحكيمهما في القليل والكثير والاستغناء بهما وتقديمهما علىٰ قول كل أحدٍ كائنًا من كان، بخلاف الخوارج والمعتزلة والروافض ومن وافقهم في بعض أقوالهم، فإنهم لا يتبعون الأحاديث التي رواها الثقات عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فالمعتزلة يقولون: هذه أخبار آحاد، والرافضة يطعنون في الصحابة ونقلهم، والخوارج يقول قائلهم: اعدل يا محمد، فإنك لم تعدل!! فيجوِّزون علىٰ النبي أنه يظلم.

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللَّهُ: السنة ما كان عليه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته في عهده مما أمرهم به، أو أقرهم عليه، أو فعله هو[(١)].

⊙ **قوله**: «**وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ... إلخ**»: لاجتماعهم علىٰ آثار الرسول والاستضاءة بأنواره وتحكيمه في القليل والكثير، فالجماعة هم المجتمعون الذين ما فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، والذين فرقوا دينهم خارجون عن الفرقة الناجية وقد برأ الله نبيه منهم، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] الآية.

قال في «المرقاة»[(٢)]: المراد بالجماعة: أهل الفقه والعلم الذين اجتمعوا علىٰ اتباع آثاره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في النقير والقطمير، ولم يبتدعوا بالتحريف والتغيير، وقال

---

(١) انظر: «مختصر منهاج السنة» (١/ ١٢١).

(٢) انظر: «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» (١/ ٢٦٠).

بعض العلماء: المراد بالجماعة من كان على الحق ولو واحدًا؛ وذلك لأن الحق هو ما كان عليه الجماعة في الصدر الأول، وقد تكاثرت الأدلة في الحث على الاجتماع والنهي عن التفرق والاختلاف، قال تعالىٰ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٥٩]، وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، قال ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة.

وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّ ذئبَ الإنسان كذئب الغَنم يأخذُ الشَّاردة القاصيةَ، فإياكم والشِّعاب، وعليكم بالجَماعة والعامَّةِ والمَسجد**»[1] وورد: «**الجماعةُ رَحمة والفُرقة عذاب**»[2] وورد عن ابن مسعود أنه قال: «الخلاف شر»[3]، وحديث: «**إنَّ أهلَ الكتاب افترَقوا على ثِنتين وسبعين مِلَّة، وأن هذه الأمةَ ستَفترق على ثلاثة وسبعين ملة...**»[4]، يعني: الأهواء كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة، إلى غير ذلك من الأدلة في الحث على الاجتماع وذم الاختلاف والتفرق.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣٢)، والحاكم (٣٤٤)، وغيرهما من حديث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «شرح العقيدة الطحاوية» (٥٧٨).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٥)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٦٧).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٢٢/ ٤٠٧).

(٤) سبق تخريجه.

وينقسم الاختلاف إلىٰ قسمين: اختلاف تنوعٍ، واختلاف تضاد.

فالأول: هو ما يكون القولان أو الفعلان مشروعين، كما في أنواع الاستفتاحات وأنواع القراءات والآذان ونحو ذلك مما قد شرع جميعه.

وأما اختلاف التضاد: فهما القولان المتنافيان؛ إما في الأصول، أو في الفروع.

◈ ◈ ◈

والإِجْمَاعُ: هُوَ الأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ.

وَهُمْ يَزِنُونَ بِهَذِهِ الأُصُولِ الثَّلَاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ وظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ.

والإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ: هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الاخْتِلَافُ، وَانْتَشَرَتِ الأُمَّةُ.

الشَّرح

⊙ **قوله:** «وَالإِجْمَاعُ»: الإجماع يطلق لغةً: علىٰ العزم، كما قال سبحانه: ﴿فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ﴾ [يونس: ٧١]، وقال ﷺ: «**لا صِيامَ لمَن لم يجمعِ الصِّيَامَ من الليل**»(١)، وهذا يتأتىٰ من الواحد والجماعة، ويراد به -أيضًا- الاتفاق، واصطلاحًا: هو اتفاق علماء العصر من الأمة علىٰ أمرٍ ديني، وهو حجةٌ قاطعةٌ يجب العمل به عند الجمهور، وأنكره بعض المبتدعة من المعتزلة والشيعة.

والدليل علىٰ حجية الإجماع: قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥]، وعن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعًا: «**لا تَجتمع هذه الأمةُ علىٰ ضلالةٍ أبدًا**»(٢) رواه الترمذي، وعن أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «**لا تجتمعُ هذه الأمةُ علىٰ**

---

(١) أخرجه الترمذي (٧٣٠)، والنسائي (٢٣٣٦)، وابن ماجه (١٧٠٠)، وغيرهم من حديث حفصة رضي الله عنها، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٥١٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٦٧)، والحاكم (٣٩٤)، وغيرهما من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، =

ضلالةٍ، فإن رأيتم الاختلافَ فعليكم بالسَّواد الأعظم: الحقِّ وأهْلِه»[١] رواه ابن ماجه. وعن أبي ذر مرفوعًا: «عليكم بالجماعَة، فإن الله لم يجمع أمتي إلا علىٰ هدىٰ»[٢] رواه أحمد.

وعن أبي ذر مرفوعًا: «مَن فارق الجماعةَ شبرًا فقد خلع رِبقةَ الإسلام من عنقه»[٣] رواه أحمد وأبو داود، وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رآه المسلمون سيئًا فهو عند الله سيئ»[٤]، رواه أبو داود الطيالسي وأخرجه البزار وأبو نعيم في ترجمة ابن مسعود.

⊙ **قوله:** «**وَهُوَ الأَصْلُ الثَّالِثُ...**»: الأصل لغةً: أسفل الشيء وأساسه، واصطلاحًا: ما بني عليه غيره.

⊙ **قوله:** «**الثَّالِثُ**»، أي: من الأدلة التي هي الكتاب والسنة، والثالث هو الإجماع، ولم يزل أئمة الإسلام علىٰ تقديم الكتاب علىٰ السنة، والسنة علىٰ

=

وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٤٨).

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٠)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٦٩٦٠)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٨١٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٤٥)، من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الألباني: موضوع، «ضعيف الجامع» (١٣٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٥٨)، وأحمد (٥/ ١٨٠) وغيرهما من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٦١٠).

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٣٧٩)، والطيالسي (٢٤٦) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ موقوفًا عليه.

الإجماع، وجعل الإجماع في المرتبة الثالثة، قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الحجة كتاب الله وسنة رسوله واتفاق الأئمة.

وروى الترمذي في «جامعه» عن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال له لما بعثه إلى اليمن: «**كيف تَقضي؟**» قال: أقضي بما في كتاب الله، قال: «**فإن لم يكن في كتاب الله؟**» قال: بسنة رسول الله، قال: «**فإن لم يكن في سنة رسول الله؟**» قال: اجتهد برأيي، قال: «**الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله**»(١). اهـ.

⊙ **قوله**: «**الَّذِي يُعْتَمَدُ فِي الْعِلْمِ وَالدِّينِ**»: أي: يستند ويركن إليه للأدلة الكثيرة الدالة على عصمة هذه الأمة من الاجتماع على ضلالة، وأن الإجماع -كما تقدم- حجةٌ قاطعةٌ يجب العمل به لما تقدم.

⊙ **قوله**: «**وَهُمْ يَزِنُونَ... إلخ**»: أي: أن أهل السنة والجماعة يعرضون جميع الأقوال والاعتقادات على هذه الأصول الثلاثة -وهي الكتاب والسنة والإجماع- ويجعلون هذه الأصول الثلاثة هي المعيار التي توزن به الأعمال؛ إذ لا حجة إلا في هذه الأصول المتقدمة، وأما القياس ففيه خلافٌ معروف.

⊙ **قوله**: «**مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ**»: أي: كصلاةٍ وصيامٍ وحجٍّ وزكاةٍ ومعاملاتٍ ونحو ذلك، أما ما لا تعلق له بالدين كأمور المعائش والعادات، فالأصل فيه الإباحة، فالإجماع ليس بحجة فيها، قال الكوراني: لا معنى للإجماع في ذلك؛ لأنه ليس أقوى

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٩٢)، والترمذي (١٣٢٧)، وغيرهما من حديث معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «المشكاة» (٣٧٣٧).

من قوله ﷺ، وهو ليس دليلًا لا يخالف فيه، واستدل علىٰ ذلك بما روىٰ مسلم في «صحيحه» عن أنس أن النبي ﷺ قال: «أنتم أعلمُ بأمر دنياكم»(١).

⊙ **قوله:** «والإِجمَاعُ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ...» إلخ: أي: من عبادات ومعاملات وغير ذلك.

⊙ **قوله:** «مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ»: احترازًا من اتفاقهم علىٰ أمرٍ دنيوي؛ كإقامة مصنعٍ أو حرفةٍ أو متجرٍ أو نحو ذلك، فإن ذلك ليس إجماعًا شرعيًّا. قال في «اللمع»: أما أمور الدنيا كتجهيز الجيوش وتدبير الحروب والعمارة والزراعة وغيرها من مصالح الدنيا فالإجماع ليس بحجة فيها؛ لأن الإجماع فيها ليس بأكثر من قول الرسول ﷺ، وقد ثبت أن قوله إنما هو حجةٌ في أحكام الشرع دون مصالح الدنيا؛ ولهذا روي أنه نزل منزلًا فقيل له: إنه ليس برأي؛ فتركه.

⊙ **قوله:** «الإِجمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ...» إلخ: أي: الإجماع الذي ينضبط، أي: يحفظ ويضبط ضبطًا تامًّا بدون نقص، ويمكن العلم به هو ما كان عليه السلف الصالح لا ما بعد ذلك، فتعذر العلم به غالبًا لانتشار الإسلام وكثرة العلماء وتفرقهم في البلاد، فالعلم بحادثةٍ واحدةٍ انتشرت في جميع الأقطار، ووقف كل مجتهدٍ عليها، ثم أطبقوا فيها علىٰ قولٍ واحد، هذا مما لا تساعد العادة علىٰ وقوعه فضلًا عن العلم به، وهذا هو الذي أنكره أحمد وغيره لا وقوع الإجماع.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٣)، وأحمد (٣/ ١٥٢)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال الإسنوي: ولأجل هذه الاحتمالات، قال الإمام أحمد: من ادعىٰ الإجماع فهو كاذبٌ. قال أبو المعالي: والإنصاف أنه لا طريق لنا إلىٰ معرفة الإجماع إلا في زمن الصحابة، وقال البيضاوي: إن الوقوف عليه لا يتعذر في أيام الصحابة، فإنهم كانوا قليلين محصورين ومجتمعين في الحجاز، ومن خرج منهم بعد فتح البلاد كان معروفًا في موضعه، وقال ابن بدران في «شرح روضة الناظر» بعد ذكر ما تقدم، قلت: وهو الحق البين(١). انتهىٰ.

وقال ابن القيم رحمه الله في «الإعلام»: وليس عدم علمه بالمخالف إجماعًا، وقد كذَّب أحمد من ادعىٰ الإجماع، وكذلك الشافعي في رسالته الجديدة، علىٰ أن ما لا يعلم فيه بخلاف لا يقال له: إجماع، وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي يقول: ما يدَّعي فيه الرجل الإجماع فهو كاذبٌ، لعل الناس اختلفوا، هذه دعوىٰ بشر المريسي والأصم، فهذا هو الذي أنكره أحمد والشافعي لا ما يظنه بعض الناس أنه استبعادٌ لوجوده(٢).

◇ ◇ ◇

(١) انظر: «نزهة الخاطر العاطر» (١/ ٢٧٦).

(٢) انظر: «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (١/ ٢٤).

ثُمَّ هُمْ مَعَ هَذِهِ الأُصُولِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ.

الشَّرح

⊙ **قوله:** «ثُمَّ هُمْ»: أي: أهل السنة والجماعة.

⊙ **قوله:** «مَعَ هَذِهِ الأُصُولِ المُتَقَدِّمَةِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ»، كما وصفهم الله بذلك فقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٠٤﴾ [آل عمران: ١٠٤].

وفي «صحيح مسلم» والترمذي وغيرهما عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«مَن رأىٰ منكم منكرًا فليُغيِّره بيده، فإن لم يَستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان»**(١)، فما تقدم دليلٌ علىٰ عظم شأن الدعوة إلىٰ الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنهما من أعظم الواجبات، وأصلٌ عظيمٌ من أصول الشريعة، ولولا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لهدم بنيان الشريعة وتداعىٰ، وعمت الفوضىٰ وساءت البلاد، نسأل الله العافية، والأدلة علىٰ الحث علىٰ الأمر بالمعروف والترغيب فيه والوعيد الشديد في إهماله والتساهل فيه كثيرةٌ جدًّا. انتهىٰ.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩)، والترمذي (٢١٧٢)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والمعروف: اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح.

والمنكر: اسم جامعٌ لكل ما يكرهه الله ونهىٰ عنه. انتهىٰ «اقتضاء الصراط المستقيم»(١).

وقد تطابق علىٰ وجوبهما الكتاب والسنة والإجماع، وهما -أيضًا- من النصيحة، ولم يخالف في ذلك إلا بعض الرافضة كما ذكره إمام الحرمين(٢)، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية مختصان بأهل العلم والدين، والذين يعرفون كون ما يأمرون به وما ينهون عنه من الدين، فإن كان الذي علم بالمنكر واحدٌ تعيَّن عليه الإنكار، أو كانوا جماعة، لكن لا يحصل المقصود إلا بهم جميعًا تعين عليهم.

ويشترط في وجوب الإنكار: أن يأمن المُنكِر علىٰ نفسه وأهله وماله، فإن خاف علىٰ نفسه السيف أو السوط أو النفي أو نحو ذلك من الأذىٰ سقط عنه أمرهم ونهيهم، فإن خاف السب أو سماع الكلام السيئ لم يسقط عنه الإنكار بذلك، نص عليه أحمد، فإن احتمل الأذىٰ وقوي عليه فهو أفضل، نص عليه أحمد -أيضًا- وقيل له: أليس قد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: **«ليس للمُؤمن أن يذل نفسه»**(٣) أي: يعرضها من البلاء ما لا طاقة له به؟ قال: ليس هذا من ذلك.

وهل يجب إنكار المنكر علىٰ من علم أنه لا يقبل منه؟ فيه روايتان عن أحمد،

---

(١) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» (١/ ١٠٦).

(٢) انظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (٢/ ٢٢).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٢٥٤)، وابن ماجه (٤٠١٦)، وغيرهما من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٧٩٧).

وصحح القول بوجوبه، وهو قول أكثر الصحابة كما ذكره ابن رجب[١].

والمنكر الذي يجب إنكاره ما كان مجمعًا عليه، أما المختلف فيه فمن أصحابنا من قال: لا يجب إنكاره علىٰ من فعله مجتهدًا أو مقلدًا لمجتهدٍ تقليدًا سابقًا، واستثنىٰ القاضي في «الأحكام السلطانية»[٢] ما ضعف فيه الخلاف.

ومراتب الإنكار ثلاث -كما تقدم- من حديث أبي سعيد، وفيه دليلٌ علىٰ أن إنكار المنكر يجب بحسب القدرة عليه، وأن إنكاره بالقلب لابد منه بخلاف الذي قبله، وأفاد وجوب تغيير المنكر بكل طريق، فلا يكفي الوعظ إن أمكنه إزالة المنكر باليد، ولا يكفي بالقلب إذا أمكن باللسان.

⊙ **قوله:** «عَلَىٰ مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ»: أي: أنه يجب أن يكون الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر متبصرًا عالمًا بما يأمر به، وأنه مطابقٌ للأمر، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال الشيخ تقي الدين في «المنهاج»: ولابد من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما، ولابد من العلم بحال المأمور والمنهي، ولابد في ذلك من الرفق، ولابد أن يكون حليمًا صبورًا علىٰ الأذىٰ، فإنه لابد أن يحصل له أذىٰ، فإن لم يحلم ويصبر كان ما يفسد أكثر مما يصلح، فلابد من هذه الثلاثة: العلم والرفق والصبر، العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده[٣]. اهـ.

---

(١) انظر: «الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي» (١/ ٤٦١).

(٢) لأبي يعلىٰ الفراء (ص٢٩٧).

(٣) لم أجده في الكتاب المذكور؛ لكنه موجود بتصرف يسير في رسالة «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (٢٠).

وقال سفيان الثوري: لا يأمر بالمعروف ولا ينهىٰ عن المنكر إلا من كان فيه ثلاث خصال: رفيقٌ بما ينهىٰ، عدلٌ فيما يأمر عدلٌ فيما ينهىٰ، عالمٌ بما يأمر عالمٌ بما ينهىٰ[١]. انتهىٰ.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الإعلام»: وقد شرع النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمته إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره ما يحبه الله ورسوله، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلىٰ الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله، وهذا كالإنكار علىٰ الملوك والولاة بالخروج عليهم، فإنه أساس كل شرٍّ وفتنةٍ إلىٰ آخر الدهر، وقد استأذن الصحابة رسولَ الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها، فقالوا: أفلا نقاتلهم؟ قال: «**لا ما أقامُوا الصلاةَ**»[٢]، وقال: «**مَن رأىٰ من أميره ما يَكرهه فليصبر ولا يَنزِعنَّ يدًا من طَاعة**»[٣]، إلىٰ أن قال: فإنكار المنكر أربع درجات:

الأولىٰ: أن يزول ويَخلُفَه ضده.

الثانية: أن يقِلَّ وإن لم يزُل بجملته.

الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله.

---

(١) انظر: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» لأبي بكر الخلال (٥٠).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٢٨)، وأبو يعلىٰ (١٣٠٠)، وغيرهما من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقال الهيثمي (٥/ ٣٩٢/ مجمع): «رواه أحمد وأبو يعلىٰ، وفيه الوليد صاحب عبد الله البهي، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات».

(٣) أخرجه مسلم (١٨٥٥)، وأحمد (٦/ ٢٤)، وغيرهما من حديث عوف بن مالك الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه.

فالدرجتان الأوليان مشروعتان، والثالثة موضع اجتهاد، والرابعة محرمة، فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان إنكارها عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا إذا نقلتهم منه إلىٰ ما هو أحب إلىٰ الله ورسوله؛ كرمي النُّشَّاب وسبق الخيل ونحو ذلك. انتهىٰ ملخصًا(١).

وقال بعضهم:

ومـــن أزال منكـــرًا بـــأنكرا كغاســل الحيض ببـول أغبـرا(٢)

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: ثم أنه يأمر وينهىٰ من كان عالمًا بما يأمر به وينهىٰ عنه، وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة والمحرمات المشهورة: كالصلاة والصيام والزنا ونحوها فكل المسلمين علماء بها، وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال وما يتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام مدخلٌ فيه ولا لهم إنكار، بل ذلك للعلماء(٣)(٤). انتهىٰ.

---

(١) انظر: «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (٣/ ١٢، ١٣).

(٢) لم أقف علىٰ قائله.

(٣) انظر: «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (٢/ ٢٣).

(٤) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٥٧١-٥٩٦):**

«وهذه الجملة لا شك أنها مُهمة وتحتاج إلىٰ تفصيل وبيان؛ لأن شيخ الإسلام أجمل أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قوله: «علىٰ ما توجبه الشريعة»، فهذه الكلمة فيها =

=

تفاصيل كثيرة: تفاصيل أقوال أهل السنة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيما يأتي نذكر بعض المسائل التي في إيضاح لهذه الجملة، منها:

المسألة الأولىٰ: في تفسير (المعروف) و(المنكر)؛ فإن المعروف في النصوص الذي جاء الأمر به هو: ما عُرِفَ حُسنه في الشرع، والمنكر هو: ما عُرف قُبحه في الشرع، وقال بعض أهل العلم: المعروف اسمٌ جامع لكل ما يحبه الله عَزَّوَجَلَّ ويرضاه من أمور الخير، والمنكر اسمٌ جامع لكل ما يسخطه الله عَزَّوَجَلَّ ويأباه من أمور الشر. فدخل في المعروف الواجبات والمستحبات، ودخل في المنكر المحرمات، وأعظم المعروف: توحيد الله، وأبشع المنكر وأقبحه وأردؤه: الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا قال أبو العالية في قول الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج:٤١]، قال: «كان أمرهم بالمعروف أنهم دعوا إلىٰ الله وحده وعبادته لا شريك له، وكان نهيهم عن المنكر أنهم نَهوا عن عبادة الشيطان وعبادة الأوثان».

وكل معروف في القرآن هو التوحيد وكل مُنكر في القرآن فهو الشرك؛ ذلك أن الطاعات وأبواب الخير كلها من فروع التوحيد ومن آثار التوحيد، والمعاصي من آثار الشرك؛ فلهذا أعظم ما يؤمر به التوحيد، ويؤمر بفروعه ومسائله ومُستلزماته من الطاعات، وكذلك أعظم ما يُنهىٰ عنه ويُنكر الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ.

والمعروف درجات والمنكر -أيضًا- درجات؛ ولهذا كان من قواعد أهل السنة أنه إذا تزاحم معروفان يُطلب ما كان أعلىٰ، وإذا تزاحم منكران يُدفع ما كان أعلىٰ، فيُترك الأقل لما هو أعلىٰ، ويُنكر الأعلىٰ؛ لأن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح ودرء المفاسد.

المسألة الثانية: حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتفصيل الكلام علىٰ أحواله:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مأمور به في النصوص، وهو واجب، وهذا الوجوب هل هو وجوب عيني أم كفائي؟

الجواب: في المسألة تفصيل، وهو أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب علىٰ المعين إذا رآه؛ كما جاء في الحديث: «**من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم**

=

=

يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»، فيجب علىٰ من رآه عينًا مع القدرة، وإنكار المنكر له مراتبه التي سيأتي بيانها، ويجب إنكار المنكر علىٰ الأمة علىٰ وجه الكفاية.

والمنكرات قسمان، والواجبات قسمان: فهناك واجبات يشترك في معرفتها الجميع، ومنكرات يشترك في معرفة أنها منكرة جميع المسلمين، مثاله في الواجبات: الصلاة، والزكاة، وصلة الأرحام، وقراءة القرآن، وما شابه ذلك. ومثاله في المنكرات: شرب الخمر، والزنا، والسرقة، وأخذ الرشوة، وشهادة الزور، ونحو ذلك؛ فهذا الذي يشترك في معرفته الجميع يجب الإنكار فيه علىٰ الجميع، لا يختص الإنكار فيه بأهل العلم.

وأما ما كان من المسائل التي تحتاج لبيان الأدلة، واستدلال من أهل العلم لا يشترك في معرفتها الجميع، مما لا يعلمه إلا الخاصة، أو إلا طلبة العلم، فهذه يُشْتَرَطُ فيها لمن أنكر أن يكون علىٰ علم، وأما المسائل التي يكون المورد فيها مورد اجتهاد فإن العلم فيها مَنُوط بأهل العلم الراسخين فيه، وما كان من المسائل يتعلق بالفرد؛ فإنه يكون الإنكار فيه بحسب علمه، يعني: إذا علم شيئًا أنكر بحسب العلم؛ كما ذكر ذلك النووي وغيره.

فتفصيل المقام في هذا لابد منه، وهو أنه يُشْتَرَطُ لوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر العلم قبل الأمر والنهي، فلا يأمر ولا ينهىٰ إلا عالم، وهناك مسائل العلم بها مُشترك، هذه يأمر بها كل أحد، فكل مسلم يجب عليه أن يأمر بالصلاة، وينهىٰ عن الزنا؛ لأن هذه مُشتركة، وأما المسائل الاجتهادية، أو المسائل الخفية، أو المسائل التي تحتاج إلىٰ نظر ورعاية مصالح ونحو ذلك، فهذه لابد فيها من علم، لكن علم أهل العلم الراسخين فيه؛ لأن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، ودرء المفاسد وتقليلها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالىٰ: «إنَّ الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يجب عليه أن يكون عالمًا قبل أن يأمر وينهىٰ، وأن يكون متيقنًا بحصول المصلحة في أمره ونهيه ودرء المفسدة؛ فإن دخل في الأمر والنهي بظنٍّ ولو كان ظنًّا راجحًا أثم؛ لأن درء المفاسد مقدم علىٰ جلب المصالح».

فهذه القاعدة أظنها مُجمعًا عليها فيما ذكره شيخ الإسلام من أن الأمر والنهي المقصود منه

=

=

تحصيل المصالح ودرء المفاسد، فإذا كان الآمر والناهي علىٰ علم بأن المصلحة من الأمر ستكون برجحان، وأن المفسدة لن تكون عنده برجحان، فهذا إذا تيقن ذلك دخل في الأمر والنهي ولم يأثم، وأما إذا كان مظنونًا أن إنكار المنكر قد يكون معه مصلحة؛ فإنه يأثم بالأمر والنهي لأنه لابد فيه من العلم والتيقن، لأن الظن لا يُكتفىٰ به، فتحصل من هذه المسألة أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الجملة واجب، وقد يكون واجبًا عينيًّا، وقد يكون واجبًا كفائيًّا، إذا قام به طائفة من الناس كفىٰ البقية، والمسائل العامة العظيمة الأمر فيها والنهي يكون لأهل العلم لا يدخل فيه العامة أو من لم يكن راسخًا في العلم.

المسألة الثالثة: قول شيخ الإسلام هنا: «عَلَىٰ ما تُوجِبُهُ الشَّرِيعةُ» فيه أن من أمر ونهىٰ دون رعاية لأحكام الشريعة في الأمر والنهي، فهو ليس علىٰ طريقة أهل السنة، فأهل السنة يأمرون وينهون علىٰ ما توجبه الشريعة لا علىٰ ما توجبه الأهواء أو الآراء، فلابد أن يكون عند الآمر والناهي معرفة بالحكم الشرعي ودليلًا يعتمده، وإلا يكون أمر علىٰ غير ما توجبه الشريعة، وهذا لأجل مخالفة الخوارج والرافضة والشيعة والمعتزلة في هذه المسألة.

وقوله: «علىٰ ما توجبه الشريعة»:

أخرج طوائف المبتدعة؛ لأنهم غلوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتىٰ إنهم جعلوا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الخروج علىٰ وُلاة الجور، أو الفُجار من الولاة، وهذا باطل ومخالف لطريقة أهل السنة والجماعة، ويقابل هؤلاء مَنْ ترك الأمر والنهي أصلًا؛ كحال المتصوفة، وحال الذين يرون القدر ماضيًا في الناس، فلا يُحتاج إلىٰ أمرٍ ونهي.

وبسبب هؤلاء المتصوفة دخل أعداء الملة والدين وأعداء الإسلام بلاد الإسلام، وقد يُشابههم غيرهم ممن يتركون الأمر والنهي بحججٍ واهية، فكان من أسباب دخول الفرنجة والصليبيين بلاد الإسلام كثرة المتصوفة في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس؛ لأنهم أَقْعَدُوا الناس عن الأمر والنهي، وأحبطوا في النفوس الجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

وأهل السنة وسط بين هاتين الطائفتين: فقوم غلوا كالخوارج ومن شابههم، وقوم جفوا وهم الصوفية ومن شابههم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عَلَىٰ مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ يتطلب -

=

=

كما سبق بيانه- علمًا وغَيْرَةً، لابد أن يجتمع هذا وهذا، فالعلم فات الخوارج والمعتزلة ومن شابههم، والغَيْرَة على دين الله فاتت الصوفية ومن شابههم، فمن فاتته الغيرة وكان عنده علم فإنه لن يأمر، ومن كانت عنده غيرة وليس عنده علم بما توجبه الشريعة في الأمر والنهي أفسد، ومن جراء هذين الفريقين حصل الفساد، وحصل إضعاف الشريعة في عصور الإسلام من أوائل الزمن إلى زماننا هذا، فأُناس دخلوا بغيرة دون علم، وأُناس علموا ولكن لم يغاروا على دين الله عَزَّوَجَلَّ، وهدى الله من تمسك بأصول أهل السنة، فغاروا على حُرمات الله، وأمروا ونهوا، لكن على ما توجبه الشريعة، فحققوا المصالح ودرءوا المفاسد.

المسألة الرابعة: في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»** [أخرجه مسلم (٧٨/ ٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ]، هذا فيه الأمر بتغيير المنكر عند رؤيته، وفقه هذا الحديث مهم؛ وذلك أن كلمة «رأى» جاءت في الشرط «من رأى منكم منكرًا فليغيره»، فهذا الحديث فيه مسائل:

أولًا: الشرط، وهو شرط الرؤية لوجوب التغيير.

ثانيًا: وجود المنكر.

ثالثًا: التغيير.

والمنكر سبق بيان معناه، وهو: ما عُلِم قُبحُه بالشرع، أو أن نَكَارَتَهُ كانت بالشرع، لا بمُقتضى الهوى أو مُقتضى ما يكون من اجتهاد ناقصي العلم.

ففي قوله: «من رأى منكم مُنكرًا» ليس معنى «رأى» هنا علم، وإنما معناها رؤية البصر؛ لأنه عداها إلى مفعول واحد، و«رأى» إذا تعدت إلى مفعول واحد كانت رؤية بصرية: «من رأى منكم منكرًا» فتفسيرها بـ(علم) ليس بصحيح، فالرؤية هنا التي علق عليها وجوب الإنكار هي الرؤية البصرية، فيجب أن تنكر باليد فإن لم تستطيع فباللسان؛ وذلك إذا رأيت المنكر بعينيك مع شرط القدرة.

أما إذا لم تره ولكن سمعته سماعًا مُحققًا؛ كأن سمعت امرأة تصرخ، أو سمعت بسماع مُحقق رجل يراود امرأة، أو سمعت سماعًا محققًا ملاهي... ونحو ذلك، فهذه ألحقها أهل العلم

=

بالرؤية؛ لأنها مُتيقنة بحاسة السمع كتيقن المرئي بحاسة الرؤية، وأما غير ذلك مما يُخبَرُ به المرء، فليس المجال فيه مجال إنكار، وإنما يجب الإنكار علىٰ من رأىٰ أو سمع سماعًا مُحققًا، أما من أُخْبِر فمجاله مجال النصيحة، والنصيحة غير الإنكار، فالنصيحة عامة، ومن النصيحة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإن الأمر والنهي ما كان نصيحة لها شروطها ولها أحوالها بما جاء في الشريعة، أما النصيحة فهي عامة؛ كما جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة» ثلاث مرات، قال: قيل: يا رسول الله لمن؟ قال: «لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، ولعامتهم» [علقه البخاري، ووصله مسلم في «صحيحه» (٩٥/ ٥٥) من حديث تميم الداري رضي الله عنه]، فالدين كله نصيحة، والنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم تشمل الأمر والنهي، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعض النصيحة لكن له شروط خاصة، فهو كالمخصص من العام، والتخصيص من العموم بشروطه هذا له أحكامه المعروفة، فليست كل أحكام النصيحة جارية علىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المُنكر، وليست كل أحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جارية علىٰ النصيحة؛ بل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نصيحة لعباد الله ولأئمة المسلمين ولعامتهم ولكن بشروطه الشرعية.

ومن الفروق بين النصيحة وبين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أولًا: أن النصيحة تكون سرًّا، وتكون مُجملةً بدون تحديد، هذا الأصل فيها كما قرره أهل العلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد يكون في بعض أحواله سرًّا، ولكن الأصل فيه أن يكون علنًا، فيكون الأمر والنهي إذا رُؤي المنكر أو سُمع سماعًا مُحققًا، والنصيحة تكون بأوسع من ذلك؛ بما إذا رُؤي أو سُمع أو أُخبر أنه حصل كذا وكذا، فالأمر بالمعروف يكون فيما إذا حصل المنكر أمامك، أما إذا حصل في غيبةٍ عنك فإنه يعود إلىٰ الأصل العام وهو النصيحة؛ لأن النبي ﷺ قيد وجوب الإنكار بقوله: «من رأي منكم مُنكرًا»، فمن رأىٰ وجب عليه، ومن لم ير بل سمع أو قيل له: حصل كذا وكذا. فالمجال فيه مجال نصيحة.

ثانيًا: أن النصيحة تحتاج إلىٰ تثبت واستفصال، والأمر والنهي بما أنه بما حصل أمامك فإنك مُتيقن

منه، يعني: أن النصيحة لمن يحتاج النصيحة تكون بما علمته وتثبت منه، وأما الأمر والنهي فهو لابد فيه من اليقين؛ كما قال شيخ الإسلام وغيره: من الفروق بينهما أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متعلقٌ بالمنكر، وأما النصيحة فهي متعلقة بمن ينتفع من الأمر أو النهي عن المنكر، فقوله: «من رأىٰ منكم منكرًا» مُتعلق بالمنكر وليس فيه ذكر لفاعل المنكر.

قال: «من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره». يعني: ليُغير المنكر، أما الواقع في المنكر فهذا مقامه فيه تفصيل:

الحالة الأولىٰ: أن يكون المُنكِر الذي رآه من أهل الحسبة، يعني: من نواب الوالي في الإنكار، فهؤلاء حالهم غير حال عامة الناس، فهذا لَهُ أن يُعاقب بتخويل السلطان أو ولي الأمر له، فإذا رأىٰ الفاعل للمنكر له أن يُعاقب بحسب ما جُعل له من السلطة في ذلك، أما عامة الناس -يعني: غير أهل الحسبة- فهؤلاء في حقهم لابد أن يُفَرِّقُوا بين المنكر وفاعل المنكر، فالمنكر يجب إنكاره، وأما من قام به المنكر فهذا المقام فيه مقام نصيحة، قال تعالىٰ: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥].

مثال ذلك: إذا رأيت مع أحد المسلمين أمرًا مُنكرًا أو رأيته يُمارس أمرًا مُنكرًا، فإنكار المنكر بتغييره باليد إن أمكنك أو باللسان، أما صاحب المُنكر الواقع فيه فهذا تستعمل معه الرفق والأناة، وما هو أنفع وأصلح له.

ولهذا قال العلماء: إن الآمر بالمعروف والناهي عن المُنكر يُشترَطُ له ثلاثة شروط:

الأول: قبل أن يأمر وينهىٰ، وهو العلم.

الثاني: حين يأمر وحين ينهىٰ، وهو الرفق.

الثالث: بعد أن يأمر وبعد أن ينهىٰ، وهو الصبر.

فثَمَّ ثلاثة شروط: علم قبل، ورفق مُقارن، وصبر بعده؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان:١٧]، فلابد من الصبر بعد الأمر والنهي؛ لأن الآمر والناهي يُخالف ما يشتهيه الخلق، فأكثر الناس ولو من المسلمين تبع لأهوائهم، فيحتاج من يأمر وينهىٰ إلىٰ الصبر، ولابد من رفق مُقارِن بمن عمل

=

المُنْكَر، والإنكار للمُنْكِرِ نفسه هذا لابد فيه من قوة: «من رأى منكم مُنكرًا فليغيره»، فلا يكون فيه مثل ما يقول أهل العصر: مُجاملة في المُنْكَرِ نفسه، أما فيمن فعله فهذا تُهادِيه وتدعوه بالتي هي أحسن، وتحجز بينه وبين المنكر بحسب ما تقضي المصلحة.

إذا كان كذلك فتعلق المُنْكَر بفاعل المُنْكَر يحتاج -أيضًا- إلىٰ تفصيل؛ ذلك أن المُنْكَرَ مع فاعله تارة يكون مُنفكًا، وتارةً يكون مُلازمًا؛ فإن كان مُنفكًا بمعنىٰ أن المعصية مُنفكة عن فاعلها أو المنكر مُنفك عن فاعله، مثل أن تدخل علىٰ أحد -نسأل الله لنا وللمسلمين العافية والسلامة والهداية- فتجد أمامه كأس خمر، أو تجده يسرق، أو تجده ينظر إلىٰ صورة عارية أمامه... ونحو ذلك، فهذه الجهة فيها مُنفكة؛ لأن كأس الخمر مُنفصل عمن يريد أن يشربه، والصورة العارية منفصلة عمن يريد أن يُشاهدها، والمال الذي يريد أن يسرقه مُنفصل عنه، فإنكار المُنكر هنا بأن تُغير هذا الذي بين يديه بيدك، فإن لم تستطع فبلسانك، بمعنىٰ: تحجزه عن ذلك باللسان، وأما من مكان مُريدًا لإتيان هذا المُنْكَرُ فهنا إذا كان مُنفكًا فيكون معه النصيحة والرفق والأناة، فالمنكر نفسه لا تكن رفيقًا به، وأما من وقع فيه فلابد فيه من الرفق؛ لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إن الرفق ما كان في شيء إلا زانه ولا يُنزعَ من شيء إلا شانه»** [أخرجه مسلم (٧٨/ ٢٥٩٤) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا]، هذا بحسب تحقيق المصلحة؛ فإن كانت المصلحة هنا في أن تكون رفيقًا في إنكار المنكر، ورفيقًا -أيضًا- في تعليم أو دعوة أو نصيحة من فعل هذا المنكر أو من يريد أن يواقعه؛ فإن تحقيق المصلحة ودرء المفسدة في هذا المقام لابد منها، ولكن الأصل أن الإنكار يكون بقوة إلا إذا كان ثَمَّ مفسدة ستكون، فتكون رفيقًا في الأمر والنهي وفي إنكار المنكر والإنكار علىٰ من واقعه.

الحالة الثانية: أن يكون المنكَر مُلازمًا لصاحب المنكر، مثل أن يكون حالقًا للحيته، أو يكون مُسبلًا لإزاره، أو يكون لابسًا لذهبٍ، أو يكون سكرانًا، أو ما شابه ذلك، فهذه فيها اختلاط المنكر بفاعله لا تستطيع أن تُغير فتجعل الحليق مُلتحيًا، ولا أن تجعل المُسبل مُشَمِّرًا، هذا ليس مُستطاع، فيكون الإنكار باللسان، ويكون الإنكار باليد لأهل الاختصاص لمن له ولاية أو باللسان، ويكون هنا الرفق والأناة في الأمر والنهي.

=

=

وفي قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «من رأىٰ منكم منكرًا فليغيره بيده» عرفنا معنىٰ «رأىٰ» وأن الرؤية هنا بالبصر أو بالسماع المُحقق، أما الخبر غير المُتيقن فلابد فيه من التثبت ثم من النصيحة، والنصيحة تكون سرًّا، والأمر والنهي يكون بحسب الأحوال التي سبق بيانها.

وفي قوله: «مُنكرًا» المُنكر المراد هنا هو: ما عُلِم نكارَتُهُ بالشريعة، وهذا يدخل في صورتين:

الأولىٰ: ما كان مُجمعًا عليه.

الثانية: ما كان مُختَلَفًا فيه ولكن الخلاف فيه ضعيف، فهذا يُنكَر.

فما أُجمع عليه واضح، مثل: الزنا والسرقة والرشوة... إلىٰ آخره، فهذا يُنكر، وما اختُلف فيه ولكن الخلاف فيه ضعيف -أيضًا- يُنكره، وما اختُلِف فيه والخلاف فيه قوي هذا لا يُنْكَر، بل لا يجوز إنكاره؛ ولكن يُنَاظر فيه ويُجَادَلُ فيه ويبحث فيه.

مثال ما كان الخلاف فيه ضعيفًا: النبيذ الذي تبيحه بعض الحنفية ويُبيحه بعض الأوائل، أو العصير الذي اشتد وصار مُسكرًا يعني: بقي ثلاثة أيام في حر حتىٰ صار مُسكرًا، فإن طائفة من أهل العلم يُبيحونه.

وكذلك من الأمثلة: إباحة الفوائد الربوية، يعني: إباحة الفوائد البنكية والعملات، والمنفعة من وراء القرض، أو تفصيل أنواع القروض من قروضٍ صناعية وقروضٍ استهلاكية، ونحو ذلك، هذه فيها خلاف، ولكن الخلاف فيها عندنا ضعيف؛ لأنه ليس حجة لمن خالف في هذه المسائل حجة واضحة؛ فهذه تُلْحَق بالمسائل المُجمع عليها فتُنكَر، ولا تدخل في قول من قال: لا إنكار في مسائل الخلاف.

أما ما كان الخلاف فيه قويًّا، فهذا لا يُنكَر، مثل: قراءة المأموم للفاتحة في الصلاة، فإن الخلاف في ذلك قوي: هل تجب قراءة الفاتحة علىٰ المأموم أم يتحملها عنه الإمام؟ فهذا خلاف قوي معروف، وكذلك من المسائل التي فيها الخلاف القوي: زكاة الحُلي، وإعفاء اللحية بعدم أخذ شيء منها أو بما زاد عن القبضة، ونحو ذلك من المسائل، هذه المسائل اختلف فيها العلماء، ومذاهب الأئمة فيها معروفة، فما كان من هذه المسائل الخلاف فيها قويًّا؛ فإن الباب فيها باب دعوة ومُجادلة لا باب إنكار.

=

وقال بعض أهل العلم: «لا إنكار في مسائل الخلاف». وهذا القول يحتاج إلىٰ تفصيل، فقد يتبين لنا -بما سبق- أن هذا القول علىٰ إطلاقه غلط، بل الصواب فيه تفصيل القول في مسائل الخلاف؛ وذلك أن نقول: مسائل الخلاف تنقسم إلىٰ قسمين:

* مسائل الخلاف فيها ضعيف، فهذه يُنكر فيها.

* ومسائل الخلاف فيها قوي، فهذه لا إنكار فيها، بل يُناظر ويُناقش المخالف.

ولهذا قيَّد طائفة من أهل العلم هذا القول فقالوا: «لا إنكار في مسائل الخلاف إذا كان الخلاف قويًا، أما ما كان الخلاف فيه ضعيفًا فإنه يُنكر».

وتشابهها عبارة قول من قال: «لا إنكار في مسائل الاجتهاد».

ومسائل الاجتهاد غير مسائل الخلاف، مسائل الاجتهاد التي اجتهد فيها أهل العلم في نازلة من النوازل، ويكون الاجتهاد فيها في إلحاق النازلة بالنص، أما مسائل الخلاف فهي ما كان الاجتهاد فيها راجعًا إلىٰ فهم النص، فإذا كان الفهم راجعًا إلىٰ النص -مثل المسائل التي ذكرناها آنفًا- فهذه تُسمىٰ مسائل الخلاف، فيُقال: لا إنكار في مسائل الخلاف إذا كان الخلاف قويًا، وأما مسائل الاجتهاد فلا إنكار فيها مُطلقًا بدون تفصيل؛ لأنه اجتهد، وما دام أنه اجتهد في النازلة ليُلحقها بالنصوص ولا نَصَّ فيها، فليس لأحد المجتهدين أن يُنكر علىٰ الآخر اجتهاده في مقابلة النص، أو في مُصادمة القواعد الشرعية علىٰ ما هو معلوم في أصول الفقه.

قوله: «فليغيره بيده» هنا أوجب تغيير المنكر، وهو إيجاب مشروط بعلمه بأن هذا مُنكر، وبأن المصلحة مُتيَقَنَة، فإذا غلب علىٰ ظنه أن الإنكار لا ينفع، فهل يجب الإنكار أم لا يجب؟

اختلف العلماء في هذه المسألة علىٰ قولين:

الأول: قالت طائفة: يجب الإنكار لأنه هو الأصل، ولا دليل يُخرِج هذه المسألة عن أصلها، وهذا أصح الروايتين عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو قول أكثر أهل العلم.

الثاني: أن رائي المنكر إذا غلب علىٰ ظنه عدم الانتفاع بإنكاره؛ فإنه يُستَحَبُ له أن يُنكِر ولا يجب. ومال إلىٰ هذا فيما يُفْهَمُ من كلامه: شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، واستُدِلَّ لهذا بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ [الأعلىٰ:٩]، قال: معنىٰ الآية إن نفعت الذكرىٰ فذكر، فأوجب

=

التذكير. ويدخل فيه الأمر والنهي إذا غلب علىٰ ظنه الانتفاع به.

ومفهوم الآية: أنه إذا لم يغلب علىٰ ظنه الانتفاع فإنه لا يجب عليه، ويكون الحال إذًا علىٰ الاستحباب، وهذا القول أظهر عندي وأصح، وهو قول جماعة كثيرة من أهل العلم من الصحابة فمن بعدهم ويؤيده أن الصحابة -رضوان الله عليهم- دخلوا علىٰ ولاة بني أمية، ودخلوا علىٰ بعض الأمراء في زمنهم، فوجدوا عندهم منكرات فلم يُنْكِرُوا، فحُمِلَ ذلك علىٰ أنه غلب علىٰ ظنهم عدم الانتفاع بالأمر والنهي؛ لأنه أولىٰ من أن يُحْمَلَ علىٰ أنهم تركوا واجبًا.

وإذا قلنا: إنه لا يجب. يبقىٰ الاستحباب حمايةً للشريعة، وصيانةً لهذا الواجب الشرعي، وكما جاء في الحديث: «**إن أول ما دخل النقص علىٰ بني إسرائيل كان الرجل يلقىٰ الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أَكِيلَه وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ضرب الله قلوب بعضهم ببعض**».

فيبقىٰ هذا علىٰ جهة الاستحباب دائمًا إذا غلب علىٰ الظن أنه لا يُنتفع بإنكار المُنكر، مثل ما يُرىٰ اليوم من وجود النساء كاشفات الوجه في المستشفيات، أو في بعض الأسواق، أو في المطارات، أو السيارات؛ فإن هذا مُنْكَر، لكن يغلب علىٰ الظن أن بعض أولئك النسوة لا ينتفعن بالإنكار، فمن غلب علىٰ ظنه أن المرأة التي رآها علىٰ ذلك لا تنتفع بالإنكار؛ فإنه لا يجب عليه الإنكار، بمعنىٰ: لا يأثم إن ترك الأمر والنهي.

وعمل أكثر أهل العلم علىٰ هذا، ولكن القول قول أكثر أهل العلم -كما ذكرنا- هو الإيجاب مطلقًا.

وتأثيم المسلمين فيه حرج سيما مع ظهور الدليل في قوله: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلىٰ:٩] وما ذكرنا من عمل الصحابة وأهل العلم.

وشيخ الإسلام في قوله: «عَلَىٰ مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ» يستحضر هذه المسائل؛ كما فصلها في كتابه «منهاج السنة النبوية» وغيره من كتبه ﷺ، فهذه كلمة عظيمة تَمَيَّزَ بها أهل السنة عن غيرهم، فلابد من تفصيل المقام في ذلك.

قوله: «فَلْيُغَيِّرْهُ» وذلك إذا تيقن بأن المصلحة راجحة، ولا يكفي أن يغلب علىٰ ظنه حصول

=

=

المصلحة؛ بل لابد أن يتيقن أن المصلحة راجحة، وأن المفسدة زائلة أو مُهملة، تحقيقًا للقاعدة المعروفة: «درء المفاسد مُقدم علىٰ جلب المصالح»، وضابطها أنه إذا استوت المصلحة والمفسدة فدرء المفسدة مُقدم علىٰ جلب المصلحة، ولا نقول: درء المفاسد مُقدم. وأما إذا كانت المصلحة راجحة والمفسدة مرجوحة ضعيفة، فهنا لا نقول: درء المفاسد مُقدم علىٰ جلب المصالح؛ بل تحصيل المصلحة راجح؛ لأنه ما من مصلحة يُراد تحصيلها إلَّا وتكون مخالفة لأهواء الخلق، فلابد أن يكون ثَمَّ نوع مفسدة، فقد تأمر بالمعروف أو تنهىٰ عن المنكر فيغضب ذلك الذي تأمره أو تنهاه، لكن تحققت المصلحة بإزالة المنكر، وقد تكون هناك فتنة أو قطيعة رحم أو اختلاف في القلوب، لكن المفسدة الحاصلة بغضبه وما شابه ذلك لا تُقابل بالمصلحة الراجحة.

فقول من يقول من أهل العلم: «درء المفاسد مقدم علىٰ جلب المصالح» هذه قاعدة صحيحة فيما إذا تقاربت المصلحة والمفسدة، أو تساوت المفسدة والمصلحة، أما إذا كانت المصلحة راجحة بيقين، والمفسدة مرجوحة وضعيفة جدًّا بيقين؛ فإن هذا لا يُقال فيه: درء المفاسد مُقدم علىٰ جلب المصالح. لأنه ما من مصلحة يُراد تحقيقها إلا ولابد أن يحصل شيء من مفسدة بتحقيقها؛ لأن الشريعة لم تأت علىٰ موافقة أهواء الخلق.

قوله: «فَلْيُغَيِّرْهُ» هذا اللفظ لا يساوي (فلْيُزِلْهُ)، فالتغيير في الشرع لا يُساوي الإزالة، ويدل عليه أنه قال: «فَإِن لَمْ يَسْتَطِعْ»، يعني: إن لم يُغير بيده فليغيره «بِلِسَانِهِ»، ومعلوم أن تغيير المُنكر باللسان قد يكون معه إزالة وقد لا يكون، وهذا من توسعة الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ هذه الأمة، فيجب التغيير ولكن الإزالة لا تجب، إلا إذا كانت مُستطاعة.

فمن أنكر مُنكرًا بلسانه يكون قد غير، والأمة إذا كانت تأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر، وتُغير المُنكر باللسان، ولا تُقره، ولا تسكت عليه؛ فإنها تكون مُغَيِّرَةً لا يلحقها الوعيد الذي جاء في قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ﴾ [المائدة:٧٨، ٧٩] فمن غير باللسان وأنكر المنكر ونهىٰ عنه؛ فإن هذا

=

=

يكفيه، ويحصل به التغيير إلا إذا استطاع التغيير باليد؛ فإنه يكون مُخاطبًا بتغييره باليد، أما التغيير بالقلب فله ضوابط، منها:

الأول: أن يكره المنكر ويبغضه.

الثاني: ألا يرضىٰ بحصوله.

الثالث: أن يُفارق المكان إن كانت مُفارقته راجحة من حيث المصلحة.

هذا بعض ما يتعلق بالأحكام المهمة في الحديث.

المسألة الخامسة: وهي مسألة مهمة تتعلق بالفرق بين نصيحة الولاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للولاة؛ بل لعامة الناس.

وقد سبق بيان أن النصيحة تكون سرًّا، وأن إنكار المُنكر الأصل فيه أن يكون علنًا، وقد جاء في بيان هذا الأصل قوله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح: «**من كانت عنده نصيحة لذي سلطان فلا يكلمه بها علانية، وليأخذ بيده فليخل به، فإن قبلها قبلها، وإلا كان قد أدىٰ الذي له والذي عليه**» [أخرجه الحاكم (٣/ ٣٢٩) وصححه من حديث عياض بن غنم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] وهذا الحديث إسناده قوي، ولم يُصِبْ من ضعَّف إسناده، وله شواهد كثيرة ذكرها الهيثمي في «مجمع الزوائد»، ويؤيده ما جاء في «الصحيحين» من أنه قيل لأُسامة بن زيد: ألا تدخل علىٰ عثمان فتكلمه؟ فقال أسامة: «إنكم لترون أني لا أُكلمه إلا أُسمعكم، إني أُكلمه في السر دون أن أفتح بابًا لا أكون أول من فتحه»، وهذا موافق لهذا الأصل، وهو أنه ما يقع في ولاية الوالي من مخالفات للشرع فهذا بابه النصيحة؛ لأنه لا يتعلق برؤيةٍ له أو سماعٍ مُحقق، أما من رأىٰ السلطان بنفسه يفعل مُنكرًا فإنه مثل غيره يأمره وينهاه، وأمر ونهي السلطان يكون عنده ولا يكون بعيدًا عنه؛ كمَا جاء في الحديث: «**سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قَالَ إلىٰ إمامٍ جائر فأمره ونهاه فقتله**» [أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٢١٥)، وصححه العلامة الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٣٠٨)].

فأمر ونهي السلطان يكون فيما رأيته منه بنفسك أو سمعته منه سماعًا مُحققًا، فتُنْكِر بحسب الاستطاعة، وبحسب القدرة، بحسب ما يتيسر علنًا أو غيره.

=

=

وأهل العلم فرقوا في هذا المقام -بما سبق بيانه- بين النصيحة فيما يقع في الولاية، وبين ما يكون مُنكرًا يفعله السلطان بحضرة الناس، وقد ورد كثير من الآثار والأحاديث أنكر فيها الصحابة وأنكر فيها التابعون علىٰ ذوي السلطان علنًا، وكلها بدون استثناء يكون فيها أن المنكر فُعل بحضرتهم، رأوه أو سمعوه سماعًا محققًا.

مثال ذلك: ما أنكر الرجل علىٰ مروان في تقديمه خطبة العيد علىٰ الصلاة، فهذا شيء سُمِعَ منه، فأنكره عليه علنًا، فإن السلطان إذا فعل مُنْكَرًا فإنه يُنْكَر عليه ولو كان بحضرة الناس، بشرط أن يُؤمَنَ أن يكون ثَمَّ فساد أعظم منه، مثل مقتله، أو فتنة عظيمة، أو نحو ذلك.

وكذلك ما حصل من الإنكار علىٰ عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في لبسه الثوبين، وكذلك ما حصل من الإنكار علىٰ معاوية، وأشباه ذلك كثير؛ فإن باب النصيحة غير باب الإنكار، باب الإنكار يكون برؤية سواء كانت رؤية المنكر من السلطان أم من عامة الناس، أما باب النصيحة فهو فيما يقع في الولاية.

ووقد أفاض ابن رجب في تحقيق هذه المسائل في شرحه لحديث: «من رأىٰ منكم مُنكرًا»، وكذلك ابن النَّحاس في كتابه «تنبيه الغافلين»، وقد جاء رجل لابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا فقال له: آمر أميري بالمعروف؟ قال: «إن خِفت أن يقتُلك فلا تُؤَنِّب الإمامَ، فإن كُنت لابُدَّ فاعِلًا فيما بينك وبينَه».

وكلام السلف إذا تأملته يدور علىٰ هذا الفرق ما بين النصيحة وما بين الإنكار، فباب الإنكار شيء وباب النصيحة شيءٌ آخر.

المسألة السادسة: في هذا الباب المهم أن الأمر والنهي يجب علىٰ العين أو علىٰ الكفاية، بشرط أن يأمن أن يُؤْذَىٰ أذًىٰ لا يُناسبه: يأمن أن يُقتل، أو يُضرب، أو يُجلد، أو يُسجن؛ فإن خاف علىٰ نفسه القتل أو السجن، أو خاف علىٰ نفسه قطع الرِزق، أو نحو ذلك؛ فإنه لا يجب عليه، ويبقىٰ في باب الاستحباب.

وهذا نص الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ: يُشْتَرَط في الوجوب أن يأمن علىٰ نفسه؛ فإن خشي فتنةً فإنه لا يجب عليه؛ بل يُسْتَحَب إن قوي علىٰ البلاء، وليس كل أحد يقوىٰ علىٰ البلاء،

=

=

وليس من الإيذاء الذي يُسْقِطُ وجوب الأمر والنهي السب، أو الشتم، أو إشاعة الإشاعات الباطلة على الآمر الناهي، هذا لا يُعذر به، بل يجب عليه أن يأمر وينهى ولو قيل في عرضه ما قيل، إلا إذا كان ثَمَّ إيذاء لا يتحمله في نفسه، أو في رزقه، أو ما شابه ذلك.

المسألة السابعة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما يحصل في هذه الأزمان في بعض البلاد من قتلٍ أو تفجيرٍ أو نحو ذلك، أو خروج على ولاة الكفر، أو على الدول الكافرة هذه المسألة مهمة، ومن المعلوم أنه ما دام أصل الإسلام باقٍ على أئمة المسلمين ولم يرتدوا عن الإسلام؛ فإنه لا يجوز الخروج عليهم، ولا الإعانة بالخروج عليهم، ولا التثبيط عنهم، هذا أصل عند أهل السنة والجماعة، وسيأتي تفصيله في الجملة التي بعد ذلك من كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأما دول الكفر أو ولاة الكفر فإن الخروج عليهم جائز، لكن جوازه مع القدرة وتحقيق المصلحة ودرء المفسدة، والمصلحة والمفسدة في ذلك مَنُوطَةٌ بقول الراسخين في العلم -كما سبق بيان ذلك- وليست منوطة باجتهاد المجتهد؛ ولهذا ذكرنا من كلام شيخ الإسلام أن من دخل في هذا الأمر غير مُتيقن أن المصلحة ستكون وتزول، وغير مُتيقن بأنه سيكون بعد المنكر خير؛ فإنه لا يجوز له ذلك.

فما يحصل من أمر بالمعروف والنهي عن منكر بتفجيرٍ ونحوه في بعض البلاد يقول أصحابه: فيه إنكار منكر. ولا يُشترط في إنكار المنكر عندهم الشروط التي ذكرنا، ويقولون: فيه تحقيق مصلحة ودرء مفاسد، ونحو ذلك.

فنقول: إن قاعدة أهل السنة أن تحصيل المصلحة في هذه المسائل ودرء المفسدة مُنوطةٌ باجتهاد أهل العلم؛ لأن هذه مسائل مُتعلقة بالعامة، وهي مسألة يتبعها قتل وأذى على الغير، والمنكر إذا كان إنكاره يُسبب أذى على غيره لم يجز أن ينكره إلا برضى الآخرين؛ لأنه قد تعلق بهم، وأما إذا كان سيناله الأذى على نفسه فقط بإنكاره المنكر، مثل من يقوم إلى سلطان جائر فيأمره وينهاه فيقتله، فنقول: لا بأس إذا رضيت بذلك لنفسك، وهذا خير الشهداء؛ كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما إذا كان بإنكاره المنكر سيؤذي غيره من الناس، أو ستنتهك أعراض، ويكون هناك بلاء؛ فإنه لا يجوز الإنكار باتفاق أهل العلم.

=

وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ: الْحَجِّ، وَالْجِهَادِ، وَالْجُمَعِ، وَالأَعْيَادِ مَعَ الأُمَرَاءِ: أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا، وَيُحَافِظُونَ عَلَى الْجَمَاعَاتِ.

وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ لِلأُمَّةِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١)، وَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ؛ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ»(٢).

الشَّرْح

⊙ **قوله**: «وَيَرَوْنَ»: أي: ويعتقدون، مِن: رآه وارْتآه؛ إذا اعتقده، أي: من أصول أهل السنة والجماعة: أن الصلاة التي تقيمها ولاة الأمور تُصلىٰ خلفهم علىٰ أي حالة كانوا، كما يحج معهم ويُغزىٰ، ولا يرون الخروج عليهم وقتالهم بالسيف إذا كان

=

فإذا كان الإنكار بمثل هذه المسائل فإنه لا يجوز باتفاق أهل العلم لأنه قد تعدىٰ الضرر، وإذا تعدىٰ الضرر فإنه لا يجوز إنكاره بمثل هذه التي فيها الإنكار بأبلغ ما يكون من أنواع الإنكار باليد.
فتحصَّلنَا من ذلك: أنَّ المصلحة والمفسدة منوطة بفهم أهل العلم، وأنَّ أهل العلم هم الذين يُقدِّرون المصالح والمفاسد، فلا يجوز لأحد أن يدخل في مثل هذه المسائل أصلًا إلا بفتوىٰ من أهل العلم، وأهل العلم لا يُفتون في هذه الأمور بالجواز؛ لأن تحريمها معلومٌ من أصول الشريعة بتَعَدِّي الضرر؛ ولأن مفسدتها أعظم بكثير من المصالح التي تُظن؛ بل كثير من أبواب الخير وكثير من الأذىٰ حصل بسبب اجتهادات، أو بسبب عمل من لم يأمر وينه علىٰ ما توجبه الشريعة، والعباد يؤاخذون بذنوبهم» اهـ.

(١) أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥)، وغيرهما من حديث أبي موسىٰ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦)، وغيرهما من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فيهم ظلم، خلافًا للمبتدعة من الخوارج والمعتزلة والرافضة الذين يرون جواز الخروج على ولاة الأمور إذا فعلوا ما هو ظلمٌ أو ما ظنوه هم ظلمًا، ويرون ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقولهم باطلٌ ترده أدلة الكتاب والسنة، قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء: ٥٩] الآية.

وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إنَّكم سَتَرون بعدي أَثَرَةً وأمورًا تُنكرونها**»، قالوا فما تأمرنا؟ قال: «**تُؤَدُّون الحقَّ الذي عليكم وتَسألون اللهَ الذي لكم**»[(١)]، وفي «الصحيح» عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**مَن أطاعني فقد أطاع اللهَ، ومن عصاني فقد عصىٰ اللهَ، ومَن يُطِعِ الأميرَ فقد أطاعني، ومن يَعْصِ الأميرَ فقد عصاني**»[(٢)]، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**الجهادُ واجبٌ عليكم مع كل أميرٍ برًّا كان أو فاجرًا**»[(٣)] رواه أبو داود، وفي «الصحيح»: «**إن اللهَ ليُؤيِّدُ هذا الدِّينَ بالرجل الفاجِر**»[(٤)]، وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبدًا حبشيًّا مُجدَّعَ الأطراف»[(٥)].

وروىٰ مسلم في «صحيحه» عن نافع عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٤٤)، وغيره من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٢)، وابن حبان (٤٥٥٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (١٠٦٥).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٣٣)، والدارقطني (٢/ ٥٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٦٧٣).

(٤) أخرجه البخاري (٢٨٩٧)، ومسلم (١١١)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه مسلم (٦٤٨)، وأحمد (٥/ ١٦١)، وغيرهما من حديث أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**مَن خلع يدًا من طاعة لقِي اللهَ يوم القيامة لا حُجَّةَ له، ومَن مات وليس في عُنُقه بيعة مات ميتةً جاهلية**»(١)، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَن خرج من الطَّاعة وفارق الجماعةَ ثم مات مات ميتة جاهلية**»(٢)، رواه مسلم.

وفي «الصحيحين» عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من رأىٰ مِن أميره شيئًا يكرهه فليَصْبر عليه، فإن خرج مِن السلطان شبرًا مات ميتة جاهلية**»(٣)، إلىٰ غير ذلك من الأدلة الدالة علىٰ وجوب طاعة ولاة الأمور، فإذا أمروا بطاعة الله وجبت طاعتهم، وإذا أمروا بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة، كما في «الصحيح» أنه قال: «**إنَّما الطاعةُ في المعروف**»(٤)، وصح عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق**»(٥).

إلىٰ غير ذلك من الأدلة الدالة علىٰ الحث علىٰ السمع والطاعة لولاة الأمور؛ إذا أمروا بطاعة الله، فإن في طاعة ولاة الأمور من المنافع والمصالح ما لا يحصىٰ، ففيها سعادة الدين وانتظام مصالح العباد في معاشهم، ويستعينون بها علىٰ إظهار دينهم وطاعة ربهم، كما قال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إن الناس لا يصلحهم إلا

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٥١)، وأحمد (٢/ ٨٣)، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٤٨)، والنسائي (٤١١٤)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٤٦)، ومسلم (١٨٤٩)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه البخاري (٦٧٢٦)، ومسلم (١٨٤٠)، وغيرهما من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٦٦)، والطبراني (١٨/ ١٧٠)، وغيرهما من حديث عمران بن حصين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٥٢٠).

إمامٌ برٌّ أو فاجر، إن كان فاجرًا عبَد المؤمن ربَّه، وحُمل الفاجر فيها إلىٰ أجله.

وقال الحسن في الأمراء: هم يلون من أمورنا خمسًا: الجمعة، والجماعة، والعيد، والثغور، والحدود، والله ما يستقيم الدين إلا بهم وإن جاروا أو ظلموا، والله لَمَا يُصلح الله بهم أكثر مما يفسدون[١].

وروي: «ستون سنة مع إمامٍ جائرٍ خيرٌ من ليلةٍ واحدةٍ بلا إمام»[٢]، وروي أن عمرو بن العاص أوصىٰ ابنه فقال: «إمامٌ عادلٌ خيرٌ من مطرٍ وابل، وأسدٌ خطومٌ خيرٌ من إمامٍ ظلوم، وإمامٌ ظلومٌ غشومٌ خيرٌ من فتنةٍ تدوم»[٣]، وقال عبد الله بن المبارك:

إن الخلافة حبل الله فاعتصموا ... منه بعروته الوثقىٰ لمن كانَا
كم يدفع الله بالسلطان معضلة ... عن ديننا رحمة منه ودُنيانَا
لولا الخلافة لم تأمن لنا سُبلٌ ... وكان أضعفُنا نهبًا لأقوانَا[٤]

وأجمع العلماء علىٰ أنه يجب علىٰ المسلمين نصب خليفةٍ، ووجوبه في الشرع وأدلة ذلك كثيرةٌ، ونصبه يكون بأحد أمور: إما باستخلاف مَن قبله له، كما فعل أبو بكر الصديق في استخلافه عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أو باتفاق أهل الحل والعقد علىٰ عقدها لصالح، أو يجعلها شورىٰ بين جماعةٍ، كما فعل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أو قهر الناس حتىٰ دانوا له ودعوه إمامًا، لما قال أحمد في رواية عبدوس بن مالك

---

(١) انظر: «جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم» (٢/ ١١٧).

(٢) انظر: «منهاج السنة» (١/ ٥٤٨).

(٣) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٦/ ١٨٤).

(٤) انظر: «الدرر السنية في الأجوبة النجدية» (٩/ ١٦٥).

العطار: ومن غلب عليهم بالسيف حتىٰ صار خليفة، وسمي أمير المؤمنين فلا يحل لأحد يؤمن بالله يبيت ولا يراه إمامًا برًّا كان أو فاجرًا[1]، وقد أفردت أحكام الإمامة بمصنفات فارجع إليها[2].

⊙ **قوله**: «أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا»: البِرُّ بكسر الباء أصله: التوسع في فعل الخير، وهو اسمٌ جامعٌ للخيرات كلها، ويطلق علىٰ العمل الصالح الدائم، والفجور يطلق علىٰ الميل إلىٰ الفساد والانبعاث في المعاصي، وهو اسمٌ جامعٌ للشر، فتجب طاعة ولاة الأمور في الطاعة، وتحرم مخالفتهم والخروج عليهم، سواء كانوا أبرارًا أو فجارًا، فلا ينعزل الإمام بالفسق والظلم وتعطيل الحقوق، ولا يُخلع، ولا يجوز الخروج عليه، بل يجب وعظه؛ وذلك لما يترتب علىٰ ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين، فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه، والشريعة جاءت بجلب

---

(١) انظر: «المعتمد في أصول الدين» (٢٣٨).

(٢) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٦٠٥):

«والذين يخرجون علىٰ الولاة بالسيف قسمان:

القسم الأول: البغاة: وهم الذين يخرجون علىٰ الإمام بتأويل سائغ لهم، إمَّا في المال، أو في الدين، ونحو ذلك، فهؤلاء يُسَمَّون البُغاة -كما قال الفقهاء في تعريف البُغاة- فإن كانوا خرجوا بتأويل غير سائغ فهم المحاربون الذين جاء فيهم حد الحرابة.

القسم الثاني: الخوارج: الذين يتبعون عقيدة الخوارج الأُول، فليس كل من خرج علىٰ ولي الأمر المسلم خارجيًّا؛ بل قد يكون باغيًا له تأويله، ويُقاتَل حتىٰ يفيء إلىٰ أمر الله عَزَّوَجَلَّ، وقد يكون خارجيًّا، والخارجي له أحكام الخوارج المعروفة، وهم الذين يخرجون علىٰ الإمام لأجل معتقداتهم في ذلك» اهـ.

المصالح ودفع المضار.

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللَّهُ: ولعله لا يكاد يعرف طائفةٌ خرجت علىٰ ذي سلطان إلا وكان في خروجها من الفساد أكثر من الذي في إزالته، وقال -أيضًا- في أثناء كلام له: ونهىٰ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قتال أئمة الجور، وأمر بالصبر علىٰ جورهم، ونهىٰ عن القتال في الفتنة، فأهل البدع من الخوارج والشيعة والمعتزلة وغيرهم، يرون قتلهم والخروج عليهم إذا فعلوا ما هو ظلم أو ظنوه هم ظلمًا، ويرون ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(١). اهـ.

وقال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح مسلم»: وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرامٌ بإجماع المسلمين وإن كانوا فسقةً ظالمين، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنىٰ ما ذكرته، وأجمع أهل السنة علىٰ أن الإمام لا ينعزل بالفسق، وقال العلماء: وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتب علىٰ ذلك من الفتنة وإراقة الدماء وإفساد ذات البين، فتكون المفسدة أكثر من المفسدة في بقائه(٢)(٣). انتهىٰ.

---

(١) انظر: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (٣/ ٣٩١).

(٢) انظر: «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (١٢/ ٢٢٩).

(٣) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٦١٢-٦١٥):

«والإمارة أو الولاية أو الإمامة تنعقد عند أهل السنة والجماعة بأحد أمرين:

الأول: ولاية الاختيار؛ وذلك باختيار أهل الحل والعقد له ثم بيعتهم له، وهذه أفضل أنواع الولاية لو حصلت لا يُعْدَلُ عنها إلىٰ غيرها، فلا يكون علىٰ الأمة إلا من يُختار لها، وولاية الاختيار هذه منها ولاية الخلفاء الراشدين: أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكذلك ولاية =

=

معاوية بن أبي سفيان لما تنازل له الحسن بالخلافة؛ فإنها كانت ولاية اختيار، ثم بعد ذلك لم يَصِرْ ولاية اختيار إلا في أزمنة محدودة وفي أمكنة مُتفرقة ليست عامة ولا ظاهرة.

الثاني: ولاية الإجبار، وهي أن يغلب أحدٌ علىٰ المسلمين بسيفه وسنانه، ويدعو الناس إلىٰ بيعته؛ فإن هذا تلزم بيعته؛ لأنه غَلَبَ، وهذه تُسمىٰ: ولاية تغلب، قال العلماء: «وهذا النوع من الولاية تلزم به الطاعة وجميع حقوق الإمامة». لكن هذا ليس هو الأصل، وليس مُختارًا، بل هو لدرء الفتنة وللالتزام بالنصوص؛ فإن النصوص أوجبت طاعة الأمير وعدم الخروج عليه، وهذا غلب علىٰ الناس ودعاهم إلىٰ طاعته، فلا يجوز أن يُتخلَّفَ عن مبايعته مهما حصل.

وتنوعت الولاية في زمن الخلفاء:

* فكانت ولاية أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنص من رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبالاجتماع عليه.
* ووُليَ عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنصٍّ من أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ثم بالاجتماع عليه.
* ووُليَ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأن جعل عمر الولاية في ستة نفرٍ اختاروا عثمان من بينهم، ثم بايعه الناس.
* وعليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يجتمع الناس عليه، وإنما بايعه من كان في المدينة.

هذا فيه أن الولاية الشرعية تحصل بالتنصيص عليه من الوالي قبله، وهو الذي أخذه معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين عقد بيعة ليزيد بن معاوية في حياته ولاية للعهد، فلَزِمَتْ ذلك في حياته واستمرت بعده.

فولاية التنصيص هذه إن كان بعدها اختيار من أهل الحل والعقد صارت ولاية اختيار، وإن كانت من جهة الغلبة بأن لا يستطيع أحد أن يُخالف وإلا فُعل به وفُعل صارت ولاية تغلب؛ ولهذا يعدون ولاية يزيد بن معاوية من ولاية التغلب وليست ولاية الاختيار، بخلاف معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فإنه خير ملوك المسلمين، وولايته كانت بالاختيار؛ لأن الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تنازل له عن الخلافة وعن إمرة المؤمنين، فاجتمع الناس علىٰ معاوية سنة إحدىٰ وأربعين، وسُمي ذلك العام عام الاجتماع أو عام الجماعة، فالمقصود من ذلك أن حصول الولاية الشرعية يكون بولاية الاختيار أو ولاية الإجبار والتغلب.

=

⊙ **قوله: «وَيُحَافِظُونَ عَلَىٰ الْجَمَاعَاتِ[(١)]»**: لأنها من أوكد العبادات ومن أجلِّ الطاعات ومن أعظم شعائر الإسلام الظاهرة، وقد تكاثرت الأدلة في الحث علىٰ حضور الجمع والجماعات والترغيب في ذلك، وتحريم التخلف عنهما إلا لعذر،

=

والولاية فيها أفضل وفيها جائز، أما الأفضل فأن تجتمع في ولي أمر المسلمين الشروط الشرعية التي جاءت في الأحاديث، وهي كونه مُكلفًا، مُسلمًا، عدلًا، حُرًّا، ذكرًا، عالمًا، مُجتهدًا، شجاعًا ذا رأي وكفاية، سميعًا، ناطقًا، قُرشيًا، ونحو ذلك من الشروط المُعتبرة العامة التي تكلم عليها الفقهاء.

وهذه الشروط في ولاية الاختيار، أما ولاية التغلب فإنما لدرء الفتنة يُقَرُّ الوالي ولو كان عبدًا حبشيًا؛ كما في حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي في «الصحيح»، قال: «إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبدًا مجدع الأطراف» وهذه عامة في ولاية التغلب، وفي الرواية الثانية: «اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمل عليكم عبدٌ حبشي كأن رأسه زبيبة»، وهذه فيها بيان أن اجتماع الشروط المعتبرة -أن يكون قُرشيًا عالمًا ونحو ذلك- يكون في ولاية الاختيار، أما في ولاية التغلب فلا يُنظَر إلىٰ هذه الشروط؛ لأن المسألة مسألة غلبة بالسيف».

وقال -أيضًا- (٢/ ٦١٦، ٦١٧):

«يُفهم من ذلك أن أهل السنة والجماعة جعلوا طاعة الأمراء في أربعة أشياء من الحكم التكليفي: الواجبات، المُستحبات، المُباحات، المكروهات.

وهذه الأربعة جاريةٌ -أيضًا- في حق ولاية الوالد علىٰ ابنه؛ فإنه يُطاع في الواجب، والمُستحب، والمباح، والمكروه، إذا قال لابنه: افعل كذا. وهو مكروه؛ فإن طاعته واجبة، وفعل المكروه لا إثم فيه، فيُرجِح جانب الواجب لأنه أرجح من جهة الحكم.

يبقىٰ الحكم التكليفي الخامس وهو ما نُهي عنه نَهي تحريم؛ فإنه لا يُطاع فيه؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» اهـ.

(١) «وَيُحَافِظُونَ عَلَىٰ الجُمَعِ وَالْجَمَاعَاتِ»، هكذا جاءت بنسخة المؤلف.

هذا ما عليه أهل السنة، خلافًا للمبتدعة من الرافضة وغيرهم الذين لا يرون الجهاد ولا حضور الجماعة إلا مع الإمام المعصوم، وإمامهم هذا الذي يزعمون هو معدوم، وهم ينتظرونه من مدة طويلة، ولم يقفوا له على عينٍ ولا أثر، إن هي إلا مجرد أوهام وأماني وظنونٍ كاذبة، وإن الظن لا يغني عن الحق شيئًا: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١].

قال الشيخ تقي الدين رحمه الله: ومن ظن أن صلاته وحده أفضل من أجل خلوته أو غير ذلك فهو مخطئٌ ضالٌّ، وأضل منه من لم يرَ الجماعة إلا خلف معصومٍ فعطَّل المساجد وعمَّر المشاهد[1]. انتهى.

وصلاة الجماعة فرض عين، وهذا هو المشهور عن أحمد وغيره من أئمة السلف وعلماء الحديث، وقال بعض العلماء: إن صلاة الجماعة شرطٌ؛ لحديث: «**لا صلاةَ لجار المسجد إلا في المسجد**»[2]، واختاره الشيخ تقي الدين وابن عقيل وغيرهم.

وقال الشيخ تقي الدين رحمه الله: ومن قال: لا تجوز خلف من لا تُعرف عقيدته، وما هو عليه؛ فهو قولٌ لم يقله أحد من المسلمين، فإن أهل الحديث والسُّنة -كالشافعي وأحمد وإسحاق وغيرهم- متفقون على أن صلاة الجمعة تصلى خلف البر والفاجر، حتى إن أكثر أهل البدع كالجهمية الذين يقولون بخلق القرآن، وأن الله لا يرى في الآخرة، ومع أن أحمد ابتلي بهم -وهو أشهر الأئمة بالإمامة في السنة- ومع هذا لم تختلف

(١) انظر: «مختصر الفتاوى المصرية» لابن تيمية (٥٦).

(٢) أخرجه الحاكم (٩٨٩)، والدارقطني (١/ ٤٢٠)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٢٩٧).

نصوصه أنه تصلىٰ الجمعة خلف الجهمي والقدري والرافضي، وليس لأحدٍ أن يدع الجمعة لبدعةٍ في الإمام، لكن تنازعوا هل تعاد؟ علىٰ قولين: هما روايتان عن الإمام أحمد، قيل: تعاد خلف الفاسق، ومذهب الشافعي وأبي حنيفة: لا تعاد(١). اهـ.

وهذا هو الصحيح، فإن الصحابة كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة والفجار ولا يعيدون، كما كان عبد الله بن عمر يصلي خلف الحجاج بن يوسف، وكذلك أنس، وكذلك عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وغيرهم يصلون خلف الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيط وكان يشرب الخمر.

وأخرج الدارقطني من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**صلُّوا خلف كل برٍّ وفاجر**»(٢)، وقال: لم يلق مكحول أبا هريرة، وفي إسناده معاوية بن صالح متكلَّم فيه، وقد احتج به مسلم في «صحيحه»، وخرَّج الدارقطني -أيضًا- وأبو داود، عن مكحول، عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الصَّلاةُ واجبةٌ عليكم مع كل مسلمٍ برًّا كان أو فاجرًا وإن عمِل بالكبائر، والجهادُ واجبٌ عليكم مع كل أميرٍ برًّا كان أو فاجرًا وإن عمل بالكبائر**»(٣). انتهىٰ.

⊙ **قوله**: «**وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ للأُمَّةِ...**»: أي: يتعبدون، يقال: دان بالإسلام دِينًا

---

(١) انظر: «مختصر الفتاوىٰ المصرية» لابن تيمية (٦٢).

(٢) أخرجه الدارقطني (٢/ ٥٧)، والبيهقي (٤/ ١٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «الإرواء» (٥٢٠).

(٣) أخرجه أبو داود (٢٥٣٣)، والدارقطني (٢/ ٥٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٦٧٣).

بالكسر: تعبَّد به وتديَّن به كذلك، أي أن أهل السنة يدينون: أي: يتعبدون بالنصيحة لجميع الأمة، كما تكاثرت الأخبار في الحث عليها والترغيب فيها؛ ولأن عليها مدار الدين كما في «الصحيحين» من حديث تميم الداري أن رسول الله ﷺ قال: «الدِّينُ النَّصيحةُ، الدِّينُ النصيحةُ، الدِّينُ النصيحة»، قالها ثلاثًا، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «للهِ، ولرَسولِه، ولكتابِه، ولأئمَّة المسلمين، وعامَّتِهم»(١)، فقد حصر الدين فيها(٢).

قال الخطابي: النصيحة كلمة جامعة معناها: حيازة الحظ للمنصوح له(٣).

وقال ابن بطَّال: والنصيحة تسمىٰ دينًا وإسلامًا، والدين يقع علىٰ العمل كما يقع علىٰ القول، وقال: وهي فرض كفايةٍ يجزئ فيه من قام به ويسقط عن الباقين، وقال: والنصيحة لازمة علىٰ قدر الطاقة إذا علم الناصح أنه يقبل منه وأمن علىٰ نفسه

---

(١) أخرجه مسلم (٥٥)، وأبو داود (٤٩٤٤)، وغيرهما من حديث تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٣٤٣):

«ومن أعظم أئمة المسلمين: العلماءُ، والنصيحة لعلماء المسلمين هي نشر محاسنهم، والكف عن مساوئهم، والحرص علىٰ إصابتهم الصواب، بحيث يرشدهم إذا أخطئوا، ويبين لهم الخطأ علىٰ وجه لا يخدش كرامتهم، ولا يحط من قدرهم؛ لأن تخطئة العلماء علىٰ وجه يحط من قدرهم ضرر علىٰ عموم الإسلام؛ لأن العامة إذا رأوا العلماء يضلل بعضهم بعضًا؛ سقطوا من أعينهم وقالوا: كل هؤلاء راد ومردود عليه. فلا ندري من الصواب معه! فلا يأخذون بقول أيِّ واحد منهم، لكن إذا احترم العلماء بعضهم بعضًا، وصار كل واحد يرشد أخاه سرًّا إذا أخطأ، ويعلن للناس القول الصحيح؛ فإن هذا من أعظم النصيحة لعلماء المسلمين» اهـ.

(٣) انظر: «فتح الباري» (١/ ١٣٨).

المكروه، فإن خشي على نفسه أذى فهو في سعة[(١)]. انتهى.

وأخرج الطبراني من حديث حذيفة بن اليمان عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: **«مَن لم يهتمَّ بأمر المسلمين فليس منهم، ومَن لم يُمْسِ ويُصبِحْ ناصحًا لله ولرسوله ولكتابه ولإمامه ولعامَّة المسلمين فليس منهم»**[(٢)].

قال **الخطابي**: فمعنى النصيحة لله: صحة الاعتقاد في وحدانيته وإخلاص النية في عبادته، والنصيحة لكتابه: الإيمان به والعمل بما فيه، والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته وبذل الطاعة فيما أمر به ونهى، والنصيحة لعامة المسلمين: إرشادهم إلى مصالحهم[(٣)].

وفي «صحيح مسلم» عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«حقُّ المُؤمن على المؤمن سِتٌّ»** فذكر منها: **«وإذا استَنْصَحَك فانْصَحْ له»**[(٤)] وفي «المسند» عن حكيم بن أبي يزيد عن أبيه عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إذا استَنْصح أحدُكم أخاه فلينْصَح له»**[(٥)].

⊙ **قوله**: **«وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...»** إلخ: هذا الحديث رواه

---

(١) انظر: «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (٢/ ٣٩).

(٢) أخرجه الطبراني (٧٤٧٣)، من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٣١٠).

(٣) انظر: «جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم» (١/ ٢١٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢١٦٢)، وأحمد (٢/ ٣٧٢)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٥) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٨)، والطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٥١٠٩)، وغيرهما من حديث حكيم بن أبي يزيد عن أبيه، وحسنه الألباني في «غاية المرام».

البخاري ومسلم من حديث أبي موسىٰ الأشعري.

⊙ **قوله:** «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ**»: أي: المؤمن الإيمان الكامل، في هذا الحديث الحث علىٰ التناصر والتناصح والتعاون، وقد تكاثرت الأحاديث بمعنىٰ هذا الحديث، وقال القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو تمثيلٌ وتقريبٌ للفَهم يريد الحث علىٰ التعاون والتناصر، فيجب امتثال ما حث عليه، وقال ابن بطال: والمعاونة في أمور الآخرة، وكذا في الأمور المباحة من الدنيا مندوبٌ إليها، وقد ثبت في حديث أبي هريرة أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**واللهُ في عونِ العبد ما كان العبدُ في عَون أخيه**»[(١)].

⊙ **قوله:** «**وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ**»: يستفاد منه أن الذي يريد المبالغة في بيان أقواله يمثلها في حركاته، وليكون أوقع في النفس. ذكره في «الفتح»[(٢)].

⊙ **قوله:** «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ**»: هذا الحديث أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما من حديث النعمان بن بشير، وفي رواية لمسلم: «**المُسلمون كرَجلٍ واحدٍ إذا اشتكىٰ عينه اشتكىٰ كلُّه، وإذا اشتكىٰ رأسُه اشتكىٰ كلُّه**»[(٣)]، والمراد بـ«المؤمن» الإيمان الكامل.

⊙ **قوله:** «**كَمَثَلِ الْجَسَدِ الوَاحِدِ**»: أي: بالنسبة علىٰ جميع أعضائه، ووجه التشبيه فيه التوافق في التعب والراحة.

⊙ **قوله:** «**فِي تَوَادِّهِمْ**»: بتشديد الدال: مصدر توادد، أي: تحابب،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩)، وأبو داود (٤٩٤٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «فتح الباري» (١٠/ ٤٥٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٨٦)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

وتراحمهم، أي: تلاطفهم.

⊙ **قوله:** «**وَتَعَاطُفِهِمْ**»: عطْفُ بعضهم علىٰ بعض.

⊙ **قوله:** «**إِذَا اشْتَكَىٰ**»: أي: تألَّم عضو من أعضاء جسده، «تداعىٰ» أي: دعا بعضه بعضًا إلىٰ المشاركة في الألم.

⊙ **قوله:** «**سَائِرُ**»؛ أي: باقي، «والحمىٰ» هي المرض المعروف، «والسهر» عدم النوم في الليل، قاله في «القاموس».

فهذان الحديثان دلا علىٰ أن من صفات المؤمنين التعاطف فيما بينهم والتراحم ومحبة بعضهم لبعضٍ الخير، وفي حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**المُؤمنُ مِرآةُ المُؤمن، المؤمنُ أخو المُؤمن يَكفُّ عنه ضَيعَتَه، ويَحوطُه مِن ورائه**»(١). رواه أبو داود، وخرجه الترمذي بلفظ: «**إنَّ أحدَكم مِرآةُ أخيه، فمَن رأىٰ به أذىٰ فليُمِطْه عنه**»(٢)، وفيهما دليلٌ علىٰ أن المؤمن يسرُّه ما يَسُرُّ أخاه المؤمن، ويسوؤه ما يسوؤه، ويحب له ما يحب لنفسه من الخير، وهذا كله مما يدل علىٰ سلامة القلب من الغش والحسد والحقد، وفيها أن من صفات المؤمنين الاجتماع والاتفاق والتعاضد ومساندة بعضهم لبعض في غير إثمٍ ولا مكروه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩١٨)، والبيهقي في الشعب (٧٦٤٥)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٦٥٦).

(٢) أخرجه الترمذي (١٩٢٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٣٧١).

قال النووي رحمه الله: هذه الأحاديث صريحة في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم علىٰ بعض، وحثهم علىٰ التراحم والملاطفة والتعاضد في غير إثمٍ ولا مكروه[1].

وفيه جواز التشبيه وضرب الأمثال لتقريب المعاني إلىٰ الأفهام.

◈ ◈ ◈

(١) انظر: «المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج» (١٦/ ١٣٩).

وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ، وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ.

وَيَدْعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»(١).

وَيَنْدُبُونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ، وَيَأْمُرُونَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الْأَرْحَامِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَى الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالرِّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ، وَالْخُيَلَاءِ، وَالْبَغْيِ، وَالِاسْتِطَالَةِ عَلَى الْخَلْقِ بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الْأَخْلَاقِ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ سَفْسَافِهَا.

وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا أَوْ غَيْرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَطَرِيقَتُهُم: هِيَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ.

الشَّرح

⊙ **قوله**: «وَيَأْمُرُونَ»: الأمر استدعاء الفعل بالقول على وجه الاستعلاء، قال بعضهم:

أمـر مـع اسـتعلا وعكسـه دُعـا ... وفي التسـاوي فالتمـاس وقعـا(٢)

وهذه الثلاثة المذكورة في المتن من صفات المؤمنين، وهي عنوان السعادة وعلامة الفلاح. أخرج الطبراني بسند حسن عن سَخْبرة مرفوعًا: «مَن أُعطي فشكر،

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، وقال: «هذا حديث حسن صحيح»، وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وصححه العلامة الألباني في «الصحيحة»، برقم (٢٨٤).

(٢) انظر: «الأصل الجامع لإيضاح الدرر المنظومة في سلك جمع الجوامع» (١/ ١٠٧).

وابتُلي فصبر، وظَلَمَ فاستغفر، وظُلِم فغَفر، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون»(١).

والصبر معناه لغةً: الحبس.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: هو حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، وحبس الجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب(٢).

وقد تكاثرت الأدلة في الأمر بالصبر والحث عليه، قال تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزمر: ١٠]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الصَّبرُ ضِياءٌ»(٣)، وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، ثم رفع صوته فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له»، وقد تقدم الكلام في الصبر فلا نطيل بإعادته.

أما الرضا: فهو من أجلِّ الطاعات وأشرف منازل السائرين إلىٰ الله سبحانه، وهو مستحبٌّ بالإجماع، وقال بعض العلماء بوجوبه لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فمَن أَرضىٰ اللهَ فله الرِّضا، ومَن سَخِط فعليه السَّخط»(٤)، والأدلة علىٰ فضله والحث عليه كثيرةٌ جدًّا قال الله تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ

---

(١) أخرجه الطبراني (٧/ ١٣٨)، من حديث سخبرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (١٩٨٤).

(٢) انظر: «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (١٥).

(٣) جزء من حديث أبي مالك الأشعري عند مسلم (٢٢٣)، والترمذي (٣٥١٧)، وغيرهما.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢١١٠).

بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، وكان من دعاء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«وأسألك الرِّضا بعد القَضا»**(١).

وجاء رجلٌ إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فسأله أن يوصيه وصيةً جامعةً موجزة، فقال: **«لا تَتَّهِمِ اللهَ في قضائه»**(٢)(٣).

---

(١) أخرجه النسائي (١٣٠٥)، ابن حبان (١٩٧١)، وغيرهما من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «تحقيق الاحتجاج بالقدر» (ص٩٠).

(٢) أخرجه أحمد (٥/٣١٨)، والبيهقي في «الشعب» (٩٧١٤)، وغيرهما من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١٣٠٧).

(٣) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٣٥١، ٣٥٢):**

«القضاء يطلق على معنيين:

أحدهما: حكم الله تعالىٰ الذي هو قضاؤه ووصفه، فهذا يجب الرضا به بكل حال، سواء كان قضاء دينيًا أم قضاء كونيًا؛ لأنه حكم الله تعالىٰ، ومن تمام الرضا بربوبيته.

فمثال القضاء الديني: قضاؤه بالوجوب والتحريم والحل، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

ومثال القضاء الكوني: قضاؤه بالرخاء والشدة والغنىٰ والفقر والصلاح والفساد والحياة والموت، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سبأ: ١٤] ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾﴾ [الإسراء: ٤].

المعنىٰ الثاني: المقضي، وهو نوعان:

الأول: المقضي شرعًا، فيجب الرضا به وقبوله، فيفعل المأمور به، ويترك المنهي عنه، ويتمتع بالحلال.

والنوع الثاني: المقضي كونًا.

فإن كان من فعل الله، كالفقر والمرض والجدب والهلاك ونحو ذلك، فقد تقدم أن الرضا به =

وفي «صحيح مسلم» عن العباس بن عبد المطلب عن النبي ﷺ قال: «ذاق طعمَ الإيمانِ مَن رضِي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمُحمَّد رسولًا»[(١)]، فالرضا بربوبيته يتضمن الرضا بعبادته وحده لا شريك له، والرضا بتدبيره للعبد واختياره له، وقد تقدم الكلام على الرضا على قوله: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [البينة: ٨].

والشكر: هو فعلٌ يُنْبِئ عن تعظيم المنعِم لكونه منعمًا، وهو شرعًا: صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه لما خُلق لأجله، ويتعلق بالقلب واللسان والجوارح كما قيل:

أفادتكم النعماء مني ثلاثة ... يدي ولساني والضمير المحجَّبا[(٢)]

والشكر من أجلِّ الطاعات وأفضلها، ومن أشرف منازل السائرين إلى الله وأرفعها وهو مؤذنٌ بالمزيد، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ﴾ [إبراهيم: ٧].

قال ابن القيم رحمه الله: منزلة الشكر أعلى المنازل وهو فوق منزلة الرضا، فالرضا مندرج في الشكر، إذ يستحيل وجود الشكر بدونه وهو نصف الإيمان، والإيمان نصفان: نصفٌ شكر ونصفٌ صبر، إلى أن قال: وأهله هم القليل، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ

=

سنة، لا واجب، على القول الصحيح.

- وإن كان من فعل العبد، جرت فيه الأحكام الخمسة، فالرضا بالواجب واجب، وبالمندوب مندوب، وبالمباح مباح، وبالمكروه مكروه، وبالحرام حرام» اهـ.

(١) أخرجه مسلم (٣٤)، والترمذي (٢٦٢٣)، وغيرهما من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

(٢) انظر: «نواهد الأبكار» للسيوطي (١/ ١٥٧).

مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣]، وقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٢][(١)]. انتهىٰ.

والتحدث بالنعمة شكرٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحىٰ: ١١]، وأما حكم الشكر فواجبٌ لما تقدم، وهو مبنيٌّ علىٰ ثلاثة أركان: التحدث بالنعمة ظاهرًا، والاعتراف بها باطنًا، وصرفها في طاعة موليها ومسديها وهو الله. ذكره ابن القيم بتصرف[(٢)(٣)].

⊙ **قوله: «وَيَدْعُونَ إِلَىٰ مَكَارِمِ الأَخْلاقِ...»**: المكارم: جمع مَكرُمة بضم الراء، وهي من الكرم، وكل فائقٍ في بابه يقال له: كريم.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٢٣٢).

(٢) انظر: «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ١٧٤).

(٣) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٦٤١):

«والشكر له أركان ثلاثة واجبة كلها:

الأول: أن يقوم في القلب أنَّ النعمة من عند الله عَزَّوَجَلَّ، فيكون القلب مُنطويًا علىٰ أن الفضل من الله عَزَّوَجَلَّ لا من غيره، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

الثاني: التحدث بهذه النعمة.

الثالث: استعمالها فيما يُحِبُّ من أَنْعَمَ بها لا فيما يَسْخَط ويَكْرَه، وإذا قلنا: استعمالها فيما يُحِب فإنه يشمل ما أُذن به من جهة التغليب، يعني: يشمل المُباح من جهة التغليب، وإلا فالأولىٰ أن يُقال: استعمالها فيما أَذِنَ به، فيدخل فيه المباح؛ لأن من استعمل نِعَم الله عَزَّوَجَلَّ في الواجبات أو في المستحبات أو في المُباحات فإنه شاكر، بخلاف من استعملها في المحرمات» اهـ.

⊙ **قوله: «وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ»**: أي: جميلها، وقال الراغب: الحسن: عبارة عن كل مرغوبٍ فيه، أي: أن أهل السنة والجماعة يحثون ويرغِّبون في مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال: كالكرم والشجاعة والصدق والأمانة ونحو ذلك؛ لما تكاثرت به الأدلة من الحث على ذلك والترغيب فيه، وأن ذلك من صفات المؤمنين بل من أخص علامات الإيمان، كما في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**خَصلتان لا يَجتمعان في منافق: حُسنُ سَمْتٍ، وَفِقْهٌ في الدِّين**»[1] ورواه الترمذي، قال تعالى في نبيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان خُلُقه القرآن يأتمر بأوامره، وينزجر عن زواجره، ويرضى لرضاه، ويغضب لغضبه»، أي: كان متمسكًا بآدابه وأوامره ونواهيه، وما يشتمل عليه من المكارم والمحاسن والألطاف.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في «المدراج»: وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩]، قال جعفر بن محمد: أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آيةٌ أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية[2]. انتهى.

وفي «الصحيح» أن أبا ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لأخيه -لمَّا بلغه مبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: اركب إلى هذا الوادي فاسمع من قوله، فرجع فقال: رأيته يأمر

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٤)، والطبراني في «الأوسط» (٨٠١٠)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٢٩).

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٢٨٩).

بمكارم الأخلاق[١]، وفي الحديث أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بُعثتُ لأُتمِّم مكارمَ الأخلاق**»[٢] رواه أحمد والبزار، ورواه مالك في «الموطأ»، ولفظه قال: بلغني أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بُعثتُ لأتمِّم حُسنَ الأخلاق**»[٣].

قال القرطبي في «المفهم»: الأخلاق أوصاف الإنسان التي يعامل فيها غيره، وهي محمودةٌ ومذمومة، فالمحمودة على الإجمال أن تكون مع غيرك على نفسك، فتنصف منها ولا تنصف لها، وعلى التفصيل: العفو، والحلم، والجود، والصبر، وتحمُّل الأذى، والرحمة، والشفقة، وقضاء الحوائج، ونحو ذلك، والمذموم ضد ذلك[٤]. انتهى.

وقال الحسن: حقيقة حسن الخلق: بذل المعروف، وكف الأذى، وطلاقة الوجه، رواه الترمذي عن عبد الله بن المبارك[٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ **في «المدارج»**: الدِّين كله خُلقٌ، فمن زاد عليك في الخُلق زاد عليك في الدين، وحسن الخلق يقوم على أربعة أركان: الصبر، والعفة، والشجاعة، والعدل، فالصبر يحمله على الاحتمال وكظم الغيظ والحلم والأناة والرفق وعدم الطيش، والعفة تحمله على اجتناب الرذائل والقبائح من القول

(١) أخرجه البخاري (٣٦٤٨)، ومسلم (٢٤٧٤)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» بلاغًا (١٦٠٩).

(٤) انظر: «المفهم» (٦/ ١١٦، ١١٧).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٠٠٥) عن ابن المبارك رحمه الله تعالى.

والفعل، والشجاعة تحمله علىٰ عزة النفس وقوتها علىٰ إخراج المحبوب وتحمله علىٰ كظم الغيظ والحلم، والعدل يحمله علىٰ اعتدال أخلاقه وتوسطه بين طرفي الإفراط والتفريط، فمنشأ جميع الأخلاق الفاضلة من هذه الأربعة، ومنشأ جميع الأخلاق السافلة وبناؤها علىٰ أربعة أركان: الجهل، والظلم، والشهوة، والغضب[١][٢]. انتهىٰ.

---

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢/ ٢٩٤).

(٢) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٦٣١-٦٣٦):

«والفِرَق المخالفة لطريقة أهل السنة في باب الأخلاق تنوعت، منهم من لم يهتم بهذا أصلًا وإنما يهتمون بالأمور الكلية، فهم في سلوكهم وعملهم وأخلاقهم وديانتهم لا يهتمون بذلك، لا من جهة حقوق الله عَزَّوَجَلَّ، ولا من جهة حقوق الخلق: من الواجبات والمستحبات، فهم مفرطون في ذلك كله، وقد أخذوا الاعتقاد من جهة العقليات فصارت عندهم مباحث أشبه ما تكون بمباحث اللاهوت عند النصارىٰ، وليست بمباحث عقدية تؤثر في القلب عقدًا فتستجيب لها الجوارح فعلًا وسلوكًا وحركة، فالمتكلمون أقسىٰ قلوبًا مع أنهم يُثبتون وجود الله عَزَّوَجَلَّ بما يُثبتونه به، ويُثبتون البعث، ويُثبتون أشياء مما هي معلومة في العقيدة، ويُخالفون فيما يُخالفون، لكنهم ليسوا بذوي زكاء في قلوبهم.

ولهذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصف أئمتهم: «أوتوا ذكاءً وما أوتوا زكاءً، وأُعطوا فُهُومًا وما أُعطوا علومًا»، وهذا واقع؛ فإن كثيرين دخلوا في مباحث الاعتقاد من جهةٍ عقلية بحتة ولم يستفيدوا منها في تعظيم الله عَزَّوَجَلَّ كما ينبغي، ولا في تعظيم رسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التعظيم الذي أذن الله عَزَّوَجَلَّ به لرسوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من جهة محبته وطاعته واتباع ما جاء به، فهذه الفئة -المتكلمون ومن شابههم- لم يعتنوا أصلًا بالأخلاق ولا بالعمل، ومثلهم الفلاسفة الإسلاميون كذلك لم يهتموا بالعمل، وهؤلاء أصناف متنوعة.

=

=

يُقابلهم جهة أخرىٰ غلت في الأخلاق حتىٰ جاوزت المأذون به وجاوزت السنة في ذلك، وهم المتصوفة، والصوفية فرقة نشأت في أواسط القرن الثاني للهجرة، وكان لنشوئها أسباب، منها: مخالطتهم للنصارىٰ خارج الأمصار وخارج البلاد المتأهلة بالسكان -مثل بغداد ودمشق ونحو ذلك- وقد كان النصارىٰ يميلون إلىٰ الرهبنة وينعزلون، فلما خالطهم طائفة من جهلة المسلمين قلَّدُوهم في ذلك حتىٰ غلوا في جانب الأخلاق، فصاروا مُخالفين لطريقة السلف الصالح فيه.

وهؤلاء الذين غلوا -وهم الصوفية- نُسِبوا إلىٰ لُبْسِهِم الصوف تقليدًا للنصارىٰ، وهناك أقوال أخر في سبب تسمية الصوفية، لكن هذا هو أظهرها، ففي المقامات والأحوال لم يُتابعوا ما جاء عن النبي ﷺ، وإنما دخلوا بالذوق، وهذا له سبب؛ وذلك أن كُتب اليونان لمَّا تُرجِمَتْ في أوائل القرن الثالث، وأُتي بها إلىٰ بلاد المسلمين، كانت كتب أولئك فلسفية، والفلسفة معناها طلب الحكمة، والحكمة تارةً تكون في العقليات وتارةً تكون في الروحانيات، والفلاسفة اليونان علىٰ هاتين الفرقتين منهم من عُنُوا بالعقليات؛ كأرسطو، وأفلاطون، وجماعة من كبارهم، فحققوا المسائل الفلسفية بحسب ظنهم بطلب معرفة الأشياء الطبيعية علىٰ ما هي عليه، وكذلك معرفة ما وراء الطبيعة علىٰ ما يظهر عليه البرهان العقلي عندهم، هذا ليس مُهمًّا عندنا في هذا الموضع، لكن الذي يُهمنا هنا القسم الثاني، وهم الفلاسفة الذين اعتنوا بطلب الحكمة عن طريق إصلاح النفس، وقالوا: طلب الحكمة لا يكون إلا عن طريق إصلاح النفس، وإصلاح النفس بأن تتجرد من العلائق الأرضية وتنطلق في الأجواء السماوية، وإذا كان كذلك فلابد لها من رياضة، وهذه الرياضة مُعْتَمِدَة عندهم علىٰ فصل الروح عن الجسد، فلا يُنظر إلىٰ الجسد البتة بل يُنظر إلىٰ الروح فيُخَلِّص الروح من تعلقها بالجسد، يعني: من تعلقها بالأرض.

وهؤلاء الفلاسفة يُسمون: أهل الإشراق، أو أصحاب نظرية الفيض، هؤلاء لهم كتب يمثلهم أفلوطين -وهو غير أفلاطون- الذي كان يعيش في الأسكندرية، وصار صاحب نظرية الفيض. والبحث في هذا متشعب، والمقصود أن هذه الأقوال وهذه النظريات وصلت إلىٰ

=

⊙ **قوله: «وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَىٰ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا...إلخ»:**

هذا الحديث رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح من حديث أبي هريرة.

=

المسلمين لما تُرجمت كتب اليونان في العقليات وفي الروحانيات، يعني: في إصلاح العقل وإصلاح الروح.

وهؤلاء يُعَرِّفُونَ المنطق بأنه قوانين تضبط العقل عن الخطأ، وقوانين الروح عندهم تضبط الروح عن الدَّنَس، فدخلت هذه وهذه عن طريق الكتب التي تعتني بالعقليات، فنشَأت الفلسفة وظهرت الفلاسفة -والفلاسفة غير المتكلمين- الذين اعتنَوا بفلسفة الأوائل؛ كالفارابي من المتقدمين وأشباهه، وابن سينا ونحو هؤلاء.

والجهة الثانية: الذين غلوا في إصلاح النفس وتأثروا بالنصارىٰ وبالكتب الإشراقية، وكتب نظرية الفيض التي تُرجمت عن اليونانية.

إذًا؛ صار إصلاح النفس مُخالفًا لطريقة السلف، فأهل السنة رأوا كلام الذين بدأ فيهم الزيغ، فتكلموا في الأخلاق وفي إصلاح النفس بغير ما دلت عليه النصوص، مثل جماعة ممن كانوا في عصر الإمام أحمد وقبله، كانوا يتكلمون في هذه المسائل علىٰ غير طريقة السلف، وصنفوا فيها مُصنفات معروفة وموجودة؛ ولهذا قابلهم السلف بتأصيل الأخلاق، ومخالفة أهل الضلال فيها عن طريق كُتب الزهد والرقائق، فتصنيف كتب الزهد والرقائق كان مقصودًا لمخالفة هذه الطائفة التي غلت في الأخلاق والسلوك وتركت طريق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأيضًا للرد علىٰ الذين نظروا للدنيا، وأخذوا بالعقليات، ونسوا يوم الحساب، فهؤلاء وهؤلاء رَدَّ عليهم السلف بكتب الزهد والرقائق بما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الزهد، وبما كان عليه أصحابه، وبما كان عليه الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، وهكذا، فصار أهل السنة في باب إصلاح النفس مُخالفين للجُفاة الذين لم يعتنوا بإصلاح الأخلاق، وللذين غلوا فابتدعوا طُرُقًا في إصلاح النفس والأخلاق» اهـ.

وتمامه: «**وخِيارُكم خيارُكم لنسائهم**»[١] واقتصر أبو داود علىٰ قوله: «**أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلقًا**»، وأخرجه أبو يعلىٰ عن أنس، فهذا الحديث كغيره فيه: الحث علىٰ حسن الخلق، وأنه من صفات المؤمنين، فحسن الخلق هو احتياز الفضائل واجتناب الرذائل.

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حسن الخلق كلمةٌ جامعةٌ للإحسان إلىٰ الناس وكف الأذىٰ عنهم[٢]. انتهىٰ.

وتقدم كلام الحسن في حقيقة حسن الخلق.

والخُلق بالضم: صورة الإنسان الباطنة، وبالفتح صورته الظاهرة، وقد تكاثرت الأحاديث في مدح حُسن الخلق وذم سوء الخُلق، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ مرفوعًا أنه سئل عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال: «**تَقوىٰ الله وحُسْن الخُلُق**»[٣] رواه جماعة منهم الترمذي وصححه، ولأبي داود من حديث عائشة مرفوعًا: «**إن الرَّجُلَ ليَبلُغ بحُسن خُلُقه درجةَ الصائم القائم**»[٤]. وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، واللفظ له، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٣٠).

(٢) لم أقف عليه بنصه من كلام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكنه موجود من كلام ابن القيم، انظر: «عون المعبود شرح سنن أبي داود» (١٣/ ٩١).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤)، وأحمد (٢/ ٤٤٢)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٧٧).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٧٩٨)، وأحمد (٦/ ٦٤)، وغيرهما من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٢٠).

قال: «إنكم لن تَسعوا الناسَ بأموالكم، ولكن سَعوهم ببَسْطِ الوَجْه وحُسْن الخُلُق»(١) أخرجه أبو يعلىٰ وصححه الحاكم.

وأخبر النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أن حُسنَ الخُلُق أثقَلُ ما يوضع في الميزان، وأن صاحبَه أحبُّ الناس إلىٰ الله وأقربُهم من النَّبِيِّين مجلسًا»(٢)، فخرَّج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي من حديث أبي الدرداء عن النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «ما من شيءٍ يُوضع في ميزان العبد أثقلُ مِن حُسن الخلق، وأن صاحب حُسن الخُلق ليبلغ به درجةَ صاحبِ الصَّوم والصلاة»(٣).

وأخرج ابن حبان في «صحيحه» من حديث عبد الله بن عمرو عن النبي صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «ألا أُخبِرُكم بأحبِّكم إلىٰ الله وأقربِكم مِنِّي مجلسًا يوم القيامة؟» قالوا: بلىٰ، قال: «أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا»(٤). انتهىٰ. وفي الحديث المذكور فوائد؛ منها: مدح حسن الخلق والثناء علىٰ أهله، والحث علىٰ التخلق بأحسن الأخلاق، وفيه: أن حسن الخلق من خصال الإيمان، وفيه دليلٌ علىٰ أن الأعمال داخلةٌ في مسمىٰ الإيمان، وفيه: تفاضل الناس في الإيمان والرد علىٰ من زعم أن الإيمان لا يتفاضل

(١) أخرجه أبو يعلىٰ (٦٥٥٠)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢١٢)، واللفظ له، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٦٦١).

(٢) أخرجه ابن حبان (٤٨٦)، من حديث أسامة بن شريك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٠٠٣) واللفظ له، وأبو داود (٤٧٩٩)، وأحمد (٦/ ٤٤٢)، وغيرهم من حديث أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٢٦).

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ١٨٥)، وابن حبان (٤٨٥)، وغيرهما من حديث ابن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٦٥٠).

وأن الناس فيه سواء.

⊙ **قوله:** «وَيَنْدُبُونَ إِلَىٰ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ...»: أي: يدعون ويحثون ويرغِّبون في صلة من قطعك، والندب لغةً: الدعاء، والمنتدب: المدعو، كما قيل:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانَا

واصطلاحًا: المندوب: هو ما أثيب فاعله ولم يعاقب تاركه، ويسمىٰ المندوب: سنةً، وتطوعًا، ومستحبًّا، ونفلًا، وقربةً، ومرغبًا فيه، وإحسانًا، أي: أن أهل السنة يندبون إلىٰ أن تصل من قطعك... إلخ؛ لما روىٰ الإمام أحمد في «مسنده» من حديث معاذ بن أنس الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أفضلُ الفضائل أن تَصِلَ مَن قطعك، وتُعطِيَ مَن حَرَمك، وتَصفحَ عمَّن شَتَمَك**»(١).

وخرج الحاكم من حديث عقبة بن عامر الجهني قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا عُقبة، ألا أخبِرُك بأفضل أخلاق أهل الدُّنيا والآخرة؟ تَصِل مَن قطَعَك، وتُعطي من حرَمَك، وتَعفو عمن ظلمك**»(٢)، وروي أن جبريل قال للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حين نزل: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: ١٩٩]، قال في تفسير ذلك: أن تعفو عمن ظلمك، وتصل من قطعك، وتعطي من حرمك.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٨)، والطبراني (٢٠/ ١٨٨)، من حديث معاذ بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٤٩٧).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٨)، والحاكم (٧٢٨٥)، وغيرهما من حديث عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٥٣٦).

⊙ **قوله: «وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ»** العفو هو: الصفح والتجاوز عن الذنب، أي: تصفح عمن ظلمك وتتجاوز عن ذنبه ولا تؤاخذه بما نال منك؛ فإن ذلك من خصال الإيمان، وسببٌ للرفعة والعزة كما روىٰ ابن عمر مرفوعًا: **«ابتَغوا الرِّفعةَ عند الله، تحلُم عمن جهل عليك، وتُعطي من حرمك»**(١) أخرجه ابن عدي. وعن أنس الجهني عن أبيه: أن رسول الله ﷺ قال: **«من كظم غيظًا وهو يستطيع أن ينفذه دعاه الله علىٰ رءوس الخلائق حتىٰ يخيره في أي الحور شاء»**(٢)، رواه أبو داود والترمذي(٣).

⊙ **قوله: «تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ»** أي: تصل رحمك وإن قطعك، كما في «الصحيح»: «ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قُطعت رحمه وصلها»(٤)، وروىٰ عبد الرزاق عن عمر موقوفًا: «ليس الوصل أن تصل من وصلك؛ ذلك القصاص،

---

(١) أخرجه ابن عدي (٧/ ٩٦)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وانظر: «ضعيف الجامع» (٣٢)، و«السلسلة الضعيفة» (١٥٧٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٧٧)، والترمذي (٢٠٢١)، وغيرهما من حديث معاذ بن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٥٢٢).

(٣) **قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٣٥٦):**

«فالعفو عند المقدرة من سمات أهل السنة والجماعة، لكن بشرط أن يكون العفو إصلاحًا؛ فإن تضمن العفو إساءة؛ فإنهم لا يندبون إلىٰ ذلك؛ لأن الله اشترط فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾؛ أي: كان في عفوه إصلاح، أما من كان في عفوه إساءة، أو كان سببًا للإساءة، فهنا نقول: لا تعفُ! مثل أن يعفو عن مجرم، ويكون عفوه هذا سببًا لاستمرار هذا المجرم في إجرامه؛ فترك العفو هنا أفضل، وربما يجب ترك العفو حينئذٍ» اهـ.

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٤٥)، وغيره من حديث ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

ولكن الوصل أن تصل من قطعك»(١)، وفي حديث أبي ذر: «وأوصاني أن أصل رحمي وإن أدبرت»(٢).

⊙ **قوله:** «وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ» أي: منعك ما هو لك؛ لأن مقام الإحسان إلىٰ المسيء ومقابلة إساءته بإحسان من كمال الإيمان.

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وجماع حسن الخلق مع الناس أن تصل من قطعك بالسلام والإكرام والدعاء له والاستغفار والثناء عليه والزيارة له، وتعطي من حرمك من التعليم والمنفعة والمال، وتعفو عمن ظلمك في دمٍ أو مالٍ أو عِرْض، وبعض هذا واجبٌ وبعضه مستحب(٣). انتهىٰ.

ففي هذه الأحاديث الحث علىٰ العفو والصفح، وأن ذلك من أفضل الأعمال وأشرف الأخلاق، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقال: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمْ يَغْفِرُونَ ۝٣٧﴾ [الشورىٰ: ٣٧].

وروىٰ الحاكم من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعًا: «**إنَّ الله عفوٌّ يُحبُّ العفوَ**»(٤)، وفي حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**ما نَقَصت صدقةٌ**

(١) أخرجه عبد الرزاق (١٠/ ٤٣٨)، موقوفًا علىٰ عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٧٣)، وابن حبان (٤٤٩)، وغيرهما من حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢١٦٦).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٦٥٨).

(٤) أخرجه الحاكم (٨١٥٥)، وعبد الرزاق (٧/ ٣٧٠)، من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٣٨).

من مال، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًّا، وما تواضع أحدٌ لله إلا رفعه»(١) أخرجه مسلم.

وفيها الحث على الصلة للأقارب والأرحام، وإن عاملوك بالقطيعة فلا تقطع عنهم الصلة مجازاةً لهم؛ للأدلة الحاثَّة على ذلك، والمُصرِّحة بتحريم القطيعة، وأنها من كبائر الذنوب، وأن هذا من أشرف أخلاق المؤمن.

⊙ **قوله:** «وَيَأْمُرُونَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ»: أي: طاعتهما والإحسان إليهما بما لا يخالف الشرع، وخَفْض الجناح لهما، والشفقة عليهما والتلطف بهما؛ وذلك لعظم حقهما؛ ولذلك قرن -سبحانه- حقه بحقهما، قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤].

وفي «الصحيحين» من حديث عبد الله بن مسعود أنه قال: قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «**الصَّلاةُ في أوَّل وَقتِها**»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**الجهادُ في سبيل الله**» قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**بِرُّ الوالدين**»(٢)، والبِرُّ بكسر الراء: هو التوسع في فعل الخير.

وروى الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**رَغِم أنفُ ثم رَغِم أنف ثم رغم أنف رجلٍ أدرك والديه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة**»(٣).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨٨)، والترمذي (٢٠٢٩)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٤)، ومسلم (٨٥)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤٦)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١)، وغيرهما من حديث أبي =

وعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ألا أُخبِرُكم بأكبر الكبائر؟» قال: قلنا: بلىٰ يا رسول الله، قال: «الإشراكُ بالله، وعقوقُ الوالدين»، وكان متكئًا ثم جلس فقال: «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور»[(١)]، فما زال يكررها حتىٰ قلنا: ليته سكت. رواه البخاري ومسلم.

⊙ **قوله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**وَعُقُوق الوالِدَينِ**»: قال العلقمي: يقال: عقَّ والده عقوقًا فهو عاق: إذا آذاه وعصاه وخرج عليه، وهو ضد البر بهما[(٢)]، والآيات والأحاديث في الأمر ببر الوالدين وتحريم عقوقهما كثيرةٌ جدًّا.

⊙ **قوله**: «**وَصِلَةِ الأَرْحَامِ**»: أي: الإحسان إلىٰ الأقربين من ذوي النسب والأصهار والتعطف عليهم والرفق بهم ورعاية أحوالهم، وضد ذلك قطيعة الرحم، والأرحام: جمع رحم، وهو من المرأة الفرْج.

قال الراغب: ومنه استعير الرَّحِم للقرابة لكونهم خارجين من رحم واحدة[(٣)]، وصلة الأرحام واجبةٌ وقطيعتها حرام، والأدلة من الكتاب والسنة تشهد لذلك، قال تعالىٰ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣]، وفي هذه الآية

=

هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٥١٠).

(١) أخرجه البخاري (٢٥١١)، ومسلم (٨٧)، وغيرهما من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة (عقق).

(٣) انظر: «المفردات» (ص٣٤٧).

وأشباهها أعظم وعيدٍ في قطيعة الرحم، وفيها أصرح دلالة علىٰ حرمة قطيعة الرحم، وأنها كبيرةٌ من الكبائر.

وفي «الصحيحين» من حديث جبير بن مطعم عن أبيه مرفوعًا: **«لا يَدخُل الجنة قاطعٌ»**(١) يعني: قاطع رحم. انتهىٰ. والقطيعة: الهجر والصد، والرحم: الأقارب كما تقدم.

وفي «الصحيحين» عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَن أحبَّ أن يُبسطَ له في رِزقه، وأن يُنسأ له في أثره فليَصِلْ رَحِمَه»**(٢)، يقال: وصل رحمه يصلها وصلًا كأنه بالإحسان إليهم وصل ما بينه وبينهم من علاقة القرابة.

قال في «فتح الباري»: قال القرطبي: الرحم التي توصل خاصة وعامة، فالعامة رحم الدين، وتجب مواصلتها بالتودد والتناصح والعدل والإنصاف والقيام بالحقوق الواجبة والمستحبة، وأما الرحم الخاصة فتزيد للنفقة علىٰ القريب وتفقد أحوالهم والتغافل عن زلاتهم، وتتفاوت مراتب استحقاقهم في ذلك(٣). انتهىٰ.

⊙ **قوله:** «وَحُسْنِ الْجِوَارِ»: بإيصال ضروب الإحسان إليهم بحسب الطاقة؛ كالهدية والسلام وطلاقة الوجه عند لقائه ومعاونته فيما يحتاج إليه، إلىٰ غير ذلك، وكفِّ أسباب الأذىٰ عنه علىٰ اختلاف أنواعه، وقد تكاثرت الأدلة في تعظيم حقِّ

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٣٨)، ومسلم (٢٥٥٦)، وغيرهما من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٩٦١)، ومسلم (٢٥٥٧)، وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) انظر: «فتح الباري» (١٠/ ٤١٨).

الجار، وأن حفظ الجار من كمال الإيمان ومن أعظم مكارم الأخلاق، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦].

وفي «الصحيح» من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَن كان يؤمن بالله واليوم الآخِر فليُكْرِمْ جارَه**»(١)، وفي «الصحيحين» عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**ما زال جِبريلُ يُوصيني بالجار حتىٰ ظننتُ أنه سَيُوَرِّثُه**»(٢).

وأخرج الترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**خير الأصحاب عند الله خيرُهم لصاحبه، وخيرُ الجيران عند الله خيرهم لجاره**»(٣)، وفي «صحيح البخاري» عن أبي شريح عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**والله لا يؤمن، واللهِ لا يؤمن، والله لا يؤمن**» قيل: من يا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قال: «**مَن لا يَأمَنُ جارُه بَوَائِقَهُ**»(٤)، إلىٰ غير ذلك من الأدلة الدالة علىٰ عظم حق الجار والحث علىٰ إكرامه واحتمال أذاه، وأن ذلك من صفات المؤمن، وفيه النهي عن أذىٰ الجار والدلالة علىٰ تحريمه، وأنه من كبائر الذنوب، فإن الأذىٰ بغير حقٍّ حرامٌ لكل أحد، ولكن في حق الجار أشد تحريمًا كما في

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٢)، ومسلم (٤٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٦٩)، ومسلم (٢٦٢٥)، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه الترمذي (١٩٤٤)، وأحمد (٢/ ١٦٧)، وغيرهما من حديث ابن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٧٠).

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٧٠)، ومسلم (٤٦)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

«الصحيحين» من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سأل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي الذنب أعظم؟ قال: «**أنْ تَجعلَ لله ندًّا وهو خَلَقك**»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تَقتلَ ولدَك مخافةَ أن يَطعَمَ مَعك**»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**أن تُزاني حليلةَ جارِك**»(١).

والجار له مراتب بعضها أعلىٰ من بعض، فيعطي كل بحسب حاله، كما وردت الإشارة إلىٰ ذلك في الحديث المرفوع الذي أخرجه الطبراني من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**الجيرانُ ثلاثة: جارٌ له حقٌّ واحد وهو المشرك له حق الجوار، وجارٌ له حقان وهو المسلم له حقُّ الجوار وحق الإسلام، وجارٌ له ثلاثة حقوق وهو المسلم القريب له حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم**»(٢).

وقال النووي وغيره: الجار يقع علىٰ أربعة: الساكن معك في البيت، قال الشاعر:

أجارتنا في البيت إنك طالق

ويقع علىٰ من لاصق بيتك، ويقع علىٰ أربعين دارًا من كل جانب، ويقع علىٰ الساكن في البلد، قال الله تعالىٰ: ﴿لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٠﴾ [الأحزاب: ٦٠].

⊙ **قوله**: «وَالإِحْسَانِ إِلَىٰ الْيَتَامَىٰ»: اليتيم لغةً: المنفرد، وشرعًا: من مات أبوه قبل بلوغه(٣)، والإحسان إلىٰ اليتامىٰ: رعاية أحوالهم، والتلطف بهم، وإكرامهم،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٠٧)، ومسلم (٨٦)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (٢٤٥٨)، من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٦٧٤).

(٣) انظر: «النهاية» لابن الأثير (٥/ ٢٩١).

والشفقة عليهم، وفيه فضلٌ عظيم، كما في «الصحيحين» من حديث سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أنا وكافلُ اليتيم في الجنة هكذا**» وقال بأصبعيه السبابة والوسطىٰ[(١)]، وفي حديث آخر: «**مَن مسح علىٰ رأسِ يتيمٍ ولم يمسحْ إلا لله كان له بكلِّ شَعرة مرَّت عليها يدُه حسنات، ومن أحسن إلىٰ يتيمة أو يتيمٍ عنده كنتُ أنا وهو في الجنة كهاتين**»[(٢)]، وقرن بين أصبعيه.

وروي أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا أردتَ أن يلين قلبُك فأطعم المِسكين وامسح علىٰ رأس اليتيم**»[(٣)].

⊙ **قوله**: «وَالْمَسَاكِينِ»: جمع مسكين، وهو الذي يركبه ذُلُّ الفاقة والفقر فتمسكن لذلك[(٤)]، وإذا أطلق المسكين دخل فيه الفقير وبالعكس، وإذا ذُكرا معًا فُسر كل واحدٍ منهما بتفسير، كالإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا[(٥)].

والفقير في الاصطلاح: من وجد أقل من نصف كفايته أو لم يجد شيئًا أصلًا،

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٩٨)، وغيره من حديث سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٠)، والطبراني (٨/ ٢٠٢)، وضعفه الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٥١٣).

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١١/ ٩٦)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٤٧٢)، وغيرهما من حديث أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٠).

(٤) انظر: «لسان العرب» (٥/ ٦٠).

(٥) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٧/ ١٦٧).

والمسكين من وجد نصف كفايته فأكثر، فالفقير أشد حاجة من المسكين عندنا، خلافًا لأبي حنيفة ومالك[١]، والمراد بالإحسان إلىٰ المسكين: رعاية أحوالهم وتقريبهم والتلطف بهم وإكرامهم، قال تعالىٰ: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ [النساء: ٣٦]. وروي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**السَّاعي علىٰ الأرملة والمِسكين كالمجاهد في سبيل الله**» وأحسبه قال -يشك القعنبي-: «**كالقائم لا يَفْتُر، والصائم لا يُفطر**»[٢] رواه البخاري ومسلم.

⊙ **قوله**: «وَابْنِ السَّبِيلِ»: وهو المسافر المنقطع به، والسبيل: الطريق، وسمي بذلك لملازمته السفر[٣]، كما يقال: ابن الليل، لمن يكثر الخروج في الليل، وقال بعض العلماء: المراد بابن السبيل: الضيف يمر بك فتكرمه وتحسن ضيافته، وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليَصْمُتْ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم جارَه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم ضَيفَه**»[٤]، وفيهما عن أبي شريح العدوي قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أذناي وأبصرت عيناي حين تكلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه جَائِزَتَهُ**» قالوا: وما جائزته؟ قال: «يومٌ

---

(١) انظر: «الموسوعة الفقهية الكويتية» (٣٢/ ١٩٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٣٨)، ومسلم (٢٩٨٢)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) انظر: «النهاية» لابن الأثير (٢/ ٣٣٩).

(٤) سبق تخريجه.

وليلة، والضيافة ثلاثة أيام، وما كان وراء ذلك فهو صدقةٌ عليه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»(١).

⊙ **قوله:** «وَالرِّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ»: الرِّفْق بكسر الراء وسكون الفاء، وهو: لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل، وهو ضد العنف، وقد تكاثرت الأدلة في الحث على ذلك كما أوصى -سبحانه- بذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٣٦]، وكذلك أوصى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهم كثيرًا وأمر بالإحسان إليهم، وروي أن آخر ما أوصى به عند موته: «**الصَّلاةَ وما ملكت أيمانُكم**»(٢).

فروى الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه وابن حبان عن أنس، ومالك وأحمد وابن ماجه عن أم سلمة زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والطبراني عن ابن عمر بأسانيدَ صحيحةٍ مرفوعةٍ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**الصَّلاةَ وما ملكتْ أيمانُكم**»(٣)، فجعل يرددها في مرض موته حتى ما يفيض بها لسانه، وعن أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يدخل الجنة سَيِّئُ المَلَكة**»(٤)، أخرجه الترمذي.

⊙ **قوله:** «وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ»: أي: المباهاة بالمكارم والمناقب من حسب

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٦٢٥)، وأحمد (٦/ ٢٩٠)، وغيرهما من حديث أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٢٢٨٥).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ١٢)، والترمذي (١٩٤٦)، وغيرهما من حديث أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١١٨٨).

ونسب وغير ذلك، سواء كان فيه أو في آبائه، ذكره في «المصباح»(١)، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨﴾ [لقمان: ١٨] المختال: هو المتكبر العظيم في نفسه الذي لا يقوم بحقوق الناس، والفخور: هو الذي يفخر على الناس ويعدد مناقبه تكبراً وتطاولًا علىٰ من دونه، وينظر إلىٰ غيره نظر ازدراء واحتقار، وقال تعالىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ۝٣٢﴾ [النجم: ٣٢].

وروىٰ مسلم في «صحيحه» من حديث عياض بن حمار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إنَّ اللهَ أَوحىٰ إليَّ أنْ تَواضَعُوا حتىٰ لا يَبغيَ أحدٌ علىٰ أحَدٍ، ولا يَفْخَرَ أَحدٌ علىٰ أَحَدٍ»**(٢).

قال الشيخ تقي الدين في «اقتضاء الصراط المستقيم» علىٰ هذا الحديث: فنهىٰ -سبحانه- عن نوعي الاستطالة علىٰ الخلق؛ وهو: الفخر والبغي؛ لأن المستطيل إن استطال بحق فقد افتخر، وإن كان بغير حق فقد بغىٰ(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «المدارج»:** والافتخار نوعان: محمود ومذموم، فالمذموم: إظهار مرتبته علىٰ أبناء جنسه ترفعًا عليهم، والمحمود: إظهار الأحوال السنية والمقامات الرفيعة لا علىٰ وجه الفخر بل علىٰ وجه التعظيم للنعمة والفرح بها وذكرها والتحدث بها والترغيب فيها، وذلك من المقاصد في إظهارها، كما قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«أنا سيِّد ولدِ**

---

(١) (٢/ ٤٦٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٩٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٤٢٨)، وغيرهما من حديث عياض بن حمار رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٢٥).

(٣) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» (١/ ٤٥٣).

آدم ولا فخْرَ، وأنا أوَّلُ مَن تنشقُّ عنه الأرضُ يوم القيامة ولا فَخْر، وأنا أول شافعٍ وأول مشفعٍ ولا فخر»(١)، وقال سعد: «أنا أوَّل مَن رمىٰ بسهم في سبيل الله»(٢). انتهىٰ.

⊙ **قوله**: «وَالْخُيَلاءِ»: قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨﴾ [لقمان: ١٨]، قوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ﴾ أي: تميله وتعرض عن الناس تكبرًا، وقوله: ﴿مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨﴾ أي: ذي خيلاء يفخر علىٰ الناس ولا يتواضع لهم.

قال المنذري: الخيَلاء بضم الخاء المعجمة وكسرها: الكبر والعجب، والمَخِيلة بفتح الميم وكسر المعجمة؛ من الاختيال، وهو الكبر واستحقار الناس(٣). انتهىٰ.

وعن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَنظر اللهَ إلىٰ مَن جرَّ ثَوبَه خُيَلاءَ**»(٤)، متفقٌ عليه، وفي البخاري معلقًا عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «**كُلْ ما شئت واشْرَب ما شئت ما أخطأتك اثنتان سَرفٌ ومَخيلَةٌ**»(٥)، وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**لا يَنظر اللهُ إلىٰ من جرَّ إزارَه بَطرًا**»(٦)

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٨)، وأبو داود (٤٦٧٣)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٣٩١).

(٣) انظر: «الترغيب والترهيب من الحديث الشريف» (٣/ ٦٦).

(٤) أخرجه البخاري (٥٤٤٦)، ومسلم (٢٠٨٥)، وغيرهما من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٥) «صحيح البخاري» (كتاب اللباس).

(٦) أخرجه البخاري (٥٤٥١)، ومسلم (٢٠٨٧)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

متفقٌ عليه، وعنه أن رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**بينما رجلٌ يمشي في حُلةٌ تُعجبه نفسُه، مُرجِّلٌ جُمَّتَه، يختالُ في مِشيته إذ خسف اللهُ به، فهو يتجَلْجَل إلىٰ يوم القيامة**»(١).

⊙ **قوله**: «وَالْبَغْيِ»: وهو العدوان علىٰ الناس، قال العلقمي: أصل البغي مجاوزة الحد، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ [يونس: ٢٣]، أي: أن إثم البغي وعقوبة البغي علىٰ الباغي إما عاجلًا وإما آجلًا، وفي هذه الآية: شؤم البغي وسوء مصرع الباغي، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الشورىٰ: ٤٢]، والفخر والخيلاء كلها خصالٌ مذمومةٌ وردت الأحاديث بالنهي عنها والتحذير منها، ووردت أحاديث في سرعة عقوبة الباغي.

فعن أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ما مِن ذنبٍ أجدر - أو أحق- من أن يُعجِّل اللهُ لصاحبه العقوبةَ في الدنيا مع ما يدَّخِر الله له في الآخرة من البَغي وقطيعة الرَّحِم**»(٢) رواه الترمذي والحاكم وصححاه(٣).

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٥٢)، ومسلم (٢٠٨٨)، وغيرهما من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٠٢)، والترمذي (٢٥١١)، وغيرهما من حديث أبي بكرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني في «المشكاة» (٤٩٣٢).

(٣) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٦٥٩، ٦٦٠):**

«والضابط في الفرق بين الفخر المذموم والفخر المحمود، أن من صفات الفخر المحمود:

الأول: أن يُذكر الشيء تحدثًا بنعمة الله عليه.

الثاني: أن يُذكر الشيء لأجل أن يُقتدىٰ به.

=

⊙ **قوله:** «**وَالاسْتِطَالَةِ عَلَىٰ الْخَلْقِ بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ**»: أي: الترفع عليهم واحتقارهم والوقيعة فيهم، قال العلقمي: يقال: طال عليه واستطال وتطاول إذا علاه وترفع عليه.

⊙ **قوله:** «**وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الأَخْلَاقِ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ سَفْسَافِهَا**»: أي: يأمر أهل السنة بمعالي الأخلاق؛ لأنها من أخلاق المؤمنين بل من أخص علامات الإيمان، كما تقدم حديث: «**أكملُ المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا**»(١) الحديث، أي: يأمرون بأعالي مراتب الخُلق الحسن: كالسخاء والصدق والأمانة والشجاعة والحلم ونحو

=

الثالث: أن يُذكر ذلك ليُشجع الناس علىٰ العمل.

فإذا ذكر ذلك لأجل هذه الأسباب، وباطنه منطوٍ علىٰ كراهة الفخر والاستطالة علىٰ الخلق، فهذا لا بأس به؛ كما ذكر ذلك العلامة شمس الدين ابن القيم وغيره.

أما الفخر المذموم فهو أن يذكر ذلك استطالةً علىٰ الخلق وترفُعًا عليهم، وجاء في الكِبْر أنه: «**بَطَرُ الحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ**»، والاستطالة عليهم، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦].

قال بعض أهل العلم: الفخر بالاستطالة والترفع والاختيال ليس محمودًا إلا في حالين:

الأولىٰ: الجهاد، فالاختيال في الجهاد بأن يمشي بين الصفوف مُختالًا، ويُقابل العدو باختيال، هذا مأذون به؛ كما جاء في الحديث: أن أبا دُجانة يوم أُحد أعلم بعصابة حمراء، فنظر إليه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وهو مُختال في مشيته بين الصفين، فقال: «**إنها مِشية يُبْغِضُهَا الله إلا في هذا الموضع**».

الثانية: الصدقة، فإن الفخر بالصدقة والفرح بها وإظهارها هذا ممدوح عند طائفة من أهل العلم» اهـ.

(١) سبق تخريجه.

ذلك، مشتقٌّ من علا في المكان من باب (قعد) علاء بالفتح والمد.

«وينهون عن سفسافها» أي: رديئها وحقيرها: كالبخل والجبن والكذب والغيبة والنميمة ونحو ذلك، كما روىٰ الخلال عن سهل بن سعد مرفوعًا: «إِنَّ اللهَ كَرِيمٌ يُحِبُّ الْكَرِيمَ وَمَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ ويكره سفسافها»(١) وروىٰ -أيضًا- عن جابر مرفوعًا: «إن الله يحب مكارم الأخلاق ويكره سفسافها»(٢)، وأخرج البيهقي في «شعب الإيمان» عن طلحة بن عبيد الله مرفوعًا: «إن الله جوادٌ يحب الجُود، ويحبُّ معالي الأخلاق ويكره سَفسافَها»(٣)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» عن ابن عباس.

قال في «النهاية»: السفساف: الأمر الحقير والرديء من كل شيء، وهو ضد المعالي والمكارم، وأصله: ما يطير من غبار الدقيق إذا نخل، والتراب إذا أثير، وفي الحديث: «إن الله يحبُّ معالي الأمور ويبغض سفسافها»(٤)(٥). انتهىٰ.

⊙ **قوله**: «وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ...»: أي: كل ما يقوله أهل السنة ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه مما تقدم ذكره في هذه الرسالة وغيره، فإنما فيه متبعون

---

(١) أخرجه الحاكم (١٥١)، والطبراني (٦/ ١٨١)، وغيرهما من حديث سهل بن سعد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، بلفظ: «إن اللهَ كريمٌ يحبُّ الكَرم، ويحبُّ معالي الأخلاق ويكره سَفسَافَها»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٠١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (١٠).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧/ ٤٢٦) من حديث طلحة بن عبيد الله عَزَّوَجَلَّ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٤٤).

(٤) سبق تخريجه.

(٥) انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (٢/ ٣٧٣، ٣٧٤).

للكتاب والسنة فهم متبعون لا مبتدعون، مقتدون لا مبتدون، فأقوالهم وأفعالهم واعتقاداتهم كلها مقيدة بالكتاب والسنة؛ ولذا سموا أهل الكتاب والسنة لاتباعهم للكتاب والسنة وتقيدهم بما جاء فيهما، وتحكيمهما في الكثير والقليل، ونبذهم كل ما خالفهما.

فهم يَزِنُون أقوالهم وأعمالهم واعتقادهم بالكتاب والسنة؛ إذ لا نجاة إلا باتباعهما، ولا طريق موصل إلىٰ السعادة في الدنيا والآخرة إلا بسلوك الصراط المستقيم الذي أوصانا الله بسلوكه، وهو ما كان عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، قال الله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فأهل السنة يجعلون كلام الله وكلام رسوله هو الإمام الذي يجب اتباعه والرجوع إليه عند التنازع، قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] الآية، فكما يجب إفراد الله -سبحانه- بالعبادة يجب توحيد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتحكيم، فهما توحيدان لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما، توحيد المرسِل وتوحيد متابعة الرسول، فلا يحاكم إلىٰ غيره ولا يرضىٰ بحكم غيره، فمن أعرض عن الكتاب والسنة ورغب عن تحكيمهما أو زعم حصول السعادة والفلاح بالاستغناء عنهما، والتحاكم إلىٰ غيرهما كائنًا من كان فقد نبذ الإسلام وراء ظهره، قال تعالىٰ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [النساء: ٦٥] الآية.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لا

يؤمنُ أحدُكم حتىٰ يكون هواه تبعًا لما جئت به»(١)، قال النووي: حديثٌ حسنٌ صحيح رويناه في كتاب «الحجة» بإسناد صحيح، وتقدم ذكر معنىٰ الاتباع وهو الاقتفاء والاستنان.

وذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الفرق بين الاتباع والتقليد، وذكر الأدلة في ذم التقليد، وذكر الإجماع الذي نقله ابن عبد البر أن المقلد ليس معدودًا من أهل العلم، ثم قال بعد كلام: فإن الاتباع سلوك طريق المتبَع والإتيان بمثل ما أتىٰ به، وذكر كلام ابن خويز أن التقليد معناه في الشرع: الرجوع إلىٰ قولٍ لا حجة لقائله، وذلك ممنوعٌ في الشريعة، والاتباع ما ثبت عليه حجة(٢).

وذكر في «الكوكب المنير شرح مختصر التحرير» الفرق بين التأسي والموافقة، فقال: التأسي برسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فعلك كما فعل لأجل أنه فعل، وأما التأسي في الترك: فهو أن تترك ما تركه لأجل أنه تركه، وأما التأسي في القول فهو امتثاله علىٰ الوجه الذي اقتضاه، وإلا -أي: وإن لم يكن كذلك في الكل- فهو موافقةٌ لا متابعة؛ لأن الموافقة المشاركة في الأمر، وإن لم يكن من أجله، فالموافقة أعم من التأسي؛ لأن الموافقة قد تكون من غير تأسي(٣). انتهىٰ.

⊙ **قوله:** «وَطَرِيقَتُهُم: هِيَ دِينُ الإِسْلَامِ...»: أي: سبيلهم ومذهبهم وصراطهم المستقيم الذي لا طريق إلىٰ الله -سبحانه- إلا هو ولا نجاة إلا بسلوكه، قال تعالىٰ:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) انظر: «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (٢/ ١٣٧).

(٣) انظر: «شرح الكوكب المنير» (٢/ ١٩٦).

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣] هو دين الإسلام الذي بعث الله به محمدًا وهو دينه -سبحانه- الذي لا يقبل دينًا سواه، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

◈ ◈ ◈

لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّارِ؛ إِلاَّ وَاحِدَةً، وَهِيَ: الْجَمَاعَةُ(١)، وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»(٢) - صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالإِسْلَامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ هُمْ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

الشرح

⊙ **قوله: «لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى... إلخ»**: هذا الافتراق مشهورٌ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حديث أبي هريرة ومعاوية وعمرو بن عوف وغيرهم، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«افترقت اليهودُ علىٰ إحدىٰ أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفرَّقت النصارىٰ علىٰ إحدىٰ أو اثنتين وسبعين فرقة، وتفترق أمتي علىٰ ثلاث وسبعين فرقة»**(٣) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه مختصرًا، وقال الترمذي: حسنٌ صحيح.

وعن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قام فقال: إن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قام فينا فقال: **«ألا إن مَن قبلكم مِن أهل الكتاب افترقوا علىٰ اثنتين وسبعين فرقة، وإن هذه الأمة ستفترق علىٰ ثلاث وسبعين كلُّها في النار إلا واحدة في الجنة وهي الجماعة»**(٤) رواه

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧)، والدارمي (٢/ ٢٤١)، وابن أبي عاصم (٦٥، ٦٩)، وغيرهم من حديث معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه العلامة الألباني في «الظلال»، برقم (٦٥، ٦٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

أبو داود، وفي رواية الترمذي: «**كلُّهم في النار إلا واحدة**»، قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «**مَن كان علىٰ مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**»(١)، وقال: هذا حديثٌ غريبٌ مفسرٌ لا نعرفه إلا من هذا الوجه. والأمة هي الجماعة، قال الأخفش: في اللفظ واحد وفي المعنىٰ جمع، والمراد هنا: أمة الإجابة لا الدعوة.

⊙ **قوله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ستفترق أمتي... إلخ»: أي: أمة الإجابة، وقد وقع هذا الافتراق كما أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فافترقت هذه الأمة إلىٰ ثلاث وسبعين فرقة كل فرقة تضلل الأخرىٰ، وأصول هذه الفرق قيل: خمس، وقيل: ست، وقيل: غير ذلك، وهم المعتزلة: وهم عشرون فرقة، الثانية: الشيعة وهي اثنتان وعشرون فرقة، الثالثة: الخوارج افترقوا إلىٰ سبع فرق، الرابعة: المرجئة وهي خمس فرق، والخامسة: الجبرية الذين يقولون: إنا مجبورون علىٰ أعمالنا، ويسندون الأعمال إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، السادسة: المشبهة الذين شبهوا الله بخلقه.

وهذه الأحاديث فيها إخبار منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما يقع في أمته من الافتراق في أصول الدين وفروعه، فوقع كما أخبر صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا علم من أعلام نبوته، وفيه ذم التفرق، فإن الخبر خرج مخرج الذم للاختلاف، والأدلة علىٰ ذمه من الكتاب والسنة كثيرة، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] الآية، وفيه عامةً أن المختلفين هالكون إلا فرقةً واحدة وهم أهل السنة والجماعة.

---

(١) سبق تخريجه.

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذا الحديث وما قبله يفيد أن الفُرقة والاختلاف لابد من وقوعهما في هذه الأمة وتحذير أمته من الخلاف، إلىٰ أن قال: فأفاد من ذلك شيئين: أحدهما: تحريم الاختلاف في مثل هذا، الثاني: الاعتبار بمن كان قبلنا من مشابهتهم(١). انتهىٰ.

قال الخطابي في «معالم السنن»: فيه دلالةٌ علىٰ أن هذه الفرق كلها غير خارجةٍ من الدين؛ إذ جعلهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلهم من أمته، وفيه أن المتأول لا يخرج من الملة وإن أخطأ(٢). انتهىٰ.

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد كلام: والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يخرج الثنتين والسبعين فرقة من الإسلام، بل جعلهم من أمته، ولم يقل: إنهم يخلدون في النار، فمن كفر الثنتين والسبعين فرقة كلهم فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين لهم بإحسان(٣). انتهىٰ.

وفيها الرد علىٰ من زعم أن الفرقة الناجية هم الأشعرية والماتريدية وأهل الحديث، فإن الحديث ليس فيه فرقة ناجية إلا واحدة، فهو ينافي التعدد، وفيه وصف الفرقة الناجية بأنها المتبعة للكتاب والسنة، وأنها من كان علىٰ مثل ما عليه النبي وأصحابه، وفي رواية فسر الفرقة الناجية بأنهم الجماعة، وهم المجتمعون الذين ما فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، وبهذا يعلم أنه وصف الفرقة الناجية باتباع سنته التي كان عليها هو وأصحابه وبلزوم

---

(١) انظر: «اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم» (١/ ١٤٥).

(٢) انظر: «معالم السنن» (٤/ ٢٩٥).

(٣) انظر: «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (٥/ ٢٤١).

جماعة المسلمين، فمن عدا هؤلاء فليس من الفرقة الناجية[١].

⊙ **قوله:** «بِالإِسْلامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنِ...»: أي: الاستسلام لله وحده بطاعته والانقياد لأمره، والمراد هنا: الإسلام والإيمان؛ لأنه كما تقدم إذا أطلق

---

(١) قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٦٦٣):

«قال شيخ الإسلام وغيره من أئمة أهل الإسلام: «من ظن أن هذه الفرق خالدة مخلدة في النار كافرة، فقد خالف إجماع السلف الصالح»، والسلف الصالح لم يحكموا على هذه الفرق بأنهم كُفار خارجون عن الملة.

ولهذا يغلط بعضهم ويصف الفرق فيقول: «هذه الفرق النارية». وهذه تسمية مُحدثة، صحيح «كُلُّهَا فِي النَّار» لكن كلمة النارية تحتمل أن تكون مُخلدة في النار أو غير مخلدة، فقد يكون ظاهر اللفظ أنهم مُخلدون في النار؛ ولهذا لا يصلح أن تُقال هذه الكلمة؛ بل يُقال: هذه الفرق مُتوعدة بالنار، وخارجة عن طريق أهل السنة، وضالة، ومبتدعة، وبدعهم مختلفة متفاوتة».

وقال في موضع آخر (٢/ ٦٦٤):

«وقد غلط طائفة من أهل العلم من الحنابلة وغيرهم فقالوا: الفرقة الناجية عبارة عن ثلاث فئات:

الأولى: أهل الحديث.

والثانية: الأشاعرة.

والثالثة: الماتريدية.

كما قال ذلك السفَّاريني في «لوامع الأنوار البهية» وغيره من المتأخرين، قال: «اعلم أن أهل السنة والجماعة ثلاث طوائف: أهل الحديث والأثر، والأشاعرة، والماتريدية»، وهذا قولٌ باطل وغلط كبير؛ لأن الأشاعرة والماتريدية من الفئات التي عليها الوعيد لمخالفتهم أهل السنة في منهج التلقي، وفي تقديم النصوص على العقل؛ لأنهم يقدمون العقل على النصوص، وكذلك في الصفات، وفي الإيمان، وفي القدر، وفي مسائل أُخر خالفوا أهل السنة، فليسوا من أهل السنة والجماعة أتباع السلف الصالح؛ بل هم من المبتدعة الضُلال» اهـ.

أحدهما دخل فيه الآخر، «والمحض» هو: الخالص الذي لم يخالطه غيره، «والخالص» هو السالم، يقال: خلص الشيء صفاه وميزه عن غيره، والشوائب هي الأقذار والأدناس، وأصل الشوب: الخلط.

لما ذكر المصنف رحمه الله ما تقدم من الأحاديث التي فيها ذكر افتراق هذه الأمة وفيها ذكر الفرقة الناجية، وأنهم الجماعة ومن كان علىٰ مثل ما كان عليه الرسول وأصحابه، فاتضح مما تقدم أن أهل السنة والجماعة هم المتمسكون بالإسلام المحض الخالص عن الشوائب البدعية والطرق المخالفة لما كان عليه صلى الله عليه وسلم، فهم المعتصمون بالإسلام، المتمسكون به بالأقوال والأعمال والاعتقادات الذين لم يشوبوه بالبدع والخرافات، فهؤلاء هم أهل السنة والجماعة الذين انطبقت عليهم الصفات المذكورة في الأحاديث المتقدمة.

وأما من عداهم من سائر الفرق فقد حكَّموا المعقول وخالفوا المنقول عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسطَوا علىٰ النصوص بتخطئة الروايات وتكذيبهم، فإن لم يجدوا سبيلًا إلىٰ ذلك سطوْا علىٰ معانيها بالتحريف والتأويل، وأصل فساد هذا العالَم وخرابه إنما نشأ من تقديم الرأي علىٰ الوحي، والهوىٰ علىٰ النقل، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلبٍ إلا استحكم هلاكه، ولا في أمةٍ إلا مرج أمرها واختل نظامها وانعقد سبب هلاكها، وبسبب ذلك انفتح باب الجدل واتسعت شقة الخلاف، فكل فريقٍ يرىٰ أنه علىٰ الحق وأن غيره ضال، فهم كما قال الله تعالىٰ: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ٥٣]، قال الشاعر:

وكـــلٌّ يـــدَّعي وصـــلًا لليلىٰ ... وليلىٰ لا تُقِــرُّ لهــم بــذاكا

إذا اشـــتبكت دمـــوع في خـــدود تبـــيَّن مَـــن بكـــىٰ ممـــن تبـــاكىٰ

وكل ما وقع هو بسبب إعراضهم عن الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح، فلا نجاة إلا باتباع ذلك كما قال بعضهم:

تخـالف النـاس فيهـا قـد رأوا ورووا وكلهـم يـدَّعون الفـوز بـالظفر
فخـذ بقـول يكـون الـنص ينصـره إمـا عـن الله وإمـا عـن سـيد البشـر

وقال آخر:

فخير الأمور السالفات علىٰ الهدىٰ وشـر الأمـور المحـدثات البـدائع

ولا شك أن من لم يعتصم بالكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح فمآله إلىٰ الحَيرة والاضطراب وعدم الوصول إلىٰ نتيجة، كما قال الرازي:

نهايـــة إقـــدام العقـــول عِقـــال وأكثـــر ســـعي العـــالمين ضـــلالُ
ولـم نسـتفد مـن بحثنـا طـول عمرنـا سـوىٰ أن جمعنـا فيـه قيـل وقـالوا
وأرواحنـا في وحشـة مـن جسـومنا وغايـــة دنيانـــا أذىٰ ووبـــال

وقال الشهرستاني:

لعمـري لقـد طفـت المعاهـد كلهـا وسـيرت طـرفي بـين تلـك المعـالم
فلـم أر إلا واضـعًا كـف حـائر علـىٰ ذقـن أو قارعًـا سـن نـادم

إذا عرفت ما وصل إليه هؤلاء مع ما لديهم من الذكاء والعلم؛ عرفت أن النجاة والسعادة هو بالاعتصام بالكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣].

قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقىٰ في الآخرة»، ثم قرأ هذه الآية.

وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ، وَالصَّالِحُونَ، وَمِنْهُمْ أَعْلَامُ الْهُدَى، وَمَصَابِيحُ الدُّجَى، أُولُو الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ، وَفِيهِمُ الأَبْدَالُ، وَفِيهِمْ أَئِمَّةُ الدِّينِ، الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ، وَهُمُ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ الَّتِي قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ على الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُم مَّنْ خَالَفَهُمْ، وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»(١).

فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ! وَأَلَّا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَيَهَبَ لَنَا مِنْ لَدُنْهُ رَحْمَةً؛ إِنَّهُ هُوَ الْوَهَّابُ.

وَالْحَمْدُ للهِ وَحْدَهُ، وَصَلَّى عَلَى خَيْرِ خَلْقِهِ مُحَمَّدًا(٢) وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

الشرح

⊙ **قوله:** «وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهَدَاءُ... إلخ»: الصديقون: الذين صدقوا أقوالهم بأفعالهم، المبالغون في الصدق والتصديق، قال في «المختار»: الصديق بِوَزْنِ السِّكِّيتِ: الدائم التصديق، وهو -أيضًا- الذي يصدق قوله بالعمل. انتهىٰ. وقد تقدم الكلام علىٰ هذا.

⊙ **قوله:** «أَعْلَامُ»: جمع عَلَمٍ بفتحتين: العلامة، وهو ما يُهتدىٰ به إلىٰ الطريق من جبل أو غيره، علىٰ قول الخنساء في أخيها صخر:

وإن صخرًا لتأتم الهداة به ... كأنه عَلَمٌ في رأسه نار(٣)

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) كذا في الأصل.

(٣) «ديوان الخنساء» (ص٢٧).

وسمي العالِم عَلَمًا؛ لأنه يهتدي الناس بعلمه، كما يقال: فلانٌ جبلٌ في العلم، و«الهدىٰ»: وهو الدلالة والإرشاد، والهادي: هو الدال والمرشد، فالعلماء هم الهداة؛ أي: المرشدون إلىٰ طريق الخير، هداية دلالةٍ وإرشادٍ وتوضيحٍ وبيان، وأما الهداية المذكورة في قوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] فالمراد بها: هداية التوفيق والإلهام، فالرسل وأتباعهم هم الأدلة حقًّا، والله هو الموفق الملهم الخالق للهدىٰ في القلوب.

⊙ **قوله:** «مَصَابِيحُ»: جمع مصباح وهو السراج، «والدجىٰ»: الظلمة، أي: يستضاء بهم في ظلمات الجهل، كما يُجلىٰ ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدىٰ به فيه، أي: من أهل السنة والجماعة أئمة الإسلام وهداة الأنام والدالون للأمة علىٰ نهج الرسول والكاشفون لهم عن معاني الكتاب والسنة، والمستضاء بهم في ظلمات الجهل وسواد الشرك والخرافات والوثنية، والذابون عن الشريعة المدافعون عنها تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الظالمين، الذين بهم قام الكتاب وبه قاموا.

وعن أنس مرفوعًا: اتبعوا العلماء فإنهم سرج الدنيا ومصابيح الآخرة، أخرجه في «مسند الفردوس» بسندٍ ضعيف، وفي «مسند أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ» عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن مثلَ العُلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء يُهتدىٰ بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست النجومُ أوشك أن تضل الهداة**»(١).

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٥٧)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٩٧٣).

⊙ **قوله**: «أُولُو الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ»: أي: أصحاب المناقب، وهي جمع مَنْقَبَة ضد المَثْلَبة، قال في «القاموس»(١): المنقبة: المفخرة، والمأثورة، أي: المذكورة، ومنه: أَثَرَ الحديث، أي: نقله عن غيره، «والفضائل» جمع فضيلة، وهي ضد النقيصة، والفضل: الخير، «المذكورة»، أي: الذائعة الصيت المترددة على الألسن، والذكر هو الصِّيت والشرف، قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وهذا الذِّكر عمرٌ ثانٍ وحياةٌ أخرىٰ، وذلك أحق ما تنافس به المتنافسون ورغب به الراغبون، ومن تأمل أحوال أئمة الإسلام كيف هم تحت التراب؟ وهم في العالمين كأنهم أحياء بينهم لم يفقدوا منهم إلا صورهم، وإلا فذكرهم والثناء عليهم غير منقطع، علم أن هذا الحياة حقًّا كما قال المتنبي:

ذكر الفتىٰ عمره الثاني وحاجته … ما فاته وفضول العيش إشغال(٢)

وقال ابن زيد:

وإنما المرء حديث بعده … فكن حديثًا حسنًا لمن وعىٰ(٣)

وقال آخر:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله … فأجسامهم قبل القبور قبور
وأرواحهم في وحشة من جسومهم … وليس لهم حتىٰ النشور نشور(٤)

---

(١) (١/ ١٣٩).

(٢) انظر: «شرح ديوان المتنبي» للواحدي (ص٣٥٢).

(٣) البيت من «مقصورة ابن دريد في الحكم والأخلاق الكريمة».

(٤) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٢٤٥).

وقال آخر:

أخـو العلـم حـيٌّ خالـدٌ بعـد موتـه وأوصـاله تحـت التـراب رَمـيمُ
وذو الجهل ميْتٌ وهو يمشي على الثرىٰ يُعـدُّ مـن الأحيـاء وهْـو عـديمُ[(١)]

وفي حديث علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «مات خُزَّان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة»[(٢)].

⊙ **قوله:** «وَفِيهِمُ الأَبْدَالُ»: أي: في أهل السنة والجماعة الأبدال، قال في «النهاية»: هم الأولياء والعبَّاد، سموا بذلك؛ لأنهم كلما مات منهم واحد أبدل بآخر[(٣)]. انتهىٰ.

قال في «الآداب الشرعية»: ونص أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ علىٰ أن لله أبدالًا في الأرض، قيل: من هم؟ قال: إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أعرف لله أبدالًا. وقال - أيضًا- عنهم: إن لم يكونوا هؤلاء فلا أدري من الناس[(٤)]. انتهىٰ.

وقد ورد في الأبدال عدة أحاديث وكلها متكلمٌ فيها، وصنف السيوطي مصنفًا في الأبدال وذكر الأحاديث الواردة فيهم[(٥)].

---

(١) انظر: «التنوير شرح الجامع الصغير» للصنعاني (٧/ ١٢٢).

(٢) انظر: «تاريخ دمشق» لابن عساكر (١٤/ ١٨).

(٣) انظر: «النهاية في غريب الحديث والأثر» (١/ ١٠٧).

(٤) انظر: «الآداب الشرعية والمنح المرعية» (١/ ٢١١).

(٥) وهي رسالة بعنوان: «الخبر الدال علىٰ وجود القطب والأوتاد والنجباء والأبدال»، وقد حشاها السيوطي بالأحاديث الضعيفة والموصوعة، وذكر ابن الجوزي أحاديث الأبدال =

وقال الشيخ تقي الدين -رحمه الله تعالىٰ-: كل حديثٍ يروىٰ عن النبي صَلَّالِلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في عدة الأولياء والأبدال والنقباء والنجباء والأوتاد والأقطاب ونحو ذلك فليس في ذلك شيءٌ صحيحٌ عن النبي صَلَّالِلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولم ينطق السلف بشيءٍ من هذه الألفاظ إلا بلفظ الأبدال، روي فيهم حديث أنهم أربعون وأنهم في الشام، وهو في «المسند» من حديث علي[1]، وهو حديثٌ منقطعٌ ليس بثابت[2]. انتهىٰ.

إذا عرفت ما تقدم فما يزعمه المخرفون من أن مدد الخلائق ونصرهم ورزقهم يكون بواسطة هؤلاء لا شك في بطلانه، وأنه ليس من دين المسلمين، بل من دين المشركين، وقد ذكر الشيخ الإجماع علىٰ أن من جعل بينه وبين الله واسطةً يدعوه ويتوكل عليه أنه كافر، قال الله -تعالىٰ- حاكيًا عن المشركين أنهم يقولون: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، وقال عنهم: إنهم يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

قال ابن القيم في «النونية»:

والشـرك فهْـو توسـلٌ مقصـودُه الـزْ   زُلفـىٰ إلـىٰ الـرَّبِّ العظـيم الشـان

وقال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد كلام: والذين تكلموا باسم البدل أفردوه

=

وحكم بوضعها، وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن أحاديث الأبدال والأقطاب والأغوات والنقباء والنجباء والأوتاد كلها باطلة عن رسول الله صَلَّالِلَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ». «المنار المنيف» (ص١٣٦).

(١) أخرجه أحمد (١/ ١١٢)، من حديث علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٢٦٦).

(٢) انظر: «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (١/ ١٧، ١٨).

بمعاني، منها أنهم كلما مات منهم رجل أُبدل بآخر، ومنها أنهم أبدلوا السيئات بأخلاقهم وأعمالهم وعقائدهم بالحسنات، وهذه الصفات كلها لا تخص بأربعين ولا بأقل ولا أكثر ولا تحصر بأهل بقعةٍ من الأرض، إلىٰ أن قال: فالغرض أن هذه الأسماء تارةً تُفسر بمعانٍ باطلة بالكتاب والسنة وإجماع السلف، مثل تفسير بعضهم بأن الغوث هو: الذي يغيث الله به أهل الأرض من رزقهم ونصرهم، فإن هذا نظير ما تقوله النصارىٰ في الباب، وهو معدوم العين والأثر وتشبيهٌ بحال المنتظر، وكذلك من فسر الأربعين الأبدال بأن الناس إنما ينصرون ويرزقون بهم فذلك باطل، بل النصر والرزق يحصل بأسبابٍ من أوكدها دعاء المسلمين والمؤمنين وصلاتهم وإخلاصهم، ولا يتقيد ذلك لا بأربعين ولا بأقل، وقد يكون للنصر والرزق أسبابٌ أخر. انتهىٰ بتلخيص(١).

⊙ **قوله:** «وَفِيهِم أَئِمَّةُ الدِّينِ الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَىٰ هِدَايَتِهِم ودِرَايتِهِمْ»: أي: في أهل السنة والجماعة أئمة الدين، أي: المقتدىٰ بهم فيه كالإمام أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد وسفيان الثوري وغيرهم، كالشيخ تقي الدين وابن القيم، وكإمام هذه الدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وغيرهم من أئمة الهدىٰ الذين اشتهرت إمامتهم، وأجمع المسلمون علىٰ هدايتهم ودرايتهم، فلا يقبل فيهم قول جارحٍ ولا طعن طاعن؛ إذ من ظهرت عدالته واشتهرت إمامته فلا يلتفت فيه إلىٰ قول قائل.

وقد روي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه قال: «**يَحمل هذا العلمَ مِن كل خلفٍ**

(١) انظر: «مجموعة الرسائل والمسائل» (١/ ٥٠).

عدُولُه ينفون عنه تحريفَ الغالين، وانتحالَ المُبطِلين، وتأويلَ الجاهلين»(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا يتضمن تعديله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحملة العلم الذي بعث به؛ فلهذا اشتهر عند الأمة عدالة نقلته اشتهارًا لا يقبل شكًّا ولا امتراءًا، ولا ريب أن من عدَّله الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يسمع فيه جرح جارح؛ فلهذا لا يقبل قدح بعضهم في بعض، وهذا بخلاف من اشتهر عند الأمة جرحه والقدح فيه كأئمة البدع، ومن جرىٰ مجراهم من المتهمين، فإنهم ليسوا عند الأمة من حملة العلم. انتهىٰ بتصرف(٢).

وقد اشتهر عن هؤلاء الأئمة النهي عن التقليد والحث علىٰ اتباع الكتاب والسنة، كما روي عن الإمام أحمد أنه قال: عجبت لقومٍ عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلىٰ رأي سفيان، والله تعالىٰ يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣]، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا ردَّ قوله أو بعض قوله أن يقع في قلبه شيءٌ من الزيغ فيهلك(٣).

وقال مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كلٌّ يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر(٤).

---

(١) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (٥٩٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «المشكاة» (٢٤٨).

(٢) انظر: «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» (١/ ١٦٣).

(٣) انظر: «فتح المجيد» (ص٣٨٥).

(٤) انظر: «منهاج السنة» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٥٠٣).

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: أجمع العلماء علىٰ أن من استبانت له سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يكن له أن يدعها لقول أحد(١).

إلىٰ غير ذلك من كلام الأئمة في الحث علىٰ الاتباع وذم التقليد.

قال الشيخ تقي الدين رَحِمَهُ اللَّهُ: قد اتفق الأئمة يقينًا علىٰ وجوب اتباع الرسول، وعلىٰ أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإذا جَدَّ لواحد منهم قول قد جاء الحديث الصحيح بخلافه، فلابد له من عذر في تركه، وجمع الأعذار ثلاثة أصناف: أحدها: عدم اعتقاد أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاله، والثاني: عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول، الثالث: أن ذلك الحكم منسوخ. انتهىٰ من كلام «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»(٢).

⊙ **قوله:** «الْمَنْصُورَةُ»: أي: بالحجة والبيان أو بالسيف والسنان، فعلىٰ الأول هم أهل العلم، وبه قال البخاري وغيره، وقال ابن القيم: هم أهل العلم والمعرفة بما بعث الله به رسوله(٣).

⊙ **قوله:** «الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...» الحديث، رواه مسلم من حديث جابر بن سلمة، وجابر بن عبد الله، وثوبان، وأخرجاه في «الصحيحين» من حديث المغيرة بن شعبة، ومعاوية بن أبي سفيان.

---

(١) انظر: «الرسالة» (ص٤٢٥).

(٢) انظر: «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» (١/ ٩).

(٣) انظر: «إعلام الموقعين عن رب العالمين» (٢/ ١٩٠).

⊙ **قوله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ظَاهِرِينَ**»: أي: غالبين، والظهور: الغلبة.

⊙ **قوله** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعَةُ**»: أي: ساعة موتهم بهبوب الريح تقبض روح كل مؤمن، وهي الساعة في حق المؤمن، وإلا فالساعة لا تقوم إلا علىٰ شرار الخلق، وقد تقدم ذلك، وفي هذا الحديث فوائد منها: أن فيه عَلَمًا من أعلام نبوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومعجزةً ظاهرةً للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإن هذا الوصف ما زال -بحمد الله- من زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ الآن ولا يزال، وفيه دليلٌ لكون الإجماع حجة، وقال القرطبي: وهو أفصح ما استدل به من الحديث، أما حديث: «**لا تَجتمعُ أمَّتي علىٰ ضلالة**»(١) فضعيف.

وفيه الآية العظيمة أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، وفيها البشارة أن الحق لا يزول بالكلية، قاله الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتاب «التوحيد»، واحتج به أحمد علىٰ أن الاجتهاد لا ينقطع، وأن هذه الطائفة موجودة، واستدل به -أيضًا- علىٰ أن الأمة لا تجتمع علىٰ ضلالة ولا ترتد جميعها، بل لابد أن يُبقي الله من المؤمنين من هو ظاهرٌ إلىٰ قيام الساعة، فإذا مات كل مؤمنٍ فقد جاءت الساعة(٢).

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) **قال العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ -حفظه الله- في «شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ٦٧٤، ٦٧٥)**:

«والمنصورة والناجية طائفة واحدة بإجماع السلف الصالح فمن بعدهم من أهل السنة والجماعة بلا خلاف بينهم في ذلك، وإنما هذه عبارات متنوعة، قيل لهم: فرقة ناجية؛ باعتبار أنهم في الآخرة نجوا من النار، وقيل لهم: طائفة منصورة؛ باعتبار الدنيا والآخرة في أنهم نُصِرُوا =

⊙ **قوله: «فَنَسْأَلُ اللهَ العَظِيمَ...»**: أي: نطلبه ونفرده بالمسألة سبحانه، قال تعالىٰ: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢]، وفي حديث ابن عباس: «**إذا سألتَ فاسأل اللهَ، وإذا استعنتَ فاستعن بالله**»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «من لم يسأل الله يغضب عليه»(٢). رواه الترمذي، وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «**سلُوا اللهَ من فضله، فإن**

=

في الدنيا وسينصرون في الآخرة، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر:٥١] فهم منصورون في الحياة الدنيا، ومنصورون يوم يقوم الأشهاد، وهم يوم القيامة ناجون.

فهذه أسماء اختلفت لكن المسمىٰ واحد، مثل أسماء السيف، ومثل أسماء المطر، وأسماء الأسد، تختلف الأسماء باعتبار اختلاف الصفات.

فيُقال: سيف صارم أبيض، مُصْلِت، وهو شيء واحد من جهة المُسمىٰ، لكن اختلفت الصفة التي عُنِيَتْ بتغير الاسم.

كذلك الأسد أسماؤه مختلفة والمسمىٰ واحد، وهو الحيوان المعروف.

كذلك المطر إذا قلت: مطر، أو غيث، أو طل، أو نحو ذلك، كل هذه الأسماء يُقصد بها ما ينزل من السماء، لكن اختلفت باختلاف صفته.

كذلك اسم الفرقة الناجية، الطائفة المنصورة، أهل السنة والجماعة، أهل الحديث، أهل الأثر، أهل العلم، كلهم شيء واحد يُراد به من كان مُتبعًا في الاعتقاد ما كان عليه صحابة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخرج في صغير الأمر وكبيره عن قول المُخالفين للجماعة الأولىٰ» اهـ.

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩)، وغيرهما من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٧٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٥٨)، وغيرهما من حديث أبي

=

الله يحبُّ أن يُسأل»[١] رواه الترمذي، وقد وردت أحاديثُ كثيرةٌ في النهي عن مسألة المخلوقين، وقد بايع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جماعة من أصحابه علىٰ أن لا يسألوا الناس شيئًا، منهم أبو بكر وأبو ذر وثوبان، وكان أحدهم يسقط سوطه فلا يسأل أحدًا أن يناوله إياه.

⊙ **قوله**: «**يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ**»: أي: من الفرقة الناجية المتمسكة بما كان عليه الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، وهي الطائفة المنصورة إلىٰ قيام الساعة.

⊙ **قوله**: «**وَأَلَّا يُزِيغَ قُلُوبَنَا...**»: أي: يميلها عن الحق والهدىٰ بعد إذ هدانا، أي: وفقنا وألهمنا، فإنه -سبحانه- الهادي «**مَن يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هادِيَ له**»[٢]، وقد ورد أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان أكثر يمينه: «**لا ومُقلِّبِ القُلوب**»[٣]، وكان صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في دعائه: «**يا مقلبَ القلوبِ ثبِّت قلبي علىٰ دينك**»، قيل: يا نبي الله، آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا، فقال: «**نعم، إن القلوبَ بين أصبعين من أصابع الرَّحمن يُقلِّبُها كيف شاء**»[٤] خرَّجه أحمد والترمذي

=

هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٨٦).

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٧١)، وأحمد (٢/ ٣٠٦)، وغيرهما من حديث ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦١١).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (٦٢٤٣)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

(٤) أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وأحمد (٣/ ١١٢)، وغيرهما من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٨٧).

من حديث أنس، وورد (أن قلب ابن آدم كريشةٍ ملقاةٍ في فلاةٍ تفيئها الرياح)[١]؛ ولذا قيل: إن القلب سمي قلبًا لتقلُّبه، كما قال بعضهم:

مــا سُــمِّيَ القلــبُ إلا مِــن تَقلُّبِــهِ فاحْذَرْ على القَلْبِ مِن قَلبٍ وتَحويلِ

وقال آخر:

ومــا سُــمِّيَ الإنســانُ إلا لِنَسْــيِهِ ومــا القَلْــبُ إلَّا أَنَّــه يَتقَلَّــبُ

⊙ **قوله:** «وَيَهَبَ لَنَا»: أي: يعطينا.

⊙ **قوله:** «مِنْ لَدُنْهُ»: أي: من عنده.

⊙ **قوله:** «الوَهَّابُ»: أي: كثير الهبات والعطايا، فلا خير إلا خيره، ولا إله غيره.

قد تم ما أردنا في هذه العجالة..

والحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين

وكان الفراغ من تعليقه على يد جامعه الفقير إلى الله:

عبد العزيز بن ناصر بن عبد الله بن عبد العزيز الرشيد

سنة (١٣٧٧) في أول من ذي الحجة

والعصمة لله ولكتابه، والعاقل من اغتفر قليل خطأ المرء في كثير صوابه.

◈ ◈ ◈

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٤١٩) (١٩٧٧٢)، وابن ماجه (٨٨)، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٢٠٧) (٧٣٨) من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني، انظر: «الظلال» (٢٢٧ و٢٢٨)، و«المشكاة» (١٠٣).

الفهرس

الفهرس

المقدمة ٣

مقدمة عن «الواسطية» ٨

تراجم أصحاب الفضيلة العلماء ١٩

ترجمة المصنف شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله ٢١

ترجمة العلامة عبد العزيز الناصر الرَّشيد رحمه الله ٢٨

ترجمة العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله (١٣٤٧-١٤٢١هـ) ٣٣

ترجمة العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله ٤١

مقدمات أصحاب الفضيلة العلماء ٤٥

مقدمة العلامة عبد العزيز الناصر الرشيد رحمه الله ٤٧

مقدمة العلامة ابن عثيمين رحمه الله ٤٩

مقدمة العلامة صالح بن عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله ٦٤

متن العقيدة الواسطية ٦٩

مقدمة المصنف ١٠٣

القواعد الأساسية في الإيمان بأسماء الله وصفاته ١٣٨

الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه ١٨٥
الإيمان بما وصف به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ربه ٣٩٢
وسطية أهل السنة والجماعة بين فرق الأمة ٤٥٧
يدخل في الإيمان بالله: أنه سبحانه فوق سمواته عليٌّ علىٰ عرشه ٤٨٣
يدخل في الإيمان بالله: أنه قريب من خلقه.............................. ٥٠١
الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق.............................. ٥٠٩
الإيمان بأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة.............................. ٥٢٦
الإيمان بكل ما أخبر به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما يكون بعد الموت ٥٣٥
القيامة الكبرىٰ وأهوالها ٥٥٣
الإيمان بالقدر خيره وشره.................................... ٥٩٧
الدين والإيمان قول وعمل ٦٣٧
خلاصة مذهب أهل السنة في أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ٦٥٩
التصديق بكرامات الأولياء ٧٣٨
اتباع آثار رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباع سبيل السابقين.................... ٧٥٢
من خصال أهل السنة الحميدة.................................... ٧٨٦
الفهرس ٨٧١